محمد يوسف الجندى



مسيرة حياتى

حتى ١٩٦٤

دار الثقافة الجديدة

محمد يوسف الجندى

مسيرة حياتي

حتى ١٩٦٤

دار الثقافة الجديدة

١٠

مسيرة حياتي

مسيرة حياتى

محمد يوسف الجندي

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

الناشر:

دار الثقافة الجديدة

٣٢ شارع صبري ابو علم - باب اللوق

ت وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠



المحتويات



مقدمة

على مدى سنوات، والكثيرون يطلبون منى أن أكتب مذكراتى، وقد ترددت كثيرا قبل أن أبدأ، بسبب انشغالات الحياة العملية، أما الآن وبعد حياة استمرت أكثر من سبعين عاما، فقد قررت أن أبدأ فى الكتابة. ورغم أن ترددى فى البداية كان يرجع أيضا إلى الحرج الذى كنت أشعر به فى الكتابة عن حياتى الشخصية، فعندما بدأت فى الكتابة وجدت أننى لن أكتب حكايات شخصية بقدر ما ستكون كتابتى عرضا لتاريخ الحركة والتيار والفكر الذى انتميت إليه والذى وهبت له كل حياتى. ولهذا فإننى أوجه ما أكتبه فى المقام الأول إلى الجيل الجديد الذى أقدم إليه تجربة وحياة قد يجد فيهما ما يستفيد منه، يتجنب السلبيات والأخطاء، ويضيف إلى كل ما هو إيجابى ويطوره لكى يحقق ما هو أفضل فى ظروف أكثر تقدما وتعقيدا.

وهذه الحياة التى أقدم مسيرتها، والتى عشتها بشكل كامل، كان يوجهها إيمان وانتماء لأفكار وأهداف لم أحد عنها، رغم أنها فى الصغر أخذت شكل الحماس والاندفاع، ومع تقدمى فى السن كانت تزداد نضوجا فى معترك التجارب وفى خضم الحياة العملية.

ورغم أن أفكارى قد تطورت عن شكلها وطريقة التعبير عنها فى مقتبل

شبابى. إلا أنها ظلت فى مضمونها لم تتغير، من حيث الإيمان بالعدالة الاجتماعية والانحياز للجماهير الكادحة المنتجة. ومازلت حتى الآن أقدس العمل المنتج، وأرفض وأعارض الظلم الاجتماعى. ومازلت أومن بالعمل لصالح غالبية الناس وإن تعارضت مع المصالح الأنانية للأقلية المترفة. وأرفض الحياة على حساب الغير باستغلال عملهم وتدمير حياتهم. وأقدس الحرية الفردية التى لا تتعارض مع الحرية الاجتماعية ولا تقوم على حسابها. ولا أفرق بين البشر، بين رجل وامرأة، وأبيض وأسود وأصفر، بين أفريقى وآسيوى وأوروبى وأمريكى، وإن كنت أنتمى إلى العالم الملون.



(١)

النشـــأة

ولدت

فى مدينة زفتى على حدود محافظة الغربية (مديرية الغربية كما كانت تسمى وقتها) مع الدقهلية. ويفصلها كوبرى عن مدينة ميت غمر التى تنتمى إلى الدقهلية. هذا الكوبرى يقطع على الأقدام فى دقائق. لهذا كان سكان زفتى وميت غمر على اتصال وثيق، وكأنهم مدينة واحدة والنيل يفصل بينهما. ويمكن لسكان زفتى أن يصلوا إلى ميت غمر إما للتنزه على الكوبرى أو «بالمعدية»، أو فى زورق. ولهذا اعتاد الناس أن يربطوا زفتى بميت غمر وميت غمر بزفتى. ويتندر سكان المدينتين ويقولون: «ما أزفت من زفتى إلا ميت غمر».

وأنا لا أذكر شيئا عن حياتى الأولى فى زفتى فقد انتقلت الأسرة إلى القاهرة بعد ولادتى بقليل. ولكننا كثيرا ما كنا نزور زفتى بعد ذلك فى طفولتى. وأذكر منزلنا الذى كان يقع فى ميدان فى مواجهة محطة السكة الحديد. وكان المنزل يحيط به سور عالٍ ويتكون من منزلين أحدهما كانت تقيم به جدتى (أم أبى)، وفى الثانى يقيم عمى عبد العزيز مع زوجته وأولاده. وكان طبيبا له ولدان وبنت أما الولد الأكبر «ممدوح» فقد أصبح طبيبا وارتبط بحركة اليسار. وتوفى صغيرا مثل أبيه، وهو فى الأربعينيات من عمره مخلفا زوجة وطفلاً. وقد كان إنسانا ذا خلق عظيم، يخدم الناس ويساعدهم فأحبه الجميع.

أما الولد الأصغر «أحمد» فقد أصبح مهندسا. أما الابنة فهى الآن جدة. وقد تزوجت من مهندس ضابط توفى وترك لها ابنتين تزوجتا أيضا. وهو ابن عم الرئيس حسنى مبارك. ويدعى عادل مبارك، وأمضى هو وزوجته فترة تدريب فى تشيكوسلوفاكيا، وقد أعجبا كثيرا بهذا البلد.

وكان المبنى الثالث يستخدم مكتبا لعمى عوض. وكانت أسرتنا معروفة فى زفتى، وميت غمر، بسبب الدور الذى لعبه والدى «يوسف الجندى» فى زفتى أثناء ثورة ١٩١٩. وكان وقتها

محاميا شابا فى السادسة والعشرين من عمره، فقد تزعم الثورة فى زفتى. وفى أثناء الثورة أعلنت اللجنة استقلال زفتى وأخذت تمارس مهام الحكم والإدارة.

ولدت فى زفتى فى ١٢ يناير ١٩٢٦ وبعد بضعة شهور انتقلت أسرتنا إلى القاهرة. وكان والدى محاميا رشح نفسه لمجلس النواب فى أول انتخابات عام ١٩٢٤ عن حزب الوفد وانتخب نائبا. واقتضى عمله بعد ذلك الانتقال إلى القاهرة.

وسكنا فى حى روض الفرج، ولا أذكر هذه الفترة، ولكننى أتذكر شقتنا التى انتقلنا إليها بعد ذلك فى حدائق القبة وأذكر المظاهرات ضد حكومة صدقى عام ١٩٣٠ التي كنت أرى جانبا منها من شرفة المنزل، والروايات العديدة عن الاعتقالات فى الشوارع ووسائل النقل المختلفة. وكنت وقتها فى الرابعة من عمرى. ولكن هذه الأحداث تركت فىّ أثرا عميقا. وكنت أتعاطف مع هذه المظاهرات ومع أولئك المعتقلين.

ومازلت أذكر تلك الأحداث مثلها مثل الأحداث الأخرى الشخصية والعائلية.

وكنا ستة من الأبناء. أكبرنا أحمد الذى يكبرنى بعامين بالتمام. وولد فى يناير أيضا ١٤ يناير ١٩٢٤ ولهذا كنا نحتفل بعيد ميلادنا فى يوم واحد هو ١٣ يناير، وبعدى تأتى بنتان هما عايدة وسعاد ثم ولدان هما حسن الذى ولد عام ١٩٣٠ ثم صلاح الذى ولد فى أواخر عام ١٩٣١. وكنت أنا وأحمد الوحيدين اللذين ولدا فى زفتى. وأحمد أمضى سنتين وبضعة شهور فى زفتى ولهذا يذكر بعض أحداث طفولته هناك. ومنها يوم وفاة جدى (والد أبى) أما باقى الأخوات والإخوة فقد ولدوا جميعا بالقاهرة. وجاءوا تباعا فجاءت أختى عايدة بعدى بسنة وشهر. وتروى خالاتى أن ذلك سبب انقطاع رضاعتى الطبيعية التى لم تدم فترة كافية. ولهذا نشأت ضعيف البنية. ومرضت فى طفولتى بالالتهاب الرئوى والنزلة المعوية وارتفعت حرارتى ارتفاعا كبيرا وفقدوا الأمل فى بقائى على قيد الحياة، ويروون أن طبيبا اسمه الدكتور سيد شكري جاء ووضعنى فى الماء والثلج فعادت إلى الحياة وشفيت من مرضى. هذه روايات أسمعها ولكننى لا أذكر منها شيئا.

وتنحدر أمى من قرية تتبع مركز زفتى اسمها «الدغايدة» واسم والدتى زكية محمد زهدى. وكان أبوها طبيبا اسمه محمد زهدى من الحزب الوطنى الذى كان يرأسه مصطفى كامل. وقد توفى فى سن مبكرة قبل مولدى. فكنت أسمع عنه كثيرا ولكنى لم أره.

وكانت أمى تصغر أبى بحوالى سبع سنوات تزوجا فى زفتى وعاشا هناك فترة انتقلا بعدها إلى القاهرة. وقد ولدتنا أمنا نحن الستة فى فترة سبع سنوات. وكان هناك ابن سابع ولكنه لم تكتب له الحياة. كانت مرهقة من كثرة الحمل والولادة وقد أثر ذلك على صحتها، خصوصا أنها لم تكن تقوم بأى عمل آخر غير البقاء بالمنزل والإشراف على تربية أولادها ومراعاة احتياجات زوجها وكانت ربة بيت تقليدية لا تخرج إلا برفقة زوجها أو أحد أشقائها.

وكانت أسرتنا «محافظة» من ناحية العلاقات الاجتماعية مثل أغلب عائلات الطبقة الوسطى فى ذلك الوقت. فلم يكن النساء يختلطن بالرجال. وكان للأزواج حياتهم الخاصة المستقلة عن حياة زوجاتهم. وهناك مجتمع للرجال ومجتمع آخر للحريم.

وكانت علاقتنا نحن الأولاد أقوى بأمنا من علاقتنا بأبينا الذى كان دائما فى الخارج مشغولا بالعمل أو مع أصدقائه. وكان يقضى سهرته فى نادى «رمسيس» وكانت له حياته المستقلة تماما ويعود إلى المنزل فى وقت متأخر من الليل. وكنا لا نجتمع معا إلا على مائدة الغداء. وكنا نحترمه احتراما شديدا ونخشاه، وعندما نراه نقبل يده. ولكننا كنا نعيش حياتنا الحرة مع أمنا نلعب ونمارس شقاوتنا أمامها.

وقد لعبت خالاتى أيضا دورا فى تربيتنا وكن قريبات الصلة بنا فى طفولتنا. وكن يساعدن أمى خصوصا فى الفترة التى سبقت زواجهن.

وهناك بعض الأحداث الصغيرة التى مازالت تترك فى ذهنى انطباعا لم أنسه، من ذلك اليوم الأول لدخولى المدرسة وهى روضة الأطفال بقصر الدوبارة. ولم أكن قد أتممت الخامسة بعد. وأذكر أننى لم أحب الدراسة هناك. وكنت منطويا رغم أننى كنت فى المنزل كما تروى خالاتى شديد «الشقاوة». ويرددن الكثير من النوادر عن شقاوتى. وكنت فى المنزل أشعر بأننى بلا قيود. أما فى المدرسة فقد ووجهت بمجتمع جديد لم أحبه. ولا أعرف السبب. وقد يرجع ذلك إلى بعض تصرفات المدرسات أو زملائى وزميلاتى فى الدراسة. وأذكر مثلا أن إحدى المدرسات كانت تضربنى وأن بعض الأطفال يسخرون منى لهدوئى الشديد وعدم مشاركتهم فى اللعب. ولم يكن ذلك حال أخى «أحمد» الذى كان يكبرنى بعامين وكان يدرس فى نفس المدرسة . وأذكر فى أحد الأيام أننى كنت أجرى فى المدرسة للحاق بشيء فوقعت وكسرت ذراعى، فانقطعت عن المدرسة فترة. وعندما شفيت لم أحب العودة إليها فنقلت إلى مدرسة «أولية» فى الزيتون أحببتها. وكان لى فيها أصدقاء وتفوقت فى دراستى بحيث استطعت الانتقال سريعا إلى المدرسة الابتدائية.

وكان أخى «أحمد» هو أقرب الإخوة إلى لتقارب السن. وكنا نلعب معا ونتشاجر . وكان أبى شديدا مع أخى لينا عطوفا معى. وكان يحمل أخى مسئوليات أكبر باعتباره أكبر الإخوة. وكان يشفق علىّ من تحمل المسئوليات. وقد يكون ذلك لضعف صحتى ولمرضى فى طفولتى. ومازالت تعلق فى ذهنى مرة كان أبى يعنف فيها أحمد بشدة لأنه تأخر خارج المنزل وهدده بأن يلسعه بملعقة ساخنة. واستيقظت من نومى على هذا التهديد.

وهناك حادثة صغيرة أيضا فى طفولتنا الأولى مازلت أذكرها وهو شجار بينى وبين أخى على «غويشة» من الزجاج خطفتها منه وضربته بها فى وجهه فتركت أثرا على وجهه ظل موجودا طوال حياته.

وكان أحمد أكثر حرية منى، فيرسلونه إلى السوق لشراء احتياجات المنزل فعرف أشياء لم أعرفها. أما أنا فلم أكن أتحمل تلك المسئوليات وقد أثر ذلك على تكوينى فى طفولتى الأولى.

ولكن هناك بعض الأحداث الصغيرة مازلت أذكرها. ومنها أننى تعرفت بطفلة صغيرة سنها قريبة من سنى ويبدو أنها كانت تسكن فى نفس العمارة التى كنا نسكن فيها فكنا نلعب معا.

كان جدى لأبي يتاجر فى القطن. ولم أره ولكن يروون أن تجارته كانت رابحة لفترة ثم لقى خسارة كبيرة فى الأزمة الاقتصادية التى أعقبت الحرب العالمية الأولى وأوشك على الإفلاس.

وكانت جدتى لأبى - ونقول عنها «ستى» - نحيفة البنية وفى غاية النشاط وذات شخصية قوية وعبارات لاذعة. وكانت الأمثال الشعبية تحتل نصيبا كبيرا من أحاديثها.

وكان يومها مليئا بالعمل من الصباح حتى المساء. ولا تقعد أبدا حتى تذهب للنوم. وكنا نحب أن نأكل الحمام المحشى بالأرز الذى تقدمه، فكانت تتقن صناعته وكنا نعتقد أنه ليس هناك من يستطيع منافستها فى إعداده.

وأذكر أن بيت العائلة فى زفتى كان يتكون من بنايتين متجاورتين تحيط بهما حديقة واسعة وخلفهما أرض فضاء كانت تزرع ببعض المحاصيل أعتقد أنها فاكهة. كل مبنى من طابق واحد يتكون من خمس حجرات واسعة وحجرة بالطابق العلوى. وإلى جانب المنزلين منزل صغير من حجرتين كان عمى عوض يستخدمه مكتبا له. ولا أعرف كيف كان استخدامه قبل ذلك. ولكننى سمعت أنه كانت تعقد فيه اجتماعات للإعداد للهيئة الثورية فى زفتى عام ١٩١٩.

وما أذكره أن المنزل الذى يقع على اليمين إذا نظرنا إلى محطة السكة الحديد المجاورة، أصبحت تسكنه «ستى» وحدها بعد أن تفرق الأبناء جميعا فى القاهرة باستثناء عمى الدكتور عبد العزيز الذى سكن مع زوجته وولديه وبنته فى المنزل الذى يقع على اليسار. وكان قد تزوج ابنة عطية باشا إسماعيل ابن خال اسماعيل باشا صدقى عدو الوفد اللدود والذى كان رئيسا للوزراء عام ١٩٣٠ عندما حكم البلاد لصالح السراى حكما دكتاتوريا إرهابيا وقمع مظاهرات الطلبة والشباب والعمال قمعا إرهابيا.

وقد نما وترعرع أولاد عمى عبد العزيز فى زفتى. أكبرهم ممدوح الذى أتم دراسته الثانوية فى مدرسة كشك بزفتى ثم انتقل إلى القاهرة للدراسة فى كلية الطب التى أنهاها وأصبح طبيبا. وكانت تربطنى به علاقة مميزة أكثر من باقى أولاد أعمامى، لأنه اتجه وهو طالب فى المدرسة الثانوية إلى الأفكار الاشتراكية ثم التحق بعد ذلك بالحركة الشيوعية واعتقل فى

الحملة التى شنها جمال عبد الناصر ضد الشيوعيين وأمضى خمس سنوات فى السجن. وقد واصل الدكتور ممدوح بعد خروجه من السجن عمله كطبيب. عمل فترة فى ميت غمر ثم انتقل للعمل فى مستشفى دار الشفاء بالقاهرة. وكان محبوبا فى أى مكان يعمل فيه لخلقه الرفيع وطيبته الشديدة وحرصه على مساعدة الجميع. وقد انضم إلى حزب «التجمع» عند تأسيسه وكان يعمل فى قيادة منطقة القاهرة، وكان نشاطه الأساسى فى الوايلى حيث مقر مستشفى دار الشفا. وكما كان مخلصا لعمله المهنى فقد أخلص أيضا فى العمل السياسى دون ادعاء أو ضجيج، وكان معروفا بتواضعه الجم وحبه للناس ومساعدتهم. وقد توفى بعد الأربعين بقليل إثر أزمة قلبية كانت الأزمة الثانية التى داهمته. وكانت الأولى عندما كان يقوم بدراسات عليا فى انجلترا فى السبعينيات.

أما أبوه عبد العزيز فقد كان طبيبا وقد توفى أيضا فى سن مبكرة. قبل أن يعرف أن ابنه التحق بالحركة الشيوعية. ولا أعتقد أنه كان سيسعد بذلك، لأننى أذكر فى عام ١٩٤٨ وكنت قد سجنت أسبوعا فى سجن طنطا فى قضية شيوعية أنه عند الإفراج عنى جاء لاستلامى من السجن وكان مستاء لنشاطى، وأذكر محاولاته وقتها للضغط علىّ لترك هذا النشاط.

وأذكر أننى ذهبت معه فى سيارته إلى القاهرة. وأوصلنى إلى منزلى، وعندما أنهى زيارته لنا أردت النزول معه فى سيارته إلى منتصف الطريق للقاء فى وسط القاهرة فرفض. وقد تأثرت وقتها من ذلك الموقف. ثم جاءنى خبر وفاته بعد ذلك وأنا فى سجن الإسكندرية أواخر عام ١٩٤٩ أو أوائل ١٩٥٠.

وأنا أكبر من ممدوح بحوالى عشر سنوات. ولكن تكونت بيننا صداقة خاصة بسبب التقائنا فى الأفكار وفى العمل السياسى. ووضعه كطبيب مكنه من أن يقدم خدمات كثيرة. فإذا قصده أحد من الزملاء أو الأصدقاء فى مستشفى دار الشفاء كان ينشغل به ويقدم له كل ما يستطيعه من مساعدة. ولهذا كانت وفاته المبكرة صدمة للكثيرين ممن يعرفونه. وقد ترك زوجة وولدا اسمه عبد العزيز. تخرج من كلية الفنون الجميلة وأصبح معيدا بها. وهو فنان أقيم له معرض لوحات فى دار الأوبرا المصرية. وله رسومات بمجلة روز اليوسف.

كان ممدوح طفلا صغيرا عندما كنت أذهب مع أسرتى إلى زفتى فى أثناء الحرب العالمية الثانية فى الصيف. إذ كنا نحاول الابتعاد عن القاهرة التى كثرت عليها الغارات الجوية من جانب الطائرات الألمانية والإيطالية أثناء الحرب.

أما نحن - أنا وأحمد - فكنا نتردد على نادى الشباب ونقوم بنشاط ثقافى، وأذكر وقتها أننى ألقيت محاضرة فى شعبة الإخوان المسلمين عن «الاشتراكية والإسلام» وكنت قد بدأت أتعرف على الأفكار الاشتراكية وكان أبى يقول لزواره من أهل زفتى إن أولادى اشتراكيون

وأذكر أنه كان يقولها بفخر، ولكننى أذكر أنه كان من بين قراءاتنا كتاب لنيتشه «هكذا تكلم زرادشت» فكان أبى يناقش أحمد معترضا على أفكار نيتشه وكنت فى ذلك الوقت فى بداية الشباب (الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة)

وكان لعمى عوض شقيق والدى أرض زراعية فى «الحجبى» مركز ميت غمر. وكثيرا ما كان يدعونى أنا واحمد لتقضية بعض الأيام هناك. وكان يزرعها فاكهة. وكان البطيخ شديد الحلاوة. ولكننا كنا نكتفى بيومين أو ثلاثة ونشعر بالملل، ولكن عمى كان يصر أن نبقى مدة أطول. فنبدأ فى التذمر وطلب العودة إلى زفتى ونحس أننا مسجونون. وكنا أطفالا نرفض أن يفرض علينا وضع دون إرادتنا. وكنا نمضى الوقت مع أبناء عمى. وكانا فى ذلك الوقت اثنين، الكبيرة بنت أكبر منى وأصغر من أحمد بسنة. أما الولد «سيد» الذى أصبح الآن جراحا شهيرا للأعصاب وهو د. سيد الجندى فكان أصغر سنا وكان يفصل بينه وبين أخته عدة سنوات.

وكان عمى عوض بخلاف أبى ينفعل سريعا. وكان عضوا فى الهيئة الوفدية ولكنه لم تكن له نفس شعبية أبى. وكانت انفعالاته وكثرة شجاراته تفقده الشعبية. ولهذا كان أبى يترك له أحيانا دائرة زفتى ليرشح نفسه فيها ويساعده.

تلك بعض الذكريات الصغيرة التى أذكرها عن زفتى.

ولكن أغلب حياتى ودراستى وعملى بعد ذلك كان ومازال فى القاهرة. فبعد كوبرى القبة والزيتون استأجرنا منزلا من شخص يدعى أحمد بدر الدين وهو من أقارب أمى- وهو منزل من دورين غير سطوح وبدروم وحديقة وجراج. ويقع بين شارعين أحدهما اسمه معمل البارود والآخر بستان الخشاب يتفرعان من شارع قصر العينى فى مواجهة مستشفى قصر العينى وقريب من حى المنيرة والسيدة زينب. كان المنزل قريبا من خط قطار حلوان الذى اعتدنا على ضوضائه. وقريبا أيضا من مشرحة القصر العينى فكنا نسمع من وقت لآخر صراخ النساء وولولتهن على الموتى. وبخلاف الصالة والفراندة الكبيرة كان المطبخ فى البدروم. والطباخ اسمه «الأسطى أمين». عرفت بعد ذلك أنه أصبح يعمل فى مطعم أبو شقرة.

وكنا نسكن بالدور العلوى. أما الدور الأسفل فكانت تسكن فيه خالاتى وجدتى لوالدتى. وكان لدى ثلاث خالات وخالان، أما الخال الثالث فقد توفى قبل انتقالنا للسكن فى هذا المنزل. أما الخال الثانى فلم يسكن معنا لأنه تزوج واستقل بشقة قريبة منا وقد تركت الخالات والخال المنزل عندما تزوجوا إلا أن زواج الخالة الأكبر لم يوفق وانفصلت عن زوجها وعادت للسكن معنا، وكذلك الخالة الأصغر. وبعد إخلاء الدور الأسفل استقلت به أختى بعد زواجها.

مرت علينا فى هذا المنزل جميع مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية ثم التخرج وبدأ الإخوة والأخوات يتزوجون ويتركون المنزل ويبقى فيه خالتى وأخواى الأصغر حسن

وصلاح، أما أنا فكنت قد سبقت الجميع فى ترك المنزل عام ١٩٤٧ . وتلك قصة أخرى سأعود إليها فيما بعد.

ولم يكن المنزل ملكاً لنا ولكننا كنا نستأجره إلا أن استقرارنا به كان يوحى بأنه ملكنا.

فى هذا المنزل بدأت الدراسة الابتدائية فى مدرسة المنيرة الابتدائية. ولا أذكر بالضبط العام الذى بدأنا نسكن فيه فى هذا المنزل، ولكننى أرجح أنه عام ١٩٣٣ أو ١٩٣٤، وكان أخى أحمد أيضا يدرس فى هذه المدرسة ولكنه كان يسبقنى بسنتين. وكان معه فى نفس السنة جمال العطيفى الذى كان يسكن فى الشارع الموازى لشارعنا من ناحية أبو الريش وحى المنيرة. ومن هنا نشأت بيننا صداقة استمرت منذ ذلك الوقت. وتكونت أيضا صداقة مع أخويه وأخته التى صادقت أختى. وكنا نلعب معا كل أنواع لعب الأطفال، وكنا فى كل سن نلعب الألعاب التى تناسبها ونضيف إليها من خيالاتنا ألعابا أخرى. ولاشك أن تكويننا ونشأتنا وظروفنا كانت تحدد تلك الألعاب. وكان منزلنا الواسع والحديقة الواسعة التى تحيط به تساعدنا على التفنن فى مختلف الأشكال من الألعاب.

وأذكر مرة أننا فكرنا فى إنشاء دولة خيالية واختلفت أنا وأخى أحمد كيف تكون الدولة ملكية أم جمهورية، وكان أحمد يرى أن تكون ملكية وأن يكون هو ملكا أما أنا فكنت أراها جمهورية. واستطاع كل منا أن يعبئ معه عددا من الأطفال وهم عبارة عن الإخوة والأصدقاء واحتدم الخلاف بيننا فسار أنصارى فى حديقة المنزل يهتفون «يسقط الملك» واستمر هذا اللعب إلى أن نبهنا الكبار إلى خطورة هذه اللعبة. وفى مرة أخرى أنشأنا برلمانا وكان أحمد رئيسا للحكومة وجمال العطيفى زعيما للمعارضة فكتب خطابا قدمه للبرلمان ضد الحكومة بعنوان « إنى أتهم».

وكنا نستفيد من دراساتنا المدرسية أو من قراءاتنا المختلفة لنمارس بعض الألعاب الثقافية، فأقمنا مسرحا عرضنا فيه بعض المسرحيات مثل «مجنون ليلى» و«كليوباترا» لأحمد شوقى وحفظنا أشعاره. وكان أحمد يمثل ليلى وجمال العطيفى مجنون ليلى أما أنا فكنت أمثل زينون ودعونا الأطفال من الأصدقاء والجيران لمشاهدة المسرحية.

وعندما أنهى أخى أحمد وصديقنا جمال المدرسة الابتدائية دخلا مدرستين مختلفتين فذهب أحمد إلى المدرسة الإبراهمية فى جاردن سيتى وهى التى دخلتها أنا أيضا بعد ذلك، أما جمال العطيفى فقد دخل مدرسة الخديوى إسماعيل ومع ذلك فقد بقيت الصداقة. وتعاقب علينا الأصدقاء فى الفترات المختلفة ولكن بقيت الصداقة مع جمال أطولها وأقواها، وبقيت مع أخى بالذات وثيقة حتى وفاة جمال.

ومازالت الصداقة حتى الآن قائمة بين شقيقتى وهى زوجة وأم وجدة وبين شقيقة جمال العطيفى وهى أيضا زوجة وأم وجدة. وشقيقتى هى زوجة الدكتور عصمت سيف الدولة أما

شقيقة جمال العطيفى فهى زوجة الدكتور صوفى أبو طالب. ورغم تفرق السبل واختلاف السياسات فمازالت الصداقة قائمة بين كل منهن.

وكان أبى رجلا شرقيا محافظا فزوجته لاتظهر على أصدقاهة من الرجال. وكذلك باقى النساء فى المنزل (خالاتى وشقيقتاي). ورغم أن شقيقتيّ كانتا يشتركان معنا فى اللعب. وكان لدينا فى الدور الأسفل حجرة للضيوف وحجرة للمكتب. ثم الحديقة والبدروم وهى الأماكن التى يمكن للضيوف من الرجال أو الأولاد التواجد فيها، أما الدور العلوى فيمنع صعودهم إليه. إلا إذا كانوا من الأقارب القريبين (أعمام أو أولاد العم). وأذكر أننا دعونا مرة جمال العطيفى وهو طفل للصعود للدور العلوى فغضب أبى غضبا شديدا عندما عرف بذلك.

وأذكر مرة أننا دعونا جمال العطيفى وصديقا آخر إلى زفتى وأمضينا الليل فى المنزل الصغير الذى كان مكتبا لعمى عوض والذى كان مستقلا تماما عن منزلنا إلا أنه غضب أيضا لدعوتنا أصدقاء للمبيت. وعندما تزوجت أختى عايدة وهى أصغر منى بسنة ولم تكن بلغت بعد السادسة عشرة من عمرها. وقد تقدم محام شاب اسمه أنور وحش من عائلة وحش ببشلا مركز ميت غمر. خطبها من والدى الذى وافق على الخطبة وزوج أختى دون أخذ رأيها.

ولم يكن هذا أمرا شاذا بالنسبة لوالدى، فقد كانت هذه هى التقاليد بالنسبة للغالبية الساحقة من أسر الطبقة الوسطى فى مصر فى هذه الفترة (الثلاثينيات والأربعينيات). وقد تغير الأمر كثيرا بعد ذلك. فتغيرت التقاليد وأصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة أكثر حرية وانفتاحا مع خروج المرأة للعمل. ومزاملتها الرجل فى العمل والدراسة.

وقد كنا جميعا نحب أبانا ونخشاه فى نفس الوقت. فكان هو سيد المنزل الذى لا يتواجد فيه كثيرا، فهو فى الصباح يذهب إلى العمل ويأتى بعد الظهر بقليل للغداء حيث نجتمع جميعا على مائدة الغداء وعلى الغداء نتبادل الحديث حول الأمور المنزلية أو أمور الدراسة وغيرها، أما غير ذلك فله عالمه الخاص الذى لم نكن نعرف عنه الكثير إلا أنه كان يذهب لمكتبه بعد الظهر، وبعده يسهر مع أصدقائه فى ناد. ويأتى متأخرا ليلا وأذكر أنه على الغداء كان يكثر من تناول الليمون الذى يعصره حتى علىٍ الأرز، أما بالنسبة لنا فكان شديدا فى رفق. فكان يرفض أن يقول أى من أبنائه أنه لايحب أى شيء من الطعام الذى يقدم. وفى المساء كانت أمى تعد له عشاء خفيفا يشتمل أساسا على اللبن الزبادى وأحيانا البطارخ والجبن. وتتركه له على المائدة إلى أن يعود.

وكان يعامل والدتى برقة شديدة، ولا أذكر أنهما تشاجرا، أو أنه عنفها إلا مرة واحدة عاد من عمله ولم يكن المنزل قد انتهى تنظيفه وترتيبه بعد، فثار وغضب ولكنه لم يوجه حديثه مباشرة إلى أمى. ولكنها تأثرت ونزلت دموعها فى صمت. وكثيرا ما كنت أراها حزينه تبكى بهدوء عندما كان أبى يتأخر فى الخارج. ولكنها لا تحدثنا بأى شيء رغم أننا كنا نتبادل معها

الأحاديث فى كل شيء بشكل مفتوح، ولم نكن نخشاها كما كنا نخشى أبى. فنلعب أمامها ونمارس «شقاوتنا» دون خوف من أى زجر. وهو الأمر الذى لم نكن نفعله مع أبى. رغم أنه كان يحبنا جدا ويتلاطف معنا ويداعبنا. وأذكر عندما مرضت أختى الصغيرة بالتيفود أنه كان شديد القلق عليها. وكان يحبها جدا. وأذكر أنه كان معى عطوفا جدا وملاطفا ولم يكن شديدا معى، كما كان مع أخى أحمد. وكان هو وباقى الأسرة يستخدمون معنا أسماء التدليل.

وكان يرفض أن يعامل أولاده بشكل مميز. ففى إحدى المرات ذكر الخادم فى حديثه إلى أبى «حمادة بك» إشارة إلى أخى أحمد فعنفه وقال له هذا طفل فكيف تقول حمادة بك. وكان أحمد وقتها فى حوالى الرابعة عشرة من عمره.

كنا أكثر انفتاحا على أمنا نمضى معها أغلب الوقت، وهى التى كانت تعتنى بنا مباشرة. ونشعر بحرصها الشديد علينا وكنا أهم شيء فى حياتها. ولم تكن لها أى متعة أخرى، وما أذكره عنها أنها كانت شديدة الطيبة.

فرض على الجو العائلى الذى أعيش فيه أن أهتم بالسياسة منذ طفولتى الأولى. فأسمع دائما الأحاديث والمناقشات السياسية، وأخبار تبديل الوزارات وكان التعاطف بالطبع مع حزب الوفد ورفض أحزاب الأقليات وحكوماتها.

لذا كنت أهتم منذ الطفولة بقراءة الصحف والكتب السياسية. وأذكر عام ١٩٣٥ ومظاهرات الطلبة من أجل القضية الوطنية التى أعقبها مجيء حكومة الوفد سنه ١٩٣٦. وكان أبى قد اختير مع آخرين عضوا قياديا فى حزب الوفد ثم اختير مع ثلاثة آخرين هم صبرى أبو علم وممدوح رياض وعبد الفتاح الطويل وكلاء برلمانيين، وهو منصب جديد لم يكن موجودا من قبل. وعين أبى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية وكان النحاس باشا هو وزير الداخلية ولهذا كان أبى هو المتصرف الفعلى فى شئون وزارة الداخلية.

وكان أبى قبل ذلك بسنة قد اشترى سيارة ماركة «بليموث كريزلر». وهو لم يكن يستطيع قيادة السيارة فعين سائقا اسمه «الأسطى عوض». وعندما اختير وكيلا برلمانيا أصبح لديه سيارة حكومية بسائقها وعسكرى يحرس المنزل. فأصبحنا نستخدم السيارة الخاصة فى شئون الأسرة، ونذهب إلى مدارسنا فى السيارة، وكنت أنا وأحمد نستقلها للذهاب إلى مدرسة المنيرة وكانت السيارة توصل أختى الأكبر إلى مدرسة السنية والأصغر إلى مدرسة الليسيه. وعندما بلغ حسن سن الدراسة ذهب أيضا لمدة عام إلى مدرسة الليسيه فى روضة الأطفال.

وهكذا تغيرت حياتنا.

وأعيد تشكيل الوزارة عام ١٩٣٧ واختار النحاس الوكلاء البرلمانيين الأربعة وزراء فى وزارته. واختير أبى وزيرا للمعارف (وهو اسم وزارة التربية والتعليم في ذلك الوقت) ونشرت كل

الصحف أسماء المرشحين للوزارة وصورهم بما فيها صورة أبى. واستدعى المرشحون إلى السراى لحلف اليمين. وأذكر ذلك اليوم وكيف لبس أبى ملابس التشريفة (ملابس الردنجوت) وتوافد المهنئون. وعاد أبى من السراى دون أن يحلف اليمين. وعرفنا بعد ذلك أن الملك فاروق رفض تعيينه وزيرا وخيم على المنزل جو قاتم، وبدلا من توافد المهنئين توافد المتضامنون. ولم يرد القصر أن يقول الأسباب الحقيقية. ولكن الجميع تأكدوا أن السبب فى ذلك هو دور أبى فى ثورة ١٩١٩ وجمهورية زفتى فضلا عن أنه كان له موقف ضد الأوقاف الملكية واعترض أكثر من مرة فى البرلمان وصوت ضد المخصصات الملكية.

وقد أدى موقف السراى إلى أزمة بين القصر والوفد. رفض الوفد موقف السراى سوى والأمر بعد عدة شهور بأن عاد أبى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية كما كان. وكان ذلك ترضية له وإلغاء لكل الاتهامات والمحاولات لتلويث سمعته.

وقد حاولت السراى فى فترة لاحقة استرضاءه فعينته عضوا فى مجلس الشيوخ وكان الدستور السارى وقتها يعطى الملك حقا فى تعيين ثلث أعضاء مجلس الشيوخ. وقد اعتاد الملك أن يعين أغلبهم من الحزب الحاكم ولكنه عين أبى من بين من عينهم. وكانت السراى تحاول دائما إحداث انشقاقات داخل الوفد وتحاول اللعب على أى خلافات داخلية كما فعلت بالنسبة لانقسام احمد ماهر والنقراشى وكما فعلت بعد ذلك بالنسبة لمكرم عبيد وانقسام الكتلة الوفدية، ولكن أبى ظل على انتمائه لحزب الوفد رغم وجود بعض الخلافات بينه وبين قيادة الوفد التى كانت تريد أن يستقيل كل النواب والشيوخ الوفديين ويقاطعون البرلمان. وكان لأبى رأى آخر.

وكانت حكومة الأقلية قد زورت الانتخابات بحيث لم ينجح غير عدد قليل من النواب الوفديين. وكان أبى وعدد قليل من الوفديين يمثلون المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ. وكان محمود بسيونى زعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ وأبى نائبا لزعيم المعارضة. ولكن الواقع أنه كان الزعيم الفعلى للمعارضة فى مجلس الشيوخ. واستطاع من خلال منبر المعارضة أن يرفع رأي المعارضة ضد الحكومة ويستخدم ذلك لكشف الممارسات الحكومية وقد اكتسب فى ذلك الموقع احترام الجميع. وأذكر من كلمات أنطون الجميل فى حفل تأبينه بعد وفاته قول إنه لم يكن فى الوزارة وزيرا ولكنه كان الوزير الفعلى وإنه لم يكن فى المعارضة زعيما لها ولكنه كان الزعيم الفعلى.

حصل الوزراء الثلاثة الذين كانوا وكلاء برلمانيين مع أبى على الباشوية أما أبى فقد كان وكيلا برلمانيا فلم يحصل على أى لقب.

***

اعتدنا فى طفولتنا على تمضية الصيف فى زفتى وأحيانا كنا نذهب إلى رأس البر وكانت تذهب معنا فى نفس الوقت أسرة صبرى أبو علم. وكان صبرى أبو علم محاميا مثل أبى يشتركان معا فى نفس المكتب ونشأت بينهما صداقة وكذلك بين الأسرتين.

وأذكر فى أول مرة نذهب فيها إلى رأس البر وكان عمرى وقتها حوالى السادسة أو السابعة وكان أولاد صبرى أبو علم بنتين الكبرى سنها مقاربة لسن أحمد والتالية سنها مقاربة لسنى وكانت هناك بنت ثالثة أصغر منهما ثم ولد صغير. ونشأت صداقة بيننا وبين البنات وبين أمهم وأمى وكنا نحن الأطفال نلعب معا ونمضى طوال الوقت معا. وانجذب أخى أحمد للابنة الكبرى وانجذبت أنا للابنة الثانية وكان هذا بالنسبة لى شعورا لم أعهده من قبل.

وتوالت بعد ذلك سفريات الصيف إلى رأس البر ثم إلى الإسكندرية فى سيدى بشر حيث كنا نصيف معا.

ولكننى بعد أن دخلت بعد ذلك فى فترة المراهقة تحولت إلى ولد خجول منطوٍ أتهيب من لقاءهن عندما يأتين لزيارتنا.

أنهيت دراستى الابتدائية ودخلت مدرسة الإبراهيمية الثانوية حيث كان يدرس أخى وأذكر فى نهاية الدراسة الابتدائية وبداية الدراسة الثانوية أن تكونت لنا صداقات مع أطفال الحى.. وبخلاف جمال العطيفى أذكر من أصدقائنا فى ذلك الوقت فؤاد محيى الدين وإسماعيل السيوفى. وكنا نلعب معا. من ذلك لعبة كرة القدم فى الشارع المجاور. وكنا نكون فريقين متنافسين ونقيم مباريات لكرة القدم وغيرها من الألعاب. وكنا ننظم الرحلات وحصلنا على خيمة ذهبنا مرة إلى مصر الجديدة سيرا على الأقدام وأقمنا معسكرا هناك فى الصحراء ولم تكن مصر الجديدة قد بنيت بعد بشكلها الحالى.

وقررنا مرة أن نذهب إلى الأهرام سيرا على الأقدام. وعندما وصلنا إلى أهرامات الجيزة لمحنا فى الصحراء هرم سقارة عن بعد فقررنا مواصلة رحلتنا عبر الصحراء وفى الطريق اختفى هرم سقارة عن أنظارنا. وكنا قد بدأنا رحلتنا الساعة السادسة صباحا. واصلنا الطريق فى الصحراء ونفد منا الماء وحل بنا التعب والعطش وكنا أطفالا. واستطعنا عند حلول الليل أن نصل أخيرا إلى هرم سقارة. لم نبق هناك طويلا وقررنا العودة من الطريق الزراعى، واستضافنا بعض الأعراب وقدموا لنا الشاى واستوقفوا إحدى السيارات التى أقلتنا إلى القاهرة. وصلنا إلى الأهل حوالى الثانية عشرة مساء. وكانوا فى غاية الفزع، أبلغوا أقسام الشرطة للبحث عنا. وتلقينا توبيخ أمى وخالاتى. ولكن أبى عندما عرف بذلك فى الصباح كان فخورا بمغامرتنا.

فرضت على نشأتى الاهتمام منذ الطفولة بالقضايا السياسية، وأن يكون توجهى معاديا للاستعمار فى أى مكان. وأذكر فى عام ١٩٣٦ أثناء الحرب الحبشية الايطالية، أن كنا ونحن أطفال نسير فى حديقة منزلنا متظاهرين وهاتفين «يحيا النجاشي هيلاسلاسى» تعبيرا عن

تعاطفنا مع الحبشة ضد ايطاليا. وكنت متعاطفا مع الوفد ضد أحزاب الأقلية متأثرا بانتماء والدى الوفدى. وكنت مع مبادئ الحرية والمساواة والدفاع عن مصالح العاملين، مع الفلاحين والعمال ومع الطلبة فى مظاهراتهم الوطنية من أجل الاستقلال. وكانت مشاعرى ضد انجلترا باعتبارها المستعمر لبلادى. وكنت أرفض الظلم من أى نوع بما فيه الظلم الاجتماعى. وكان صديقنا جمال العطيفى يتعاطف وينتمى بعض الوقت إلى مصر الفتاة. وكنا نختلف ونتناقش. وفى المدرسة الثانوية بدأت اهتماماتى تتحدد أكثر. وأصبحت أكثر من القراءة. وكنت أقرأ كل شيء ومن القراءات التى كنت أواظب عليها فى الطفولة «روايات الجيب». وكان هناك الكثير من الروايات عن الثورة الفرنسية التى كنت أنجذب لقراءتها.

وفى السنة الأولى الثانوية مررت بتجربة صعبة كانت تمثل صدمة لى. إذ أننى لم أنجح فى اجتياز امتحان النقل إلى السنة الثانية. فقد اجتذبنى اللعب أكثر من اللازم مما جعلنى أهمل دروسى. وكان أبى يتشدد معى عادة فى متابعة تحصيل الدروس، ولكننى أحسست منه موقفا آخر عند رسوبى، فقد أحس بأننى فى محنة وأننى شديد التأثر لرسوبى. فكان يخفف عنى، ويقول رب ضارة نافعة. وقد بذلت مع خالتى (وكانت تعمل مدرسة ثم ناظرة مدرسة) جهدا كبيرا بالمرور على مختلف المدارس الأهلية للموافقة على نقلى إلى السنة الثانية. ولكننى فشلت فى هذه المحاولات. فاضطررت لإعادة السنة. وحرصت بعد ذلك على الاهتمام بالنجاح المتفوق فى كل عام. ولكننى تأثرت كثيرا من أن زملائى سبقونى. وأننى تخلفت وأن أخى أحمد وصديقى جمال اللذين كانا يسبقانى بسنتين أصبحا يسبقانى بثلاث سنوات، فقد انتقلا إلى السنة الرابعة الثانوية وبقيت فى السنة الأولى.

***

(٢)

التوجه السياسي

أخذت أقرأ أى كتب تقع عليها يدى من مكتبة أبى. وعثرت فى هذه الفترة على كتاب اسمه «ألمانيا اليوم» ومؤلفه اسمه ثابت ثابت زار ألمانيا وعاد ليشيد بالنظام هناك. وكان الحكم النازى يسمى نفسه بالاشتراكية الوطنية. ولهذا فإنه عندما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ كنت متعاطفا مع ألمانيا لأنها كانت تعادى انجلترا التى تستعمر مصر. وكان هذا هو شعور كثير من الشباب الوطنى فى ذلك الوقت. وأذكر أننى تناقشت كثيرا مع أحد زملائى فى الدراسة الذى كان يختلف معى فى الرأى ويعارض النازية.

وكنت فى نفس الوقت أقرأ عن الاتحاد السوفيتي وأتعاطف معه. وعندما عقد ميثاق عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي ظننت فى البداية أنه تحالف بين الاشتراكيين. وعندما هاجمت ألمانيا النازية الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤١ بدأت اقتناعاتى تهتز. ولم أفهم الأمر فى البداية. وظللت فترة أستمع لإذاعة ألمانيا باللغة العربية وكنت أتعاطف وأتأثر بما يقوله المذيع، وهجومه على الاستعمار البريطانى وإشادته بدور ألمانيا التى ستساعدنا على التحرر من الاستعمار البريطانى.

وفى المدرسة الإبراهيمية وعندما كنت فى السنة الأولى كان يتزعم المدرسة شاب فى السنة الخامسة، كان يحسن الخطابة ويقود المظاهرات اسمه محمد زكى هاشم. وكان وقتها ذا توجه وفدى وقد أعجبت به كثيرا. ونشأت بيننا علاقة بعد ذلك، خصوصا بعد أن عرف أننى واحمد من ابناء يوسف الجندى، وقد كان وفديا فى ذلك الوقت.

كنا فى الصيف نذهب إلى زفتى وكنت أنا وأخى أحمد نلتقى بالشباب هناك وتعرفنا بعدد منهم كنا نتبادل معهم الآراء والأفكار وعندما أعود إلى القاهرة كنت أتبادل معهم الرسائل.

وبدأت أنا وأخى نفكر مع بعض الشباب لتنظيم زيارات للفلاحين لحل مشاكلهم

ومساعدتهم. وفكرنا فى إصدار مجلة. وأذكر بعد ذلك أننى ألقيت محاضرة فى شعبة الإخوان المسلمين فى السيدة زينب تتضمن نفس المعانى بعنوان «التضامن الاجتماعى والإسلام». وبعد المحاضرة دعانى الإخوان أنا وأخى إلى المقر الرئيسى للاخوان المسلمين للقاء مع حسن البنا الذى عرف أننا أولاد يوسف الجندى فأخذ يشيد بأبينا.

كانت لنا علاقات طيبة بالإخوان المسلمين وخصوصا بشعبة السيدة زينب. ولكننا لم ننضم إليهم رغم محاولاتهم.

وبينما انتقلت إلى السنة الثالثة الثانوية دخل أخى وجمال العطيفى كلية الحقوق بجامعة فؤاد (القاهرة الآن) وأصبحا طالبين جامعيين ولم يعودا ملزمين بلبس الطربوش الذى كنا نجبر على لبسه فى المرحلة الثانوية.

وكانت علاقتى بجمال العطيفى وثيقة جدا رغم أنه كان يسبقنى فى الدراسة. وكنا نتناقش معا ونلتقى فى كثير من الأفكار. وتحدثنا معا عن الاشتراكية. وكان كلانا يعبر عن انتمائه للفكر الاشتراكى. وكنا نقرأ بعض الأدبيات مثل «المجلة الجديدة»، وحاولنا الكتابة فيها. ومن الغريب أن كتابا فى الاقتصاد السياسى للدكتور عبد الحكيم الرفاعى وزكى عبد المتعال قرأته فى ذلك الوقت وكان له تأثير علىّ. ورغم أن الكتاب فى مجموعه كان يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها إلا أنه عندما تعرض لمشروع السنوات الخمسة الأولى فى الاتحاد السوفيتى ذكر أن الاتحاد السوفيتى هو البلد الوحيد الذى لم يعان من أزمة ١٩٢٩ التى شملت العالم الرأسمالى، وكان لذلك تأثير كبير عليّ. إذ فكرت أن مثل هذا النظام لابد أن له أفضلية على النظام الرأسمالى.

وكان انتماؤنا للفكر الاشتراكى لايرتبط بمذهب معين، ولكنه كان انعطافا نحو الكادحين ورفض الاستغلال والظلم الاجتماعى والرغبة فى تحقيق العدل الاجتماعى، وكنا نؤمن أننا يجب أن نكرس أنفسنا للعمل من أجل هذه الأهداف. أما صفاء شقيق جمال الأكبر وكان أيضا من دارسى الحقوق ويسبقه بعدة سنوات فكان يرى أنه يجب لكى ننجح فى تحقيق هذه الأهداف أن نصل إلى مراكز مرموقة فى المجتمع فتصبح كلمتنا ذات أثر بين الناس.

أما نحن فكنا نرى أننا يجب أن نعمل شيئا. وفى الصيف طرأت لنا فكرة أن نبحث عن عمل لنصبح عمالا. فتقدمنا إلى مكتب القوى العاملة الخاص بتشغيل العمال وقدمنا طلبا للعمل، ولكن لم يطلبنا أحد ولم يردوا علينا.

وفى بداية الأربعينيات اتصل بنا زكى هاشم. ولم يعد هو الطالب الوفدى الذى عرفناه بل أصبح ماركسيا، واقترح علينا أن ندرس كارل ماركس. واتفقنا على مواعيد وكان يحاول تكوين مجموعة منى ومن أخى أحمد وجمال العطيفى واثنين آخرين من الأصدقاء أحدهما يدعى عزمى نجيب والآخر جورج زنانيرى، ولم يستمر ذلك لأن زكى هاشم نفسه لم يواصل معنا.

(٣)

العمل السياسي

ولكننا لم نتوقف فقد قررنا تكوين جماعة سميناها «البعث الاجتماعى» وضعنا لها برنامجا اشتراكيا كان البند الأول فيه «إلغاء الملكية الفردية لوسائل الانتاج». وقمنا بمناقشات مع الكثيرين حول هذا البرنامج. وممن ناقشناهم أفراد من الإخوان المسلمين أصروا على إضافة بند عن تطبيق الشريعة الإسلامية، أضفناه فى نهايـــة البرنامـــج.

وجمعت هذه الجمعية حوالى ٣٠ شابا كانوا كلهم طلبة فى الجامعة أو المدارس الثانوية. وكنت طالبا فى المدرسة الثانوية انتخبت سكرتيرا للجمعية، كنا نجتمع عند عز العرب أمين عضو الجمعية الذى أصبح فيما بعد سفيرا بوزارة الخارجية. وكان منهم فؤاد محيى الدين وإسماعيل السيوفى وجمال العطيفى وفتحى غانم وأخى أحمد وغيرهم.

طبعنا البرنامج فى إحدى المطابع ووزعناه فى المدارس والجامعة. ووقع فى أيدى البوليس السياسى. وكان ذلك عام ١٩٤٢ وكانت حكومة الوفد فى السلطة فاتصلوا، بأخى أحمد وحذروه.

وفاة أبى

كان أبى قد توفى يوم الجمعة ١٢ ديسمبر ١٩٤١. وكان يبلغ من العمر ٤٨ عاما أو كان مفروضا أن يبلغ ٤٩ عاما بعد شهرين.

فقد ولد فى فبراير ١٨٩٣ فى مدينة زفتى. وأتم دراسته الابتدائية بها ثم التحق بمدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية وفى هذه الفترة عمل ومعه جماعة من الطلاب على إنشاء

«لجنة التأليف والترجمة والنشر»، وقد نمت هذه اللجنة بعد ذلك. وقد عمل معه فى هذه اللجنة زميله وصديقه محمد فريد أبو حديد وقد استمرت صداقتهما حتى وفاته، ثم التحق بمدرسة الحقوق وتخرج منها سنة ١٩١٥ . وأثناء دراسته فى كلية الحقوق فصل هو وعدد من الطلبة لمدة عام لنشاطهم الوطنى واحتجاجهم على إعلان الحماية البريطانية عقب إعلان الحرب. وبعد تخرجه عمل فى مكتب المحامى محمد عفيفى فى ميت غمر فترة من الزمن ثم استقل بمكتب خاص فى ميت غمر ظل فيه حتى عين محاميا بقلم قضايا وزارة الأوقاف. ومنذ ذلك الوقت بدأ يهتم بقضايا الأوقاف وقدم مشروعا بإلغائها.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ارتفعت الأصوات للمطالبة بالاستقلال واسترداد الحقوق الوطنية. ومن بين هذه الأصوات كان نضال يوسف الجندى مع غيره فى زفتى وميت غمر. ولم يتحدث معنا والدنا عن دوره فى الثورة هناك، ولكننا كنا نسمع أخبارا من هنا وهناك. وقد عكف بعض الكتاب على تجميع المعلومات عما عرف باسم «جمهورية زفتى» ومنهم أحمد بهاء الدين فى كتابه «أيام لها تاريخ». يقول «ومنذ بدأت حركة الوفد والاثنان يوسف وعوض الجندى يترددان بين القاهرة والريف. ولمع يوسف بالذات فى جلسات ثائرة فى محلات (جروبى) ومجادلات فى حديقة بيت الأمة، وفى خطب عنيفة على منبر الأزهر.. الذى كان قاعدة الثورة، وعرفه سعد، والكبار من أعضاء الوفد .. عرفوه ثائرا لا يهدأ، ليس فى وجهه الأسمر إلا شيء واحد .. العناد . ولا يخرج من كيانه النحيل إلا أفكار متطرفة.

وانفجرت الثورة ويوسف الجندى فى بلدته زفتى. واتجهت اليه أنظار القرويين ينتظرون منه أن يصنع شيئا. ولكن ها هنا فى جوف الريف لا يوجد إنجليز يقاتلهم الفلاحون. والسكك الحديدية قد قطعها الفلاحون من القرى المجاورة فعلا. ومع ذلك فلابد من عمل شيء خطير، ينطوى على معنى الثورة.

وقرر أن تعلن زفتى وميت غمر استقلالهما وأن ترفضا الخضوع لأية سلطة أخرى.. ثم ليأت الانجليز..

وبدأ الثائر الصغير يعمل. أعلن عن تشكيل لجنة للثورة من بعض الأعيان، والأفندية المتعلمين، والتجار الصغار، عرفنا من أسمائهم عوض الكفراوى، الشيخ مصطفى عمايم، إبراهيم خير الدين، ادمون بردا، محمد السيد، محمود حسن.. واتخذت لجنة الثورة مقرا لها قاعة واسعة فى الدور الثانى من مقهى يملكه يونانى عجوز، اسمه مستوكلى (قهوة مستوكلى).

واجتمعت لجنة الثورة وقررت أن تبدأ بوضع يدها على السلطة الفعلية بالاستيلاء على مركز البوليس. وزحف يوسف الجندى إلى المركز على رأس مظاهرة ضخمة ضمت كل الرجال وجيوش الصبية الصغار .. القليلون منهم حملوا بنادقهم القديمة وتسلح الآخرون

بالعصى وفروع الأشجار والفئوس.. وساعدت الظروف أن تجنب الدولة الجديدة إراقة الدماء .. إذ كان مأمور المركز رجلا وطنيا اسمه «إسماعيل حمد» ومعه معاون بوليس اسمه «احمد جمعة» وخرج المأمور إلى المظاهرة وسلم يوسف الجندى المركز، والسلاح، وقيادة الجنود والخفراء.. ثم عرض خدماته عليه.. كمستشار للدولة الجديدة يشير عليها بوصفه خبيرا بأحوال الإدارة فيها ..

واتجهت المظاهرة إلى محطة السكة الحديدية والتلغراف فسيطرت على التلغراف فورا، واستولت على عربات السكة الحديد التى كانت واقفة مشحونة بالقمح، ينتظر إرسالها إلى السلطات الإنجليزية.

وبات على الدولة الجديدة أن تواجه مشاكلها الداخلية!.. وجمع يوسف الأعيان ودعاهم إلى التبرع ليصبح للدولة خزانة .. وكانت هناك حركة تبرعات أخرى جارية لتمويل الوفد، وكان يجيء إلى زفتى كل أسبوع مهندس من طنطا يتسلم التبرعات المتجمعة، اسمه عثمان محرم! وتبرع الأعيان أيضا للدولة الجديدة. وكان قصد يوسف الجندى من ذلك أن يوجد عملا للأيدى الكثيرة التى تعطلت لظروف الثورة، فلا تتحول إلى السرقة والنهب .. فاستخدم الأموال المتجمعة ليوجههم إلى بعض الأعمال المفيدة..

ردموا البرك والمستنقعات التى تحيط بالقرية، والتى يئس الأهالى من مطالبة الحكومة بردمها منذ عشرات السنين.

وردموا الشوارع التى كانت تنشع بالماء إذا حدث الفيضان. وأصلحوا الجسور القريبة .. بل لقد أقامت «الدولة» كشكا خشبيا على ضفة النيل لتعزف فيه الموسيقى!

ثم جندت لجنة الثورة كل التلاميذ والمتعلمين الموجودين فى زفتى وقسمتهم إلى فرق: فرقة تقوم بدوريات مستمرة لحفظ الأمن .. وفرقة تراقب الحدود لتمنع تسرب مواد التموين أو دخول الجواسيس ! وفرقة تشرف على عمليات الرى وتزويد الأرض بالماء.

وظهر أن فى قلب زفتى توجد مطبعة! مطبعة صغيرة يملكها محمد أفندى «عجينة» أخذت تطبع قرارات لجنة الثورة وتعليماتها وأخبارها وتوزعها على الناس .. وقد ظلت هذه المطبعة بعد ذلك مؤسسة وطنية خطيرة فى حياة زفتى .. تطبع المنشورات السرية فى مختلف عهود الأقليات .. ولا تزال موجودة إلى اليوم.

وطارت الأنباء إلى القاهرة.. وعبرت البحار إلى لندن .. ونشرت «التيمس» فى صدرها أن زفتى قد أعلنت استقلالها .. ورفعت على مبنى المركز علما جديدا !

ولم يكن نفوذ زفتى مقصورا على حدودها .. فقد كان بريق مقاومتها يرسل ضوءه إلى القرى المجاورة فى صور أخرى .. فنحن نجد أن أحد البلاغات الانجليزية الرسمية يعلق على مذبحة ميت القرشى التى راح ضحيتها مائة قتيل بقوله إن «ميت غمر لا تزال مع زفتى وميت

القرشى مركزا للتمرد والفتن فى هذه المنطقة».

وأعلن فى القاهرة أن فرقة كبيرة من الجنود الاستراليين سوف تذهب إلى زفتى لتخضع المدينة الثائرة .. وأدرك رجال الوفد مدى الخطر الذى يتعرض له يوسف، فأرسلوا له الرسل والرسائل لكى يعود إلى القاهرة.. وسافر إلى زفتى أخوه عوض الجندى - وكان فى القاهرة- ولما كانت المواصلات مقطوعة والتنقل داخل القطر ممنوعا لم تمنحه السلطات الانجليزية جواز سفر! فقد ركب عربة كارو إلى قليوب، ثم مركبا نيليا إلى بنها، ثم عربة حنطور إلى زفتى.

وصل إلى زفتى ليجد قاعة الثورة فى مقهى مستوكلى يسبح فى جوها دخان السجائر. وليرى أخاه الصغير يوسف قد زاد نحولا، واستطالت لحيته .. والأوامر تصدر من الغرفة متتابعة .. ويرى الفلاحين يحفرون حول دولتهم الخنادق. وينقلون إليها البنادق القليلة والذخيرة العتيقة التى لم تستعمل منذ زمان بعيد .. يستعدون للقاء الإنجليز ..

وكان الإنجليز قد أذعنوا لثورة مصر .. فأعلنوا إطلاق سراح سعد وصحبه، والسماح لهم بالسفر إلى أوروبا للمطالبة بالاستقلال .. ولكن لجنة الثورة ظلت فى زفتى قائمة ..

وأشرق الصبح على مدافع الاستراليين منصوبة، وفوهاتها مسددة إلى بيوت القرية. وقد احتلوا فعلا محلج «رينهارت» ومدرسة «كشك» الواقعين عند أطراف القرية ..

ومرة أخرى .. خرج إسماعيل حمد يسير إلى خطوط الاستراليين.. وقال لهم: أن الثورة فى مصر كلها تهدأ ومظاهرات الابتهاج قد حلت فى القاهرة محل إطلاق النار .. وأى طلقة الآن سوف تؤدى إلى اشتباك. والموقف فى زفتى هادئ تماما .. فإذا ظل الجنود معسكرين خارج زفتى، وتركوا حركة التبرعات للوفد ماضية، فهذا كفيل بألا يقع من الفلاحين شيء.

وكانت لجنة الثورة قد عرفت أن الفرقة الآتية استرالية، فأعدت لهم منشورات بالانجليزية تقول لهم: إنكم مثلنا ونحن نثور على الإنجليز لا عليكم، والإنجليز الذين يستخدمونكم فى استعبادنا يجب أن يكونوا خصومكم أيضا!

وأرسلت المنشورات إلى الاستراليين، وقررت الفرقة ألا تدخل المدينة، وأن تبقى معسكرة بجوارها.

وإذ سكنت الثورة فى مصر كلها. وباتت زفتى تحت رحمة المدافع الإنجليزية استيقظ الخونة، الذين خافوا مغبة دخول الإنجليز فأرادوا أن يتنصلوا من الآن، والذين يريدون الكيد لمن تصدوا لقيادة الحركة، أخذ هؤلاء وهؤلاء يرسلون خطابات إلى السلطات فى مصر يبلغون عن أسماء الزعماء، وكل من حمل معولا أو ألقى خطابا أو طبع بيانا أو ألهب السخط فى صدر فلاح، وكان إسماعيل حمد - بخبرته الإدارية - يعرف ماسوف يحدث .. فكان ينفرد بالخطابات البريدية كل ليلة فى حجرة مغلقة، يفضها واحدا واحدا، ويتخلص من كل رسالة

تنطوى على وشاية أو كيد..

وعلم الإنجليز أن الفرقة الاسترالية عند حدود زفتى لم تدخلها، وكانت المحاكمات قد بدأت تدور فى شتى أنحاء القطر لعقاب الثائرين، فأرسلوا إليها تعليمات جديدة، وطلب الاستراليون تسليم ٢٠ رجلا من أهالى زفتى لجلدهم عقابا على العصيان. وانعقدت اللجنة لتواجه المأزق: أن تسلم - وبعد فوز الثورة - عشرين رجلا من أبنائها أو أن ترفض وتقاوم فتهلك كلها تحت مدافع الإنجليز. وبعد بحث طويل أخذت اللجنة باقتراح لإسماعيل حمد، وسلمت عشرين رجلا .. اختارتهم من الذين كانوا يرسلون خطابات الوشاية والخيانة إلى الإنجليز.

وجلد الإنجليز .. عملاءهم!

وتلقت الفرقة من القاهرة أوامر أخرى .. تطلب هذه المرة تسليم يوسف الجندى. وقال أعضاء اللجنة ليوسف الجندى: اذهب إلى مكان ولا تخبرنا به!

وتحت جنح الليل تسلل الثائر إلى قرية (دماص) المجاورة. وقبض الإنجليز على بعض الأعضاء .. واحتجزوا عوض الجندى رهينة حتى يقول لهم أين يوسف .. فلم يطلقوا سراحه إلا بعد أن تأكدوا من أنه لايعرف مكان أخيه.

وانسحب الاستراليون عائدين.

أما يوسف الجندى فقد ظهر بعد خمسة عشر يوما من فراره فى القاهرة يخطب فى «جروبى» الذى كان من منتديات الثورة ويحرض على استمرار النضال.

وأما قهوة «مستوكلى» فقد اندثرت مع الزمن، وقامت مكانها بعض المحلات التجارية. وأما كشك الموسيقى فقد ظل هناك قائما فى مكانه القديم مدة طويلة. وقد حدث مرة واحدة أن فكرت الحكومة فى هدمه لغرض من أغراض التنظيم فاحتج أهالى زفتى بشدة، وطلبوا الاحتفاظ بهذا الأثر الخالد من آثار ثورتهم. (أما الآن فتقوم مكانه مستشفى زفتى).

ومضت الأيام والناس يتناقلون قصة زفتى فيما يتناقلون من قصص الثورة ويضيفون إليها .. حتى تلقف القصة ممثل كوميدى -على الكسار- فنسج حولها مسرحية ناجحة، وأعطاها الاسم الذى اقترن بالقصة بعد ذلك .. اسم فيه ضحكة ابن البلد واعتزازه: «امبراطورية زفتى» !..

- ذلك هو ماذكره احمد بهاء الدين وقد عرفت أنه لكى يجمع هذه المعلومات التقى بعدد ممن عاصروا تلك الأحداث ومنهم عمى عوض الجندى الذين أمدوه بهذه المعلومات.

وهناك العديد من الروايات تدور حتى الآن على لسان أهالى زفتى ولكن لم يبق - للأسف - حتى الآن أحد حيا ممن عاصر تلك الأحداث. فإذا وجد فإنه من الكبر بحيث لا

يستطيع تذكر التفاصيل. ولكن ذلك لم يمنع البعض من عمل مسرحيات أذيعت فى التليفزيون عن جمهورية زفتى، ولم يمنع الكاتب الروائي مجيد طوبيا أن يصدر رواية باسم «كشك الموسيقى» يروى فيها أحداث ثورة زفتى ويقدمها درسا للشباب والأطفال وقد أذاع التليفزيون على ٢٥ حلقة مسلسلا «باسم جمهورية زفتى» كتب له السيناريو الكاتب يسرى الجندى وأخرجه اسماعيل عبد الحافظ واشترك فيه عدد من كبار الممثلين وقد لقى نجاحا كبيرا وحصل على عدة جوائز.

وقد احتفل أهالى زفتى منذ حوالى سنة بذكرى جمهورية زفتى باعتبارها إحدى أبرز مفاخر تاريخ بلدتهم.

وقد كان لدور يوسف الجندى فى ثورة زفتى أثره فى التفاف أهالى زفتى حوله بحيث إنه لم يجد أى مشقة فى نجاحه فى كل الانتخابات التى تقدم اليها لمجلس النواب عن دائرة زفتى. وكان ذلك منذ أول انتخابات نيابية بعد صدور دستور ١٩٢٣. فانتخب نائبا فى الأعوام ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦ ثم ١٩٣٠ ثم ١٩٣٦ وكان عمى عوض يرشح نفسه فى دائرة سند بسط.

وفرضت ظروف العمل على والدى الانتقال إلى القاهرة وفتح مكتبا للمحاماة مع صبرى أبو علم وعبد الحميد عبد الحق.

وفى ١٩٢٧ قدم إلى مجلس النواب مشروعا بإلغاء الأوقاف الأهلية.

وفى عام ١٩٣٦ وفى وزارة الوفد عين وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية وعند التعديل الوزارى عام ١٩٣٧ رشح وزيرا للمعارف ولكن فاروق رفض تعيينه وحدثت أزمة بين الوفد والسراى ثم سوى الأمر بعد فترة بإعادته لمنصبه السابق وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية. وبقى فى الوزارة إلى أن أقيلت حكومة الوفد عام ١٩٣٨، وجاءت حكومة محمد محمود باشا وتعاقبت حكومات.

وفى عام ١٩٣٦ عين مع عدد من الشخصيات عضوا فى الوفد المصرى وهى الهيئة القيادية للوفد وظل فيه حتى وفاته.

وفى ١٩٣٨ جاءت إلى الحكم حكومة محمد محمود باشا. وأذكر فى تلك الفترة أننى وأخى أحمد كنا نذهب لجلسات مجلس الشيوخ لنشاهده وهو يلقى خطاباته واستجواباته التى كانت تتميز بالدراسة وقوة الحجة والإقناع باعتراف أصدقائه وخصومه.

وبرز والدى فى هذه الفترة فى المعارضة وكانت العادة أن تجرى القرعة بين الأعضاء المعينين فى فترات دورية وتعيين عدد من الأعضاء بدلا منهم. خرج من القرعة أربعة عشر وفديا، وأعيد تعيين أبى وحده دون بقية الوفديين. وقد اعترض الوفد على ذلك وعلى رأسه النحاس باشا وطلب منه رفض هذا التعيين والاستقالة من المجلس. واختلف هو وعدد من

الأعضاء مع هذا الرأى.

لم يخف ذلك النحاس باشا فى حفل تأبينه عام ١٩٤٢ فى نقابة المحامين فقد قال:

«ولقد تجلت مواهبه، وظهرت عبقريته عندما كان نائبا لزعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ الاستاذ محمود بسيونى بك، وكان الانقلاب الدستورى فى أعلى قمته، والوفد فى كفاحه ومجالدته، فلقد صال يوسف وجال، وقاد سفينة النضال، بحصافة رأى وشدة عارضة، ورصين منطق، وإصابة مرمى، وقوة بيان، وعفة لسان، يقرع الحجة من نصر إلى نصر، ومن نجاح إلى نجاح، حتى ألزم الكل احترامه واضطرهم إلى إكباره، واكتسب رضا خصومه وأصدقائه على السواء، وسرت شهرته وارتفع صوته فى جميع الأرجاء.

ولعل أظهر صفة برزت فيه إذ ذاك هى صفة الوفاء، الوفاء الذى تغلب على كل شيء، ولم يقف دونه أى شيء، حتى حرية الرأى، وحتى الاستقلال فى الرأى، فلست أكتمكم – أيها السادة– أنه عندما أجريت القرعة فى مجلس الشيوخ فى سنة ١٩٤٠ وخرج منها أربعة عشر وفديا من المعينين ولم يتبع الطريق الدستورى فى إجراء الانتخابات لبقية الأعضاء كما تعلمون، ثم أعيد تعيين الفقيد وحده دون بقية اخوانه الوفديين لا أكتمكم أنى اعترضت على ذلك وأشرنا إليه أنا وبعض الزملاء فى رفق أنه من المستحسن رفض هذا التعيين والاستقالة من المجلس احتجاجا على هذا التصرف الذى يأباه الدستور، ولايقره الإنصاف، ولكنه خالف هذا الرأى، ولم يكن ليؤدى الخلاف بيننا إلى انفصاله عن الوفد أو خروجه على وعلى إخوانه الوفديين كما فعل غيره من قبل، ومن بعد.. لأن وفاءه لمبدئه، وحرصه على رضا زعيمه وزملائه، ارتفعا به عن أن يكون بزعيمه وإخوانه غادرا، وبمبدئه كافرا، ولفضل الوفد عليه ناكرا، ولم يتردد عن إعلان هذا فى كل مكان، والتحدث به لكل إنسان».

والحقيقة أنه كان هناك خلاف حقيقى حول هذا الموضوع. وكان أبى يرى أنه مع وجوده فى مجلس الشيوخ يستطيع أن يلعب دورا أكبر من مجرد الاستقالة والمقاطعة.

وقد حاولت السراى استغلال هذا الخلاف فى هذا الوقت. فمع أن إعادة تعيينه كانت بمثابة اعتذار عن الموقف السابق برفض تعيينه وزيرا، وإطلاق الشائعات حول نزاهته، إلا أنها حاولت أيضا الاستفادة من الخلاف بينه وبين قيادة الوفد فى صراعها ضد الوفد. إلا أنه رفض ان يستغل، وبقى حتى آخر أيامه معارضا وفديا، واكتسب بذلك احترام أصدقائه وزملائه فى الحزب وخصومه.

وقد عبرت جنازته عن هذا الإجماع. وكان قبل وفاته فى وضع مالى متعسر. وعندما أصابه التعب يوم وفاته، وأحس بالنهاية، كتب بطاقة لصديقه أحمد حمزة جاء فيها (أوصيك بأولادى). لأنه كان يتعيش أساسا من عمله فى المحاماة. وكان قد اشترى فى آخر أيامه أرضا زراعية صغيرة فى أبو الصير مركز السنبلاوين كانت تؤجر للمزارعين. ولم يكن عائدها يكفى

بعد وفاته لإعالة الأسرة وقد قررت حكومة حسين سرى باشا معاشا استثنائيا لأسرته قدره ١٠٠ جنيه ثم سمى أحد شوارع القاهرة باسمه وهو الشارع الذى كان يسمى سابقا شارع الحواياتى فى باب اللوق وأصبح الآن يسمى شارع يوسف الجندى.

وقبل وفاته بشهور وفى ٩ سبتمبر ١٩٤١ كان قد صدر قرار من مجلس إدارة بنك مصر بتعيينه عضوا فى مجلس إدارة البنك.

فوجئنا نحن والأسرة بوفاة والدى التي لم نكن نتوقعها وكنت وقتها لم أصل بعد إلى السادسة عشرة، وكنت طالبا بالسنة الرابعة الثانوية بمدرسة الابراهيمية وكان لوفاة أبى وقع شديد على أمى التى أغمى عليها ولما أفاقت ظلت لفترة متأثرة بالصدمة.

وكنا جميعا قصر. فقد كان احمد أكبرنا. ولم يكن قد بلغ بعد الثامنة عشرة من عمره، أما أصغرنا وهو صلاح فقد كان فى العاشرة. وكان هو وحسن يدرسان فى المدارس الابتدائية. ووجهت أمى بوضع جديد لم تكن مستعدة له فقد أصبحت هى المسئولة الوحيدة عنا. وهى لم تعتد ذلك. وبدأ أحمد وهو فى هذه السن الصغيرة يتحمل مسئوليات كثيرة وتعلم قيادة السيارة التى أصبحت عمليا تحت يده.

وكان أبى قد مرض بالسكر قبل وفاته بعدة سنوات ويبدو أن زيادة المرض فضلا عن الإجهاد العصبى الشديد فى السنوات الأخيرة قد أثرا عليه، فأصيب بأزمة قلبية أدت إلى وفاته.

ولم تعش أمى بعده سوى أربع سنوات إذ تراكمت عليها امراض ضغط الدم والكلى ثم القلب وتوفيت عام ١٩٤٥. وكان أخى قد بلغ سن الرشد وأصبح وصيا علينا.

وواصل بعض أصدقاء أبى إقامة علاقات مع أحمد مثل عبد الحميد عبد الحق وتكونت صداقة بينهما رغم فارق السن. أما أحمد حمزة فقد اعتاد أن يدعونى أنا وأحمد إلى الإفطار فى رمضان وتكونت علاقة أيضا مع ابراهيم فرج.

وقد تخرج أحمد من كلية الحقوق عام ١٩٤٤ وتخرج أيضا من أصدقائنا جمال العطيفى وفتحى غانم وعز العرب أمين وعز الدين رفعت. وكانت حكومة الوفد وقتها فى السلطة، فعين بشكل استثنائي فى الدرجة الخامسة بوزارة المالية فى الادارة القانونية ولكنه لم يستمر طويلا فى الوظيفة خصوصا بعد إقالة حكومة الوفد وإلغاء الاستثناءات، وعمل بالمحاماة فى مكتب عبد الحميد عبد الحق وعندما كون عبد الحميد عبد الحق حزب العمال عمل معه، وأصبحت له اتصالات عديدة بنقابات العمال.

ومنذ عام ٤٤ كان طريقانا أنا وأخى فى السياسة قد انفصلا، فقد اتجهت للعمل اليسارى أما هو فقد اتجه توجها آخر وأذكر أنه فى ذلك الوقت كان يقول لى: طريقانا مختلفان أنت تريد أن تكون شيوعيا أما أنا فأريد أن أكون مليونيرا.

وبرغم ذلك فقد كنت أنا وأحمد أصدقاء وكانت لنا مجموعة أصدقاء مشتركين. كان أقربهم هو جمال العطيفى ثم انضم إلينا فتحى غانم وعز العرب أمين وعزمى نجيب وجورج زنانبرى ثم عز الدين رفعت.

وأذكر فى بداية الأربعينيات أن تصادقنا مع أسرة انجليزية اسمها «بارات» تتكون من مستر بارات ومسز بارات وابنة اسمها جريسى كانت تعمل فى السفارة البريطانية لها أخ أصغر منها مباشرة ثم أختان أصغر (دوروتى ووينى). كنا نتردد عليهم أنا وأخى وجمال العطيفى. وكانوا يخرجون معنا فى السيارة التى كان يقودها أحمد.

وتصادق أخى مع جريسى التى أحبته وكنا نذهب إليهم تقريبا كل مساء ونرقص معهم. وعلى أيديهم تعلمنا الرقص. وكنت أنا أيضا أحب جريس ولكنها كانت تحب أخى، وكانت تريد أن يتزوجها . وكنت أريده أن يتزوجها مادام يخرج معها. وكنت أعتب عليه أنه لايفعل ذلك.

وفى إحدى الأمسيات ذهبت أنا وجمال العطيفى كالعادة إلى عائلة بارات وكان عندهم ضيوف وعشاء وانضممنا إليهم. ثم نادانا مستر بارات وقال لنا أنه لم يدعنا فخرجنا على الفور ولم نعد إليهم بعد ذلك. ولم نفهم السبب، فقد كان دائما لطيفا هو وزوجته ويرحبون بنا دائما. ورغم انقطاعنا عن الأسرة فقد استمرت صداقة أحمد وجريس لفترة إلى أن تركها لفتاة أخرى.

كانت جريسى تكبرنى بعام. وكانت أصغر من أحمد بعام. وبعد أن انفصل عنها أحمد بقليل عرفنا أن الأسرة عادت إلى انجلترا. وقد التقى أحمد وكذلك جمال بجريسى فى لندن بعد حوالى أربعين عاماً، وكانت قد أصبحت سيدة عجوزا.

أنهيت دراستى الثانوية بتفوق والتحقت بكلية الحقوق. وكان أبى لايرغب فى دخولى كلية الحقوق، وكان يفضل لى كلية عملية. وقد جرى ذلك فى حديث بينى وبينه قبل وفاته. ولكنه توفى قبل أن أنهى دراستى الثانوية فقد كنت وقتها فى السنة الرابعة وكان على أن أحدد تخصصى فى السنة الخامسة (التوجيهية) فاخترت القسم الأدبى ثم دخلت كلية الحقوق، نفس الكلية التى كان يدرس فيها أخى احمد وصديقى جمال العطيفى. لم يكن أحمد يهتم كثيرا بالمذاكرة أو حضور المحاضرات ولكنه كان يعكف على المذاكرة بضعة أيام فى آخر العام وينجح، وهكذا أنهى كل سنوات الدراسة وحصل على الليسانس. أما جمال العطيفى فكان يهتم بالتفوق ولهذا كان يهتم بالتحصيل طوال العام ويحرص على الحصول على درجات عالية فى نهاية العام. ولقد تحقق له ذلك بالفعل. فكان متقدما دائما فى النتائج النهائية. ولهذا لم يجد صعوبة بعد تخرجه فى أن يعين فى النيابة. وقد كان خاله وكيلا للنيابة وكان يفخر به دائما. ولم يعين جمال فى النيابة مباشرة ولكنه استطاع أن يصل إلى ذلك فيما بعد.

دخلت كلية الحقوق عام ٤٣ - ٤٤ وكان أخى وجمال فى السنة الرابعة.

فى الفترة الجامعية تكونت لدينا صداقات كثيرة دفعتنا إلى تكوين جمعية سميناها «الاسرة الجامعية» كنا نعقد لقاءاتنا فى نقابة المحامين. وفيها نظمنا محاضرات وندوات. وأذكر من بين أعضاء هذه الأسرة بخلاف اخى احمد وجمال العطيفى كان معنا عز الدين رفعت وانجى رشدى وفتحى غانم وعز العرب أمين وعلاء الشيتى وغيرهم. وأذكر أننى القيت محاضرة عن «عبد الرحمن الكواكبى». وتوثقت علاقتى بعز الدين رفعت الذى وجدته يتردد أيضا على دار الأبحاث العلمية. وكانت انجى رشدى وطالبة أخرى اسمها سميحة زميلتين لى فى السنة الأولى بكلية الحقوق. وكنا ننظم محاضرة دورية تدور حولها المناقشة. وكانت هناك محاضرة لجمال العطيفى وأخرى لعز الدين رفعت.

وكانت الحياة الاجتماعية فى الجامعة مختلفة تماما عنها حاليا، وبالذات بالنسبة للعلاقة بين الطلبة والطالبات. فكان عدد الطالبات قليلا يجلسن فى الصفوف الأولى. لا يختلطن بالطلبة إلا فى أضيق الحدود. وكان لهن مجتمعهن الخاص المستقل عن مجتمع الطلبة. وإذا وقف طالب مع طالبة فى فناء أو تحدث معها أصبحا مثارا للحديث فى الجامعة. وفى بعض الأحيان يتدخل ضباط الحرس.

فى ظل هذا الجو أنشأنا «الأسرة الجامعية» يهدف كسر هذا الوضع وخلق علاقات طبيعية بين الطلبة والطالبات.

وكان الوضع فى كلية الآداب أكثر تحررا منه فى كلية الحقوق. وقد يرجع ذلك لكثرة الطالبات هناك. ولهذا السبب كان كثير من طلبة الحقوق يزورون كلية الآداب والكافتيريا الموجودة هناك لإقامة علاقات أكثر حرية.

وبعد تخرج أخى توثقت علاقته أكثر بعبد الحميد عبد الحق خصوصا بعد أن عمل محاميا فى مكتبه.

وأذكر مرة أن عبد الحميد عبد الحق دعانا مع أخى إلى أوبرج الأهرام. وكان عبد الحميد عبد الحق وقتها قد عين وزيرا بعد أن اختلف مع الوفد وانفصل عنه. وعلى مائدة مجاورة كان يجلس رجل سمين أبيض ومعه ثلاث نساء أجنبيات وكان يضحك بشكل مستمر ويتحدث مع النساء باللغة الانجليزية. وفجأة التفت هذا الرجل السمين إلى عبد الحميد عبد الحق وقال له «ازيك يا عبد الحق» ففوجئت بعبد الحق ينتفض واقفا ويشكر الرجل على سؤاله. تبينت بعد ذلك أنه الملك فاروق.

كانت صورته مقززة لى خصوصا وكانت الشائعات قد ملأت مصر عن مغامرات فاروق النسائية وسهراته فى الأوبرج وكذلك كان منظر عبد الحميد عبد الحق الوزير الكبير وهو يقف فى خشوع أمام هذا الشخص الماجن.

(٤)

الارتباط بالحركة الشيوعية

في السنة الأولى بكلية الحقوق كنت أهتم بدراستى وأنهيت امتحاناتى بدرجة جيد. وتخرج أحمد وجمال العطيفى، وفى أحد أيام الصيف أخبرنى جمال العطيفى أن هناك محاضرة لزكى هاشم عن «الملكية الزراعية في مصر» فى مكان بشارع قصر العينى يدعى لجنة نشر الثقافة الحديثة. فذهبت إلى هناك ولم يذهب جمال. وأجلت المحاضرة ولكننى تعرفت برئيس اللجنة وهو سعيد خيال الذى اهتم بمجيئى ودعانى إلى الانتظام فى الحضور إلى اللجنة التي كانت تعقد فيها ندوة أسبوعية. وأعطانى بعض الكتب للقراءة.

انتظمت فى التردد على لجنة نشر الثقافة الحديثة وتعرفت هناك على أشخاص جدد منهم عبد الرحمن الشرقاوى ونعمان عاشور ومصطفى كامل منيب وأسعد حليم وأحمد رشدى صالح وأحمد صادق سعد وريمون دويك وغيرهم.

وواظبت على الزيارة الأسبوعية للجنة نشر الثقافة الحديثة. وكانت قريبة من منزلنا. ولم يذهب إلى هناك جمال العطيفى ولو مرة واحدة، رغم أنه هو الذى أرشدنى إليها. واستمر سعيد خيال فى تزويدى بالكتب. كانت كتبا عن الاشتراكية. وعن الحياة فى الاتحاد السوفيتى. وكانت المحاضرات والندوات كلها تعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية من منطلق يسارى. وفى أحد الأيام وفى ندوة من الندوات تعرفت بأنور عبد الملك الذى دعانى إلى دار أخرى تقع فى شارع نوبار اسمها «دار الأبحاث العلمية» جذبتنى بعد ذلك أكثر من لجنة نشر الثقافة الحديثة. فقد كان الحضور أكثر عددا والتنظيم أفضل، فإلى جانب المحاضرات والندوات الأسبوعية كانت هناك لجان مختلفة.. لجنة السياسة الداخلية ولجنة للسياسة الخارجية وأخرى للاقتصاد ولجنة لقضايا التعليم وأخرى للشباب الخ. وتعرفت هناك على شخصيات أخرى أساتذة ومدرسين ومعيدين وطلبة من الرجال والنساء والفتيات.

كانت زيارتى لدار الأبحاث العلمية تمثل نقطة تحول جذرية فى حياتى. فمن خلالها ارتبطت بالحركة الشيوعية. وهو الارتباط الذى حدد مسار حياتى كلها بعد ذلك. عز الدين رفعت يتردد أيضا على دار الأبحاث العلمية. أما أخى أحمد وكذلك جمال العطيفى وفتحى غانم وباقى الأصدقاء فكانت لهم اهتمامات أخرى خصوصا بعد أن أنهوا دراساتهم الجامعية. فأخى كان مشغولا بالعمل مع عبد الحميد عبد الحق. أما جمال العطيفى فقد عمل فترة فى الإدارة القانونية بإحدى الوزارات ثم عمل فى النيابة.

وتعرفت فى دار الابحاث العلمية بشخصيات جديدة منهم شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى وكانا يديران بالفعل العمل فى الدار. وكانت معهما مجموعة من المعيدين فى كلية العلوم مثل أحمد شكرى سالم وعبد الرحمن الناصر وبعض طلبة كلية العلوم مثل جمال غالى وفاطمة زكى وبعض طلبة كلية الآداب مثل لطيفة الزيات وثريا أدهم وغيرهم، وكانوا جميعا فى نشاط وحركة دائمة بهرتنى وجعلتنى أرتبط بهم وأندمج فى هذا الجو. وفى أحد الأيام دعانى أنور عبد الملك لزيارته فى منزله حيث وجدت هناك شهدى عطية الشافعى وكان يعمل مفتشا للغة الانجليزية وظريف عبد الملك وكان قد تخرج من كلية الحقوق وهو من دفعة أخى أحمد.

واقترح علينا شهدى أن نلتقى بشكل دورى لدراسة الماركسية. وبدأنا بدراسة الفلسفة الماركسية ثم الاقتصاد السياسى ثم تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى ونظرية الحزب وغير ذلك من الموضوعات. وفى كل جلسة كان أحدنا يقوم بتلخيص أحد الكتب وكانت الكتب التى نقرؤها ونلخصها كلها باللغة الانجليزية لندرة الكتب العربية الماركسية فى ذلك الوقت. استمر هذا الوضع لمدة أربعة أشهر وكانت هذه اللقاءات والقراءات والتلخيصات وترددى على دار الأبحاث العلمية تأخذ الجزء الأكبر من اهتمامى. وأصبحت أهتم بها أكثر من اهتمامى بدراستى الجامعية.

ولم تكن هذه هي اهتماماتى الأولى بالاشتراكية، وقد تحدثت قبل ذلك عن الاهتمامات السابقة، وأضيف أنه فى الماضى كنت أهتم بمطالعة «المجلة الجديدة»، وفى أثناء الحرب وأثناء انتصارات ستالينجراد، وكنت قد قرأت الدستور السوفيتى وبعض الكتب الأخرى عن الاتحاد السوفيتى. وقد أثرت الانتصارات السوفيتية فى ستالينجراد تأثيرا كبيرا عليّ فانتهزت فرصة علاقة نشأت مع مجلة «الشعلة» الوفدية، والتى كان أحمد وجمال العطيفى ينشرون بها قصصا فكتبت اليها مقالا بعنوان «روسيا السوفيتية» أكدت فيه أن انتصارات ستالينجراد هى انتصار للنظام السوفيتى، وأن النظام الاشتراكى هو الذى مكن السوفييت من تحقيق هذا الانتصار. وقد فوجئت بقيام المجلة بنشر مقالتى على صفحتين كاملتين فى مكان بارز، أثنى الكثيرون ومنهم عمى «عبد القادر» عليها. وكنت راضيا جدا عن ذلك.

وقد كانت هذه المقالة تعبر أيضا عن تطور فى موقفى من ألمانيا الهتلرية. وقد كنت فى السابق أعتبرها اشتراكية خصوصا بعد قراءتى كتاب ألمانيا اليوم.

لهذا فإن ذهابى إلى لجنة نشر الثقافة الحديثة ثم دار الأبحاث العلمية كانت له مقدمات، ولم يبدأ من لاشيء. ولكننى وجدت أخيرا فى دار الأبحاث العلمية ثم فى الحركة الشيوعية بعد ذلك الضالة التى كنت أبحث عنها واستطعت من خلالها أن أحدد انتمائى الحقيقى، وأن أحدد طريقى فى الحياة.

وكان ارتباطى بالحركة الشيوعية هو استمرار لجهد وبحث طويل استمر عدة سنوات، كان يحكمه إحساس عميق بضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية، ومراعاة مصالح الغالبية الساحقة الكادحة من الفلاحين والعمال، ورفض الاستغلال، ورفض المجتمع الذى تعيش فيه قلة مترفة على حساب الغالبية الساحقة الكادحة. وهو استمرار للموقف الوطنى الذى يدعو للتحرر من الاستعمار والاحتلال، وهو النضال الذى لا ينفصل عن النضال ضد أعوان الاستعمار الذى كنت أرى أنهم السراى وعملاؤها وحلفاؤها من كبار الملاك والمترفين المستغلين.

وقد تأثرت بوالدى وبالأسرة التى نشأت فيها. فكنت فى البداية وفديا مثل والدى ثم أصبحت اشتراكيا. وأذكر فى شبابنا المبكر أو فى طفولتنا أننى كنت أدافع عن الوفد فى مواجهة جمال العطيفى الذى كان يدافع عن مصر الفتاة التى كان يتعاطف معها. ولم أجد أى تعارض بين الاشتراكية والإسلام. فقد نشأت مسلما أومن بالله وأواظب على تأدية فرائض الصلاة والصوم وقرأت حياة محمد والخلفاء الراشدين وقصص القرآن وتأثرت بها. وكنت أرى أن مضمون الإسلام هو العدالة الاجتماعية. ولهذا كنت صادقا مع نفسى عندما قدمت محاضرة «التضامن الاجتماعى والإسلام» ومحاضرة «الاشتراكية والإسلام». ولم أجد أى تناقض عندما وضعنا برنامج جمعية البعث الاجتماعى والذى كان البند الأول فيه «إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج» أن نضيف فى نهايته «تطبيق الشريعة الإسلامية» بعد نقاش مع أعضاء من الإخوان المسلمين. ولم أجد فى ذلك أى تنازل عن المبادئ.

صحيح أنه بعد انضمامى للحركة الشيوعية، وبعد دراستى للماركسية حدث تطور فى مفاهيمى، ولكن لم يحدث تغيير فى جوهر انتماءاتى وإنحيازى للغالبية الكادحة التى كانت تتحدد وتتعمق وتتطور وتزداد نضجا مع تقدمى فى العمر. ولم أشعر فى أى وقت من فترات عمرى بخيبة أمل فى اختياراتى الفكرية أو السياسية فى خطوطها الأساسية. قد أشعر مع تقدمى فى العمر أننى كنت أكثر اندفاعا وورومانتيكية، ومن المحتمل أننى قد أعدل بعض المسالك العملية فى طريقى وحياتى، ولكن ذلك لا يمس الاختيارات الفكرية والسياسية الأساسية.

ومع هذه النشأة كان طبيعيا أن أشعر بحماس وانفعال شديد عندما طلبنى شهدى عطية الشافعى بعد إحدى الأمسيات فى دار الأبحاث العلمية وحدثنى عن الانضمام إلى منظمة

الشرارة (اسكرا). وكان ذلك فى عام ١٩٤٥. وكنت فى التاسعة عشرة من عمرى. وطلب منى الخروج معه لأنه يود التحدث معى وسرنا وخرجنا من دار الأبحاث العلمية فى شارع نوبار وسرنا فى الشوارع المحيطة بالمكان فى السيدة زينب. وأخذ يحدثنى عن وجود تنظيم سرى اسمه الشرارة. وأن الدراسة التى كنا نمارسها كانت فى إطار هذا التنظيم، وأننى بعد أن أمضيت فترة الترشيح بنجاح يعرض عليّ الانضمام إلى هذه المنظمة. وهو يريد أن ينبهنى إلى المخاطر التى يمكن أن أتعرض لها من سجن وملاحقة وتشريد واضطهاد من جانب البوليس والسلطات. وأننى يجب أن أفكر كثيرا قبل أن أقرر.

لم أتردد وقررت القبول على الفور وأنا ممتلئ حماسا. ولم أنم فى تلك الليلة من الانفعال.

كتب الكثير عن فترة ما قبل الثورة وشاهدنا أفلاما ومسرحيات عن هذه الفترة. وكتبت روايات وقصص، وكتب عنها المؤرخون، وهو أمر لا حاجة للإفاضة فيه. ولكنى أود هنا أن أكتب عن فترة عشتها ودفعتنى للثورة عليها والانخراط فى العمل السرى والثورى ضد نظام لم أقبله ورفضت الخضوع له. ولم أقبل أن أتعايش مع النظام أو الحلول الوسط كما فعل الأصدقاء والمقربون وأولهم أقرب أصدقائى: جمال العطيفى، الذى عمل وكيلا للنيابة ثم عمل فى نيابة الصحافة يحقق مع معارضى النظام ويتهمهم أمام المحاكم.

لقد كان المجتمع ينقسم إلى قلة ضئيلة تعيش وغالبية ساحقة على هامش الحياة. لقد كانت الغالبية الساحقة من الحفاة الجائعين الذين يكدحون طول يومهم مقابل قروش ضئيلة. كل شيء معهم مستباح: عملهم، حياتهم، نساؤهم أما الأقلية الضئيلة المترفة فكل شيء مباح بالنسبة لها. كان مجتمعا يحتقر العمل ويزدرى من يعملون رغم أنه كان يعيش على عملهم، ولايستطيع الحياة بدونه. لم أستطع إلا أن أنحاز إلى الغالبية الكادحة التى تعيش على هامش الحياة، رغم أننى لم أكن منهم.

أذكر فى هذه الفترة حديثا جرى بينى وبين محمد عصفور حول الاشتراكية وكان وقتها فى كلية الحقوق. كان يرفضها وكنت أدافع عنها وساق لى حجة ساذجة: هل تستطيع مثلا أن تركب الترام فى الدرجة الثانية. وكانت حجة ساذجة لأننى كنت فعلا أركب الدرجة الثانية. وفى القطار بالدرجة الثالثة، وأصبحت أعيش قريبا من الكادحين وأحس ببعض ما يعانونه. والدكتور محمد عصفور الآن هو من الكتاب والمفكرين الذين أحترمهم وأقرأ لهم وأتفق مع كثير مما يكتبه رغم أننى أختلف معه فى كثير من القضايا. ولكنه فى هذه الفترة كان ينتمى مثلى لطبقة متميزة عن الغالبية الكادحة، ولم يتصور إمكانية التعايش مع هذه الغالبية أو الدفاع عن مصالحها.

وأقر أن هذه الفترة التى عشتها وترعرعت فيها وعشت فيها فترة الشباب سنوات قبل

الثورة، هى التى نمت فيها مداركى وهى التى حددت انتمائى ومسار حياتى بعد ذلك.

لقد كان حجم الظلم والقهر والبؤس والغنى الفاحش والاحتلال البريطانى والاستعمار وتعاون السراى والقلة الحاكمة مع هذا الاستعمار هو الأمر الذى رفضته وقررت أن أهب كل شيء فى حياتى للكفاح ضده ولتغييره، وقررت أن أكرس حياتى لذلك، وألا يصرفنى أى شيء آخر عنه، سواء أكان مالا أو منصبا أو أسرة، ومن هذا المنطلق ارتبطت بالاشتراكية ثم بالحركة الشيوعية، التى كنت اعتقد أنها الطريق الذى يمكن من خلاله أن أحقق تلك الأهداف.

أصبحت عضوا فى منظمة اسكرا (الشرارة) واسكرا كلمة روسية معناها الشرارة. وهى مأخوذة من تاريخ الحركة الشيوعية فى روسيا حين أسس لينين جريدة سماها اسكرا، على أساس أنه من الشرارة يندلع اللهب (الثورة). وعرفت أنه توجد فى مصر منظمات شيوعية أخرى وكلها تعمل تحت الأرض. منها الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى كان يرأسها هنرى كورييل ويرمز إليها باسم (ح.م). ومنظمة «الديمقراطية الشعبية» ويرمز اليها باسم «د.ش» وعرفت أن مؤسسها يدعى جاكو دى كومب وكان من أعضائها احمد رشدى صالح الذى أصدر مجلة أسمها «الفجر الجديد». وكان من اعضائها البارزين احمد صادق سعد ويوسف درويش وهما يهوديان أصلا ولكنهما اسلما. ثم منظمة «تحرير الشعب» التى أسسها مارسيل اسرائيل ومن اعضائها أسعد حليم وسعيد خيال رئيس «لجنة نشر الثقافة الحديثة». وكانت هناك منظمات صغيرة أخرى مثل منظمة «القلعة» التى أسسها مصطفى هيكل والذى كان يسكن القلعة وكان من أعضائها احمد حمروش وفؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وأحمد الرفاعى. وكانت هناك منظمة صغيرة فى الاسكندرية اسمها «الطليعة» وكان من أعضائها فؤاد مرسى.

اليهود والحركة الشيوعية في مصر:

ومن الملاحظ أن مؤسسى أكبر أربع منظمات شيوعية كانوا يهودا. ولم يثر ذلك عندى أو عند غيرى أى تحفظ. ففى ذلك الوقت وقبل حرب فلسطين كنا نتقبل وجود اليهود فى المجتمع المصرى، وكان لهم دور يتقبله الجميع فى المجتمع وفى المجالات السياسية والنقابية والاقتصادية.

وكان من الطبيعى فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات أن يتزعم بعض اليهود المنظمات النقابية مثل داود ناحوم أو يكون لهم دور فى الصحافة مثل يعقوب صنوع. وكان لهم دور كبير فى الحياة الاقتصادية وبين المحامين والأطباء وغيرهم. ولم يكن المصرى العادى المسلم يجد أى غضاضة فى التعامل والتعاون مع القبطى أو اليهودى. وقد تأكدت هذه الروح

أثناء ثورة ١٩١٩ التى ضمت الجميع فى النضال ضد الاستعمار البريطانى.

وقد كانت مصر قبل الغاء الامتيازات الأجنبية تضم عددا كبيرا من الأجانب منهم يهود من جنسيات أخرى أو بلا جنسية وكانت هناك جالية يونانية كبيرة وكذلك إيطالية وأرمنية. وكان الأجانب يتمتعون بامتيازات ويحاكمون أمام محاكم خاصة، ويعاملون معاملة مميزة عن المصريين، وكانت فرصتهم فى الانفتاح على أوروبا وعلى الثقافة الأوروبية أكثر من المصريين. ولهذا كان من الطبيعى أن يكون لهم ريادة فى مختلف المجالات، بما فى ذلك الحركات الثورية، والتعرف على الفكر الماركسى.

خلال الحرب العالمية الثانية، وأثناء التحالف ضد المانيا النازية والذى ضم الاتحاد السوفيتى أصبح هناك تساهل فى تقبل الكتب عن الاتحاد السوفيتى وكذلك المطبوعات الماركسية. وافتتح هنرى كورييل مكتبة فى ميدان مصطفى كامل سماها «مكتبة الميدان» كانت تعرض الكتب الماركسية، وكان أغلبها باللغة الانجليزية وقد اعتاد الشباب اليسارى التردد على هذه المكتبة.

كان أبو كورييل مليونيرا، ويقال أن المكتبة كانت ملكه ولكن ابنه كان يديرها [١].

أول خلية:

كان مسئول أول خلية انضممت إليها يدعى محمد جمال الدين، وكان طالبا فى كلية الطب. وكانت الخلية تضمنى وتضم لطيفة الزيات التى كانت طالبة بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب، وكانت تسبقنى بسنة فبينما كنت فى السنة الثالثة كانت هى فى السنة الرابعة.

واصلنا الدراسة فى الخلية. وكانت تصلنا نشرة داخلية. ونناقش النشاط وتجنيد مرشحين جدد للتنظيم. وقد اجتهدت فى هذا المجال وكونت عدة مجموعات للمرشحين من طلبة كلية الحقوق أساسا. وأذكر من أوائل هؤلاء المرشحين الذين عملت معهم حوالى خمسة شهور وأتممنا دراسة الكورس النظرى الماركسى اثنين هما: بهى الدين الرشيدى (الذى أصبح فيما بعد سفيرا فى وزارة الخارجية) ومحمد فهيم الذى أصبح بعد ذلك محاميا وعضوا نشيطا فى نقابة المحامين وبعد أن أنجزت معهم البرنامج، وشعرت أنهما جديران بالترشيح للتنظيم، فاقترحت أن يقبلا كأعضاء، ولكن جاء الرد بالرفض بحجة انهما عنصران مشكوك فى علاقتهما بالبوليس السياسى. فاضطررت لقطع العلاقة بهما رغم أننى لم أكن مقتنعا بجدية تلك الشكوك. وحزنت لذلك لأننى بذلت معهما جهدا وكنت اعتبر أننى قمت بإنجاز هام معهما. ولم استطع مواجهتهما بتلك الشكوك، إلا أنهما أحسا بأن هناك شيئا غير عادى، وأصبحت

---

(١) اقرأ عن دور الأجانب فى النشأة الأولي للحركة النقابية والعمالية د. رءوف عباس «الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢». وكتاب عالم التاريخ جاريا تشكين «الأقليات الأجنبية فى مصر».

فى وضع حرج ولكننى واصلت عمليات التجنيد، ومن هؤلاء الذين رشحتهم وقدمتهم للمنظمة مصطفى درويش الذى عمل بعد ذلك مستشارا فى مجلس الدولة وصار حجة فى السينما عمل فترة مديرا للرقابة على الأفلام السينمائية وحسن علام الذى زاملنى فى الدراسة وأصبح بعد ذلك مستشارا وقمت بتجنيد صلاح نصار الذى فوجئت بعد ذلك عند اعتقالى عام ١٩٥٩ بتهمة تأسيس تنظيم شيوعى بأنه رئيس النيابة الذى يحقق معنا. وكان موقفه فى التحقيق فى غاية الرداءة.

وقمت فى هذه الفترة بترجمات كثيرة منها كتاب شامل عن الماركسية لكاتب انجليزى اسمه اميل بيرنز. وكنت أعطى هذه الترجمة لعدد من زملائى الطلبة، ومن بينهم لبيب شقير الذى كان يدرس معى فى نفس السنة وكنت أشعر بأنه يمكن كسبه. ولكن تفكيرى تغير عندما سألته مرة عن رأيه فى النظام الملكى، فأخذ يردد نفس الكلام عن ميزات الملكية التى ندرسها فى كتب القانون الدستورى.

وكان من زملائي فى نفس السنة كمال عبد الحليم وكامل زهيرى وابراهيم خلاف (والذى قمت بتجنيده وترشيحه للتنظيم) وتعرفت أيضا بعز الدين فوده واسماعيل صبرى عبد الله وكانا يسبقانى بسنة وعرفت أشخاصا من مختلف التنظيمات مثل كمال عبد الحليم ((ح.م) فؤاد عبد الحليم (القلعة) احمد رشدى صالح (الديمقراطية الشعبية) سعيد خيال (تحرير الشعب). وعناصر كانت تعتبر نفسها تروتسكيه مثل عادل امين وبعض العناصر كان يشاع عنها أنها تروتسكية مثل اسماعيل صبرى عبد الله ونهيد أبو زهره اللذين كانا لا يفترقان. وتعرفت بعناصر من الأحزاب الأخرى مثل محمد كامل (حزب وطنى) وعبد المحسن حمودة ومصطفى موسى (الوفد) وحسان حتحوت (الاخوان المسلمون) وغيرهم.

وكانت تدور مناقشات مع محمد كامل. أما الاصدقاء القدامى فبعد تخرجهم بدأت تفترق السبل. فجمال العطيفى يعمل فى النيابة، أما فتحى غانم فأصبح موظفا فى إحدى الوزارات. وكان مهتما بقراءات عديدة فى الفلسفة. وكان متأثرا بشوبنهاور ونيتشه وغيرهما من منظرى الفاشية وكانت تدور بينى وبينه مناقشات عديدة نختلف فيها. ولكننى أذكر بعد عدة سنوات وأنا أعمل فى الأقاليم فى العمل السرى أن التقيت به فى الطريق فحيانى بعاطفة شديدة وتعاطف وأوصانى بالحذر.

وكانت هناك أيضا مناقشات مع عز العرب أمين أما جمال العطيفى فكان همه الأساسى الوصول الى مركز مرموق فى المجتمع وكان يعتقد أن النيابة يمكن أن توصله إلى ذلك.

وكان أحمد رشدى صالح يطلب منى أن أكتب فى مجلة «الفجر الجديد» وفى إحدى المرات أعطانى مواد لكتابة مقال عن الاحتكارات الدولية. وقد نشر المقال وأثنى رشدى صالح عليه.

الاعتقال الأول:

فى أواخر ١٩٤٥ وأوائل ١٩٤٦ كنت قد كونت مجموعة مرشحين من مصطفى درويش وكان طالبا فى كلية الحقوق وطالب آخر فى كلية الهندسة لا أذكر اسمه الآن. وكنا نعقد اجتماعا فى أحد المنازل بالجيزة. وعند انتهاء الاجتماع فى منتصف الليل خرجت مع مصطفى درويش وأسرعنا للعودة إلى منازلنا. وكان مكان الاجتماع قريبا من منزل بهى الدين بركات باشا. وكانت قد انتشرت فى هذه الفترة العمليات الارهابية. فقد اكتشفت قنبلة فى سينما مترو وفى أماكن أخرى، وفى اسراعنا للعودة سمعنا صوت سيارة ورأيناها من بعيد وظننا أنها سيارة أتوبيس وجرينا للحاق بها. وتوقفت السيارة وظهر انها سيارة شرطة. ونزل الضابط وسألنا لماذا نجرى؟ فأخبرناه أننا كنا نظن انها سيارة أتوبيس. فأخذ فى تفتيشنا وأخرج من جيب مصطفى كتاب «البيان الشيوعى» فاقتادنا إلى قسم البوليس.

وهناك فتشونا ووجدوا معى نوتة صغيرة بها بعض الرموز التى لم يفهموها. وعرضونا فى اليوم التالى على النيابة التى حققت معنا. سألنى المحقق عن الرموز فقلت أنها اسماء أصدقاء. فقال: صديقات؟ قلت: نعم. ونشرت الصحف فى اليوم التالى نبأ اعتقال شيوعيين وأن أحد الشيوعيين فسر الرموز بأنها أسماء صديقات ولم يستطع وكيل النيابة أن يوجه الينا أى تهمة محددة، ومع ذلك بقينا فى الحجز لمدة أربعة أيام أفرج عنا بعدها قاضى المعارضة.

وكانت هذه أول تجربة لى فى الاعتقال وكان عمرى عشرين عامًا، وكان مصطفى اصغر منى بسنة على ما أعتقد. وكنت أسبقه بسنتين فى الدراسة بكلية الحقوق.

وقد أثار اعتقالى فزع الأهل وكانت والدتى قد توفيت قبل ذلك. فلم تعش هذه التجربة. ولكن كان يعيش معى فى المنزل اخوتى وخالاتى. وكانت أكبر اخواتى وهى الأصغر منى مباشرة قد تزوجت من أنور وحش الذى عين فى وزارة الوفد وكيلا للنيابة وكان يخشى بالطبع أن يؤثر اعتقالى على وضعه. وأخذ أعمامى يسدون لى النصائح ويضغطون على لكى اترك هذا الطريق، المحفوف بالمخاطر. وأذكر أنه فور وصولى إلى المنزل أحضروا لى الطعام لأعوض الأربعة أيام التى قضيتها فى السجن.

وأذكر أن محاولاتهم كانت تمزج بين النصائح والتخويف.

- ومن أمثلة ذلك أننى قبل اعتقالى بعدة شهور كنت قد شعرت ببعض الألم فى منطقة الصدر وكان لى صديق يدرس فى كلية الطب وكان يتردد معى على دار الابحاث العلمية. فاستشرته فى هذا الألم فوضع يده على قلبى وقال انه القلب ففزعت فزعا شديدا لعلمى بأن أبى مات من مرض القلب وكذلك أمى. فأصبت بوهم شديد وارتفعت دقات قلبى بحيث أنى مرضت بالفعل عدة أيام وأصبحت أرقد طول الوقت ولا أتحرك. فأخذنى أنور وحش زوج أختى

إلى احد أطباء القلب الذى كشف عليّ وطمأننى وسخر من قول صديقى الطالب فى كلية الطب. وقال أن قلبى سليم تماما. وأن كل شيء سليم. ويبدو أنه قاس ضغط الدم ووجده مرتفعا ٨٠/١٦٠ ولكنه لم يقل لي شيئا بخصوص ذلك.

خرجت من عند الطبيب وأنا أشعر أنى معا فى تماما، وبعد أن كنت أتحسب فى سيرى أصبحت أقفز درجات السلم وقد انزاح عن صدرى عبء الوهم الشديد.

بعد خروجى من الحبس أراد زوج اختى أن يخيفنى فأخبرنى بأن الطبيب وجد ضغط الدم عندى مرتفعا، وأننى يجب أن أراعى ذلك، وأتجنب السجون والمشاق مراعاة لصحتى.

لم أعر ذلك أى اهتمام فى ذلك الوقت. ولم أخف فقد كان انخراطى فى العمل السياسى وايمانى بما أقوم به أقوى من أى اعتبارات أخرى.

وكان عمى عبد القادر شقيق أبى الأصغر يواظب على تقديم النصح لى، ويحاول الضغط على بكل الوسائل. وذلك رغم أنه بعد أن قرأ مقالتى فى مجلة الشعلة عن «روسيا السوفيتية» أثنى عليها وعليّ وفرح بذلك. ولكنه بعد أن لاحظ انخراطى الجاد في العمل السياسى غير موقفه، وكان يبذل جهدا كبيرا فى اقناعى. وقد استمر يعمل فى مكتب أبى بعد وفاته.

ولكن هذه النصائح كلها لم تعد تجدى معى، فقد أصبحت منخرطا فى العمل السياسى، بشكل لم أعد فيه ألقى بالا لأى نصح.

***

عندما أشرفت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء اخذت القوى الوطنية فى مصر والأحزاب المختلفة تثير مسألة ضرورة حل القضية الوطنية مع التسويات التى ستتم بعد الحرب. وأثارت الأحزاب المختلفة مسألة مساندة مصر للحلفاء وقت الحرب وأنه يجب أن تكافأ على ذلك بتحقيق المطالب الوطنية بانسحاب القوات البريطانية من مصر. وكانت الأحزاب كلها سواء الموجودة فى الحكم أو المعارضة تطالب بالتفاوض مع الانجليز لتعديل معاهدة ١٩٣٦ مما يضمن جلاء القوات البريطانية واستقلال مصر فى اطار التحالف مع بريطانيا. وكان الحزب الوطنى وحده هو الذى يرفع شعار «لامفاوضة إلا بعد الجلاء»، ولكن مطالب كل الأحزاب كانت تنحصر بالتحرك فى اطار الأوضاع القائمة، والنظام الملكى والنظم الاجتماعية السائدة. وعندما قدم محمد خطاب أحد أعضاء مجلس الشيوخ مشروع قانون بتحديد الملكية الزراعية بخمسين فدانا هوجم المشروع واتهم بأنه مشروع شيوعى ورفضه البرلمان.

أما بالنسبة للسودان فكان موقف كل الأحزاب هو المطالبة بوحدة مصر والسودان تحت

التاج المصرى.

أما قوى اليسار والقوى التقدمية التى كانت تضم أساسا المنظمات الشيوعية التى تعمل تحت الأرض ولا تتمتع بأية شرعية فقد بدأت تطرح برنامجا مختلفا وقد ظهر هذا البرنامج فى بعض المطبوعات مثل كتاب «أهدافنا الوطنية» لشهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى. وفى المحاضرات فى لجنة نشر الثقافة الحديثة ودارالأبحاث العلمية وفى بعض المجلات التى ظهرت فى ذلك الوقت مثل «الفجر الجديد» و«الطليعة» و «أم درمان» وعن طريق بعض دور النشر مثل «دار القرن العشرين» والمنشورات السرية التى كانت تصدرها الحركة المصرية للتحرر الوطني. وكان هذا البرنامج يربط بين النضال من أجل التحرر الوطنى والتحرر الاجتماعى. يدعو إلى الاستقلال الكامل السياسى والعسكرى والاقتصادى والثقافى. ويربط بين النضال ضد الاستعمار وأعوانه فى الداخل من الاقطاعيين وأشباههم وكبار الرأسماليين. وكان يدعو الجماهير من عمال وفلاحين وطلبة ومثقفين وغيرهم من الوطنيين للتحرك من أجل تغيير المجتمع وتحريره من الاستعمار وأعوانه وعلى رأسهم السراى.

وكان لهذه القوى موقف متميز من قضية السودان. فقد رفضت شعار وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى، فقد كانت ترفض التاج المصرى سواء لمصر أو للسودان وكانت تدعو بدلا من ذلك للكفاح المشترك بين الشعبين المصرى والسودانى ضد الاستعمار البريطانى. وحق الشعب السودانى فى تقرير مصيره. ولكنها لم تكن تدعو إلى الانفصال أو ترحب به.

أما بالنسبة للقضايا الخارجية فكانت هذه القوى ترفض الفاشية وتدعو لدعم الحلفاء ضد عدوان المانيا النازية وايطاليا الفاشية. وكانت تساند الاتحاد السوفيتى بوجه خاص، وأذكر أن هذا كان هو التوجه فى المحاضرات والندوات التى كانت تدور فى لجنة نشر الثقافة الجديدة ودار الابحاث العلمية.

وبالنسبة للقضية العربية كانت تؤيد التضامن العربى ضد الاستعمار والامبريالية وتعارض الصهيونية والدعوة لهجرة اليهود إلى فلسطين. وكانت المنظمات الشيوعية تضم فى ذلك الوقت عددا من اليهود كون بعضهم رابطة اليهود للنضال ضد الصهيونية. وايدت هذه المنظمات نضال الشعوب العربية ضد الاستعمار فى سوريا ولبنان والعراق والأردن وغيرها من البلاد العربية ودعت للتضامن معها.

وناضلت من أجل الفصل بين الدين والدولة، وعارضت توجه الإخوان المسلمين لتكوين دولة دينية، ولكنها دافعت عن التراث الوطنى الاسلامى وعملت على تطويره مستفيدة من المنجزات الحديثة فى الفكر والعلم.

وكانت تلك المنظمات تعارض الحكومات والأحزاب المختلفة التى تولت السلطة فى تلك الفترة. ولكنها كانت تعتبر أن الحكومة الوفدية هى الأكثر شعبية، والتى تمثل الارادة الشعبية

من خلال الانتخابات، ولهذا كانت تؤيدها ضد السراى وضد حكومات الأقلية، ولكنها تختلف معها فى أنها لا تمثل مصالح العمال والفلاحين والجماهير الكادحة.

وفى أكتوبر ١٩٤٤ أقيلت الحكومة الوفدية وكلف أحمد ماهر رئيس الحزب السعدى بتأليف حكومة «قومية» أى من مجموعة أحزاب الأقليات. وشملت الوزارة ممثلين عن أحزاب الأقلية الأخرى بما فيها حزب الكتلة. وكان مكرم عبيد قد انفصل عن الوفد وكون حزب «الكتلة». وأصبح صبرى أبو علم سكرتيرا للوفد. وصعد نجم فؤاد سراج الدين. وكان من جيل أكثر شبابا. وأثيرت الشائعات عن علاقاته بزوجة النحاس باشا. وكان الأخير قد تزوج حديثا من زينب الوكيل وكانت تصغره كثيرا. ووجدت خلافات داخل الوفد بين صبرى ابو علم وفؤاد سراج الدين. واعتبر فؤاد سراج الدين وهو من كبار الملاك ممثلاً للجناح اليمينى فى الوفد بينما يمثل صبرى ابو علم الجناح اليسارى. وكون الشباب الوفدى ما عرف وقتها باسم «الطليعة الوفدية» وكانت لهم توجهات نقدية تتقارب مع توجهات اليسار. وكانت احدى المنظمات الشيوعية وهى التى كانت تسمى «الفجر الجديد» نسبة إلى المجلة التى كانت تصدر من أحد قادتها وهو احمد رشدى صالح ثم أصبحت تسمى «الديمقراطية الشعبية» ثم «طليعة العمال» ثم «العمال والفلاحين» كانت هذه المنظمة تتوجه للعمل بين الشباب الوفدى بل كان كثير من أعضائها أعضاء فى الطليعة الوفدية.

وتكون داخل الوفد تيار آخر وطنى ديمقراطى مثله بعض النواب الوفديين مثل عزيز فهمى و د. محمد مندور الذى رأس تحرير جريدة الوفد ووجهها توجها تقدميا متعاطفا مع اليسار بحيث أن صدقى باشا صادرها ضمن الصحف التى صودرت فى حملته ضد الشيوعية فى ١١ يوليو ١٩٤٦.

وكانت السفارة البريطانية، تؤيد فى العادة حكومات الأقليات وتدعم السراى، ولكن فى بداية الحرب كان هناك اتجاه للملك فاروق للتعاطف مع دول المحور، وظهرت فى السنين الأولى الخلافات بين الانجليز والملك فاروق، وبين حكومة على ماهر والسفارة البريطانية وكان طبيعيا ألا تكون عواطف الشباب الوطنى مع الانجليز. ولهذا فإننى لم أقبل أيضا تدخل الانجليز فى شئون البلاد وفرض الأوامر على حكومة على ماهر، رغم أننى كنت وفديا مثل والدى لفترة طويلة. وقد أحس الانجليز بأنهم فى حاجة إلى حكومة تحظى بالتأييد الشعبى وتتعاون معهم فى الحرب ضد محور ألمانيا – ايطاليا. ولهذا ضغطوا على الملك ليأتى بالنحاس باشا. ولما تردد فى الانصياع حاصروا القصر الملكى بالدبابات فى ٤ فبراير ١٩٤٢. وقد انتابتنى مثل غيرى من الوطنيين مشاعر متناقضة فى ذلك الوقت فأنا أرفض – مثل غيرى من الوطنيين– تدخل الانجليز ولكننى فى نفس الوقت أرفض حكومات الأقلية وأفضل عليها الحكومة الوفدية. وقد أثار ذلك نقاشا بين الشباب الوطنى وأذكر نقاشات طويلة دارت بينى وأخى من جانب وجمال

العطيفى من جانب آخر، والذى كان يهاجم قبول الوفد لتشكيل الحكومة تحت ضغط الانجليز.

أما المنظمات الشيوعية التى، كانت فى بداية تشكيلها فى ذلك الوقت، وكان غالبيتها من الأجانب، فقد كانت تساند كل مايساعد الحلفاء فى حربهم ولهذا فقد كان موقفها مؤيدا لمجئ الحكومة الوفدية.

***

(٥)

تصاعد الحركة الوطنية

وقرب نهاية الحرب وجد الانجليز أنهم لم يعودوا فى حاجة إلى حكومة الوفد بعد أن بدا واضحا أن انتصار الحلفاء أصبح وشيكا. ولهذا أعطت السفارة البريطانية النور الأخضر للملك فاروق لإقالة حكومة الوفد. وكلف الملك أحمد ماهر بتأليف الوزارة.

وأعلنت حكومة احمد ماهر الحرب على ألمانيا وايطاليا، وهو المطلب الانجليزى الذى كانت ترفضه حكومة الوفد.

وقد كلف إعلان احمد ماهر الحرب حياته فقد اغتيل وتولى الوزارة بعده محمود فهمى النقراشى.

وفى عهد احمد ماهر تصاعد الشعور الوطنى وظهر ذلك خاصة بين الطلبة الذين كانت تبدأ منهم دائما شعلة الانتفاضة الوطنية. فقامت المظاهرات والاضرابات فى الجامعة تطالب بجلاء الانجليز وتضغط على الحكومة للتحرك فى هذا السبيل. وأذكر فى عام ١٩٤٤ أو أوائل ٤٥ وكنت فى السنة الثانية بكلية الحقوق أن أضرب طلبة الجامعة وقامت المظاهرات تطالب بالكفاح ضد الانجليز لتحقيق الاستقلال فجاء احمد ماهر إلى الجامعة وخطب فى الطلبة وقال لهم اتركونا نعمل فى هدوء وقال ما معناه اننا لا نستطيع مواجهة الانجليز. فثار عليه الطلبة ورفضوا كلامه. واضطر لمغادرة الجامعة.

تصاعدت الحركة الوطنية بعد مجئ النقراشى الذى بدأ يلجأ لأسلوب القمع خصوصا بعد مقتل أحمد ماهر.

أما الطلبة فكانت لهم حركتهم وتوجهاتهم المختلفة. وظهرت بين الطلبة قوى جديدة ترفض التوجه الحكومى وتطالب بسياسة جذرية فى الكفاح ضد الاستعمار.

وكانت تنادى بهذا التوجه قوى بعيدة عن الاحزاب التقليدية تضم أساسا الشيوعيين والطليعة الوفدية والشباب الوفدى وقوى وطنية ديمقراطية أخرى. ووجد توجه آخر يمثله الاخوان المسلمون ومصر الفتاة وبعض عناصر الحزب الوطنى وقوى الأقلية.

وأجريت انتخابات اللجنة التنفيذية للطلبة. فحققت الجبهة الأولى اكتساحا ساحقا ونجح المرشحون من الشيوعيين والشباب الوفدى والديمقراطيين. وهزمت الجبهة الثانية هزيمة نكراء. وكان ذلك تعبيرا عن مزاج الطلبة العام فى هذه الفترة. وعن ثقتهم بعناصر الجبهة التقدمية.

فاز فى كلية الآداب لطيفة الزيات وعنايات أدهم وفى كلية العلوم جمال غالى وفاطمة زكى وعن المدارس الثانوية عبد المنعم الغزالى وغيرهم. ونجح من العناصر المستقلة الديمقراطية فؤاد محيى الدين فى كلية الطب. ورشحتُ نفسي فى كلية الحقوق ولكننى لم أوفق.

وكان الطلبة الشيوعيون من منظمة اسكرا والحركة المصرية للتحرر الوطنى يجتمعون كل يوم فى «الجامعة العمالية» التى كانت تتبع اسكرا وتقوم بتثقيف العمال المختارين والتى كانت تقع فى شارع ابراهيم (الجمهورية حاليا). وكان يجتمع معهم شهدى عطية الشافعى من اسكرا وكمال شعبان من الحركة المصرية للتحرر الوطنى.

وكانوا يتبادلون الأخبار عن النشاط السياسى بين الطلبة فى مختلف كليات الجامعة ويتبادلون الآراء. وكان شهدى يقود فى واقع الأمر تلك الاجتماعات. وكانت بمثابة مركز عمليات لتوجيه الحركة الطلابية.

ومن ناحية أخرى كانت تعقد اجتماعات فى ملاعب كلية الطب بقصر العينى ويتبادل الطلبة الآراء حول ما يجب القيام به. ورأى الطلبة الشيوعيون ومعهم العناصر المستقلة الديمقراطية والوفديون أنه لا بد من برنامج يتحركون على أساسه، وبدأ النقاش حول البرنامج. وقدمت الجبهة التقدمية تصورها عن الاستقلال السياسى والعسكرى والاقتصادى والثقافى. والربط بين المطالب الوطنية والاجتماعية. والكفاح المشترك مع الشعب السودانى. ورفض التحالف مع المستعمر وغيرها من المفاهيم التى سبق الاشارة اليها. أما الجبهة الأخرى والتى كانت تشمل الاخوان المسلمين ومصر الفتاة وبعض عناصر الحزب الوطنى فكانوا يدعون إلى المفاهيم القديمة ويرددون ما تقوله السلطة والأحزاب التقليدية، وكانت نتيجة انتخابات اللجنة التنفيذية للطلبة انتصارا لبرنامج الجبهة التقدمية.

وكانت مذكرة حكومة النقراشى باشا إلى الحكومة البريطانية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ بالدخول فى مفاوضات مع الدولة الحليفة لاعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦، استفزازا للشعور الوطنى الذى كان لايقبل بأقل من إلغاء هذه المعاهدة. فدعت اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة إلى مؤتمر عام يعقد بجامعة القاهرة.

وفى صباح يوم ٩ فبراير ١٩٤٦ عقد اجتماع طلابى حاشد فى جامعة فؤاد (القاهرة الآن) ضم حوالى ١٠ آلاف طالب، وقدموا ثلاثة مطالب أساسية هى:

١ – نشر أسرار المفاوضات المصرية الانجليزية.

٢ – إلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية لسنة ١٩٣٦ وكذلك اتفاقية السودان لعام ١٨٩٩.

٣ – الجلاء الفورى الكامل للقوات البريطانية عن أرض الوطن.

وبعد الاجتماع توجهت مظاهرة إلى قصر عابدين لتسليم هذه المطالب إلى الملك ورئيس الوزراء، وفى أثناء سير المظاهرة وعند مرورها فوق كوبرى عباس، فتح البوليس الكوبرى وضغط بعنف من الخلف مما دفع بالكثيرين إلى الإلقاء بأنفسهم فى النيل. وكانت النتيجة استشهاد بضع عشرات وجرح حوالى ٢٠٠ طالب وسمى هذا الحادث بمذبحة كوبرى عباس.

وقد اشتركت فى المؤتمر ولكننى لم أشترك فى المظاهرة. سرعان ما انتشر خبر المذبحة، وأذكر عودة بعض الطلبة وقد شجت رءوسهم والدماء تسيل منهم، وأخذوا يروون لنا أخبار المذبحة. انتشرت الأخبار فى مصر كلها وثار الأهل لمعاملة أبنائهم تلك المعاملة الوحشية.

ولم يقتصر الاستياء والثورة على الطلبة وحدهم.

وفى اليوم التالى قامت المظاهرات الغاضبة فى كل انحاء البلاد واصطدم بها البوليس. وحدثت مجموعة من الاضرابات فى الاسكندرية والزقازيق وشبين الكوم.

وقد بلغت الثورة بالطلبة أنه بعد المذبحة بيومين وفى يوم ١١ فبراير يوم الاحتفال بعيد ميلاد الملك فاروق حطم الطلبة الزينات التى اقيمت عند الجامعة لهذا الغرض. وتردد هتاف (لا ملك إلا الله). وكان ذلك لأول مرة. وهى أيضا المرة الأولى التى تتخذ فيها المظاهرات المعادية للاستعمار طابع المظاهرات المعادية لأعوان الاستعمار وعلى رأسهم الملك.

اجبرت هذه الحركة الواسعة حكومة النقراشى على الاستقالة فى ١٥ فبراير ١٩٤٦.

ولجأ الملك إلى اسماعيل صدقى باشا المعروف بتاريخه الطويل المعادى للشعب لتأليف الحكومة الجديدة.

وحاول أن يتظاهر بالتوبة وبأنه قد تغير ويريد أن يفتح صفحة جديدة. وروج له الاخوان المسلمون، وطالبوا بإعطائه الفرصة. وردد هذا المعنى مصطفى مؤمن زعيم الطلبة الإخوان فى الجامعة. وفى احدى خطبه فى الحرم الجامعى استشهد بآية من القرآن: «واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً».

ورفض الطلبة تلك الدعاوى وصدقوا ما قاله لهم ممثلوهم المخلصون.

وفى يوم ١٧ فبراير ١٩٤٦ وفى أحد مدرجات كلية الطب بجامعة فؤاد (القاهرة) تم

اعلان اللجنة الوطنية للطلبة، واعلنت اللجنة ميثاقا سمته ميثاق ١٧ فبراير، كانت أهم نقاطه ما يلى:

١ – الجلاء التام للقوات الانجليزية فى البر والبحر والجو من كل الأراضى والقواعد على أرض وادى النيل.

٢ – تدويل القضية المصرية.

٣ – التحرر من التبعية الاقتصادية.

وقد كنت أشترك فى هذه المؤتمرات فى كلية الطب حيث كانت تدور مناقشات طويلة بين ممثلى التيارين التقدمى والمحافظ ووقف مع الشيوعيين بعض العناصر المستقلة مثل فؤاد محيى الدين وشريف حتاتة الذى لم يكن قد انضم بعد إلى الحركة الشيوعية. وتعرفت هناك أول مرة بشريف حتاتة، أما فؤاد محيى الدين فقد كان صديقا منذ الطفولة، ولكنه فى كلية الطب أصبح له دور قيادى بارز ومن أصدقاء الأمس من الإخوان المسلمين حضر مسعد سلام وحسان حتحوت اللذان اتخذا موقفا آخر هو موقف الإخوان المسلمين المساند لاسماعيل صدقى.

وفى الحرم الجامعى برزت لطيفة الزيات وكانت أول فتاة تقود التجمعات والمظاهرات الطلابية. وكانت خطيبة تناظر مصطفى مؤمن وترد على ما يردده من أباطيل.

فكان يشكو من قسوة الهجوم فيرد عليها قائلا: «كونى لطيفة يالطيفة»..

كانت أياما رائعة. كنا نعيشها ساعة بساعة. وكنا فى كل مساء. نجتمع مع شهدى عطية وباقى الطلبة الشيوعيين فى الجامعة العمالية بشارع ابراهيم ونسهر هناك حتى ساعة متأخرة من الليل ثم نذهب فى اليوم التالى إلى الجامعة ومؤتمرات الطلبة والمظاهرات.

ومع نمو الحركة الوطنية بدأ العمال ينخرطون فى لجانهم الوطنية التى اسفرت عن تكوين اللجنة الوطنية العليا للعمال فى شبرا الخيمة فى أوائل فبراير ١٩٤٦.

وقرر الطلبة والعمال توحيد جهودهم. وفى ليلة ١٧ فبراير توافد ممثلو الطلبة والعمال لعقد مؤتمر مشترك ضم ممثلى الطلبة والعمال واسفر فى النهاية عن قرار بتأليف اللجنة الوطنية للطلبة والعمال.

اللجنة الوطنية للطلبة والعمال:

كانت قيادة جديدة للحركة الوطنية تتميز عن كل الأحزاب القائمة فى ذلك الوقت سواء تلك التى كانت تتبادل السلطة بما فى ذلك حزب الوفد أو غيرها من أحزاب الأقليات أو

تلك الأحزاب والجماعات الأخرى التى لم تصل إلى السلطة ولكن كانت تجمع بعض المريدين وكان لها نفوذ بين الشباب مثل الاخوان المسلمين ومصر الفتاة.

كانت هذه اللجنة منتخبة من الطلبة والعمال وهما أكثر القوى ثورية فى المجتمع المصرى. فقد كان الطلبة دائما ومنذ ثورة ١٩١٩ هم الفئة التى تتأثر وتتفاعل أكثر من غيرها مع الأحداث السياسية، ويكون رد فعلها فى العادة أسرع من الفئات الأخرى. وكان لحركتها تأثير فى المجتمع لأنهم كانوا فى الغالب أبناء من مختلف فئات المجتمع وعلى الأخص الطبقة الوسطى. ولم يكن لأبناء العمال والفلاحين فى هذه الفترة فرصة كبيرة للاستمرار فى التعليم عامة وخاصة التعليم الجامعى.

ولهذا كان تحرك الطلبة يؤثر فى المجتمع كله. ومن هنا كان تأثير اضرابات ومظاهرات الطلبة ١٩٣٥ التى سقط منهم فيها شهداء وكذلك تحركات ١٩٤٦.

وقد كانت هناك فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات تحركات للعمال كبيرة وقد يكون حجمها أكبر من تحركات الطلبة وسقط شهداء ولكن تأثيرها كان أكبر عندما التحمت بحركة الطلبة.

وقد تميزت القيادة الجديدة ببرنامج متميز يختلف عن برنامج كل الأحزاب الأخرى وكانت تضم ممثلين من الشيوعيين والمستقلين والوفد وعناصر من العمال النقابيين. ولم تكن تخضع لأى حزب من الاحزاب، ولكن كان للشيوعيين فيها نفوذ وتأثير كبير على توجهاتها وحركتها.

وقد نجحت هذه القيادة الجديدة فى تلك الأيام أن تكتسب ثقة الجماهير المصرية لأنها كانت تعبر عن مطالبها ومشاعرها.

كانت لى علاقة وثيقة بعملية تكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال. وخصوصا بين الطلبة وكنت أشارك فى الأعمال التحضيرية لتكوينها. وكان أخى احمد الذى كان يعمل مع عبد الحميد عبد الحق الذى أسس حزب العمال على علاقة بعدد من العمال والنقابيين - وقد كان الكثير من هؤلاء الطلبة والعمال يترددون على منزلنا بالقرب من قصر العينى. وبما أنه لم يكن للجنة الوطنية للطلبة والعمال مقر رسمى، فكنا ندعوها للاجتماع فى منزلنا. وفيه عقدت هذه اللجنة عددا كبيرا من اجتماعاتها.

وكانت الصحف اليومية تهتم بابراز بيانات اللجنة التى كانت تصدرها بعد كل اجتماع.

وكانت الفترة التى أعقبت ٩ فبراير (مجزرة كوبرى عباس) مليئة بالحركة والنشاط السياسى الكثيف فقد سقطت حكومة النقراشى باشا وجاءت حكومة صدقى باشا الذى حاول

اللقاء مع اعضاء اللجنة واحتواءهم. وقد ذهب مندوبون من اللجنة للقائه، ولكنه لم يستطع اقناعهم. ودعت اللجنة إلى اضراب عام يوم ٢١ فبراير للمطالبة بجلاء القوات البريطانية ووقف المفاوضات والغاء معاهدة ١٩٣٦.

وكانت الاستجابة اجماعية. فأغلقت المحال التجارية وأضربت المدارس والكليات والمصانع ووسائل النقل العام.

وخرج ممثلو اللجنة الوطنية للطلبة والعمال إلى شوارع القاهرة ينظمون الاضراب.

تجمعت الحشود ومن كل صوب بالآلاف فى ميدان عابدين. وأخذت صفوف وجماعات طلبة الجامعات والمدارس تتوجه إلى قلب العاصمة. وجاءت مظاهرة جرارة من عمال شبرا الخيمة تضم حوالى ١٥ ألف عامل، وما أن وصلت ميدان المحطة حتى تقابلت مع مظاهرات العمال القادمة من العباسية ومصر الجديدة والزيتون والمطرية وتوحدت كلها فى مظاهرة عمالية ضمت ٤٠ ألف عامل. وفى ميدان الأوبرا نظم مؤتمر حاشد ضم ممثلى العمال ومختلف الجماعات والمنظمات المنضمة إلى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال حيث صدرت عنه المطالب الآتية:

١ - فضح أسرار المباحثات المصرية الانجليزية.

٢ - تحقيق الجلاء الكامل للقوات البريطانية عن أرض الوطن.

٣ - الغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية السودان لسنة ١٨٩٩.

٤ - عرض مشكلة جلاء القوات البريطانية عن وادى النيل أمام مجلس الأمن الدولى.

كذلك اندلعت المظاهرات فى ميدان باب الحديد «رمسيس» وفى شارع لاظوغلى وفى ميدان فم الخليج وفى ميدان الملكة فريدة (ميدان العتبة). وحتى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا غلب على المظاهرات الطابع السلمى وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال تحرص على الحفاظ على الطابع السلمى لليوم، وكانت تقاوم كل المحاولات للاخلال بالنظام، وبذل الطلبة والعمال التقدميون جهدا كبيرا لمنع المحاولات لتشويه روعة اليوم وطابعه السلمى..

وقد أفشل جموع المتظاهرين المحاولات التى بذلتها بعض العناصر للتوجه إلى ميدان عابدين. وهو الأمر الذى رفضه المتظاهرون واتجهوا إلى قصر النيل.

وكانت مظاهرة ضخمة تضم حوالى ١٥٠ ألف شخص متجهة من شارع قصر العينى تدخل إلى ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير حاليا). وفى هذه اللحظة ظهرت أربع مصفحات انجليزية تسير بسرعة كبيرة آتية من ناحية معسكر قصر النيل ومرة واحدة أطلقت احداها النار

فأصابت الشظايا الكثيرين وسقط أربعة قتلى فى أماكنهم. فى هذا الوقت ظهرت سيارتان انجليزيتان أخريان من ناحية كوبرى الخديوى اسماعيل (قصر النيل حاليا). وهنا اعترض المتظاهرون طريقهما واخرجوا سائقيهما وانهالوا عليهما بالضرب، ثم بعد ذلك أحرقوا العربتين واندفعوا محاولين كسر باب المعسكر الانجليزى بقصر النيل وفى هذه الحالة ظهر الميدان وكأنه حرق عن آخره نتيجة تصاعد سحابات الدخان من احتراق العربتين الانجليزيتين. وفى هذا الصدام قتل الانجليز حسب تقديرات جريدة «الأهرام» ١٥ شخصا وجرح ١٢٣. وفى تقديرات أخرى كان العدد أكبر من ذلك.

التقط بعض المتظاهرين جثة أحد القتلى وأخذوا يطوفون بها شوارع القاهرة، بينما رفع البعض الآخر أعلاما مخضبة بدماء القتلى والجرحى.

وظهرت بعض مجموعات الاخوان المسلمين مع بعض من شباب السعديين والأحرار الدستوريين وحاولوا تحويل المظاهرة فى اتجاه قصر عابدين لكى يقدموا مطالبهم إلى الملك. رفض المتظاهرون ذلك ورفعوا الشعارات الآتية «يسقط الاستعمار» «تسقط سلطة الباشوات» «لاملك إلا الله»

ازاء قوة المظاهرات استدعت الحكومة قوات الجيش للنزول إلى المدينة. ولكن الجيش رفض التعرض للمتظاهرين، بل إن بعض الجنود والضباط كتبوا شعارات ذلك اليوم على عرباتهم ومصفحاتهم، وأخذوا يديرون المناقشات مع المتظاهرين.

وكان هذا الموقف الذى اتخذه الجيش علامة بارزة فى تاريخ الحركة الوطنية، وكانت خطوة حاسمة لانتقال الجيش إلى جانب الشعب. ذلك الجيش الذى صار بعد حوالى ست سنوات الطليعة الأولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

لم تستجب جماهير القاهرة وحدها لنداء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، بل استجابت جماهير الاسكندرية وطنطا والمنصورة وبورسعيد واسيوط والاسماعيلية وكفر الزيات والحوامدية وكثير من المدن الأخرى.

لقد اشترك فى هذه المظاهرات المصريون والسودانيون، الرجال والنساء، الشباب والكهول (لقد انتظمت كل هذه الجموع وكأنها رجل واحد، توحدت ارادتها، وتوحد هدفها) وذلك على حد تعبير «الأهرام» فى اليوم التالى للمظاهرات.

كتبت صحيفة الأهرام فى ٢٥ فبراير ١٩٤٦ تقول (لقد كانت هذه مظاهرة للشعب كله للمطالبة بحقوقه القانونية والطبيعية).

وفى مساء ٢١ فبراير ١٩٤٦ اجتمعت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال لتقييم أحداث اليوم، وأصدرت البيان التالى:

أنه بعد فتح القوات البريطانية النيران على الأبرياء والعزل، نطالب بجلاء القوات البريطانية بصفة فورية من كل المدن الكبرى ونطالب الحكومة بألا تعود إلى المفاوضات مع بريطانيا إلا بعد صدور اعلان صريح من بريطانيا تعترف فيه بالجلاء.

كذلك اتخذت اللجنة قرارا بإصدار ميثاق وطنى، طالبت بأن يوقع عليه كل القادة الوطنيين، ويطالب الحكومة بألا تفاوض بريطانيا إلا بعد تعهد الأخيرة بإصدار إعلان رسمى يعترف بالجلاء الكامل للقوات البريطانية من أرض الوطن، على أن تمنح الحكومة المصرية فرصة ١٥ يوما كى تتسلم الرد من بريطانيا.

كان رد صدقى هو دعوة الجيش الى التدخل، فلما رفض الجنود والضباط لجأ إلى البوليس وأمر بتفريق المظاهرات بالقوة، وألقى بيانا ذلك اليوم قال فيه أن المظاهرات قام بها مجموعة من الرعاع. وأصدر أمرا بمنع جميع المظاهرات وعقد الاجتماعات العامة.

بعد ذلك وفى ٢٤ فبراير ١٩٤٦ أراد الوفد أن يستفيد من حركة الجماهير التى قادتها اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، فوجه النحاس باشا الدعوة إلى المصريين لمواصلة الكفاح.

وفى نفس اليوم وجهت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال نداءها بضرورة أن تنسحب القوات البريطانية فورا من كل المدن الكبرى ودعت إلى اعتبار ٤ مارس يوم حداد عام بمناسبة احداث فبراير الدامية.

واستجاب الشعب المصرى لهذا النداء، ولم تصدر فى هذا اليوم أي صحيفة، أما فى الاسكندرية فإلى جانب الاضراب الشامل خرجت المظاهرات الكبيرة لتحيى ذكرى شهداء الأحداث الدامية. فقد أنزل المتظاهرون العلم الانجليزى من فوق إحدى القطع البحرية الانجليزية، وهجموا على فندق سيسيل، وعلى كباريه فيمينا وعلى الأماكن الأخرى التى يوجد فيها الانجليز. وكان أكبر وأخطر هذه المصادمات تلك التى وقعت فى ميدان سعد زغلول حيث هجم المتظاهرون على مركز الشرطة الانجليزية وأحرقوا وقتلوا الجندى الموجود به. وكانت نتيجة هذه المصادمات بين متظاهرى الاسكندرية والبوليس والقوات الانجليزية مقتل ٢٨ شخصا وجرح ٢٤٢ من المتظاهرين.

وفى ١٠ مارس ١٩٤٦ أصدرت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بيانا ضمنته ميثاقا وطنيا صدرته بما يلى:

«إن اللجنة ليسرها أن تعلن ميثاقا وطنيا اعتمدته وأيدته إرادة الشعب المصرى. ان هذا الميثاق يقف مع الشعب المصرى الذى يرفض هؤلاء القادة والزعماء الذين يتفاوضون مع الاستعمار وهم لايعيرون المطالب الشعبية اهتماما.. إن الجلاء هو الطريق الوحيد للدفاع عن استقلال وطننا. ان اللجنة لا تعترف بالمفاوضات غير المخططة التى تجريها حكومة صدقى باشا،

وتعلم أن هذه المفاوضات لن تسفر إلا عما يريده الاستعمار فى النهاية، وأن اللجنة سوف تواصل نضالها من أجل تحقيق الجلاء الكامل عن وادى النيل. وعاشت مصر حرة مستقلة».

مؤتمر نقابات عمال مصر

كان القانون السارى فى ذلك الوقت يسمح بتكوين نقابات للعمال، ولكنه يمنع تكوين اتحاد لهذه النقابات، كما أنه كان يمنع تكوين نقابات لبعض الفئات مثل عمال الزراعة وخدم المنازل. وقد صدر المنع بتكوين اتحاد لنقابات العمال بعد الصدام الذى حدث مع اتحاد نقابات العمال الذى حلته السلطات عام ١٩٢٤ مع حظر الحزب الشيوعى المصرى إثر الاضراب العام الذى دعا إليه الاتحاد. ومنذ ذلك الوقت والقانون يمنع النقابات من تجميعها فى اتحاد واحد.

ومع ذلك فقد ظل العمال يتحايلون على هذا القانون بأشكال مختلفة. وفى الأربعينيات ومع تصاعد الحركة الوطنية، تصاعد أيضا النشاط العمالى. توحد العمال فى اتحادين كبيرين هما «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» والذى تصدى لقيادته حسين كاظم ومراد القليوبى وداود ناحوم أما الثانى وكان يسمى «اللجنة التحضيرية» - على ما أذكر - فكان يقوده محمد يوسف المدرك، ومحمود محمد العسكرى وطه سعد عثمان.

وما أن ترددت الدعوة إلى حضور المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمى فى باريس عام ١٩٤٥ حتى أرسل وفدان الأول برئاسة محمد يوسف المدرك والثانى يضم داود ناحوم ومراد القليوبى ومحمد عبد الحليم.

وكانت حكومة الوفد قد أصدرت قانون الاعتراف بالنقابات فى عام ١٩٤٢ ولكنها لم تسمح بتكوين اتحاد للنقابات. ولكن القانون كان يسمح بتكوين اتحادات مهنية تجمع نقابات عمال المهنة الواحدة. ولكن النقابات عملت على الاتصال ببعضها لتكوين جبهة لتوحيد النضال، وتحايلت لتأسيس شكل من أشكال الاتحاد لم يأخذ اسم الاتحاد ولكنه سمى «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية».

ترجع نشأة هذا المؤتمر إلى ديسمبر ١٩٤٤ فى اجتماع ضم ستين مندوبا يمثلون ثلاثين نقابة من أكبر النقابات فى مصر، وتم الاتفاق على اطلاق اسم «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» على الجبهة التى تكونت من اتحاد عمال تلك النقابات.

استمر المؤتمر ينظم نضال النقابات المنضمة إليه، وفى عام ١٩٤٥ أصبح يضم ٢٥ نقابة هى نقابات عمال النقل والمرافق (الترام - مصر الجديدة - ثورنيكرفت - الاتوبيس - النور - المياه - الطيران) ونقابات الشركات الصناعية (مطبعة مصر - السكر بالحوامدية - سيجوارت

– اسمنت طرة – الميكانيكا والكهرباء – الحرير بحلوان – الكاوتشوك الافريقية – التطريز والرسم – مصر للسينما والتمثيل)، بالاضافة إلى نقابات عمال ومستخدمى المحال التجارية ومستخدمى دور السينما، وعمال كوتسيكا، وشركة أراضى الدلتا، وكانت سبعون نقابة من نقابات الأقاليم تؤيد المؤتمر، وبلغ عدد أعضاء نقابات المؤتمر بالقاهرة وحدها خمسة عشر ألفا من العمال.

ووضع المؤتمر هدفا له العمل على تكوين «مؤتمر نقابات عمال مصر» يضم كل النقابات العمالية، وهو اتحاد للعمال لايستخدم كلمة اتحاد تحايلا على القانون.

وشهد عام ١٩٤٦ التحام العلاقة بين الطلبة والعمال والتحام مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات بالعمل الوطنى وأصبح عضوا باللجنة الوطنية للعمال والطلبة.

وقد حدد المؤتمر موقفه من الحركة الوطنية فى بيان نشر بالنشرة التى كان يصدرها تحت اسم «المؤتمر» فذكر أن الهيئات السياسية القائمة انكرت قضية الوطن وتآمرت مع المستعمر، ووقفت فى وجه الكفاح الشعبى. ولذلك تقع على عاتق العمال «مسئولية قيادة الشعب لتحقيق أهدافه الوطنية» لتحقيق الجلاء عن وادى النيل عسكريا بطرد جيوش الاحتلال من البلاد، واقتصاديا بنزع سيطرته المالية عليها، واداريا بطرد الموظفين الانجليز الذين يعملون فى خدمة الحكومة المصرية، فالعمال يكافحون من أجل التحرر التام من الاستعمار لأن فيه تحقيقا لرفع الأجور، وانخفاض ساعات العمل، وتمتع العمال بمستوى معيشة أحسن. وان على العمال أن ينظموا صفوف الشعب المناضل ولايسلموا قيادته إلى أعداء الحركة الوطنية الذين خانوها فى الماضى ويخونونها فى الحاضر. ففى انتصار قضية الوطن انتصار قضية العمال. (رقم ٥ – ١٩٤٦/٤/٢٥).

يقول د. رءوف عباس فى كتابه «الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ – ١٩٥٢» ان قيام مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية بدور فعال فى النضال الوطنى عام ١٩٤٦ أدى إلى علو شأنه واتساع نفوذه وزيادة التفاف النقابات حوله، ومن ثم سعى للخروج من نطاقه المحدود لضم جميع العمال فى مصر فى منظمة جديدة تحمل اسم «مؤتمر نقابات عمال مصر» وزود النقابات بمشروع لائحة النظام الأساسى للمؤتمر المزمع تأسيسه لدراسته وابداء الرأى فيه. وفى مشروع اللائحة حدد أنه يريد تنظيم العمال النقابيين منهم والمحرومين من حق تأليف النقابات دون تفريق بينهم على أساس الجنس أو الدين أو القومية أو العقيدة السياسية داخل نقابات عمال مصر. ونص المشروع أيضا على أن المؤتمر يعمل على تنظيم العاملات فى منظمات توجههن إلى الكفاح النقابى والوطنى. وقد استفاد مشروع اللائحة إلى حد كبير من قانون اتحاد النقابات العالمى. ثم وجه الدعوة إلى جميع نقابات العمال لحضور الاحتفال بعيد أول مايو ١٩٤٦ بناء على توصية اتحاد النقابات العالمى بباريس ومشاركة لعمال العالم فى

الاحتفال بعيدهم، ولإعلان مولد «مؤتمر نقابات عمال مصر» و(ذلك كما جاء فى رسالة من حسين كاظم إلى رئيس نقابة عمال صناعة الزجاج بالقاهرة وضواحيها، رسالة رسمية فى ١٩٤٦/٤/٢٥).

اتفق على عقد الاجتماع فى أول مايو فى نادى الشرقية (وهو المكان الذى يشغله حزب التجمع حاليا) ولكن فوجيء العمال الذين وفدوا من جميع أنحاء البلاد (٢٠٠ مندوب) بمحاصرة البوليس لمكان الاجتماع، ولكنهم توهوا إلى المنزل الذى كانت تعقد فيه الكثير من اجتماعات اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وهو منزلنا فى شارع معمل البارود أمام قصر العينى. استقبلناهم على الفور وفتحنا حجرة الصالون وحجرة المكتب وأغلقنا النوافد. وملأ العمال الحجرتين وجلسوا على الأرض. ألقيت الكلمات واتخذت القرارات بتأسيس «مؤتمر نقابات عمال مصر».. وتمت الموافقة على لائحته الاساسية، واتخذ المجتمعون قرارا بالاجماع بتقديم مذكرة إلى اسماعيل صدقى يحددون فيها مطالب العمال الاقتصادية والسياسية. وتضمنت القرارات بندا يدعو إلى الاحتفال بعيد العمال العالمى فى أول مايو من كل عام باعتباره عيد العمال العالمى. وكان الاحتفال بهذا اليوم ممنوعا فى ذلك الوقت.

وحضرت الاجتماع احدى العاملات هى حكمت الغزالى مندوبة عن «رابطة» العاملات بالقاهرة» وقالت فى كلمتها أن هدف الرابطة الأول دخول العاملات النقابات ليشعرن بألا فرق بينهن وبين العمال. مصلحتهم واحدة، وآمالهم واحدة.

ورغم أن هذا الاجتماع قد عقد بشكل «شبه سرى» وبدون تصريح من السلطات. إلا أن أخباره أذيعت فى اليوم التالى فى الصحف.

وقد كان هذا الاجتماع وهذا العدد الكبير من العمال الذى توافد إلى منزلنا سببا لازعاج أسرتى وخصوصا زوج أختى أنور وحش الذى كان يعمل وكيلا للنائب العام، وكان يشكو قبل ذلك بأن الاجتماعات التى تعقد فى المنزل تهدد وضعه. وقد كانت أختى وزوجها يعيشان بالدور الأول. وبعد عقد هذا الاجتماع زاد انزعاجه وشكواه، وأبدى لى هذا الانزعاج.

ويعتبر د. رءوف عباس فى كتابه أن اهتمام مؤتمر نقابات عمال مصر بتنظيم العاملات هو أول اهتمام من نوعه بالمرأة العاملة فى ذلك الوقت. وقد ساهم مؤتمر نقابات عمال مصر بعد ذلك فى حل مشاكل العمال والوقوف معهم تجاه السلطات. وكانت بعض المصانع تقوم فى هذه الفترة بإغلاق أبوابها، وتفصل العمال، وقامت اضرابات فى بعض المصانع واعتقل بعض العمال. فقدم مؤتمر نقابات عمال مصر مذكرة إلى رئيس الوزراء فى ١٠ مايو بدأت بالاحتجاج على ما أقدمت عليه الحكومة من منع الاجتماع الذى عقد فى أول مايو، ومنع الاحتفال بالعيد العالمى للعمال، وعرضت المطالب التى ينادى بها المؤتمر باعتباره الهيئة التى تمثل جميع النقابات. وحددت مهلة شهر لاجابة هذه المطالب يعلن بعدها الاضراب العام إذا

لم تتحقق. وكان أول هذه المطالب سياسية وهو تحقيق الجلاء التام سياسيا واقتصاديا وعسكريا عن وادى النيل فورا. أما المطالب الأخرى فكانت اقتصادية، فطالبوا بتطبيق كادر عمال الحكومة على جميع العمال لتحسين أحوالهم، ومايترتب على ذلك من زيادة قدرتهم الشرائية فتحل الأزمة الاقتصادية، ومكافحة البطالة بمنع أصحاب المصانع من اغلاقها، واستيلاء الحكومة على كل مصنع يحاول اغلاق أبوابه، وشراء الحكومة لورش الجيش الانجليزى والأمريكى، وعلى الحكومة أن تقوم باصدار قانون التأمين ضد البطالة، وطالبوا بالافراج عن القادة النقابيين (محمد يوسف المدرك ومحمود العسكرى وطه سعد عثمان. وكانوا قد قبض عليهم بتهمة الحض على كراهية الرأسمالية) الذين قبض عليهم بسبب نشاطهم النقابى والوطنى. وتحديد ساعات العمل لجميع العمال المصريين بما لايزيد على ٤٠ ساعة فى الأسبوع مع عدم المساس بالأجور، واعتبار أول مايو من كل عام عيدا لجميع العمال المصريين بأجازة مدفوعة الأجر (المؤتمر- نشرة دورية رقم ٦ بتاريخ ٤٦/٥/١٨).

مرت عشرة أيام ولم ترد الحكومة، فأرسل حسين كاظم باسم المؤتمر رسالة إلى النقابات يحثها على إرسال برقيات مماثلة إلى رئيس الوزراء. فانهالت عليه وعلى الصحف البرقيات من النقابات من مختلف انحاء القطر. وقامت النقابات بطبع نص مذكرة المؤتمر إلى رئيس الوزراء وتوزيعها على العمال سواء كانوا مشتركين فيها أو غير مشتركين (وذلك طبقا لرسالة حسين كاظم).

اتصلت الحكومة بالمؤتمر وطلبت ايفاد مندوبين إلى وزير الشئون الاجتماعية حيث اتفق على تأجيل موعد الاضراب. وقد استطاعت الحكومة أن تشق وحدة العمال بإقناع عمال النقل بتأجيل يوم تنفيذ الاضراب مقابل تكوين لجنة وزارية عليا من العمال وأصحاب الأعمال ومندوبين عن الحكومة وممثلين لمجلس الشيوخ والنواب. وعقدت اللجنة أول اجتماع لها فى ٩ يوليو. وفى ١١ يوليو قام صدقى بحملته وألقى القبض على زعماء المؤتمر ضمن موجة الاعتقالات العامة تحت ستار مكافحة الشيوعية، وأصدر قرارا بحل مؤتمر نقابات عمال مصر.

يقول رءوف عباس فى كتابه «كان للشيوعيين نصيب الأسد فى قيادة كل من المؤتمرين «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» و «مؤتمر نقابات عمال مصر».

وعقب حل مؤتمر نقابات عمال مصر سادت موجه ارهابية، ولكن النضال العمالى المطلبى لم يتوقف، واستمرت موجة من الاضرابات العمالية. وإلى جانب الجرائد والمنشورات السرية الصادرة عن الحركة المصرية للتحرر الوطنى، كان لجريدة الجماهير دور بارز فى الدفاع عن مطالب العمال والتضامن مع العمال المضربين.

١١ يوليو ٤٦ - الحملة ضد الشيوعية:

فى ليلة ١١ يوليو أمضيت الليل عند عمتى التى كانت تقطن فى السيدة زينب وكان ابنها عبد القادر العايدى فى سنى تقريبا وأنا أكبره بعدة أشهر. وقد أخبرنى بأنه يقرأ كتبا ماركسية، وأنه على صلة بأحد العمال الذى يتابع معه هذه القراءات. وقد قرب ذلك بيننا. ولا أذكر السبب الذى دعانى للمبيت عنده فى تلك الليلة. هل كان احساسا منى بأن هناك حملة ضد الشيوعيين؟ قد يكون ذلك. وكان أخى أحمد فى الاسكندرية. فقد كان يصادق إحدى الفتيات اسمها البا تقيم هناك، وكان كثير التردد على الاسكندرية. عرفت فى اليوم التالى أن البوليس السياسى داهم منزلنا واستولى على كتبى الماركسية وبحث عن أخى احمد، فقد صدر أمر النيابة بالقبض عليه بتهمة الشيوعية.

لم يكن لأخى أى علاقة بالشيوعية منذ وقت طويل. ولكن كانت له علاقة بالعمال من خلال عمله مع عبد الحميد عبد الحق فى الحزب الذى أسسه وسماه حزب العمال. ويبدو أن البوليس السياسى خلط بين نشاطى ونشاط احمد، ودارت الشبهات حول أحمد خصوصا أنه بدأ معى النشاط منذ سنوات فى «جمعية البعث الاجتماعى»، فضلا عن أنه كان الأخ الأكبر، وكان قد تخرج وأنهى دراسته.

ويبدو أن البوليس لم يكن قد فتح ملفا بعد حول نشاطى.

ونصحتنى أسرتى أن أبتعد بضعة أيام عن المنزل حتى ينجلى الموقف، فقررت الذهاب إلى الاسكندرية. وكان جمال العطيفى يعمل وكيلا للنيابة فى الاسكندرية، وكان يستأجر شقة هناك، فنزلت ضيفا عليه واختبأت عنده. أما أخى فقد بقى فى الاسكندرية بضعة أيام ثم جاء إلى القاهرة وتقدم إلى النيابة بعد أن هدأ الجو وبدأ الافراج عن باقى المعتقلين وجرى استجوابه ثم افرج عنه وعدت أنا من الاسكندرية إلى المنزل.

والحقيقة أن كشوف البوليس السياسى التى ضمنها الاعتقالات كانت عشوائية فإلى جانب الشيوعيين شملت شخصيات نقابية هم قادة مؤتمر نقابات عمال مصر وبعض أعضاء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وبعض الصحفيين مثل د. محمد مندور وزكى نجيب محمود وغيرهما.

وهذه أسماء بعض من شملتهم الاعتقالات: ابراهيم يوسف- أبو بكر نور الدين - احمد شكرى سالم - احمد كامل قطب - أسعد حليم- أنور كامل- جمال الدين محمود غالى - رمسيس يونان- سعد مكاوى - سلامة موسى - سيف الغزالى - احمد صادق سعد- عبد الله عبد الوهاب - عبد الرحمن الشرقاوى - عصام الدين حفنى ناصف - على الصيرفى- فتحى الرملى - لطف الله سليمان - محمد أبو الحسن - شهدى عطية الشافعى- محمد

الليثى - محمد رشدى- محمد حسام الدين- كمال عبد الحليم - مصطفى عبد الحميد مندور - نحوم منشة- هنرى كوربيل - عبد العظيم أنيس - زكى نجيب محمود - ابراهيم دربال - أبو سيف يوسف - احمد رشدى صالح - احمد المصرى - أنور عبد الملك - حسام مشرف - داود ناحوم - سعد زغلول فؤاد- سعيد خيال - صلاح أبو العلا - عباس ابراهيم - عبد المعبود الجبيلى - عبده دهب - عمر رشدى - فتحى احمد المغربى - كمال احمد شعبان - لبيب حنا جرجس - د. محمد الشحات - محمد احمد عجلان - محمد عبد المنعم خربوش - د. محمد مندور - مصطفى كامل منيب - نعمان عاشور.

وصدر قرار بحل عدد من الهيئات أذكر منها:

١ - اللجنة الوطنية للطلبة والعمال.

٢ - مؤتمر نقابات عمال مصر (الذى تكون فى أول مايو ١٩٤٦)

٣ - دار الأبحاث العلمية.

٤ - لجنة نشر الثقافة الحديثة.

٥ - رابطة فتيات الجامعة.

٦ - اتحاد خريجى الجامعة.

ومصادرة الصحف والمجلات التالية:

١ - جريدة الوفد المصرى

٢ - الفجر الجديد

٣ - الطليعة

٤ - أم درمان

٥ - مجلة الضمير.

بعد حملة ١١ يوليو حل وضع جديد وظروف مختلفة لعمل المنظمات الشيوعية. فقد أغلقت المنابر العلنية التى كان الشيوعيون يعملون من خلالها، فاقتصروا على العمل السرى. أما الحركة المصرية للتحرر الوطنى فقد واصلت اصدار المنشورات السرية ومجلتها السرية «كفاح العمال»، وقد لجأت اسكرا إلى أسلوب الرحلات والحفلات كأشكال علنية للتجنيد والعلاقة بالعناصر الجديدة. ولكن بعد فترة بدأ التفكير فى اصدار جريدة اسبوعية، مستفيدة من ترخيص لمحمود النبوى فصدرت «الجماهير».

واستمر طلبة الحركة المصرية واسكرا فى التعاون فى الجامعة للقيام بأعمال مشتركة. وقد تعرفت فى الجامعة بعز الدين فودة الذى كان يتردد على لجنة نشر الثقافة الجديثة والذى عرفنى بكمال عبد الحليم الذى كان زميلى فى نفس السنة الدراسية وكان يقطن بالقرب من الجامعة فى «بين السرايات». وقد دعانى إلى منزله وقد تعرفت هناك على اخوته ابراهيم وفؤاد وصديقه الملازم له حمدى عبد الجواد. وكان كمال يكتب الشعر اما ابراهيم فكان قصاصا. وكان فؤاد طالبا بكلية الآداب.

وكان كمال عبد الحليم عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وكذلك ابراهيم. أما فؤاد وحمدى فقد بدآ العمل فى منظمة القلعة التى أسسها مصطفى هيكل وانتقل بعد ذلك قسم من أعضائها إلى اسكرا والبعض الآخر إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى. وكان فؤاد وحمدى ممن انضموا إلى الحركة المصرية.

وكان شعر كمال عبد الحليم فى ذلك الوقت يلهب المناضلين ويبث فيهم الحماس. وأصبح الكثيرون يحفظونه عن ظهر قلب ويرددونه. وقد اعتقل كمال فى الحملة التى شنها صدقى ضد الشيوعية فى ١١ يوليو ١٩٤٦ وتلا صدقى بعض أبيات من شعره لاستعداء مجلس الشيوخ ضد المعتقلين وتبرير حملته ضد الشيوعية.

ومن هذه الأبيات التى رددها صدقى باشا:

يا اخى تنعم الكلاب لدى القوم

ونشقى، فيالها من مضحكات

اطلق الثورة التى تسكن الصدر

وجفف دموعك الماضـــيات

هى حرب الحياة، اما حياة

أو ممات يكن معنى الحـــياة

وكان كمال مقلا فى تردده على الكلية. ففى كلية الحقوق لم يكن حضور المحاضرات ضروريا للتقدم للامتحانات واجتيازها فى آخر العام.

وفى السنة الثالثة من كلية الحقوق أصبحت أقل اهتماما بدراستى من السابق. وأصبح

العمل السياسى يشغلنى أكثر، ويأخذ أغلب وقتى. وكنت مواظبا على الذهاب إلى الكلية كل يوم، ولكننى لم أكن أحضر المحاضرات فى غالب الأحيان، بل كنت أمضى أغلب وقتى فى الاتصالات السياسية.

وعند صدور «الجماهير» كنا نقوم بتوزيعها باليد إلى جانب التوزيع العادى عن طريق بائعى الجرائد. وكنت أوزع بنفسى عدداً كبيرا من الأعداد فى الجامعة وغيرها. وقد اعتبرت فى الجريدة من أفضل الموزعين. وكان الكثير من الزملاء فى القاهرة والاسكندرية والأقاليم يقومون بتوزيع الجريدة. ولم تكن هناك مشكلة فى تحصيل العائد. فقد كان الحماس غالبا. وكان الجميع يعتبرون أن توزيع الجريدة وتحصيل ثمنها عمل نضالي كبير. وقد كان كذلك. وكان هناك تنافس فى هذه العملية. وكانت احدى وسائلنا الهامة للاتصال بالناس ودعوتهم لأفكارنا وتجنيدهم.

***

(٦)

الوحدة وتأسيس الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)

ارتبط الطلبة والعمال فى اسكرا و ح.م فى النضال المشترك فى أحداث ٤٦ الوطنية وخصوصا فى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال وتكونت بينهم علاقة نضالية خاصة دفعتهم للتفكير فى ضرورة الوحدة بين التنظيمين الشيوعيين. وكان هذا النضال المشترك هو الاساس المتين الذى دعم الحوار الذى دار من أجل الوحدة بين التنظيمين، وصدرت نشرة باسم «الوحدة» أصبحت توزع على أعضاء التنظيمين. واشترك فى مناقشات الوحدة قبل ذلك تنظيم «تحرير الشعب»، وفى خلال هذه المناقشات اقتنع قسم بالاتحاد مع اسكرا. أما القسم الآخر فقد اتحد مع تنظيم الفجر الجديد والذى كان يسمى فى ذلك الوقت «الديمقراطية الشعبية». وكذلك اتحدت اسكرا مع تنظيم «الطليعة» فى الاسكندرية وانضم قسم من تنظيم القلعة ومنهم عبد الواحد وعبد الرحمن بصيلة إلى اسكرا وانضم قسم آخر إلى ح.م.

واستمرت المباحثات بين التنظيمين وصفيت الخلافات السياسية واستمر النقاش لفترة طويلة حول موضوعين: الأول هو حجم الأجانب فى القيادة. وكانت غالبية القيادة فى اسكرا من الأجانب أما الحركة المصرية فكانت كل القيادة من المصريين باستثناء هنرى كورييل. وقد كانت سياسة الحركة المصرية منذ فترة هى تمصير القيادة ثم اتجهت بعد ذلك إلى التعميل فضمت عددا من العمال إلى قيادتها مثل سيد سليمان الرفاعى (ميكانيكى طيران) ومحمد محمد شطا (عامل نسيج بشبرا الخيمة). أما قيادة اسكرا فكانت غالبيتها من الاجانب، وقد ضم اليها فى آخر أيامها شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى. وقد حسم الخلاف لصالح التمصير فلم يبق فى القيادة من الأجانب غير هنرى كورييل مسئولا سياسيا وهليل

شفارتز مسئولا تنظيميا. أما نقطة الخلاف الثانية فكانت موضوع المركزية الديمقراطية وقضية انتخاب الهيئات من القاعدة إلى القيادة.

فكانت قيادة الحركة المصرية ترى أن الانتخابات فى ظروف العمل السرى ستكون عملية شكلية أما اسكرا فكانت تدافع عن الانتخابات بحجة الديمقراطية وكانت اسكرا فى الفترة الأخيرة قبل الوحدة بقليل تطبق نظام الانتخابات.

واستمرت المناقشة فترة ثم خضعت اسكرا لرأى الحركة المصرية بالنسبة للانتخابات.

وفى صيف ١٩٤٧ تمت الوحدة والاندماج، ووجدت نفسي بعد الوحدة عضوا قياديا فى دائرة المثقفين التى تقود تنظيم المثقفين فى الحزب. وكانت لجنة الدائرة تتكون من كمال عبد الحليم مسئولا سياسيا واسعد حليم (مسئول دعاية) ومنى (مسئولا تنظيميا) فوجدت نفسى انتقل مباشرة من عضو عادى فى منظمة اسكرا إلى عضو قيادى فى التنظيم الجديد الموحد الذى سمى «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» - (حدتو). وباعتبارى مسئولا تنظيميا كان عليّ أن اتصل بالمسئول التنظيمى فى المستوى الأعلى وهو هليل شفارتز (شندى)

وقبل ذلك كنت أعرف أنه المسئول عن تنظيم اسكرا الذى كنت اتبعه. ولم أكن أعرفه شخصيا، ولكننى كنت أحيطه فى ذهنى بهالة كبيرة من الاحترام والغموض.

والتقيت أيضا بهنرى كورييل وكان المسئول السياسى فى السكرتارية المركزية. وكان اللقاء في مكتب والده الذي حوله هنري إلى مكان تتم فيه كثير من اللقاءات التنظيمية. وأصبحت اللقاءات تتم كثيرا في سيارته الصغيرة التي كان يتنقل بها في القاهرة ويقوم بالكثير من اللقاءات بها. وبعض هذه اللقاءات كانت تتم في منزله في الزمالك الذي أهداه بعد ابعاده من مصر وبعد استقلال الجزائر إلى حكومة الجزائر وأصبح مقر سفارتها في مصر. وكان كتلة من النشاط والحركة واللقاءات طوال اليوم. وكان يتحدث العربية بلكنة أجنبية فلغته الأولى هي الفرنسية. ولكنه كان يقرأ العربية بسهولة. وكان كورييل يهتم كثيرا بهذه اللقاءات وفي خلالها يناقش كل التفاصيل ويدقق فيها. وكان لهذه اللقاءات أهمية كبيرة في ربطه بالمصريين من عمال ومثقفين وأزهريين وغيرهم.

ترك منزل العائلة:

جرت الأحداث الكبيرة والتى أثرت تأثيرا كبير عليّ وعلى حياتى وأنا طالب فى ليسانس الحقوق.

وقد سبق ذلك حدث شخصى كان له اثر كبير فى حياتى.

فوجودى فى منزل العائلة أصبح يثير الكثير من التناقضات بينى وبين عائلتى وخصوصا أن زوج أختى (أنور وحش) كان يعمل وكيلا للنيابة، وكان يخشى على وضعه بسبب نشاطى السياسى وكثرة الاجتماعات بالمنزل. وقد أخذ البوليس السياسى يتعقبنى ويراقب المنزل خصوصا بعد اعتقالى مع مصطفى درويش عام ١٩٤٦.

لهذه الأسباب قررت الاستقلال تماما وترك المنزل. أخبرت إخوتى وخالاتى بذلك. حاولوا اثنائي عن هذا القرار. ولكننى كنت مصرا على قرارى. فاستأجرت شقة فى الروضة من ثلاث حجرات وصالة بالدور الأرضي وشاركنى فيها بهاء فهمى وميشيل كامل. وأخذت من منزل العائلة سريرا ومكتبا. وبدأت حياة جديدة.

وكنت وقتها استعد لتأدية امتحان الليسانس وكنت فى هذه السنة الأخيرة أكثر انشغالا بالعمل السياسى منى بالدراسة ودخلت فلم أوفق فى أربع مواد كان عليّ أن أؤديها فى الملحق فى سبتمبر. لم يدفعنى ذلك إلى زيادة الاهتمام بالاستعداد للملحق ولكن تتابعت الأحداث وكثر العمل، بحيث لم أجد وقتا للمذاكرة والاستعداد. وكانت الأحداث وتتابعها مثيرا بحيث كان ذلك يجتذبنى أكثر من الدراسة.

وأصبحت مسئولا للاتصال بالمسئولين التنظيميين لأقسام المثقفين المختلفة. ومن هذه الاقسام كان هناك قسم لوكلاء النيابة ورجال القضاء وكان المسئول التنظيمى هو احمد فؤاد. وكان أحد هذه اللقاءات فى منزلى بالروضة وأثناء اجتماعى به سمعنا طرقا على الباب، وعندما فتحته وجدت أحد المخبرين يسألنى عن أسماء سكان الشقة. وبعد هذه الحادثة قررنا عدم عقد أى اجتماعات بالمنزل.

لم استمر كثيرا فى دائرة المثقفين وانتقلت إلى دائرة الاقاليم وكانت دائرة قد أسست حديثا بمسئولية فؤاد عبد الحليم شقيق كمال عبد الحليم وكان طالبا بالسنة الأولى بكلية الآداب. وكان فى عضوية اللجنة حمدى عبد الجواد، وصبحى زغلول وبهاء فهمى. وكانت مهمة هذه الدائرة النشاط فى الأقاليم فى الوجهين البحرى والقبلى. وكان هذا العمل يتطلب التفرغ وأن يقود النشاط محترفون. وعرض فى أول اجتماع اقتراح من القيادة بالاحتراف ودعوة للقادرين بالاحتراف والتبرع بما يملكون على أن يحصلوا على مرتب بدل احتراف هو ٨ جنيهات (ثمانية) فى الشهر. رفض بهاء فهمى. أما أنا فلم اتردد ووافقت على الفور. وكنت قد بلغت سن الرشد ففى يناير من هذا العام ١٩٤٧ كنت قد بلغت ٢١ عاما. وكنت أملك بعض الأسهم تركها لى والدى. وكانت الأسرة تملك أرضا زراعية فى السنبلاوين (أبو الصير) على المشاع، كان نصيبى الشائع فيها ١٦ فدانا قررت التصرف فى هذا كله وتسليمه للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حزب المستقبل) التي وهبت حياتى كلها لها وللقضية التى تعمل من أجلها.

وفى اليوم التالى ذهبت إلى بنك مصر وقمت ببيع الأسهم بحوالى ٤٠٠٠ جنيه وسلمت المبلغ للحزب. وعرفت بعد ذلك أنه تم شراء مطبعة بالمبلغ. أما بالنسبة للأرض فكان من الضرورى قسمة الأرض حتى يمكننى بيعها. فقمت ببيع ثلاثة أفدنة لأختى وسلمت المبلغ للحزب. وأخذت أدرس مع القانونيين ومنهم أحمد فؤاد الطريق لبيع الفدادين الباقية التى كانت تخصنى.

وانتقلت للعمل فى الأقاليم. وبدأت بطنطا أما صبحى زغلول فكان مسئولا عن العمل فى الوجه القبلى. وخصص حمدى عبد الجواد للعمل بين الفلاحين. وبدأت مرحلة جديدة من حياتى، فقد أصبحت ثوريا محترفا، وأحسست بأننى تخليت عن طبقتى وأصبحت أنتمى إلى الكادحين، أعيش مثلهم وفى مستواهم. وأصبح لاشيء فى حياتى له قيمة توازى هذا الانتماء. فلا المال يهمنى ولا ليسانس الحقوق ولا أى اهتمامات شخصية أخرى، فكلها تخضع لهذا الهدف ولهذا الانتماء وكان هذا هو غاية حياتى كلها.

وتوالت عليّ النصائح من أقاربى ومعارفى وكان عمى عبد القادر أكثر من يشغل نفسه بهذا الموضوع. ويكثر من تقديم النصائح لى. وفى محاولاته لإثنائي عن هذا الطريق استعان بأحد تلاميذ والدى، الذى كان يشاركه فى مكتبه للمحاماة والذى استمر فى العمل به وهو يوسف حلمى، كان يحب والدى حباً جماً، فكان يعتبره أستاذه، والقى كلمة مليئة بالعواطف الحارة فى حفل تأبينه.

أذكر أنه استعان بيوسف حلمى لإقناعى فقال يوسف حلمى أنا أعرف أنك مثالى، وأنا أيضا مثالى، وأنا لا أطلب منك أن تترك ما تعتقده، ولكن لكى يكون لدعوتك أثر أكبر يجب أن تنهى دراستك وتحصل أولا على الليسانس. ولكن التيار كان قد جرفنى ولم أستطع التوقف، وكنت أخضع كل شيء للعمل الذى كنت أركز عليه، وهو العمل الحزبى.

أما يوسف حلمى فقد أصبح بعد ذلك عضوا قياديا فى الحزب الوطنى هو وفتحى رضوان ثم اصبح سكرتيرا عاما لحركة السلام فى الخمسينيات، وأصدر جريدة الميدان ثم اختلف مع قيادة الثورة سنة ١٩٥٣ حول قضية الحريات وحل الأحزاب، فاعتقل وسجن فترة. وقد حدث فى تلك الفترة أن ألقى عبد الناصر خطابا إتهم فيه المعتقلين الشيوعيين بأنهم يعملون لجهات أجنبية فاستفز يوسف حلمى وبعث له برقية جاء فيها ما معناه. أن الجهة الأجنبية التى نعمل لها هى مصر وهى اجنبية بالنسبة لك. وكان يوسف حلمى يشتعل وطنية ويعارض توجهات الحكم فى ذلك الوقت سواء فى محاولات التقارب مع أمريكا أو تقييد الحريات العامة. وقد سافر سرا بعد الافراج عنه إلى الخارج عدة سنوات ولم يعد إلى مصر الا فى عام ١٩٥٦ عندما تغيرت سياسة عبد الناصر. وفى فترة وجود يوسف حلمى فى الخارج التقينا وكانت لنا مغامرات مشتركة سأتحدث عنها فى وقتها.

وفاة والدتى:

توفيت والدتى عام ١٩٤٥ وكنت فى التاسعة عشرة من عمرى. إذ بعد وفاة أبى أخذت صحة أمى فى التدهور. فتجمعت عليها أمراض الكلى وضغط الدم. وكانت أمى شديدة الطيبة، واهتماماتها الوحيدة فى الحياة هى أولادها وزوجها. وكان أبى يرعى إخوتها ويهتم بهم فجاءوا للسكن معنا عندما انتقلنا إلى المنزل الكبير بقصر العينى وكان لى ثلاثة أخوال أكبرهم كان متزوجا يسكن منفصلا وكان يبحث عن عمل، ساعده أبى فى الحصول عليه، ولكنه توفى فى يوم تعيينه.

أما الخال الثانى فكان طبيبا وعندما تزوج انفصل عنا ثم توفى بعد قليل. أما الثالث فقد تخرج من كلية التجارة وعمل موظفا فى الحكومة ثم فى وزارة التموين وتدرج فى الوظيفة إلى أن أصبح رئيسا لمجلس ادارة شركة مصر للتأمين.

أما الخالات فالكبيرة لم تكن تعمل، وتزوجت زواجا لم يوفق وطلقت فعادت للحياة معنا فى المنزل، أما الخالتان الأخريان فكانتا تعملان فى التدريس وتزوجتا ولم تكن الصغرى موفقة فى زواجها فعادت للعيش معنا. وكانت تمارس علينا سلطتها، وكانت بذلك تحتك بنا باستمرار.

كان أحمد قد تخرج وأصبح مستقلا فاستقل بالسيارة وأصبح يغيب عن المنزل أغلب الوقت.

وفى السنة الأخيرة اشتد المرض على أمى وأصبحت لاتغادر السرير. وكان طبيب العائلة هو الدكتور غنيم وهو خال أبى، وقد درس فى فرنسا وتزوج فرنسية؛ أصبح له منها ابن وابنة وكنا نلجأ دائما للدكتور غنيم عندما يمرض أحدنا. وأذكر أنه كان يصف لنا دائما «شربة» زيت خروع. وكنا نكره هذا العلاج. وكان شديد الطيبة ويهون دائما من أى مرض، وكان كذلك بالنسبة لوالدتى حتى فى أيامها الأخيرة. وأصبحت أمى فى حالة نفسية سيئة وأصبحت تردد «الدنيا دى كلام فارغ».

وفى يوم وفاتها كنت أجلس فى حجرة المائدة أستمع إلى الموسيقى الكلاسيك كعادتى من الراديو الذى كان فى تلك الحجرة. وسمعت صراخ خالتى يأتى من حجرة والدتى. فذهبت إليها ووجدتها نائمة نومتها النهائية.

أحسست بالحزن. ولكننى لم أبك وانتابنى خليط من المشاعر. وإلى جانب الحزن لفقدان من أحب، فإنها فى السنتين الأخيرتين كانت تخاف عليّ من الطريق الذى اخترته لنفسى، وكانت تشفق عليّ، وكنت أيضا أشفق عليها، ولا أحب ازعاجها، وبعد موتها انتهى ذلك، ولم تعد هناك عوائق أمامى، أو إنسان أحرص على عدم إيذاء مشاعره، أو احس بمسئولية

تجاهه، فأصبحت أكثر انطلاقا وحرية فى عملى السياسى.

وذهبت مساء اليوم التالى إلى دار الأبحاث العلمية فواسانى زملائي وطلب شهدى عطية من الزملاء أن يواسونى. وأقيم سرادق أمام المنزل وتوافد المعزون وأذكر يومها محمد حسنين هيكل الذى جاء للعزاء وكان يومها يعمل فى آخر ساعة. وأثار معى نقاشا حول الشيوعية. وكان يناقشنى وهو يبتسم ابتسامة أحسست فيها بالسخرية ونشأت صداقة بينه وبين أخى أحمد.

العمل فى الاقاليم:

أصبحت أعمل فى الوجه البحرى أنتقل بين طنطا وشبين الكوم ودمياط، والتقى بالمجموعات الموجودة هناك واقوم بالتدريس لها ومتابعة عمل التجنيد والنشاط هناك.

واستأجرنا شقة فى طنطا كنت أسكن فيها مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد. وعمل معنا كمال عبد الحليم فترة ، ولكنه لم ينسجم مع فؤاد. وعمل معنا عبد المنعم الغزالى وعبد الستار الطويلة ثم فؤاد الدهان فترة من الوقت.

وعملنا على تأسيس مطبعة (آلة كاتبة ورونيو) لمنظمة الوجه البحرى.

وانتقلت للعمل فى الزقازيق واستأجرت حجرة صغيرة فى منزل عائلة فقيرة. وكان المنزل بلا كهرباء أو ماء. وكانت بنات صاحبة المنزل يحضرن لى الماء فى زلعة يحملنها من طلمبة المياه. وقد دلنى حمدى على هذه الحجرة حيث كان يسكنها قبلى. وكان يقص على مغامراته مع الفتيات بالشقة. وقد ترك حمدى الزقازيق ليعمل فى ميت غمر ومناطق فلاحية أخرى. ومن أهم المناطق التى كنا نتردد عليها للعمل بين الفلاحين قرية ميت يعيش وهى مسقط رأس شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى.

وكانت تجربة جديدة لى أن أسكن فى تلك الحجرة. وكانت لا تشتمل إلا على سرير ومكان لوضع «زير» المياه وكان هذا هو كل ما يوجد فى الغرفة. وكنت أمضى نهارى فى الاتصالات للعمل الحزبى فى مدينة الزقازيق والقرى المحيطة بها. ومن أقدم الأعضاء الحزبيين فى مدينة الزقازيق، والذى كان يمثل بالنسبة لنا حلقة الاتصال بالنشاط الحزبى هناك شخص يدعى سرور عامل المطافى وهو الذى كان يمثل الشخصية الأساسية، وإلى جانب سرور وجد عدد من الطلبة والموظفين والعمال بمدينة الزقازيق. وكنت أقوم بنفسى بالاتصال بالقرى المجاورة حيث كان بها بعض الفلاحين والطلبة المرتبطين بنشاطنا الحزبى وكنت أقوم بتوصيل المطبوعات الحزبية وأجتمع معهم للتثقيف الاشتراكى ومناقشة الأوضاع السياسية وتحديد الموقف الحزبى بالنسبة لها والرد على التساؤلات، والتعرف على مشاكل الناس لعرضها فى

مطبوعاتنا الحزبية وتقديم التوجيهات الخاصة بالتصرف لحل مشاكل الناس.

وبينما كنا فى المدينة نجتمع فى خلايا صغيرة من ثلاثة وخمسة أشخاص. ففى القرية لم يكن ذلك ممكنا. فقد كان الاجتماع يضم كل الأعضاء فى القرية بصرف النظر عن العدد. وقد يحضر الاجتماع بعض العناصر الأخرى المتعاطفة.

كنت أتناول طعامى فى المطاعم الرخيصة وأعود فى آخر اليوم إلى تلك الحجرة المظلمة التى كانت تضاء بلمبة جاز وتحضر لى بنات صاحبة المنزل الماء يحملنه على رؤوسهن. وفى الحجرة كنت أبقى فى سريرى أقرأ أو أكتب. ورغم مارواه لى حمدى عن مغامراته مع ابنتى صاحبة المنزل، ورغم الحياة الجافة التى كنت أعيشها فقد كنت شابا خجولا، ولكن حيوية هاتين الفتاتين وبساطتهما وفرت على أى مبادرات. فكانت إحداهما بعد أن تحضر لى الماء تجلس معى إلى جانبى على السرير وتفتح معى مختلف الأحاديث. وتسأل عن القاهرة ورغبتها فى زيارتها ورؤية معالمها.

ولكن هذه الحياة لم تستمر طويلا. ففى احدى الأمسيات كنت على موعد مع أحد الشبان على رصيف محطة ههيا، وذهبت فى الموعد المحدد فلم أجده ولكن جاء بدلا منه رجال البوليس وقبضوا عليّ ووجدوا معى حقيبة مليئة بالمنشورات واقتادونى إلى نقطة البوليس وحجزونى مع عدد آخر من المحتجزين لأسباب مختلفة. تجمعوا حولى ودهشوا لوجود أحد الشباب المثقف بينهم. وأخذوا يسألونى عن سبب احتجازى فحدثتهم عن أفكارى، فوجدت منهم تعاطفا شديدا وسخطا على من اعتقلونى.

وعرضت فى نفس الليلة على النيابة، فوجدت عددا من المحامين المتطوعين يحضرون معى عندما عرفوا أننى ابن يوسف الجندى. سألنى وكيل النيابة عن سبب مجيئى إلى ههيا فقلت أننى كنت ذاهبا إلى أرضنا فى «أبو الصير» ونزلت فى محطة ههيا لقضاء حاجة وفاتنى القطار. أفرجت عنى النيابة بكفالة عشرة جنيهات ولم يكن معى المبلغ. فتطوع أحد المحامين الوفديين باقراضى إياه.

خرجت من الحجز وتركت الحجرة بالزقازيق آسفا، واضطررت للانتقال للعمل فى مكان آخر. كان ذلك فى شتاء عام ١٩٤٨.

وانتقلت فترة بين زفتى وميت غمر. واستأجرنا شقة حصل عليها لنا عبد القادر العابدى فى زفتى فى العمارة التى كان يسكن بها. أما أنا فقد سكنت فترة مع «جدتى» أم والدى وكانت تسكن بمفردها فى منزل العائلة. وقد سرت كثيرا بسكنى معها. ولم أذكر لها السبب فى سكنى هناك. ولكنها أخذت تمدحنى لذلك وعندما كانت ترانى أقرأ أو أكتب كانت تعاتبنى لأننى «أمقمق» عينى. وكانت تعتنى بإطعامى وتعد لى الحمام المحشى الذى كانت مشهورة بالإتقان فى إعداده. وتغذيت جيدا فى هذه الفترة. وقبل أن أسكن مع «جدتى» كنت

أتردد كثيرا على قرية مجاورة لزفتى كان بها أحد الزملاء اسمه الحركى «فيصل» وكنت أتردد على عديد من القرى فى الشرقية والدقهلية. وأركب القطارات بالدرجة الثالثة وفى إحدى المرات غلبنى النوم فنمت نوما عميقا وفوجئت بالركاب يوقظوننى، وقد ظنوا أننى مت لأنهم بذلوا جهدا كبيرا فى ايقاظى. وفى مرة أخرى ذهبت إلى «فيصل» بعد جولة من الجولات ولاحظت ولاحظ فيصل أن القمل يتجول بحرية وبكثرة من ثنايا البلوفر الذى كنت ألبسه. فخلعت ملابسى التى أعطاها لإخوته البنات لينظفوها من القمل وردها إلى فى اليوم التالى بعد أن نظفوها وغسلوها ونشفوها. وكان هذا القمل هو أكثر ما يضايقنى فى هذه الجولات فاعتدت بعد كل جولة أن أخلع ملابسى وأنظفها من القمل. وقد اعتدت على ذلك فى فترات السجن الذى كان يمتلئ بمختلف الحشرات من قمل وبق. ولكن القمل هو الذى كان يضايقنى أكثر. فأصبحت عملية التنظيف من القمل يومية وأحيانا عدة مرات فى اليوم.

انتقلت بعد ذلك للحياة فى طنطا واستأجرت مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد شقة فى مدينة طنطا. أحضرنا اليها آلة كاتبة وجهاز رونيو.

ونظرا لانتقالى للعمل فى الأقاليم والسكن هناك فلم يعد هناك حاجة للابقاء على شقة الروضة فتركتها. وأصبحت أقيم فى فترات تواجدى فى القاهرة فى منزل العائلة.

وكانت هناك مشكلة الليسانس فقد بذل أقاربى المحاولات لأهتم بالحصول على الليسانس ونصحنى هنرى كورييل بنفس الشيء، بل أوصانى بأن آخذ أجازة اتفرغ فيها للاعداد للامتحانات. ولكن فؤاد وحمدي كان لهما وضع خاص وموقف آخر. فقد كان فؤاد فى السنة الأولى بكلية الآداب وترك الكلية ليتفرغ للعمل الحزبى ونفس الشيء بالنسبة لحمدى الذى كان فى السنة الأولى بالمعهد الهندسى العالى، وكانا ينظران إلى اكمال الدراسة الجامعية باعتباره طموحا بورجوازيا، وكان هذا هو الجو الذى أحاط بى فى ذلك الوقت. ولايعنى ذلك اننى لم أكن أريد الحصول على الليسانس. ولكن ذلك لم يكن فى ذلك الوقت من أولوياتى. فكانت هناك أحداث أخرى أكثر اثارة وتشغلنى أكثر. ففى الدور الأول كانت الوحدة بين اسكرا وح.م والمسئولية الجديدة التى أوكلت إليّ، وفى الدور الثانى كان عملى فى الاقاليم والانتقال للحياة هناك. بحيث فرضت على هذه الأوضاع أن أؤجل الحصول على الليسانس.

ثم استغرقنى بعد ذلك العمل فى الوجه البحرى ثم اعتقالى فى طنطا قبل الامتحانات بعدة أيام.

وتلك قصة أخرى..

ففى إحدى الليالى كنت عائدا مع فؤاد الدهان من القاهرة إلى طنطا فى حوالى منتصف

الليل. وطرقنا معا على باب منزلنا. وسمعنا صوتا يرد علينا ظننا أنه حمدى، ولكنهم كانوا مخبرين وضعوا كمينا للقبض على من يتردد على المنزل. وظهر أن المنزل هوجم قبل ذلك وقبض على فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد مع الآلة الكاتبة وجهاز الرونيو وكمية من المطبوعات الحزبية والمنشورات. وحولت مع فؤاد الدهان إلى قسم طنطا ووجدت هناك عددا من المقبوض عليهم من اعضاء التنظيم فى طنطا ومنهم عبد القادر العايدى ابن عمتى وقد عمل فترة فى طنطا واستأجر هناك منزلا مع عمتى. وسكنت معه فترة. ولكن حدث خلاف بيننا عندما انضم إلى «التكتل الثورى» بتحريض من أنور عبد الملك. والتكتل الثورى هو أول تكتل داخل الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وكان بقيادة شهدى عطية الشافعى الذى اختلف مع القيادة. وشاركه فى تزعم التكتل أنور عبد الملك وحسين كاظم. وكنا نفخر أنه لاأثر للتكتل الثورى أو أي تكتلات أخرى فى الاقاليم. ولكن أنور عبد الملك توصل إلى عبد القادر وحاول عن طريقه اختراق الأقاليم. ولهذا عاملناه بعنف لدرجة أن مشاجرة استخدمت فيها الأيدى حدثت بينه وبين حمدى عبد الجواد، الأمر الذى اغضب عمتى. وكانت قد فتحت لنا منزلها وتتعاطف مع قضيتنا. وقد آلمها كثيرا هذا الخلاف.

مكثنا بضعة أيام فى قسم طنطا ثم نقلنا إلى سجن طنطا. وكانت النيابة وقاضى المعارضة متعاطفين معنا فأفرج عنا بعد أسبوع بكفالة خمسين جنيها دفعها اهلى. أما فؤاد وحمدى فلم يستطيعا دفعها فبقيا أسبوعا آخر إلى أن خفضت الكفالة وخرجا من السجن.

وقد جاء عمى عبد العزيز لاستلامى من سجن طنطا واخذنى معه إلى القاهرة. وأخذ طوال الطريق يسدى لى النصائح والتأنيب وأوصلنى إلى منزلنا. وعندما تأهب للمغادرة طلبت منه أن أخرج معه بسيارته إلى ميدان قصر النيل (التحرير) فى طريقه فرفض وحز ذلك فى نفسى.

ظهر أن شابين فى لجنة طنطا الحزبية كانا على علاقة بالبوليس السياسى وهما اللذان سلما باقى الاعضاء. وكانا كتلة من النشاط وقد جندا عددا كبيرا من المرشحين. وقد عرفانى مرة بأحد الطلبة الذى بدأت معه عمليات التثقيف الأولية. وبعد عدة جلسات قال لى: هذا كله جيد ولكننى أريد حاجة تفتح النفس. إنه يصدق الدعايات التى تقول أننا نحصل على الأموال والمساعدات من موسكو فرددت عليه: «ليس عندنا إلا مايسد النفس. التضحيات والمخاطر والملاحقات والسجن». ثم أوقفت الاتصال به بعد ذلك.

بعد حملة طنطا قررنا إعادة تنظيم أنفسنا وفى هذه الفترة قامت حرب فلسطين، وكنا نعارض هذه الحرب التى كنا نعتقد أنها مؤامرة تواطأ فيها الاستعمار البريطانى مع السراى لصرف الانظار عن الوجود البريطانى فى مصر. وكانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ترفض هجرة اليهود إلى فلسطين وكانت مع إقامة دولة واحدة ديمقراطية مستقلة تضم العرب

واليهود من سكان فلسطين. وهو الأمر الذى رفضه كل من الحكام العرب واليهود. وعندما صدر قرار التقسيم أيدته حدتو ليس باعتباره حلا جيدا ولكن باعتباره الحل الوحيد الممكن والذى يضمن جلاء الجيوش البريطانية من فلسطين. وكان البديل هو حرب لم نكن مستعدين لها وكان هدفها الوحيد الذي اتفق عليه الملك عبد الله والوكالة اليهودية والانجليز هو منع قيام دولة فلسطينية. وهو الأمر الذى عارضته الدول العربية وقامت حرب فلسطين التى كنا نرى أنه لن يستفيد منها غير المستعمر. وقد أثبت الزمن صحة وجهة نظرنا. فقد دخل العرب الحرب بأسلحة فاسدة ارتدت إلى صدور الجنود المحاربين وهزم العرب واستولى اليهود على مساحة أكبر مما قررته لهم الأمم المتحدة وقضى تماما على الدولة الفلسطينية التي تآمر عليها الملك عبد الله مع الانجليز والوكالة اليهودية. وقد صدر أخيرا كتاب «عروش وجيوش» لمحمد حسنين هيكل يتضمن الوثائق والشهادات التي تثبت هذا التواطؤ. وضم الملك عبد الله الضفة الغربية إلى شرق الاردن وكان ذلك باتفاق مسبق مع الانجليز والوكالة اليهودية. وأصبحت غزة تحت الإدارة المصرية.

دافعت جريدة الجماهير عن هذا الموقف. وكذلك المنشورات التى صدرت عن الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى.

وسادت البلاد موجة هستيرية من العداء لليهود. واعتدى على كثير من الأجانب بل وبعض المصريين ذوى البشرة البيضاء والذين يشبهون الأجانب بحجة أنهم يهود. ويروى يوسف حزان الذى كان شكله مصريا صميما، وهو يهودى فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، أنه كان يسير مع ابراهيم المانسترلى وهو مصرى مسلم أبيض وأشقر ويبدو كأنه أجنبى. رآه بعض الصبية فاعتدوا عليه وهم يصيحون «يهودى يهودي». ولم يعتد أحد على يوسف حزان الذى كان شكله مصريا صميما رغم أنه فرنسى الجنسية.

كان الإفراج، عنا من سجن طنطا قبل الحرب بأسابيع قليلة. وقد أبلغنى أعمامى أن البوليس السياسى اتصل بهم وأخبرهم أن النقراشى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت يريدنى أن أذهب للقائه. ولكننى رفضت الذهاب وتجاهلت هذه الدعوة. وقد أثار رئيس البوليس السياسى فى طنطا هذا الموضوع أثناء شهادته عند نظر القضية بعد ذلك أمام محكمة أمن الدولة برئاسة حسين طنطاوى وذلك فى محاكمتنا سنة ١٩٤٩ وقد قدم هذه الواقعة كدليل جديد ضدى ومساهمة منه فى استعداء هيئة المحكمة.

بعد اغتيال النقراشى باشا عين ابراهيم عبد الهادى رئيسا للوزراء. فى ١٥ مايو أعلنت الأحكام العرفية واعتقل الإخوان المسلمون إلى جانب الشيوعيين واليهود.

وقد اعتقلت غالبية القيادة. وكان فؤاد وحمدى اعضاء فى اللجنة المركزية ولكنهما لم

يعتقلا لاختفائهما. ولم أعتقل أنا أيضا فلم أكن أسكن فى منزلى. وانتقلت للعمل فى الاسكندرية وصعدت إلى عضوية اللجنة المركزية.

وأصبحت مسئولا عن لجنة منطقة الاسكندرية وكان يعمل معى عبد القيوم محمد سعد (سودانى) ومحمد خليل قاسم.

دخل المعتقل هنرى كورييل والسيد سليمان الرفاعى ومحمد شطا وعبد المعبود الجبيلى وغيرهم.

وبعد «التكتل الثورى» أخذت التكتلات والانقسامات تنخر فى جسم حدتو وكانت هذه التكتلات والانقسامات تتخذ مبررا لها خطا سياسيا قدمه هنرى كورييل للمناقشة وسموه «خط القوات الوطنية الديمقراطية». وقد سمى كذلك لأن هنرى كورييل واسمه الحركى «يونس» كان قد أنهى تقريره بعبارة مفادها أن حزبنا يجب أن يكون حزبا للطبقة العاملة ولكل القوات الوطنية الديمقراطية.

فثارت الخلافات وبدأ قسم فى اللجنة المركزية يتزعمه عبد المعبود الجبيلى واسمه الحركى «عادل» يقول أن الحزب يجب أن يركز عمله بين العمال وهاجم ماسمى بخط القوات الوطنية الديمقراطية. وتطور الأمر إلى انقسام. واستشرت التكتلات خصوصا فى أقسام الطلبة والمثقفين والأجانب. وتكون تكتلان أحدهما سمى «صوت المعارضة» والآخر «نحو منظمة بلشفية» اتحدا بعد ذلك وسمى «المنظمة الشيوعية المصرية» (م.ش.م) وكانوا يدعون إلى العمل ١٠٠٪ بين العمال. وذلك استنادا إلى نص كان لينين قد كتبه فى بداية نشاطه في كتاب اسمه «مهام الاشتراكيين الديمقراطيين الروس» جاء فيه أن على الاشتراكيين الديمقراطيين (أى الشيوعيين) أن يركزوا عملهم فى الفترة الأولى كليا بين العمال. وطالبوا بإلغاء كل الأقسام الأخرى (الطلبة والمثقفين والأقاليم).

وبدأ الهجوم على نشاطنا فى الأقاليم وطالب البعض بإيقافه وتوجيهه إلى العمال. وقد عارضنا ذلك بالطبع لاحساسنا بأهمية العمل الذى كنا نقوم به. ولم يكن لهذه التكتلات والانقسامات أثر تقريبا فى الأقاليم. وكنا نفخر بذلك وانصرفنا تماما للعمل من أجل توسيع نشاطنا بين الفلاحين والفئات الأخرى فى الأقاليم.

وعندما اعتقلت غالبية القيادة تكونت قيادة جديدة وصعدت عناصر جديدة إلى اللجنة المركزية كنت من بينها. وأصبح الموجود من اللجنة المركزية فى الخارج: فؤاد عبد الحليم، حمدى عبد الجواد، مصطفى طيبة، ايمى ستون، احمد حمروش، وأنا وشخصا آخر اسمه الحركى «مصطفى» كان مسئولا عن المطبعة وشخصا اسمه «هانى» وأسندت إليّ منطقة الاسكندرية.

سكنت فى البداية مع عبد القيوم فى حجرة على سطح أحد المنازل فى الابراهيمية ثم انتقل عبد القيوم إلى القاهرة وحل محله محمد خليل قاسم ثم نقل قاسم إلى القاهرة واعتقل بعد قليل.

انتقلت بعد ذلك بناء على عرض من كلمنت ليبوفتش للسكن معه فى الشاطبى فى الفندق الذى كان يملكه والـده هناك.

تكتل المطبعة:

بعد تكوين القيادة الجديدة بقليل بدأت المشاكل. فقد انتقل فؤاد عبد الحليم للعمل فى القاهرة. وكان يقوم فى الواقع بدور المسئول السياسى أما حمدى فقد أصبح مسئولا للأقاليم وأنا مسئولا للاسكندرية. وجرى تصعيد عبد القيوم محمد سعد ومحمد خليل قاسم إلى اللجنة المركزية. وعمليا كان العمل الحزبى فى يد هذه المجموعة وبدأ تذمر من بعض أعضاء القيادة بدأه مصطفى مسئول المطبعة وكان معه مصطفى طيبة وهانى. أما هانى فقد كان ذلك طريقه للهرب والتوقف. أما مصطفى طيبة فيبدو أنه كان قد بدأ الاتصال بمشروع «الحزب الشيوعى المصرى» الذى أسسه فؤاد مرسى واسماعيل صبرى بعد عودتهما من باريس، وقالا أن لديهم توجيها من الحزب الشيوعى الفرنسى. أما مصطفى فيبدو أن دوافعه كانت شخصية لم افهمها. فكتب تقريرا يقول فيه أن التنظيم يقوده بعض المرتزقة وهاوٍ سياسى (يقصدنى أنا) وبدأوا يتصلون بالمعتقل حيث القيادة القديمة ويحاولون كسب تأييدهم السياسى والمادى.

والحقيقة أن تنظيمنا كان يعتمد أساسا على الاشتراكات التى تأتينا من المعتقلين وكان كل معتقل فى هذا الوقت يقرر له مبلغ من المال كانوا يتبرعون به إلى جانب تبرعات أخرى من القادرين.

استمر زملاؤنا فى داخل المعتقل وقيادتهم بالذات، وهى العناصر الأقدم والأكثر خبرة — استمروا فى الاتصال بمجموعة مصطفى ومصطفى طيبة وبنا أيضا. وقد ضايقنا هذا الموقف. ومرت فترة من التوتر والخلافات بيننا وبينهم، وفى إحدى رسائلهم قالوا أنهم «كادر الصف الأول أما نحن فكادر الصف الثانى».

ورغم أن ذلك كان صحيحا، إلا أننا فى الواقع أصبحنا نمارس القيادة الفعلية ولم يستطيعوا هم أن يقوموا بأى دور قيادى. وقد جرى العرف على أن من يدخل السجن لايقوم بدور فعلى فى القيادة وتكون القيادة فى العادة لمن هم فى خارج السجون.

وبدأنا نفكر بشكل مستقل عن القيادة فى المعتقل، وبدأنا نعيد بحث كل شيء. وأكـبرنا لم يكن قد وصل بعد إلى سن الخامسة والعشرين. واعمارنا كانت تتراوح بين

العشرين والثالثة والعشرين.

واستمرت الرسائل بيننا وبين الداخل. ففى احدى الرسائل كتبنا لهم أننا نعتقد أن حزبنا يجب أن يكون حزب الطبقة العاملة فردوا علينا يسخرون منا ويهنئوننا على هذا الاكتشاف الذى لم يختلف عليه أحد.

وبدأنا نعيد التنظيم الحزبى الذى كان من قبل تنظيما فئويا وأقمناه على اساس جغرافى.

ومع قراءاتنا الماركسية أحسست أن اسم تنظيمنا وهو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى لايعبر بدقة عن حقيقتنا، وأنه لايتفق مع الموقف اللينينى عندما غير لينين اسم الحزب من الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى الى الحزب الشيوعى وكتبت وقتها تقريرا أطالب فيه بتغيير اسم منظمتنا إلى المنظمة الشيوعية المصرية ولكن لحسن الحظ لم توافق القيادة، ولكنها توصلت إلى حل وسط وهو اضافة كلمة الشيوعية بين قوسين، فأصبحنا نسمى حدتو (ش)

وكانت قيادة الداخل برئاسة هنرى كورييل. وقد أحسوا بعد ذلك أن مجموعة مصطفى طيبة ومصطفى تمثل تكتلا ضد حدتو، وتأكدوا من ذلك عندما استولى مصطفى على المطبعة فلم يكن هناك مجال أمامهم إلا الاعتراف بنا كقيادة. وقطعوا علاقاتهم بالمجموعة الأخرى. وان كانت خطاباتهم لنا تتسم بالقلق والاشفاق على أن أمور المنظمة قد آلت إلى صغار السن قليلى الخبرة ولكنهم شديدو الإخلاص، وانتماؤهم لا يهتز. وثقتهم فى حدتو ودورها وتاريخها ومستقبلها لاشك فيه.

وكانت نواة مجموعتنا هى فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القيوم محمد سعد وأنا. وظل محمد خليل قاسم معنا فترة ثم اعتقل. وكان زكى مراد طليقا ولكنه لم يكن فى القيادة وكان مشغولا بدراسته فى كلية الحقوق.

وكان أخى حسن عضوا فى التنظيم. وكنت قد جندته وأقنعته منذ فترة. وكانت هذه نقطة خلاف أخرى بينى وبين عمى عبد القادر. وفى حديث غاضب بينى وبينه بعد أن يئس من اقناعى اضطر للقول بأننى حر فى نفسى ولكن عليَّ أن أترك حسن ولا أحاول جره إلى هذا الطريق. وجادلته فى ذلك وقلت له أننى لا أفرض على حسن شيئا، ولكنه حر فى اختياره. وكان حسن فى ذلك الوقت فى المدرسة الثانوية وكان يخطب فى الطلبة ويقودهم فى المظاهرات وقد دخل بعد ذلك كلية التجارة. وعند اعتقالنا فى عام ١٩٤٩ كان من القلائل الذين بقوا خارج السجن. أعيد توزيع المسئوليات فى اللجنة المركزية، نقلت إلى القاهرة واسندت إليّ مسئولية شبرا الخيمة. واستأجرنا شقة فى بولاق مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد.

الاعتقال والسجن:

وفى ١٢ مارس ١٩٤٩ ذهبت إلى ميعاد فى شبرا الخيمة. وفى أثناء سيرى متجها إلى منزل أحد الأعضاء. قبض على وفتشت وكان معى بعض المخطوطات. وإحدى هذه المخطوطات مسودة منشور كنا نعده يهاجم الملك فاروق.

وكنا فى هذه الفترة نصدر العديد من المنشورات التى تهاجم الملك وتكشف دوره فى تجارة الاسلحة الفاسدة أثناء حرب فلسطين. فقد كنا نعارض هذه الحرب ونعتبر انها مؤامرة انجليزية استعمارية بالاشتراك مع السراى والرجعية المصرية لصرف الانظار عن القضية الوطنية قضية احتلال القوات البريطانية للأراضى المصرية، ومن ذلك مثلا أنه عندما هلل الاعلام وقتها لما كان يسمى بانتصار الفالوجا، أصدرنا منشورا مضمونه أن معركة الفالوجا يجب ان تكون معركة القناة.

وكان موقفنا هذا يختلف مع الاتجاه السائد فى الاعلام المصرى والعربى فى ذلك الوقت والذى كان يؤثر على المشاعر العامة للجماهير، تلك المشاعر التى استغلتها جماعة الاخوان المسلمين وبعض الجماعات الأخرى لإذكاء مشاعر التعصب ضد اليهود.

كان موقفنا هذا الذى أعتقد أنه صحيح ويتسم ببعد النظر والمبدئية، إلا أنه كان يختلف مع التوجه الجماهيرى السائد فى ذلك الوقت. وكانت السلطات والاعلام السائد يستخدمه ضدنا لعزلنا عن الجماهير وتعبئتها ضدنا. إلا أنه بعد اكتشاف صفقات الأسلحة الفاسدة والنشر عنها فى الصحف، بدأ التوجه الجماهيرى يتغير.

وأعتقد أنه لو كان قد أخذ بوجهة نظرنا فى ذلك الوقت، وقبل قرار التقسيم، وتمسكنا بالحدود التى حددتها الأمم المتحدة للدولة الفلسطينية والدولة الاسرائيلية، ودافعنا عن ذلك الموقف لكان موقفنا أفضل الآن كثيرا.

وكان موقفنا يتلخص فى أن النضال من أجل هذا الموقف يجب أن يقوم به العرب واليهود وأنه يجب التفرقة بين الصهيونية كحركة رجعية وبين اليهود انفسهم الذين يجب كسبهم للنضال جنبا إلى جنب مع العرب فى المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، كان هذا هو الموقف الذى نؤمن به انطلاقا من مفاهيمنا الأممية والاشتراكية، إن مصالح الشعوب الكادحة واحدة فى كل مكان لافرق فى ذلك بين دين أو جنس. وكنا نرفض التوجه العنصرى أو التعصب القومى من أى جانب

اقتادونى إلى قسم شبرا الخيمة ثم حولت إلى النيابة التى أمرت بحبسى.

وكانت تجربتى مع الاعتقالات السابقة ألا يستمر الحبس إلا عدة أيام وسرعان ما تفرج عنى النيابة أو قاضى المعارضة، ولكن بعد اعتقالى بأيام قليلة صدر قرار باعتبار القضايا الشيوعية

قضايا عسكرية، وأصبح يطبق بالنسبة لها الحبس المطلق وكان ذلك يعنى بقائى فى السجن إلى أن أعرض على المحكمة، أو تفرج عنى النيابة وحولت إلى سجن مصر. ووجدت هناك بعض المسجونين الشيوعيين منهم محمد حسن جاد الشهير باسم «برق» والذى سبق اعتقاله عدة مرات. وبعض المحبوسين الآخرين أذكر منهم شخصا يدعى عبد الفتاح الشرقاوى كان قد أسس ما يسمى «بالحزب الشيوعى لشعوب وادى النيل» وهو حزب شيوعى اسلامى. وكنا نسكن فى عنبر كبير وكانت الحياة فى السجن فى ذلك الوقت شديدة القسوة. فلم يكن يسمح للمساجين بالتعامل مع الكانتين وكانت السجائر ممنوعة وكذلك الغذاء «الملكى» (الذى يرد من خارج السجن) وذلك بالنسبة للمحكوم عليهم الذين يمضون فترة العقوبة أما المحبوسون تحت التحقيق فكان من حقهم استلام غذاء (عامود) من الخارج. ونشأت بيننا فكرة «الحياة العامة» إذ لم يكن فى مقدور الجميع الحصول على غذاء من أهاليهم. فكانت العائلات القادرة وحدها هى التى تقوم بذلك ويقسم الغذاء «الملكى» على الجميع بالتساوى.

وكانت هناك سوق سوداء فى كل الممنوعات بدءا بالسجائر إلى الأمواس (البشلة) بلغة السجن إلى قطعة «الحلاوة» التى كانت تباع بخمسة قروش (وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت». وكانت الحلاوة مطلوبة جدا، إذ أن غذاء السجن لم يكن يحتوى على أى سكريات. وقد كان ما يقدم من غذاء فى السجن عبارة عن شقة من الخبز مع قليل من الدقة صباحا. وعدس أو فول ردئ (ملئ بالسوس) بالتناوب (يوم عدس ويوم فول) ظهرا وخضار (لاعلاقة له بالخضار بل كان يبدو ماء ساخنا به بعض الأوراق الخضراء) ومرة فى الأسبوع تقدم قطعة من الشغت وتسمى لحما.

وكان يخفف من هذا الوضع أنه أثناء الحبس الاحتياطى كان من حقنا الحصول على عامود «الأكل الملكى» ولكننى عانيت من اكل السجن عندما انتقلت بعد ذلك إلى السجن فى الاسكندرية (سجن الحضرة) وكنا فى الحبس الانفرادى وهو ما سأعود إليه فيما بعد.

توالى «الإيراد» من زملائنا الشيوعيين، قبض على فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القيوم محمد سعد وغيرهم. ولم يبق فى الخارج إلا عدد ضئيل جدا. كان من بينهم أخى حسن الذى كان عضوا فى تنظيمنا «حدتو»، ولكن فاعلية هذا العدد القليل كانت ضئيلة للغاية. وسمعنا فى الخارج عن وحدة أجراها زملاؤنا في حدتو بقيادة زكى مراد واحمد الرفاعى مع منظمة «نحو حزب شيوعى موحد» ولكنها لم تستمر طويلا. وتردد فى الخارج الحديث عن الوحدة. ولكنها كانت قليلة الأثر. فكانت الغالبية الساحقة من الكادر موجودة فى الداخل. اما فى المعتقلات (الهاكستب) أو فى السجون. ولم يكن من تقاليدنا أن يكون لمن فى داخل السجن مهما كان وضعه القيادى أو خبرته الدور القيادى فى تحديد السياسة والعمل فى الخارج.

وفى عام ١٩٤٩ سمعنا ونحن فى خارج السجن عن قدوم شخص من فرنسا اسمه «سعيد» يزعم أنه كان على اتصال بالحزب الشيوعى الفرنسى ويقول أنه جاء بتوجيه بتكوين الحزب الشيوعى المصرى وعرفنا بعد ذلك أن هذا الشخص هو اسماعيل صبرى عبد الله.

وكنت أعرف اسماعيل صبرى من كلية الحقوق. وكان يسبقنى بسنة وكان شديد التفوق فى دراسته. فيحصل دائما على درجة «الامتياز» جمعته شلة واحدة مع نهيد أبو زهرة، وكان معروفا عنهما أن لهما اتجاهات «تروتسكية» ولم يكن لهما أى دور فى النشاط الطلابى أو النشاط الوطنى فى ذلك الوقت. ولكنه بعد أن حصل على الليسانس بتفوق أرسل فى بعثة إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه. وهناك اتصل بالحزب الشيوعى الفرنسى وكان هذا الحزب لايمنع عضوية الأجانب به. فدخله عدد من المصريين غالبيتهم من اليهود الذين طردوا من مصر عام ١٩٤٨ بعد اعتقالهم، وكان يطرد الذين لا يحملون الجنسية المصرية أما الباقون فكانوا يخيرون بين البقاء فى المعتقل أو مغادرة البلاد. وانضم هؤلاء جميعا فى باريس إلى الحزب الشيوعى الفرنسى. وكون الحزب ما يسمى «بالمجموعة المصرية» واختير اسماعيل صبرى عبد الله مسئولا لها.

لم نلق بالا لزعم «سعيد» بأنه مكلف بتكوين الحزب الشيوعى المصرى. فنحن من ناحية لم نصدق زعمه، ومن ناحية أخرى فحتى لو كان زعمه صحيحا، فلم نكن نعتبر أن من حق الحزب الشيوعى الفرنسى أن يتدخل فى شئوننا. وفضلا عن ذلك كنا نعتقد أن لدينا نواة الحزب الذى يعمل منذ عدة سنوات وكانت له سياسته وتأثيره وهو «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» ولكن ظهر بعد ذلك أن مصطفى طيبة كان على علاقة بهذه الدعوة الجديدة لتكوين ما يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى».

أثناء وجودى فى سجن مصر نقلت إلى سجن المنصورة للتحقيق فى «قضية الشيوعية فى المنصورة» وقد اتهم فيها عدد كبير منهم بعض الفلاحين وكذلك زميلنا حمدى عبد الجواد. بقيت هناك يومين ثم أعدت بعد ذلك إلى سجن مصر. ولكنى رحلت بعد ذلك إلى سجن الحضرة بالاسكندرية وواجهت التحقيق بوقائع علاقتى بالتنظيم الشيوعى فى الاسكندرية. وكانت هناك اختراقات امنية فى كل من هذه القضايا.

وأذكر فى التحقيق معى الذى قام به احد وكلاء النيابة فى الاسكندرية أن كان ضباط البوليس السياسى «سمير درويش» وغيرهم يحضرون التحقيق ويشتركون فى توجيه الأسئلة فاضطررت أن أسال وكيل النيابة عمن يحقق معى. فاستفز وسألنى «قصدك إيه؟» فاضطروا إلى التوقف عن التدخل.

وفى أحد التحقيقات عرض خطى على أحد الأطباء الشرعيين الذى ظهر أنه يمت بصلة القرابة إلى عمى عبد العزيز. وقد أخذ يؤنبنى أننى اخترت هذا الطريق.

وأذكر أيضا أن أحد المخبرين الذين كانوا يشتركون فى حرس نقلى إلى النيابة سألنى مرة إن كنت بعد الحكم على وتمضية مدة السجن سأستمر فى الشيوعية.قلت له «إن شاء الله»، فسألنى وكيل النيابة نفس السؤال ورد «إن شاء الله أليس كذلك». وبعد ذلك أخذ يوجه لى النصح بأنه من الأفضل أن أعمل بالصحافة.

كنا فى سجن الحضرة بالاسكندرية فى أوضاع فى غاية السوء، إذ كنا نحبس حبسا انفراديا ونسكن فى طابقين كاملين أفرغت تماما لنا «الشيوعيين» وكان بين كل زنزانة وأخرى زنزانة خالية، ويخرج كل منا بمفرده مع سجان إلى دورة المياه، وكذلك إلى الطابور اليومى، الأمر الذى كان يستغرق اليوم بأكمله. وكانت تمنع عنا تماما الكتب والصحف ومن لم يكن يصله غذاء من الخارج كان يضطر لتناول غذاء السجن الشديد الرداءة. وكانت الأسرة قد اتفقت مع أخى احمد الذى كان يتردد كثيرا على الاسكندرية لزيارة صديقته البا على ان يدفع مبلغا للمتعهد على أن يرسل لى غذاء ملكيا «وكان يسمح لمن يدفع بأن يحصل على سرير» فكان يدفع مبلغا يكفى يومين أو ثلاثة ثم يسحب منى السرير والغذاء الملكى بعد أن تنفد النقود. وقد كان ذلك يضايقنى كثيرا. فكنت أفضل أن يستمر الحال بلا غذاء ولاسرير.

وبعد الساعة الخامسة مساء كان وقت «التمام» أى إغلاق السجن فكيف كنا نمضى وقتنا؟

ابتكرنا طريقة لعقد الاجتماعات بأن نضع جردل البول فوق جردل المياه ونبدأ فى الحديث والنقاش: نتناقل الأخبار ونتدارس الوضع وكان الحديث يأخذ وقتا طويلا لأن آراء بعضنا البعض كنا ننقلها بالواسطة، فأقول مثلا رأيى لمن يسكن فى زنزانة قريبة يستطيع أن يسمع صوتى الذى ينقلها بدوره إلى الزنازيين الأخرى، وهكذا مع ملاحظة أننا كنا نسكن فى دورين.

وكان حمدى عبد الجواد يقطن الزنزانة القريبة منى بعد الزنزانة الفارغة. وكان شهدى عطية الشافعى يقطن زنزانة فى الدور الثانى. وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة سبع سنوات ولبس الحديد فى قدميه ونقل إلى لومان طرة بعد تنفيذ الحكم. وكان بذلك أول شيوعى يلبس الحديد فى قدميه تنفيذا لحكم بالأشغال الشاقة.

وقدمت مع بعض زملائى اقتراحا بالاضراب عن الطعام لإلغاء الحبس الانفرادى، وكان هناك مؤيدون ومعارضون وكان من الضرورى أن نحصل على أغلبية الأصوات لتنفيذ الاضراب واستمر النقاش بهذه الطريقة لمدة ثلاثة شهور. بعدها توصلنا إلى اغلبية تؤيد الاضراب. وبدأنا الاضراب الذى استمر ثلاثة أيام تقرر بعدها إلغاء الحبس الانفرادى. وكان ذلك بمثابة عيد لنا وقد سهل لنا الحياة كثيرا داخل السجن.

وبدأنا نطبق نظام الحياة العامة بالنسبة للغذاء الملكى الذى يأتى لبعضنا من الخارج،

واستطعنا أن نرتب أمورنا بشكل أفضل.

وكان «مارسيل اسرائيل» وهو أحد مؤسسى الحركة الشيوعية «منظمة تحرير الشعب» يشاركنى زنزانتى، وقال أنه عاش فى زفتى هو ووالده وتعرف بوالدى الذى وكله فى إحدى القضايا وكسبها له. وكانت له ذكريات عن زفتى. وكنا فى الزنزانة نتبادل الأحاديث والذكريات ونقوم بعمليات تثقيف سياسية وتعليمية، وكنا نحاول معرفة الأخبار فى الخارج عن طريق الزيارات العائلية التى بدأوا فى السماح بها. أو عند خروج أحد الزملاء للتحقيق. وكانت هذه المناسبات بمثابة ترفيه لنا. وكنا نعقد الاجتماعات الحزبية. واستمر الصراع بين الفرق المختلفة. فإلى جانب حدتو وجدت فرق أخرى مثل نحو حزب شيوعى مصرى وم.ش.م (المنظمة الشيوعية المصرية).

وقد نشأت المنظمة الشيوعية المصرية من وحدة تكتلين خرجا من الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وتكونا عام ٤٨. أحدهما كان يسمى «صوت المعارضة» والآخر «نحو منظمة بلشفية» وكان يضم فى الغالب عناصر من قسمى الطلبة والأجانب. وكان من بينهم محمد سيد أحمد وميشيل كامل واحمد نبيل الهلالى وغيرهم. ثم انقسما عن حدتو واتحدا مكونين منظمة جديدة سموها «المنظمة الشيوعية المصرية»، كان يقود هذه المنظمة سيدة أجنبية اسمها أوديت حزان شقيقة يوسف حزان وزوجها سيدنى سلامون. وقد كتب محمد سيد أحمد حديثا مقالا شبه فيه م.ش.م وسط اليسار بمنظمة التكفير والهجرة الآن بين الجماعات الاسلامية. فكانت م.ش.م تكفر الجميع وتعتبرهم خارجين عن العقيدة الشيوعية. وكانوا يعتبرون أنفسهم وحدهم المتمسكين بالعقيدة الماركسية اللينينية الستالينية. واستندوا إلى احدى كتابات لينين المبكرة لاعتبار أى عمل بين فئات أخرى غير العمال كفرا. ولهذا نادوا بالعمل ١٠٠ ٪ بين العمال وحل كل الاقسام الأخرى واعتبروا العمل فى الاقاليم ترفا بورجوازيا. ودعوا إلى حل قسم الأقاليم مثله فى ذلك مثل كل الأقسام الأخرى غير البروليتارية.

وهناك نوادر عديدة عن هذه المنظمة منها مثلا أنهم كانوا يرسلون عددا من الأجانب والطلبة المتيسرين للجلوس على المقاهى فى شبرا الخيمة لتجنيد العمال. فاصطادهم بعض عملاء البوليس السياسى وتظاهروا بالاستجابة لهم ثم سلموهم للبوليس.

وفى السجون كان ممثلو م.ش.م يرفضون التحدث مع ممثلى المنظمات الأخرى. ويذكر أن ادارة سجن مصر سكنت أحدهم فى زنزانة مع اعضاء من حدتو. فذهب عضو م.ش.م إلى ضابط العنبر وطلب نقله إلى زنزانة أخرى. فسأله عن السبب. فقال أنه يسكن مع بوليس فضحك الضابط وقال له ولكنى أنا أيضا بوليس فكيف تطلب منى ذلك الطلب.

وقد تفككت هذه المنظمة بعد ذلك بعد أن سببت كثيرا من الأضرار. ويتندر أعضاؤها السابقون عن تفاصيل عمل تلك المنظمة والأساليب التى كانت تتبعها مع اعضائها. وكانوا

جميعا شبابا صغيرى السن قليلى الخبرة يمتلئون حماسا للقيام بشيء لإشباع طموحاتهم الثورية. وقد انفض غالبية أعضاء هذه المنظمة وتركوا العمل الحزبى كلية. أما الأقلية الباقون فقد تحولوا إلى التنظيمات الأخرى.

أما أوديت زعيمة المنظمة فقد التقيت بها لأول مرة بعد ذلك فى باريس فى الثمانينيات، وهى كما يقول أخوها لم تترك العمل السياسى فحسب بل ولاتتحدث فى السياسة اطلاقا وتفرغت للرسم ولرعاية اسرتها وهى بذلك تقوم بعمل أكثر فائدة. وقد انفصلت عن زوجها سيدنى وتزوجت من شخص آخر وأصبحت تعيش فى سويسرا.

كانت فترة الحبس الانفرادى، والتى استمرت أكثر من ثلاثة أشهر فترة قاسية. وكان من الصعب تمضية الوقت بلا عمل أى شيء. وكنت أخطط لبرنامجي اليومي فى خيالى. أما المساء فكان غنيا بالمناقشات والأحاديث مع الزنازين الأخرى. وأذكر فى احدى المرات أن وضعت جردل البول فوق جردل المياه فانقلب جردل البول ووقع بعضه فى جردل المياه. ولم يمنعنى ذلك من الشرب من المياه فلم يكن أمامى بديل آخر حتى الصباح.

وكان الوضع بعد الغاء الحبس الانفرادى وتسكيننا فى زنازين جماعية أفضل كثيرا. وكنا شديدى الفرح بذلك كأنه أفرج عنا. وأصبحت الحياة أكثر سهولة نسبيا. ولكن استمر السجن واستمر الاعداد للمحاكمة التى وصلنا قرار الاتهام فيها.

وكان شهدى قد حوكم وحكم عليه بالسجن سبع سنوات اشغال شاقة ورحل إلى طرة ولبس الحديد. وقد عانى ذلك بمفرده. ولم يكن معه أحد من زملائه الشيوعيين. فكون علاقات وثيقة وصداقات مع غيره من نزلاء اللومان وترك هناك ذكريات وآثارا ممتازة.

كان شهدى أول من كون تكتلا داخل حدتو سنة ١٩٤٨ سماه «التكتل الثورى» ولكنه بعد ذلك تخلى عنه وانتقد تصرفه وعاد إلى حدتو وظل بها. وكان أحد اعضائها القياديين إلى حين اغتياله فى ليمان أبو زعبل عام ١٩٦٠.

المحاكمة

قدمت إلى المحاكمة مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القادر العابدى (ابن عمتى) وفؤاد الدهان وعدد آخر من المتهمين على ذمة قضية طنطا. وضمت أوراق قضايا طنطا

وههيا وشبرا الخيمة والاسكندرية وقدم قرار اتهام يضمها كلها. وكنت المتهم الأول فى القضية وقدمنا إلى محكمة عسكرية برئاسة حسين طنطاوى المعروف بأحكامه القاسية وبخضوعه الكامل للسلطة والسراى. وكان رئيس النيابة وقتها هو محمد كامل القاويش وقد أدين طنطاوى والقاويش بعد قيام الثورة.

وكان الشاهد الأول هو السنباطى رئيس البوليس السياسى فى الغربية وقام بالدفاع عنى منصور باشا اسماعيل الذى كان قد ترك القضاء بعد احالته على المعاش وعمل بالمحاماة. وهو ابن عم اسماعيل صدقى ووالد زوجة عمى عبد العزيز وكان يساعده عمى عبد القادر الذى كان يعمل محاميا.

لم يعجبنى دفاع منصور اسماعيل الذى كان يقوم اساسا على أننى بعيد عن الشيوعية وأن وضعى العائلى لايسمح لى بذلك. وأننى غريب الأطوار وأن أخى قابلنى مرة فى الاسكندرية وليس معى مليم واحد، فسأل حسين طنطاوى: هل تريدون القول بانعدام المسئولية (لاختلال القوى العقلية أو ما شابه) فرد منصور اسماعيل: لا أقول ذلك.

ولاستعداء المحكمة قال الشاهد الأول أن النقراشى باشا حاول استدعائى لمقابلته ولكننى رفضت المقابلة فهب الدفاع ناكرا لهذه الواقعة ومستنكرا لها.

وفى النهايــة صــدر الحكم عليّ وعلى كل من فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وعبد القادر العابدى بالسجن خمس سنوات وغرامـة لا أذكرهـا. وسمعت بعـد ذلك أن حسين طنطاوى قال للقريبين منه أنه كان يجب أن يصدر ضدى حكما أقسى ولكنه راعى وضع عائلتى.

جرت المحاكمة فى الاسكندرية. وصدق على الحكم بعد فترة. وفى أحد الأيام نودى علينا نحن الأربعة وبلغنا بالتصديق على الحكم ونزعت منا ملابسنا (الملكية) بما فيها الملابس الداخلية والأحذية وسلمنا ملابس السجن الزرقاء (مهلهلة).

وكنا أول من يصدق على الأحكام ضده من الشيوعيين فى سجن الاسكندرية. وأرادت ادارة السجن أن تضع قواعد شديدة للتعامل معنا فوزعتنا على زنازين «السوابق» فى الدور الثامن بالسجن، فكنا لا نلتقى إلا فى الطابور اليومى أو فى دورة المياه عند فتح الزنازين.

وكان معى فى الزنزانة حوالي عشرين مسجونا كلهم من السوابق. وقد استقبلونى استقبالا حسنا وحاولوا مساعدتى والتخفيف عنى. كنت «المتعلم» الوحيد بينهم. وأخذوا يسألونى عن تهمتى وبدأت احكى لهم. وكانوا يتجاوبون ويتعاطفون ويسبون الحكومة التى تعامل أمثالنا مثل هذه المعاملة، وحدث نفس الشيء مع زملائى الآخرين فى زنازينهم. وكانت المخدرات أمرا عاديا فى تلك الزنازين وبالذات الحشيش الذى كان يتداول بسهولة. ويهرب مع باقى المهربات

الأخرى مثل السجائر والنقود والأمواس (وتسمى البشلة) والحلاوة الطحينية وغيرها.

وكانت الصحبة تفرض عليّ أن أجرب معهم السجائر رغم أننى غير مدخن. وجربت مرة نفسا من الحشيش فدار رأسى ولم أجربه مرة أخرى.

عوملنا تماما مثل باقى المساجين. حل يوم الحمام فدعيت كل العنابر إلى فناء السجن وكان علينا أن نجلس القرفصاء انتظارا لأوامر السجان، والعادة أن يقرن السجان أمره بضرب أحد المساجين ليعطى لأمره قوة. وكنا بين المساجين لافرق بين مسجون وآخر وعند اصدار أحد الأوامر كان القريب بين يد السجان هو حمدى عبد الجواد فضربه وكان بجانبه فؤاد عبد الحليم فقاما وتماسكا مع السجان. فأرسلهما إلى ضابط العنبر الذى يعرفنا جيدا. وذهبت أنا وعبد القادر العابدى معهما. سألنا: ما الأمر؟ قلنا إن السجان ضربه. فرد وماذا فى ذلك «هوكفر يعنى». ثم نادى أحد السجانين وامره بضرب كل من فؤاد وحمدى على قفاهما عدة مرات وهى عقوبة معتادة فى السجن، بصرف النظر عن الألم فقد شعرنا بإهانة شديدة ووجدنا طريقة مع احد المساجين لابلاغ زملائنا فى عنبر التحقيق بالخبر الذين قاموا بدورهم بتسريبه إلى عائلتنا فى إحدى الزيارات. وفى اليوم التالى نشرت احدى الصحف الوفدية المعارضة للحكومة خبر «الاعتداء على الشيوعيين بالضرب فى سجن الحضرة».

أصاب الفزع ضابط السجن وحاول استرضاءنا فأمر لنا بشراء الملابس التى نحتاجها (أحذية وملابس داخلية) من اماناتنا واعطانا ملابس سجن جديدة واستمع إلى طلباتنا التى كانت تنحصر فى أن نسكن معا. فخصص لنا زنزانة خاصة بنا بالدور الثانى وبدأت المعاملة تتحسن.

كان هذا درسا لنا داخل السجن وهو أنه يجب المقاومة والنضال لتحسين ظروفنا المعيشية وخصوصا أننا كنا بداية تجربة تنفيذ الأحكام على الشيوعيين. توالى بعد ذلك التصديق على أحكام أخرى، ونظمنا اتصالنا بعنبر من هم تحت التحقيق وبدأت تصلنا الأخبار وبعض الغذاء «الملكى».

وفى عام ١٩٥٠ أجريت الانتخابات وجاءت حكومة الوفد التى أفرجت عن المعتقلين الشيوعيين وخرج زملاؤنا من المعتقلات وعاد المد للنشاط الوطنى والديمقراطى. وبرزت من جديد الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى كأهم وأقوى تنظيم. والملاحظ أنه فى فترات الجزر وانكماش النشاط كانت تتساوى تقريبا مختلف التنظيمات التى كانت تتقوقع وينحصر نشاطها فى العمل السرى. أما فى فترات المد فكانت حدتو هى دائما التى تحسن الجمع بين النشاط القانونى والنشاط السرى، وتهتم بأشكال العمل العلنى وينتشر نشاطها فى مختلف المجالات.

وعند خروج زملائنا تصاعد النشاط الوطنى للمطالبة بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ والعمل الفدائى فى القناة مع بدء العمل لتكوين حركة سلام واسعة تضم مختلف الاتجاهات وظهرت

الصحف العلنية مثل الملايين والكاتب وغيرها.

ونشط العمل الجبهوى مع مختلف القوى والأحزاب والهيئات الوطنية والديمقراطية.

وكانت تصلنا الأنباء عن هذا النشاط ونحن فى سجننا فنغتبط له.

ونشط النضال للمطالبة بالافراج عن المسجونين الشيوعيين. وبمجئ حكومة الوفد نشطت أسرتى باتصالاتها لمحاولات للافراج عنى أو تحسين معاملتى داخل السجن. وذلك لعلاقات الاسرة بالوفد وبالوزراء الوفديين. ولكنها نجحت فقط فى نقلى من سجن الاسكندرية إلى سجن القاهرة حيث أكون قريبا منها.

وسمح لى بالحصول على الكتب الدراسية للاستعداد للامتحان فى المواد الباقية لى للحصول على ليسانس الحقوق.

نقلت إلى سجن مصر. وكان هناك عدد من الزملاء المسجونين بعضهم ينفذ الاحكام والبعض الآخر تحت التحقيق

ولكن الحياة فى السجن كانت شديدة الصعوبة. فلا يسمح بالصحف أو الكتب ويعامل المسجونون السياسيون نفس معاملة المسجونين الآخرين إن لم يكن أسوأ.

قدمنا طلبات بتحسين المعاملة سواء بالسماح بالصحف والكتب أو تحسين الغذاء والسماح بأسرة أو مراتب الخ.

وأخذنا نعد لاضراب عن الطعام إن لم يستجب لمطالبنا.

وفى فترة الإعداد وكنت أسكن فى عنبر كبير للمحكوم عليهم من الشيوعيين. دخلت فرقة من السجانين للتفتيش فوجدوا عند أحد زملائنا موسى (بشلة) وعقلة لاشعال السجائر. وكانت عقوبة الموسى تصل إلى الجلد. واتفق على أن أقول انها تخصنى أملا فى تخفيف العقوبة أو الغائها، وقد كانت تخص أحد زملائنا العمال (محمد حسن جاد) الذى سبق أن عوقب عدة مرات وخشينا أن يجلد هذه المرة.

عوقبت بإيداعى فى التأديب. وهو سجن انفرادى معزول فى مكان لا أستطيع الاتصال منه بزملائى. ولايسمح فيه بالطابور اليومى. مع قيود أخرى بالنسبة للحركة والغذاء.

وأثناء وجودى فى التأديب بلغنى أن زملائي بدأوا الاضراب عن الطعام. فأبلغت ادارة السجن أننى مضرب ونقلت إلى غرفة انفرادية بالعنبر الذى يوجد فيه زملائي. بعد حوالى اسبوعين من الاضراب ازداد هزالى بدرجة أثارت ذعر طبيب السجن الذى أمر بنقلى إلى مستشفى السجن ونقل معى الدكتور شريف حتاتة ومسجون آخر يسمى يعقوب بطمنيان كان يعانى من متاعب فى صدره.استمر الاضراب ٢١ يوما وبرزت عظام صدرى ووجهى وانتشرت

فى صدرى بقع سوداء لم أفهم مصدرها ونقلت مع شريف حتاته ويعقوب بطمنيان إلى مستشفى قصر العينى. وأبلغنا هناك بانتهاء الاضراب دون أن يحقق أى من المطالب باستثناء بعض الوعود بتحسين المعاملة. وان كان لهذا الاضراب دوره بعد ذلك فى تحسين المعاملة للمسجونين السياسيين.

ولاشك أن علاقاتنا الأسرية لعبت دورا أيضا فى نقلنا إلى مستشفى قصر العينى.

بدأت معالجتى فى قصر العينى. وأجروا لى مختلف الفحوص وكان الطبيب الذى يشرف على علاجى زميلا لى فى مدرسة الابراهيمية الثانوية وكان يداعبنى ويسمينى «غاندى» بسبب شدة نحافتى.

وعندما خلعت ملابسى بعد الاضراب فوجئت ببروز عظامى. وعند الحلاقة كنت أحس بأن موسى الحلاقة يلامس عظام وجهى. فضلا عن البقع السوداء التى ملأت صدري وظهرى. ولم يقدم الطبيب لها تفسيرا ولكنها اختفت بعد أن عدت لتناول طعامى وبعض المقويات وكان وزنى قبل الاضراب حوالى ٥٠ كيلو جراما فأصبح ٤٤.

وبعد أن تحسنت حالتى نقلت إلى عنبر آخر. كان شريف حتاتة يشغل حجرة مستقلة فى نهايته. وقد حصل على هذا الامتياز باعتباره طبيبا أما أنا فكنت فى عنبر به حوالى ١٥ معتقلا من الاخوان المسلمين. كان الطعام أكثر من متوفر، ففضلا عن الغذاء الذى كان يقدمه المستشفى وهو أفضل كثيرا بالطبع من غذاء السجن، سمح لنا باستلام الغذاء من المنزل. وكان منزلى قريبا من قصر العينى. فأصبح فى امكاننا أن نأكل ماتريد ونقدم جزءا من الطعام المنزلى إلى الحرس.

وأصبح الاتصال بالأسرة وزملائنا سهلا فى المستشفى، وقد فزعت أسرتى عندما رأتنى أول مرة بعد الاضراب مباشرة. وكانوا يحملوننى على نقالة إلى عنبر الاستقبال.

تحسنت حالتى سريعا. وكنت معتادا أن أزور زميلى شريف حتاتة الذى كانت غرفته تقع فى نهاية العنبر ولها شرفة خاصة وكان شريف أيضا يستلم من منزله كل مالذ وطاب.

وفى المستشفى خلعنا ملابس السجن ولبسنا ملابسنا العادية وأصبحنا فى خلال اليوم نرتدى القميص والبنطلون. كان يحرس عنبرنا صول ويخصص لى مثل كل معتقل اثنين من الجنود. وكان يحرس شريف أحد الضباط واثنان من الجنود.

وحصل شريف من عائلته على جهاز راديو وضعه فى حجرته.

واعتدت أن أزور شريف فى حجرته وأصبح هذا الأمر عاديا. فالجميع يعرفون أننا زملاء وأننا شيوعيون. فمن الطبيعى أن أمضى أغلب وقتى معه وليس فى عنبر الاخوان المسلمين. وكانت تأتينا زيارات. واستطعنا الاتصال بزملائنا فى حدتو. وبحثنا معهم موضوع الهرب. وكان

كمال عبد الحليم يتولى تنظيم هذه العملية معنا دون أن يزورنا. أما شريف فقد رتب ذلك مع أسرته. ورتب لى كمال العنوان الذى أذهب اليه بعد هربى. وأعطانى عنوانا وآخر احتياطا، ورتبنا عملية الهرب مع أحد أطباء الأسنان الذى كان يتردد على شريف. وكان حرسنا قد أصبح يثق فينا ثقة كاملة.

وحل شهر رمضان. واعتاد الجميع أن يرونى وقت الافطار أذهب إلى حجرة شريف لتناول الافطار معه. وكنا نفتح الراديو وقت الافطار لنسمع الأذان.

كنا نعطى طعاما لحرسنا من الجنود الذين يهجمون عليه فى الشرفة الملحقة بحجرة شريف عند مدفع الإفطار وهم أربعة جنود اثنان يحرسانى واثنان يحرسان شريف اما الصول فكان يظل فى العنبر حيث باقى المعتقلين من الاخوان.

اما الضابط المسئول عن حراسة شريف فلم يكن صائما فكان يخجل من البقاء فى الحجرة، فينتقل إلى الحجرة المجاورة. ما أن ينطلق مدفع الافطار حتى يذهب اليه شريف بكوب من قمر الدين ويعود إلى حجرته ثانية مغلقا الباب خلفه، ثم نتناول افطارنا.

ورتبنا الامور بدقة فاتفقنا مع طبيب الأسنان الذى لاأذكر اسمه الآن أن ينتظرنا عند سلم منزل الأطباء. واتفقنا ألا نذهب إلى منزل الأطباء مباشرة، بل نصعد إلى الدور الأعلى ونسير فى صالة طويلة تؤدى إليه وذلك للتضليل.

وفى اليوم المتفق عليه لبسنا ملابسنا كالعادة، وكان أمرا قد اعتاده الجميع. وعندما انطلق مدفع الافطار فتح شريف باب حجرته وذهب إلى الضابط بكوب من قمر الدين وخرجت وراءه وأغلقت الباب ومشيت حتى السلم وصعدت إلى الدور العلوى ومشيت فى الممر الطويل حتى بيت الأطباء ونزلت من السلالم حتى السيارة وتبعنى شريف.

خرجت بنا السيارة مسرعة وأنزلتنى عند شارع قصر العينى حيث ناديت على تاكسى وذهبت إلى مصر الجديدة إلى العنوان المتفق عليه، وصعدت ووضعت يدى على الجرس عدة مرات فلم يرد أحد. فعرفت انه لايوجد أحد بالمنزل. وكان منزل أحد السودانيين يعمل بالصحافة ويسمى جيلى. فنزلت وأخذت تاكسى آخر إلى شبرا إلى العنوان الاحتياطى وطرقت الباب ففتحته زوجة صلاح حافظ. ولم يكن قد عاد بعد . ولكنها ادخلتنى. وانتظرت إلى حين حضوره. وكان صلاح حافظ وقتها فى السنة النهائية بكلية الطب. وهو لم ينه دراسته ولكنه عمل بالصحافة التى نبغ فيها بعد ذلك وكانت هى أول معرفة لى بصلاح حافظ وزوجته السابقة. وجرى الاتصال بكمال عبد الحليم الذى هنأنى بالهرب وتولى تنظيم عملية اختفائى.

بقيت عدة أيام عند صلاح حافظ ثم انتقلت للسكن عند جيلى.

ولمدة سبعة شهور بقيت أنتقل من منزل إلى منزل، وكانت أطول مدة قضيتها فى مكان

واحد هى شهر. ولم أكن أخرج إلى الشارع على الإطلاق.

وفى اليوم التالى قرأت فى الصحف أخبار هروبنا وعرفت منها أن حراسنا ظلوا ينتظروننا ويثقون فى عودتنا لمدة أكثر من ساعة إلى أن يئسوا فأبلغوا عن هربنا. وقرأنا عن أن البوليس أعطى تعليمات للموانئ والمطارات للقبض علينا.

ونشرت الصحف صورة شريف ولكنها لم تجد صورة لى ومن الطريف أن البوليس ذهب إلى منزلنا للبحث عنى. وسألوا إخوتى عنى فقالوا لهم أنى فى مستشفى قصر العينى فأخبروهم أننى هربت. فأصابهم فزع شديد وطلبوا منهم صورة لى فذهب أخى واحضر لهم صورة لى وأنا فى الرابعة من عمرى وقال أنه لا توجد لى صورة أخرى فرفضوا أخذها طبعا. وانتاب اهلى القلق إلى أن استطاعوا بعد ذلك معرفة أخبارى بعد أن دبر زملاؤنا الاتصال بهم.

كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى. وقد خرجت من السجن متطلعا للحياة بكل معنى الحياة. سواء حياة النضال أو حياة شاب فى مثل عمرى يريد أن يعيش ويحب ويتزوج ويعيش مثل بقية الشباب. وكان خروجى من السجن والهرب منه يعكس أيضا تعلقى أن أعيش حرا، أفعل ما أريد. ولكننى فوجئت بحياة أخرى قاسية جدا، فليس فى استطاعتى أن أمارس شوقى إلى مواصلة نضالى لاعتبارات الأمن التى تفرض على أن أظل مختفيا وأن أقلل اتصالاتى وتحركاتى، وأنفذ بدقة التعليمات التنظيمية بهذا الخصوص. ولا أستطيع أن أعيش حياتى كشاب فى مقتبل شبابه، فاتصالاتى محدودة ويجب ألا يعرف أحد بمكان وجودى لأن البوليس يبحث عنى ويطاردنى. لم أكن استطيع الخروج إلى الشارع إلا عندما أنتقل من مخبأ إلى آخر. تنقلت بين اثنى عشر منزلا. وحدثت نوادر وطرائف أثناء اختفائى. فقد كان يوسف ادريس واحدا ممن اختفيت عندهم وكان يقطن هو وشقيقه فى حجرة بالجيزة لم يكن بها غير سرير وكنبة ومكتب. أما السرير فكنت أنام عليه أنا ويوسف إدريس أما الكنبة فكان ينام عليها شقيقه. كان يوسف ادريس يدرس فى السنة النهائية بكلية الطب. وفى أحد الأيام شعرت بآلام شديدة فى أذنى ولم يكن في وسع يوسف إدريس أن يعرضنى على طبيب. فذهب إلى أستاذه فى الأذن والأنف والحنجرة بكلية الطب ووصف له الأعراض التى أعانى منها فوصف له الدواء الذى أحضره لى وعالجنى واختفت الآلام.

وكنت كلما ألقى يوسف ادريس بعد ذلك يذكرنى بتلك الواقعة.

وفى فترة تولى احمد طه عملية اخفائى. رتب سكنى عند أحد الأشخاص وزوجته فى الساحل وكانا يشفقان عليّ. رتبا أن أتنكر فى زى سيدة تلبس الملابس البلدية وخرجت معهما وذهبنا إلى احدى دور السينما. وبقيت فترة في هذا المنزل. كان الرجل وزوجتة متعاطفين معى ويحاولان تسهيل مدة اختفائى إلا أنه بعد فترة بدأت الغيرة تنتاب الرجل من بقائى فى المنزل مع زوجته عند خروجه، فأخبرت أحمد طه الذى رتب لى أن أنتقل إلى مكان آخر.

وقد تأثر الرجل وزوجته عندما نقلنى أحمد طه عند أحد معارفه فى مصر الجديدة. وكان يسكن بمفرده. وأخبرنى أنه كان مصابا بالسرطان. كان أعزبا، وكان يكثر التردد عليه بعض الاصدقاء وبعض المومسات وكان أحيانا يترك احدى المومسات تنام معى فى حجرتى. ولكننى لم استطع أبدا التجاوب معها.

وكان هذا الشخص الذى أقطن معه غريب الأطوار. وكانت له حياة وعلاقات غريبة. ولكنه كان يحترمنى ويحترم عاداتى وظروفى وقد استفدت فى هذه الفترة أننى بدأت أتعلم اعداد الطعام بنفسى وهو أمر لم أكن أعرفه من قبل.

انتقلت أيضا للسكن مع صلاح القلش وتعرفت به وبأخيه كمال القلش. وكان كمال صغير السن فى هذه الفترة ودارت بينى وبينه مناقشات سياسية كثيرة. وكان صلاح أعزب وعلى علاقة حب بإحدى الفنانات، وأذكر فى أحد الأيام وكان ينتظر زيارة منها. فقام بتنظيف المنزل وأعجبت به كثيرا، وهو يمسك «الخيشة» بنفسه ويقوم بتنظيف الشقة بكفاءة شديدة. وأذكر فى هذه الفترة أن صلاح طلب منى أن أكتب محاضرات مبسطة للتعريف بالاشتراكية. فقمت بكتابتها وفوجئت بعد ذلك أنها سلمت للمنظمة وطبعت فى شكل كورس للتجنيد فسررت أننى استطعت أن أقوم بعمل مفيد.

وانتقلت فترة للسكن مع احمد حمروش وكان ضابطا فى الجيش، وكان مهتما بالكتابة، وكان يعرض عليّ كثيرا مما يكتبه ليأخذ رأيى فيه.

وعشت عدة أيام فى بولاق فى حجرة فوق السطوح مع أحد النوبيين. وكانت حجرة فقيرة ليس بها غير سرير وكنبة. ولم يكن بها حمام. غير طشت نقوم بالاستحمام فيه. وكان يذهب إلى عمله فى الصباح. وكنت أبقى فى الحجرة بمفردى ففوجئت بإحدى الفتيات فى منزل مجاور تحاول التحدث معى بالإشارات. ثم فوجئت بها فى احدى الامسيات تأتى وتطرق الباب وتدخل وتجلس معى، وجاء فى هذا الوقت فؤاد حبشى ووجدنا معا. وبدأ يناوشها ولكنه قرر ضرورة نقلى من ذلك المكان.

وانتقلت إلى منزل فى مصر القديمة لأحد الأرمن. كان يقطن هناك مع أمه واخته وكان كمال عبد الحليم يزورنى أحيانا فى هذا المنزل. وبدأ يطلب منى الاستماع إلى أخبار الاذاعات الأجنبية، واذاعة موسكو بالذات. وأن اكتب الأخبار المهمة لنشرها فى جريدة «الملايين» التى بدأت فى الصدور. سررت انى أصبحت أؤدى عملا مفيدا وإن كان لم يشبع كل رغباتى فى الحركة والاتصالات والعمل النضالى الذى كنت معتادا عليه. وعرفت هناك معلومات عن نشاط حركة السلام ونشاط الصحافة اليسارية فكنت أحترق شوقا للمشاركة فى العمل ولكننى لا أستطيع بسبب اختفائى وظروفى الأمنية.

ظللت فى منزل هذا الأرمنى حوالى شهر وتكونت بينى وبين أسرته روابط ألفة وود.

وكان أغلب الوقت أمضيه مع أخت مضيفى الأرمنية. وكنت شابا محروما من أى علاقات نسائية بعد فترة السجن وبدأت تعتمل فى وجدانى بعض العواطف تجاه الفتاة. ولم أتصور أن تكون لى علاقات بالفتاة غير علاقات الزواج. وبعد تردد طويل وبدون أى مقدمات فاجأتها بعرض للزواج.

وقد فوجئت بهذا العرض ولم تكن تعرف عنى أى شيء إلا أننى هارب من السجن. فرفضت بالطبع وقالت لى مامعناه أن من يعيشون مثل حياتى لا يجب أن يتزوجوا. كان عرضا رومانسيا من فتى رومانسى معزول تماما عن الحياة والحسابات الواقعية.

ويبدو أن الفتاة أخبرت أخاها بهذا العرض. ففى اليوم التالى اخبرنى أخوها أنه أحس ببعض المراقبات من جانب البوليس. واخبر كمال بذلك الذى رتب نقلى.

وفى عشية انتقالى تناولت مع الاسرة طعام العشاء المعتاد والذى كان يتكون من الجبن والزيتون والشاى. وقد لاحظت تأثر الأم وابنتها وقد سالت الدموع من عيونهما. وقالتا لى أنهما اعتادا على وجودى وسيكون الفراق صعبا.

وقد كانت الأسرة تعد للسفر إلى أرمينيا السوفيتية مثل كثير من الأرمن الذين هاجروا. وكانوا يتوقون إلى هذا اليوم. ولكنهم لم يسافروا، بل علمت بعد ذلك أن الأخ قد اعتقل عام ١٩٥٣ بعد قيام الثورة فى احدى القضايا الشيوعية، وانه قدم اعترافا كاملا.

وقبل الانتقال إلى مخبئى الأخير رتب لى لقاء مع اخوتى فى منزل كان أخى قد استأجره فى الجيزة. وكان لقاء عاطفيا إذ لم أكن قد رأيتهم منذ مدة طويلة. ولاحظت أن أخى صلاح قد كبر أما أخى حسن فكان قد ترك تقريبا العمل الحزبى، وكان ارتباطى بأختى سعاد هو الأقوى، وقد استمر هذا الارتباط، فقد كانت هى الأكثر حرصا على الحفاظ على الروابط العائلية خصوصا بعد أن تفرقت بنا السبل. وقد كانت أيضا تتعاطف معى فكريا وكانت تتفهم أكثر الطريق الذى اخترته. والحقيقة أن السجن والاضراب وظروفى الصحية بعد الاضراب قربت كثيرا بينى وبين أخوتى وأسرتى، وأصبحوا ينظرون إلى الطريق الذى اخترته باحترام وتفهم بعد كل الخلافات السابقة. وأصبحوا ينظرون إلى اختيارى على أنه أمر واقع يجب أن يتقبلوه وأن يساعدونى فى التغلب على المصاعب التى ألاقيها، سواء وافقوا على أفكارى واتجاهاتى أم لم يوافقوا. ولم يتغير هذا الموقف طوال حياتى بعد ذلك، بل ازداد عمقا. وقد تجسد ذلك فى علاقتى بأخى أحمد، فرغم أن اتجاهات كل منا اختلفت فقد استمرت علاقاتنا جيدة تقوم على الحب والاحترام فى كل الظروف.

انتقلت إلى مخبئي الأخير فى الزمالك فى منزل أحد الضباط الأحرار وهو عثمان فوزى وزوجته ديدار، وكانت لهما طفلتان صغيرتان لم تتجاوزا الخامسة أو السادسة من عمرهما. وقد اعتنيا بى عناية كبيرة سواء من حيث الراحة أو الغذاء. وكان مستوى المعيشة أفضل كثيرا مما

عشته فى المخابئ الأخرى، ولكننى فى هذه الفترة من حياتى كانت متطلباتى قليلة جدا. ولم اكن أشعر بأى ضيق من أى وضع أعيش فيه. وكانت الحياة الجديدة تمثل ترفا بالنسبة لى. وكنت أشعر بالحرج من هذه العناية المبالغ فيها.

***

كان تكوينى وشخصيتى تغلب عليهما الرغبة فى القيام بالأعمال العملية أكثر من الدراسة والبحث. فكانت حياة الاجتماعات والاتصالات والتجنيد تستهوينى وتجتذبنى من الناحية المعنوية وترضينى أكثر من الجلوس مددا طويلة للقيام ببحث أو كتابة مقال أو ترجمة كتاب. وقد يكون لتربيتنا الأولى فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى أثر على ذلك. فقد كان دافعى الداخلى هو تقديم كل شيء والتضحية بكل شيء من أجل العمل النضالى. احتياجاتى الشخصية هى أقل شئ عندى، وهى فى المرتبة الثانوية. ولم تكن لى احتياجات شخصية كثيرة. كل ما كنت أحتاج إليه هو أن آكل لأعيش وأنام وأسكن وأقوم بمواصلاتى وألبس فى أقل الحدود. كانت أوضاعى الأسرية تسمح لى بحياة أفضل، لكن المتطلبات المعيشية الأخرى لم تكن تستهوينى. طبعا كانت لى كأى شاب احتياجات جنسية وعواطف تجاه الجنس الآخر ولكننى لم أكن أبذل أى جهد لتحقيق ذلك بطريقة طبيعية. وكان تكوينى الأسرى الشخصي وانشغالاتى النضالية تجعلنى لا أولى هذا الموضع الاهتمام الأول، رغم أنه كان يشغل بالى. وقد أعجبت بفتيات كنت أخجل من اقامة علاقات معهن. وكنت ألجأ فى النهاية إلى العروض المباشرة بالزواج دون مقدمات. وقد اعجبت فى دار الابحاث العلمية بفتاة من سنى كانت تدرس فى كلية الآداب وفكرت فى التقدم للزواج منها ولكن خجلى كان يمنعنى. وذات مرة ودون مقدمات عرضت الزواج على لطيفة الزيات ولم أعرضه بشكل مباشر ولكن عن طريق أحد أصدقائي فقالت بلطف أنها مرتبطة. ثم عرض على حمدى عبد الجواد فى مرة أخرى أن يزوجنى بفتاة فلاحة من ميت يعيش وذهبت معه إلى القرية وقابلنا الفتاة وأهلها. وكانوا فى غاية الفرح، ولكنها لم تعجبنى شكلا. ولم يهمنى فى ذلك الوقت كونها فلاحة أو أنها فى غير مستواى من الناحية الاجتماعية أو الثقافية.

وقد أثرت على كثيرا الحياة السرية وحياة الاختفاء فقوت فيّ الاتجاه الانطوائى. والابتعاد عن الظهور. ومن ناحية أخرى كان لتوجه حدتو العملى والنضالى تأثير عليّ، وأصبحت أهمل إلى حد كبير العمل الفكرى والثقافى الذى يحتاج إلى جهد مكتبى كبير ويبدو أن بعض الاتجاهات التى تعتبر المثقفين بورجوازيين، وتعطى الأفضلية للعمال أو البروليتاريا، وهو الأمر الذى كان شائعا فى توجهات بعض الحركات الشيوعية فى العالم وفى بعض ممارسات البلاد

«الاشتراكية» ، كان له تأثير أيضا على تكوينى.

ولولا ذلك لكان فى امكانى أن أستفيد من فترة الاختفاء فى الاطلاع والبحث والكتابة ولكان فى ذلك اشباع معنوى لى، ولكن ذلك لم يتم إلا بشكل ضئيل، فقد قمت بترجمة بعض أعمال ماوتسي تونغ وغيرها، وكنت أكتب الأخبار الهامة التى تبثها الاذاعات الأجنبية لجريدة «الملايين» وقرأت بعض الكتب. ولكنى مع ذلك كنت أحس أننى بعيد ومنعزل عن «الكفاح» الحقيقى. وكان ذلك يؤثر على معنوياتى، فكانت هذه الحياة تختلف عن الحياة المليئة بالعمل والسفر والاتصالات ومواجهة المخاطر التى كنت أعيشها قبل اعتقالى.

***

(٧)

السفر للخارج

قام زملائى فى حدتو بالإعداد لسفرى إلى الخارج. وقد أشرف كمال عبد الحليم أيضا على هذه العملية. ودبر لى لقاء مع كوريل قبل السفر الذى نصحنى بالاهتمام فى الخارج بدراسة اللغة الروسية وقال أنه لايوجد لدينا من يعرف هذه اللغة رغم أهميتها.

سافرت مع عثمان فوزى بسيارته إلى بورسعيد وعشت فى شقة أحد الزملاء ثم انتقلت إلى كابينة على البحر وجاء كمال للقائي وكان قد تم الاتفاق مع اثنين من البامبوطية بأن أصعد إلى إحدى البواخر الفرنسية اتفقا فيها مع اثنين من بحارتها الفرنسيين مقابل مبلغ من المال. وفى اليوم المحدد صعدت إلى الباخرة مع ثلاثة آخرين، اثنين من البامبوطية فضلا عن كمال وأعطى البامبوطى زجاجة من العطور إلى الضابط الذى كان يقف على سلم الصعود وسلمونى إلى أحد البحارة الفرنسيين الذى قام بإنزالى إلى قاع المركب. الثلاثة الآخرون غادروا المركب. كان قاع المركب مكانا مظلما مضاء بلمبة كهربائية ومليئا بقماش تندات. وكان القاع يقع تحت المكان الذى يسكن فيه البحارة وكان يتم النزول إليه بسلم صغير يغلق بعد نزولى بحيث يصبح السقف فى مستوى الأرض. لم يكن معى أى حقائب. وكنت ألبس عدة ملابس فوق بعضها. واتفق معى البحار الفرنسى بألا أخرج من هذا المكان لمدة خمسة أيام حتى تتحرك المركب من الاسكندرية. وكان خط سير المركب هو بورسعيد - بيروت - حيفا - الاسكندرية ثم ايطاليا - مرسيليا. وكان على أن أبقى طوال المدة حتى مغادرة الاسكندرية فى قاع المركب. وبعد ذلك يمكن مغادرتها للتجول يوميا نصف ساعة على سطح المركب. وكان يأتينى بطعام فاخر. وكان عندما ينزل إلى يقول لى Avec la passience on arrivera (مع الصبر نحقق الهدف).

مكثت فى قاع المركب تنتابنى الافكار المختلفة والقلق من أن ينكشف أمرى. وقامت

المركب ووصلنا إلى بيروت. ثم ذهبنا إلى حيفا ثم الاسكندرية. وأمضت المركب يوما كاملا في الاسكندرية كنت أثناءها في غاية القلق أن ينكشف أمرى. ومكثت في قاع المركب أعد الثوانى والدقائق إلى أن بدأت أسمع أصوات المحركات. ثم بدأت ارتاح عندما أخذت المركب تهتز ثم سارت أخيرا، وأحسست كأن عبئا ثقيلا قد انزاح من على صدرى. وأصبحت فترات نزهتى على سطح المركب تطول قليلا. وكان ذقنى قد طال وقررت أخيرا أن أذهب إلى الحلاق ليحلق ذقنى. وفى أحد الأيام كان البحر هائجا والموج يتصاعد فوجدتهم يذيعون على الركاب أن يأخذ كل راكب طوق النجاة الخاص به وفقا لتعليمات الأمان على المركب. وأخذ قبطان المركب يجرى هنا وهناك، وكلما رأى راكبا بدون طوق النجاة يصيح فيه أن يحصل على طوق النجاة. وكان لكل راكب طوق نجاة تحت تصرفه. أما أنا فلم أكن مسجلا على المركب فلم يكن لى طوق نجاة. وأخذت أبحث عن البحار المسئول عنى. وكان هو أيضا يبحث عنى إلى أن وجدنى أخيرا وأسرع بى إلى مخبئى

مكثنا فى البحر حوالى اثنى عشر يوما واقتربنا من مرسيليا. وقال لى البحار أنه عندما تتوقف المركب فى مرسيليا سأبقى فى مكانى عدة ساعات إلى أن يخرج جميع الركاب، وسأخرج معه وإذا سألنى أحد فأنا ابن عمه.. وكانت جوازات السفر تجمع من جميع الركاب وتختم ويخرجون بعد ذلك تباعا. ولم يكن معى جواز سفر أو أى أوراق. ولهذا قرر البحار أن أخرج معه بعد فترة من خروج كل الركاب.

وعندما حان وقت خروجنا دعانى البحار. كنت ألبس ملابسى كلها فوق بعضها من غير معطف. وكان معى قفاز من الجلد أعجب به البحار واستولى عليه.

نزلت سلم الباخرة مع البحار وهو يوزع تحياته يمينا ويسارا. ولم يستوقفني أحد. وركبنا سيارة تاكسى. وعند الجمرك استوقفونا. وظهر أن البحار لايهربنى وحدى وإنما يهرب سجائر أيضا. ولكنه حل المشكلة بأن أعطى موظف الجمرك علبة من السجائر وتركنا نمضى. وكانت هذه أول تجربة لى فى فرنسا. وأدهشنى أن تكون الرشوة بهذا السفور فى هذا البلد المتقدم.

أوصلنا التاكسى إلى منزل البحار ثم توجهت إلى محطة السكة الحديد. وهناك اشتريت تذكرة إلى باريس.

كان ذلك في الصباح الباكر. كان معى فى مقصورة القطار رجل فى حوالى الأربعين من عمره وامرأة ممتلئة مقاربة فى السن. وكان الرجل معى على ظهر المركب وتذكرت وجهه وتذكرنى هو أيضا. ولكننا لم نتحادث. وبدأ حديث طويل بين السيدة والرجل طوال الرحلة. كانت تتخلله أسئلة يطرحونها عليّ. كنت أجيب عنها إجابات مقتضبة فتسألنى السيدة:

- هل أنت ذاهب إلى باريس ؟

– نعم.

– للدراسة؟

– نعم.

– أليست معك أى حقائب؟

فيجيب الرجل عنى: لاضرورة للحقائب، ثم يقول لى: هناك فى باريس فتيات جميلات ملمحا إلى التجارب مع المصريين والعرب هناك الذين يهتمون بلقاء الفتيات قبل الدراسة وقبل كل شيء.

وتسأل السيدة الرجل إن كان متزوجا فيجيب لا. ما الداعى للزواج ليست عندى أى مشكلة فى العلاقات مع النساء.

ثم يحكى عن اقامته فى مصر مستنكرا كيف أن الناس اعتادوا أن يبصقوا ويتمخطوا على الأرض فى الشوارع.

ثم سألنى: هل عندكم فى مصر مترو؟ قلت: نعم وأنا أعنى مترو مصر الجديدة فضحك وقال: هذا ليس مترو. عندما تذهب إلى باريس ستعرف المترو.

استنكرت فى نفسى لهجته المتعالية، وأن يتحدث عن المصريين بهذه الروح.

ولكن الذى كان يهمنى هو ألا يكشفوا شيئا عن حقيقة مجيئى إلى فرنسا وعن ظروفى.

وصل القطار إلى باريس فى المساء. وكان زملائى قد أعطونى عنوانا بجوار المحطة التى وصل إليها القطار وهى محطة ليون.

ذهبت إلى العنوان المحدد وكان لعائلة مصرية الأصل طردت من مصر عام ١٩٤٨ مع غيرها من اليهود. وكان بعضهم حاصلا على الجنسية المصرية وكانوا يخيرون بين التنازل عن جنسيتهم أو البقاء فى المعتقل. وقد اختار بعضهم الذهاب إلى فرنسا واستمر ارتباطهم بمصر وحبهم لها. وهناك آخرون هاجروا إلى اسرائيل من مصر وغيرها من البلاد العربية. وفى احصائية لوزارة الداخلية السوفيتية فى الثمانينيات أثناء الهجوم فى الاعلام العربى على هجرة السوفييت إلى إسرائيل جاء فيها أن عدد من هاجروا من البلاد العربية إلى اسرائيل بعد ١٩٤٨ أكثر بكثير من عدد المهاجرين السوفييت وأغلبهم طردوا أو اجبروا على الهجرة.

أما المطرودون من المعتقلين اليهود الشيوعيين والذين ذهبوا إلى فرنسا، فأبقوا على علاقاتهم العملية والنضالية المصرية، بل إن أعضاء حدتو الذين انضموا إلى الحزب الشيوعى الفرنسى فى البداية استقالوا بعد ذلك بتوجيه من هنرى كورييل ليحافظوا على ارتباطهم العضوى بحدتو.

كنت أشعر بفرح شديد لوصولي إلى باريس. وأحسست أنني هناك يمكن، بعد فترة طويلة من السجن والهرب، أن أشعر بالحرية والانطلاق والقدرة على العمل، ولكنني كنت واهما كما تبين لي من تجربتي بعد ذلك.

لقيت شريف حتاتة الذى جاء إلى باريس قبلي بثلاثة شهور. أمضيت الليل عند الأسرة وفى اليوم الثاني التقيت بيوسف حزان وكنت أعرفه من القاهرة. وعندما رآني وكنا فى شهر يناير، قال لى كيف أمشي من غير معطف. قلت له أنني ألبس ملابس كثيرة. قال: ولكن سيرك هكذا فى هذا الوقت غريب وشاذ فلا أحد يسير بدون معطف فى الشتاء. وقد يشتبه فيك البوليس ويقبض عليك ويسأل عن أوراقك ولم تكن معي أى أوراق. وذهب معي على الفور لشراء معطف.

رتب لى الاقامة مع أسرة يهودية أخرى، رب الأسرة اسمه عزرا هراري. وكانت الأسرة تسكن فى حي مونبرناس وكانت تتكون من الأب والأم وطفل فى العاشرة من عمره. وكانوا قد التحقوا أيضا بعضوية الحزب الشيوعي الفرنسي.

كان شريف قد أقام اتصالا مع الحزب الشيوعي وبعد حضوري كنا نذهب معا للقاء المسئولين عن مكتب فى الحزب اسمه مكتب المستعمرات، مسئوله ليون فاكس وكان عضوا فى المكتب السياسي. وكان يساعده شخص اسمه ايلي منيون. وكانت حدتو فى ذلك الوقت أبرز التنظيمات الشيوعية فى مصر. وكان لها نشاط علني واسع. فى الصحافة وفى حركة السلام وفى نشاط الفدائيين فى القناة. وكان لشيوعيي حدتو دور بارز فى الحركة الوطنية المصرية. وكان هناك نشاط واسع بين العمال (الجهود لتأسيس اتحاد عام للعمال) وبين الطلبة وفى الفلاحين وكان لكل نشاط جماهيري صدى وتأثير سواء فى الداخل أو الخارج مرتبطا بشخصية من حدتو.

ولهذا فعندما ظهرت بعض النشرات التى كانت تصدرها منظمة العمال والفلاحين تهاجم حركة السلام، تصدت لها جريدة «أكسيون» لسان حال حركة السلام فى فرنسا وهاجمتها بشدة.

وفى منتصف ١٩٥٠ طرد هنرى كورييل من مصر إلى ايطاليا. التي لم تعترف به كايطالى الجنسية وظل وضعه هناك مقلقلا. فرتب فى أوائل عام ١٩٥١ للحضور إلى باريس بشكل غير شرعي. ونوقش هذا الموضوع مع مكتب المستعمرات بالحزب الشيوعي الفرنسي. وكان أندريه مارتي فى هذا الوقت سكرتيرا للحزب وكان هنرى كورييل وزوجته قد استضافاه عند مروره بمصر فى طريقه إلى الجزائر وتكونت بينهم علاقة. ولهذا فإنه عندما عرف بحضور كورييل اهتم بالأمر. ورتب أن يتكفل الحزب بأمانه فى فرنسا. وأعد له منزلا فى ضواحي باريس لم يرغب كورييل فى الذهاب اليه وفضل أن يبقى فى وسط باريس. واعتبر الحزب نفسه

مسئولا عن أمانه.

وكانت هذه العلاقة بين كورييل وأندريه مارتى سببا بعد ذلك فى حدوث أزمة بين الحزب والمجموعة ذات الأصول المصرية فى باريس، وكان لهذه الأزمة أثرها بعد ذلك على الحركة الشيوعية فى مصر التى كانت تعانى من الانقسامات والتى نجحت فى تحقيق نوع من الوحدة عام ١٩٥٥.

وكانت القضية كما يلى:

فى أواخر عام ١٩٥٢ حدثت خلافات فى قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى بين أندريه مارتى وباقى القيادة، وتطورت الخلافات بحيث اتهم مارتى بأنه يقوم بأعمال انقسامية معادية للحزب وكالعادة توالت الاتهامات ضده، والتى كانت تنشر فى جريدة الحزب «الاماونيتيه». ومن هذه الاتهامات أنه على علاقة بزوجين مصريين un couple egyptien douteux «مشكوك فيهما» وفوجيء زملاؤنا فى مصر وفوجيء كورييل بذلك لإقحامة واستخدامه فى هذا النزاع الذى لا دخل له فيه.

وقام بعض زملائنا بالاتصال بالحزب وسؤالهم عن معنى هذا الكلام، وعن هذه الشكوك فكان الرد أن هذه مسائل داخلية، ولا دخل لكم بها.

والحقيقة أن الشيوعيين المصريين لم تكن لهم أى علاقات بالأممية الشيوعية منذ العشرينيات عندما ظهرت بعض العناصر البوليسية فى قيادة الحزب. وهذا هو السبب فى أن الحركة الشيوعية المصرية عند نشأتها الجديدة فى الأربعينيات نشأت دون أى علاقة بمركز دولى. وكانت الاحزاب تقوم بالاتصال بالشيوعيين المصريين بحذر شديد وكان صعود الحركة الوطنية في مصر الخمسينيات والدور البارز الذى لعبته حدتو وقتها هو الذى سمح إلى حد ما بكسر هذه العزلة مع الحزب الشيوعى الفرنسى. ولكن بعد قيام ثورة يوليو والدور المتميز الذى اتخذته حدتو فى تأييد الثورة واختلافها فى ذلك مع باقى الأحزاب الشيوعية خارج مصر بما فى ذلك الحزب الشيوعى الفرنسى، خلق جوا جديدا من العزلة، بحيث لم تجد قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى أى حرج فى استخدام علاقة كورييل بأندريه مارتى فى صراعها الداخلى.

ولكن ذلك كان له أثره الكبير فى جو الانقسامات داخل مصر بحيث إنه عندما تحققت الوحدة سنة ١٩٥٥ بين حدتو وست منظمات صغيرة أخرى، اشترطت هذه المنظمات استبعاد هنرى كورييل إلى أن يغير الحزب الشيوعى الفرنسى موقفه منه. وهو أمر كان من المستحيل أن يتحقق. واستمر هذا الوضع إلى أن اقتنعت قيادة الحزب الشيوعى المصرى الموحد، وبعد أن

عدت إلى القاهرة من باريس وشرحت لهم تفاصيل الموضوع وخلفياته بالسماح بعودة كوريل إلى الحزب وإلى قيادته. وكان ذلك بأغلبية اللجنة المركزية فى ذلك الوقت.

***

بعد هذا الاستطراد أعود ثانية إلى عام ١٩٥١ عندما عاد كوريل إلى باريس وحينئذ وبتوجيه منه استقال الشيوعيون ذوو الأصول المصرية المقيمون فى فرنسا من الحزب الشيوعى الفرنسى وذلك بالتفاهم معه على اعتبار أنهم أعضاء فى حدتو وأن جهدهم هو من أجل مصر.

وتكونت لجنة قيادية للعمل فى الخارج بمسئولية كوريل وعضويتى أنا وشريف حتاتة. وبدأنا ننظم أعضاء حدتو فى الخارج، وندرس كل ما هو ممكن لمساعدة الداخل: الاتصال بالهيئات الديمقراطية العالمية، محاولة نقل الخبرة الخارجية إلى الداخل. استقبال الوفود القادمة من الداخل فى المؤتمرات العالمية وغيرها ومساعدتها، تنظيم إرسال العون المادى من اشتراكات وتبرعات زملائنا أعضاء حدتو فى الخارج. ترجمة بعض الكتب الماركسية وطباعتها وإرسالها للداخل.

وقد قمت فى هذه الفترة ببعض الترجمات وأحيانا كنت أكتب للملايين. أو أرسل لها الأخبار.

واستقبلنا فى باريس العديد من زملائنا عند مرورهم بباريس مثل ابراهيم عبد الحليم وحسن فؤاد وصلاح زكى وصلاح القلش وغيرهم. وكان ابراهيم عبد الحليم ذاهبا للاشتراك فى مهرجان برلين للشباب. والتقيت فى الخارج أيضا بعبد الرحمن الشرقاوى.

وكنا نهتم بمن يأتى إلى الخارج نجتمع معه ونسمع منه أخبار الداخل، وننقل له أخبار الخارج ونتناقش ونتبادل الرأى.

وبعد وصولى بقليل وخصوصا قبل قدوم كوريل، بدأت أحس بوطأة الهجرة. فبعد الفرحة فى الأيام الأولى، بدأت أحس بأننى فى سجن آخر. فكانت الحياة غريبة عنى وأنا بعيد عن النشاط فى مصر، وأحسست بالانعزال الشديد، وخصوصا أننى لم أكن أستطيع الاندماج فى الحياة الفرنسية لأنه لم تكن لدى أوراق، فكنت أعيش هناك أيضا بشكل غير شرعى.

وأحيانا كنت أشعر أن الحياة فى السجن مع زملائى كانت تحقق لى اشباعا أكثر من حياة الهجرة. وأحسست بالغربة الشديدة، أما شريف فكان أكثر تأقلما فتكوينه أوربى إلى حد ما. فوالدته انجليزية. وكان يتقن الانجليزية والفرنسية. وكان يسكن فى غرفة فى شارع فرساى،

واشترى آلة كاتبة، وكان يمضى أغلب وقته فى الكتابة. وهو يتسم بالتنظيم الشديد فى وقته وعمله. وقال أنه تعلم ذلك من والدته الانجليزية التى قال لى أنها كانت طوال وقتها فى المنزل ترتب وتنظم كل شيء.

انتقلت من عند عيزرا هرارى واستأجرت حجرة مع أسرة فرنسية بجوار متروباسى وهو أحد الأحياء الراقية فى باريس.

التحقت بالأليانس فرانسيز لتقوية لغتى الفرنسية. وحصلت من هناك على دبلوم فى اللغة الفرنسية. وتعرفت هناك على فتاة من الروس البيض. وقد تعلمت منها بعض الحروف والكلمات الروسية. وكانت هذه أولى محاولاتى لتعلم اللغة الروسية وكانت تكره الشيوعية وستالين كرها شديدا. ودارت بيننا مناقشات طويلة. وتكلمت فيها عن الاستعمار البريطانى فى مصر. فدافعت عن الاحتلال البريطانى فى مصر فاختلفت معها اختلافا شديدا. ولم نجد أى وسيلة للتفاهم.

وكان معنا فى الفصل الدراسى طلبة من مختلف الجنسيات ومن مختلف الأعمار. وكانت معنا سيدة انجليزية فى السبعين من عمرها جاءت لتدرس اللغة الفرنسية. وكانت مواظبة ومهتمة جدا بدراستها وتشغل أغلب الوقت بأسئلتها للمدرس. وكنا نتعجب أن تكون فى مثل هذه السن وتهتم هذا الاهتمام والاجتهاد بدراسة اللغة الفرنسية.

وكان المدرس يدير أحيانا مناقشات فى مواضيع مختلفة لتدريبنا على الحديث باللغة الفرنسية. وفى احدى المناقشات تحدثت عن السلام. فابتسم أحد الطلبة الأمريكيين وقال أن الحديث عن السلام هو دعاية شيوعية.

وأذكر أنه فى احدى الحصص طلب المدرس من كل منا أن يروى أسطورة باللغة الفرنسية وعندما جاء دورى لم أجد فى ذهنى شيئا أرويه الا قصة الاستعمار البريطانى لمصر. فعلت الابتسامات وجوه الحاضرين ووجه المدرس أيضا.

استطعت أن أحصل من الاليانس فرانسيز على ورقة تشهد بأننى أدرس فيه استطعت عن طريقها استخراج بطاقة لتناول الغذاء الرخيص فى مطاعم الطلبة الجامعية.

وأحيانا كنت أذهب إلى حى بيجال وأشترى سندويش من السجق وطبقا من البطاطس المحمرة وكان ثمنها ٣٠ فرنكا قديما.

كانت الشقة التى أسكن بها تقطنها معى صاحبة المنزل وابنها وابنتها. وهى شقة كبيرة من أربع حجرات. ولم أكن استخدم المطبخ فكنت أتناول وجباتى كلها فى الخارج.

وفى أحد شهور الصيف تركت العائلة باريس وتركتنى فى المنزل بمفردى. وحضر فى هذا الوقت أحد الشبان الاسرائيليين الذى كان يتردد على العائلة وأمضى الليل فى المنزل فى

حجرة الفتاة التى لم تكن موجودة. وصادف أن حضر الابن فجأة ووجد هذا الشاب الاسرائيلى فتشاجر معه لأنه أمضى الليل فى غرفة أخته وطرده من المنزل. وعتب على أن تركته يدخل المنزل. فقلت له إنه صديقكم وكان يتردد عليكم فتوقعت أن يكون قد اتفق معكم.

وعجبت أن يجد هذا الشاب الاسرائيلى فى نفسه الجرأة ليفعل ذلك. وقد حدثت هذه القصة فى وقت لم أكن التقى فيها أحد من الاسرائيليين، فمصر واسرائيل فى حالة حرب. ولم تكن تتم لقاءات مع الاسرائيليين.

وكانت ابنة صاحبة المنزل تسكن فى الحجرة المجاورة لحجرتى. وكانت تقوم أحيانا بترتيب حجرتى. وكنت فى الخامسة والعشرين من عمرى.

ولم تكن لى أى علاقات نسائية، وكان من الطبيعى أن اهتم بوجود هذه الفتاة الفرنسية الجميلة. وكنا نتحادث أحيانا ودعوتها يوما إلى أحد المقاهى. وحاولت فى حديثى أن أرفع الكلفة بينى وبينها. وأخذت أخاطبها بعبارة أنت TU بدلا من أنتم Vous. وسألتنى لماذا أقولى لها Tu وكنت خجولا كالعادة. فعدت أخاطبها بـ Vous وقد حدثت هذه الدعوة فى وقت لم يكن أمها أو أخوها فى المنزل. وكانت أحيانا تدخل عليّ فى حجرتى وأنا أكتب أو أقرأ وتتحدث معى وتعبث فى شعرى.

وفى فترة لاحظت اختفاءها، وسألت عنها امها التى أخذت تتحدث عنها باستياء وقالت لى أنها فى إحدى المصحات تعالج من مرض عصبى. ولم أرها بعد ذلك.

عرض على اصدقاؤنا أن أوفر أجرة إقامتى فى هذه الشقة وانتقل إلى أسرة موستاكى التى كانت تعيش فى «منيلمونتان». وهو حى شعبى فى باريس وكانت الاسرة تتكون من زوجين يتشاجران كثيرا لأسباب تافهة. وعرفت بعد ذلك أنهما انفصلا وأن موستاكى الزوج تزوج بعد ذلك بفتاة صغيرة تصغره بأعوام كثيرة.

ولم تكن مشاجرات الزوجين تمنعهما من أن يكونا معى شديدى اللطف وأن يقدما لى كل العناية والرعاية أثناء إقامتى معهما.

عندما أخطرت صاحبة الشقة فى «باسى» بأننى سأترك الاقامة معها بدا عليها الغضب، إذ كانت الأجرة التى ادفعها تدر عليها دخلا ثابتا، وتغيرت لهجتها معى وقالت على أن أدفع لها أجرة شهر اضافى لأننى لم أنذر قبلها بوقت كاف. قلت لها إننى سأسكن مع أقاربى.

إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية كانت الاعتبارات الأمنية هى السبب الأساسى الذى دفعنى لترك هذه الشقة. فقد كنا نخشى أن ينكشف أمرى، ولهذا فضلنا أن أسكن عند الزملاء فى باريس. كانت اسرتى تتصل بى من وقت لآخر عن طريق الاصدقاء الذين يسافرون أحيانا.

وكان أخى أحمد قد بدأ يشتغل بالأعمال التجارية وفتح مكتبا لذلك. وقد شارك شخصا

يدعى سعد العجيزى ثم اختلفا بعد ذلك وانفصلا. وفى فترة عملهما المشترك حضر سعد العجيزى إلى باريس واتصل بى ودعانى إلى «الفولى بيرجير» فى حى بيجال.

كنت أتردد أحيانا على حى بيجال وأشاهد المومسات يتسكعن فى شوارعها يدعون المارين «لممارسة الحب» كما يسمينه، وتبدأ المساومة على السعر. وأحيانا كنت أتلقى بعض الدعوات. وقد قمت بتجربة مثل هذا الحب. وكانت من تجاربى الأولى.

وذهبت إحدى المرات لمشاهدة عروض لممارسة الجنس. وكان فى العادة بين امرأتين. ولم أجد فى ذلك أى متعة أو إثارة ولكننى ذهبت من باب الفضول.

أما «الفولى بيرجير» فكنت أرى فى العادة صور النساء العاريات على واجهته ، ولكن لم تكن مواردى المالية تسمح لى بدخوله لارتفاع سعره. ولكن دعوة سعد العجيزى سمحت لى بمشاهدة رقصات النساء ذوات الصدور العارية، ومختلف العروض الأخرى المتميزة. وكان هناك عرض فكاهي تؤديه امرأة طويلة ورجل قصير صغير الحجم يرقصان معا، وتحمل المرأة الرجل، وتلعب به ألعابا مختلفة، وفى نهاية العرض تمسكه من يديه وتدور به فيرتفع فى الهواء كأنه طفل. كان عرضا غريبا ومضحكا فى نفس الوقت.

وحضر أحمد ذات مرة، ونزل فى أحد الفنادق الفاخرة، وكان يبحث عن سكرتيره تساعده فى عمله فى فترة وجوده. فتكلمت مع زوجة موستاكى التى وافقت على العمل معه وساعدته. أمضيت مع احمد بضعة أيام وعرفت منه أخبار الأسرة.

وكان أحمد قد بدأ يضع قدمه على الطريق فى العمل.

قبل سفرى إلى الخارج التقيت بكمال عبد الحليم. وكان هو المسئول الحزبى للاتصال بى طوال تلك الفترة. وقال لى إننى يجب أن أكون المسئول فى الخارج وليس شريف، وذلك بسبب بعض السلبيات التى يراها فى شريف حتاتة. وعندما وصلت إلى الخارج لم أثر هذا الموضوع لعدة أسباب منها أن شريف كان قد سبقنى فى الحضور إلى باريس بأربعة شهور وتعرف عليها وعلى الناس هناك. وكان قد أقام الصلة بالحزب الشيوعى الفرنسى. وكانت معرفته بالانجليزية والفرنسية أحسن منى.

وكان أقدر مني على إقامة علاقات واتصالات وكانت طبيعته الأوروبية تجعله أكثر مني قدرة على التأقلم مع الوضع الجديد. وأحسست أن قدراتى وامكانياتى للعمل فى فرنسا أقل منه. وكان قد رتب حياته ورتب أصدقاءه. ولم يكن من السهل اقامة علاقة صداقة معه. وكان يعمل كثيرا ويفرج عن نفسه كثيرا وجرب العديد من الصداقات. وهو يكبرنى بثلاث سنوات. ويحسن اقامة علاقات تجذب اليه الفتيات.

***

حكى لى أحد الأصدقاء مرة أنه مارس الحب مع احدى فتيات بيجال ثم اراد أن يستخدم «مشطها» لتمشيط شعره فرفضت وقالت أنها لا تعطى مشطها لأحد. فتعجب كيف ترفض اعطاء مشطها رغم أنها أعطته جسدها. وكانت المومسات اللاتي يمتلئ بهن شارع بيجال الرئيسى يقفن على الطريق لاصطياد الرجال واقتيادهم إلى أحد الفنادق التى يمتلئ بها حى بيجال والتى تؤجر بالليلة أو على الأصح بالساعة للقيام بتلك العملية. وكان هناك اتفاق على ذلك بين المومسات وأصحاب الفنادق.

ورغم أن هذه العماية كانت تتم بشكل علنى تماما، إلا أنها غير شرعية واعتاد البوليس الفرنسى أن يطارد المومسات ويقبض عليهن فيمضين ليلة فى قسم البوليس ويفرج عنهن ثانية لمواصلة ممارسة أعمالهن. وكن يحذرن بعضهن بعضا من مرور دوريات التفتيش.

ومع ذلك كانت هذه العملية شبه شرعية وتتم أمام أعين الجميع.

وفى إحدى جولاتى فى شارع بيجال نادتنى احدى المومسات وعرضت على ممارسة الحب معها. فرفضت. فأصرت. وعندما أصررت على الرفض لم تتركنى حتى ذهبت معها. ووجدتها رقيقة معى للغاية. وتحاول أن تتكلم معى وأن تتعامل معى بعاطفة غريبة وأنا كعادتى صامت وخجول ولكنها كانت تحاول التغلب على ذلك. وتحاول أن تبقى معى أطول فترة. وعجبت لهذا التصرف من مومس. وترك فى ذلك انطباعا لا انساه. وذلك أن غيرها من المومسات يقمن بهذه العملية بشكل ميكانيكى وفى عجلة لانهائها وكسب الوقت لاصطياد الزبون التالى.

وقد حكت لى احداهن كيف أنها تضطر إلى هذا العمل لتطعم أطفالها.

وللمومسات فى باريس نقابة تدافع عن حقوقهن. وكان للمومسات دور ثورى فى المناسبات الهامة فى التاريخ الفرنسى.

***

كنت أترجم بعض الكتب وبعض المقالات والموضوعات التى تظهر فى جريدة «الاماونيتيه» التى كنت أقرأها بانتظام ولا أقرأ غيرها. كتبت مرة مقالا للملايين نشر فيها عن مهرجان «الأماونيتيه». وقال لى حسن فؤاد بعدها أنه كان جيدا.

ظلت علاقتى بشريف باردة. وقد حضر ابراهيم عبد الحليم مرة إلى باريس ونقلت له الحديث الذى دار بينى وبين كمال قبل سفرى. ولكنه لم يتحمس له وكان أكثر قبولا لدور شريف. واستمر هذا الوضع إلى أن جاء كورييل إلى باريس واستطاع أن يجمعنا، وبدأت أشعر من جديد أن لى دورا وعادت لى إلى حد ما المشاعر التى كنت أحس بها فى أيام العمل

والنضال الحزبى فى مصر قبل الاعتقال.

ولكن لم يستمر ذلك طويلا. فكانت قد بدأت فى القناة حركة الفدائيين للنضال المسلح ضد الاستعمار البريطانى، وأصبحت أخبار هذا النضال هي موضوع المانشيتات الرئيسية فى الصحف العالمية بما فيها الصحف الفرنسية. وأصبحت هذه الأخبار تثير حماس وتعاطف الشعوب العربية والعرب عموما فى كل مكان. وكانت فرنسا تضم عددا كبيرا من الجزائريين والمغاربة والتونسيين وتجمعهم روابط مختلفة. وقررت إحدى هذه الروابط عقد اجتماع فى احدى الصالات الكبيرة للتضامن مع نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى. وأصدر البوليس الفرنسى أمرا بمنع هذا الاجتماع. وحاصر البوليس محطات المترو من «محطة اتوال» عند قوس النصر حتى محطة «باسى». ووقف البوليس عند مخارج كل محطة يستوقف كل من كان لونه يميل إلى السمرة ويبدو عليه أنه من ابناء المغرب فى شمال افريقيا ويسأله عن أوراق اثبات الشخصية. ونزلت من المترو مع أحد الاصدقاء فى محطة «تروكاديرو». وعند الخروج وجدنا البوليس يحاصر المحطة وسألنا عن تحقيق الشخصية. ابرز صديقى هويته فتركوه. أما أنا فلم يكن معى تحقيق شخصية فأركبونى البوكس.

وكان معى فى تلك اللحظة سندويتش أقضمه، وركبت به إلى البوكس فقالوا لى ساخرين «شهية طيبة». كان معى العديد من الجزائريين والتونسيين والمغربيين، وساقونا جميعا إلى مركز البوليس.

ووجدت فى فناء المبنى المئات من أبناء شمال أفريقيا، ويسميهم الفرنسيون «العرب» وهو تعبير يمتزج عند بعضهم بنوع من العنصرية والاحتقار.

وفى هذه الفترة كانت فرنسا تستعمر هذه البلاد وتستغلها وتحاول فرنستها وكان الكثير من الفرنسيين يعيشون فى هذه البلاد الجميلة وكذلك كان «العرب» من شمال افريقيا يتمتعون بالجنسية الفرنسية ويناضلون من أجل استقلالهم ويعاملون على أنهم من مستوى أدنى.

ويعيش «عرب» شمال افريقيا فى فرنسا فى مستوى أدنى من الفرنسيين، وتنظم ضدهم حملات دعاية وكراهية، وتضخم أى أخطاء أو جرائم ترتكب من بعض الأفراد من بينهم.

بقيت فى مركز البوليس أربعة أيام. يحاول رجال التحقيق من المباحث انتزاع أقوال منى، أما أنا فقد التزمت الصمت تماما. والسبب فى ذلك نصيحة قدمت لى ولشريف حتاتة قبل اعتقالى بعدم التحدث أمام البوليس أو النيابة، والمطالبة بالعرض فورا على قاضى التحقيق. وبخلاف الوضع فى مصر فالنيابة فى فرنسا هى سلطة اتهام، أما التحقيق فيقوم به قاضى التحقيق. والسبب فى هذه النصيحة التى قدمها لنا ممثلو هيئة لها علاقة بالحزب الشيوعى الفرنسى واسمها «المعونة الشعبية» " Secours Populeur " أنه يمكن للبوليس أو النيابة بعد

سماع أقوالى أن يطردونى من فرنسا أو يسلمونى إلى مصر دون العرض على قاضى التحقيق. أما قاضى التحقيق فهو ملزم بمتابعة الاجراءات القانونية وتقديمى إلى المحاكمة.

وبدأ رجال البوليس يسألونى عن اسمى وأوراقى ومتى جئت إلى فرنسا وأسباب مجيئى. فكان جوابى الوحيد هو «لن أتكلم إلا أمام قاضى التحقيق» واستفز أحد المحققين من البوليس فلكمنى فى بطنى وقال لى: «ماذا تظن.. انت هنا فى فرنسا» وكنت أظن أن هذه الأساليب لا تستخدم فى فرنسا. فازددت اصرارا على رفض الكلام. وأخذونى فى سيارة وجالوا بى فى عدة أحياء فى باريس لأدلهم على سكنى. ولكننى لم أقل شيئا. وكانت معى بعض الصحف المصرية (الأهرام وغيره) وجاءوا بشخص يعرف العربية. وحاول بغباء شديد أن يجد فى هذه الصحف أدلة ضدى. وكذلك وجدوا معى جريدة الأماونيتيه فحاول أيضا أن يعتبرها دليلا ضدى. ولكننى التزمت الصمت ورفضت الحديث إلا أمام قاضى التحقيق.

وبعد أربعة أيام حولت إلى قاضى التحقيق وأمام مكتبه وجدت المحامى امبلار الذى وكلته هيئة «المعونة الشعبية» للدفاع عنى وذلك بجهود زملائنا فى باريس. أبلغنى تحية الزملاء والأسرة، وقال: إن خطته أن أبقى فى السجن إلى أن تنجح مساعى الحزب الشيوعى الفرنسى فى ذهابى إلى أحد البلاد كلاجئ سياسى. ولهذا فهو يرى أن ليس من المصلحة الاسراع فى انهاء التحقيق والتقدم للمحاكمة لأنه يتوقع أن تصدر المحكمة ضدى حكما بالغرامة أو بالحبس عدة أيام وعند الافراج عنى سأقع فى يد البوليس الذى سيصدر ضدى أمرا بالطرد أو التسليم إلى الحكومة المصرية. وقال لى أن المساعى تتركز الآن على أذهب إلى فيينا للعمل فى اتحاد النقابات العالمى. وأن هذا سيحتاج إلى بعض الوقت.

ودخلنا إلى قاضى التحقيق فتكلمت أمامه ورويت له القصة كلها. وهو أننى هارب من مصر من حكم بالسجن بخمس سنوات فى قضية رأى «قضية شيوعية». ولأننى لم أستطع استخراج جواز سفر من مصر، فقد دخلت فرنسا خلسة وبدون أوراق. وطلبت منحى حق اللجوء السياسى فى فرنسا. وشكوت له حادثة اعتداء أحد رجال البوليس على بالضرب وهو يحقق معى .. وقابل القاضى ذلك باستخفاف، وقال لو كنت ابن سفير مثلا لما اعتدوا عليك. ولم يعر ذلك اهتماما. وأمر بحبسى إلى حين المحاكمة.

ونقلت إلى سجن يسمى (لاسانتى Le Santé) أى «الصحة». وكانت أول خبرة لى بسجون فرنسا وسكنت مع مجرمى القانون العام. وكانت الزنزانة تسع ثلاثة أفراد. وليس بها أى سرير وإنما مراتب على الأرض ودورة المياه داخل الزنزانة التى ننام فيها وليس بها أى ساتر. وهى تشمل مرحاضا وفوقه حنفية مياه. وكانت الزنزانة تغلق طول الوقت إلا نصف ساعة تفتح للنزهة فى زنازين فى ردهة السجن، ولا تختلف عن الزنزانة إلا أنها مكشوفة . ونخرج للحمام مرة كل اسبوعين مع نزلاء الزنازين الأخرى.

ولا يتميز السجن هنا عن السجن فى مصر إلا فى أن الطعام أفضل. فكانوا يقدمون لنا فى الصباح قهوة باللبن. وفى الظهر حساء بالخضروات وفى المساء لحم. وكان من حقنا أن نشترى ما نريده من كانتين السجن. وكان السجن يضم مكتبة نستطيع الاستعارة منها وكنا نخرج من الزنزانة أحيانا للحلاقة أو للزيارة. وكان المحامى أمبلار يحضر أحيانا لزيارتى ويطلعنى على المساعى التى تجرى للحصول على حق اللجوء السياسى فى أحد البلاد. وينقل لى تحيات زملائنا وأسرتى ويسألنى عن طلباتى ورغباتى.

وقد تنقل على فى زنزانتى أنواع مختلفة من المسجونين. ففى البداية كان معى سارق ومجرم كان متهما بتعذيب ابنه، بأن حبسه ومنع عنه الطعام. كان قوادا من حى بيجال سيئ الطباع. وقد رأيت أن أستفيد من وقتى فى السجن فطلبت كتبا لتعلم اللغة الروسية. فوصلنى جزءان من كتاب لتعليم الروسية. باللغة الفرنسية للمؤلفة بوتابوفا. وكنت استغل الوقت طوال فترة اضاءة النور للمذاكرة والدراسة وكان النور يفتح فى السابعة صباحا ويطفأ فى السابعة مساء. وكنت أقضى حاجتى قبل اضاءة النور وما أن يضاء النور حتى أعكف على الدراسة. وقد استفز ذلك صاحبنا السيئ الطباع. وسمعته يقول للسجين الآخر أننى مجنون. ولم أكن أريد أن أقيم معه أى علاقات. وقد افرج عنه بعد قليل ثم أفرج عن السارق وحل محله شخص من مرسيليا اتهم بالتجارة فى الحشيش ثم جاء شخص يبدو عليه الثراء اسمه مزراحى. وعندما عرف أننى شيوعى سألنى: مارأيك أننى أستطيع أن أوفر لك مالا وفيرا وفتاة جميلة إذا تركت الشيوعية. سمعت اقتراحاته ولم أرد عليه. وفى أحد الأيام خرج للتحقيق وعاد ليقول لى أن القاهرة تحترق. وأن هناك ثورة وكان هذا هو ما وصلنى يوم ٢٦ يناير عن أخبار حريق القاهرة الذى عرفته بعد خروجى بالتفصيل.

كان سجنى قد بدأ فى نهاية ديسمبر وامتد حتى مارس ولم تبدأ التدفئة إلا فى منتصف يناير وكان الجو شديد البرودة.

ومع مرور الوقت أصبحت أقدم نزيل فى الزنزانة. ووقعت من تاجر الحشيش من مرسيليا زجاجة حبر فى المرحاض فسدته. فجاء عمال السجن ولم يسألوا عمن فعل ذلك بل سألوا عن أقدم النزلاء وكنت أنا. فاستدعونى للتحقيق، قلت: إننى لم ألق زجاجة الحبر ولكنى لم أقل من الذى ألقاها. ولم يعترف السجين من مرسيليا بذلك. وكان المفروض أن أودع التأديب ولكنهم وجهوا لى إنذارا بعدم تكرار ذلك. وعرفت أن أقدم النزلاء فى الزنزانة هو المسئول عن الزنزانة وعن اخطاء باقى النزلاء.

وفى أحد الأيام جاءت خبيرة اجتماعية للتعرف على أحوال النزلاء ومشاكلهم. واستدعونى لمقابلتها. وسألتنى عن تهمتى فقلت لها أنى شيوعى وأنه حكم على بالسجن فى مصر بهذه التهمة، فقالت لى مكذبة ما معناه «العب غيرها. فمصر كلها شيوعية من القمة

إلى اخمص قدميها». وكانت الصحف الفرنسية كلها تبرز فى صفحاتها الأولى أخبار الكفاح المسلح فى القنال وإلغاء حكومة النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦ والصدام مع قوات الاحتلال البريطانى. وكانت الصحف الموالية للاستعمار لا تفرق بين النضال ضد الاستعمار والشيوعية.

وبعد شهرين استدعيت للمحاكمة ولم تكن المساعى لسفرى إلى بلد آخر قد نجحت بعد فطلب المحامى امبلار التأجيل. وفى مداولته معهم قبل الجلسة تعجبت المحكمة وقالت له انه سيفرج عنى. فقال لهم أنه يخشى أن أقع فى أيدى البوليس فيطردونى. فقالوا: هذا يذكرنا بأيام الاحتلال الالمانى حيث كان المحامون يطلبون طلبات مماثلة حتى لايقع المتهمون فى أيدى الجستابو، فقال لهم امبلار هذا مع الفارق.

كانت فترة السجن فى فرنسا شديدة القسوة، أشد قسوة من السجون فى مصر لعدة أسباب.

١ - أننى لم أكن أعرف إلى أى شيء سينتهى هذا الحبس.

٢ - أننى كنت بعيدا عن الوطن.

٣ -كنت مع مجرمى القانون العام، وهم ليسوا بطيبة مجرمى القانون العام فى مصر والذين كانوا يحترموننا ويشملوننا برعايتهم ويقدمون لنا المساعدات حينما نكون معهم.

ولكن الشيء الايجابى الذى فعلته فى السجن هو أننى استطعت أن أقطع المرحلة الأولى من تعلم اللغة الروسية بدون معلم. وكان هو الأساس الذى استندت عليه بعد ذلك فى مواصلة دراسة اللغة الروسية. وأنهيت الجزءين من كتاب بوتابوفا الذى كنت أتعلم منه النطق نظريا دون أن اسمع اللغة. وقد ساعدتنى هذه الدراسة في أن أدخل الجامعة مباشرة فى قسم اللغة الروسية بالمدرسة العليا للغات الأجنبية فى بودابست وأن أدرس مع زملاء آخرين درسوا اللغة الروسية ثلاث سنوات فى المرحلة الثانوية.

وبعد ثلاثة أشهر لم تنجح المحاولات فى ذهابى إلى فيينا، ولكننى عرفت من المحامى امبلار أن المجر قبلت ذهابى إليها لاجئا سياسيا وأننى سأعمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى.

وحددت جلسة المحاكمة. وكان الحرس يتهامسون حولى بأننى جاسوس. وجاءت المحكمة. لم يترافع امبلار واكتفى بالقول بأن موكلى حصل على حق اللجوء السياسى فى جمهورية المجر الشعبية. فابتسم القضاة وأصدروا حكمهم بالحبس ١٥ يوما لدخول البلاد بدون أوراق. وكنت قد أمضيت بالفعل ثلاثة أشهر. فأفرج عنى.

خرجت من السجن ، وبدأت إجراءات الإفراج عنى ونقلت إلى ادارة الشرطة وسار معى فى الطريق أحد المفرج عنهم الأتراك يجمع أعقاب السجائر من الطريق طوال سيرنا. وانهيت

اجراءات الافراج واصدروا امرا بطردى من الاراضى الفرنسية وأعطونى مهلة اسبوعا وأعطونى ميعادا آخر لتسلم جواز المرور لأخرج به.

وخرجت من ادارة الشرطة إلى الحرية. وكان زملائى قد حجزوا غرفة فى أحد الفنادق فى الحى اللاتينى. وأخذت فى ترتيب سفرى إلى بودابست. وذهبت إلى اتحاد الشباب الفرنسى الذين أعطونى تذكرة إلى بودابست. وسألنى أحد المسئولين الشباب هناك إن كان معى نقود مجرية فقلت: لا. فأعطانى بعض الفلسات القليلة.

وذهبت إلى إدارة الشرطة واستلمت جواز المرورLaisser passer، وكنت قد اتصلت تليفونيا بشريف حتاتة واتفقنا على اللقاء فى احدى صالات الشاى. وخرجت من إدارة الشرطة وذهبت إلى الموعد وكانت معه خطيبة أحد الاصدقاء الذين كنت أعرفهم من مصر وهو روبيرستون وزميل آخر وكان لقاء حارا، وجلسنا فى صالة الشاى نتحدث عن الذكريات وتجربتى فى السجن ومشاريعى المقبلة وتركتهم مودعا وقبلتهم وذهبت إلى الفندق، وبعدها بفترة اتصل بى يوسف حزان وقال لى أن شريف قبض عليه بعد ان انتهى لقاؤنا. وظهر أننى كنت مراقبا عند خروجى من ادارة الشرطة. وقد قبض البوليس على الثلاثة ولكنه أفرج عن خطيبة روبير وعن الزميل الآخر بعد أن قدموا أوراقهم. أما شريف فقد احتجزوه. عندما عرفت الخبر أصبت بإحباط شديد وانقلب الفرح بالافراج عنى إلى حزن واحساس بالبلادة الشديدة بحيث اننى ذهبت إلى الفندق ونمت فى حوالى الساعة الواحدة ظهرا ولم استيقظ الا فى صباح اليوم التالى.

وحدثنى حزان وقال لى أنه أصبح فى موقف حرج للغاية أمام المسئولين فى مكتب المستعمرات بالحزب الشيوعى الفرنسى وأنه التقى بليون فاكس وايلى مينيون، وتعاملوا معه كمتهم. وهاجموه بشدة لهذا الاهمال. وظل يلازمنى الشعور بالإحباط بعد ذلك لفترة حتى بعد وصولى إلى بودابست. وقررت ألا ألتقى بأحد بعد ذلك فى باريس.

وسافرت. وكان على أن أغير الطائرة فى براغ. وكانت الطائرة إلى بودابست تقوم فى اليوم التالى. فأمضيت ليلة فى فندق المطار وكانت الثلوج تغطى براغ. وفى المطار وجدت عددا من الرجال والنساء يداعبون طفلا. ورأيت شعارات عديدة فى المطار استوقفنى منها شعار: نريد التجارة مع كل البلاد. وشعارات عن التعايش السلمى. طالبتنى ادارة الفندق بأجرة الاقامة ولكن لم يكن معى غير ما أعطانى اياه مسئول الشباب. فأخذوها ولم يطالبونى بغيرها.

الحياة فى المجر:

وركبت الطائرة فى اليوم التالى متوجها إلى بودابست وكان يجلس إلى جانبى شاب

مجرى عرفت أنه يعمل موظفا فى أحد المكاتب الحكومية فى المجر. وأخذنا نتحدث وحكى لى عن المجر وعرفته بوجهتى فقال لى أنه يسكن قريبا من ذلك المكان. وأنه سيستقل تاكسى ويوصلنى إلى هناك.

فى المطار قرأ ضابط الجمرك أوراقى وعرف أننى لاجئ سياسى فرفع يده تعظيم سلام. أثرت فى هذه الحركة، فلأول مرة أجد تكريما من أحد الرجال الرسميين ومن رجل شرطة بالذات، أما زميلى فى الطائرة فقام بتفتيشه تفتيشا دقيقا. وبعد انتهائه ركبنا معا ونزلت فى عنوان اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى فى بنزور أوتسا أى شارع بنزور، وكان الوقت حوالى السادسة مساء. ولم أجد هناك من أعضاء السكرتارية إلا المندوب السوفيتى الذى رحب بى. وكان يوم سبت. واليوم التالى أجازة ولا يستأنف العمل إلا صباح الاثنين. وبعث معى أحد الموظفين إلى فندق على نهر الدانوب يسمى فندق «دونا» أى الدانوب باللغة المجرية وقال لى أننى لن احتاج إلى أى نقود حتى يوم الاثنين وما على إلا أن أوقع على فاتورة الوجبات فى مطعم الفندق.

ذهبت إلى الفندق وتعرفت على بعض الزملاء من سوريا وايران وانجلترا وتناولت وجبة العشاء وطلبت أنواعا كثيرة، قياسا على انواع المائدة الفرنسية، فوجدت أنها أكثر من طاقتى، وعرفت بعد ذلك أن المائدة المجرية تختلف وتتضمن بنودا، أقل. وفى اليوم التالى لم أجد مشكلة فى تناول وجباتى الأخرى رغم أنه لم يكن معى فلس واحد، وخرجت مع زملائى فى المساء إلى جولة بالاقدام فى مدينة بودابست.

وفى يوم الاثنين ذهبت إلى العمل والتقيت بالسكرتير العام جاك دينى وهو فرنسى الجنسية وعضو فى الحزب الشيوعى الفرنسى، وقد كانت العادة لعدة سنوات أن يكون السكرتير العام فرنسيا. وكان رئيس الاتحاد ايطاليا وهو أنريكو برلينجوير الذى اصبح بعد ذلك سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى الايطالى. ولم يكن الرئيس يقيم فى بوادبست. وكانت القيادة اليومية لعمل الاتحاد فى يد السكرتير العام الفرنسى. وكان السكرتير السوفيتى يتمتع باحترام كبير، وتسمع كلمته فى العادة فهو مندوب الشقيق الأكبر، الذى يقوم بالتمويل الأكبر، ولا ترفض فى العادة توجيهاته.

دخلت على جاك دينى فقابلنى بترحاب، وسألنى: أنت تمثل الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، قلت: نعم. فطلب منى أن أنتظر لحظة عند السكرتيرة لأنه سيلتقى بانريكو برلينجوير الذى جاء فى مرور سريع على بودابست، وجاء برلنجوير وقال بدعابة أن جاك دينى لديه غرفة ضخمة مثل الوزراء. واختلى بجاك دينى فى غرفته فترة ثم خرج.

ودخلت فقال لى جاك دينى أننى سأكون ممثلا لمصر والسودان وأننى سأعمل فى نفس الوقت فى مجلة اتحاد الشباب. واننى إذا أردت ارسال اى رسائل إلى زملائى فى باريس فيمكن

أن يتم ذلك عن طريقه.

كان معى فى الجريدة، وفى نفس الحجرة شاب مجرى وشاب سوفيتى وآخر من كندا. وكان سكرتير التحرير فرنسيا. أما السوفيتى فكان اسمه ساشا. وكان قليل الكلام وكان المندوب البولندى يدخل عليه من وقت لآخر وكانت بينهما صداقة. وكان شديد الاعجاب بستالين ويمدحه كثيرا. وأذكر مرة حديثا تليفونيا بينه وبين شخص وكان طوال الحديث يقول «نعم. نعم» لمدة طويلة وانتهت المكالمة ووضع السماعة. وكانت أول تجربة لى لرؤية الروس عن قرب. وكانت تصوراتنا عن روسيا والروس وعن الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت تصورات مثالية.

وكان نفس الشيء بالنسبة للمجر كأول بلد اشتراكى أزوره. وكنت أتصور أن أجد جميع المجريين يحبون الاشتراكية، وأنهم جميعا شيوعيون. وبدأت شيئا فشيئا أرى الحقائق، وأرى السلبيات إلى جانب الايجابيات. ولم تجعلنى السلبيات أفقد الثقة بالتجربة، ولكننى كنت أحاول أن أجد التبريرات لها.

وكان من الطبيعى أن تكون لى علاقات أوثق بالسورى باعتباره عربيا. وكان اسمه «مازن» وعرفت بعد ذلك أنه ليس اسمه الحقيقى، وإنما اسمه «واصل فيصل» وهو شقيق يوسف فيصل الذى اصبح الآن أمينا عاما للحزب الشيوعى السورى. وأذكر فى ذلك الوقت أن جاءنى مازن بعدة صور لخالد بكداش وقال أن أخاه أرسلها له من براغ لأعطيها لزملائى المصريين. وكان يوسف فيصل يعمل وقتها مندوبا للطلبة السوريين فى اتحاد الطلبة العالمى الذى كان مقره فى براغ. ولم أرسل الصور لأحد بالطبع، فلم يكن خالد بكداش يمثل بالنسبة لنا شيئا. وقد حكى لنا ابراهيم عبد الحليم مرة أنه كان فى زيارة لبراغ لحضور اجتماع اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة العالمى فالتقى بيوسف فيصل الذى قال له «ما أخبار الجاسوس الصهيونى هنرى كورييل» ؟ فاستفز ابراهيم عبد الحليم وكان سليط اللسان فقال: «وما أخبار الجاسوس الاستعمارى خالد بكداش» ففوجئ يوسف فيصل ولم يستطع مواصلة الحديث.

أتذكر تلك الأحداث الصغيرة، كلما سمعت اليوم عن الانقسام الذى حدث فى الحزب الشيوعى السورى والصراع الذى كان بين يوسف فيصل وخالد بكداش.

كانت تجربة عملى فى مجلة الشباب هى من أوائل التجارب لى فى العمل الصحفى، ولكنه كان عملا صحفيا من نوع خاص. فكان على أن أحرر وأقرأ المواد باللغة الفرنسية وكنت أكتب المواد أو المقالات بفرنسية ضعيفة فتذهب إلى الآلة الكتابة التى كانت تجلس عليها فرنسيات يصححن الأخطاء، ويعدن تحرير المادة بفرنسية سليمة.

وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى فى العمل. وقد ساعدنى ذلك على تقوية لغتى الفرنسية، ساعدنى على ذلك أيضا من قبل فترة إقامتى فى السجن فى باريس حيث لم تكن أمامى فرصة الحديث بأى لغة أخرى بخلاف اللغة الفرنسية.

وإلى جانب عملي في المجلة فقد كنت أقدم المواد من مصر والسودان وأخبار نضالات الشباب والطلبة والحركة الوطنية في مصر والسودان. وقد لعب زملائي في باريس دورا هاما في تزويدي بالمجلات والوثائق التي كانت تصلهم من مصر.وكان هنري كورييل مواظبا على مراسلتي. وكان لرسائله أثر كبير في ثقافتي السياسية وفي رفع معنوياتي وفي تحقيق الصلة بيني وبين زملائنا في مصر.

وكان المندوب الايراني يدعى «نمازى» ووجد مندوب من الهند وكان المندوب الهندى والسورى والايرانى يعملون في الحجرة المجاورة في «قسم المستعمرات» الذى كان المندوب الصيني مسئولا عنه. وكان عضوا في السكرتارية وجم الأدب.

استلمت جزءا من مرتبى تحت الحساب لأستطيع أن أسير أمورى حتى أول الشهر. وكان المرتب يكفيني وأكثر إذ كان الاتحاد يدفع تكلفة الاقامة في الفندق. وكنا نشترى كوبونات رخيصة نتناول بها طعامى الافطار والغداء في مطعم تابع للاتحاد. ولم أكن أعرف ماذا افعل بهذا المرتب الكبير. فلم أعتد شراء الملابس إلا الضرورى جدا. فكنت أشترى الكتب. ويتبقى معى بعد ذلك مبالغ كبيرة.

كان وصولى إلى المجر في مارس ١٩٥٢ ومنذ وصولى وأنا تحت تأثير اعتقال شريف وأوصانى زملائى بأن أبذل جهودى للسماح لشريف بالمجئ إلى المجر أو أى بلد اشتراكى آخر. وقمت ببعض الاتصالات ولكن دون جدوى. أما المسئولون في الحزب الشيوعى الفرنسى فرفضوا بذل أى جهد في هذا الاتجاه. وعرفت بعد ذلك ان شريف أفرج عنه بعد فترة وأعطى مهلة لترتيب خروجه من فرنسا وعاد سرا إلى القاهرة. ولكنه اعتقل بعد ذلك في قضية جديدة سنة ١٩٥٣ بعد الثورة وحكم عليه بالسجن عشر سنوات أمضاها بالكامل. واستمر معى الاحساس بالذنب ولم استطع التخلص منه، ولم يطغ عليه الا تطور الأحداث بعد ذلك

ثورة يوليو ٥٢ :

في صباح أحد الأيام من شهر يوليو اتصل بى «مازن» تليفونيا وقال لى «الملك طار» فلم أفهم، فحكى لى أخبار الانقلاب الذى قام به الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو. وكانت الاخبار لا تزال غير واضحة ولكنى فرحت فرحا شديدا. وشعرت أن ذلك يمكن أن يساعدنى في العودة إلى مصر.

واتصلت بى جريدة الشباب المجرية وطلبت منى مقالا عن الاحداث الأخيرة. فكتبت مقالا فيه تقييم ايجابى لهذا الانقلاب نشرت المجلة المقال بعد أن قدمت عرضا لحياتى ونضالى.

وجاءتنى بعد ذلك رسائل كورييل والأخبار من الداخل التى تؤكد موقفى.

وقبل ثورة يوليو كانت تصلنى منشورات الضباط الأحرار التى كان يرسلها لى زملاؤنا فى باريس. وكانت الاطاحة بالملك والاعتقالات التى جرت لرجال البوليس السياسى ولبعض العناصر الرجعية والجو السياسى والاجتماعى الذى كان يسود مصر قبل الانقلاب كافية لاقناعى بتأييد هذه الحركة. وكان هذا هو التقييم الذى قدمته ايضا لسكرتارية اتحاد الشباب. وبدأت تصلنى بيانات الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وجرائد الملايين والكاتب التى عادت للصدور وكلها تؤكد موقفى.

أما الموقف فى الأحزاب الشيوعية الأخرى والتى كان ممثلوها يعملون معى فى اتحاد الشباب فقد بدأ بالترقب والانتظار مع سرد الوقائع بشكل محايد ويوحى أحيانا بالتعاطف، بل ووصل الأمر بصحف الحزب الشيوعى الانجليزى لكتابة مقالات تعكس موقف حدتو المؤيد لحركة الجيش وذلك بعد زيارة قام بها أحد قادته إلى مصر. إلا أنه سرعان ما انقلبت النغمة وانتقلت إلى اتهام حركة الجيش بأنها انقلاب أمريكى يمينى. وتبعها فى ذلك الأحزاب الشيوعية فى العالم العربى وبالذات الحزب الشيوعى السورى. وسلكت نفس المسلك المجموعات الشيوعية الصغيرة الأخرى فى مصر باستثناء الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى. وفى السودان اتخذ الحزب الشيوعى السوداني نفس موقف حدتو من تأييد حركة الجيش، وقد لاقى فى ذلك هجوما وتهديدات من الأحزاب الأخرى وخصوصا من الحزب الشيوعى البريطانى.

وكان تأييدنا لثورة ٢٣ يوليو فور قيامها يرجع لاعتبارات موضوعية. فقد كان لنا اشتراكنا فى حركة الضباط الأحرار منذ نشأتها. وكان ضابطان من مجلس قيادة الثورة هما خالد محيى الدين ويوسف صديق. الأول متعاطفا مع حدتو والثانى عضوا بها ذلك غير اعضاء آخرين فى الضباط الأحرار. وكان ليوسف صديق دور بارز وحاسم ليلة ٢٣ يوليو نفسها. وكانت لمبادرته وشجاعته وتحركه المبكر ليلة الثورة نفسها أثرها الحاسم فى نجاح الحركة واعتقال قيادة أركان حرب الجيش وافشال تحركات السراى. وقد شاركنا فى تحركات الضباط الأحرار قبل الثورة. بل إن مطبوعاتهم كانت تطبع على رونيو خاص بحدتو وكنا على علم بوطنية الضباط الأساسيين الذين تحركوا وعلى رأسهم جمال عبد الناصر الذى التقى قبل الثورة ببعض قادة حدتو ومنهم سيد سليمان الرفاعى (بدر). وقد اخطر تنظيمنا بموعد قيام الثورة. ولهذا كانت حدتو من أوائل التنظيمات والأحزاب التى أصدرت منشورا بتأييدها.

وكان للجيش ـ ضباطه وجنوده ـ دور وطنى فى الحركة الوطنية المصرية. فقد رفض الجيش التصدى لمظاهرات الطلبة والعمال يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦. وكان برنامج تنظيم الضباط الأحرار يلتقى مع الأهداف التقدمية للحركة الوطنية المصرية. لهذا لم تلق حدتو بالا للاتهامات من بعض الأحزاب الشيوعية فى الخارج او لبعض المنظمات الصغيرة فى الداخل بأن أصابع الامبريالية الأمريكية وراء حركة الجيش.

وقد أدى هذا الموقف المستقل إلى متاعب بعد ذلك لمنظمة حدتو ولى شخصيا فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى.

فكان مختلف ممثلى الأحزاب وعلى رأسهم جاك دينى ممثل الحزب الشيوعى الفرنسى وأمين عام الاتحاد يختلفون معى فى تقييم هذه الحركة. ولم يكن موقفنا يلقى بعض التفهم والتعاطف إلا من ممثل الحزب الايطالى، وإلى حد ما من أحد المجريين غير الأساسيين الذى كان يعمل معى فى المجلة.

وكانت مجموعتنا فى باريس قد بدأت تصدر نشرة باللغة الفرنسية بعنوان «اخبار مصر Nouvelles d´Egypte» كانت تصلنى فى بودابست وكنت أوزعها على مختلف المندوبين. وكانت النشرة تشتمل على ترجمات لأهم المقالات والأخبار من مجلاتنا ومنشوراتنا العلنية والسرية التى تصدر فى مصر، وتحدد موقفنا من الأحداث التى تجرى هناك.

وكان «مازن» المندوب السورى فى الاتحاد هو أكثر المندوبين هجوما على موقفنا. وكان يعبر فى ذلك عن موقف حزبه.

وكانت سكرتارية الاتحاد قد قررت اصدار مجلة «شباب العالم» باللغة العربية. وقرروا اسناد مسئولية المجلة إلى باعتبارى ممثلا لمصر أكبر الدول العربية. ولما عرف مازن بذلك قامت قيامته، وتحرك حزبه وراءه معترضا على ذلك. وقال: أتريدون أن تتحول المجلة إلى منبر للدفاع عن «نجيب»، واستخدم كل سطوة حزبه والموقف الذى تكون فى الأحزاب الشيوعية والمعادى لحركة الجيش، ورفض موقف حدتو منها. استخدم ذلك لتغيير القرار.

وساعد على هذا الجو المعادى الذى نشأ، أحداث أخرى مرتبطة بمجموعتنا فى باريس. فقد حدث خلاف بين أندريه مارتيه وقيادة الحزب الشيوعى الفرنسى، التى سرعان ما اتهمته بالنشاط التكتلى والانقسامى وعزله. وهى قضية داخلية خاصة بالحزب الشيوعى الفرنسى. استخدمت فى حربها ضد مارتيه كل الأسلحة، بما فى ذلك علاقته بهنرى كورييل وزوجته وهو ما سبق الحديث عنه.

وأصبح الجو متوترا بينى وبين جاك دينى، وأذكر فى هذه الفترة أننى كالعادة (وبناء على توصيته السابقة) سلمت لسكرتيرته رسالة موجهة لزملائنا فى باريس. فاستدعانى وذهبت لاستقباله ودخلت عليه وأردت الجلوس فقال لا داعى وأعطانى الرسالة وقال لى ابعثها بنفسك. أحسست بإهانه شديدة وغضب وشعرت بعد ذلك بجو غير عادى فى الاتحاد لا يتسم بالود.

تألمت بشدة، ولم يغير ذلك اقتناعى أو موقفى. وعجبت أن تصدر تلك المواقف غير الموضوعية من رفاق كانت لدى تجاههم تصورات مثالية.

وعكست ذلك كله فى رسائلى لكورييل الذى أحس بالأوضاع النفسية التى أعيش فيها.

وكتب إلى يشجعنى.

أحسست بعزلة شديدة، ولم يخففها من الناحية الشخصية إلا نشوء علاقة بينى وبين فتاة مجرية فى السادسة عشرة من عمرها تدعى يوديت كانت تتكلم الفرنسية تعرفت بها عند بحيرة البلاتون، وكان الاتحاد قد نظم رحلة فى احدى الاجازات لمدة يومين على شاطئ بحيرة البلاتون وأثناء وجودى على الشاطئ مع بعض الزملاء والزميلات من الاتحاد وكنا كالعادة نتكلم الفرنسية ورأيت بالقرب منى فتاتين وسيدة يجلسن وبيد الفتاتين جريدة فرنسية ترفعانها ولا تقرآنها وهما تحاولان إفهامنا بأنهما تعرفان الفرنسية. وكانتا تنظران إلينا وتبتسمان. التقيت بهما فى القطار عند عودتى وتعرفنا وتكلمت بالفرنسية وقطعنا الطريق كله فى أحاديث مختلفة. وعند وصولنا إلى محطة بودابست قمت بتوصيل يوديت إلى منزلها ثم ذهبت إلى الفندق، وتبادلنا أرقام التليفونات وتكونت بيننا صداقة. كانت اللغة الأجنبية الأولى التى درستها فى مدرستها هى اللغة الفرنسية. كنت وقتها فى السادسة والعشرين من عمرى. وتكونت بيننا صداقة كانت تخفف من الجفاف والعزلة التى كنت أشعر بها فى ذلك الوقت فى الاتحاد.

كنت أزورها فى منزلها الذى كان يقع فى وسط المدينة وكانت تعيش مع أمها التى لم تكن تتكلم غير المجرية. والتى كانت ترحب بى، وكانت ترى فى صداقتى لابنتها فرصة لتقوى ابنتها معارفها باللغة الفرنسية. ولكن هذه العلاقة عندما توثقت وأحست بارتباط ابنتها بى أصبحت تقلق عليها وعلى مستقبل هذه العلاقة. وازداد ارتباط الفتاة بى وقالت لى أنها تريد أن ترتبط بى وانها مستعدة للذهاب معى إلى القاهرة عندما تسمح لى الظروف بذلك.

كانت هذه العلاقة مع «يوديت» أو «يوتكا» كما كان يطلق عليها باللغة المجرية هى العامل الوحيد الذى كان يخفف من ذلك الجو الكئيب الذى كنت أعيش فيه فى ذلك الوقت فى الاتحاد وكانت هى المنفذ الأول الذى بدأت من خلاله أعرف الشعب المجرى.

سألنى المجريون العاملون فى الشئون الادارية فى الاتحاد عما اريد أن أدرسه فى جامعة المجر، وإن كنت أرغب فى تكملة دراستى القانونية. فقلت لهم أن ماأريد دراسته هو اللغة الروسية والماركسية اللينينية. وكنت عند وصولى للمجر قد انتظمت فى فصل إقامه الاتحاد لدراسة اللغة الروسية استمر حوالى شهرين. وأخطرت بعد ذلك أنه قد رتب لى مكان فى المدرسة العليا للغات الأجنبية بقسم اللغة الروسية. وتركت الاتحاد بعد أن كنت قد أمضيت فى العمل به حوالى سبعة شهور.

كان أخى فى هذه الفترة على صلة فى عمله التجارى مع القسم التجارى بالسفارة المجرية فى القاهرة، وأقام معهم علاقات حسنة. وعن طريقهم أقام معى صلة وكان يرسل لى الرسائل عن طريق أحد العاملين فى القسم التجارى المجرى. وكان يرسل لى النقود الخاصة بى (فقد كنت مازلت أمتلك ١٣ فدانا بقيت لى ولم أكن قد استطعت بيعها بعد بسبب سجنى

وظروفى السرية) عن طريق أحد الزملاء فى القاهرة وكان هذا الزميل يسلمها لحدتو. وفوجئت مرة بأنه حول لى نقودا فى المجر. ولم أكن بحاجة إليها، فكان على أن أدبر إعادتها إلى القاهرة وهو لم يكن يعرف أننى أسلم مايرسله إلى زملائنا.

وفى أحد الأيام اتصلت بى السفارة الصينية فى المجر باهتمام شديد محاولين الاتصال بأخى واخباره بموافقتهم على عرضه بزيارة الصين، فلم تكن لمصر علاقات دبلوماسية بعد بالصين الشعبية. وكان أخى يريد اقامة علاقات تجارية معها وكان أول من بدأ اقامة علاقات تجارية فى مصر مع الصين الشعبية. أبلغته الرسالة وعرفت بعد ذلك أنه زار الصين وعاد وكتب عنها سلسلة مقالات فى مجلة روز اليوسف. وكانت تربطه علاقة صداقة بإحسان عبد القدوس وتزوج بعد ذلك من شقيقته آمال طليمات بنت زكى طليمات وجاء هو وزوجته لزيارتى فى بودابست، وأمضينا معا وقتا لطيفا. وكان قد جاء إلى بودابست لعمل يتعلق بعلاقاته التجارية مع المجر.

وأنشأ أخى علاقات وثيقة مع التمثيل التجارى للاتحاد السوفيتى وأصبحت له معه علاقات تجارية ناجحة. وكذلك مع رومانيا والصين.

دخول الجامعة:

رتب لى اتحاد الشباب المجرى منحة دراسية فى المدرسة العليا للغات الأجنبية قسم اللغة الروسية. وأدى ذلك إلى تغير كامل فى وضعى المادى. فانخفض دخلى الشهرى إلى حوالى النصف فبعد أن كنت أحصل على مرتب شهرى يساوى حوالى ١٦٠٠ فورنت بالاضافة إلى السكن المجانى فى فندق «دونا». أصبحت أحصل على منحة شهرية ٨٠٠ فورنت أصرف منها على السكن والطعام والملابس والمواصلات، وبدلا من حجرة مستقلة فى فندق «دونا» انتقلت إلى الحياة فى بيت الطلبة وكانت الدراسة قد بدأت منذ ثلاثة شهور وكانت بيوت الطلبة ونظرا لتأخرى فى الالتحاق بالدراسة قد شغلت كلها، فلم يجدوا لى مكانا إلا فى بيت الطالبات، وكان يسكن فيه أيضا عدد من الصينيين فى الدور العلوى. أما الدور الأول فكان يقتصر على الطالبات وقد اعطونى فى البداية حجرة منفردة ثم أتوا لى برفيق كان معيدا فى نفس المدرسة العليا اسمه ارتس ميكلوش. وأصبحنا نقيم معا فى حجرة مشتركة أما الدور كله فكانت تشغله الطالبات، وفى الحجرة المجاورة كانت تسكن طالبتان فى القسم الروسى. احداهما كانت فى نفس فصلى واسمها سوتش كاتالين أو «كاتى»، كما كنا نسميها والأخرى لا أذكر اسمها. ولكنهما كانتا فى المساء تغنيان معا بعض الأغانى الروسية الشعبية والوطنية.

كان زملائى فى الدراسة قد درسوا اللغة الروسية فى المرحلة الثانوية. وكان عليّ أن ألحق

بهم. وكان هذا امرا صعبا لأن المدرسين كانوا مجريين وكان الشرح باللغة المجرية التى لم أكن أعرف منها غير بعض كلمات. ولهذا استعنت بقاموس روسى فرنسى وساعدتنى طالبة روسية من أبناء المهاجرين الروس الذين هاجروا إلى بلجيكا التى عاشت فيها وقررت أخيرا العودة إلى الاتحاد السوفيتى. ولكن الحكومة السوفيتية كانت تضعها فترة تحت الاختبار فى احدى الدول الاشتراكية الحليفة. وكانت معها طالبة أخرى لها نفس الوضع من يوغوسلافيا، كانت الأولى تدعى «فيرا» وكانت إلى جانب الروسية تتقن الفرنسية اما الثانية فتدعى «ليدا». وإلى جانب ذلك كان معنا فى نفس الفصل طالبان يوغوسلافيان من المعادين لتيتو. أحدهما كان فى حوالي الأربعين من عمره. أما الثانى فكان فى حوالى الثلاثين.. وأنا كنت فى السادسة والعشرين. أما باقى الطلبة والطالبات المجريات فكانت سنهم تدور حول العشرين.

كنت أتميز عن باقى الطلبة الأجانب فى أننى كنت اضطر فى أغلب الوقت أن أستخدم اللغة الروسية فى الحديث. فاستطعت أن اسبقهم فى القدرة على التحدث بالروسية وكان على أن أبذل مجهودا ذاتيا كبيرا فى التحصيل وساعدتنى فيرا فى ذلك.

وكان وصول طالب مصرى عربى مثار اهتمام الطلبة والطالبات. فكونت علاقات وصداقات سريعة. ولقيت من الجميع ودا ومساعدة سواء فى القسم الروسى أو الأقسام الأخرى. وكان بالمدرسة العليا ثلاثة أقسام أخرى للغة الفرنسية والانجليزية والألمانية. وكانت تقع فى حى فى أطراف مدينة بوادبست. وبوادبست تنقسم إلى قسمين «بودا» و«بشت». وكنت أسكن فى «بشت» وكذلك كانت المدرسة العليا التى كنت احتاج إلى أن استخدم الترولى باس للذهاب اليها. وكان سكنى قريبا من منزل «يودكا» التى كنت أقضى معها أغلب الوقت.

وكنا إلى جانب اللغة الروسية وقواعد اللغة والأدب الروسى ندرس تاريخ الاتحاد السوفيتى والماركسية اللينينية فضلا عن دروس خاصة للأجانب فى اللغة المجرية. وكان باقى الطلبة الأجانب فى فرقتنا يعرفون اللغة المجرية افضل منى. فقد كانوا يستخدمونها فى الحياة اليومية. أما أنا فلم أحتج إليها إلا لشراء احتياجاتى اليومية فى السوق، ولكن أغلب وقتى كنت استخدم اللغة الروسية مع ميكلوش الذى كان يسكن معى والذى كان يعرف اللغة الروسية. وإذا لم يسعفنا الحديث كنت ألجأ إلى القاموس وكنت أستخدم مع يودكا اللغة الفرنسية. وبدرجة أقل كنت أستخدم اللغة الانجليزية مع طلبة القسم الانجليزى فى المدرسة العليا. أما اللغة العربية فأصبحت لا استخدمها الا نادرا. ونظمت مع زملائى فى باريس أن يبعثوا إلى الصحف المصرية التى كنت أنتظرها بفارغ صبر. واستمرت مراسلاتى معهم.

كانت فترة الضغوط النفسية على فى آخر فترات عملى فى الاتحاد إلى جانب برودة الشتاء الذى لم أكن مستعدا له، سببا فى مرضى. وكان الجو فى المجر فى الشتاء أكثر قسوة منه فى باريس. وكان من الضرورى أن أستعد له بأحذية دافئة ومعطف ثقيل. وكنت أظن أن

الطريق لمواجهة برد الشتاء، هو ملابس داخلية من الصوف التى لم تكن تساعدنى لأن الأماكن المغلقة كانت دافئة فأشعر بالحر الشديد ثم أخرج إلى الشارع والبرد الشديد بنفس الملابس تقريبا. ولم أكن قد تدربت بعد على التعامل مع هذا الجو. وبدأت أشعر بآلام شديدة فى صدرى. ذهبت إلى الطبيب وذهبت معى «يودكا» لتساعدنى فى الترجمة. كشف على الطبيب وقال أنه القلب. وقد سبق أن تحدثت عن عقدة «القلب» الذى مات به ابى وأمى. فأصابتنى حالة من الفزع والاكتئاب الشديد. واحسست أن ايامى قليلة. وكانت فكرة أن أموت بعيدا عن الوطن تزعجنى. ساعدتنى يودكا كثيرا فكانت تذهب معى للفحوص فى المستشفى وكانت تخفف عنى.

كانت الرياضة البدنية مادة أساسية اجبارية على الطلبة. فحصلت على إذن من الطبيب على عدم القيام بها بسبب مرض القلب. وبدأت الدراسة والانتظام فيها يتعبنى رغم اجتهادى وحماسى فى البداية. وازداد احساسى بعدم القدرة على العمل والدراسة. وزاد الطين بلة أننى فى أحد الأيام أحسست بألم وورم فى مفصل يدى اليمنى. ونصحتنى يودكا وأمها أن أذهب إلى طبيب مدفوع الأجر رشحتاه لى. فقال لى أنها حمى روماتزمية وأننى يجب أن أمكث فى السرير وكتب بنقلى إلى المستشفى.

كلفت المدرسة العليا أحد الطلبة بمرافقتى إلى المستشفى حيث أجريت مختلف الفحوص ووضعونى فى أحد العنابر مع الرجال العواجيز الذين تعدوا الستين. وعندما رآنى كبير الأطباء قرر نقلى على الفور إلى عنبر أكثر شبابا. وكان الطبيب المعالج يتكلم انجليزية ضعيفة. فلم أكن أعرف بالضبط حقيقة مرضى. كان الطبيب الخارجى قد كتب لى أقراصا حمراء ضد الحمى الروماتزمية وقد سببت لى طنينا مستمرا فى أذنى مما زادنى وهما. وبعد قليل أوقفوا فى المستشفى تلك الأقراص خصوصا بعد أن اختفى الورم من يدى. فاختفى الطنين من أذنى وبدأت أشعر ببعض التحسن، وكتبوا لى أقراصا أخرى. وبعد أيام قالوا لى أنه ليست عندى حمى روماتزمية وإن كان هناك بعض الآلام الروماتزمية، أما القلب فليس به مرض عضوى. ثم قالوا ان هناك زيادة فى افرازات الغدة الدرقية. وأنها السبب فى مختلف الأعراض التى أشعر بها وثارت قضية احتمال اجراء عملية لى. وسألت الطبيب المعالج: متى يجرون العملية؟ فضحك وقال: لماذا تستعجل العملية؟ وأعطونى أدوية تشتمل على اليود وأدوية أخرى للأعصاب. وأوصوا بأن أذهب فى الصيف إلى المصحة لعلاج الغدة الدرقية والأعصاب. كانت تجربتى فى المستشفى جديدة. فلأول مرة أعيش مع مرضى وممرضات لا يتكلمن غير المجرية فأضطر للتفاهم معهم بالمجرية. وكان على يمينى فى عنبر المستشفى الذى كنت أقيم فيه شاب مجرى حدثنى عن تجاربه عندما وقع فى الأسر فى الاتحاد السوفيتى. وكيف دخل السجن وعاش مع مسجونين روس يعادون ستالين. وتحدث أيضا عن معيشته فترة فى روسيا بعد الافراج عنه وتحدث عن النساء الروسيات وكيف أن لهن صدورا ذات أحجام كبيرة. وتجاربه معهن. وجرت ألفة بينى

وبين المرضى الآخرين.

وفى أيامى الأولى كنت أشعر بحرارة شديدة وبعرق غزيز. فشكوت للطبيب وكانت معه الممرضة. فابتسمت ونزعت عنى الملابس الصوفية الداخلية التى كنت ألبسها. وبعدها لم أعد أشعر بحرارة أو أعرق.

كانت يودكا تزورنى وتلبى طلباتى فى المستشفى وكذلك زارنى بعض زملائى وزميلاتى فى الدراسة وساعدنى هذا الجو على أن تتحسن حالتى وكتب لى الطبيب بعد حوالى أسبوع بالخروج من المستشفى على أن أستمر فى تناول الأدوية التى كتبوها وأن أذهب فى الصيف إلى المصحة.

عدت إلى الدراسة. وعاد لى نشاطى. وانتظمت من جديد فى الدراسة والتحصيل وبذلت جهدا لتحصيل مافاتنى، وأثنى الأساتذة على اجتهادى، وأصبحت أحصل على درجات جيدة فى مختلف المواد وكانت علاقتى ممتازة بزملائى وزميلاتى من الطلبة والطالبات. وأحسست بجو مختلف عن ذلك الجو الكئيب الذى شعرت به فى آخر فترة عملى فى الاتحاد. وقد تركت الاتحاد دون أن آسف على تركه، وعتب على بعض زملائى فى الاتحاد عندما كنت ألقاهم أننى لم أودعهم عندما تركت الاتحاد.

اندمجت تماما فى الجو الجديد، ويبدو أنها كانت محاولة لنسيان التجربة الكئيبة فى الاتحاد خصوصا فى فترة عملى الأخيرة.

ورغم أن ماكنت اتقاضاه فى الشهر من النقود وكان حوالى نصف ما كنت أتقاضاه من الاتحاد. ورغم أننى كنت أصرف منه على الاقامة ٥٠ فورنت وحوالى ٤٠٠ فورنت كوبونات للافطار والغداء والعشاء فى مقصف المدرسة العليا. وكان نوع الطعام الذى يقدم فى المطعم أسوأ بكثير مما كنا نتناوله فى مطعم الاتحاد. وبالباقى كنت أدبر احتياجاتى الأخرى. ولم أشعر بأى ضائقة مالية. بل وأحيانا كنت أدعو يودكا إلى مطعم أو مقهى أو نذهب لحمام السباحة. وكان فى بودابست حمام سباحة كبير اسمه «بلاتينوس» كان قسم منه تقام به أمواج صناعية. وعند ماتبدأ الأمواج الصناعية يتزاحم المستحمون للاستمتاع بالموج. والمجر لا توجد بها بحار ولايعرف المجريون الأمواج. ولا توجد غير بحيرة البلاتون التى تختلف طبعا عن البحر.

وكانت يودكا تحب الرياضة وتمارسها. أما أنا فلم أكن أمارس أى نوع من الرياضة. حتى السباحة فلم أكن أقوم بها فى ذلك الوقت. وان كنت قد تعلمتها فيما بعد. وعندما كنت اعمل فى الاتحاد كانوا ينظمون أحيانا زيارات للملاعب للعب الفولى بول وكرة السلة، فكان جسمى هزيلا ويداى ضعيفتين ولا أستطيع قذف الكرة. وكنت أتعب سريعا من اللعب.

وقبل نهاية العام الدراسى بدأت أحس بالتعب من جديد. وكان الطبيب فى المستشفى قد

أوصى بذهابي إلى المصحة في الربيع أو الصيف. فبدأت أقوم بإجراءات نقلي إلى المصحة وذهبت إلى مصحة على الجبال على حدود المجر وتشيكوسلوفاكيا. وكان ممكنا رؤية تشيكوسلوفاكيا من الجبال. وأخذت معي حقيبة كاملة مليئة بالكتب، بحيث أنني عندما وصلت لم استطع حمل الحقيبة فساعدني أحد الرجال. وذهبت إلى المصحة. ويسمى المكان «كيكش تاتو» وقد أحسست أنه مثل الجنة في جماله. كان مليئا بالأشجار والزهور والغابات لم أكن قد رأيت في حياتي مكانا يفوقه جمالا. أنزلوني في حجرة مع أحد المدرسين في القسم الفرنسي بالمدرسة العليا، وعند وصولي كنت أشعر بتعب شديد وبعد الفحوص قرر الطبيب أن أوقف كل الأدوية التي كنت أتعاطاها منذ خروجي من المستشفى.

ويبدو أنني تجاوزت الحد فانخفض افراز الغدة الدرقية. أو يبدو أن ذلك الدواء الذي كنت أتناوله أوقفوا التعامل به بعد أن تبينوا أن له أعراضا سلبية.

كنت شديد التعب في الأيام الأولى عصبيا وجسمانيا. وفي أحد الأيام أحسست وأنا أقرأ أنني أرى الحروف مزدوجة. وذهبت أبحث عن الممرضة ومرت أمامي في الردهة ولم أستطع النداء عليها. فعدت أدراجي واستلقيت على السرير، وكنت أحس أنني سأموت. وساعد على سوء حالتي أن الجو على الجبال كان باردا وقت وصولي. وأصبحت اتعب من السير. استمرت فحوص الأطباء، وقرروا أخيرا كما نقل لي زميلي في الحجرة بأنني أعاني من حالة تسمى Vegetative Neurosis أو نوع من العصاب. بدأت حالتي تتحسن بعد أن أوقفت الأدوية، وبدأت في استعمال دواء جديد مهدئ. وجاءت يودكا مرة لزيارتي وتجولنا في الغابات الجميلة.

وبدأت أعتاد على المكان ولم أكن أعرف متى سأغادره. وكنت أتصور أن حالتي شديدة وأنني لن اغادره إلا بعد مدة طويلة.

كونت صداقات مع النزلاء والممرضات ومع معارف زميلي في الحجرة.

وفي يوم من الأيام جاءتني زيارة من شخصيات عزيزة من مصر والسودان هم السيدة سيزا نبراوي والسيدة زوجة يوسف حلمي وأنور مقار ومحمد ابراهيم نقد الذي أصبح الآن السكرتير العام للحزب الشيوعي السوداني. كانوا في جولة بالمجر فاتصلوا بيودكا التي كان رقم تليفونها لدى زملائنا في فرنسا وأوصلتهم يودكا إليّ.

وعندما رأيتهم أحسست أن كل الأمراض التي أشعر بها ذهبت عني واختفت. قضوا معي اليوم واقترحوا عليّ أن أذهب معهم إلى مؤتمر في احدى المدن المجرية وأعود معهم إلى بودابست. ذهبت إلى الطبيب وطلبت منه الإذن. فوافق على الفور وسمح لي بمغادرة المصحة بشكل نهائي. وقال لي إنني لا أحتاج إلى علاج آخر في المصحة وأن حالتي جيدة وإن كان علي أن أستمر في تعاطي الدواء الذي كتبه لي لفترة من الوقت.

ويبدو أن سببا أساسيا لمرضى كان العزلة والغربة عن الوطن. وعند مجىء هذا الوفد لزيارتى، أحسست بأن قطعة من الوطن جاءت لزيارتى، وأحضروا لى معهم رسالة تشجيع وتقدير من اللجنة المركزية لحدتو كان لها تأثير السحر عليّ وساعدت على شفائى الكامل.

أحسست أن رفاقى فى مصر والسودان يهتمون بى رغم بعدى عنهم وأنهم يحتاجون إليّ. وقررت أننى يجب أن أتغلب بل وأقضى بإرادتى على كل الأمراض.

وعدت معهم. وأمضيت الليل فى منزل يودكا وذهبت فى الصباح إلى بيت الطلبة وثارت مشكلة اجرائية، ولكنى عدت اليه. كان محمد إبراهيم نقد يدرس الفلسفة فى بلغاريا وجاء لزيارة المجر فى أحد المؤتمرات ممثلا عن الحزب الشيوعى السودانى. وكانت أول مرة أتعرف فيها عليه. وبعد أن عاد إلى صوفيا استمرت مراسلاتنا.

أديت امتحاناتى بنجاح. وأديت امتحان الماركسية اللينينية باللغة الفرنسية وحصلت على امتياز– وكانت تقديراتى فى باقى المواد بين ممتاز وجيد.

فى الصيف يسافر الطلبة غير المقيمين فى بودابست إلى بلادهم وعادة فإن من يقيم فى بيوت الطلبة هم من سكان الأقاليم. وانتقلت إلى بيت طلبة جديد مؤقت فى الصيف.

ورغم أن أم يودكا وأسرتها كانت تحبنى وتتعاطف معى، إلا أنها كانت ترى أن علاقتى بيودكا لا مستقبل لها فكانوا يضغطون عليها لقطع هذه العلاقة ويعملون على أن تقيم علاقات مع أحد الشبان المجريين. ورأيتها مرة مع هذا الشاب فى حمام سباحة بلاتينوس وتركت لها خطابا شديدا بكت له كثيرا. ولكنى تفهمت بعد ذلك موقفها. واستمرت علاقات الود بيننا حتى سفرى. وإن لم تعد العلاقة السابقة قائمة.

عدت للدراسة فى الصف الثانى. وانتقلت للسكن فى بيت للطلبة فى الدور العلوى من المدرسة العليا التى ندرس بها. وسكنت فى غرفة كبيرة يسكن بها سبعة أشخاص، وكان ينام فى السرير المجاور لى شاب يدرس معى فى قسم اللغة الروسية يدعى «أنيدى» وكان يكتب الشعر. وكان يحب الفتاة التى تسكن فى الحجرة المجاورة لى فى بيت الطلبة الخاص بالطالبات والذى سكنت فيه أول الأمر. وكانت تدعى سوتش كاتالين أو (كاتى). وكانت فتاة ريفية رقيقة شديدة التهذيب. كانت فى حوالى العشرين من عمرها وكانت فى هذه الفترة تترك ضفائرها. ولم تكن كاتى تبادله الحب، وإن كانت تعامله بود وصداقة. وكانت تودنى وجاءت لزيارتى فى المستشفى عند مرضى.

اعتدت على الحياة فى بيت الطلبة الجديد وتصادقت مع العديد من الطلبة من مختلف الاقسام. ولم أكن ألتق بأى عرب ونادر ا ماكنت أتكلم العربية. وفى احدى المرات كنت أجلس فى مقهى بحديقة فندق «دونا»، ويبدو أننى تكلمت مع أحد باللغة العربية. وسمعنى

شخص يجلس بجانبى. وأتى للحديث معى وعرفنى بأنه يعمل سكرتيرا فى السفارة المصرية. دعانى أكثر من مرة لزيارته، وتحادثنا فى مختلف المواضيع بما فيها الأوضاع السياسية العالمية، والأوضاع فى المجر، وعرفته بنفسى واسمى، وقد حدث بعد ذلك عند محاكمتى أمام المحكمة العسكرية عام ١٩٥٩ أن قدم المصيلحى رئيس المباحث العامة فى شهادته أننى عشت فى المجر وبعض المعلومات التى نقلها بالتأكيد عن هذا الشخص.

أما بعد ذلك فقد كان معى عبد القيوم محمد سعد الذى خرج من السجن فى مصر وعاد إلى السودان وأرسله حزبه مندوبا للشباب السودانى فى اتحاد الشباب العالمى. وقد سعدت جدا بلقائه. فكانت قد تكونت بيننا صداقة فى عملنا الحزبى المشترك فى القاهرة والاسكندرية.

أما المرة الثالثة فكانت بعد حضور طاهر عبد الباسط الطالب السودانى فى كلية الاقتصاد. وبخلاف ذلك فقد التقيت بعبد الكريم جرمانوس المستعرب المجرى الشهير ومع بعض تلامذته من المستعربين. وقمت ببعض التراجم إلى اللغة العربية كنت أراجع صفها بنفسى على الحروف العربية فى إحدى المطابع المجرية. وبعد ذلك دفعوا لى بعض الفورنتات مقابل الترجمة. ولم أكن أنتظر شيئا فكنت مستعدا أن أقوم بذلك بلا مقابل. تعرفت فى السنة الثانية على فتاة مجرية فى قسم اللغة الألمانية اسمها «بالما» وترجمتها بالعربية «نخلة» ولم تكن تعرف غير المجرية وكانت تدرس الألمانية. ولم أكن أعرف شيئا من الألمانية فاضطررت للحديث معها بالمجرية فساعدنى ذلك على أن أحرز بعض التقدم فى اللغة. وكانت فتاة تمتلئ حيوية ونشاطا وكثيرة الكلام. وكنا نخرج معا للنزهة فى الغابات المجرية الجميلة. ورغم معرفتى الضئيلة باللغة المجرية فقد تكلمنا فى مواضيع مختلفة بما فيها المواضيع السياسية. فعرفت منها أنها تكره النظام الاشتراكى فى المجر وتهاجم السوفييت وتقول أنهم استولوا على أرض من المجر بعد الحرب العالمية الثانية. وكنت أناقشها وأدافع عن الاشتراكية وعن النظام الاشتراكى فى المجر. وكانت تحب التردد على الكنيسة أيام الآحاد وتحاول دعوتى إلى هناك وتغرينى بالموسيقى الجميلة التى تعزف فى الكنيسة. ولم تستمر لقاءاتنا كثيرا، فقد كان هناك عائق اللغة فضلا عن أننا لم نتفاهم سياسيا. ثم إننى تعرفت على فتاة يهودية كانت تزاملنى فى دراستى وكانت تعرف الانجليزية وكانت تتودد إلى منذ مدة فكانت تأتينى من وقت لآخر ببعض الفطائر التى تصنعها فى المنزل. ودعتنى لمنزلها الذى كان يقع فى وسط المدينة بجانب مبنى الأوبرا. وكانت أمها مريضة ومتزوجة بغير أبيها الذى تقول أنه توفى فى الحرب. وكان زوج أمها لطيفا معها ويحسن معاملتها.

كنت أتردد على منزلها ونذاكر دروسنا معا ونخرج أحيانا للنزهة. ومرة قالت لى أنها تريد أن تحصل منى على طفل. ولم يكن بيننا أى اتصال جنسى. ولم يدفعنى ذلك إلى أن أقوم بهذا الاتصال. فكنت أشعر أن ذلك يجب أن يقوم على تفاهم كامل ونية للارتباط. ولم أكن

قد قررت ذلك. فضلا عن أننا كنا نختلف فى وجهات النظر السياسية. فكانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار وتدافع عن امريكا والغرب. وكنا نتناقش فى ذلك كثيرا. ثم كانت وفاة أمها مما دفعني إلى أن أحرص على علاقتى بها لمساندتها في محنتها .. وكان زوج أمها يريد ذلك أيضا. إلى أن كانت واقعة جعلتنى أقطع علاقتى بها. فعند مجئ عبد القيوم أردت تعريفه بها باعتباره من أعز أصدقائى. ولكنها لم ترغب فى ذلك عندما عرفت بأنه أسود. وكان لقاؤها به فاترا. ولم استطع أن أتسامح أن يكون لديها مشاعر عنصرية. فقطعت علاقتى بها على الفور. وابلغتها بذلك وبالسبب.

حاولت بعد ذلك أن تتودد لى ولكننى كنت حاسما. وساعدنى على قطع العلاقة اقتراب موعد الامتحانات. وكنت قد اعتدت الذهاب إلى احدى المكتبات فى بودابست للمذاكرة هناك وللاطلاع. وكانت كاتى تتردد على المكتبة فنلتقى هناك ونخرج معا فأوصلها إلى بيت الطالبات الذى تسكن فيه وأذهب أنا إلى بيت الطلبة.

كان من النادر أن تجد اللون الأسود فى المجر وكان لون عبد القيوم فاحما شديد السواد. وقد دعوته يوما إلى السباحة فى حمام «بلاتينوس». عندما وصلنا كانت الأنظار كلها تتجه إلينا. وعندما نزلنا إلى حمام السباحة التف الجميع حولنا كما لو كان عبد القيوم حيوانا غريبا وبدأوا أيضا يضايقونه ويعاكسونه ويلقون عليه الماء فاضطر إلى الخروج. واضطررنا لمغادرة المكان. وكان منظرا مشينا ومهينا. وقد عرفت بعد ذلك أن الاتجاهات العنصرية ظهرت وقد ازدادت انتشارا هناك خصوصا بعد انهيار النظام الاشتراكى وكثرت حوادث الاعتداء على السود.

أثر على هذا الحدث كثيرا وأثر كذلك بالطبع على عبد القيوم.

توثقت علاقتى بكاتى وكان ترددنا المشترك على المكتبة يجعل للدراسة والمذاكرة هناك مذاقا لطيفا. كانت كاتى شديدة الوداعة والتهذيب. ولهذا كان يحبها زملاؤها فى الدراسة وكذلك المدرسون وكانت تلتقى معى فى أفكارى السياسية وتتجاوب معى. وكانت شديدة الحساسية. وتوثقت علاقاتنا بشكل طبيعى دون أى جهد منها أو منى. ولم نعد نفترق تقريبا. وفى الصيف دعتنى لزيارة قريتها وسافرت معها وعرفتنى بوالديها. كنت أكبرها بثمانى سنوات، فهى من مواليد ١٩٣٤ . وكانت عندما تعرفت بها فى العشرين من عمرها.

فى السنة الثانية أديت امتحاناتى بشكل جيد. والامتحان الأساسي هناك هو الامتحان الشفهى. والتقدير من خمسة فالامتياز يساوى خمس درجات. و ٤ درجات جيد. اما ٣ فهى مقبول. وقد أديت مختلف المواد بدرجة جيد أو امتياز. وأديت امتحان الماركسية اللينينية باللغة الروسية وحصلت على امتياز وحصلت على امتياز ايضا فى الادب الروسى وكذلك فى قواعد اللغة الروسية.وكنت أحب مادة الأدب. وقرأت وقتها بعض أعمال كبار الأدباء الروس مثل الحرب والسلام لتولستوى وما العمل لتشرنيشفسكى وقد أثرت على كثيرا صورة راخماتوف فى

هذه القصة. وفيه كان تشرنيشفسكى يصور الثورى المحترف الذى تزوج الثورة ولهذا لم يجد وقتا أو مجالا ليتزوج غيرها. وكان ينظم وقته وحياته بالشكل الذى يخدم العمل الثورى. وكان ذلك يوجه لقاءاته وأسلوب حياته بل وطعامه أيضا. فكان لا يأكل إلا الأشياء المفيدة حتى يكون فى صحة جيدة ويكون أقدر على خدمة العمل الثورى.

لم يكن صعبا عليّ أن أحصل على امتياز فى الماركسية اللينينية التى درستها مبكرا. أما باقى الطلبة فكانت هذه المادة ثقيلة بالنسبة لهم، وكانوا لا يدرسونها إلا ليجتازوا الامتحان. وفى الماركسية اللينينية كانوا يدرسون تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى وتاريخ الحزب الشيوعى المجرى. وقرأت كتابا لماتياس راكوشى رئيس المجر فى ذلك الوقت وسكرتير عام الحزب الذى كان يسمى حزب العمال المجرى. وكانت المجر تنقل الخبرة السوفيتية نقلا حرفيا، وتقوم أجهزة الاعلام ليل نهار بالدعاية للاتحاد السوفيتى مما كان يستفز المشاعر الوطنية للمجريين.

وأذكر فى أحد الأيام أن كنت راكبا الترووللى باس وكان يجلس فى العربة رجل يتحدث تحت تأثير الخمر. وأخذ يقرأ أسماء الشوارع «شارع مايكوفسكى» «شارع لينين» الخ، ثم يوجه الحديث لباقى الركاب مازحا «يبدو أن أسماء الشوارع أصبحت مجرية أكثر من اللازم» فينفجر الركاب ضاحكين.

وكانت المعارضة مكبوتة، ولهذا كانت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة - مثل الالتفاف حول الكنيسة. وكان من المناظر المألوفة أن يرفع المجريون قبعاتهم عندما يمرون بجوار الكنيسة وكان ذلك تعبيرا عن المقاومة.

كانت المجر فى الحرب العالمية الثانية متعاونة مع ألمانيا وكانت لفترة جزءا من الامبراطورية النمسوية. ولهذا نجد كبار السن فى العادة يعرفون اللغة الالمانية. أما الشباب فيدرسون اللغة الروسية فى المدارس كلغة أجنبية أولى. ولم تنشأ علاقة المجر مع الاتحاد السوفيتى إلا بعد دخول القوات السوفيتية للمجر وأثر ذلك على سير التطورات السياسية فى المجر خصوصا فى الفترة الستالينية.

ولم يكن لدى أدنى شك أنه جرت هناك أي عمليات من القهر أو الضغط. وكنت مؤمنا أن كل شيء تم بطريقة ديمقراطية وباختيار حر من الجماهير.

فى مارس ٥٣ نزل علينا نبأ موت ستالين كالصاعقة. وقد تأثرت لذلك كثيرا. وسرت فى الجنازة التى سارت فى المجر تأبينا له. وكنا نحب ستالين ولا نفصل بينه وبين حبنا للاشتراكية وحبنا للاتحاد السوفيتى. وكانت هذه هى مشاعر كل الشيوعيين المصريين وليس الشيوعيين وحدهم بل كل القوى الديمقراطية والتقدمية وأذكر أن خالد محمد خالد كتب فى ذلك رثاء ختمه بقوله:

طبت حيا وميتا يا رفيق.

أما كمال عبد الحليم فكتب قصيدة رثاء كان يختمها بأبيات معناها:

إذا كان لينين قد أعطانا بعض أجزاء الحياة فإن ستالين قد أعطانا كل أجزاء الحياة.

كان لموت ستالين والتغيرات التى بدأت تحدث فى الاتحاد السوفيتى، وتخفيف القبضة الحديدية التى كان يمثلها حكم ستالين، أن انتقل نفس الوضع إلى المجر. وبدأت تظهر انتقادات للحكم فى المجر وإن كان على استحياء، وبدأت لأول مرة أسمع من الناس انتقادات بل وهجوما. وأذكر أنى كنت أستقل الترام فيسألنى أحد الركاب من العمال عن جنسيتى، فقلت له: إني مصرى. قال: أنا أحسدك لأن لديكم حرية أما عندنا فلا حرية. هناك حرية فى الغرب ولا توجد عندنا وبدأ يهاجم الأوضاع فى بلاده. فوجئت أن أسمع ذلك من أحد العمال، فى بلد يحكمه العمال.

لم يخفف ذلك من اقتناعى بالنظام الاشتراكى ولكننى بدأت أتبين صورة أكثر واقعية للمشاكل التى يعيشها النظام الاشتراكى فى هذه الفترة. وأن بناء الاشتراكية ليس بالأمر السهل. وأنه من الخطأ نقل ما يطبق فى الاتحاد السوفيتى دون دراسة الظروف المحلية واستعداد الناس. ودخلت فى مناقشات كثيرة مع زملائى الطلبة وخصوصا أولئك الذين يسكنون معى فى الحجرة فى بيت الطلبة.

وأذكر مرة عندما احتدت المناقشة مع أحد الطلبة أن قال لى: «لماذا أنت هنا، ولماذا لا تذهب إلى بلدك».

كان أخى أحمد يرسل لى من وقت لآخر بعض بدله. وقد اعتدت على ذلك لفترة طويلة. وكان حجمه مثل حجمى فلم أكن أحتاج لتفصيل أو شراء أى بدل. وأذكر أننى لم أشتر حتى بلغت سن الستين أى بدلة ولكننى كنت أستعمل ما يهديه لى أخى. وأذكر مرة أننى كنت في زيارة لأحد أقارب الفتاة اليهودية التى كنت أعرفها، فسألنى أحد الشباب: «هل تعطينى هذه البدلة الرأسمالية، وتأخذ بدلتى الاشتراكية؟» وحدث أكثر من مرة أن سرقت بعض بدلى فى بيت الطلبة.

توثقت علاقتى بكاتى وسألتنى مرة أن والديها يسألانها عن مستقبل هذه العلاقة. فقلت لها أنى مستعد للزواج منها إن كانت على استعداد للذهاب معى للقاهرة. فأنا مصيرى العودة. ولكنها لم تكن تريد ترك بلدها. واستمرت علاقتنا. وكانت شخصية كاتى تثير احترام الجميع. وقد احترم زملاؤنا هذه العلاقة وكانت هادئة مريحة، ولا أذكر أننا تشاجرنا أو اختلفنا بل كان تفاهمنا كاملا. وكان لهذه العلاقة تأثير ايجابى على دراستنا. فكنا نساعد بعضنا البعض. كنا نتكلم معا باللغة الروسية، ولكن قبل امتحان اللغة المجرية أخذنا نتحدث باللغة المجرية. وأديت

الامتحان بنجاح. وفى امتحان آخر العام أديت امتحان الاقتصاد السياسى باللغة المجرية وحصلت على امتياز وحصلت على امتياز أيضا فى الماركسية اللينينية والفونيتيكا الروسية واللغة الروسية وتاريخ الاتحاد السوفيتى والأدب الروسى والسوفيتى وحصلت على درجة جيد فى اللغة المجرية ودرجة مقبول فى جغرافيا الاتحاد السوفيتى. وقدمت رسالة الدبلوم عن قصيدتين لماياكوفسكى هى «فلاديمير ايليتش لينين» و «حسنا» وحصلت على درجة ممتاز.

وحصلت على شهادة إنهاء الدراسة وأصبح من حقى العمل كمترجم من اللغة الروسية وطبقا للنظم التى كانت مطبقة فى البلاد الاشتراكية فإن الدولة كانت ملزمة بتعيين الخريجين واستدعيت إلى الاذاعة فى قسم شئون الأفراد. وسألونى بعض الأسئلة وأفهمونى أنى مرشح للعمل فى الإذاعة. واستدعوا كاتى وسألوها بعض الأسئلة، منها سؤال عن علاقتها بى. فقالت أن هذا موضوع شخصى.

ولكننى لم أكن أنوى البقاء والعمل فى المجر، بل اتصلت فور انتهاء الدراسة باتحاد الشباب المجرى وطلبت منهم مساعدتى فى السفر إلى باريس على أن يدبر زملاؤنا هناك سفرى إلى القاهرة. انتظرت حوالى شهر دون أى رد. فكتبت خطابا شديدا إلى اللجنة المركزية لحزب العمال المجرى وأخبرتهم أن الرفاق فى مصر يحتاجون إلى، وأننى لم آتي إلى المجر للبقاء إلى ما لانهاية وناشدتهم مساعدتى فى العودة، ويكفى أن يرتبوا لى ذهابى إلى برلين الشرقية. وكنت قد اتصلت بزملائنا فى باريس وطلبت منهم أن يرتبوا لحضورى إلى باريس ويعدوا لسفرى إلى القاهرة.

فى الصيف انتقلت من بيت الطلبة الذى كان يقع فوق المدرسة العليا ونقلت إلى مكان آخر فى منتصف المدينة وبعد فترة وصلنى خطاب من اللجنة المركزية لاتحاد الشباب المجرى بإعطائى جواز مرور إلى برلين الشرقية.

كانت كاتى قد بدأت تعمل فى الاذاعة أما أنا فأخبرتهم أننى سأعود إلى بلادى.

وكنت أخبر كاتى بالتطورات أولا بأول وكانت تلاحظ مدى إلحاحي على المسئولين لمساعدتى فى السفر. فلم يصدر منها أى اعتراض. وعندما أخبرتها بميعاد سفرى بدت متماسكة. ولكن فى يوم الوداع السابق لسفرى انفجرت باكية. أعطيتها عنوانى فى باريس لتراسلنى عليه باسم «فيكتور».

لم أقل لأحد بخلاف كاتى أنى مسافر إلى باريس. أما يوتكا فقلت لها أنى ذاهب إلى براغ فأصرت على الحضور لمحطة السكة الحديد لتوديعى.

وانتهت بذلك فترة إقامتى فى المجر وبقيت ذكريات عن المجر بعضها حلو وبعضها مر. ولكننى أحببت هذه البلاد لأننى عشت بين أهلها.

واستمرت مراسلاتي مع كاتي في كل الظروف. وكان سفري قبل صيف ١٩٥٥، وكانت الأوضاع السياسية تغلى فى المجر. وكان النقاش على أشده داخل حزب العمال المجرى. وكانت هناك انتقادات للتجربة السابقة. مثل الإسراع بفرض المزارع التعاونية واجبار الفلاحين على دخولها، ومثل انتقاد النقل الحرفى من الاتحاد السوفيتي وعدم مراعاة الظروف المحلية. وكان الجو مهيأ للأحداث التى تمت بعد ذلك فى صيف ١٩٥٦ والتى أدت لتدخل القوات السوفيتية. وكانت كاتي تكتب لى دائما وكتبت لى بعد الأحداث أنها التقت بشاب في مخبأ أثناء القصف وتوثقت علاقاتهما وأنهما ينويان الزواج. وقالت أنها حكت لهذا الشاب عن علاقتها بى و أنه قابل ذلك بفهم واحترام وأنه يكن لى مشاعر طيبة رغم أنه لايعرفنى إلا من خلال حديثها عنى.

وصلنى خطابها هذا بعد أن كنت قد وصلت إلى القاهرة. وقد تزامن مع أحداث المجر العدوان الثلاثى على مصر. واستمرت مراسلاتنا وتوقفت فترة عند اعتقالى فى ١٩٥٩ ولكن استأنفت المراسلات بعد خروجي من السجن. وكانت كاتي قد تزوجت ورزقت بولد وبنت بعثت لى بصورهما. وفى عام ١٩٦٨ زرت المجر وبحثت عنها فى الاذاعة ووجدتها وأمضينا أياما قليلة. ثم جاءت فى السبعينيات هى وزوجها إلى مصر لانتقال زوجها للعمل هناك فى القسم التجارى وكنت وقتها أعمل فى موسكو ولكنى كنت أتردد على بودابست فأزورها هى وزوجها وعرفتها بزوجتي وابنتي وهى الآن تراسل زوجتي بانتظام وقامت بينهما علاقات وثيقة من الود والمحبة. وهى الآن جدة مات زوجها ولم تنقطع المراسلات بيننا عن طريق زوجتي.

***

السفر إلى فرنسا

كان معى فى المقصورة أحد المجريين المسافرين ودار بيننا حديث طويل باللغة المجرية تطرق إلى مواضيع عديدة لا أذكرها الآن، ولكن أذكر أن الحديث كان كله باللغة المجرية. وأحسست أننى قد تقدمت فى معرفتى باللغة المجرية بحيث استطعت استخدامها للقيام بهذا الحديث الطويل والمتنوع.

قطع القطار تشيكوسلوفاكيا حيث نزل هذا المجرى فى سلوفاكيا فى القطاع الذى يسكنه المجريون ثم انطلق القطار شمالا إلى المانيا ثم وصل إلى برلين حيث نزلت.

وكان في انتظاري يوسف حلمى ومعه احدى معارفه من الألمانيات.

وكان يوسف حلمى قد دبر خروجه من مصر عام ١٩٥٤ وعاش فى فرنسا بجواز سفر مزور. وكان يحتاج للسفر من فرنسا من وقت لآخر عندما يحين ميعاد انتهاء مدة اقامته. وقد التقى بى وقدم لى جوازاً.

وقد سرنى أن أحصل على جواز أنتقل به داخل فرنسا وخارجها عند اللزوم، ففى المرة الأولى لم تكن معى أية أوراق مما أدى إلى اعتقالى بعد ذلك ثم طردى.

لم يكن سور برلين قد بنى بعد، وكان من السهل الانتقال بالمترو بين شرق برلين وغربها. رغم أن ذلك كان يتم تحت رقابة شديدة من بوليس المانيا الشرقية. ركبنا المترو من برلين الشرقية وانتقلنا إلى برلين الغربية، حيث كانت تقطن صديقة يوسف حلمى الألمانية. ومن هناك اشترينا تذكرتى طائرة إلى جنيف لى وليوسف حلمى.

كان هناك فرق كبير بين برلين الشرقية والغربية. فبينما كان يسود برلين الشرقية جو من التقشف الشديد. كانت برلين الغربية مليئة بالأضواء والبضائع التى تملأ المحلات. وكان الغرب يحرص على أن يحولها إلى لوحة اعلانات لجذب سكان المانيا الشرقية والدعاية ضد نظامهم.

ركبنا الطائرة إلى زيورخ ومنها أخذنا الطائرة إلى جنيف. وبينما كنا فى الطائرة وكلانا بجواز سفر مزيف قال لى يوسف حلمى ألا تشعر بالاغتباط وأنت تخدع كل هذه الحكومات؟! وضحكنا.

فى محطة جنيف كان ينتظرنا خالد محيى الدين الذى دعانا لتمضية الليلة عنده. وكان خالد فى فترة نفيه إلى سويسرا بعد أن أختلف مع زملائه فى مجلس قيادة الثورة. وكان يسكن مع زوجته فى أحد المنازل بمدينة بجنيف وقد رحب بنا خالد وزوجته وأكرم ضيافتنا وحدثنا عن حياته فى سويسرا وكيف أنه لا يستطيع التأقلم معها وعن شوقه للعودة إلى الوطن.

وفى الصباح ركبنا معه سيارته التى قادها بنفسه وذهبنا إلى الحدود السويسرية الفرنسية. وتوجهنا إلى إحدى القرى الفرنسية الواقعة على حدود جنيف والتى اعتاد السويسريون أن يذهبوا إليها لشراء بعض حاجياتهم وعندما عبرنا الحدود لم يسألنا حرس الحدود عن جوازات السفر. وسألونا فقط إن كان كل شيء على مايرام. قلنا: نعم. ودخلنا القرية الفرنسية حيث تركنا خالد محيى الدين. وركبنا القطار إلى باريس.

عدت إلى باريس ثانية بعد غياب أربع سنوات، وبعد أن طردنى البوليس الفرنسى منها. ولكن فى هذه المرة كان معى جواز سفر.

وقد روى لى أخى، أنه ذهب إلى باريس عدة مرات بعد طردى، فكان البوليس الفرنسى يستدعيه لتشابه الأسماء، ولا يطلق سراحه إلا بعد أن يثبت له أنه شخص آخر غيرى.

كان يوسف حلمى يسكن فى منزل فى منطقة فى ضواحى باريس اسمها مالاكوف وكان منزلا مستقلا مكونا من حجرتين ومطبخ ودورة مياه وحديقة. دعانى للسكن معه وكان يوسف حلمى إنسانا مرحا، ويحب أغانى سيد درويش بالذات وكان يدافع دائما عن تراث سيد درويش وكون جمعية لهذا الغرض فى مصر. وكان رجلا وطنيا وديمقراطيا. اصطدم مع جمال عبد الناصر عندما بدأ المفاوضات مع الانجليز وتقرب من الامريكان وعندما حل الأحزاب وألغى الدستور والحياة النيابية. وكان فى منفاه يكتب الرسائل لجمال عبد الناصر ينتقد فيها سياسته ومنها رسائل تتعلق بالحريات الديمقراطية وأخرى خاصة بالسلام بين مصر واسرائيل الذى كان يوسف حلمى وهو السكرتير العام لحركة السلام المصرية يؤمن بضرورة تحقيقه والتفرغ للنضال وتوجيه الطاقات من أجل تحرير البلاد من الاستعمار وتنميتها.

وقد دعا إلى مؤتمر دولى تشترك فيه مصر والدول العربية فضلا عن الدول الخمس الكبرى لبحث قضية السلام بين اسرائيل والبلاد العربية. وقد نشرت آراؤه فى بعض الصحف الاسرائيلية.

وفى أحد الأيام جاء فاروق ثابت لزيارتنا من القاهرة ولم أكن أعرفه من قبل. ولكنه كانت تربطه علاقة نسب بزوجة يوسف حلمى. وقد ساعد يوسف حلمى فى هربه وخروجه من مصر. أمضى معنا عدة أيام واتفقت معه على أن يستقبلنى فى القاهرة عند حضورى ويتولى أمور إقامتى وأمانى.

بعد حضورى إلى باريس بدأت الإعداد للعودة وكان ذلك يحتاج إلى بعض الاستعدادات استمرت لمدة عام.

وعندما كنت فى بودابست تلقيت رسالة من رفاقى تخطرنى بتحقيق الوحدة بين منظمتنا حدتو وأربع منظمات أخرى صغيرة هى حدتو ت.ث و «النجم الأحمر» و«طليعة الشيوعيين»

و«نواة الحزب الشيوعى المصرى» واننى اخترت عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الجديد الذى سمى «الحزب الشيوعى المصرى الموحد». وكان التنظيم الأكبر هو حدتو. ولكن الوحدة تمت فى ظروف كانت حدتو تتخلى فيها عن موقفها الذى اتخذته بعد قيام ثورة يوليو بتأييدها وانتقلت فى ١٩٥٣ إلى الدعوة للاطاحة بالدكتاتورية العسكرية، وهو نفس ماكانت تدعو إليه المنظمات الصغيرة الأخرى. وتمت الوحدة فى ظروف سياسية تمثل هزيمة لخط حدتو فى تأييد الثورة. وكان من تنازلات حدتو لإتمام الوحدة وقف عضوية يونس (هنرى كورييل) فى اللجنة المركزية والحزب إلى أن يغير الحزب الشيوعى الفرنسى موقفه منه (إشارة إلى مانشر فى جريدة الأومانيتيه بمناسبة قضية مارتى). وكان هناك شرط آخر يتعلق بكمال عبد الحليم واستبعاده من القيادة.

فى هذه الظروف وصلت إلى باريس وكنت العضو القيادى الوحيد فى مجموعة باريس والتى كانت تسمى حركيا (مجموعة روما) وكان يونس موقوفا. وكان من الطبيعى أن أكون مسئولا عن المجموعة. وأصبحت فى وضع حرج، فكان على أن أنفذ القرار الحزبى بوقف يونس رغم عدم اقتناعى بسلامته. ووسط مجموعة تعتبر يونس قائدا وموجها لها. ووجدنا حلا لذلك بأن يقتصر يونس على العمل الديمقراطى وذلك فى مجالين الأول هو «التضامن مع المسجونين السياسيين» والثانى «قضية السلام بين العرب واسرائيل» وقد قام فى هذين المجالين بعمل كبير وساعدته فى ذلك جويس بلاو. فجرى الاتصال بالكثير من القوى من مختلف الاتجاهات فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية للمطالبة بالافراج عن المسجونين والمعتقلين الشيوعيين. وجمعت من أجلهم الأموال والأدوية التى أرسلت لهم فى السجون. وقام ايضا بعمل كبير فى الاتصال بالقوى التقدمية والديمقراطية فى اسرائيل للدعوة للسلام بين العرب واسرائيل على أساس قيام دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الاسرائيلية، وزاد من حرج الموقف وتوتره أننى اختلفت سياسيا مع يونس حول الموقف من النظام الحاكم فى مصر. فمنذ باندونج بدأت أعتقد بضرورة تغيير موقف المعارضة من عبد الناصر إلى تأييده. وكتبت هذا الرأى إلى زملائنا فى مصر. وكان زملاؤنا المعتقلون فى الواحات الخارجة قد بدأوا يتخذون نفس الموقف ولم يتغير الموقف الرسمى للحزب فى الخارج إلا بعد ذلك. أما يونس فكان يرى ضرورة الاستمرار فى معارضة «الدكتاتورية العسكرية» ودارت بيننا مناقشات كثيرة وخلافات ساعدت فى خلق جو من التوتر.

انتقلت للسكن مع يوسف حزان وهو عضو بارز فى المجموعة. كان يتمتع بالجنسية الفرنسية ولكنه ولد وعاش وتعلم فى مصر وكان يعتبر نفسه مصريا وهو يتكلم ويقرأ العربية كأحد أبنائها. وقد طرد من مصر عام ١٩٤٨ فجاء إلى فرنسا وانضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى، إلى أن صدر قرار من مجموعة حدتو بالخارج بالانسحاب من الحزب وتكوين مجموعة خاصة بالحزب المصرى فى الخارج. فاستقال من الحزب لأنه اعتبر نفسه منتميا إلى

الشيوعيين المصريين. وهو شديد الحب لمصر والمصريين ويعانى معاناة كبيرة لأنه لا يستطيع العودة إلى مصر، وقد جاء إلى مصر فى السبعينيات مع مجموعة سياحية، وجاء مرة أخرى بعد ذلك. ولكنه بعد وصوله إلى الفندق جاءت قوات المباحث التى أبلغته بأنه ممنوع من دخول الأراضي المصرية. وجرت مناقشة بينه وبين الضابط الذى أبلغه بذلك، فاعتذر له باحتمال وجود خطأ أو تشابه أسماء. ورحل فى نفس اليوم إلى فرنسا. ومازال يعيش فى فرنسا ويعتبر محطا للقاء المصريين من مختلف الاتجاهات الذين يعتبرونه صديقا. وله اصدقاء كثيرون من الفلسطينيين وقد منحه ياسر عرفات هو وهنرى كورييل وساما لمساعداتهم العديدة للقضية الفلسطينية. وإلى جانب المصريين فهو مازال مستمرا فى مساعدة الشيوعيين السودانيين بكل الوسائل استمرارا للقضية التى كرس كورييل حياته لها. ومن المعروف أن عبد الخالق محجوب السكرتير العام السابق للحزب الشيوعى السوداني والذى أعدمه نميرى كان عضوا قياديا فى حدتو قبل انتقاله إلى السودان وتكوين الحركة السودانية للتحرر الوطنى ثم الحزب الشيوعى السودانى.

عشت مع يوسف حزان فى حجرة بمرافقها بالدور الأرضى بشارع باتينيول بباريس وبدأت معه الترتيب لعودتى إلى القاهرة اختيار جواز السفر. ترتيب خط السير. الاتفاق مع زملائنا فى القاهرة وقد رتبت الأمر مع فاروق ثابت فى مصر. ومع الزملاء فى السودان. وكان أحد الرفاق السودانيين موجودا فى باريس فرتبت معه أمر هربى إلى السودان.

وفى أثناء سكنى مع يوسف حزان أو (سوسو) كما اعتاد أصدقاؤه أن يطلقوا عليه. تكونت بيننا علاقة صداقة وثيقة وألفة. كانت شقته عبارة حجرة للنوم والاستقبال ودورة مياه ومطبخ. وكانت هناك كنبة يستخدمها كسرير فى المساء. وسرير سفرى أستخدمه لنومى فى نفس الحجرة. وكان يخرج مبكرا للعمل ولا يأتى إلا فى المساء. وكنت أقوم بتحضير غدائى. فأشترى شريحة من اللحم أشويها ومعها بعض الخضروات فى العلب المحفوظة وبعض السلاطة. وكثيرا ما كنت أتناول عشائى فى محلات السجق المنتشرة فى بيجال. كنت أشترى سندوتشا من السجق وبعض البطاطس المحمرة فى علبة من الورق وكان المنزل يقع قريبا من حى بيجال.

أعد معى سوسو بدقة مشروع سفرى وأعد لى جواز السفر. وسافر معى بالقطار إلى روما. وعند الحدود جاء ضابط الجوازات الايطالى وحملق طويلا فى جواز سفرى وقال بالإيطالية «عشرون سنة» وهي سن صاحب الجواز الذى أعطاه لى. وتأملانى بدقة ثم أعطيانى الجواز. وكان سوسو وأنا بالطبع فى حالة من التوتر وقد حبسنا أنفاسنا فى انتظار نتيجة الفحص، وعندما سلمنى الجواز تنفست الصعداء وكذلك سوسو. وقد كنت وقتها فى الثلاثين من عمرى ولكنى كنت أبدو أصغر سنا. وقد يظن الكثيرون أننى فى العشرين. وكانت هذه هى نقطة الضعف فى هذا الجواز. ولكننا لم نجد شخصا آخر فى سن مقاربة لى يتطوع لى بجوازه.

ووصلت إلى روما وافترقت عن سوسو الذى كان متوجها إلى ميلانو. وكنت قد حصلت على اسم أحد الفنادق القريبة من محطة القطار وأخذت تاكسى وأعطيته اسم الفندق، ولكن سائق التاكسى سار بى مسافة طويلة ووصل أخيرا إلى الفندق ليأخذ أجرا أعلى. وكانت هذه أول تجربة لى مع سائقى التاكسى الايطاليين فى النصب.

ذهبت إلى شركة الطيران لأحجز مكانا فى طائرة تذهب إلى الخرطوم ولا تتوقف فى القاهرة. ولم أجد ألا طائرة تقوم بعد أسبوع ولكن الأماكن كلها كانت مشغولة. وضعت اسمى على قائمة الانتظار. وكان على أن أمضى أسبوعا كاملا فى روما بمفردى انتهزته لكى أشاهد معالم روما. تلك المدينة الجميلة ذات التماثيل والآثار التى ترجع إلى عصور قديمة. وقد بهرتنى المدينة وأعجبت بها. واستخدمت مواصلاتها وتجولت فى شوارعها. وكنت أمر كل يوم على شركة الطيران عسى أن أجد مكانا لى على الطائرة المتجهة مباشرة إلى الخرطوم.

وفى اليوم المحدد أخبرونى فى شركة الطيران أن الأماكن كلها مشغولة، ولكن على أن أذهب إلى المطار فقد أجد مكانا فى آخر لحظة.

وذهبت إلى المطار وفى اللحظة الأخيرة نادونى لأقوم بإجراءات السفر. فأسرعت ودخلت وركبت الطائرة وأنا فى غاية الانفعال. فقد كنت أريد الإسراع بالسفر، وكنت متوترا لأننى أحمل جواز سفر مزورا. ومررت بالجوازات وتركونى أمر دون أن ينظروا إلى جوازى. ولم أشعر إلا وأنا أجلس على مقعدى فى الطائرة. وحل ميعاد قيام الطائرة ولم تقم. وبدأ يدور الهمس بين الركاب. ثم صعد إلى الطائرة أحد العاملين بالجوازات وطلبوا جوازى. ودق قلبى سريعا. وطلبوا منى الخروج معهم فذهبت إلى ضابط الجوازات حيث ختم الجواز وتبين أن تعطل قيام الطائرة يرجع إلى أن راكبا بالطائرة هو أنا لم يختم جوازه وعدت إلى مكانى فى الطائرة بين نظرات الركاب. وتحركت الطائرة أخيرا وطارت فى الجو وكان خط سيرها هو الخرطوم ثم جنوب أفريقيا. وكنت أجلس فى كابين به أربعة أشخاص من البيض فى جنوب أفريقيا كانوا ينظرون إلى شذرا.

ووصلت أخيرا إلى الخرطوم. وكنت الوحيد الذى ينزل فى الخرطوم. أما الباقون فكانوا متوجهين إلى جنوب أفريقيا. وكان مطار الخرطوم فى ذلك الوقت شديد التواضع. استقبلنى موظف المطار. وهو سودانى. وكان يتحدث معى بالانجليزية وأعطانى ورقة بيانات لأملأها مكتوبة باللغة الانجليزية. وقد رحب بى وعرض على أسماء الفنادق التى يمكن أن أنزل بها وأوصانى بفندق «جراند هوتيل» ركبت أتوبيس المطار إليه.

وكان معلوما لى أن بعض العاملين فى هذا الفندق أعضاء فى الحزب الشيوعى السودانى. كان الوقت أغسطس، وكان الجو شديد الحرارة. وكانت المراوح تعمل باستمرار.

وكان الماء ينزل حارا من الصنبور، فلم أكن فى حاجة لأى ماء ساخن. بل كنت أملا

البانيو وأغوص فى ماء حار.

ذهبت فى اليوم التالى إلى «جريدة الميدان» صحيفة الحزب الشيوعى السودانى وسألت عن عبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب فلم أجده. ولكن اتصل بى أحد أعضاء الحزب بعد ذلك ووجهوا لى نقدا شديدا للذهاب إلى الميدان، فإن ذلك يتعارض مع الأمان نظرا لأوضاعي. وطلبوا منى عدم زيارة هذه الأماكن العامة. وسيدبر الحزب باستمرار طريقة الاتصال بى.

كان الحزب يتمتع ببعض الحريات. فكانت له جريدته وكان له بعض النشاط القانونى. ولكن هذه الحريات كانت مهددة بالسلب فى أى وقت ورتب لى ميعادا مع عبد الخالق محجوب. وكنت أعرفه من القاهرة. وأذكر يوم خروجه من المصحة من بعد أن أجرى عملية فى صدره بعد إصابته بالسل. وكان باقى رفاقنا فى المعتقل، التقيت به مع فؤاد عبد الحليم وحمدى عبد الجواد وكان فى حاجة للسفر إلى الخرطوم. وكان لابد من تدبير المال لذلك. وقد قمت بتدبيره.

وكان عبد الخالق قبل مرضه عضوا فى اللجنة المركزية لحدتو فى وقت كان الصراع على أشده بين «اليونسيين نسبة إلى يونس (هنرى كورييل) والعادليين نسبة إلى عادل (عبد المعبود الجبيلى). واعتقل هنرى كورييل وعبد المعبود الجبيلي وكان عبد الخالق محجوب من أعنف المعارضين للعادليين. وكان لليونسيين أغلبية ضئيلة فاتخذوا قرارا بطرد العادليين أثناء غياب يونس. وحدث الانقسام.

عاد عبد الخالق إلى السودان بعد خروجه من المصحة واستقلت الحركة السودانية للتحرر الوطنى التى تحولت بعد ذلك إلى الحزب الشيوعى السودانى.

التقيت فى السودان أيضا بالتيجانى الطيب وتعددت لقاءاتنا وسألته عن الصديق والزميل القديم عبد القيوم محمد سعد. فقال لى أن علاقته بالحزب قد أصبحت هامشية. وأنه يعمل مدرسا. ورتب لى لقاء معه. وتذاكرنا معا ذكريات الأيام القديمة التى عملنا فيها معا فى قيادة «حدتو». وأذكر أن عبد القيوم عندما قابلته فى بودابست كان كثير الانتقاد لعبد الخالق محجوب ولا أعرف إن كان وضعه الجديد نتيجة لخلافات بينه وبين عبد الخالق محجوب أم أن عبد القيوم بعد أن أمضى عقوبة السجن وأبعد إلى السودان آثر أن يخفف من نشاطه أم أن السبب هو خلافات بينه وبين القيادة. لم يحدثنى عبد القيوم فى الخرطوم عن أى شيء من ذلك.

وتعددت لقاءاتى مع عبد الخالق. وناقشنا الأوضاع فى مصر والأوضاع فى السودان. والتقيت مع الشفيع ومع غيره.

وطلبوا منى ترك فندق جراند اوتيل لغلو ثمنه ورتبوا لى الإقامة فى فندق آخر رخيص الثمن ومناسب وناقشت معهم ترتيبات عودتى إلى القاهرة.

وقد استغرقت الترتيبات مدة شهر كامل عانيت فيها من الوحدة. لم أكن ألتقى بهم كل يوم. وأذكر أننى التقيت يوما مع عبد الخالق محجوب واحمد سليمان فى سيارته الكبيرة وتناولنا الغذاء فى منزله فى أم درمان. وكنت أعرف احمد سليمان أيضا من القاهرة. وقد أنشق بعد ذلك فى السبعينات عن الحزب الشيوعى السودانى بعد انقلاب النميرى الذى أيده وأصبح فيه وزيرا ثم سفيرا فى موسكو حيث التقيت به وأصبح بعد ذلك يهاجم الشيوعيين وانضم إلى الجماعات الاسلامية.

تعودت على مواعيد السودانين يتواعدون على اللقاء ويأتون فى اليوم التالى. ولا يجدون أى غرابة فى أن يأتوا بعد ذلك بيومين أو ثلاثة.

كان الجو حارا. وكانت الأسرة فى الفندق موضوعة فى الخلاء بدون أغطية. وبسبب الحرارة الشديدة كنت أضطر لأخذ دش عدة مرات فى اليوم.

وكنت أمضى وقتى فى التجول فى مدينة الخرطوم. وفى إحدى المرات رأيت سيارة تحمل لافتة «هيئة سياسية» تسير بمحاذاتى ثم تتوقف. وينزل منها شخص يتجه إليّ ونأخذ بعضنا بالأحضان. لقد كان صديقى عز العرب أمين. وكان يعمل دبلوماسيا فى السفارة المصرية بالخرطوم. لم يسألنى طويلا عن تفاصيل حضورى إلى السودان. ولكننى لم أقل له بالطبع الأسباب الحقيقية. ودعانى إلى منزله والتقينا بعد ذلك مرة أو مرتين.

التقيت لقاء أخيرا مع عبد الخالق والشفيع والتيجانى فى أحد الكازينوهات على النيل بالخرطوم. ورغم أننا كنا فى شهر أغسطس إلا أن المساء كان باردا. وتعشينا معا وطلب عبد الخالق الكبدة النيئة والشطة وهى الأكلة السودانية المفضلة. وقال لى الشفيع أنهم رتبوا لى أوراقا سودانية للسفر بها إلى مصر ولكن عيبها الوحيد أن المهنة المسجلة هي «عامل» وضحك الشفيع وقال «حتبقى عامل عامل».

وكان من الممكن للسودانيين فى ذلك الوقت أن يسافروا إلى مصر بأوراق سودانية (دون حاجة لجواز سفر) ورأينا أنه من الأفضل أن أسافر بهذ الأوراق بدلا من جواز السفر المزيف.

وسافرت بالقطار من الخرطوم واتجهت شمالا إلى مصر وعبرت فى الطريق الأقاليم السودانية المختلفة .. وفى إحد المناطق رأيت من نافذة القطار امرأة عارية تماماً فى الطريق وكان منظرا عاديا فى بعض أقاليم السودان فقد كانوا من الفقر بحيث لايمتلكون الملابس التى تستر عوراتهم.

***

(٨)

العودة إلى الوطن

وصلت بالقطار إلى حلفا وأخذت المركب إلى الشلال. وفى الشلال وقفت المركب عدة ساعات حتى يسمح لها بالدخول. وكان الجو شديد الحرارة بشكل لم أشعر به من قبل. كانت الحرارة من الشدة بحيث أن أى قطعة من الاثاث أو السرير كانت شديدة السخونة. وتناولت كميات كبيرة من المياه إلى أن تحركت المركب أخيرا ودخلنا الحدود المصرية.

ووصلت إلى الجمارك وقدمت أوراقى فلم يهتم المختص بها كثيرا ولكنه ركز اهتمامه على الحقيبة التى كنت أحملها وفتشها تفتيشا دقيقا. فأخرج كل الملابس منها ولم يكتف بذلك بل أخذ يحفر فى قاعها باحثا عن مخبأ بها. ولكنه لم يجد شيئا بالطبع وتركنى. وتنفست الصعداء. دخلت أخيرا أرض الوطن.

وكنت فى غاية السرور وذهبت إلى محطة القطار وكان على أن أنتظر كثيرا قدومه فجلست فى أحد المقاهى وطلبت من العامل زجاجة من المياه الغازية. وفوجئت فى قاع الزجاجة بمشبك غسيل. نبهت العامل إلى ذلك فأخذ الزجاجة ببساطة شديدة وأعطانى غيرها.

اشتريت الصحف المصرية. وقرأت خبرا أن الغد ١٥ أغسطس تحدد اضراب عام تضامنا مع ثورة الجزائر.

وكانت قيادة الحزب الشيوعى الموحد قد غيرت منذ فترة موقفها من المعارضة إلى تأييد عبد الناصر فى موقفه الوطنى ضد الامبريالية والاستعمار وكان هذا كله يتفق مع موقفى الذى اقتنعت به بعد باندونج بالذات.

فقد اضطررت ومع تأييدى لعبد الناصر الذى كان رئيسا للدولة ورئيسا للنظام أن أدخل

الوطن سرا ومتخفيا بسبب الحكم الصادر ضدى قبل الثورة وفى ظل الحكم الملكى.

وكان مجلس قيادة الثورة قد أصدر قرارا فى ١٩٥٢ بالعفو عن المسجونين السياسيين، ولكن وبناء على فتوى من سليمان حافظ الذى كان نائبا لرئيس الوزراء استثنى المسجونين الشيوعيين بزعم أن الشيوعية ليست جريمة سياسية وإنما جريمة اقتصادية اجتماعية. ولهذا لم يقبل وقتها تظلمى وتظلم زملائى الآخرين الذين استمروا فى السجن وأمضوا عقوبتهم كاملة.

ورغم أننى دخلت البلاد سرا وكان على أن أعيش متخفيا إلا أننى كنت أشعر أن البلاد قد تغيرت، وأن المد الوطنى المتصاعد يخلق أرضية للعمل المشترك بين الشيوعيين وبين نظام عبد الناصر.

كنت قد اتفقت مع فاروق ثابت أن يتولى تأمين اقامتى عند حضورى إلى القاهرة وبعثت له من السودان برقية باسم مستعار بموعد وصولى.

وصلت إلى محطة مصر ولم أجد فاروق فى انتظارى. فماذا أفعل؟ القاهرة فى حالة اضراب والمواصلات متوقفة. ذهبت إلى مقهى المحطة واتصلت برقم منزلنا فى قصر العينى. لكن الرقم تغير. كنت أراسل أختى سعاد باسم مستعار هو «يحيى السمالوطى» وكنت عرفت أنها تزوجت من محام اسمه عصمت سيف الدولة فبحثت عن اسمه فى دليل التليفون ووجدت رقمه وأدرت الرقم فردت على «الشغالة»، سألت عن الست فسألتنى عن اسمى قلت «يحيى السمالوطى» فنادت على عصمت. لم أكن أعرفه ولم أكن رأيته من قبل. قلت له أننى فى مقهى محطة مصر. قال سأحضر حالا وبعد قليل وصل . وتعرف على. وذهبنا معا إلى منزله ومنزل اختى.

كانت مفاجأة شديدة لأختى ولكنها استقبلتنى بفرح. واتفقنا ألا تخطر أحدا بوجودى باستثناء إخوتى. واتفقنا وبناء على رأى أختى «عايدة» ألا تخطر زوجها «أنور وحش» الذى كان يعمل وقتها رئيسا للنيابة.

اتصلت بفاروق ثابت وظهر أنه لم يحضر إلى المحطة لأنه كان فى الاسكندرية. وعن طريقه اتصلت بالحزب فدبر لى لقاء مع محمود أمين العالم. ورتب لى لقاء مع كمال عبد الحليم الذى كان مبعدا وفقا لشروط الوحدة. وكان المعتقلون قد أفرج عنهم عام ١٩٥٥ ومنهم ابراهيم عبد الحليم الذى أسس «دار الفكر»، وكان كمال وغيره من المثقفين المرموقين مثل فؤاد حداد وصلاح جاهين وحسن فؤاد وعبد الرحمن الشرقاوى يتعاونون معه تعاونا وثيقا فى عمل دار الفكر. وقام كمال عبد الحليم بالاشتراك مع عبد القادر التلمسانى وغيره بتأسيس «أفلام النور» التى نجحت فى عرض فيلم الأم لماكسيم جوركى بسينما أوديون. ولكن عملها لم ينجح بعد ذلك. وقد قمت بترجمة سيناريو الأم من الروسية إلى العربية وذهبت إلى معامل أنيس عبيد وصدرت الترجمة في كتاب عن دار الفكر وجاء فيه أن الترجمة قام بها كمال عبد

الحليم. واستأت من ذلك. فقال لى إبراهيم عبد الحليم أنه لايمكن وضع اسمى بسبب وضعى الخاص.

كان هناك صراع واضح بين دار الفكر وبين الحزب. وكان نشاط دار الفكر وكمال عبد الحليم بين المثقفين واسعا وكان تأثيرهم أكبر.

بدأت أحضر اجتماعات اللجنة المركزية وانتخبت عضوا فى المكتب السياسى والسكرتارية المركزية. وتعرفت برفاق جدد لم أكن أعرفهم من قبل.

ورغم أننى كنت مختلفا مع يونس فى الموقف السياسى من عبد الناصر عندما كنت فى الخارج إلا أننى كنت مقتنعا بظلم الموقف المتخذ منه فى شروط الوحدة. ولهذا خضت معركة لإلغاء هذا القرار ونجحت فى ذلك واتخذ قرار بالأغلبية بإلغائه. وعاد عضوا فى قيادة الحزب الشيوعى الموحد. وخضت معركة أيضا لعودة كمال إلى قيادة الحزب وكانت معركة أسهل وقد عاد معه ابراهيم عبد الحليم الذى لعب دورا هاما فى قيادة دارالفكر.

كان الجو السياسى مشحونا. وكانت التهديدات فى الغرب تتصاعد ضد عبد الناصر بعد تأميم القناة. وقد وقف الحزب الشيوعى الموحد بثبات مع عبد الناصر فى معركته ضد الاستعمار.

وفى أكتوبر ١٩٥٦ كان العدوان الثلاثى وركز الحزب كل نشاطه لخدمة المعركة وسافر عدد من القياديين مثل أحمد الرفاعى وسعد رحمى وعبد المنعم شتلة إلى بورسعيد ذهبوا إلى هناك بالاتفاق مع عدد من الضباط مثل كمال رفعت وغيره.

وعمل الشيوعيون داخل بورسعيد أثناء الاحتلال البريطانى والفرنسى ونظموا المقاومة وأصدروا مجلة «الانتصار». وكان لهم دور بطولى.

وذلك فى الوقت الذى تخاذل فيه المحافظ وغيره من كبار الموظفين الإداريين. ورغم أننى كنت أعيش فى السرية فقد تطوعت للتدريب على إطلاق النار في أحد معسكرات التدريب التي أنشئت في القاهرة واجتزت الامتحان بدرجة ممتاز.

وفى أثناء الحرب قللت من درجة اختفائى واستأجرت حجرة بسطوح إحدى العمارات بالجيزة ثم انتقلت إلى شقة بإحدى العمارات بالجيزة سكنت فيها فترة مع فاروق ثابت.

كان الشعور الوطنى جارفا عند الجماهير المصرية والعربية. وكان للإنذار السوفيتى وقع كبير. وفشل العدوان الثلاثى بسبب الإصرار على المقاومة والتضامن الدولى. وذلك رغم أن مصر لم تكن فى قوة الدول الثلاث المعتدية، ورغم الهزيمة العسكرية.

ولم يتحدث الإعلام عن أى هزيمة عسكرية، وتحدث فقط عن الانتصار ضد قوى العدوان والواقع أن التقدم العسكرى فى سيناء واحتلال بورسعيد لم يحقق أى نصر للمعتدين

الذين كانوا يتوقعون أن تستسلم القيادة السياسية، وهذا ما كان يطالب به نفر من الساسة القدامى الذين قدموا مذكرة لعبد الناصر يقولون فيها أنه لاقدرة لنا لمحاربة انجلترا وفرنسا واسرائيل، ولكن عبد الناصر قال أننا سنحارب ولن نستسلم ولقى تأييدا كاملا من الجماهير المصرية. ووقف معه الشيوعيون ووقفت معه الجماهير المصرية والشعوب والحكومات الاشتراكية والحركات الشعبية والتقدمية فى البلاد الرأسمالية وبلاد العالم الثالث. ولم تساند أمريكا انجلترا وفرنسا. كل ذلك أدى إلى فشل العدوان الثلاثى. وكان لزملائنا فى باريس بقيادة كورييل دور فى كشف الإعداد للعدوان قبل حدوثه وكتبوا تلك المعلومات لعبد الناصر عن طريق ثروت عكاشة الملحق العسكرى فى باريس فى ذلك الوقت والذى كانوا على اتصال به.

فى هذه الفترة كانت أحداث دامية تحدث فى المجر. وظهرت أخبار اليوم تبرز أخبار المجر وتردد الدعايات الغربية حول العدوان السوفيتى، أما باقى الصحف وأما الموقف الحكومى الرسمى وأما نحن الشيوعيين فقد وقفنا ضد موقف أخبار اليوم. فقد كان ما يربطنا بالاتحاد السوفيتى هو موقفه الحازم معنا ضد العدوان الثلاثى والإنذار الذى سمى فى ذلك الوقت بإنذار بولجانين. ولم يكن يتصور أحد فى ذلك الوقت أن يقف أى وطنى ليهاجم الاتحاد السوفيتى على تدخله فى المجر. وإذا كانت بعض الأحزاب الشيوعية فى الغرب قد أدانت هذا التدخل، وإذا كانت بعض الأحزاب الشيوعية الآن بما فيها أحزاب عربية بعد أن غير الاتحاد السوفيتى موقفه، أصبحت تدين مواقفها السابقة. فإننى لم أكن لأتصور أن ندين الاتحاد السوفيتى فى الوقت الذي نتعرض فيه للعدوان ويقف هو معنا ضده.

وليس معنى ذلك القول أن التدخل السوفيتى كان سليما وأنه يجب الدفاع عنه فلم تكن القضية بالنسبة لنا هى تقييم هذا التدخل والحكم عليه. بل كانت قضيتنا هى مواجهة العدوان الثلاثى وكسب الأصدقاء والتأييد العالمى ضد هذا التدخل. وقد كانت المساندة السوفيتية عنصرا حاسما فى هذه المواجهة.

الزواج الأول:

كنت قد تجاوزت الثلاثين من عمرى وأحسست بالحاجة إلى رفيقة فى حياتى بعد هذه السنوات من السجن والاغتراب والتخفى. ولم يكن وضعى طبيعيا. فأنا هارب من حكم بالسجن خمس سنوات. ولا أستطيع الظهور فى الحياة العامة باسمى الحقيقى. وكان على أن أتخذ إجراءات أمنية لإبعاد ملاحقة البوليس ولم أكن أعيش حياة طبيعية، فى هذه الظروف كان عليّ أن أبحث عن رفيقة تقبل أن تشاركنى هذه الحياة.

وتحدثت فى هذا الأمر مع أحد الزملاء الذى قال لى أنه تعرف على فتاة فى المقاومة

الشعبية اسمها ليلى يرشحها لأتزوج منها. وطلب منى أن يتحدث معها أولا. تحدث معها فقبلت ونظم لقاء بيننا فى منزله.

قالت أن والدها قاس وشديد. ولايجب أن أطلعه على اسمى الحقيقى ووضعى فهى لا تأمن له. وكان لابد من التآمر.

اتفقنا أن أتقدم له باسم محمد يوسف أحمد وأننى حائز على ليسانس الحقوق. وأننى أعمل فى مؤسسة أفلام النور.

أخبرت إخوتى بهذا المشروع فرحبوا، فقد كانوا يشفقون على من استمرار تلك الحياة الجدبة، وكانوا يريدون أن توجد بجانبى انسانة تسهل لى تلك الحياة.

وكان لابد أن أقدم أحد أقاربى. واتفقت مع خالتى ومع أخى حسن. ومع فاروق ثابت على أنه ابن خالتى.

وزارنى والد ليلى فى مؤسسة أفلام النور ولكنه لم يكتف بذلك، بل ذهب إلى كلية الحقوق وبحث فى السجلات عن اسمى بين المتخرجين عام ١٩٤٧ فلم يجد وأخذ الشك يتسرب إليه.

ومع ذلك فقد عقد القران فى منزله بالحلمية وحضر معى شاهدان هما صلاح جاهين وسيد مكاوى. وكانا يعرفان بوضعى. طلب منى المأذون تقديم بطاقتى الشخصية. ولم يكن معى بطاقة. وتصدى سيد مكاوى فورا للدفاع عنى وقال إنه يعمل فى الإذاعة ولا يملك بطاقة شخصية.

كان اليوم هو ٨ يناير ١٩٥٨، وكنت قد عدت لتوى من اجتماع اللجنة المركزية للحزب الجديد الذى تكون نتيجة لوحدة ثلاثة أحزاب هي الحزب الشيوعى المصرى الموحد والحزب الشيوعى المصرى (الراية) وحزب العمال والفلاحين وتكوين الحزب الشيوعى المصرى.

لأول مرة بعد سنين طويلة من الانقسامات والصراعات توصلت أكبر تنظيمات شيوعية فى مصر إلى تكوين حزب شيوعى واحد.

وقد سبقت هذه الوحدة بعام الوحدة التى تمت بين الحزب الشيوعى المصرى الموحد والذى كان يغلب عليه عناصر حدتو وبين «الراية» وهو ما كان يسمى نفسه الحزب الشيوعى المصرى والذى كان يقوده د. فؤاد مرسى. وانتخبت عضوا فى اللجنة المركزية والمكتب السياسى لهذا الحزب الجديد الذى أصبح يسمى الحزب الشيوعى المصرى المتحد. وواصل هذا الحزب الجديد مساعيه لتحقيق الوحدة مع الفصيل الكبير المتبقى خارج الوحدة وهو حزب العمال والفلاحين الذى استمر يشترط شروطا متعنتة لتحقيق الوحدة وأصبح يضع العقبات. ولم يقبلوا الوحدة إلا بعد أن عقدوا اتفاقا سريا مع الراية للنضال فى الحزب الجديد ضد حدتو. وطالبوا

بنسب كبيرة لتمثيلهم فى قيادة الحزب الجديد بحيث أصبح ممثلو حدتو أو الحزب الموحد أقلية فى القيادة وأصبحت الغالبية لعناصر العمال والفلاحين والراية.

ولهذا فلم تكن الوحدة التى تحققت فى ٨ يناير وحدة حقيقية وذلك رغم الكلمات الحماسية التى ألقيت فى الاجتماع الأول. ولهذا فلم تستمر أكثر من ستة شهور ثم حدث الانقسام. حدث خلاف فى الموقف السياسى واستكمل بانقسام تنظيمى.

وكان القسم الذى تسيطر عليه عناصر الراية والعمال والفلاحين يسمى القسم الثانى الذى تسيطر عليه عناصر حدتو «الانقسام». وكلا القسمين كان يتسمى باسم الحزب الشيوعى المصرى. وكان القسم الذى تسيطر عليه عناصر حدتو يسمى القسم الآخر «التكتل».

واختلفت المواقف السياسية. فكان القسم الأول (الراية والعمال والفلاحين) يعتبر نظام عبد الناصر ممثلا لرأسمالية الدولة الاحتكارية ويعتبره متعاونا مع الاستعمار. أما القسم الثانى (حدتو) فكان يغلب على موقفه تأييد عبد الناصر وسياسته التى تصاعدت بعد ذلك إلى اعتبار وجود مجموعة اشتراكية غير علمية فى قمة السلطة. فى هذه الظروف الحزبية بالإضافة إلى ظروفى الشخصية غير الطبيعية عقد قرانى على ليلى عويس. وكانت تعمل مدرسة للغة الانجليزية فى احدى المدارس الإعدادية واستأجرنا شقة فى روكسى بمصر الجديدة. واتفقنا فى اليوم التالى للزواج على أن نسافر لقضاء شهر العسل فى الفيوم.

وكانت الشكوك تتزايد عند والد ليلى ولا يستطيع أن يحل لغز هذا الشاب الذى تزوج بابنته، ولم يتوقف عن البحث والتقصى.

ولم نقل له أننا سنذهب إلى الفيوم بل قلنا أننا ذاهبون إلى الأقصر. وركبنا القطار من محطة مصر ونزلنا فى الجيزة وتوجهنا إلى الفيوم، وكان كمال أخو ليلى يتعقبنا بتكليف من والده. ولم نشعر به وعرف أننا نزلنا فى الجيزة وأمضينا أسبوعا فى الفيوم. ولم يهدأ أبو ليلى وتصور أن ابنته وقعت ضحية عصابة غامضة اختطفتها.

ذهب يشكو إلى صلاح چاهين وذهب إلى ابراهيم عبد الحليم. وهدد بإبلاغ البوليس.

وابراهيم عبد الحليم حاد وصريح فاندفع بحرارة وقال له كل شيء وذكر له اسمى الحقيقى ووضعى وظروفى والحكم والظروف التى أدت إلى إخفاء الحقيقة عنه.

فقال الأب على الفور: ولماذا لم يقل هذا لى، أنا أحميه . وأنا سرت فى جنازة والده.

وظهر أن حسابات ليلى بالنسبة لوالدها لم تكن صحيحة. إن أسلوب التآمر كاد أن يؤدى إلى كوارث.

وكان اللقاء بعد ذلك بالوالد وأصبح كل شيء واضحا وتحسنت علاقاتنا وبدأنا نحيا حياة زوجية هادئة لا ينغصها إلا ظروفى غير الطبيعية، وإلا أننى اضطررت بسبب عملى بالحزب إلى

التغيب كثيرا فى الأقاليم منذ أيام الزواج الأولى. كنت أعمل فى منطقة القنال ثم انتقلت للعمل فى الوجه البحرى، وعشنا فترة فى المنصورة واستأجرت شقة هناك. كانت ليلى تأتى إليها فى أجازة الصيف.

هكذا تم الزواج. لم يكن زواجا عن حب ولكن عن احساس منى بأننى أريد أن أحيا حياة طبيعية بعد سنوات السجن والمنفى والرغبة فى وجود انسانة إلى جانبى. ولم أكن أتصور أن أقيم علاقة ثابتة مع امرأة دون زواج. ولم تكن ظروفى أو طبيعتى تسمح لى بأن أقيم علاقات عابرة.

ولم تتزوجنى ليلى أيضا عن حب، فقد كانت تعتبر الزواج تخلصا لها من سطوة أبيها وقسوته وكانت انسانة تميل إلى التحرر وترفض القيود. بل لقد قالت هذا المعنى لإحدى صديقاتها الصحفيات فى روز اليوسف. وقالته بحضورى لكننا حاولنا أن يكون زواجا ناجحا وكنت جادا فى ذلك. وأخذت تتكون عندى العاطفة نحو زوجتى بعد الزواج.

وكانت ظروفنا المعيشية صعبة. فلم أكن أستطيع العمل. وكنت أحصل من أخى أحمد على ٣٠ جنيها شهريا وكانت زوجتى تعمل مدرسة بمرتب ضئيل وكنت اعتبر فى الحزب محترفا ثوريا، لكننى لم أكن أحصل على مرتب حزبى على اعتبار أن أخى كان يساعدنا، بل وكنت أقدم المساعدات والتبرعات للحزب إذا توافرت لى أى مبالغ.

كان سكننا فى مصر الجديدة بعيدا عن مكان عمل ليلى. ووجدنا شقة فى شارع إسماعيل اباظة بوسط البلد وقريبا من العمل. وكان العقد باسم ليلى بسبب ظروفى. وبعد سكننا الجديد بقليل قامت حملة يناير ١٩٥٩ ضد الشيوعية. واعتقل عدد كبير من الشيوعيين. وصدر أمر باعتقالى ولكن مكانى لم يكن معروفا.

اتفقت مع ليلى أن تسكن مع عائلتها فى الحلمية وذلك حتى لا يتوصل البوليس إلى مكانى بتعقبها. وعشت بمفردى بالشقة وكانت ليلى تزورنى فى مواعيد متباعدة.

وكنت لا أخرج من المنزل إلا للضرورة القصوى أو للقاءات حزبية قليلة. وكان فاروق ثابت يزورنى من وقت لآخر للمساعدة هذه الاتصالات. لم يبق من القياديين فى الخارج غيرى وغير كمال عبد الحليم الذى كنت ألتقى معه من وقت الآخر وبإجراءات أمن مشددة. انقطع كمال كليا تقريبا عن جسم الحزب. وواصلت الاتصالات لربط البقية الباقية. وإذا كانت حملة الاعتقالات فى يناير قد شملت كادر الصف الأول فقد شملت حملة مارس ١٩٥٩ دائرة أوسع بما فى ذلك بعض العناصر اليسارية غير المرتبطة تنظيميا بالحركة الشيوعية مثل لويس عوض الذى كان وكيلا لوزارة الثقافة وعبد الرازق حسن وحسن فؤاد وغيرهم. اعتقل فاروق ثابت فى حملة مارس. وأصبح العمل أكثر صعوبة.

وفى ١٢ مايو ١٩٥٩ كنت أسير مع محمد على الخياط على كورنيش النيل عندما شعرت فجأة بأذرع تقبض على كتفى من الخلف وقبضوا علينا وأخذونا إلى وزارة الداخلية وعرضونى على حسن طلعت، وعندما رآنى تناول سماعة التليفون وتحدث مع شخص آخر لم أعرف من هو. قال: «مسكنا محمد يوسف الجندى» ثم رد: «الله يبارك فيك».

وأخذونى إلى سجن القلعة، وحبست حبسا انفراديا. وأخذت فى اليوم التالى إلى النيابة وبدأ صلاح نصار يحقق معى. وكان وجهه معروفا لى. وحاول أن يبدو ودودا، ولكنه كان من أسوأ المحققين فى أسلوبه فى التحقيق وفى الأسئلة التى قام بتوجيهها والتى لم تكن تتسم بالموضوعية. وبعد الإفراج عنى التقيت بأحد الأشخاص فى الاسكندرية الذى ذكرنى بأنه كان فى إحدى مجموعات التنظيم فى كلية الحقوق وأنه كان معنا صلاح نصار.

حاول صلاح نصار أن يقول على لسان زوجتى أقوالا غير صحيحة، ويحاول ايهامى بأنها قالت اعترافات ضدى ثم عرفت أنها اعتقلت وواجهونى بها وتأكدت بعد ذلك من كذبه ومن استخدامه لأسلوب رخيص فى التحقيق معى. وعرفت بعد ذلك أن زوجتى حجزت يوما كاملا فى القسم وأنهم اعتقلوها من بيت والدها الذى كانت تقيم فيه واقتادوها إلى منزلنا فى شارع اسماعيل اباظة. وقالت لى أن رجال المباحث والمخبرين احتلوا المنزل بعض الوقت وانها اكتشفت بعد ذلك سرقة إسورة ذهبية كانت هى الشبكة التى كنت قدمتها لها عند الزواج.

أفرج عن زوجتى بعد ذلك. ولكنى تألمت جدا لاعتقالها وتلقيت منها بعد ذلك خطابا عن طريق أحد الحراس أرضانى بعض الشيء. التقيت بباقى زملائى المعتقلين فى سجن القلعة. كانت مجموعتنا (مجموعة حدتو) تؤيد جمال عبد الناصر وكنا نختلف مع المجموعة الأخرى التى كانت تسمى نفسها مجموعة الحزب الشيوعى المصرى وكنا نرفض ذلك إذ كنا نعتبر أنفسنا الحزب الشيوعى المصرى ولتمييز أنفسنا كنا نكتب بين قوسين (حدتو). وكنا نسميهم «التكتل» ويسموننا «الانقسام» وعرفنا باسم «المؤيدين» وعرفوا باسم «المعارضين». وكنا نختلف معهم فى الموقف من جمال عبد الناصر فبينما كانوا يعارضون الوحدة المصرية السورية ويعارضون الاتحاد القومى ويعتبرونه حزب البورجوازية ويبرزون الخلافات بالنسبة للقضايا الاجتماعية فقط. وكنا نرى أن ظروف المعركة الوطنية ضد الاستعمار تفرض التركيز على قضايا الوحدة والاتفاق أما الخلافات الأخرى فلا يجب إبرازها. أما بالنسبة لقضية الوحدة العربية فكنا نرى أن محاولة إشعال التناقضات بين مصر والعراق وبين ناصر وقاسم إنما هى لعبة الاستعمار التى وقع فيها الحزب الشيوعى العراقى والحزب الشيوعى السورى وبدلا من اثارة التناقض بين ناصر وقاسم كنا نرى أن ناصر وقاسم يجب أن يقفا فى جبهة واحدة ضد الاستعمار.

وكانت بياناتنا سواء قبل اعتقالات يناير أو بعدها من خارج السجن أو من داخله هى فى

هذا الاطار.

ومن داخل السجن كتبنا رسائل بهـذا المعنى إلى جمال عبد الناصر وإلى عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وكذلك إلى الصحف والصحفيين. ورغم الاعتقال لم نتخل عن موقفنا المبدئى.

مكثت فى السجن والاعتقال خمس سنوات انتقلت خلالها إلى العديد من السجون بدءا من سجن القلعة إلى سجن مصر وسجن الإسكندرية ثم سجن أبو زعبل والقناطر ثم الواحات الخارجة أخيرا حيث أمضيت أغلب مدة السجن.

وفى عام ١٩٦٠ صدر قرار بتأميم بنك مصر والبنك الأهلى وبدأ جمال عبد الناصر يتحدث عن «الاشتراكية الديمقراطية التعاونية» وخفت ثم توقفت الحملة الضارية ضد الشيوعية والشيوعيين فى أجهزة الاعلام الرسمية. وتوقف السجال مع قادة الاتحاد السوفيتى وأخذت تتأزم العلاقات مع أمريكا وكنا فى سجننا نتابع ذلك كله، ونعتبره تأكيدا لموقفنا من عبد الناصر وسياسته الوطنية والاجتماعية. وفى حديث لعبد الناصر مع محمد حسنين هيكل فى أواخر ١٩٥٩ تحدث فيه عن المحاولات المتعددة لدفع الرأسمالية المصرية وتشجيعها على المساهمة فى عملية الإنتاج دون نجاح. وأن الرأسماليين يركزون على العمليات السريعة التى تأتى بربح سريع مثل المقاولات والبناء الخ.

وصلنا هذا الحديث وكنا فى سجن القلعة وكان هذا مؤشرا جديدا على التوجه الاجتماعى لسياسة عبد الناصر. وكان دليلا جديدا دفعنا إلى تأكيد سلامة خطنا السياسى فى تأييده رغم معارضتنا لسياسة معاداة الشيوعية التى كنا نرى أنها لاتخدم إلا المصالح الاستعمارية والرجعية فى تقسيم القوى الوطنية وإضعافها. وكنا نرسل من داخل المعتقل رسائل بهذا المعنى إلى جمال عبد الناصر وإلى الصحفيين البارزين التى كنا ننجح فى تسريبها إلى خارج المعتقل.

سجن مصر:

نقلت من القلعة إلى سجن مصر وقد التقيت هناك بابن عمى الدكتور ممدوح الجندى الذى اعتقل فى شهر مارس مع عدد أكبر ممن اعتقلوا فى أول يناير فيما عرف باسم «حملة مارس» ضد الشيوعية.

وكان الدكتور ممدوح الجندى يقوم بعلاج زملائه المعتقلين. وكنا نلجأ إليه دائما. وكان حريصـا على تقديـم المساعـدة فى أى وقت.

كان باقى المعتقلين الذين اعتقلوا موجودين فى الواحات الخارجة وبدأت هناك أول تجربة للتعذيب والأعمال الشاقة الإجبارية.

وصدرت تعليمات بمعاملة خاصة للمعتقلين (وهى أن يلبسوا ملابس السجن الخاصة بمن هم تحت التحقيق) وحرموا من حق شراء أحذية أو ملابس داخلية بل فرض عليهم أن يسيروا حفاة وكان قرارا لا معنى له إلا فرض التعذيب المنظم رغم أنف كل القوانين.

سجن الحضرة (الاسكندرية)

أصدرت النيابة قرار اتهام فى قضيتين عرفت الأولى باسم قضية الحزب الشيوعى المصرى وكانت تضم ٦٤ متهما من أبرزهم د. فؤاد مرسى و د. اسماعيل صبرى عبد الله وأبو سيف يوسف ومحمود أمين العالم. أما القضية الثانية فكانت تعرف باسم قضية «حدتو» وكان المتهم الأول فيها شهدى عطية الشافعى وكنت المتهم السادس فى هذه القضية. وكان من بين المتهمين مبارك عبده فضل وابراهيم عبد الحليم وكمال عبد الحليم (وكان هاربا لم يقبض عليه) ومصطفى بهيج نصار وعادل حسين وغيرهم.

وفى البداية نقل المتهمون فى قضية «الحزب الشيوعى المصرى» إلى الاسكندرية استعداد للمحاكمة أمام المجلس العسكرى الذى شكل خصيصا لذلك برئاسة اللواء هلال عبد الله هلال.

وفى إحدى الزيارات التى قام بها اخوتى لى فى سجن مصر سألونى عن المحامى الذى أختاره للدفاع عنى. اقترحت جمال العطيفى وعندما نقلوا اليه هذه الرغبة أبدى اهتماما كبيرا وبذل جهدا مكثفا. وكان دفاعه أمام المحكمة رائعا. ورفض أن يحصل منى على أى اتعاب رغم تحمله كل المصاريف بما فيها مصاريف السفر. وكان ذلك تأكيدا منه على علاقات الصداقة القديمة والمشاركة فى الفكر والتوجه السياسى الذى بدأناه معا فى فترات الشباب الأولى. وقد افترقت بنا الطرق بعد ذلك واختلفت الاهتمامات وشق له طريقا آخر، وتدرج فى الوظائف فعمل فى النيابة، بما فى ذلك نيابة الصحافة قبل الثورة وحقق مع الشيوعيين ثم اشتغل بعد ذلك بالمحاماة وارتبط بالحزب الحاكم وأصبح وزيرا فى عهد السادات. وأصبح من المتحدثين باسم الحزب الحاكم والسلطة رغم أنه كانت له بعض الملاحظات الانتقادية فى مجلس الشعب عندما هاجم «القوانين سيئة السمعة». وفى عهد عبد الناصر عمل مستشارا قانونيا لجريدة الأهرام وحاول مساعدتى بعد انتهاء فترة اعتقالي عام ١٩٦٤ وسعى لدى محمد حسنين هيكل كى أعين فى الأهرام. ولكن هيكل تجاهل كل هذه المحاولات رغم صداقته القديمة مع أخى أحمد. والحقيقة أن هيكل رغم تعاطفه مع المجموعة الأخرى التى كانت تسمى بمجموعة

«الحزب الشيوعى المصرى» والتى ساعد أعضاءها كثيرا بعد الخروج من السجن. إلا أنه كان يحجم دائما عن التعاون مع مجموعتنا «حدتو». وكان جمال العطيفى بعد خروجى من السجن عام ١٩٦٤ يقول لى عن نفسه «أنه اختار الطريق السهل أما أنا فقد اخترت الطريق الصعب». وكان الحكم فى هذا الوقت يتحدث عن الاشتراكية وكان كل المسئولين والصحافة والعناصر البارزة تدافع عن الاشتراكية للتقرب من الحكام.

نقلنا إلى سجن الاسكندرية فى أوائل عام ١٩٦٠. وفى هذه الفترة وصلتنا أنباء عن تأميم بنك مصر والبنك الأهلى. وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الحديث عن «الاشتراكية الديمقراطية التعاونية» وكانت هذه التطورات تتسق مع مسار تفكيرنا قبل اعتقالنا وبعده وتقييمنا لدور جمال عبد الناصر الايجابى. وأضيف إلى تقييمنا له كرجل وطنى معاد للامبريالية والاستعمار عنصر جديد هو موقفه الاجتماعى وبدأنا نناقش وجود «مجموعة اشتراكية» بقيادة عبد الناصر فى السلطة. وكنا نرى أن لهذه المجموعة توجهات اشتراكية، ولكننا ميزنا اشتراكيتها عن اشتراكيتنا بأنها اشتراكية غير علمية.

وكان عبد الناصر أيضا حريصا على تمييز اشتراكيته عن الماركسية اللينينية. وكان يؤكد هذه الفروق فى «الموقف من تأميم الأرض والموقف من الدين والقومية». لم يكن كل مايذكره فى هذا الخصوص دقيقا فمثلا لم يناد الشيوعيون بتأميم الأرض ولم يكن لهم موقف ضد الدين ولم يكن حديثه عن موقفهم من القومية دقيقا.

ومع ذلك فقد أكدنا من ناحيتنا أيضا أن اشتراكيته ليست علمية، ولكن رأينا هذه المجموعة تتجه رويدا رويدا نحو الماركسية اللينينية. ودعونا إلى عقد كونفرنس ضم الكادر الأساسي فى حدتو. نوقش فيه موضوع وجود مجموعة اشتراكية فى السلطة وواجباتنا حيال ذلك، استمر هذا الكونفرنس لمدة تسعة شهور. استمرت المناقشات فى سجن الاسكندرية ثم فى أوردى أبو زعبل وانتهى الكونفرنس فى سجن القناطر الذى انتقلنا إليه بعد أبو زعبل.

واتخذ القرار بأغلبية كبيرة ولم يعترض عليه إلا ثلاثة هم محمد عباس فهمى وطاهر البدرى وعبد الحميد السحرتى.

ولا يتوفر لدى النص الحرفى للقرار الذى اتخذ، ولكننى أستطيع أن أحدد خطوطه الرئيسية.

أولا - أن التغيرات الدولية والتقدم والانتصارات التى تحرزها الاشتراكية فى العالم وبالذات مجموعة الدول الاشتراكية كان لها تأثيرها فى صعود الافكار والتوجهات الاشتراكية وبالذات فى البلدان التى حصلت على استقلالها بما فيها مصر.

ثانيا - أن النضال ضد الامبريالية والاستعمار فى العالم والتوجه الوطنى لقيادة ثورة يوليو

يدفع قيادتها لاتخاذ مواقف راديكالية فى سعيها للبحث عن طريق مستقل للتنمية ودعم الاستقلال الوطنى والتطلع إلى الطريق الاشتراكى متأثرة بنجاحات الاشتراكية فى العالم.

ثالثا - أن هذه المجموعة الراديكالية تخلط أفكارها الاشتراكية ببعض التوجهات القومية وغيرها ولهذا فقد اختارت نوعا من الاشتراكية ليست هى الاشتراكية العلمية.

رابعا - ما هو موقفنا من هذا التوجه الاشتراكى غير العلمى؟ يجب أن يكون موقفا إيجابيا لأن هذه المجموعة تنطلق فى هذا التوجه من منطلقات اجتماعية تتفق مع مصالح الغالبية الكادحة.

خامسا - رأينا أن الظروف الداخلية (المعركة ضد الاستعمار وأعوانه من أجل التنمية والاستقلال) والظروف الخارجية التى تتحدد فى الصراع بين المعسكرين ووقوف المعسكر الاشتراكى إلى جانب بلادنا فى معركتها ضد الاستعمار، تدفع هذه المجموعة الراديكالية (الاشتراكية) إلى الاقتراب أكثر فأكثر من الاشتراكية العلمية.

سادسا - انطلاقا مما سبق حددنا واجباتنا فى السعى نحو تحقيق وحدة العمل مع المجموعة الاشتراكية «فى النضال من أجل التحرر الوطنى والاجتماعى».

عندما أعلنا قرارات المؤتمر قوبلنا بهجوم شديد من المجموعة الأخرى التى كانت تسمى نفسها «الحزب الشيوعى المصرى» وكنا نسميها «بالتكتل». وكانت هذه المجموعة تنقسم إلى عدة أقسام. القسم الأكبر منها كان يتهم عبد الناصر بالخيانة وبأنه عميل للاستعمار الأمريكى و ممثل لرأسمالية الدولة الاحتكارية.

وكانت هناك اتجاهات أخرى بين هذه المجموعة ولكن لم تؤيد أى مجموعة منهم فى هذه الفترة موقفنا من «المجموعة الاشتراكية».

واتهمنا بالخيانة واليمينية والذيلية والعمالة للسلطة وكل أنواع الاتهامات المنتشرة فى تاريخ الحزكة الشيوعية المصرية.

ولكن الشيء المميز أن كل هذه المناقشات دارت فى ظروف غريبة فقد بدأت فى سجن الاسكندرية، وكنا قد تعرضنا فى السجن إلى تجريدة قام بها مأمور السجن «الحلوانى» ضدنا. فقد فوجئنا فى صباح أحد الأيام بالسجانين يحملون الشوم ويقتحمون كل زنزانة بالدور وينهالون علينا بالضرب المبرح. وقد أصيب البعض فى رأسه وفى جسمه مثل زميل لنا من الزقازيق كان قد تعدى الستين من عمره.

والغريب أننا ذهبنا إلى المحاكمة. وقد كانت الإصابات واضحة على الكثيرين منا. واشتكينا إلى هيئة المحكمة (المجلس العسكرى) الذى لم يحرك ساكنا.

وكانت الحجة عند مأمور السجن وأسمه الحلوانى فى القيام بهذه التجريدة هو شجار بين

أحد الزملاء المسجونين «حمدى مرسى» وضابط السجن.

والغريب أيضا أن الحلوانى قد ذهب معنا إلى أوردى أبو زعبل وشاهد باستمتاع عملية تعذيبنا عند استقبالنا الذى سيأتى ذكره فيما بعد.

رغم التعذيب والمعاملة السيئة واصلنا النقاش. ولم نستطع أن نغفل التحولات الايجابية التى تجرى فى الخارج، ولم تستطع ظروف السجن والمعاملة السيئة أن تؤثر على النظرة الموضوعية للأمور. وكنا نشعر أن هناك محاولات من أقسام وجهات فى السلطة لإفساد علاقاتنا مع جمال عبد الناصر وللمزيد من تدهور تلك العلاقات.

وكنا نرى أن السلطة ليست شيئا واحدا متجانسا. وأن جمال عبد الناصر رغم أنه كان على رأس السلطة، إلا أنه لم يكن يمثل كل السلطة. وأنه رغم كونه يمثل الجناح الراديكالى والمتقدم، إلا أنه بصفته الرئيس كان يمثل عنصر توازن بين الأجنحة المختلفة التى كانت تتكون منها السلطة وكنا نشعر سواء قبل اعتقالنا أو بعده أن هناك قوى فى الاتحاد القومى وفى السلطة تجتهد لتحقيق تأزم في العلاقات بين عبد الناصر والشيوعيين المصريين والعرب. وكنا نرى أن أخطاء بعض الشيوعيين المصريين والعرب تلعب دورها وتسهم أيضا فى تحقيق هذا التأزم.

وبدأت المحاكمة. وكانت شهادة حسن المصيلحى رئيس المباحث العامة تقوم على أن المؤيدين من الشيوعيين أخطر من المعارضين، وأننا فى نهاية الأمر نهدف إلى قلب نظام الحكم لإقامة نظام شيوعى وأن التأييد هو مجرد تاكتيك للوصول إلى هذا الهدف.

ورتبنا الدفاع. وأوكلنا إلى شهدى القيام بالدفاع الرئيسى. ولم ينف الشيوعية بل دافع عنها، وقال أنه رغم كوننا شيوعيين بل ولاننا شيوعيون فإننا نؤيد عبد الناصر وبرنامجه الوطنى والاجتماعى. وشرح مواقف الشيوعيين الطويلة فى مختلف المراحل ومختلف المجالات.

وتحدث ابراهيم عبد الحليم عن دار الفكر والدور الثقافى الوطنى الذى قامت به. وتحدثت عن نضالى الوطنى منذ أيام الملكية وكيف أن النظام الملكى فى ذلك الوقت كان يتهم الوطنيين بالشيوعية وتحدثت عن حملة صدقى فى ١١ يوليو ١٩٤٦ وذكرت أسماء الكثيرين من العناصر الوطنية التى اعتقلت باسم الشيوعية مثل محمد مندور وزكى نجيب محمود وغيرهما، وتحدثت عن مصير من كانوا يحاكموننا ويحققون معنا فى ذلك الوقت مثل حسين طنطاوى ومحمد كامل القاويش. وفى رد «سمير ناجى» ممثل النيابة على فقد دافع عن هؤلاء وقال أنهم لم يأكلوا على مائدة الأجنبى كما فعلت على حد زعمه. وكان المصيلحى فى شهادته قد أشار إلى أننى بعد هربى من السجن ذهبت إلى المجر وعشت فيها فترة، ودافع عنى جمال العطيفى وكان دفاعه جيدا بشهادة جميع زملائى.

وقد اختلف دفاعنا عن دفاع المجموعة الأخرى «الحزب الشيوعى المصرى» فى أنه لم يعترف أحد منا بعضوية الحزب الشيوعى، فقد حرصنا على ألا نقدم للمحكمة الحجة القانونية لإدانتنا، ولكننا دافعنا عن شيوعيتنا وعن مبادئنا وأفكارنا.

تركت المحكمة لنا حرية الكلام والدفاع عن أنفسنا واستمرت المحاكمة عدة أيام. وكانت الأحكام جاهزة. وهى لم تصدر فورا ولكنها أعلنت لنا فى السجن بعد عدة أسابيع. وكنا وقتها قد نقلنا إلى سجن القناطر بعد مذبحة أوردى أبو زعبل وكانت أقسى الأحكام على شهدى عطية وابراهيم عبد الحليم بالأشغال الشاقة عشر سنوات وصدرت الأحكام على كثير من زملائنا فى القضية بالأشغال الشاقة أو السجن عدة سنوات.

أما أنا فقد صدر الحكم ببراءتى من التهمة. وقد تساوى الأمر بين من صدرت ضدهم أحكام وبين من صدر الحكم ببراءتهم. فقد تحول الجميع إلى معتقلين وخرجوا فى نفس الوقت تقريبا فالمعتقلون أفرج عنهم فى ابريل ١٩٦٤ أما المحكوم عليهم فقد تم الإفراج عنهم فى مايو.

وكانت معاملة المحكوم عليهم فى السجن أفضل من المعتقلين فكانوا على عكس المعتقلين يسمح لهم بالزيارات وتطبق عليهم لائحة السجن. ولهذا قدمت فى السجن طلبا بتطبيق الحكم الصادر على عام ١٩٤٩ حتى أستفيد من تطبيق لائحة السجن على فلم يردوا على طلبى. وظهر بعد ذلك أن ملف القضية قد ضاع.

أوردى أبو زعبل:

فى إحدى ليالى يونيو ١٩٦٠ نودى علينا ليلا للترحيل من سجن الاسكندرية. ولم يقولوا لنا أين سنرحل. وشحنونا فى سيارتين لورى وسارت بنا السيارات وفى الطريق عندما اقتربنا من القاهرة فهمنا أننا سننقل إلى «أوردى أبو زعبل». وكانت تصلنا بعض الأخبار غير المؤكدة عن عمليات التعذيب التى تجرى هناك للمعتقلين الشيوعيين.

وصلنا إلى أبو زعبل ورأينا حشدا من الضباط والعساكر. أمرنا الضباط بالنزول من السيارات والجلوس «مقرفصين» على الأرض. وكان الضباط يحملون عصيانا من الجريد وكانوا يقرنون أوامرهم بشتائم بذيئة وبالضرب بالجريد على أى مكان من أجسادنا.

وكان الضرب مؤلما والجلسة كانت متعبة. ولم أكن أحسن الجلوس بهذه الطريقة. عرفنا بعد ذلك أن الضابط الذى يقود هذه الحملة يدعى «يونس مرعى» وكان يقوم بالضرب بنفسه يعاونه ضباط وعساكر آخرون.

وعندما كان يونس مرعى يلحظ أى حركة أو تململ من أى من زملائنا كان ينهال

عليه بالضرب. وأعجبته «صلعة» ابراهيم عبد الحليم فكان ينهال عليها بالضرب. وكنت أحاول ألا أتحرك ومع ذلك فقد اقترب منى يونس مرعى وقال «كويس ياوله» وانهال علي بالضرب. وفى أثناء جلوسنا يسأل يونس مرعى: أين شهدى عطية؟ فرد شهدى معرفا بنفسه، فانهالوا عليه بالضرب.

وفى بداية جلوسنا طلب منا مبارك عبده فضل بألانصرخ أو نعبر عن ألمنا.

وكنا ٤٨ وفى بداية جلوسنا نودى على أربعة هم صنع الله ابراهيم وابراهيم المانسترلى وعبد الحميد السحرتى وسعد بهجت. ويبدو أنه كانت هناك توصية عليهم وأوقفوا فى مكان يرقبون فيه كل عمليات الضرب والتعذيب. وقالوا لنا بعد ذلك أن هذه العملية كانت لاتقل إيلاما.

ظللنا بهذه الطريقة حوالى ساعة أو أكثر، ثم طلبوا على التوالى من كل أربعة أشخاص أن يحملوا حاجياتهم ويذهبوا جريا إلى ميدان يبعد حوالى كيلومتر أو أكثر عن هذا المكان بين صفين من الجنود بعضهم مترجلون وبعضهم على الخيل. وقال يونس مرعى اللى يجرى أسرع لن يضرب ولكن لم يسلم أحد من الضرب. جاء دورى مع ثلاثة آخرين من زملائى. وجريت وكنت ألبس «بنصا» فخرجت «فردة» من رجلى ولم أستطع العودة لأخذها ووصلت إلى الميدان الذى كانت به منصة يجلس عليها «اللواء همت» المعروف عنه فى مصلحة السجون تنظيم عمليات التعذيب وجلس إلى جانبه «الحلوانى» مأمور سجن الحضرة بالاسكندرية وغيره من ضباط السجون وضباط مباحث أمن الدولة ولم أكن أستطيع تبين الوجوه من شدة الضرب وفى الميدان الذى كان يحتشد بالجنود والضباط كان هناك كاتب يسجل الأسماء وحلاق. وكانت عملية التسجيل وحلاقة الرأس تتم مع الضرب الشديد على كل أجزاء الجسم التى كانت تصحبها الأوامر بأن نخلع كل ملابسنا ونصبح عارين كما ولدتنا أمهاتنا. ثم يسلم كل منا بورشا وبطانية ونؤمر بأن نستلقى على ظهرنا ونضع كل هذه الأشياء (البورش والبطانية) على بطننا ونسحل إلى داخل السجن وعند بوابة السجن يستقبلنا أحد الضباط بالضرب المميت ثم تستكمل المسيرة بهذه الطريقة.

وعند باب العنبر يستقبلنا أحد الصولات اسمه «مطاوع» وينهال على كل منا بالضرب ويقول «قول أنا مرة» «قول أنا مش شيوعى» ثم يطلب منا أن نقف ووجهنا إلى الحائط وبقينا كذلك فترة وكلنا مصاب بجروح مختلفة. ثم أغلق العنبر ولاحظنا غياب خمسة من زملائنا هم شهدى عطية ومبارك عبده فضل ومحمد عباس فهمي وجمال غالى ونور الدين سليمان». ونظرنا إلى بعضنا البعض. ورأيت ابراهيم عبد الحليم ورأسه يعلوه ما يشبه الأهرامات من أثر الضرب وبدأنا نتحادث وضحكنا على منظر رأس ابراهيم وبدأ يضحك معنا.

وكان يجلس جانبى بهيج نصار وكان معنا عادل حسين فى نفس العنبر.

بعد التمام فى المغرب سمعنا نداءات من العنبر المجاور. وبدأنا نسمع أخبارا غير مؤكدة عن طريقة تعذيب زميلنا شهدى عطية وكيف أنه استقبل استقبالا خاصا وكان يضرب ويرمى فى الترعة ثم يعاد ضربه من جديد. وأنهم يشكون فى أنه قتل.

ثم حكوا لنا عن بعض عمليات التعذيب التى يلاقونها. وأنهم يوميا يبدأون اليوم «باللف للتفتيش» وكانت كما يلى: عليهم أن يفكوا سراويلهم ويدورون حول أنفسهم كما يؤمرون ويلتف حولهم السجان بالضرب. ثم يخرجون للرياضة وهى فى الحقيقة تعذيب وليست رياضة فيؤمرون. مثلا بتمرين الضغط لمدة مائة مرة ومن يتوقف يضرب ثم يصعدون إلى الجبل لتكسير الزلط وعلى كل معتقل أن يكسر معدلا مطلوبا يملأ به غلقه. وإن قصر فى ذلك يعاقب بالضرب و «المد» على قدميه.

لم يكن يسمح للمعتقلين بشراء أى شيء من الكانتين ولا يسمح لهم إلا بغذاء السجن والسجائر ممنوعة والطرود الخارجية ممنوعة وكذلك أى نوع من الاتصال بالخارج مثل الصحف أو الاذاعة أو الزيارات.

استمر هذا الوضع لمدة سبعة شهور كان من بين المعتقلين شخصيات مثل الدكتور لويس عوض و د. اسماعيل صبرى عبد الله و د. فؤاد مرسى و د. عبد الرازق حسن والفنان حسن فؤاد ومحمود أمين العالم وغيرهم.

ويذكر أن الضابط يونس مرعى سأل مرة الدكتور لويس عوض بعد أن لاحظ أنه يبدو مثقفا «كنت بتعمل إيه بره ياوله» فأجاب: وكيل وزارة الثقافة فكان تعليق يونس مرعى «عبارة بذيئة» وأمره بمسح العنبر.

وعوقب د. اسماعيل صبرى مرة بالمد على قدميه. وروايات كثيرة. وقتل من التعذيب الدكتور فريد حداد عند استقبال مجموعته.

عرفنا بعد ذلك أن أربعة من زملائنا فى العيادة بين الحياة والموت هم «مبارك عبده فضل وجمال غالى ومحمد عباس فهمى ونور الدين سليمان» فقد أصيبوا بصدمة عصبية. وضم الينا بعد ذلك الأربعة الذين لم يعذبوا.

وفى اليوم التالى جاء الطبيب مع الممرض وكان الطبيب متعاونا مع إدارة السجن. وبعد يومين فتحت أبواب العنبر ودخل شخص يسأل: من كان مع شهدى فى السيارة. فهمنا أن ماتردد عن قتله صحيح وانهار بعضنا فى البكاء وأخذنا نكشف عن ظهورنا ورأى السائل مناظر بشعة فوضع يده على وجهه وخرج على الفور. لم أستطع تبين ملامح هذا الشخص إذ أننى فقدت نظارتى أثناء التعذيب. ولكننى بعد الإفراج عنى عرفت أنه أنور وحش زوج أختى وأنه كان رئيس نيابة المنطقة وأنه جاء للتحقيق بتكليف من النائب العام.

وعرفنا بعد ذلك أن جمال عبد الناصر كان فى يوغوسلافيا فى زيارة رسمية حضر فيها مؤتمر الحزب هناك. ووصل إلى هناك خبر مقتل شهدى عطية إلى الحاضرين وكان والد شهدى عطية قد بعث ببرقية بالخبر إلى جمال عبد الناصر فأمر بالتحقيق. هل كان عبد الناصر على علم بكل تفاصيل هذا التعذيب الذى كنا نمر به. كنا نأمل أنه لايعرف. فقد كنا نؤيد سياسته وكنا نؤكد ذلك فى التحقيق بل وأثناء التعذيب. وكان الضباط الذين يقومون بعملية التعذيب يرددون بأن عبد الناصر هو الذى أمر بتعذيبنا. ومع ذلك فسواء كان يعرف أو لا يعرف وإذا فكرنا فى هذا الموضوع الآن فلايمكن اعفاؤه من المسئولية.

وفى اليوم التالى أخذوا يستدعوننا للتحقيق أمام النيابة. فقد تشكل فريق من وكلاء نيابة منطقة أبو زعبل للتحقيق فى واقعة مقتل شهدى عطية وسألونا فردا فردا. وحاول ضباط السجن ويونس مرعى بالتحديد الضغط على الأربعة الذين لم يضربوا بأن يقولوا أنهم لم يضربوا وأنهم لم يشاهدوا عملية التعذيب. ولكنهم شهدوا بما رأوه وذكرنا فى التحقيق عمليات الضرب والتعذيب، وأكدنا فى نفس الوقت موقفنا السياسى وهو تأييدنا لجمال عبد الناصر. وقامت النيابة بعملية عرض لضباط السجن وللصول فقمنا بإخراجهم من الصف.

أما الضابط وإدارة السجن ومعهم أطباء السجن فقد قالوا أنه لم يحدث أى تعذيب وقالوا أننا دخلنا السجن بمظاهرة وهتافات وأننا اعتدينا عليهم وقال الأطباء أن شهدى مات بسبب هبوط فى القلب.

وتفاصيل التحقيق مع عدد كبير من زملائنا مسجلة فى الكتاب الذى ألفه رفعت السعيد وصدر عن دار شهدى باسم «الجريمة». وقف التعذيب فى أوردى أبو زعبل ودفعنا مقابل ذلك ثمنا باهظا هو حياة شهدى. بقينا فى أوردى أبو زعبل أسبوعا ثم نقلنا (مجموعتنا) إلى سجن القناطر الخيرية. وبقى الآخرون فى سجن أبو زعبل وتغيرت المعاملة.

أما فى القناطر فقد واصلنا مناقشات الكونفرس وصيغ قرار «المجموعة الاشتراكية» وصدر بأغلبية كبيرة ومعارضة الثلاثة الذين سبق ذكرهم.

وفى سجن القناطر وفى أحد الأيام استدعينا فردا فردا إلى إدارة السجن وأبلغنا بأحكام المجلس العسكرى، أما أنا فقد أبلغت مع نور سليمان وعدد قليل آخر لا أذكره بالحكم بالبراءة. نقل من صدر ضدهم الحكم بالعقوبة إلى سجن الواحات الخارجة. أما نحن (أصحاب البراءة) فقد نقلنا إلى أوردى أبو زعبل انتظارا للبت فى أمرنا (الاعتقال أو الافراج).

بقينا أياما فى أبو زعبل وكان ذلك فى صيف ١٩٦١ وسمعنا وقتها عن القرارات التى سميت «القرارات الاشتراكية» واعتبرناها تأكيدا لخطنا. وأحدثت هذه القرارات ارتباكا شديدا لدى المجموعة الأخرى. وبدأ عدد منهم يتبنى موقفنا ومنهم محمود أمين العالم ود. عبد العظيم أنيس وغيرهم، وأعلنوا فيما بعد انضمامهم إلينا.

انتظرنا عدة أيام فى «أوردى أبو زعبل» وصدر قرار باعتقالنا ونقلنا إلى «سجن الواحات الخارجة» كمعتقلين. وكانت طريقة النقل هى ربطنا جميعا فى حجلات، وكان الطريق طويلا من أبو زعبل الى الواحات الخارجة.

وكانت المباحث العامة قد بدأت أسلوب اللقاء مع من يصدر حكم ببراءتهم وتطلب منهم «استنكار الشيوعية وكتابة تعهد بعدم الاشتغال بالعمل السياسى» فمن يقبل يفرج عنه ومن يرفض يعتقل. ولكن حتى هذا لم يجرب معنا. فقد صدر قرار اعتقالنا ونفذ الاعتقال دون أن نلتقى بأحد.

الواحات الخارجة:

أمضيت فى الواحات الخارجة ثلاث سنوات كاملة.

وقد التقيت هناك بزملائنا من المسجونين الموجودين منذ الخمسينيات (منذ الأحكام التى صدرت ضدهم بالأشغال الشاقة والسجن فى عامى ٥٣، ٥٤، وكانت هناك أحكام تصل إلى عشر سنوات). التقينا هناك بزملاء أعزاء مثل زكى مراد ومحمد شطا ومحمد خليل قاسم وصلاح حافظ وسيد سليمان الرفاعى و د. شريف حتاتة وعبد الجابر خلاف وحليم طوسون وغيرهم.

مر المعتقلون بسجن الواحات الخارجة بعدة مراحل. وأتكلم فقط عن المعتقلين لأن المسجونين كان لهم نظام خاص، وكانت تطبق عليهم لائحة مصلحة السجون. وكانوا فى البداية فى مكان اسمه المحاريق إلى أن بنى سجن الواحات الخارجة ونقلوا إليه.

رتبت للمعتقلين معاملة خاصة بأوامر من اللواء همت. وبدأت بزيارة منه وعمليات ضرب وتعذيب ثم أمروا جميعا بالعمل فى مزرعة السجن. ويروى عن هذه الفترة التى لم أعاصرها حكايات كثيرة. منها قصص عن الكاتب «محمود السعدنى» الذى اعتقل أيضا بتهمة الشيوعية ولم يكن له أى علاقة بها.. ويحكى أيضا أن بعض المعتقلين فى المزرعة وجدوا نباتا ففرحوا به وبدأوا يأكلونه. وعندما أخبروا د. حمزة البسيونى أحد الأطباء المعتقلين بذلك قال لهم أنه سام. وبدأت عليهم بالفعل أعراض التسمم ولكنهم أنقذوا بعد علاج مكثف.

وبعد ترحيل المعتقلين إلى الواحات الخارجة حاولت مصلحة السجون بتوجيه من المباحث العامة تطبيق نظام شديد، وممارسة عمليات تعذيب فمنعوا من الاتصال بالمسجونين الشيوعيين، الذين كانت إدارة السجن ملزمة بتطبيق لوائح السجون عليهم، أما المعتقلون فقد بدأ نظام القيود وعمليات التعذيب والضرب والإهانة بالنسبة لهم بعد زيارة قام بها اللواء همت. وكان هو المتخصص فى عمليات التعذيب داخل السجون وفرض عليهم العمل الإجبارى داخل المزرعة

كما سبق الحديث.

ولكن بعد ذلك وبالتدريج استطاع الشيوعيون مسجونين ومعتقلين أن يغيروا هذه المعاملة. وخصوصا أن اللواء همت أو المباحث العامة لا يستطيعون البقاء فى الواحات الخارجة إلا فترة قليلة. وكان التصرف بعد ذلك موكولا إلى منير شاش مأمور السجن والذى كان يعرف بالشدة وقد أخذ يمارس هذه الشدة لفترة ولكن حادثة ألمت به بعد ذلك غيرته تماما تجاه مسجونيه ومعتقليه. فقد أصيب ابنه بتسمم وكان عليه أن يلجأ إلى الأطباء الموجودين، الدكتور شريف حتاتة والدكتورحمزة البسيونى وصلاح حافظ الذى كان قد وصل إلى السنة النهائية فى كلية الطب ولكنه لم يكمل الدراسة. واستطاع الأطباء الشيوعيون أن ينقذوا ابنه وشفى تماما. فحمل لهم منير شاش هذا الجميل وتغيرت المعاملة، وأصبح يستجيب للمطالب التى يستطيع أن يتصرف بالنسبة لها.

بدأ جو من الحريات داخل السجن فأبواب الزنازين تفتح من الصباح حتى المغرب. وأصبح الاتصال مكفولا بين المسجونين والمعتقلين.

وفى هذا الجو أمكن خلق حياة جديدة مليئة بالنشاط سواء البدنى أو الفكرى أو الثقافى.

فقسم المسجونون والمعتقلون الشيوعيون بينهم المسئوليات فى العمل لتحسين حياتهم. فأصبح البعض يعمل فى المزرعة تحت إشراف زميلهم العامل الزراعى احمد سليم وبعض زملائهم الآخرين الذين لديهم معرفة بالشئون الزراعية مما كان يساعدهم فى تحسين غذائهم. فكنا نزرع مثلا الملوخية والبامية والجرجير والخيار والبطيخ. وكان لذلك أثر كبير خصوصا أن الغذاء الذى تقدمه إدارة السجن كان يقتصر على العدس والفول. وكان من حق المسجونين أن يحصلوا على بعض المشتريات من الكانتين وكانوا يقتسمونها مع المعتقلين الذين كانوا محرومين من التعامل مع الكانتين. وكانوا محرومين أيضا من الزيارات ولكن أسرهم كانت تحصل على زيارات باسم المسجونين. وأذكر أن زوجتى جاءت لزيارتى عدة مرات باسم محمد عمارة الذى كان مسجونا معنا. وكانت تأتى إليه مع خطيبته. فأعرف منه أخبارها وأخبار ولدى يوسف الذى كان قد بلغ الثانية من عمره وكان يزورنى فى سجن مصر واعتاد أن يرانى من وراء القضبان. مما أثر عليه بعد ذلك. وأصبح بعد ذلك يخطط على الورق رسم القضبان.

وكنت أشتاق كثيرا لرؤية أول ابن لى. ولم تسمح لى ظروف السجن أن أحضر ولادته. فقد ولد فى ٢٣ اكتوبر ١٩٥٩ وقد قبض على فى ١٢ مايو قبل ولادته بخمسة شهور.

وفى الواحات بدأت أمارس الرياضة بانتظام. وقد كنت نحيفا واقترح على زميلنا عبده عباس أن ألتحق بالفرقة الرياضية التى كونها - وكانت هناك فرقة أخرى بقيادة زميلنا سعد الساعى. وكان سعد الساعى إنسانا شديد الطيبة ويحبه الجميع. وقد كان ملاكما حصل على بطولات عدة وكان الزملاء يحبون مداعبته فيداعبهم أيضا ويهددهم بقبضة الملاكم.

لم أتغيب يوما واحدا عن فرقة عبده عباس واعتدت أن أقوم بالتمرينات الرياضية التى مازلت أمارس أغلبها حتى اليوم وإن كنت قد أضفت بعض التمارين الأخرى عرفتها فى بعض المصحات التى ترددت عليها أثناء وجودى بعد ذلك فى الاتحاد السوفيتى، فضلا عن بعض تمارين اليوجا التى تزودت بها من قراءاتى. وقد ساعدتنى الرياضة كثيرا. لا فى أن أتخلى عن النحافة، ولكن ساعدتنى فى التغلب على كثير من المتاعب الصحية التى كنت أشعر بها من قبل، مثل الآلام الروماتيزمية وغيرها.

وبعد التمارين الرياضية كنت أتوجه للعمل فى المزرعة، وأحببت العمل هناك وخصوصا أننى اعتدت بعد العمل أن أرقد فى عين ماء دافئة أغتسل فيها وأستريح.

وبعد العمل أعود للغذاء مع زملائى فى الزنزانة. وكنا نقوم بتحسين غذائنا وإعادة طبخه على «التوتو» وهى أداة عرفت فى السجون ومن اختراع المساجين تستخدم للطبخ واعداد الطعام وهى من الممنوعات ولكن كل أصحاب المدد الطويلة فى السجن يستخدمونها.

وبعد الظهر يبدأ النشاط الفكرى والحزبى والثقافى.

فكنا نعقد الاجتماعات ونقيم الندوات والمناظرات والفصول الدراسية. وكنت أقود فصلا لدراسة اللغة الروسية التحق به عدد من زملائنا الذين بدأت دراستهم اللغة الروسية فى السجن.

وكانت تصلنا الأخبار عن طريق الراديو الترانزستور الذى كان يحوزه زميلنا صلاح حافظ وغيره. وقد أسس عبد الستار الطويلة وكالة أنباء سماها «واس» أي وكالة أنباء سياسية. فعندما تتجمع لديه بعض الأخبار ينادى «واس .. واس» فنجتمع حوله ويذيع علينا الأخبار التى عنده.

وكانت تصلنا الصحف أحيانا. وكل ذلك كان يعتبر من الممنوعات. وكانت الزيارات مناسبات هامة نتلقى منها الأخبار من أسرنا. وكذلك كان أى « «ايراد» جديد من الزملاء أو عودة البعض من المستشفى أو المحاكمة أو خلافه مناسبات هامة للحصول على المعلومات.

ولهذا لم ننقطع عن العالم بل كنا نعرف أخباره أولا بأول واستطعنا تكوين مكتبة جيدة من كتب نجحنا فى تهريبها الى داخل السجن. وكان علينا أن نؤمن كل هذه الأشياء ونخبئها.

وبهذا استطعنا أيضا أن نقرأ ونزيد ثقافتنا.

وكنا نراسل الخارج وكونا لجنة «للحملة من أجل الإفراج عنا» فكنا نرسل الرسائل للصحفيين والمسئولين والكتاب والمثقفين والشخصيات الهامة نبين فيها موقفنا ونطالب بالعمل من أجل الإفراج عنا. وعندما صدر «ميثاق العمل الوطنى» درسناه وكتبنا رأينا فيه وكتبنا تقييمنا له وصاغ صلاح حافظ هذا التقييم وأرسلناه من داخل السجن إلى جمال عبد الناصر. وأبلغنا بعد ذلك أن عبد الناصر اعتبر ما كتبناه أفضل تقييم كتب عن الميثاق.

وكانت هناك جريدتان أسبوعيتان ناطقتان إحداهما اسمها «الجريدة الناطقة» وكان يرأس

تحريرها زميلنا بهيج نصار وكانت تشتمل على مقال أسبوعى يلقيه صلاح حافظ. وكانت هذه الجريدة تصدر عن تنظيمنا «حدتو».

وكانت هناك جريدة أخرى يصدرها التنظيم الآخر. وكان يتحدث فيها أديب ديمترى الذى كان يرأس تحريرها على ما أذكر. وكان يتحدث فيها د. فوزى منصور وغيره. وكانت تتميز بالمواقف المتشددة ضد عبد الناصر واتهامه بالخيانة والعمالة لأمريكا وتمثيل رأسمالية الدولة الاحتكارية الخ.

وكانت مواقف الجريدتين على طرفي نقيض. فالجريدة الناطقة تؤيد جمال عبد الناصر ومواقفه الوطنية والاجتماعية التى كانت تتجه باستمرار يسارا نحو الارتباط أكثر بجماهير العمال والفلاحين.

وكنا فى سجننا نتابع ما يحدث فى العالم وسمعنا عن «جاجارين» أول رائد فضاء سوفيتى ففرحنا فرحا كبيرا، فكنا نعتبر أن أى انتصار يحققه الاتحاد السوفيتى أو أى بلد اشتراكى هو انتصار للاشتراكية فى العالم، وهو انتصار لنا. وقام زميلنا العامل محمد على عامر بنظم أغنية كان يغنيها اسمها «ملك الفضا اسمه جاجارين».

وكانت الحرب الكلامية التى تصاعدت عام ١٩٥٩ بين جمال عبد الناصر وخروشوف قد توقفت. وبدأت العلاقات تتوثق بين مصر والاتحاد السوفيتى الذى قدم مساعدات كبيرة فى بناء السد العالى الذى أصبح رمزا ماديا للصداقة بين البلدين. فكما ساعدنا الاتحاد السوفيتى فى الوقوف ضد العدوان الثلاثى، وضد المحاولات الامبريالية بعد ذلك للانتقاص من الاستقلال المصرى ساعدنا أيضا فى تدعيم استقلالنا الاقتصادى. وكان بناء السد العالى بمساعدة الخبرة السوفيتة والخبراء السوفييت دليلا عمليا على ذلك.

وكنا نتعاطف مع الاتحاد السوفيتى باعتباره سندنا فى النضال من أجل الحفاظ على استقلالنا وتدعيمه فضلا عن أنه أول بلد اشتراكى ونجاحه يعنى نجاح للاشتراكية فى العالم وانتصاراته تعتبر انتصارات لنا ونضالنا.

وكانت تصلنا بعض الكتابات السوفيتية وبعض الصحف الأجنبية وكنا نوليها اهتماما كبيرا. وكان للمقالات التى تساند التطورات التقدمية فى مسيرة عبد الناصر أثر معنوى كبير علينا خصوصا فى نضالنا الفكرى ضد التنظيم الآخر.

كان الإنتاج الفكرى والثقافى فى فترة سجننا كبيرا.

وقد طورنا تفكيرنا السياسى وتحليلاتنا للأوضاع السياسية فى بلادنا. وكانت التطورات السياسية والاجتماعية ومواقف عبد الناصر ومجموعته تزداد تقدما وتزداد اقترابا من افكارنا. فبعد أن كان عبد الناصر يتحدث فى البداية عن الاشتراكية الديمقراطية التعاونية، تحدث فى الميثاق

عن الاشتراكية العلمية. وفى احاديث عبد الناصر المختلفة بدأ يرفض مايقال عن الاشتراكية العربية واكد أن الاشتراكية واحدة ولكن تطبيقاتها مختلفة، لكنه كان يحرص على التمييز بين اشتراكيته وبين الماركسية اللينينية.

ولم نكن نعتبر أن هذه الخلافات حقيقية فلم نكن نطالب أبدا بتأميم الأرض. ولم نر تناقضا بين الدعوة للقومية العربية والمواقف الأممية. وكذلك لم نعتبر أننا الشيوعيين نناضل ضد الدين، بل كنا نرى الدور الايجابى للدين فى النضال من اجل القضايا الوطنية والاجتماعية.

وفى نفس الوقت كنا نرى أن المسيرة العملية لجمال عبد الناصر تتفق مع توجهاتنا ومع هذه المفاهيم.

وتلقفنا بترحاب دعوة جمال عبد الناصر فى احدى خطبه إلى وحدة كل القوى الاشتراكية وكنا نرى أن علينا أن نبذل الجهود لخلق أسس الثقة معه فى الوقت الذى كنا نلحظ الجهود التى تبذلها القوى الرجعية لتوسيع الشقاق والخلاف بيننا، وأنهم قد نجحوا عام ١٩٥٩ فى ذلك وفى التأثير على عبد الناصر ليقوم بحملته الواسعة ضد الشيوعية.

كنا نتألم لسجننا، ولعمليات التعذيب التى مورست ضدنا ، وللشهداء الذين سقطوا. ولكننا كنا نرى أن أمامنا أهدافا أكبر من ذواتنا وآلامنا، وأن علينا أن نبذل الجهد الاكبر فى التغلب على توجهات النظام اليمينية، وأن نساند بكل قوة الدعوة إلى وحدة كل القوى الاشتراكية ضد القوى الرجعية واليمينية.

وبعد قرار المجموعة الاشتراكية أسفرت مناقشاتنا عن الاتفاق على تقرير يقول أننا نمر بفترة انتقالية وذلك فى مواجهة توجهين الأول كان يقول بأننا فى مرحلة بناء رأسمالى (وكان يدافع عنه محمد عباس فهمى وطاهر البدرى) وتوجه آخر كان يقول بأننا فى مرحلة بناء اشتراكى (وكانت وجهة نظر عادل حسين).

وعقدنا المؤتمر الأول للحزب (حدتو) فى الواحات. وأقرت هذه المواقف وأقر أيضا تقرير يدعو إلى بناء تنظيم مشترك مع المجموعة الاشتراكية مع احتفاظ كل منا باستقلاله التنظيمى.

وليس صحيحا مايقال من أننا توصلنا إلى حل التنظيم ونحن فى السجن. وجدت بعض الآراء الفردية بهذا المعنى. ولكنه لم يكن رأينا كحزب ولم يكن رأى غالبية زملائنا.

وإلى جانب النشاط الفكرى والسياسى كان هناك نشاط ثقافى كبير. ولا عجب فقد وجد بين صفوفنا نخبة من أفضل مثقفى مصر مثل حسن فؤاد ود.فؤاد مرسى وفؤاد حداد ود. اسماعيل صبرى وصلاح حافظ وابراهيم عبد الحليم .ود. فوزى منصور ومحمد خليل قاسم وغيرهم ولا نعجب أن يخرج منهم إنتاج ثقافى كبير مثل «الشاطر حسن» لفؤاد حداد ومتولى عبد اللطيف وأعمال فنية لحسن فؤاد و «الشمندورة» لمحمد خليل قاسم

وغيرهم.

وبنى الشيوعيون مسرحا داخل السجن بنوه بأيديهم طوبة طوبة ومثلوا عليه بعض الروائع مثل «عيلة الدوغرى» و«الناس إللى فوق» وبرز فى السجن بعض المواهب فى التمثيل مثل على الشريف.

وظهرت فى السجن موهبة الفنان المطرب محمد حمام الذى كان يشجينا بأغانيه.

وذلك فضلا عن العديد من المؤلفات والتراجم التى نجحنا فى اخراج البعض منها وفقد البعض الآخر.

وقام الشيوعيون ببناء مسجد سماه المسجونون العاديون غير السياسيين مسجد الشيوعيين. وإلى جانب عنبرى الشيوعيين وجدت عنابر المسجونين من الاخوان المسلمين ولكنهم لم يقدموا أى اسهام فى بناء ذلك المسجد.

قام الشيوعيون من عمال ومثقفين بعمليات البناء هذه بأيديهم وقد وضع التصميم المهندسون الشيوعيون المسجونون خصوصا المهندس فوزى حبشى.

كانت فترة سجن واعتقال طويلة (٥ سنوات كاملة) وكان هناك مساجين شيوعيون ينفذون عقوبات بدأت قبل ذلك بست سنوات. ولم يخرجوا إلى النور هذه الفترة كلها.

وكثير منهم كانوا ينهون مدة عقوبتهم ويرحلون إلى المباحث العامة فى القاهرة ويعودون أدراجهم معتقلين لأنهم رفضوا أن يتعهدوا بالامتناع عن العمل السياسى. فيعودون إلى الواحات معتقلين لمدة مجهولة أخرى.

كنا نقاوم السجن بالرياضة والعمل وتحسين غذائنا من المحصولات الزراعية التى نزرعها بأنفسنا. وبالاطلاع والدراسة والندوات والعمل السياسى والفكرى والثقافى والانتاج الثقافى والحرص على الصلة المستمرة بالعالم الخارجى. وكان هذا يتطلب منا عملا وجهدا وفكرا مستمرا لكى لاينجح سجانونا فى عزلنا عن العالم وتحطيمنا جسديا وفكريا.

وكانت مجموعتنا (حدتو) لاتعارض جمال عبد الناصر بل تؤيد توجهاته الوطنية والاجتماعية ولكنها تتمسك بشيوعيتها وانتمائها الفكرى المستقل. وكان عليها فى هذه الظروف ألا تنزلق إلى التخلى عن أفكارها ومبادئها أو تتحول إلى العداء لعبد الناصر وتوجهاته. وكان الحفاظ على هذا الموقف يحتاج عزيمة وجهدا كبيرا لايقدر عليه الا من امتلك ذلك القدر من الوضوح والعزيمة.

وكانت تصلنا أخبار عن المعارك الخارجية ضد قوى الرجعية والاستعمار. عشنا محنة انفصال سوريا. ووقفنا ضد الانفصاليين وساندنا موقف عبد الناصر ضد القوى الرجعية التى تعشش داخل الاتحاد الاشتراكى فى مصر وسوريا. وكتبنا مواقفنا وآراءنا وبعثناها إلى عبد الناصر

وإلى الكتاب والصحفيين.

وفى أواخر عام ١٩٦٣ وصلنا ونحن فى السجن حديث جمال عبد الناصر مع اريك رولو الصحفى الفرنسى فى جريدة الموند والذى وعد فيه جمال عبد الناصر بالافراج عن الشيوعيين قبل نهاية العام. وانتهى العام ولم يفرج عنا. وتبينا أن هناك قوى تريد لنا أن نبقى فى السجن وتقاوم الافراج عنا. ولم نيأس، ولم تتغير مواقفنا، بل استمرت دراستنا وتحليلاتنا وتأكدت ثقتنا فى ضرورة وحدة جميع القوى الاشتراكية بمختلف اتجاهاتها وتحت قيادة جمال عبد الناصر.

وسمعنا ونحن فى السجن عن تكوين تنظيم طليعى داخل الاتحاد الاشتراكى وسمعنا بأن بعض زملائنا عند الافراج عنهم اختيروا لعضوية هذا التنظيم الطليعى.

بدأ الافراج عنا - نحن المعتقلين فى ابريل ١٩٦٤ - أما المسجونون فقد تم الافراج عنهم فى مايو من نفس العام. وقيل إن الإفراج عنا كان مرتبطا بالزيارة التى كان خروشوف ينوى القيام بها إلى مصر. وأعتقد أن قرار الإفراج قد اتخذ قبل ذلك بدليل حديث عبد الناصر مع اريك رولو ووعده بذلك وأنه سيتم قبل نهاية ١٩٦٣. ولكنه لم يتم فى هذا الموعد، وأعتقد أنه اختير موعد زيارة خروشوف لتحقيق هذا الوعد قبله بقليل كجزء من الاعداد لهذه الزيارة.

وكان خروشوف قد تحدث أكثر من مرة فى عام ١٩٥٩ عن المعتقلين الشيوعيين فى مصر وأبدى تعاطفه معهم.

رحلت مع باقي المعتقلين الشيوعيين إلى السجن الحربى في القاهرة. وهكذا كانت تبدأ إجراءات الافراج.

أمضيت هناك ليلة ونودى عليّ وخرجت إلى الحرية لأول مرة بعد خمس سنوات. وللمرة الأولى بعد أكثر من خمسة عشر عاما من السجن والهرب والمنفى ودخول البلاد سرا والعيش متخفيا وهاربا ومطاردا أتوقع القبض عليّ في أى لحظة. أكثر من خمسة عشر عاما لم أعش فيها حياة طبيعية، فأحمل أسماء مختلفة في مصر وفى مختلف البلاد. وحتى فى المجر حيث كنت أعيش حياة طبيعية، فقد كنت أشعر بالغربة الشديدة. ومع ذلك فقد استطعت أن أحصل على شهادة جامعية من المعهد العالى للغات الأجنبية من جامعة بودابست وتعلمت اللغة الروسية وحصلت على دبلوم فى الترجمة منها. وبقيت عليّ مهمة أن أحصل على ليسانس الحقوق الذى لم أنه امتحاناتى فيه منذ عام ١٩٤٧.



هذا الكتاب

ليس قصة حياة شخصية بقدر ما هو عرض لتاريخ حركة وتيار ومواقف ورأي مؤلف هذا الكتاب في هذا كله.

وقيمة هذه المسيرة أنها حول حياة لم تسر في الطريق المألوف، ورغم ارتباطها الكامل بالقضايا والأهداف العامة، إلا أنها تتضمن أيضا بعض الأحداث المثيرة التي تجتذب القارئ لمتابعتها حتى وإن لم يتفق مع الكاتب في الطريق الذي اختاره والآراء التي يبديها.

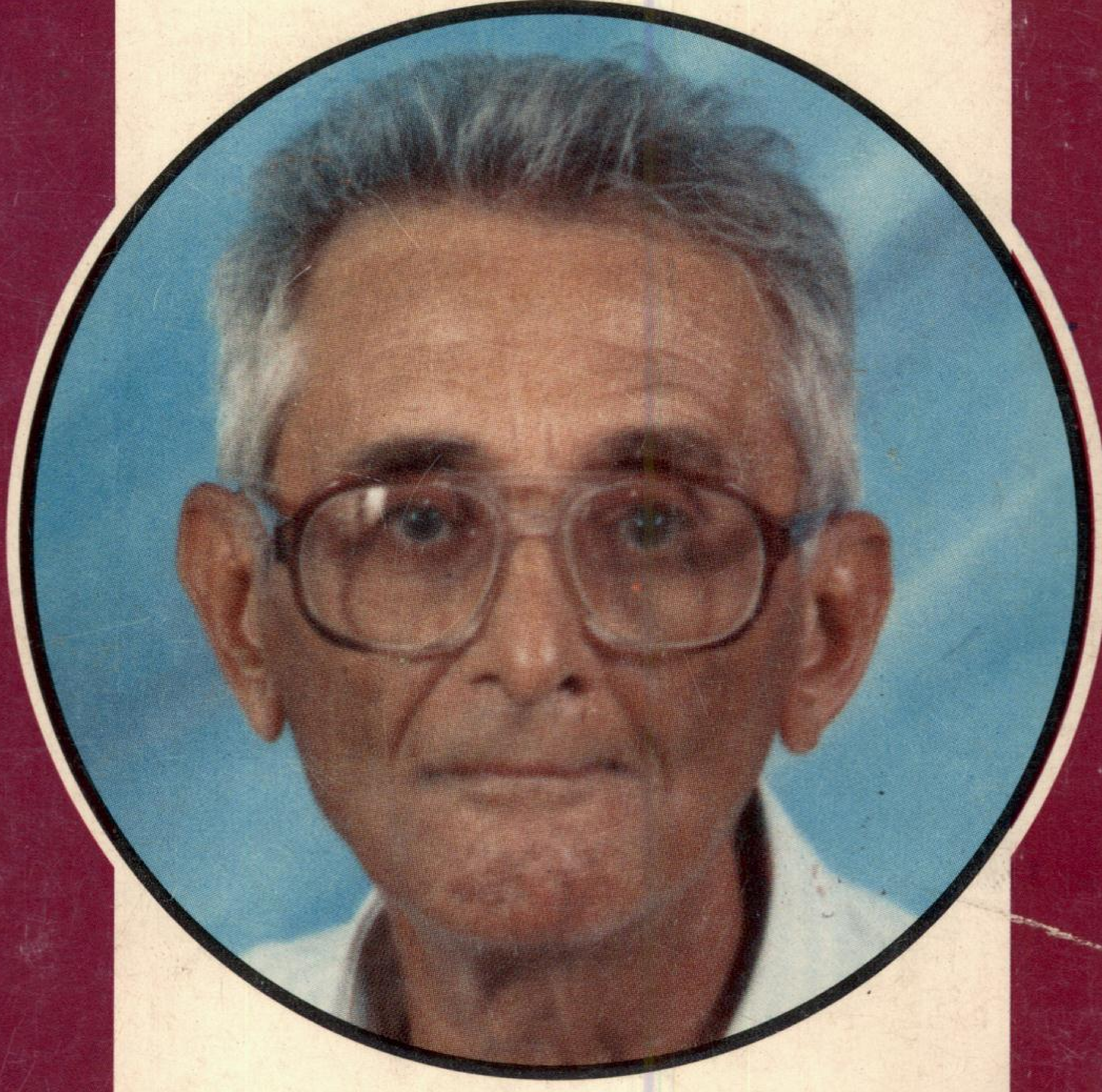
وهي تمثل أيضا حياة امتدت أكثر من سبعين عاما بدأت في ظروف مختلفة عن ظروف اليوم بمعايير تختلف كثيرا عن المعايير السائدة حاليا. وهي تجربة قد يستفيد منها ويهتم بها شباب اليوم قبل غيره ويثير لديه التفكير والتأمل عندما يريد البحث عن طريقه وخياره للمستقبل.

والمؤلف هو صاحب ومدير دار الثقافة الجديدة ومدير دار العالم الثالث للنشر. وهو كاتب وصحفي له عدد من المؤلفات منها:

- « اليسار والحركة الوطنية في مصر ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ ».
- « ٢١ فبراير توجه جديد للحركة الوطنية المصرية ».
- « سقطة ـ رد على التشهير باليسار المصري».
- « ماذا يحدث في العالم الاشتراكي ؟ ».
- « العولمة والأممية »

إلى جانب عدد من الكتب المترجمة.

محمد يوسف الجندى



مسيرة حياتى

الجزء الثانى

دار الثقافة الجديدة

بهاء الدين وكان رئيسا لدار الهلال، وطلبت نشرها في مطبوعات دار الهلال. اشترى الترجمة ودفع لي مبلغا أودعته بالكامل في الدار الجديدة. ولكن الترجمة لم تظهر حتى الآن.

فكرنا في الاتصال بمكاتب الصحافة التابعة لسفارات البلدان الاشتراكية، وفي مقدمتها مكتب الصحافة السوفيتي. قمنا باتصالات بمراسل تانيوج اليوغوسلافية واقترحت على مدير مركز الصحافة السوفيتي وكان اسمه ياكوفليف، القيام بترجمة أساسيات الماركسية اللينينية، فقال أن هذا ليس من تخصصه ولكنه أرشدني للاتصال بمؤسسة مجدونارودنايا كنيجا التي تهتم بهذه المسائل. وقال أنه يمكنه التعاون معنا في توزيع كتب مؤسسة نوفستي وترجمة كتبها. وكانت في الغالب ذات طابع دعائي وإن كانت بينها بعض الكتب الجيدة.

فكرت مع فؤاد عبد الحليم في تأسيس شركة وفكرنا في زميلنا عبد الحميد السحرتي لأنه ميسور. عرضنا عليه الفكرة فتحمس وأبدى استعداده للمساهمة بنفس القدر الذي ساهمت به، أي مائة جنيه، وبذلك تكون مساهمتنا متساوية. ولم يرحب باشتراك فؤاد عبد الحليم معنا لأنه لم يكن يملك مالا يساهم به.

عدلنا السجل التجاري من منشأة فردية إلى شركة تضامن وكتبنا عقدا بيننا وإن لم نسجله كما يقضي القانون. كان ذلك في ٦٤/١١/١ وينتهي العقد في ٦٥/١٠/٣١ والعقد قابل للتجديد برأس مال ٢٠٠ جنيه.

وفي بداية مايو عام ١٩٦٤ استأجرنا المكان الذي مازلنا نعمل به حتى الآن وعنوانه ٣٢ شارع صبري أبو علم. وكان المستأجر الأصلي هو الدكتور/ السيد صبري أستاذ القانون الدستوري، وكان قد توفى، فاستأجرناه من شركائه محمود غانم وإسماعيل جودت واشترينا بالجدك موجودات المكتب بمبلغ ١٠٠٠ جنيه.

ولم يمكنني تدبير هذا المبلغ أو نصفه في ذلك الوقت. فتولى السحرتي الأمر، وقال لي أنه سيقترض هذا المبلغ من أحد أقاربه بفائدة ١٠٪ شهريا. ولحسن الحظ

ـ غيمة في بنطلون ـ مايا كوفسكي. ترجمة رفعت سلام.

ومن الكتب العلمية ترجمنا:

فسيولوچيا التمثيل الغذائي.

وعندما تفاقمت أزمة النظم الاشتراكية أصدرنا لفيدل كاسترو ـ الاشتراكية أو الموت.

وبذلك فإننا حرصنا في اختياراتنا نشر الفكر الاشتراكي العلمى الذي ننتمي إليه، لم تكن الاعتبارات التجارية هي الاعتبارات الغالبة كما كانت تفعل دار التحرير ورغم أن هذه الإصدارات والاتفاقيات التي عقدناها مع المؤسسات الثقافية السوفيتية ساعدتنا على الوقوف والصمود والاستمرار على مدى وجود هذه المؤسسات ووجود الاتحاد السوفيتي. وكنا نستورد الكتب الأدبية والسياسية والعلمية السوفيتية وذلك إلى جانب دار الشرق التي كان يديرها ممدوح أباظة والذي سبقنا إلى التعامل في هذا المجال والذي كانت تحكمه الاعتبارات التجارية وحدها وقد ساعد ذلك على التعريف بالثقافة السوفيتية في مختلف المجالات.

وكان لنا تعامل أقل مع الدول الاشتراكية الأخرى مثل ألمانيا الديمقراطية التي أصدرنا معها عريان بين ذئاب لبرونو أبيتز ترجمة فخري لبيب.

واستوردنا من المجر الكتب العلمية وشرائط الموسيقى الكلاسيكية التي كانت لها سوق جيدة هنا في مصر.

وكانت دار الثقافة الجديدة في هذه الفترة هي دار النشر التقدمية الوحيدة التي أخذت على عاتقها هذه المهمة، ولهذا كان عدد من أبرز المثقفين يلجأون إلينا ويتعاونون معنا مثل نعمان عاشور الذين أصدرنا له «في حب مصر» ونجيب سرور الذي أصدرنا له «منين أجيب ناس» و«هكذا قال جحا» و«ملك الشحاتين» وأحمد فؤاد نجم الذي أصدرنا له «عيون الكلام» ـ وجمال الغيطاني الذي أصدرنا له «وقائع حارة الزعفراني» وفؤا حداد «الشاطر حسن» و«الحمل الفلسطيني» و«الشرط نور» وصنع الله إبراهيم «تلك الرائحة» و«نجمة أغسطس» وعبد الله الطوخي

«فجـر الزمن القادم» وفتحية العسال «بلا أقنعة» ويوسف القعيد «حكايات الزمن الجريح» ود. شريف حتاته «العين ذات الجفن المعدني» وغيرها من الأعمال. ود. نوال السعداوي «قضية المرأة المصرية السياسية والجنسية». ومحمد البساطي «التاجر والنقاش» وإبراهيم عبد المجيد «في الصيف السابع والستين» وإبراهيم عبد الحليم «ابن الإنسان» ومجيد طوبيا «كشك الموسيقى» وغيرهم من كبار الكتاب والمفكرين مثل د. عصمت سيف الدولة ومحمود أمين العالم وفاروق عبد القادر ود. عبد الباسط عبد المعطي وغيرهم وأصدرنا ثلاث طبعات من المعجم الفلسفي للدكتور مراد وهبة. وهو أول معجم فلسفي يصدر في مصر والبلاد العربية.

وهذا العمل الكبير استمر لأكثر من ثلاثين عاما وقد ساعدني في العمل عدد من أفضل الزملاء مثل إبراهيم عبد الحليم وصنع الله إبراهيم وعبده جبير وسمير عبد الباقي وذلك في فترات مختلفة. وكذلك عدد آخر من الزملاء الذين ساندوني بمختلف الوسائل.

والدار التي مازالت تعمل حتى الآن هي من الأعمال التي أفخر بها وأصبح لها الآن وجود راسخ في المجتمع المصري وأصبحت تلقى الاحترام في مختلف البلاد العربية. وقد كرست لهذه الدار الجزء الأكبر من جهدي وعملي وإمكانياتي المادية. ولم تكن في أي وقت من الأوقات عملا تجاريا أتكسب منه بل اعتبرتها عملا ثقافيا تقدميا هاما يجب الحفاظ عليه واستمراره ومحاولة تطويره رغم كل الصعوبات، ورغم الحرب المستمرة وهو ما سأتعرض له فيما بعد.

وفي هذه الفترة اقتضى عملي أن أقوم بعدة سفريات إلى سوريا ولبنان والجزائر وفرنسا والاتحاد السوفيتي والمجر ووقعت اتفاقية مع دار الفارابي في بيروت عندما كان يرأسها فؤاد زحيل واشترى منا بعض كتب الدار واتصلت أيضا بدار الطليعة ودار ابن رشد وغيرها، وكنت عندما أسافر إلى موسكو أشتري تذكرة مخفضة باعتباري صحفيا وكانت الخطوط السورية هي الوحيدة التى تقدم للصحفيين خصما ٥٠٪ في ذلك الوقت. وبهذه الطريقة كنت أزور سوريا ثم أذهب إلى بيروت بالسيارة وأعود ثانية إلى دمشق ومنها أستقل الطائرة إلى موسكو.

---

* انظر للتفصيل ١٨، ١٩ يناير. تأليف حسين عبد الرازق (دار شهدي «توزيع: دار الثقافة الجديدة»).

(١٠)

تأسيس حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

مر إلغاء الاتحاد الاشتراكي وتأسيس الأحزاب بعدة مراحل، إذ تكونت في البداية ثلاثة منابر داخل الاتحاد الاشتراكي: منبر اليسار (التجمع) واليمين (الأحرار) الوسط (حزب مصر) أو حزب الحكومة.

وكانت المنابر كلها تعمل داخل الاتحاد الاشتراكي وفي مقره على كورنيش النيل. وقد تحولت هذه المنابر إلى أحزاب وصدر قانون الأحزاب الذي ينص على ضرورة موافقة لجنة الأحزاب على تأسيسها فضلا عن أن قانون الأحزاب يمنع قيام الأحزاب على أساس ديني أو طبقي. وفسر ذلك على أنه يمنع تحول الإخوان المسلمين إلى حزب أو تأسيس حزب شيوعي. وأنشئت بعد ذلك أحزاب أخرى أهمها حزب العمل الذي ساعد السادات في تأسيسه ثم حزب الوفد الجديد.

وعندما تكون التجمع دخله عدد من الشيوعيين وعدد كبير من الناصريين على رأسهم كمال رفعت وعدد من العناصر القومية واليسارية الأخرى وبعض عناصر من التيار الديني المستنير. وعندما تحول التجمع إلى حزب قيل أنه حزب شكلا وجبهة مضمونا. ولكن هذا المفهوم تغير تدريجيا وأصبح الاتجاه هو إلى تأكيد أنه حزب شكلا ومضمونا.

رأيت في تأسيس التجمع حدثا كبيرا وأنه يمكن أن يلعب دورا هاما لسببين أساسيين:

(١) أنه لأول مرة في مصر يتكون حزب شرعي لليسار يمكن للشيوعيين فيه أن يعملوا بشكل شرعي وعلني. وهذا مكسب كبير. فمنذ حل الحزب الشيوعي المصري عام ١٩٢٤ حتى تأسس التجمع عام ١٩٦٧ لم يتمتع فيه الشيوعيون

بهذه الإمكانية. ففي استطاعتهم الآن بشكل علني وفي النور أن يدافعوا عن أفكارهم.

(٢) رغم أن عددا كبيرا من الشيوعيين والناصريين بقوا خارج التجمع إلا أنه لأول مرة يتخطى فيها اليسار بما فيه الشيوعيون الانقسامية التي عانى منها دائما منذ تأسيس الحركة الشيوعية في الأربعينيات، إذ استطاع أن يضم إليه مختلف الفصائل الماركسية، وأن يتغلب على هذا المرض العضال وأن يمثل دعوة للمزيد من التجمع والوحدة تحت راية واحدة. وحتى الشيوعيين والناصريين وباقي قوى اليسار التي بقيت خارجه كانت تجد فيه ملجأ وملاذا عند الضرورة، ويتبين ذلك في فترات الاعتقالات.

وهذا هو السبب الذي جعلني أقرر منذ تأسيس التجمع الانضمام إليه. وحضرت المؤتمر التأسيسي الذي ضم عددا من رموز اليسار الذين ابتعدوا عنه فيما بعد مثل عبد الرحمن الشرقاوي وأحمد حمروش وغيرهما.

وكانت فكرتي عن التجمع منذ البداية أنه ليس حزبا وإنما تجمع كما يعبر عنه اسمه وأنه لا يضم اتجاها أو تيارا واحدا وإنما يضم مختلف الاتجاهات الوطنية التقدمية التي يرمز إليها باسم اليسار. وأنا أفهم أن اليسار لا يضم فصيلا واحدا بل يشمل كل القوى الوطنية والاجتماعية التي ناضلت وتناضل ضد الاستعمار ومن أجل مصالح الغالبية الساحقة من الشعب من العمال والفلاحين والمثقفين والحرفيين والموظفين وغيرهم ولا تمثل الفئة الضئيلة التي ارتبطت مصالحها برأس المال الأجنبي والتي تغتني على حساب الشعب وإضرارا بمصالحه. ولذلك عليه أن يعمل لضم كل العناصر والتنظيمات والهيئات التي تعبر عن مصالح هذه القوى وتدافع عن مصالحها. والتجمع هو مرحلة من مراحل تطور اليسار الذي يعتبر تيارا وطنيا عريقا في المجتمع المصري له تاريخه الطويل وتأثيره وإنجازاته الكبيرة في الحركة الوطنية المصرية، والذي تجاوز تأثيره مصر وامتد إلى خارجها. ولليسار تأثيره الكبير في الحركة النقابية المصرية والعربية وفي الحركة الثقافية وفي نضال المهنيين وله بصمات بارزة في نضال الفلاحين ضد استغلال كبار ملاك الأرض. وكان لليسار الفضل في توجهات الحركة الوطنية المعادية للاستعمار وربطها بالتوجهات الاجتماعية التقدمية.

وكان المطلوب من التجمع أن يواصل هذا التاريخ ويساعد في انطلاق اليسار وتطوره وفي اتساع صفوفه وتأثيره في المجتمع.

ولهذا فعندما أعلن عن تأسيس التجمع اجتذب كثيرا من القوى والعناصر من مختلف فئات المجتمع مما يعبر عن السمعة الطيبة لليسار ودوره وتاريخه وتضحياته من أجل مصالح الوطن والشعب. وأذكر في ذلك الوقت أن أخي الأصغر صلاح كتب استمارة عضوية في التجمع رغم أنه لم تكن له أي علاقة سابقة باليسار ولكن لم يهتم به ولم يتصل به أحد. وأعتقد أن ذلك حدث مع كثيرين غيره.

وكان للتجمع وجود كبير بين الأدباء والفنانين. ومن الشخصيات التي انضمت إلى التجمع في بداية تكوينه كمال الطويل وجميل راتب وصلاح أبو سيف ومحسنة توفيق وعبلة كامل وعبد العزيز مخيون وغيرهم. ولوحظ أن التوجه الغالب بين الفنانين هو التوجه اليساري، ولم يكن ذلك شيئا جديدا. وإذا أردنا أن نسرد عدد الفنانين الذين ارتبطوا باليسار بشكل أو بآخر، فسنجد أنهم عدد كبير جدا. وقد كانت حركة السلام في الخمسينيات تضم عددا كبيرا من الأدباء والكتاب والفنانين وكانوا يرتبطون باليسار من منطلق وطني وإنساني. وقد ظهر تأثير اليسار في الصحافة والفن التشكيلي والأدب والأغنية والإخراج السينمائي والتمثيل ونجد أسماء مثل صلاح چاهين وحسن فؤاد وفؤاد حداد وعبد الغني أبو العينين وعبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي وهبة عنايت وبهجت وزهدي وعبد المنعم القصاص وجمال الغيطاني وصلاح أبو سيف ويوسف شاهين وعلي الشريف ومحسنة توفيق وسعاد حسني وغيرهم كثيرون ممن ارتبطوا باليسار بشكل أو بآخر أو تعاطفوا معه.

بعد أحداث ١٨ و١٩ يناير والاعتقالات التي شملت الكثيرين من أعضاء التجمع وقادته وملاحقتهم والهجوم الإعلامي المنظم ضده والتي قادها السادات بنفسه ومصادرة جريدة الأهالي عدة مرات تقلصت عضوية التجمع وانسحب منه الكثيرون الذين انضموا إليه في البداية ولم يتوقعوا هذه الحملة وتقلصت عضويته وبقيت فيه العناصر الأكثر صلابة المستعدة لتحمل هذه الملاحقات وكانت أساسا من الشيوعيين.

***

(١١)

حركة الطلبة في السبعينات

بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وتغيير قيادة الجيش وتولي الفريق محمد فوزي القيادة وضعت خطة لإعادة بناء الجيش بعد عزل وانتحار المشير عامر وإبعاد أنصاره والمسئولين عن الهزيمة، وضعت خطة إعادة البناء في اتجاه ما سمى وقتها بإزالة آثار العدوان. واسترداد الأرض المحتلة وبدأ واستمر بعد ذلك ما عرف باسم «حرب الاستنزاف» التي منى فيها الإسرائيليون بخسائر كبيرة فأغرقت المدمرة «إيلات» ونصبت الصواريخ ضد الطائرات الإسرائيلية المغيرة والتي أسقط منها العديد من الطائرات، وكان هذا كله تعبيرا عن رفض قيادة جمال عبد الناصر للهزيمة وإصراره على تحرير الأرض وكان هذا الرفض يستجيب للرفض الشعبي للهزيمة والذي تمثل فى المظاهرات الهائلة التي قامت في يومي ٩ و١٠ يونيو والتي رفضت تنحي عبد الناصر عن الرئاسة وإصرارها على استمراره في القيادة لتحرير الأرض.

توفى جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ . وتولى السادات بعده وأعلن أنه سيسير على الطريق الذي اختطه سلفه جمال. وانحنى أمام تمثاله في حركة مسرحية. واستمر خطاب السادات والإعلام في ذلك الوقت يتحدث عن ذلك، بل اتخذ الحديث عن الاشتراكية والصداقة مع الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية خطا متصاعدا ومزايدات أكثر من فترة جمال عبد الناصر. لدرجة أن السادات وقع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي. وجرت في مصر احتفالات كبيرة بعيد ميلاد لينين وانتخب أحمد الرفاعي رئيسا لنقابة عمال الزراعة ونائبا لرئيس الاتحاد العام لنقابات العمال. وبعد انقلاب هاشم العطا في السودان واعتقال عبد الخالق محجوب والشفيع وهاشم العطا وغيرهم وصدور الأحكام ضدهم بالإعدام

اتخذ اتحاد العمال قرارا يدعو فيه النميري إلى عدم تنفيذ حكم الإعدام في الشفيع وطالب الاتحاد السادات بالتدخل ولكن النميري أسرع بتنفيذ أحكام الإعدام.

وفي مصر اختلف السادات مع المجموعة الناصرية التي كانت تضم علي صبري ومحمد فائق وضياء الدين داود وفريد عبد الكريم ومحمد فوزي وسامي شرف وغيرهم. واتهمهم بالتآمر وسماهم مراكز القوى وصدرت ضدهم أحكام بالإعدام خففت بعد ذلك.

وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي خطاها السادات في طريق التحول والردة.

وحاول التخفيف من أثرها بأن ضم في الحكومة التي كلفها في ذلك الوقت اثنين من الأسماء الشيوعية المعروفة هما الدكتور فؤاد مرسي الذي عين وزيرا للتموين والدكتور إسماعيل صبري عبد الله الذي عين وزيرا للتخطيط وذلك إلى جانب التعاون مع الدكتور عبد السلام الزيات وهو من العناصر اليسارية وشقيق الدكتورة لطيفة الزيات.

تصاعدت المطالبات خصوصاً من الطلبة ببدء المعركة لتحرير الأرض وتكونت في كليات الجامعة لجان وطنية وانتشرت صحف الحائط وكلها تطالب بالتحرك لاستعادة الأرض. وكان لليسار الدور الأساسي في هذا كله. وقامت الإضرابات والمظاهرات والاعتصامات كان أبرزها اعتصامات الطلبة في ميدان التحرير. وجرت اعتقالات واستخدم السادات الإخوان المسلمين والعناصر الإسلامية التي قام بتمويلها وتسليحها لضرب اليسار. وكان ذلك عاملا هاما في صعود الحركة الإسلامية التي انتشرت وزادت قوتها وتحولت في النهاية ضد السادات نفسه.

واستمر السادات يجمع بين خطوات الردة وتصريحات للاستهلاك المحلي عن قرب المعركة وعن سنة الحسم.

وبعد حملة مكثفة في الصحف وفي الجيش ضد السوفييت والتشكيك في الأسلحة السوفيتية أصدر السادات قراره بطرد الخبراء والمستشارين السوفييت. وأعتقد أن هذا كان يتفق مع الخطة الأمريكية بطرد السوفييت من المنطقة والتي نفذها السادات على مراحل. وبذلك حرمنا السادات من الصديق الأساسي في المعركة

ضد إسرائيل وبدأ في وضع كل الأوراق في يد الأمريكان بالحديث عن أوراق اللعبة التي في يد الأمريكان.

واستمرت أحاديثه عن قرب المعركة وسنة الحسم واضطر في نهاية الأمر في أكتوبر ١٩٧٣ أن يأمر الجيش بعبور قناة السويس، تلك المعركة التي كان الجيش يستعد لها منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتي حاول السادات طوال الوقت منذ توليه في سبتمبر ١٩٧٠ أن يتجنبها. وبعد أن بدأت لم يواصلها وكان المفروض أن يصل إلى الممرات كما كانت تقضي بذلك الخطة الأصلية وكما كان يرى الخبراء العسكريون، وسرعان ما اتفق مع كيسنجر على الفصل بين القوات.

وبدأ خط التحول يسفر عن وجهه شيئا فشيئا. وسياسة الخطوة خطوة التي كانت تؤدي إلى المزيد من التنازلات.

***

أننا لم نستمر فترة طويلة في دفع هذه الفائدة، لأنني نجحت في بيع الأفدنة المتبقيــة ملكي بسعر الفدان ٣٠٠ جنيه فأمكن سداد باقي المبلغ قبل أن تتراكم الفوائد.

وفي ٦٧/١١/١٨ قمنا بتعديل عقد الشركة لزيادة رأس المال إلى ٢٠٠٠ جنيه مصري وفي تعديل آخر بنفس التاريخ عدل الاسم التجاري من «مكتب يوليو للترجمة والنشر والتوزيع» إلى «دار يوليو للنشر». وأصبح حق الإدارة والتوقيع لي منفردا بعد أن كان لي أنا والسحرتي مجتمعين أو منفردين.

وكانت لهذا كله قصة: بدأنا كمكتب للترجمة. قمنا بتوزيع كتب مؤسسة نوفوستي وبدأنا نأخذ منهم بعض الكتب للترجمة والنشر. وكانوا في البداية يختارون هذه الكتب. وقد حقق لنا هذا العمل بعض التراكم وبعض الدخل فقررنا لكل منا (أنا والسحرتي) مرتبا ثلاثين جنيها. وتوقفت عن أخذ المعونة الشهرية من شقيقي أحمد. ومع بعض التراكم أصبح في استطاعتنا إصدار بعض الكتب الخاصة بنا مثل كتاب عن ثورة الشعب السوداني في أكتوبر ومثل كتاب «المعجم الفلسفي» للدكتور مراد وهبة وعدد آخر من المؤلفات الخاصة بنا وعندما تراكم عندنا عدد من هذه المؤلفات وجدنا أننا نتحول من مكتب للترجمة إلى دار نشر، ولهذا غيرنا اسمنا إلى دار يوليو للنشر.

وفي النصف الثاني من عام ١٩٦٧ كنت في زيارة مع السحرتي لمدير مكتب الصحافة السوفيتي (الدكتور/كوتساريف) ذكر رقما من الأرقام خاصا بقيمة فاتورة أحد الكتب وجدتها تختلف تماما عن الأرقام التي يخطرني بها السحرتي ويدخلها في حساباتنا. وكان الفارق كبيرا. ولا يشمل فقط السعر المدفوع ولكن يشمل أيضا كمية الورق المسلمة من مكتب الصحافة. وكان الاتفاق أن يقدموا الورق (وقد كان ورقا فنلنديا يصل من موسكو) وكنت قد تركت المسائل المالية تماما للسحرتي وكانت الثقة بيننا كبيرة ولم أكن أتصور أنه سيتلاعب بي أو يسرقني. ولهذا فقد فوجئت بهذا الرقم وعند عودتي للمكتب قمت بعمليات حسابية بالاستعانة بمحاسبنا في هذا الوقت فوجدت أن الفارق عدة آلاف من الجنيهات.

(١٢)

كامب ديڤيد

كان عبد الناصر قد وافق على قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ اللذين يقضيان بانسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة ورفضت منظمة التحرير الفلسطينية في البداية الموافقة على هذين القرارين على اعتبار أنهما يعترفان بوجود دولتين هما دولة إسرائيل الموجودة بالفعل ودولة فلسطين المفروض قيامها وفقا لقرارات الأمم المتحدة العديدة. وهي تلك الدولة التي تآمرت دول عربية مع الوكالة اليهودية والقوى الاستعمارية وعلى رأسها أمريكا على الحيلولة دون قيامها بعد العدوان الإسرائيلي عام ١٩٤٨ واستيلائه على جزء كبير كان مخصصا للدولة الفلسطينية وفقا لقرار الأمم المتحدة، واستولت الحكومة الأردنية على الجزء المتبقي من هذه الأرض واستولت الحكومة المصرية على قطاع غزة. وبعد عدوان إسرائيل على البلاد العربية في ٥ يونيو ١٩٦٧ استولت على الجزء الباقي من الأراضي الفلسطينية التي كانت الأردن قد ضمته وعلى قطاع غزة إلى جانب احتلالها لسيناء ومرتفعات الجولان.

وبعد حرب ١٩٧٣ والفصل بين القوات استمرت إسرائيل تماطل في تنفيذ قرارات مجلس الأمن وترفض الانسحاب من الأراضي التي احتلتها بحجة أن مجلس الأمن قرر الانسحاب من أراض وليس الأراضي التي احتلتها إسرائيل، وبحجة أنها يجب أن تحافظ على أمنها مدعية أن العدوان جاء من جانب العرب بعد تهديدات عبد الناصر.

وقد رفضت منظمة التحرير الفلسطينية قراري مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨ بحجة أنها لا تعترف بدولة إسرائيل وأنها تريد تحرير كامل التراب الفلسطيني

ثم تغير هذا الموقف فيما بعد في المجلس الوطني الذي عقد بعد ذلك واعترفت بوجود دولتين وأن تعمل على إقامة الدولة الفلسطينية على أي جزء يحرر من الأراضي الفلسطينية. وقد عمل الجزء الأكبر من فصائل المنظمة بقيادة ياسر عرفات على تحقيق هذا الهدف وقد أدت هذه الجهود إلى انعقاد مؤتمر مدريد ثم أوسلو .. إلخ.

بعد حرب أكتوبر والفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية في سيناء. وزيارات كيسنجر المكوكية للمنطقة. وتصريحات السادات عن أوراق اللعبة التي هي في يد أمريكا. والمحاولات الأمريكية بالتعاون مع السادات لتقليص الدور السوفيتي. وفي نفس الوقت كانت مبادرة يارنج التي رفضتها إسرائيل وقبلتها مصر ثم الإعداد لعقد مؤتمر چنيف الذي كان مفروضا أن تتم مباحثات السلام فيه بحضور الاتحاد السوفيتي وأمريكا مما كان يعني المزيد من الضغوط على إسرائيل.

وكانت مصر هي محط أنظار العرب وآمالهم. وتضامنا مع مصر بعد حرب أكتوبر استخدم سلاح البترول للضغط على أمريكا والغرب. وكان سلاحا فعالا وأوقفت المقاطعة بناء على طلب من السادات خضوعا للضغط الأمريكي.

ويذهب السادات إلى القدس فيقاطعه كل العرب وتقطع كل البلاد العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر وتنعزل عن أشقائها العرب وعن أصدقائها (الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية). ويكال للسادات المديح من أعدائنا في أمريكا وإسرائيل والغرب. يترك السادات الأشقاء والأصدقاء في العالم ويعقد اتفاقية كامب ديڤيد ثم الصلح مع إسرائيل تحت رعاية أمريكا وسط حملة إعلامية ضارية ضد أشقائنا العرب وضد أصدقائنا وسندنا في العالم. وأصبح السند الوحيد للسادات هو أمريكا سند إسرائيل وحاميتها. وأصبحنا لا نستطيع تحقيق أي خطوة إلا برضاء أمريكا وإسرائيل. وأعلن السادات أن حرب أكتوبر هي آخر الحروب. وألغى إمكانية استخدام أي أوراق أخرى للضغط من أجل تحقيق السلام العادل الذي يقوم على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة.

ولهذا فليس من الغريب أن تزداد إسرائيل بعد ذلك تعنتا وعدوانية بعد أن نجحت في عزل مصر أقوى الدول العربية. فتضرب المفاعل النووي العراقي وتجتاح

جنوب لبنان وتضطر منظمة التحرير الفلسطينية إلى الانتقال إلى تونس. وفي هذا الوقت أصدر الحزب الشيوعي المصري بيانا عن معاهدة الصلح مع إسرائيل «بأنها معاهدة حرب وليست معاهدة سلام».

وذلك أن الشيوعيين واليسار المصري ينادي بالسلام العادل وكان يدعو في سبيل ذلك إلى اللقاء بين قوى السلام العربية والإسرائيلية على أساس الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من البلاد العربية المحتلة وعلى أساس حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة وحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة. وقد عقد لهذا الهدف مؤتمر بولونيا الذي جمع أنصار سلام عربا وإسرائيليين وكان هناك إعداد لمؤتمر آخر وصدر نداء وقع عليه كثير من الشخصيات البارزة في العالم تطالب بذلك. وكان هناك تحرك بالفعل للضغط من أجل سلام حقيقي. ولكن مبادرة السادات التي عزلت مصر ووضعت كل أوراق اللعبة بين أيدي حكام أمريكا وحكام إسرائيل أجهضت هذه المحاولات أو أضعفتها.

وقد أعلن الشيوعيون وحزب التجمع وبعدهما حزب العمل ثم حزب الوفد ومجموع قوى المعارضة معارضتها لكامب ديڤيد ولمعاهدة الصلح مع إسرائيل.

حملة اعتقالات ضد الشيوعيين عام ١٩٧٩:

كان السادات يعتبر أن الشيوعيين هم القوة الأساسية للمعارضة التي تصاعدت ضد توجهاته. فركز حملته ضد الشيوعيين واليسار في الداخل وضد الاتحاد السوفيتي في الخارج. وبعد فشل حملته في ١٨ و١٩ يناير عام ١٩٧٧ قام بحملة جديدة بعد سنتين في عام ١٩٧٩ .

وقد شملتني أيضا هذه الحملة وكنت أرتب للسفر إلى فارنا ثم موسكو وحصلت على التأشيرات وبطاقة السفر. وفي الليل داهمت المباحث المسكن الذي كنت قد استأجرته من سمير كرم في شارع أحمد عرابي في «المهندسين» وكان أول شيء يسألون عنه هو جواز السفر وبطاقة السفر التي أخذوها وفتشوا المنزل

وأخذوا بعض أوراقي وبعض أوراق سمير كرم ومن بين الأوراق التي أخذوها نص قرار الحزب بإيقاف نشاطه المستقل عام ١٩٦٥ . وضمته النيابة إلى أوراق الاتهام وكان من بين أوراق الاتهام أيضا بعض التراجم والكتب. وكالعادة قادوني إلى دار الثقافة الجديدة حيث أخذوا جميع الآلات الكاتبة وبعض الكتب رغم أنه من الطبيعي أن توجد في دار للنشر.

وحولت إلى تأديب سجن طرة مع باقي المعتقلين ووجدت هناك زملائي زكي مراد ونبيل الهلالي ومبارك عبده فضل وسيف الدين صادق وغيرهم من الشباب مثل البدري فرغلي ومراد منير وعبده جبير وغيرهم. وقد وضعنا في زنازين التأديب المخصصة في مصلحة السجون للمذنبين من المساجين كعقوبة داخلية لمخالفة لوائح السجن. وكان هذا يخالف القانون. ولكن القانون كان آخر ما يخطر ببال المباحث العامة والأوامر المشددة التي كانت تتلقاها من رؤسائها.

وقد وضعت في زنزانة صغيرة مع سيف صادق وعلي عزام من المنوفية وكان سيف وعلي يدخنان بشراهة. وأنا أكره التدخين وخصوصا أنني كنت مواجها بالبقاء أغلب الوقت في الزنزانة وأجبر على التدخين السلبي في فترات السجن وزادت من عدائي للتدخين. ففضلا عن الوضع الذي يجبرك على التدخين السلبي، فقد كنا نطبق داخل السجن نظام «الحياة العامة» بأن نسلم كل ما يصلنا من نقود إلى الحياة العامة الذي كان الجزء الأكبر منه يصرف على السجائر التي نشتريها من الكانتين لتلبية احتياجات المدخنين الذين لا يستطيعون الاستغناء أو التقليل من هذه العادة القبيحة ولا يخصص إلا القليل للغذاء. ولهذا كنت أقول مداعبة أن الصراع الطبقي داخل السجن هو بين طبقة المدخنين (المستغلين) وطبقة غير المدخنين. ورغم أنني كنت أقول ذلك في شكل مداعبة إلا أنه كان يعكس في الحقيقة عداء شديدا لهذه العادة الضارة التي يدمنها أصحابها ويصعب عليهم التخلص منها. والتي تضرهم وتضر المحيطين بهم.

وقد بدأ عدائي للتدخين عندما كنت في المجر وكنت قد بدأت أمرض وكان يزاملني في الحجرة في بيت الطلبة شاب مجري كان يدرس في المعهد ويدعى

ميكلوش ارتس وقد تكونت صداقة بيننا. وعندما يحل الليل يبدأ في التدخين وهو في سريره وكنت أتضايق من ذلك وطلبت منه ألا يدخن في الحجرة.

وعندما ذهبت فيما بعد إلى الاتحاد السوفيتي أعجبني أن التدخين يمنع في الأماكن المغلقة. وحتى في الشقق السكنية يعمد المدخن إلى التدخين في خارج الشقة ويراعي ذلك بدقة خصوصا إذا كان في الشقة أطفال.

وعندما تقرر في مصر منع التدخين في وسائل النقل وجدت بعض الشبان يدخنون رغم وجود لافتة مكتوب عليها «ممنوع التدخين» ويعتبرون ذلك من باب التحدي للقوانين، رغم أنهم بذلك يضايقون ويؤذون غيرهم من غير المدخنين. وكثيرا ما كنت أنبههم إلى ذلك عندما يجلسون بالقرب مني.

وفي العادة أنه في الخارج يمنع التدخين أثناء الاجتماعات. أما عندنا فقد تعود الزملاء على الإكثار من التدخين في الاجتماعات. ولذلك فإنني عندما أحضر اجتماعا أحرص على الابتعاد عن المدخنين.

كنا نمضي الوقت في السجن في العمل السياسي وتقصى الأخبار التي كنا نحاول الحصول عليها من خارج السجن.

وفي المساء نظمنا جريدة ناطقة ووزعنا المسئوليات وكنا نذيع مقالات الجريدة من خلف القضبان.

وفي الصباح كنت أمارس يوميا رياضتي المعتادة بما فيها تمارين اليوجا بما فيها الوقوف على الرأس.

بعد شهرين مثلنا أمام قاضي التحقيق الذي أفرج عنا.

السفر إلى موسكو:

حصلت على جواز سفري وبطاقة السفر من النيابة وفي سبتمبر من عام ٧٩ سافرت إلى موسكو للاشتراك في معرض الكتاب الدولي هناك والتقيت بزوجتي

وابنتي التي بلغت الخامسة من عمرها وكانت تراسلني مع والدتها وتبعث إليّ برسوماتها وتبعث إليّ بأخبارها بانتظام والتي اضطرت أن تتولى تربيتها في غيبتي لأنها لم تكن تستطيع الحضور إلى مصر لاعتراض المباحث العامة كما سبق أن شرحت. وقد ألحقتها بإحدى رياض الأطفال الداخلية المنتشرة في الاتحاد السوفيتي وكانت تقيم بها بخلاف أيام الأجازات.

مقتل زكي مراد:

بعد عودتي إلى القاهرة واصلت العمل في الدار وفي أحد أيام شهر ديسمبر دق جرس التليفون وكان المتحدث زميلنا عريان نصيف الذي قال لي «زكي مراد - تعيش أنت». نزل علي الخبر كالصاعقة. أخبرني أنها حادثة سيارة عندما كان يقود سيارته في طريقه إلى الإسكندرية.

وثارت الشكوك من البعض بأن الحادث مدبر.

كان فقدان زكي مراد يمثل خسارة كبيرة فقد كان من أبرز القياديين في الحزب الشيوعي المصري وفي الحركة الشيوعية المصرية.

كان زكي مراد قائدا شيوعيا وكان له دور كبير في توحيد الحركة وتحديد أهدافها. وكان له دور فكري وجماهيري هام ودور بارز في تحديد أهداف الحركة في التحولات الهامة. وظهر ذلك أثناء سجنه الطويل في الواحات. وهناك كتب دراسة هامة حول التكوين الطبقي للضباط الأحرار وفي تغيير موقف الحزب الشيوعي المصري بعد باندونج من المعارضة إلى التأييد لجمال عبد الناصر.

لهذا كان لمسجوني الواحات موقف مبادر في هذا الاتجاه قبل القيادة في الخارج. وظل يمارس دورا قياديا بين زملاء الحزب داخل السجن وبعد خروجه. وكان ممن اختيروا أعضاء في التنظيم الطليعي الذي أسسه عبد الناصر عام ١٩٦٥ وكان ممن لم يتم الاتصال بهم بعد إعادة التنظيم على أساس جغرافي وهو الأمر الذي حدث معي ومع الكثير من الشيوعيين.

وكان ممن يحضرون معنا اللقاءات التي كانت تتم بعد ذلك مع كمال عبد الحليم ومبارك عبده فضل وإبراهيم عبد الحليم والذي اقترح في أحد هذه الاجتماعات إعادة بناء الحزب الشيوعي. وواصل مع مبارك وغيره العمل لإعادة بناء التنظيم وظل لفترة يُسمى «تنظيم السود» إلى أن اتحد مع تنظيمين آخرين: الشروق وتنظيم ثالث، قام في عام ١٩٧٥ بإعلان تأسيس الحزب الشيوعي المصري.

وبعد عقد اتفاقية كامب ديڤيد ومعاهدة الصلح مع إسرائيل سمى هذه المعاهدة بأنها معاهدة حرب لا سلام وأنه بهذه المعاهدة تحددت الخنادق (خندق الوطنيين وخندق الخونة).

ومن المعروف أن اليسار كان رائدا في الدفاع عن السلام وكان له الفضل في تأسيس حركة السلام في الخمسينيات وظل يناضل دائما من أجل سلام عادل، وكان يحاول التعاون مع أنصار السلام في إسرائيل من أجل انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة وإقامة دولة فلسطينية مستقلة وعودة اللاجئين الفلسطينيين. ولكن اليسار رفض كامب ديڤيد ومعاهدة الصلح مع إسرائيل لأنها لم تكن تحقق هذه الأهداف. وقد سبق الحديث عن ذلك.

وكانت جنازة زكي مراد تضم عددا كبيرا من كل اتجاهات اليسار وتحولت إلى مظاهرة كبيرة تخللتها الهتافات والشعارات الوطنية.

كان فقد زكي مراد إلى جانب عوامل أخرى من الأسباب التي ساعدت بعد ذلك على تردي وضع اليسار في مصر.

أما عن شبهة القتل فيؤكدها المهندس فوزي حبشي الذي قام بتحريات عن الموضوع وكتب التالي:

ملاحظات على حادثة قتل الرفيق زكي مراد في ديسمبر ١٩٧٩

- في أواخر سنة ١٩٧٩ طلب السادات عن طريق صديق مشترك(*) من الأستاذ/ زكي مراد عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي ملاقاته لشرح الموقف من التفاهم مع إسرائيل ولطلب تأييد الحزب لذلك الموقف.

- رفض الأستاذ زكي مراد المقابلة ووبخ بعنف الصديق المشترك لمحاولة الوساطة هذه، موضحاً أن الاستسلام لإسرائيل هو كبرى الكبائر ولا يحتمل تبريرا.

- لهذا الموقف نتصور أنه تقرر التخلص من الرفيق زكي مراد.

- وفي يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٧٩ إستقل زكي مراد سيارته إلى الإسكندرية وفي حافظة أوراقه التقرير السياسي للحزب.

- وعلى الطريق الزراعي بالقرب من إيتاي البارود أسرعت سيارة (مجهولة) يمين سيارة زكي مراد ودفعتها دفعاً للانحراف يساراً حتى تتخطى الجزيرة الوسطى من الشارع لتصطدم بسيارة نقل آتية في الاتجاه المضاد؛ وتحدث المأساة.

- قمت في أقل من أربع ساعات من وقوع الحادث بالمعاينة على الطبيعة فوجدت أنه قد عبث في حافظة أوراق المرحوم ولكني وجدت أن كل ما بها سليم باستثناء ذلك التقرير السياسي؛ فقد أخذه ركاب السيارة المجهولة المتسببة في الحادث.

- ولقد اتضح لي كل ما سبق من المعاينة السريعة وقياس آثار الفرامل على أرض الطريق من سيارة الأستاذ/ زكي مراد وسيارة النقل التي تصادف إشراكها في الحادث.

فوزي حبشي ٢٠٠٠/٦/١٨

***

(١٣)

سياسة الانفتاح الاقتصادي

كان القانون الذي أصدره مجلس الشعب في يونيو لسنة ١٩٧٤ هو الذي قنن سياسة الانفتاح الاقتصادي وهو الذي وضع الأسس الاقتصادية لسياسة الردة التي وضعها نظام السادات والتي أدت إلى انقلاب كامل على السياسة الوطنية والاجتماعية التي أرستها ثورة يوليو بقيادة جمال عبد الناصر. ولم تكن هذه السياسة بعيدة عن السياسات الأمريكية لعزل مصر عن سياسة التحرر الوطني التي تصاعدت في البلاد العربية وبلاد العالم الثالث والتي تحالفت عمليا مع الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية.

وكان هذا القانون يرمي إلى تحرير القيود التي وضعتها تشريعات الستينيات أمام النشاط الرأسمالي المحلي والأجنبي لا في اتجاه التنمية وإنما في اتجاه المكاسب والربح وجمع الأموال وتهريبها إلى الخارج والنهب والسرقة والرشوة دون أي حدود أو قيود. وقد بدأت هذه السياسة قبل هذا القانون بالقرارات الخاصة بالسماح بالاستيراد دون تحويل عملة وببداية التراجع عن تشريعات يوليو تحت ضغط القوى الرأسمالية الداخلية والخارجية وذلك بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ .

وعلى أساس هذه السياسة الاقتصادية نشأت أوضاع اجتماعية جديدة وظهرت تحولات سياسية وقيم أخلاقية وثقافية جديدة تدعو للكسب بأي طريق، «اللي تكسب به العب به». ونشأت ظاهرة الهجرة إلى بلاد النفط وغيرها حتى بين الفلاحين، وأصبحت أعداد العمال المهاجرة تفوق الأربعة ملايين.

نشأ الشباب الجديد في ظل هذه المفاهيم والقيم الجديدة، وأخذ يتضاءل الحديث عن الوطنية والتضحية والجماعية، والعمل من أجل المجموع، وأخذت

واجهته بذلك فارتبك وكنت معه في سيارته وكان يقودها فأدى ارتباكه إلى اصطدامه بسيارة أخرى.

قال لي أن كوتساريف هو الذي طلب منه ذلك. وأنه هو الذي يأخذ الفرق. قلت: حتى لو كان ذلك صحيحا فكان من الواجب أن يكون ذلك بعلمي وموافقتي. وقلت له: إنك لم تقل لي أي شيء عن ذلك، ولم أعرف به إلا بالمصادفة. وثار خلاف بيننا واقترح لحل الخلاف تحكيم ثلاثة من أصدقائنا هم زكي مراد وأحمد الرفاعي وفؤاد عبد الحليم.

والتقينا مع المحكمين وكان في البداية تحكيما وديا وكرر السحرتي ما قاله لي بأن كوتساريف هو الذي أخذ هذا المبلغ. واقترح كحل ودي أن يتنازل عن دينه للدار بمبلغ ١٨٠٠ جنيه وأن أتولى أنا الإدارة منفردا. وعدلنا العقد بحيث يكون حق الإدارة والتوقيع لي منفردا.

لم أكن أتصور أبدا أن يسلك زميلي عبد الحميد السحرتي هذا السلوك وهو شريكي وصديقي وخصوصا أنه كان يعيش في حالة يسر ولم يكن في حاجة إلى ذلك.

وأخذت أمارس الإدارة منفردا. وهو الأمر الذي نفذناه بناء على اقتراح من السحرتي. ولكنه بعد قليل بدأ يقلق وبدأ يشكو وطالب بعقد لجنة التحكيم مرة أخرى.

انعقدت اللجنة ووقعنا مشارطة تحكيم وعينت اللجنة محاسبا. استمر عمل اللجنة والمحاسب حوالي شهر كامل. واقتنعت اللجنة بالإجماع، وأحسست أنا أيضا باستحالة استمرارنا كشركاء وكان طلب السحرتي في ٦٧/١٢/٣١ بأن تعقد اللجنة لعمل جرد للمكتب وعمل عقد تفصيلي يحكم سلطات المدير. وقدمت طلبات مضادة.

وانعقدت لجنة التحكيم في ٦٨/٢/٢٩ وأصدرت حكمها في ٦٨/٣/٢٩ ونصه الآتي:

بموجب مشارطة التحكيم الثانية كتابة والمتضمنة في الأوراق وبعد الاطلاع

تختفي من أدبنا وكتاباتنا كلمات مثل الاستعمار والامبريالية والاشتراكية، وأصبح هذا كله يصور على أنه جمود وتحجر عند القديم وعدم الانفتاح على العالم وإدراك الجديد.

وتطورت هذه السياسة بحيث سماها أحمد بهاء الدين «الانفتاح سداح مداح» واضطر الرئيس حسني مبارك عندما تولى السلطة بعد مقتل السادات أن يعلن أنه مع الانفتاح الإنتاجي لا الانفتاح الاستهلاكي، ومع ذلك فقد أصبحت القوى الرأسمالية الجديدة من القوة والنفوذ بحيث واصلت هذه السياسة صعودها وتراكمت الديون وتضخمت الأموال التي تهرب إلى الخارج من حصيلة عمل وعرق الكادحين المصريين بحيث وصلت إلى أكثر من مائة مليار جنيه (في بعض التقديرات) وكان في قدرتها أن تسدد الديون المصرية التي تتزايد باستمرار وتتزايد معها الفوائد الكبيرة المقررة عليها.

وتتصاعد هذه السياسة التي سميت بالانفتاح الاقتصادي إلى بيع القطاع العام والخصخصة خصوصا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتحول الولايات المتحدة الأمريكية إلى القطب الأعظم الوحيد المهيمن وبعد السياسات الجديدة المسماة «بالعولمة والنظام العالمي الجديد» والاتفاقيات الجديدة «الجات» و«التجارة العالمية الجديدة». وأصبحت سياسة الانفتاح الاقتصادي تُسمى اليوم بالإصلاح الاقتصادي وإعادة الهيكلة وغيرها من المسميات.

ويشعر الجميع بآثار هذه السياسة من تضخم وتدهور الأحوال المعيشية وزيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء وتفشي الفساد والرشوة واختفاء سلطة القانون الذي أصبح يطبق ويشرع لصالح القلة المترفة التي تستبيح كل شيء لتحقيق المزيد من الأرباح والمكاسب. ويتصاعد حجم الإنفاق السفيه في الوقت الذي لا يجد فيه غالبية الكادحين قوت يومهم. وتتزايد أعداد البطالة حتى بين خريجي الجامعات. وتقدم الرشاوي للعاملين في شكل المعاش المبكر لتؤجل أزمتهم التي ستزداد بعد ذلك تفاقما.

ويتزايد حجم العجز التجاري فبينما لا تبلغ صادراتنا إلى الولايات المتحدة

الأمريكية خلال الفترة من يوليو/ مارس ٩٩/٩٨ ما قيمته ١,٢ مليار دولار، فقد بلغت الواردات ٢,٣ مليار دولار أمريكي (تقرير البنك المركزي) وهي واردات لمواد استهلاكية جزء كبير منها سلع ترفية لا تهم مجموع الشعب ولا تقدم أي إضافة للتنمية.

وقد بدأت هذه السياسة تواجه المقاومة. ويظهر ذلك في تعليقات الصحف وليس الصحف الحزبية وحدها بل والمسماة بالقومية أيضا ويشعر الناس أكثر فأكثر بأن المستفيدين من هذه السياسة قلة ضئيلة تتعارض مصالحها مع مصالح الوطن والتنمية والغالبية الساحقة من الشعب.

أما «العولمة» فيتبين الناس بوضوح متزايد أنها عولمة رأسمالية لا تخدم إلا مصالح فئة قليلة. وهذا لا يظهر محليا فقط أو بين شعوب العالم الثالث وإنما تظهر المقاومة حتى بين شعوب الدول المتقدمة والتي اشتعلت فيها المظاهرات في دافوس وسياتل وغيرها أثناء اجتماعات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وغير ذلك من المناسبات.

وينمو التمايز الطبقي في المجتمع المصري، ويزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا. والفقراء هم الغالبية الساحقة.

وتسربت هذه الأوضاع إلى داخل صفوف اليسار نفسه. فيسار الأربعينيات والخمسينيات كان في مجمله من الشباب الذي توجه إلى اليسار في غالبه من خلال الحركة الوطنية. وقد ارتبطت الحركة العمالية بالحركة الوطنية وكانت حركة اليسار الثورية تجتذب الشباب قبل الشيوخ. وقد ظهرت في البداية أساسا بين الطلبة والعمال. وامتدت بعد ذلك إلى الجيش والفلاحين. وشباب الأمس لم يعودوا اليوم شبابا ومرت بهم وأثرت عليهم التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها البلاد وخصوصا سياسة الانفتاح الاقتصادي وما أرسته من أخلاقيات وممارسات البحث عن الحل الفردي والبعد عن العمل الجماعي والحلول الجماعية.

وكثير من شباب الأمس الذين لاقوا ظروفا صعبة في السجون والمعتقلات والمحاربة في الرزق آثروا بعد خروجهم من الواحات عام ١٩٦٤ أن يكتفوا بما قدموه

في شبابهم وعملوا على أن يرتبوا لكهولتهم وشيخوختهم حياة تعوضهم عما لاقوه وما قدموه من تضحيات. وغالبية هؤلاء لم يتخلوا عن أفكارهم وانتماءاتهم وكثير منهم يعمل في صفوف حزب التجمع أو يتعاون معه أو يقومون ببعض الأعمال التي لا تعرضهم للمخاطر. والبعض الآخر أبعده الموت أو المرض أو العجز.

والبعض الآخر انتهى النضال اليساري بالنسبة له بوصوله إلى مراكز مرموقة وكيَّف وضعه مع النظام القائم، ويحاول كسب الأنصار والأتباع بنفس الأساليب التي تتبعها السلطة من رشاوى وإفساد وتزوير وخلافه. وهم يستفيدون ماديا وأدبيا من ربط أنفسهم بتيار اليسار وتنظيماته وتحاول السلطة القائمة أن تروض هذا البعض وتضغط على الآخرين لكي يقوموا بدور مرسوم في النظام القائم.

وما يُسمى بجيل السبعينيات الذي لعب دورا هاما في شبابه يمر بنفس التطور الذي مر به جيل الأربعينيات والخمسينيات رغم أنه لم يعان نفس القدر من المعاناة التي عاناها ذلك الجيل ونما وتربى في ظروف مختلفة هي ظروف الانفتاح الاقتصادي وما تبعها من سياسات. ونجد أن الكثيرين من أبناء هذا الجيل يوفقون أوضاعهم وحياتهم مع هذه الظروف والأوضاع الجديدة.

وبعض أبناء هذا الجيل يحاول أن يجمع المال ويستفيد متبعا نفس معايير المجتمع الجديدة ويقيم المشاريع الرأسمالية وبعضه ينجح فيها أو من خلال الانتفاع عن طريق المنظمات الدولية التي تقدم المعونات والبعض الآخر الذي بدأ ثوريا سواء من خلال منظمة الشباب أو غيرها وصلت به هواية الكسب بأي طريق إلى اتباع أرخص الأساليب وأبعدها عن القيم والأخلاق القويمة.

كل هذه العوامل إلى جانب الانهيارات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية السابقة وسيطرة وهيمنة النموذج الأمريكي، كل ذلك كان له تأثيره ودوره في التردي الذي وصلت إليه تنظيمات اليسار بما في ذلك أهمها الآن وهو حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي.

كل ذلك لم يمنع أن السواد الأكبر من قوى اليسار سواء القديمة أو الجديدة يرفض الأوضاع الحالية ويحاول البحث عن أسباب وحلول.

والشيء الذي يبعث على التفاؤل أن الشباب الجديد ينشأ في ظروف محلية وعالمية تنبئ بالمزيد من انكشاف السياسات الاقتصادية المطبقة أو ما يمكن تسميته الآن بقوى «العولمة الرأسمالية» عالميا وحلفائها والمنتفعين بها محليا.

الاشتراكية والموقف منها:

في هذه الفترة ـ فترة السبعينيات ـ كتبت السطور التالية بعنوان «ما هي الاشتراكية؟» ولكنني لم أنشرها. وأرى أن أعيدها هنا لأنها تشرح الجو الذي كان سائدا في هذه الفترة التي أتحدث عنها:

«منذ عدة سنوات وجميع من يشتغل بالسياسة في مصر، أو غالبيتهم الساحقة على الأقل، وكذلك في العالم العربي يتحدث عن الاشتراكية باعتبارها هدفا له أو على الأقل لا يقف منها موقف العداء. ويضع الدستور المصري الاشتراكية هدفا من أهدافه، وكذلك جميع الأحزاب السياسية القائمة في مصر الآن.

ولم يكن الأمر كذلك منذ نصف أو حتى ربع قرن، فقد وجدت تنظيمات سرية تنادي بالاشتراكية وتعمل في الخفاء، وكان حدثا كبيرا في الخمسينيات أن يعلن حزب مصر الفتاة تحويل اسمه إلى الحزب الاشتراكي ويصدر صحيفة باسم «الاشتراكية». وبهدف الدعاية والخداع أخذ أتباع الملك فاروق نفسه يطلقون عليه اسم «الاشتراكي الأول».

الوضع اليوم في مصر غيره بالأمس من حيث الموقف من الاشتراكية كشعار وهو كذلك في العالم، فهناك قسم كامل من العالم وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي أصبح يسمى بالعالم الاشتراكي وتعتبر الأحزاب الشيوعية والأحزاب الاشتراكية اليوم من أقوى الأحزاب في أوروبا ـ فرنسا، إيطاليا، إنجلترا، أسبانيا، وغيرها من بلدان أوروبا وكثير من هذه الأحزاب إما أنها تتولى الحكم في بلادها أو تشترك فيه مع غيرها من الأحزاب.

وبدأنا في السنوات الأخيرة ومع تقلص النفوذ الاستعماري في أفريقيا وآسيا

وأمريكا اللاتينية نسمع عن بلاد كثيرة تحررت من النفوذ الاستعماري وتعلن أنها اختارت طريق الاشتراكية، وأنها تنبذ الطريق الرأسمالي، ويكاد يكون هذا هو الطابع الغالب للأنظمة الجديدة التي قامت في البلاد التي تحررت رغم اختلاف المضامين واختلاف التسميات (اشتراكية أفريقية ـ اشتراكية آسيوية ـ اشتراكية إسلامية ـ اشتراكية عربية ـ اشتراكية علمية .. الخ).

وهذا كله يؤكد أن الاشتراكية أصبحت قوة جبارة سواء كدول أو كحركة عارمة تنتشر وتتعمق بين شعوب العالم.

ويقابل ذلك العالم الرأسمالي، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، ويضم بلادا أخرى وشركات ضخمة عملاقة تمتلك البلايين وتتحكم في مصير دول وسياسات وتعمل على الامتداد كالأخطبوط في مختلف بلاد العالم من أجل الحفاظ على مصالحها وأرباحها الخيالية وزيادتها بأسنانها وأنيابها النووية وغير النووية، وتزيد كل يوم وتضخم ترساناتها العسكرية التي لا تريد فقط استخدامها للعدوان ضد أي تهديد لهذه الأرباح بل وتستفيد منها شركات الأسلحة لتضخيم تلك الأرباح.

أين نحن من كل هذا؟

ثورة ٢٣ يوليو كانت في الأساس موجهة ضد النظام الملكي وضد حكم كبار الملاك وغيرهم من أعوان السراي وأعوان الاستعمار البريطاني، ومارست في الجوهر سياسة وطنية ترمى إلى اقتلاع النفوذ الاستعماري. وتوجهت نحو تحقيق استقلال البلاد الاقتصادي، وبناء وتدعيم الجيش الوطني. وكان توجهها في البداية وبكل ثقلها إلى الرأسمالية المصرية، وصدرت في هذه الفترة أفضل القوانين الملائمة لنمو الرأسمالية وازدهارها مؤملة أن تقوم بدورها في بناء البلاد اقتصاديا.

وظن قادة الثورة وقتها، وقد كانوا يعملون على تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، أنه يمكنهم تلقي العون من الولايات المتحدة الأمريكية، فطلبوا منها السلاح، كما طلبوا قرضا لبناء السد العالي. وفشلت كل هذه المحاولات. ووضع

قادة أمريكا شرطا لذلك أن ترتبط مصر بالأحلاف العسكرية الاستعمارية التي تقودها أمريكا والتي كان يقال أنها موجهة ضد «الخطر الشيوعي».

وكان عبد الناصر مثل كل الوطنيين يرى أن الخطر الحقيقي هو خطر جثوم قوات الاحتلال على الأراضي المصرية، وأن أي خطر آخر هو خطر وهمي اختلقه الاستعمار العالمي كمبرر للحفاظ على وجوده وضمان استغلاله للشعب المصري والشعوب العربية.

واتجه عبد الناصر للاعتماد على النفس، ودعا أصحاب الأموال (الرأسماليين المصريين) لاستثمار أموالهم في تصنيع البلاد. وتوجه إلى الدولتين الاشتراكيتين «الاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا» لشراء السلاح وللحصول على القروض لبناء السد العالي وتصنيع البلاد، وهو الأساس الأول لبناء الاستقلال الاقتصادي. ووجد الاستجابة من البلاد الاشتراكية في وقت كانت تسود فيه سواء في بداية الثورة أو قبلها دعوة تقول أن التعاون مع البلاد الاشتراكية يمثل خطرا يهدد بلادنا. وهو ما كان يروجه أبواق الاستعمار وأعوانه في الداخل والخارج.

ولكن الرأسماليين وأصحاب الأموال المصريين لم يستجيبوا لتوجيهات عبد الناصر، ولم تقنعهم التسهيلات الكبيرة التي قدمت إليهم ليستثمروا أموالهم في المشاريع الاقتصادية التي دعوا إليها. ووضعوا أموالهم في مشاريع المباني وغيرها ذات العائد السريع. حددت هذه الظروف كلها اتجاه عبد الناصر الوطني والاجتماعي. ففي مواجهة امتناع أمريكا عن تمويل السد العالي ووسط حملة إعلامية استهدفت بها التشكيك في سلامة الاقتصاد المصري، أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس. وفي مواجهة العدوان الثلاثي الذي شنته بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ضد مصر عبأ الشعب المصري للمقاومة وأمم الشركات الفرنسية والانجليزية. وذلك رغم نصيحة بعض الاقتصاديين المصريين وقتها بوجوب بيع هذه الشركات للرأسماليين المصريين.

وبدأت نواة القطاع العام في مصر، وظهر الاتجاه واضحا نحو تدخل الدولة في بناء الاقتصاد الوطني.

ودار الحديث وقتها عن أننا اخترنا الاشتراكية، ولكنها اشتراكية متميزة عن كل الاشتراكيات الأخرى، فهي اشتراكية ديمقراطية تعاونية وكان هذا أول حديث لقادة الثورة عن الاشتراكية، وعن أن توجهنا اشتراكي. وكان هذا مقترنا بمعركتنا الوطنية ضد الاستعمار، وفي مواجهة الرأسمالية الداخلية التي امتنعت عن المشاركة في عملية البناء الاقتصادي.

وكان هذا التوجه الاشتراكي لدى عبد الناصر غير واضح وغير متكامل. ولكنه لاقى مقاومة متصاعدة من أنصار الغرب والاقتصاد الرأسمالي حول الطريق الذي يجب أن نسير فيه: هل هو الطريق الرأسمالي أمْ طريق التوجه الاشتراكي. وكان اشتراك الجماهير الشعبية فيه أو أصحاب الرأي من المثقفين التقدميين وتأثيرهم ضعيف على هذا الصراع العلوي. بل ونجح الاستعمار وأعوانه في ذلك الوقت في إشعال حملة «معاداة الشيوعية» بهدف تقسيم القوى الوطنية، خصوصا بعد قيام ثورة العراق في ١٤ يوليو ١٩٥٨ ضد نظام نوري السعيد. وعمل الاستعمار وأعوانه على تعميق الخلافات بين ناصر وقاسم وبين الشيوعيين وباقي القوى الوطنية. وأدى هذا كله في ديسمبر ١٩٥٨ إلى هجوم عبد الناصر على الشيوعيين العرب والقيام بحملة واسعة النطاق في يناير ومارس ١٩٥٩ على أصلب المناضلين الاشتراكيين في مصر، على اليسار المصري، وجندت كل القوى التي خدمت السراي والاستعمار لشن حملة عنيفة ضد الشيوعيين وغيرهم من اليساريين وألقى بهم في السجون والمعتقلات لمدة خمس سنوات عذبوا في سنواتها الأولى تعذيبا وحشيا وقتل منهم الشهداء شهدي عطية الشافعي ومحمد عثمان ود.فريد حداد ولويس إسحق وغيرهم.

وبدأ عبد الناصر تجربة جديدة وعجيبة، فبينما هو كوطني معادٍ للاستعمار يعلن أنه اختار طريق الاشتراكية ويعمل على تدعيم التعاون مع الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية فإنه في نفس الوقت يضع أصلب الاشتراكيين وأكثرهم إخلاصا وإصرارا وتضحية في السجون والمعتقلات.

وبعد تأميم قناة السويس والشركات الانجليزية والفرنسية سار أبعد من ذلك

فقام بتأميم بنك مصر والبنك الأهلي. وفي ٢٠ يوليو ١٩٦١ صدر قرار بتأميم جميع البنوك وشركات التأمين في مصر وسوريا وكذلك أممت ٤٦ شركة في مصر وثلاث شركات في سوريا، وصدر في نفس اليوم قرار بمساهمة الحكومة في ٥٠٪ من أسهم ٨٤ شركة في مصر و١٢ شركة في سوريا. وصدر قرار جمهوري بعدم السماح لأي شخص طبيعي أو معنوي بأن يمتلك من الأسهم ما تزيد قيمته على ١٠,٠٠٠ جنيه وتؤول إلى الدولة ملكية الأسهم الزائدة في ١٤١ شركة بمصر و١٢ شركة في سوريا. وقرار جمهوري في شأن تنظيم منشآت تصدير القطن في مصر وفي انتقال ملكية كبس القطن إلى الدولة.

ونجد التناقض واضحا فيما يحدث: إجراءات اجتماعية تقدمية تتخذ ضد أقسام كبيرة من الرأسمالية في مصر، وقد أصبحت هذه الإجراءات في حاجة إلى دعم وتطوير وحماية. ولكن أكثر القوى الواعية الملتزمة بمصالح العمال والفلاحين والتي وهبت لها حياتها، والتي كانت تستطيع تعبئتها وتوعيتها وتنظيمها للمهام الجديدة الصعبة كانت وراء أسوار السجون والمعتقلات.

وكانت في المجتمع والدولة قوى تعارض هذه الإجراءات لأنها أضيرت منها. ومع ذلك فقد وجد في قمة السلطة وعلى رأسها مجموعة من الوطنيين الثوريين الذين أعلنوا اختيارهم للطريق الاشتراكي.

أخذ منظرو هذه المجموعة يتنقلون ويتخبطون في تحديد المفاهيم حول اشتراكيتهم، فبدأوا بالقول بأنها اشتراكية ديمقراطية تعاونية، ثم قالوا أنها اشتراكية عربية، وقال الميثاق أنها اشتراكية علمية، وحسم عبد الناصر الأمر في إحدى خطبه فقال أن الاشتراكية واحدة، ولكن الطرق تتعدد، وهناك طريق عربي للاشتراكية.

وبعد وفاة عبد الناصر حدثت تغيرات كبيرة سياسية واجتماعية واقتصادية، وأخذ المنظرون أيضا يدلون بدلوهم في هذا المجال ويحاولون الخروج بنظرية جديدة لم يأت بمثلها غيرهم ـ كما يزعمون ـ هي «الاشتراكية الديمقراطية».

فما علاقة هذا كله بما سبقه؟ وكيف يتأتى للقارئ أن يخرج بالحقيقة من وراء كل هذه الاشتراكيات؟

ونظرية «الاشتراكية الديمقراطية» لم تقل بالتخلي عن الطريق الاشتراكي بعد عبد الناصر، وذلك رغم الهجوم العام والذي كان يشجعه بعض المسئولين، ناعتين هذا العهد (عهد عبد الناصر) بأنه يمثل انحرافا عن الخط السليم، وأن الجديد تصحيح له. وأن اشتراكية عبد الناصر منحازة للشرق أو للماركسية اللينينية. بينما الاشتراكية الديمقراطية الجديدة طلبت العضوية في «الدولية الاشتراكية» التي تشترك فيها الأحزاب الاشتراكية الغربية بما فيها حزب العمال الإسرائيلي.

أما السياسة الاقتصادية والاجتماعية التي تسير عليها الدولة في الوقت الحالي، فرغم ما يقال على استحياء من أنها أيضا اشتراكية وإن كانت تختلف عن «اشتراكية الفقر» التي كان عبد الناصر يدعو لها والتي تطبقها البلاد الاشتراكية، فهم يزعمون أن السياسة الجديدة التي لخصت تحت اسم «الانفتاح الاقتصادي» هي التي ستجلب الرخاء عاجلا. إنها لا تمنع أصحاب الأموال من أن يزدادوا غنى، وتمنى الفقراء أنهم سيصبحون ملاكا، فكل فرد سيمتلك أرضا وسيارة شعبية، وكل العرسان سيمتلكون مسكنا. والضمان لتحقيق ذلك هو فتح الباب على مصراعيه لرؤوس الأموال الأجنبية والبضائع الأجنبية من أمريكية وإسرائيلية، وفتح الطريق لإنشاء البنوك الأجنبية وإطلاق حريتها في العمل وفي تصدير ما تجمعه من مدخرات مصرية إلى الخارج. لا قيود على زيادة ثراء الأثرياء وزيادة فقر الفقراء، بحيث تزداد الهوة كل يوم اتساعا بين الدخول، لا قيود على الكسب ولو كان بالنشاط الطفيلي والتحايل على القوانين بل وتعديلها، لضمان استمرار ونمو الفئات الطفيلية، بحيث أصبحت هي التي تحدد في النهاية سياسة الدولة. وهذا كله توضع له النظريات وتؤسس له عقيدة جديدة تسمى «الاشتراكية الديمقراطية». ثم قل بالتدريج الحديث عن الاشتراكية بحيث يكاد الآن يختفي. وتحول اسم الحزب الحاكم من حزب مصر العربي الاشتراكي إلى الحزب الوطني الديمقراطي متخليا تماما عن التسمية الاشتراكية. وبعد أن هيئ الجو تماما بدأت بعض الأقلام تهاجم الاشتراكية وتدافع بصراحة ودون التواء عن التطور الرأسمالي».

هذا هو ما كتبته في فترة السبعينيات. والتطورات التي حدثت بعد ذلك تؤكد التخلي التام عن التمسح بالاشتراكية وتعلن بوضوح اختيار الطريق الرأسمالي. وهم

يزعمون الآن أنهم يقومون بالتنمية على أساس رأسمالي. ولكن هذا غير حقيقي، فالحقيقة أن التنمية التي يقولون أنهم يمارسونها إنما هي تنمية تابعة أي لا تنمية وهي تحقق تشابك مصالح فئة قليلة من الرأسماليين الذين لا يضيفون أي قيمة وإنما تصب الأرباح في خزائن الشركات المتعدية الجنسيات في الخارج.

المؤتمر الأول للحزب الشيوعي المصري:

في عام ١٩٨٠ عقد في مصر المؤتمر الأول للحزب الشيوعي المصري. وكان الحزب قد أعلن تأسيسه في أول مايو عام ١٩٧٥ كرد على الحملة التي قام بها السادات ضد الشيوعيين والتي اعتقل فيها الكثيرون منهم ردا على إضرابات عمال حلوان. وقد قام زكي مراد بإعداد الجزء الأكبر من الوثائق التي قدمت للمؤتمر وخصوصا برنامج الحزب ولكن مقتله في حادث السيارة والذي يشك كثيرون بأنه اغتيل، جعله لا يستطيع استكمال هذا العمل الذي أكمله زملاؤه.

وقد صدر هذا البرنامج في ١٩٨١/١/١ عن دار ابن خلدون في بيروت ووزع بعد ذلك في مصر.

وجاء في مقدمة البرنامج أنه امتداد للثورة الوطنية المصرية، وهو استمرار لمسيرة الحركة الشيوعية المصرية منذ نشأتها في العشرينيات، وهو جزء لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العربية كما أنه كتيبة وطنية في الحركة الشيوعية العالمية. ويؤكد البرنامج أن الوطنية الحقة والأممية وجهان لا ينفصلان ولا يتناقضان لقضية واحدة، قضية الحرية والاستقلال الوطنى وإلغاء استغلال الإنسان للإنسان.

وحدد البرنامج هدفا مباشرا ليس بناء الاشتراكية وإنما إنقاذ الوطن من براثن الثورة المضادة. ومعالجة آثارها المدمرة، وإسقاط سلطة الردة واستكمال مهام الثورة الوطنية الديمقراطية.

وحدد البرنامج أن الحزب هو جزء لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العربية

على كافة الأوراق والمستندات والاستماع إلى الدفاع الذي قدمه كل من الطرفين تقرر اللجنة ما يلي:

في أكتوبر عام ١٩٦٧ ثار النزاع بناء على اتهام السيد/ محمد يوسف الجندي لشريكه السيد/ عبد الحميد السحرتي الذي كان قائما بالإدارة المالية للمكتب منذ تأسيسه في عام ١٩٦٤، بأنه استولى باسم المكتب على مبلغ يزيد عن عشرة آلاف جنيه وذلك بأشكال من التحايل في الحسابات مستغلا الثقة التي أولاها إياه شريكه في إدارة الشئون المالية للمكتب. وقد تم في ذلك الوقت تحكيم ودي اشترك فيه السيدان/ أحمد الرفاعي وزكي مراد واتفق في نهاية الجلسات على تنحية السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي من أية مسئولية مالية أو إدارية أو أية مسئولية أخرى بالمكتب، وتعديل العقد بحيث يتولى السيد/ محمد يوسف الجندي الإدارة والتوقيع منفردا والمسئولية الكاملة عن إدارة المكتب. وذلك بناء على إدانة السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي بصفة عامة بتضليل شريكه والقيام بعدد من التصرفات الغامضة المثيرة للريب برغم تحذير شريكه له. وفرضت على السيد عبد الحميد فهمي السحرتي غرامة مالية مقدارها ١٨٠٠ جنيه تخصم من مستحقاته في المكتب. وقد قبل كل من السيدين/ محمد يوسف الجندي وعبد الحميد فهمي السحرتي هذا الحل الودي وتنازل السيد/ محمد يوسف الجندي مؤقتا عن إصراره على حل الشركة وإخراج السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي بناء على إلحاح المحكمين، وبناء على وعد قاطع من السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي بعدم التدخل بالمرة في أعمال الدار إلا في وقت الحساب السنوي حيث يطلع على الميزانية ويتسلم نصيبه من صافي الأرباح.

بيد أن هذا الحل الودي لم يؤد إلى إصلاح الأمور، ذلك أن السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي لم يحتمل الوضع الجديد وقبل أن تمر أيام بدأ يتصل بأعضاء لجنة التحكيم بسلسلة من الشكاوى ضد المدير الجديد في أمور تفصيلية وتافهة تشكل خروجا على الوعد الذي قطعه على نفسه بعدم التدخل في شئون المكتب بأي شكل من الأشكال. وخلال شهرين اثنين اشتد النزاع من جديد وتقدم السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي بطلب انعقاد لجنة التحكيم الحالية لإجراء

كما أنه كتيبة وطنية في الجيش الأممي الكبير. وحدد أن الوطنية الحقة والأممية الصادقة وجهان لا ينفصلان ولا يتناقضان.

وحدد البرنامج أنه رغم التزامه الماركسية اللينينية فإنه يراعي الخصائص الوطنية والقومية والقسمات المميزة للواقع المصري. ويحترم التقاليد التاريخية الثورية لشعبنا ووطننا.

وقسم البرنامج المسيرة التاريخية للثورة الوطنية المصرية إلى محاور رئيسية ثلاثة:

(١) الثورة قبل يوليو ١٩٥٢ وأن الثورة أفرزت قيادات وطنية بارزة مثل عمر مكرم وأحمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس.

وتحدث عن نجاح الطبقة العاملة (الشيوعيين المصريين) في إقامة تحالف مع المثقفين المصريين عام ١٩٤٦ تجسد في شكل اللجنة الوطنية للطلبة والعمال. وأن الثورة الوطنية المصرية منذ عام ١٩٤٦ أخذت تحولا هاما ولعبت الحركة الشيوعية المصرية دورا رياديا بارزا عندما أكدت على المضمون الاجتماعي للنضال الوطني وطرحت شعارات (الأرض لمن يفلحها) والقضاء على الإقطاع وإلغاء النظام الملكي) وتصنيع البلاد. وحماية الصناعة الوطنية ومحاربة الاحتكارات الاستعمارية وتأميمها وغيرها.

(٢) ثورة يوليو ١٩٥٢ وأكد موقف حدتو السليم من ثورة يوليو. وأنه في المرحلة من أبريل ٥٥ حتى نهايات ٥٨ برزت أكثر فأكثر ملامح الطابع الوطني المعادي للإمبريالية في مواقف ثورة يوليو (مؤتمر باندونج - صفقة الأسلحة التشيكية - الاعتراف بالصين الشعبية - تأميم قناة السويس، العدوان الثلاثي والتصدي له - الدور البارز في حركة عدم الانحياز - مساندة حركات التحرر الوطني - إلخ) واقترن ذلك بإغلاق المعتقلات عام ١٩٥٦ .

وتحدث عن فترة معاداة الشيوعية من يناير ١٩٥٩ حتى منتصف ١٩٦١ والمعتقلات والتعذيب واختلاف موقف الشيوعيين امتدادا لتمايز المواقف بعد قيام ثورة يوليو. وحدد أن تشبث قسم من الحركة الشيوعية المصرية بموقفه المساند لثورة

يوليو باعتبارها سلطة وطنية رغم إجراءاتها المعادية للديمقراطية ضد الشيوعية والتقدميين المصريين هو امتداد للموقف السليم الذي اتخذ في بداية الثورة.

(٣) الثورة المضادة:

جاء في البرنامج أنه في ١٤ مايو ١٩٧١ قام بين السلطة بقيادة أنور السادات مدعما باليمين المعادي للناصرية انقلاب أطاح بقمم الجناح المتمسك بالخط العام الوطني التقدمي لثورة يوليو. وجاء فيه أن نقطة الانطلاق لثورة مضادة شاملة، قام بها تحالف رجعي يضم بين صفوفه بعض القوى الاجتماعية التي نمت وترعرعت منذ الستينيات وتدعمت قوتها الاقتصادية ونفوذها السياسي تدريجيا في أعقاب نكسة ٦٧ .

ويتحدث البرنامج عن خطوات الردة. إنهاء مهمة المستشارين والخبراء العسكريين السوفييت وتخريب العلاقات المصرية السوفيتية والتحول نحو أمريكا الذي وصل إلى الصلح المنفرد مع إسرائيل وقطع الارتباطات العربية وإقامة حلف ثلاثي (ساداتي ـ أمريكي ـ إسرائيلي) ضد حركات التحرر الوطنية العربية والأفريقية.

وفي المجال الاقتصادي تحت شعار (إطلاق المبادرة الفردية والعودة للاقتصاد الحر راحت الثورة المضادة تصفي منجزات ثورة يوليو الاقتصادية والاجتماعية.

وفي مجال الحريات:

* القمع الوحشي الذي لم يسبق له مثيل للإضرابات العمالية والانتفاضة الطلابية خلال سنوات ٧١ـ ٧٥ والانتفاضة الشعبية في ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ .

* حملات القبض الدورية على القوى الوطنية والديمقراطية والتقدمية وتلفيق القضايا السياسية لخصوم النظام.

* إقامة أجهزة قمعية ضخمة في مقدمتها قوات الأمن المركزي مزودة بأحدث الأسلحة والمعدات لسحق أي تحرك جماهيري وتعبئة جيش هائل من الجواسيس والمرشدين وعملاء أجهزة الأمن.

* تعزيز السلطات المطلقة لرئيس الجمهورية في دستور ١٩٧١ الذي يمكنه من الانفراد باتخاذ أخطر القرارات المصيرية دون الرجوع للمؤسسات التنفيذية أو التشريعية وترسانة التشريعات المعادية للديمقراطية والمهدرة لحقوق الإنسان المصري التي أصدرتها سلطة الردة وتصدرها تباعا (قانون الحراسة وتأمين مصالح الشعب ٣٤ لسنة ٧٧ ـ قانون الوحدة الوطنية لسنة ٧٢ ـ قانون حماية الجبهة الداخلية لسنة ٧٨ ـ قانون تعديل نظام الأحزاب السياسية ٣٦ لسنة ٧٩ ـ قانون حماية القيم .. الخ).

* العدوان المتصاعد على الحريات النقابية وعلى الحركة الطلابية.

* مصادرة حرية الاجتماع والتنظيم والتظاهر والصحافة.

* إهدار الحصانة البرلمانية وفصل النواب المعارضين وتقييد حرية الدعاية الانتخابية والتزوير الفظ للانتخابات البرلمانية.

وتحدث البرنامج عن الحركة الشعبية وجاء فيه أن انتفاضة ٩ و١٠ يونيو بمثابة حجر الأساس للظاهرة الثورية الجديدة التي فرضت نفسها على الحياة السياسية في مصر في أعقاب النكسة. ظاهرة الحركة الجماهيرية المستقلة. فلأول مرة منذ ثلاثة عشر عاما، أملت الجماهير الشعبية إرادتها على القيادة السياسية وسبقتها وانتزعت زمام المبادرة منها وجذبتها جذبا إلى الموقف الصحيح ورفعت عاليا لواء الاستمرار في النضال والتشبث بالأهداف والمنجزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لثورة يوليو. وجاء تخفيف الأحكام الصادرة ضد المسئولين عن نكسة الطيران في حرب ٦٧ ليفجر غضبة الجماهير واندلعت في فبراير ١٩٦٨ مظاهرات العمال والطلبة. وعندما صدر بيان ٣٠ مارس وتقرر إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي لم يشف هذا البيان وأسلوب وضعه موضوع التطبيق غليل الجماهير فعاد الانفجار الشعبي من جديد في نوفمبر ١٩٦٨ . وعلى أثر وفاة الرئيس عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠ حاولت قوى اليمين الرجعي استغلال الفراغ الهائل الذي خلفه غياب قائد ثورة يوليو واستشعرت الجماهير تلك المخاطر فخرجت عن بكرة أبيها لتقلب تشييع قائد ثورة يوليو لمثواه الأخير إلى مظاهرة شعبية جبارة تعلن تمسك الجماهير بالمضي

قدماً في طريق الثورة ورفضها الارتداد. وتحدث البرنامج عن الحركات العمالية والجماهيرية الأخرى بعد انقلاب مايو ٧١ وسرد هذه التحركات من الإضرابات والاعتصامات العمالية في المراكز الصناعية الرئيسية: عمال الحديد والصلب يوليو ٧١ ـ عمال مصنع الكوك وشركة النصر للسيارات ـ الترسانة البحرية بالإسكندرية ـ عمال القطاع الخاص بشبرا الخيمة ٧٢ ـ عمال المصانع الحربية بحلــــوان يناير ٧٥ ـ انتفاضة عمال شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة مارس ٧٥ ـ إضراب عمال النقل العام ـ إضراب عمال النصر للصباغة والتجهيز بالمحلة. وتحدث عن الانتفاضة الطلابية في أعــوام ٧٢ و٧٣ و٧٥ . وتصدى الفلاحون بالسلاح لمحاولات طردهم من الأرض وإعادتها للملاك العقاريين القدامى الذين رفعت عنهم الحراسة (كمشيش ـ أبو كبير ـ دكرنس). والانتفاضة الشعبية في ١٨ و١٩ يناير. وجذبت معارضة السياسة المعادية للديمقراطية التي ينتهجها النظام قطاعا هاما من المثقفين المصريين ـ رجال القضاء ـ الذين راحوا من خلال ناديهم يدافعون عن الديمقراطية وحريات الجماهير. ويتحدث عن اتساع قاعدة المعارضة للانفتاح الاقتصادي، كما أخذت المعارضة لاتفاقيات كامب ديڤيد وتطبيع العلاقات مع إسرائيل تنمو وتتصاعد. واتسع معسكر المعارضة لنظام الردة لمختلف القوى السياسية في البلاد من شيوعيين وناصريين ووفديين وجماعات دينية واتجاهات ليبرالية. وهكذا أخذت تلوح في الأفق بشكل متزايد إرهاصات الجبهة الوطنية الديمقراطية. لقد حدد هذا البرنامج بوضوح الخطوط العريضة لأهداف الحركة الوطنية والاجتماعية في ذلك الوقت وكان الحزب الشيوعي يقوم في هذه التحركات الجماهيرية بدور ريادي.

وهذا هو ما كان يزعمه السادات وأبواقه. وحدد السادات استراتيچية في الحرب ضد الخطر الشيوعي، وسار هوس اسمه «خطر الشيوعية». إذا احترقت الأوبرا فقد أحرقها الشيوعيون. وإذا أضرب عمال الأتوبيس فوراءهم ١١ شيوعيا. وإذا هب الشعب في ١٨ و١٩ يناير احتجاجا على رفع الأسعار فالمحرضون هم الشيوعيون. وإذا ارتفعت أصوات تدعو لوحدة كل القوى الوطنية الديمقراطية فوراءها الشيوعيون. كان هذا هو موقف القوى الرجعية قوى الردة عن النهج الوطني. أما

المعارضة في ذلك الوقت فكانت تنتظر دائما من الشيوعيين أن يتقدموا الصفوف. وأن ينيروا الطريق، وأن يكونوا الأكثر عطاء وصلابة ولم يكونوا يتصورون معارضة بلا شيوعيين ولا يفهمون معارضة لا يكون في طليعتها اليسار. وكان هذا كله يعني أن اليسار قد أصبح حركة حقيقية راسخة، هي قوية لأنها تمثل المستقبل وهي قوية لأنها نضجت وعمقت جذورها ولم يعد من الممكن اقتلاعها.

هذا ما قلته في المحاضرات التي كنت ألقيها على زملائنا المحبوسين في سجن طرة عام ١٩٨١ والتي أخرجتها بعد ذلك عام ١٩٩٦ في كتاب عن دار الثقافة الجديدة بعنوان «اليسار والحركة الوطنية في مصر (١٩٤٠ ـ ١٩٥٠)».

وكان هذا الوصف يعكس فعلا واقعا حقيقيا في ذلك الوقت رغم الإرهاب ورغم السجون ورغم أن السادات لم يجد أمامه حلا بعد ذلك إلا أن يعتقل كل رموز المعارضة ويضعها في السجن في سبتمبر ١٩٨١، ثم توالت الأحداث بعد ذلك التي أدت إلى اغتياله على المنصة بأيدي قوى التيار الإسلامي الذي ساعده قبل ذلك بالمال والسلاح لضرب اليسار.

***

(١٤)

الفصل من أخبار اليوم:

سبق أن تحدثت عن أنني أصبحت مراسلا لأخبار اليوم في موسكو عام ١٩٧٠ بعد محادثة تليفونية بينى وبين إحسان عبد القدوس الذي كان يرأس المؤسسة. وقد عينت في البداية بمكافأة. ثم عينت بمرتب. وكان إحسان عندما كنت ألتقي به في القاهرة يقول لي أن هذا يجري بمقاومة من البعض في الجريدة. وفي أثناء وجود إحسان عبد القدوس كانت صحف أخبار اليوم تهتم بنشر ما أبعث به، ولكن بعد تغييره بدأت المعاملة تتغير. وكان تعييني في أخبار اليوم بمرتب ٦٠ جنيها في الشهر إلى جانب بعض المصاريف للاتصالات التليفونية والتلغرافية وغيرها من المصاريف. ولم أحصل على أي شيء مقابل السكن على اعتبار أن دار التقدم كانت تقدم لي السكن. وبعد نقل إحسان عبد القدوس وتعيين موسى صبري رئيسا للدار بدأت المعاملة تتغير فوصلني خطاب من الإدارة بإلغاء التسهيلات التليفونية والتلغرافية ثم أصبح نشر مراسلاتي نادرا. وقد تغير ذلك مع تغير الأوضاع السياسية في مصر وتردي العلاقات مع السوفييت. ولم تعد الأخبار التي تصل من الاتحاد السوفيتي لها نفس الأهمية السابقة لدى المسئولين عن الجريدة بسبب تغير الظروف السياسية.

وكان إحسان عبد القدوس يقول لي أثناء رئاسته للأخبار أن تعييني يلقى معارضة كبيرة من كثير من العاملين والمسئولين في الأخبار. وكنت أفهم أن السبب في ذلك هو اتجاهاتي السياسية. ولم أكن أحس بهذه المعارضة أثناء وجود إحسان ولكن بعد نقله قل الاهتمام بما كنت أرسله من مواد ثم أبلغوني بقرار إلغاء التسهيلات التليفونية والتلغرافية التي كنت أتمتع بها. فجعل مهمتي شديدة

الصعوبة فلم تكن إمكانياتي مع ضآلة مرتبي وهو ٦٠ جنيها مصريا والمصاريف التي تقررت لي وهي ١٤٠ جنيها تكفيني للقيام بعملي. وكان يساعدني أنني كنت لا أزال أسكن في شقة قدمتها لي دار التقدم.

وفي زيارة لموسى صبري إلى موسكو أثرت معه هذا الموضوع. فقال لي أنه مقتنع تماما بأن أحصل على نفس التسهيلات التي يحصل عليها عبد الملك خليل مراسل الأهرام وأنه سيعمل على ذلك.

وتولى علي أمين رئاسة أخبار اليوم بعد إحسان وفي زيارة للقاهرة أثرت معه الموضوع فأبدى تفهما ثم انتقل على أمين وحل محله موسى صبري فقال لي أن طلبي بزيادة التسهيلات قد رفض وأنني يمكن أن أستمر في العمل بالقاهرة وأنه سيتصل بي لتحديد العمل الذي أقوم به. وبعد ذلك لم أستطع لقاءه بحجة انشغاله كما كانت تقول سكرتيرته لي.

وعندما طلبت الإذن بالسفر (وهو أمر كان ضروريا وقتها) قيل لي أن مرتبي موقوف وأنني محال إلى اللجنة الثلاثية لفصلي بسبب تركي لمقر عملي.

قمت بتوجيه الرسالة التالية إلى مدير مكتب عمل غرب القاهرة وأرسلت صورة منها إلى نقيب الصحفيين.

نص الرسالة:

السيد/

تحية طيبة وبعد

فوجئت يوم ١١/١٧ عند تقديمي طلبا إلى السيد عبد الحميد عبد الغني نائب رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم لسفري إلى موسكو مقر عملي كمراسل لأخبار اليوم بأن السيد/ رئيس مجلس الإدارة قرر إحالتي للجنة الثلاثية طالبا فصلي. وفوجئت أيضا بوقف مرتبي عن شهر أكتوبر.

وعند لقائي بالسيد/ كمال عزب نائب المدير العام أخبرني بأن السبب في ذلك هو عدم تواجدي في موسكو للقيام بعملي كمراسل لأخبار اليوم هناك.

لهذا أود أن أضع أمامكم الحقائق التالية:

أولا ـ أنني قد بدأت في منتصف عام ١٩٧١ العمل كمراسل لأخبار اليوم في موسكو. وأنني منذ ذلك الوقت ولمدة ثلاث سنوات وبالذات حتي ١٩٧٣/٨/١ كنت أقوم بعملي على خير وجه بشهادة المسئولين ومنهم السيد/ موسى صبري نفسه. وبشهادة صحيفة أخبار اليوم التي أبرزت في عددها بتاريخ ١٩٧٣/٦/٢٣ بأن «أخبار اليوم» قد انفردت بنشر خبر زيارة بريجنيف لباريس بعد زيارته لواشنطن وأن «مراسل أخبار اليوم» في موسكو استطاع أن يسبق جميع الصحف العالمية ووكالات الأنباء بهذا الخبر الذي لم يذع إلا بعد ٤٨ ساعة من نشره في «أخبار اليوم». وأن بعض الأخبار التي نشرت عني كانت تنقلها فوراً وكالات الأنباء عن أخبار اليوم مثل تصريح المسئولين السوفييت عن «الاسترخاء العسكري».

وقيامي بتغطية رحلات الرئيس السادات ونيكسون وزيارة بريجنيف لواشنطن.

وكنت أقوم بمراسلة صحف الأخبار وأخبار اليوم وآخر ساعة وذلك بمفردي. وكنت أزود هذه الصحف بالأخبار والتعليقات والموضوعات والصور.. إلخ. ولم أكلفها إلا مبالغ زهيدة. وقد ساعدني على ذلك أنني حتى آخر ١٩٧٤ كنت أعمل في دار التقدم التي كانت توفر لي شقة وتسهيلات أخرى تساعدني في عملي في الأخبار.

ثانيا ـ في ١٩٧٣/٨/١ وصلتني في موسكو رسالة من السيد عبد العزيز عبد العليم نائب المدير العام وقتئذ يخطرني فيها بإنهاء العمل ببطاقات التسهيلات التليفونية والتلغرافية وذلك بناء على قرار مجلس الوزراء بالنسبة للعاملين في الخارج. بعد هذا القرار كنت أقوم بالاتصال بالوسائل البريدية أو الطائرات أو تليفونياً على نفقتي. وكان هذا بالطبع ما يصعب مهمتي.

ثالثا ـ قدمت في أواخر عام ١٩٧٤ طلبا إلى السيد/ رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم بتعديل وضعي وزيادة المبلغ المخصص لمصاريفي في موسكو. لأنه بانتهاء عقدي مع دار التقدم أصبح من الضروري الحصول على شقة وهي بالنسبة للمراسلين في موسكو لا يمكن أن تقل عما يقابل ٨٠ جنيها مصريا. وطالبت بمصاريف أخرى لتسهيل الاتصال بالصحيفة لاستخدام التلكس بعد منع

الاتصالات التليفونية والتلغرافية وغير ذلك من المصاريف الضرورية. وكان كل ما يحول إليَّ لهذه المصاريف هو ما يقابل ١٤٠ جنيها مصريا. وكنت قد ناقشت السيد/ موسى صبري في ذلك أثناء وجوده في موسكو في أكتوبر ١٩٧٤ أثناء زيارة السيد/ إسماعيل فهمي وأبدى اقتناعه تماما وأكد على ضرورة أن تقدم لي نفس التسهيلات التي تقدم لمراسل الأهرام في موسكو. وتأكد من استحالة ممارستي العمل بالمبلغ الذي كان يحول إليَّ. وعند عودتي إلى القاهرة أبلغني أن مجلس الإدارة رفض طلبي. وعرض على السيد/ موسى صبري أن أنتقل للعمل في القاهرة فوافقت ثم طلب مني الحضور في وقت آخر للاتفاق على العمل الذي يكلفني به. وعندما ذهبت إليه قال لي «انت حتفتح عليك فتحة ليه؟». انت مقدم طلبات انتظر إلى أن يفصل فيها، وطلب مني البقاء في القاهرة.

رابعا ـ رغم ذلك لم أتوقف عن إرسال الموضوعات والأخبار الخاصة بالاتحاد السوفيتي واشتزكت في مختلف الصحف والمجلات السوفيتية وواصلت الاتصال بمصادر الأخبار كان لي فيها السبق الصحفي. ومنها خبر اختيار فلاديمير بولياكوف سفيرا للاتحاد السوفيتي ونبذه عن حياته. وحرصت في نفس الوقت على التردد على موسكو على نفقتي عند سفر الوفود. وفي يناير ١٩٧٥ طلبت من السيد/ موسى صبري أن يصرح لي بالسفر إلى موسكو فأخذ يماطل بحجة أنه مشغول. فطلبت التصريح من المرحوم علي أمين رئيس مجلس الإدارة حينئذ فقال: هل معنى ذلك أنك تنازلت عن طلباتك؟ فقلت له: لم أتنازل ولكني سأسافر مادمت مراسلا وكتبت طلبا بهذا المعنى. فأعطاني التصريح وسافرت في مارس ١٩٧٥ . وكان يزور موسكو في ذلك الوقت وفد اقتصادي. وحاولت عن طريق زملائي الصحفيين أن تتصل بي الأخبار دون جدوى، وقد بعثت عديدا من الرسائل عن طريق مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط ولم ينشر منها شيء. عدت إلى القاهرة وكتبت رسالة لم تنشر. ثم قدمت عددا من الرسائل للأستاذ موسى صبري نشر بعضها دون أن يشير إلى المصدر. عند سفر السيد/ إسماعيل فهمي إلى موسكو في منتصف عام ١٩٧٥ اتصلت تليفونيا بالأستاذ موسى صبري وسألته إن كان يريدني أن أسافر، فقال: لا سأسافر أنا. ولكنني سافرت بعد انتهاء الزيارة بتاريخ لاحق وبعثت إليه برقية على نفقتي ليتصل بي تليفونيا فلم يتصل. وكانت آخر مرة

سافرت فيها إلى موسكو في ديسمبر ١٩٧٥ وعدت في يناير ١٩٧٦ . وكتبت رسالة عند عودتي أرسلت منها نسخة للسيد/ علي أمين ونسخة للأستاذ موسى صبري ونسخة للسيد/ نبيل عصمت ولم ينشر منها شيء. وأخيرا عند وفاة ماوتسي تونغ كتبت تعليقا بخصوص توقعات السوفييت ولم تنشر أيضا. ولكن نشر نفس المعنى بعدها بثلاثة أسابيع نقلا عن الوكالات الأجنبية.

ومازالت الصحف السوفيتية التي اشتركت فيها تصلني إلى الآن بانتظام. ولم أكل عن المحاولات أن أكون مفيدا ومنتجا للمؤسسة ولكن يبدو أن السيد/ موسى صبري رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم قد بيت أمرا. فهو يرفض سفري إلى موسكو ويضع أمامي كل العراقيل حتى لا أستطيع تأدية مهمتي وذلك كي يجد المبرر بعد ذلك لفصلي من عملي بحجة عدم تواجدي في مكان عملي.

خامسا ـ حاولت أكثر من مرة بعد أن أصبح السيد/ موسى صبري رئيسا لمجلس الإدارة أن أقابله لأناقشه في وضعي فكان يتهرب من مقابلتي.

فذهبت إليه وبقيت أنتظره في غرفة الاستقبال وعندما وجد إصراري على لقائه بعث مع السكرتيرة أنه سيتصل بي ولم يقابلني، فتركت رقم تليفوني. ولم يتصل بي بالطبع.

مما تقدم يتبين أن السيد/ موسى صبري كان مبيتا النية على قراره. فهو يمنعني من السفر إلى موسكو مقر عملي ويرفض نشر ما أبعث به ثم يرفض في النهاية مقابلتي أو تحديد عمل آخر لي حتى يجعلني في وضع يسهل له فيه مؤاخذتي.

وأخيرا وقف مرتبي وقرر إحالتي إلى اللجنة الثلاثية طالبا فصلي.

أرجو أن تتدخلوا لحماية حقوقي وتمكيني من العودة لممارسة عملي.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

محمد يوسف الجندي

المحرر بأخبار اليوم

مراسل أخبار اليوم في موسكو

تحريرا في ١٩٧٦/١١/٢٢

جرد كامل لأنه يتهم شريكه المدير الجديد بالاستيلاء على مبالغ من بيع موجودات في المكتب. وانعقدت لجنة التحكيم الحالية وقررت في جلستها الأولى إجراء جرد شامل كلف بالإشراف عليه عضو اللجنة الأستاذ/ زكي مراد بمعاونة السيد المحاسب/ عويس محمد أحمد. وبعد انتهاء عملية الجرد التي استمرت أكثر من عشرين يوما انعقدت لجنة التحكيم وتدارست محضر الجرد ثم استمعت إلى دفاع الطرفين المتنازعين ودرست المذكرتين المقدمتين من السيد/ محمد يوسف الجندي ودفاع السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي ردا على هاتين المذكرتين وتتلخص طلبات السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي في استمرار الشركة بناء على عقد جديد قدم هو مشروعا مفصلا له بحيث يضمن تقييد سلطة المدير في كل ما من شأنه أن يثير ريبة شركائه.

وتتلخص طلبات السيد/ محمد يوسف الجندي في إلزام السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي برد مبلغ وقدره ١٦٠٠٠ جنيه مصري (ستة عشر ألف جنيه) يتهمه باختلاسها من نشاط المكتب وهي عبارة عن ١٠ آلاف جنيه (عشرة آلاف جنيه) فروق أسعار كتب وستة آلاف جنيه (٦٠٠٠ جنيه) فروق بيع الورق المستلم والورق المطبوع فعلا .. مع فصله من الشركة على أن يخصم نصيبه فيها من الديون التي عليه للشركة بحكم اختلاسه للمبلغ المذكور سالفا مع إنهاء حقه في الشقة رقم ٥ بالعمارة رقم ٣٢ ش صبري أبو علم بمحافظة القاهرة.

وتقرر لجنة التحكيم بعد المداولة فيما بين أعضائها أنه:

حيث تبينت اللجنة استحالة استمرار هذه الشركة لانعدام أي درجة من الثقة اللازمة بين الشركاء.

وحيث إن المبالغ التي يتهم السيد/ محمد يوسف الجندي السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي باختلاسها هي عبارة عن ١ـ فروق في أسعار العمليات اللازمة لإصدار الكتب وكميتها بين ما يتفق عليه مع مكتب الصحافة وبين ما يطبع فعلا ـ يسلم السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي كجزء محدد منها وهي الخاصة بخمسة عشر كتابا تبلغ الفروق فيها ٣٧٠١,٨٢ جنيه. ٢ـ وثمن بيع فائض ورق ما استلمه باسم المكتب من مكتب الصحافة يبلغ ٦٩١٦,٧ جنيه. ولم

أرسلت نفس الرسالة إلى نقيب الصحفيين وإلى اللجنة النقابية بمؤسسة أخبار اليوم وإلى العضو المنتدب بمؤسسة أخبار اليوم والمدير العام لقطاع النشر بأخبار اليوم والأمين الأول للجنة المركزية ورئيس المجلس الأعلى للصحافة ولوزير الثقافة والإعلام.

ولكن يبدو أن الأمر لم يكن مجرد قرار فردي من موسى صبري.

وتحدد لي موعد يوم ١٩٧٧/١/١٨ للحضور أمام اللجنة الثلاثية منطقة الغرب. وحققت اللجنة الثلاثية الموضوع وانتهت إلى رفض طلب المؤسسة بفصلي. وسلمت صورة لممثل المنشأة لإيداعها بملف العامل وصورة لممثل العمال والثالثة لرئيس اللجنة لتسليمها إلى مديرية القوى العاملة لحفظها في ملفاتها وقد تم التنبيه على ممثل المنشأة بإخطار المكتب بالقرار النهائي للمنشأة خلال عشرة أيام من تاريخه.

ورغم ذلك واصلت مؤسسة أخبار اليوم محاولاتها ضدي ففي أثناء وجودي في سجن الاستئناف بمناسبة أحداث ١٨ و١٩ يناير استدعيت إلي نيابة أمن الدولة بسبب دعوى مؤسسة أخبار اليوم بأنني استوليت على أموال بدون وجه حق (وهي عبارة عن المرتب الذي كان يحول إليّ) بزعم أنني تركت مقر عملي وأنني حصلت عليه بدون مقابل. وأبدى ممثل النيابة استخفافه بهذا الاتهام وقرر حفظ التحقيق.

ومع ذلك وبعد قليل وأثناء وجودي في سجن الاستئناف وصلني إعلان على يد محضر بفصلي بسبب الغياب من ١٩٧٧/٣/٧ وقال مندوب أخبار اليوم أمام مدير مكتب علاقات العمل بأنني أعمل مراسلا لأخبار اليوم بموسكو بأجر قدره ٦٠ جنيها مضافا إليه مبلغ ٤٠ جنيها بدل اغتراب + ١٠٠ جنيه إيجار مكتب ومصاريف. وأضاف أن المدعي عليه غادر مقر عمله بموسكو بدون إذن من المؤسسة بترك العمل مما حمل المؤسسة أعباء مالية واعتبرت المؤسسة أن هذا يعد إخلالا جسيما بالتزاماته الجوهرية فقررت فصله في ١٩٧٧/٣/٧ .

وقد أحال المكتب هذا الطلب ومرفقاته برأي مؤداه أن الفصل يشوبه التعسف لعدم وجود تحقيق إداري.

ورفعت دعوى أمام محكمة شئون العمال الجزئية بالقاهرة. وقد حكمت المحكمة بجلسة ٧٨/٣/٩ بوقف قرار المدعي عليه بصفته بأن يؤدي لي أجرا شهريا قدره ٦٠ جنيها من تاريخ الفصل في ١٩٧٧/٣/٧ حتى تاريخ الحكم.

وعملت على تنفيذ هذا الحكم واضطرت المؤسسة أن تدفع لي ما حكمت به المحكمة حتى تاريخ المطالبة. ولكنها لم تلغ قرار الفصل لأنها لم تكن تملك ذلك. ورأى الدكتور عصمت سيف الدولة المحامي عني أنه لا داعي للاستمرار في النزاع والاكتفاء بالاهتمام بعملي في دار الثقافة الجديدة.

أعتقد الآن أن هذه الإجراءات التي اتخذتها ضدي مؤسسة أخبار اليوم لم يكن المسئول عنها موسى صبري وحده بل كان وراءها أجهزة الدولة التي كان يتصاعد عداؤها للشيوعية وللقوى الوطنية عموما. ولم تكن هذه الأجهزة التي لها عملاؤها ونفوذها داخل أخبار اليوم راضية في البداية عن تعييني في المؤسسة، ولهذا كانوا يتصيدون أي ثغرات أو يفتعلونها لطردي من المؤسسة. وقد استمر هذا الموقف العدائي حتى بعد خروجي من المؤسسة سواء في حملات التضييق على دار الثقافة الجديدة وتهديد الموزعين الذين يقومون بتوزيع كتبها واعتقالي مرة كل عامين والاستيلاء على الآلات الكاتبة وعدد من الكتب من الدار. ثم في مذكرات مباحث أمن الدولة في البلاغات التي قدموها للنيابة مدعين أن دار الثقافة الجديدة تمول الحزب الشيوعي المصري.

أما من ناحيتي فكنت أرغب بالفعل في الانتقال إلى مصر بسبب طول فترة غيابي في الاتحاد السوفيتي، وكان من الممكن في الظروف الطبيعية أن يتم ذلك الانتقال بالاتفاق مع المؤسسة. وليس صحيحا أن المؤسسة كانت ترغب في وجودي كمراسل لها في موسكو بدليل القيود والعقبات التي كانت تخلقها لي لتجعل عملي هناك مستحيلا. وكان من الممكن أن أنتقل إلى القاهرة وأستمر محررا في أخبار اليوم. ولكن هذا كله لم تكن ترغبه هذه الأجهزة.

واستمرت مضايقات مباحث أمن الدولة والأمثلة عديدة:

- في صباح أحد الأيام عندما ذهب العاملون إلى مقر دار الثقافة الجديدة وجدوا الباب مشمعا بالشمع الأحمر. اتصلت بالمباحث وكان أحد ضباطها يتردد كثيرا أمام باب التجمع فأخبرني أنني مطلوب وذهبت معه إلى المباحث التي حولتني إلى النيابة وبقيت عدة ساعات أفرجت عني بعدها بكفالة وكانت كل «المضبوطات» عبارة عن مطبوعات علنية لحزب التجمع.

- في يوم آخر استدعت المباحث العامل في منهل الثقافة الذي كان يتبع الدار. وعندما عرفت بذلك اتصلت بماجد الجمال المسئول في قسم مكافحة الشيوعية، فطلب مني أن أذهب لاستلامه وذهبت وبقيت منتظرا عدة ساعات، وقال لي ماجد الجمال بسخرية «عطلناك». فقلت له: «نعم». فقال: «أحسن .. بدل ما تطلع كتاب».

- في إحدى مرات سفري إلى بيروت فتشت تفتيشا دقيقا وأخذوا مني مخطوط كتاب «قصة السوفييت مع مصر» الذي أصدرته الدار وكنت أحاول أن أنشره نشرا مشتركا مع دار ابن خلدون في بيروت.

- أصدرنا مجلة غير دورية باسم «الثقافة الجديدة» صدر منها العدد الأول، أما العدد الثاني فقد حجز صاحب المطبعة الكمية التي طبعها ورفض تسليمها واستدعيت إلى إدارة الأمن حيث حاول المسئولون الضغط عليّ لعدم إصدار العدد فرفضت ذلك. ورفعنا دعوى ضد صاحب المطبعة لتسليم المجلة غير الدورية، حكمت المحكمة لصالح صاحب المطبعة بحجة أنها مجلة يجب الحصول على تصريح بإصدارها.

- دعوت بعض المثقفين منهم الدكتورة لطيفة الزيات وحلمي شعراوي وفريدة النقاش لدراسة بعض الإصدارات، فاتصل بي ماجد الجمال تليفونيا أثناء الاجتماع فقال أن هذا اللقاء غير قانوني. رغم أنه كان لقاء في مكان خاص. وفهمت من ذلك أنني مراقب مراقبة شديدة.

الاعتقال في مارس ١٩٨١ :

في إحدى ليالي شهر مارس ١٩٨١ وبعد منتصف الليل سمعت طرقا شديدا على الباب أيقظني من النوم. وكان الجرس لا يعمل. فتحت الباب فوجدت ضابط المباحث وعددا من المخبرين. قاموا بتفتيش الشقة التي كنت أستأجرها في المهندسين وكالعادة أخذوا بعض الأوراق والتسجيلات واقتادوني إلى دار الثقافة الجديدة حيث استولوا على الآلات الكاتبة وبعض الكتب، ثم ذهبنا إلى نيابة أمن الدولة التي اتهمتني بعضوية الحزب الشيوعي المصري وقيادته والترويج للأفكار الشيوعية وكانت أدلة الاتهام كالعادة هي تقارير المباحث العامة والمضبوطات التي تشمل الآلات الكاتبة التي نستخدمها في الدار والمعروف أن أي دار تحتاج في عملها إلى آلات كاتبة. واستولوا على آلات كاتبة باللغات العربية والإنجليزية والروسية. حضر معي في الدفاع الدكتور عصمت سيف الدولة. وأمرت النيابة بحبسي وحولت إلى سجن مزرعة طرة حيث وجدت العديد من زملائي في نفس القضية منهم نبيل الهلالي ومبارك عبده فضل وغيرهما. وسكنا في عنبرين كبيرين. وفي سجن طرة استطعنا أن نحصل على الكتب وقمنا بنشاط ثقافي وسياسي وألقيت سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الحركة الشيوعية في الأربعينيات، وواصل مبارك عبده فضل الحديث عن الخمسينيات وكذلك عن الانقسامية في الحركة الشيوعية. وقد لقيت هذه المحاضرات اهتماما كبيرا ومناقشات واختلافات وقد استطعت إخراج هذه المحاضرات من السجن وأصدرت المحاضرات الخاصة بي في كتاب صدر عن دار الثقافة الجديدة بعنوان: «اليسار والحركة الوطنية في مصر» (١٩٤٠ ـ ١٩٥٠) وفيه قدمت ردا على الفكرة التي كان يروجها البعض على أن الحركة الشيوعية في مصر كانت مجرد انقسامات عديدة لم يكن لها إلا دور ضئيل في الحركة السياسية في مصر. وتحدثت عن أن تاريخ الحركة الشيوعية كان يضم تيارا ثوريا وهو الذي يميز دورها الفعال في الحركة الوطنية المصرية وتيارا انتهازيا كان هو المسئول عن انتكاسات هذه الحركة وانقساماتها. ولم أرد في هذا البحث أن أقول أن تنظيما معينا كان هو التيار الثوري حتى لا تعمق دراستي الاتجاهات الحلقية التي تعوق عملية الوحدة. فضلا عن أنه في ممارسات كل التنظيمات كانت هناك أعمال ثورية

وإيجابية وكانت هناك اتجاهات انتهازية. ولكننا إذا نظرنا إلى مجمل نشاط تلك المنظمات فإنني أعتقد أن الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) كانت إلى حد كبير وفي مجمل نشاطها تمثل التيار الثوري رغم وجود بعض الأخطاء في ممارساتها أو في ممارسات بعض قادتها. وأن طليعة العمال كانت في مجمل ممارساتها تمثل التيار الانتهازي رغم أن هناك بعض صفحات ناصعة في عملها ورغم وجود عناصر ثورية لعبت دورا هاما في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية.

وكان التيار الثوري ومازال يتميز أساسا بالجماهيرية والعمل من أجل الوحدة وتأكيد الموقف الأممي مع الحرص على الموقف المستقل بالنسبة للقضايا الوطنية والمحلية. والموقف الخلاق من النظرية مع بعض السمات الأخرى. أما التيار الانتهازي فكان يتسم بالانعزالية والاتجاه الانقسامي المعادي للوحدة والموقف الجامد من النظرية والموقف التابع لمن كانوا يسمون بالأشقاء الكبار - وغير ذلك من السمات.

من إنجازات التيار الثوري ذلك الجهد الذي تم في الوحدة أساسا بين الحركة المصرية والتحرر الوطني واسكرا مع عدد من المنظمات الصغيرة الأخرى، ذلك العمل الذي عمل الاتجاه الانقسامي على تخريبه بحجة وجود خط يسمى خط «القوات الوطنية الديمقراطية» بمناسبة صدور خط سياسي يدعو إلى أن يكون حزبنا حزبا لكل القوات الوطنية والديمقراطية. والذي توالت بعده الانقسامات بحجة العمل ١٠٠٪ أو ٩٠٪ بين العمال إلخ. ومن الأعمال الثورية الكبيرة ذلك العمل الذي تم بالتعاون بين الطلبة والعمال في الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني واسكرا أساسا الذي أدى إلى تشكيل اللجنة الوطنية للطلبة والعمال والدور الوطني الكبير في أعوام ٤٦، ٤٧، ٤٨.

ثم تشكيل حركة السلام وحركة الكفاح المسلح في القنال والتحرك بين المثقفين في الخمسينيات سواء قبل الثورة أو بعدها والدور الذي لعبه هذا التيار داخل الحركة العمالية لتوحيد النقابات وتكوين اللجنة التحضيرية لاتحاد عمال مصر.

والدور الذي قام به هذا التيار داخل الجيش وبين الضباط الأحرار مما كان له تأثير في التوجه الوطني لحركة الضباط الأحرار ولقيادة ثورة يوليو بعد ذلك.

وفي مقابل ذلك كانت هناك الاتجاهات الانعزالية (التمسك بتنظيمات السلام والشباب السرية) ومحاربة حركة السلام والعمل ضد الوحدة وتكريس الانقسامية كانت كلها من سمات التيار الانتهازي الذي أثر بالسلب على الحركة الشيوعية وممارسة دورها بين الجماهير.

عرضت ذلك كله في سلسلة المحاضرات التي ألقيتها في سجن طرة وقد أثارت مناقشات كثيرة وكان لها تأثير هام في توضيح الكثير من القضايا.

وفي ذكرى ميلاد لينين أقمنا احتفالا ألقيت فيه كلمة عن لينين ونضاله في روسيا وفي تأسيس الحزب البلشفي. وبعد عرضي قام أحد الرفاق الشبان بتقديم وردة لي تقديرا لهذا العرض.

اعتقالات سبتمبر:

وفي أثناء وجودنا في سجن طرة وصلتنا أخبار اعتقالات سبتمبر التي قام بها السادات وشملت عناصر فعالة في قوى المعارضة من شيوعيين وتجمعيين ووفديين وديمقراطيين وغيرهم من القوى المعارضة وشملت شخصيات مثل محمد حسنين هيكل وفؤاد سراج الدين وعصمت سيف الدولة وإسماعيل صبري وفؤاد مرسي وغيرهم. وعناصر من الإخوان المسلمين. وتوالت خطابات السادات الاستفزازية والتى انتهت باغتياله على المنصة على يد قوى التيار الإسلامي التي عمل السادات بنفسه في السبعينيات على دعمها بالمال والسلاح والتدريبات كي تتصدى لليسار. وكنا في السجن نتابع هذا كله عن طريق أجهزة الترانزستور، وجاءنا خبر الاغتيال أولا عن طريق أحد المساجين العاديين الذي كان يسمح له بمشاهدة التليفزيون. ولكن لم يتأكد لنا خبر موته. وأخذنا نتابع الأخبار عن طريق إذاعات العالم التي أذاعت أنه أصيب ولكن بعد فترة أكدت وفاته. وكانت تنتابنا في هذه الفترة القصيرة مشاعر عديدة، فنحن من ناحية ضد مبدأ الاغتيالات ولكننا كنا نشعر أن أعماله وتصرفاته وخطاباته الاستفزازية هي التي أدت للوصول إلى هذا الوضع. بالإضافة إلى أننا كنا نشعر أنه إذا كانت الإصابة غير قاتلة فقد تؤدي عودته من

جديد إلى المزيد من التنكيل والإرهاب استمرارا للأسلوب الذي سار عليه منذ فترة بلغت ذروتها باعتقالات سبتمبر.

بعد الانتخابات الرئاسية الجديدة وانتخاب حسني مبارك رئيسا للجمهورية أعلن أنه سيسير على طريق السادات. ولكن دارت بيننا مناقشات كنا أميل فيها أنه سيحدث تغيير عن أسلوب السادات.

اقتدنا للمحكمة للنظر في المعارضة في حبسنا وأفرجت عنا المحكمة. ولكن ذلك حدث بعد اغتيال السادات الذي أعقبه إعلان حالة الطوارئ واعتقالات عديدة شملت الإسلاميين وبعض قوى اليسار. وخرجنا من سجن طرة دون أن نعرف إن كنا سنحول لمباحث أمن الدولة من أجل إجراءات الإفراج ولكن اللوريات التي حملتنا سارت بنا إلى ليمان أبو زعبل حيث حولنا إلى معتقلين، وكان بعض المعتقلين يضربون ويعذبون عند استقبالهم ولكن لم يحدث ذلك معنا. التقينا هناك مع الكاتب الصحفي محمد عودة الذي اعتقل أيضا وقال لنا بفكاهته المعروفة أن «السادات قتل على الطريقة الإسلامبولية».

عرفنا ونحن في أبو زعبل أن حسني مبارك أفرج عن معتقلي سبتمبر وأنه التقى بهم في الرئاسة. وفي ديسمبر أفرج عنا.

وكان السادات قبل اغتياله قد صعد المواجهة مع الشيوعية والاتحاد السوفيتي ومع كل القوى الوطنية المعارضة التي أخذ يتهم بعضها بالشيوعية وأنها تعمل لحساب الاتحاد السوفيتي. ومن ذلك اختلاق قضية «التفاحة» التي اتهم فيها بعض الوطنيين الذين لم تكن لهم أي علاقة بالشيوعية بالعمل لحساب الاتحاد السوفيتي. وطرد السفير السوفيتي «بولياكوف» من مصر، وأخذ السادات يلقى التصريحات بأنه مستعد للانضمام لحلف الأطلنطي وأنه يستعد لإرسال القوات المصرية في أي معركة ضد الشيوعية واعتبر العدو الأول هو الاتحاد السوفيتي، أما أمريكا فهي صديقتنا. ولهذا كانت الإشادة به في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بلاد أوروبا الغربية وإسرائيل حتى اليوم. ولكن تزايدت الكراهية له بين الشعب المصري وباقي الشعوب العربية. وكانت جنازته هزيلة بعكس جنازة عبد الناصر. وفقدت فيه أمريكا وإسرائيل صديقا مخلصا.

وبعد اغتيال السادات حدثت بعض التغييرات بدأت بالإفراج عن معتقلي سبتمبر. وعندما سأل أحد الصحفيين حسني مبارك إن كان سيتبع خط عبد الناصر أم السادات أجاب «أنا اسمي حسني مبارك» تأكيدا لتميزه عن الاثنين.

ولم يتخل مبارك عن جوهر السياسة التي بدأها السادات ولكنه عمل على إعادة العلاقات مع البلاد العربية وتحسينها مع الاتحاد السوفيتي وحاول داخليا أن يعيد العلاقات مع قوى المعارضة التي زاد التوتر وتصاعد العداء بينها وبين السادات. وحافظ على العلاقات الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية ولكن حرص على التمايز. واستعادت بعض المؤسسات الوطنية مثل وزارة الخارجية دورها وتأثيرها الذي كان السادات يعمل على إلغائه مما أدى إلى اصطدامه بعدد من وزراء الخارجية واستقالتهم (إسماعيل فهمي ـ محمد كامل).

ومع ذلك فإن حسني مبارك يؤكد دائما على أن السادات هو بطل الحرب والسلام ولا يغفل في نفس الوقت دور جمال عبد الناصر قائد ثورة يوليو. ويجمع نظامه بين أنصار السادات وغيرهم من المعتبرين من الناصريين.

***

(١٥)

حضور الزوجة والابنة إلى مصر

بعد عشر سنوات من الزواج نجحت زوجتي نادية وابنتي أناستاسيا في الحضور إلى مصر من موسكو. وقد تطلب ذلك جهودا مضنية تخللتها اعتقالات وسجن أعوام ٧٧، ٧٩، ١٩٨١ - وكانت التعقيدات التي تعترض تحقيق ذلك تأتي من مباحث أمن الدولة في مصر ومن الإجراءات البيروقراطية في الاتحاد السوفيتي.

وكانت زوجتي تراسلني في هذه الفترة وتبعث إليّ بصور ابنتي وأخبارها وتطورها والمشاكل التي تواجههما بعيدا عن الزوج والأب. وكيف حرصت على الاهتمام بتربيتها وقد أدخلتها دار الحضانة ثم روضة أطفال ثم المدرسة الداخلية وكانت تأخذها في نهاية الجمعة حتى صباح الاثنين وترسلها في الصيف إلى مخيمات الأطفال أو تذهب معها إلى أحد المصايف السوفيتية التي كان يمتلىء بها الاتحاد السوفيتي، وأدخلتها مدرسة تتعلم فيها اللغة الإنجليزية كلغة إضافية. وكانت تبعث لي بكل أخبارها وبالتطور الذي تمر به في مراحل عمرها. وكانت زوجتي تعمل في إحدى المؤسسات السوڤيتية.

وكان اسم زوجتي قبل الزواج ناديجدا ميخائيلوفنا كورونكوفا - فغيرت اسم العائلة إلى الجندي فأصبح اسمها ناديجدا ميخائيلوفنا الجندي. ويطلق الروس عادة اسم نادية اختصارا على من يسمون ناديجدا رغم أنهم ينطقونه بطريقة مختلفة فيركزون على المقطع الأول. ولهذا لم يكن اسمها غريبا علينا هنا في مصر.

وحسب إجراءات الجوازات السوفيتية يتمتع السوفييت بباسبور داخلي وهو يوازي البطاقة الشخصية عندنا، وجواز سفر خارجي يمكنها من السفر إلى البلاد

يقدم السيد/ عبد الحميد السحرتي دفاعا مقنعا بصدد هذه المبالغ إلا زعمه أنه اشتراها بثمن رخيص وباعها بثمن أغلى ودفع الفروق باسم المكتب كنسبة توزيع لمكتب الصحافة، بينما لا تزيد نسبة التوزيع هذه عن ٥٠٠ جنيه (خمسمائة جنيه) على الأكثر .. وبينما أنكرت الجهة التي زعم أنه اشترى منها هذه الكميات من الورق.

وحيث إن اللجنة قد أدانت من قبل السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي بالتضليل والغموض ورأت في تصرفاته خروجا على المبادئ السليمة في العمل واستهتارا بالثقة التي وضعت فيه.

وحيث أن اللجنة ـ حتى وإن لم تأخذ بكافة المبالغ في كشوف السيد/ محمد الجندي ـ على أنها مختلسة من جانب السيد/ عبد الحميد السحرتي إلا أنها لا تستطيع أن تتجاهل مبلغ ٣٧٠١,٨٢ جنيه المعترف بها من جانب السيد/ عبد الحميد السحرتي مع تقديم مبرر أنه كان يوزعها كنثريات أو مصاريف لم يستطع التدليل عليها، كما لا تستطيع اللجنة أن تقتنع بالدفاع الذي قدمه السيد/ عبد الحميد السحرتي في موضوع اتهامه ببيع فائض ورق بمبلغ ضخم يشكل المقدار الثابت فيه فقط ٦٩١٦,٧١ دون أن يورد منها شيئا للمكتب. وحيث إنه لذلك ترى اللجنة أن هذين المبلغين ومجموعهما ١٠٦١٨,٥٣ يسأل عنهما السيد/ عبد الحميد السحرتي وحده، لأنه حتى لو أخذ بدفاعه فإن شريكه قد حذره من هذا الأسلوب ورفضه مرارا باعتراف السيد/ عبد الحميد السحرتي، ثم إنه لم يوردها بالفعل للمكتب. وحيث إن المكتب قد جردت موجوداته وأصوله وخصومه حتى ٦٧/١٢/٣١ بصورة قبلها الطرفان تماما. وحيث إن عمليات الطباعة والترجمة وإعداد الكتب من المصادر الرئيسية لأرباح الشركة القائمة، وحيث إن السيد/ عبد الحميد السحرتي استباح لنفسه أن يستولى على نسب خاصة من هذه الأرباح الأمر الذي يشكل في حد ذاته خروجا على مبدأ الثقة المفترضة بين الشركاء. وحيث إن السيد/ عبد الحميد السحرتي قد اعترف بمبلغ ٣٧٠١,٨٢١ جنيه السابق الإشارة إليها. وحيث إنه قد قبل أن يتحمل مبلغ ١٨٠٠ جنيه من ذلك المبلغ كعقوبة له

المدونة عليه. ولم يكن من السهل لأي شخص الحصول على جواز سفر خارجي إلا إذا كان مسافرا لسبب معلوم ولم يكن يعطي للكافة. ومنذ عام ١٩٧٨ حصلت نادية على جواز سفر خارجي للحاق بأب ابنتها. أما إجراءات الزواج الرسمي فكانت معقدة. فكانت الأنظمة البيروقراطية في الاتحاد السوفيتي تتطلب الحصول على موافقة بلد الزوج. وكنت قد عقدت زواجا إسلاميا في جامع موسكو ولكن هذا لا يكفي فلا يعترف إلا بالزواج المدني أمام موثق الزواج. وموافقة بلد الزوج تعني موافقة مباحث أمن الدولة وكانت هنا المشكلة.

ذهبت زوجتي إلى القنصلية المصرية في موسكو وطلبت فيزا إلى مصر ولم يأت أي رد. فطلبت مني أن أعرف السبب فطلبت من أحد المعارف في وزارة الخارجية المصرية أن يتحرى عن السبب فعرف أن سبب الرفض هو هذه التأشيرة الغريبة. أن «المصريين الذين سبق لهم الزواج من مصريات وكان لهم منهن أولاد لا يسمح لهم بالزواج من بلدان الكتلة الشرقية، خاصة، حفاظا على روابط الأسرة». وصحيح أنه كانت لي زوجة مصرية. ولي منها أولاد ولكني انفصلت عنها فمن حقي الزواج وكذلك من حقها. فلماذا أمنع من الزواج من أبناء الكتلة الشرقية بالتحديد وهل الزواج من مصريات أخريات أو من بنات أخريات خارج الكتلة الشرقية لا يهدد روابط الأسرة. وكيف يمنع الإعتراف بهذا الزواج وقد تم بالفعل ونتج عنه ابنة.

وكان الدكتور عصمت سيف الدولة زوج أختي هو الذي يتصدى دائما للدفاع عني وتولى مشاكلي القانونية، فكتب مذكرة إلى اللواء حسن أبو باشا وزير الداخلية في ذلك الوقت وقال له أي شرع أو عرف أو قانون يمنع حضور زوجة لتعيش مع زوجها ومنع ابنة مصري من اللحاق بأبيها. وقابل حسن أبو باشا وحصل منه على الموافقة بإعطاء التأشيرة لزوجتي وابنتي بالحضور إلى مصر. وتطلب الأمر مني أيضا الذهاب إلى موسكو في سبتمبر ١٩٨٢ وقد حلت نصف المشكلة وقمت بحلها هناك لتسجيل الزواج مدنيا وأقمنا احتفالا بهذا الخصوص في منزل نادية.

وصلت نادية وأناستاسيا إلى القاهرة في يناير ١٩٨٣ وقدتهما إلى الشقة

التمليك التي كنت قد استلمتها حديثا في مدينة نصر. وكنت قد انتقلت إلى هذه الشقة عام ١٩٨٢ وكان عليّ أن أفرشها وكانت عندي ثلاجة ايديال اشتريتها بعد الانفصال عن زوجتي الأولى وساعدني أخي أحمد في شراء غرفة نوم واستبدلت بعض الأثاث المستعمل من شحاتة هارون مقابل سجادتين صينيتين كنت قد اشتريتهما من موسكو. واشتريت من أختي عايدة أثاث مطبخ كانت تريد التخلص منه. وهكذا جاءت نادية وأناستاسيا على أثاث متواضع، كان علينا أن نستكمله بالتدريج. وكنت قد أعددت لهما عند حضورهما دجاجة وأرزا. وبدأت نادية تتولى أمور المنزل سواء من حيث إعداد الطعام أو تنظيف المنزل وفوجئت أنها تمتلك كفاءات كبيرة في هذا المجال. ولم ألاحظ ذلك في بيتها في موسكو حيث كانت تعمل طول اليوم وكانت أمها تتولى هذه المهمة.

يضاف إلى ذلك أنها لم تكن تعرف كلمة واحدة باللغة العربية ولكنها كانت تحرص على النزول لشراء احتياجاتنا اليومية وتستخدم في ذلك الإشارة. وهناك جمعية تعاونية أمام المنزل وأرادت أن تشتري لحما ووجدت طابورا أمام الجمعية فوقفت في الطابور انتظارا لدورها. فجاءها العامل في المحل وسألها عما تريد فأشارت له إلى اللحم فأحضر لها ما تريده فلم ير من قبل سيدة أجنبية تقف في الطابور.

وبدأت هي وأناستاسيا تحاولان تعلم اللغة العربية. وأحضرتا كراسة تدونان فيها الكلمات وجمل المحادثة الضرورية.

وعند حضورها صدمتها قلة الأماكن الخضراء في الشوارع بالمقارنة مع الاتحاد السوفيتي. وصدمتها أيضا القمامة أمام المنازل وفي الشوارع. ولكنها أخذت تتأقلم شيئا فشيئا.

قررنا أن ندعو إخوتي للعشاء وأعدت لهم نادية عشاء روسيا. وتعرفوا على زوجتي وابنتي .وكان أحمد قد التقى بنادية في موسكو أما الباقون فقد التقوا بها لأول مرة. وأحضروا بعض الهدايا مثل الأطباق وخلافه مما كان ينقص منزلنا وكنا نحتاج إليها بشدة.

وكنت أترجم طول الوقت لعدم وجود لغة مشتركة. وفكرت نادية للترحيب بهم أن تقدم أغنية ورقصة أوكرانية. وهو أمر غير معتاد هنا عند استضافة الضيوف. ولكنها كانت تريد تسليتهم وإكرامهم. وأمضينا المساء بشكل مرح.

حاولنا إدخال أناستاسيا المدرسة الروسية في الدقي ولكن إدارة المدرسة رفضت بحجة أن المدرسة مقصورة على أبناء الدبلوماسيين.

ولهذا بحثنا عن مدرسة عربية تدخل في برنامجها دراسة اللغة الإنجليزية. ووجدنا مدرسة في مدينة نصر غير بعيدة عن المنزل أدخلناها هناك. وكان باقي التلاميذ قد بدأوا الدراسة. كانت الدراسة صعبة عليها لأنها لم تكن تعرف اللغة العربية. فقد عاشت في موسكو حتى بلغت التاسعة من عمرها. وكانت تحب مدرستها وأصدقاءها من المدرسة في موسكو. ولم تخبرها أمها أنها ستبقى وتدرس في القاهرة. ووجدت صعوبات كثيرة في المدرسة. ولكنها بنت ذكية واستيعابها سريع. وطلبت منا إدارة المدرسة أن نشتري لها قمطرا تجلس عليه. لنقص الإعدادات في المدرسة. فتعجبنا لهذا الطلب.

التحقت أناستاسيا بالمدرسة في شهر أبريل وانتهت السنة الدراسية في شهر مايو وانتقلت إلى السنة الرابعة الابتدائية. وفي العام التالي انتظمت في المدرسة من سبتمبر حتى مايو وأدت امتحان الشهادة الابتدائية واجتازت الامتحان. ولم تكن أناستاسيا سعيدة في مدرستها ولا بإقامتها في مصر. فقد كانت في موسكو تحلم بأن تصبح من الطلائع. ثم تصبح عضوا في الكومسومول، مثل أحلام كل الأطفال والشباب السوفييت. وكانت في المنزل تنشد الأناشيد السوفيتية. وأخذت تحجم عن تعلم اللغة العربية رغم أنها أصبحت تستطيع القراءة بالعربية وتحفظ بعض الآيات القرآنية في المدرسة.

ومع من لا يعرف اللغة الروسية كانت تتحدث بالإنجليزية التي كانت تدرسها. وكانت تؤكد أنها روسية وترفض التأقلم مع الوضع الجديد. ولم تحاول تكوين صداقات في مدرستها ولم تتصادق إلا مع ابنة منى وحش ابنة أختي عايدة والتي تسكن بالقرب منا.

وساعد على تأزم هذا الوضع أنها لم تكن لها علاقات مع أختها نادية وكانت في ذلك الوقت في الرابعة عشرة من عمرها وظلت تحت ضغوط والدتها تمتنع عن إقامة علاقات مع أنستاسيا. وقد أمكن علاج هذا الوضع بعد ذلك وبعد أن عدنا من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٠ .

ولهذا فبعد الانتهاء من الامتحان في مايو، سافرت زوجتي وابنتي إلى موسكو وظلتا حتى شهر سبتمبر. أصرت أنستاسيا على البقاء في موسكو في مدرسة داخلية وعادت زوجتي وحدها.

ولكبر سن جدة أنستاسيا فقد عهدت زوجتي إلى إحدى صديقاتها بمتابعة أحوال أنستاسيا ورعايتها. وقد رحبت بذلك.

وتأقلمت زوجتي مع الأوضاع في مصر وكانت تحرص وتسعى إلى ذلك. وتوثقت العلاقات بيننا ونما الحب ووجدت فيها زوجة وصديقة ورفيقة تحرص عليّ وعلى عملي وراحتي وتحاول أن تكيف حياتها مع حياتي واهتماماتي وعملي.

وزوجتي من مواليد موسكو في أول أكتوبر عام ١٩٤٤ أي نفس يوم عيد الثورة الصينية. وهي تؤكد ذلك ولكن ليس لها اهتمامات سياسية. ومع ذلك فقد كانت عضوة نشطة في الكومسومول (الشباب السوفيتي) وكانت عضوة نقابية نشطة في مكان عملها. وهي كيماوية أنهت الدراسة الجامعية من جامعة موسكو عام ١٩٧٠ . ثم عملت في معهد الكيمياء الحيوية وكان لها نشاط بارز في الكومسومول وفي اتحاد النقابات بحيث عرضوا عليها عام ١٩٧٢ الترشيح لعضوية الحزب الشيوعي السوفيتي فرفضت، وقالت لمن عرضوا عليها أنها لم تنضج بعد لتستحق هذه العضوية. وتكرر هذا العرض مرة أخرى عند انتقالها لعملها الآخر في معهد رفع مؤهلات العاملين في الصناعات البترولية وكانت عضوية الحزب في ذلك الوقت يتكالب عليها أصحاب المآرب الوصولية والانتهازية، التي أصبح الحزب مع انفراده بالسلطة سنين طويلة يغلب عليه هذا النوع من الناس. حتى أنه عند انهيار الاتحاد السوفيتي تحول أغلب هؤلاء وأصبحوا يسمون أنفسهم «ديمقراطيون» وعلى رأسهم يلتسن الذي كان عضوا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي

السوفيتي. والحقيقة أن غالبية الحكام الذين كانوا يحكمون الاتحاد السوفيتي هم الذين أصبحوا قمة في النظام الجديد المعادي للشيوعية والذي أصبح يخدم أهدافا أخرى معادية لأهداف الحزب الشيوعي السوفيتي.

وكانت زوجتي تقول لي أنه يوجد خارج الحزب شيوعيون حقيقيون أصدق وأكثر إخلاصا من أولئك الذين يستخدمون عضوية الحزب لأهداف ذاتية انتهازية.

ورغم أنها رفضت عضوية الحزب الشيوعي عندما كان هذا الحزب هو الحزب الحاكم والطريق إلى الترقي والحصول على ميزات. فإنها الآن في كل الانتخابات التي جرت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي تصوت إلى جانب الشيوعيين وتعطي صوتها لزيوجانوف رئيس الحزب الشيوعي الروسي. وتقول أنه رغم كل السلبيات إلا أن الأوضاع في ظل وجود الاتحاد السوفيتي كانت أفضل لصالح الغالبية الساحقة وتقول أن هذا هو شعور الروس الآن وإن كانوا لا يريدون العودة إلى الأوضاع القديمة والقيود السابقة.

وزوجتي إنسانة متواضعة تحب العمل، ولا تتوقف عن العمل طوال اليوم. وتقوم بأي عمل مادام مفيدا ومنتجا. وترفض أن يعمل في منزلها أي شغالين فهي تقوم بالعمل كله وحدها. وبيتها دائما نظيف وجميل وملأته بلمسات فنية تثير إعجاب كل من يزور البيت. وفي فترة رأت أننا نحتاج إلى طلاء الجدران فسألت عن الأسعار ووجدتها مرتفعة لا تتفق مع ظروفنا المالية. فانتهزت فرصة سفري إلى أحد معارض الكتاب في خارج مصر وانكبت على كساء جدران المنزل بالقماش وقامت بنفسها بطلاء الأجزاء التي تحتاج إلى طلاء. وفوجئت بذلك عند عودتي وكان ذلك كله بأقل المصاريف.

وأنا أسلمها مبلغ ١٥٠ جنيها كل أسبوع لمصاريف البيت من غذاء ومصروفات أخرى تحرص على أن تكفيها وأحيانا توفر بعض المبالغ لتشتري لي قميصا أو تشتري لنفسها احتياجاتها القصوى أو هدية لأمها التي تعيش في موسكو أو لإحدى صديقاتها في المناسبات الهامة. وهي تفكر دائما في احتياجات المنزل وتنزل بنفسها إلى السوق وتتحدث مع البائعين باللغة العربية التي تحاول تعلمها

وتساومهم. وأصبحت تعرف مدينة نصر حيث نسكن أفضل مني وتعرف أرقام الأوتوبيسات ووسائل المواصلات الأخرى التي تستخدمها في تنقلاتها ولا تستنكف ذلك كما تفعل كثير من صديقاتها وتحب الناس والحديث معهم وترفض استخدام التاكسي. ويرق قلبها لمشاكل الناس وتحاول مساعدتهم وخصوصا أطفال الشوارع.

وهي تعشق الأطفال وكان أول عمل لها في موسكو في دار حضانة للأطفال. واستمر حبها للأطفال وترى ذلك على وجهها إذا رأت أي أطفال صغار تحاول مداعبتهم والحديث معهم وتشعر حيالهم بحب شديد.

ولها صديقات كثيرات من الروسيات المتزوجات من مصريين والمقيمات في القاهرة. وهن يحببنها ويلجأن إليها للمشورة أو للمساعدة أو في المناسبات الاجتماعية المختلفة. وهي أيضا تلجأ إليهن ولا يتأخرن عن مساعدتها عندما يستطعن ذلك. وأصبحت لها علاقات واسعة.

وهي لا تحب الذهاب إلى الأطباء إلا عند الضرورة القصوى ولا تحب الأدوية وتعتبر أن ضررها أكثر من نفعها. وهي تشاركني في موقفي هذا الذي تكون على مدى خبرة سنين طويلة. وقد بدأت في الانتظام في ممارسة التمارين الرياضية المنتظمة عندما كنت في الواحات وأصبحت أضيف عليها من قراءاتي في اليوجا ومن تمارين أخرى. وعندما تعرفت عليها في موسكو كانت كتلة من النشاط علمتني التزحلق على الجليد. وبعد الزواج أصبحت هي تمارس تمارينها التي تقرأ عنها في الكتب الطبية الشعبية الروسية التي تشتريها من روسيا وتحاول بها علاج الأمراض التي قد نتعرض لها سواء نزلات البرد أو ضغط الدم أو السكر أو غيره وتقدم لي العلاج من قراءاتها عن الطب الشعبي. فأصبحت لا ألجأ إلى الأدوية إلا عند الضرورة. وأتناول بانتظام دواء ضغط الدم وأحاول أن أضبط ضغط دمي أساسا بالرياضة والمشي. والابتعاد عن الملح والدهون.

وأنا حريص على الحفاظ على صحتي أساسا وتنمية قدرتي على العمل والذي لا أستطيع الحياة بدونه. وإذا فقدت هذه القدرة فلن أكون حريصا على الحياة. فلا أحب أن أعيش عالة على الآخرين. بهذا التقت طموحاتنا وصفاتنا وأهمها حب العمل وتقديسه وحب الناس والحرص على مساعدتهم.

وازدادت معرفتي بها بعد الزواج، وعمق ذلك تفاهمنا وحبنا.

وكنت في البداية لا أرحب بالزواج من أجانب، ولكن معرفتي بنادية وتعميق هذه المعرفة أقنعني أن اختياري كان ناجحا. لأن شخصيتها وميزاتها تغلب وتغطي على كل السلبيات التي يمكن أن تنشأ من الزواج من أجنبيات.

فقد توثقت علاقاتنا وأصبحت تهتم بعملي ومشاغلي وتحاول دائما أن تساعدني فعند الاحتياج لها في العمل في الدار أثناء المعارض كانت تقوم بأي عمل يسند إليها أفضل من الآخرين، وذلك رغم ضعف معرفتها باللغة العربية. وتولت بشكل كامل في الدار تنظيم وتصنيف الكتب العلمية وغالبيتها باللغة الانجليزية.

وأكبرت فيها رعايتها واهتمامها بأمها التي بلغت من العمر عند كتابة هذه السطور ٨٧ عاما. وهي تحرص كل عام أن توفر المال لزيارتها في موسكو والعناية بها ومساعدتها والعمل على تلبية احتياجاتها. ولم تنصرف عنها بعد الزواج والانتقال للعيش في بلد آخر بعيد.

***

قضايا فكرية
نشاطات ثقافية متشعبة

كنت أشعر بأننا في أشد الحاجة إلى مجلة فكرية وناقشت في ذلك المفكر محمود أمين العالم وكنت أعتقد أنه أصلح من يتولى هذا العمل. وعرضت عليه مكانا في مقر دار الثقافة الجديدة لكي يقوم بهذا المشروع الكبير وأن تقدم الدار كل الإمكانيات التي تستطيع تقديمها لإنجاح هذا العمل.

وافق محمود العالم وقام بجهد كبير وخلاق حتى صدر العدد الأول ونشر مقالتي «العمل النظرى ضرورة عملية» في افتتاحية العدد الأول. وكانت مجلة مستقلة لا تتبع دار الثقافة الجديدة. ولهذا كان يكتب على غلافها أنها تصدر مؤقتا عن دار الثقافة الجديدة. واستمر هذا الوضع لمدة ست سنوات صدر من المجلة تسعة أعداد. وكان كل عدد يدور حول موضوع رئيسي ويشتمل على ندوة.

وقد نجحت المجلة بفضل الجهد الكبير الذي قام به محمود العالم مع الفريق الذي عمل معه وخصوصا السيدة/ ماجدة رفاعة حفيدة رفاعة رافع الطهطاوي والتي تولت سكرتارية تحرير المجلة. وتعتبر أعداد المجلة مراجع للباحثين والكتاب والمفكرين وحصلت مرتين على جائزة معرض الكتاب. وأصبح لها اسم واسع في مصر وفي البلاد العربية. صدر منها حتى استقلالها الكامل الأعداد التالية:

(١) من الذي يحكم مصر

(٢) مصر بين التبعية والاختيار الاشتراكي

(٣) أزمة النظام الرأسمالي في مصر لماذا؟ إلى أين؟
(٤) الطبقة العاملة: التراث ـ الواقع ـ آفاق المستقبل.
(٥) الصراع العربي الصهيوني، الجذور والمواقف.
(٦) مستقبل الصراع العربي الصهيوني ـ الانتفاضة الفلسطينية إلى أين؟
(٧) الإسلام السياسي: الأسس الفكرية والأهداف العملية.
(٨) الماركسية: البريسترويكا ومستقبل الاشتراكية.
(٩) سبعون عاما على الحركة الشيوعية المصرية.

وبعد استقلالها وتكوين شركة مستقلة باسم «قضايا فكرية» صدرت الأعداد التالية.

المؤسسة

أصبح المقر الموجود في ٣٢ شارع صبري أبو علم تعمل فيه منشئتان: الأولى هي دار الثقافة الجديدة التي كنت أتولى إدارتها كدار للنشر أصبحنا ننشر العديد من الكتب وكان لاتفاقياتنا مع عدد من المؤسسات السوفيتية أهمية كبيرة لمساعدتنا على الاستمرار والقيام بنشر كتب وإصدارات أخرى. وكنا إلى جانب النشر نقوم بالتوزيع، فإلى جانب إصداراتنا كنا نوزع كتب دور النشر الأخرى المصرية والعربية فضلا عن الكتب السوفيتية، فقد عقدنا اتفاقا مع مؤسسة مجدونارودنايا كينيجا التي كانت تقصر توزيع كتبها على دار الشرق التي كان يمتلكها ممدوح أباظة. وقعنا مع هذه المؤسسة اتفاقا لتوزيع كتبها السياسية والأدبية والعلمية ووسعنا تعاوننا مع عدد من دور النشر السوفيتية مثل التقدم ورادوجا ومير التي قمنا معها بتراجم وبتوزيع مؤلفاتها، واشتركنا في عديد من المعارض العربية في الكويت وسوريا وتونس والشارقة وغيرها من المعارض في باريس وموسكو. وبدأنا في إصدار سلسلة جديدة هي المكتبة الشعبية التي بدأناها بكتيب عن «٢١ فبراير تحول جديد في الحركة الوطنية المصرية» الذي قمت بتأليفه وصدرت عنها إصدارات أخرى مثل «مصر تستطيع تصدير القمح» لجمال الشرقاوي و«المرأة لن تعود إلى البيت» لأمينة شفيق و«الماركسيون المصريون والقضية العربية» لمحمود أمين العالم. و«اتفاق بيريز ـ خليل» لفؤاد مرسي وغيرها. وكان الهدف من هذه السلسلة معالجة سريعة للقضايا الملحة بأسلوب مبسط للقارئ العادي وبسعر مخفض.

وتولى محمود أمين العالم مسئولية منشأة أخرى هي «قضايا فكرية» وكانت تصدر من نفس المكان بناء على عرض مني كما سبق الحديث.

وفكرت بظهور الحاجة إلى وجود مؤسسة كبيرة تضم هاتين المنشأتين إلى جانب مركز البحوث الذي فكرنا أن يقوم حلمي شعراوي بإدارته. وفكرنا أن تكون هذه المؤسسة نوعا من الشركات المساهمة، وبدأنا ندرس الإجراءات واستشرنا في ذلك القانونيين وبدأنا نجمع المساهمات وفتحت حساباً باسم المؤسسة تحت التأسيس في بنك مصر فرع طلعت حرب وأصدرنا إيصالات خاصة بها.

وكان حلمي شعراوي في ذلك الوقت يعمل في الجامعة العربية في تونس. وفي زيارة لتونس للاشتراك في معرض الكتاب عام ١٩٨٥ التقيت بحلمي شعراوي وعرضت عليه الفكرة وأن يتولى هو إدارة مركز البحوث وأن نتعاون في جمع المساهمات فقمنا معا باتصالات في تونس. وأذكر أننا اتصلنا بالصديق صلاح ناميش الذي كان يعمل أيضا في الجامعة العربية ووافق على الاشتراك واتصلنا كذلك بالدكتور عبد الرازق حسن وغيره. وكان التفكير في هذا الوقت هو إنشاء مؤسسة كبيرة تجمع بين هذه المهام كلها. وقد تغيرت الفكرة بعد سفري إلى براغ عام ١٩٨٦ وعدل عن تكوين مؤسسة كبيرة يتعاون فيها عدد من المنشآت وتقوم بتلك المهام المختلفة (دار نشر وتوزيع ـ مجلة فكرية ـ مركز للبحوث) ولعبت الاعتبارات الذاتية والاتجاه للتجزئة دورها في الاقتصار على إنشاء مركز للبحوث مستقل يتولى مسئوليته حلمي شعراوي.

***

على تصرفاته الانفرادية والتي تتسم بطابع الريبة.

وإذا كان اعتراف السيد/ عبد الحميد السحرتي بذلك المبلغ لا يشكل اعترافا كاملا بكافة المبالغ التي استولى عليها من فروق الطباعة والترجمة وإعداد الكتب.

وحيث إن السيد/ عبد الحميد السحرتي آثر أن يستمر في المراوغة وتعطيل أعمال المكتب.

فإن لجنة التحكيم تصدر حكمها التالي:

أولا ـ ترفض اللجنة الدفع المقدم من السيد/ عبد الحميد السحرتي المؤرخ ٦٨/٣/٢٠ لمخالفته لمشارطة التحكيم.

ثانيا ـ العدول عن تحميل السيد/ عبد الحميد السحرتي بمبلغ ١٨٠٠ جنيه وتحميله بالمبلغ كاملا وبذلك تصبح ذمته مشغولة للسيد/ محمد الجندي بمبلغ ٣٧٠١,٨٢ جنيه.

ثالثا ـ إلزام السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي برد مبلغ ٦٩١٦,٧١ جنيه ثمن فائض الورق ليعاد استخدامه في خدمات ثقافية.

رابعا ـ إخراج السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي من الشركة وقصر الاسم التجاري للمكتب على السيد/ محمد يوسف الجندي.

خامسا ـ سقوط حق السيد/ عبد الحميد فهمي السحرتي في الانتفاع بالشقة رقم ٥ من العقار رقم ٣٢ شارع صبري أبو علم بالقاهرة.

ولجنة التحكيم إذ تصدر حكمها فإنما تعتبره حكما نهائيا مشمولا بالنفاذ المعجل بناء على ما اتفق عليه الطرفان في مشارطة التحكيم.

أحمد الرفاعي **زكي مراد** **فؤاد عبد الحليم**

(١٧)

السفر إلى براغ

كان الحزب الشيوعي المصري في العشرينيات عضوا في الكومنترن، ولكن هذه العلاقات انقطعت في الثلاثينيات لاكتشاف عدد من الجواسيس للبوليس السياسي المصري بين قادة هذا الحزب. ولهذا فعند التكوين الثاني للمنظمات الشيوعية في الأربعينيات لم تكن لها علاقات أممية وساعد على ذلك حل الكومنترن عام ١٩٤٣ . ورغم حل الكومنترن فقد وجدت علاقات مستمرة بين الأحزاب الشيوعية في العالم. وكان للحزب الشيوعي السوفيتي وضع خاص خصوصا في أثناء حياة لينين ثم ستالين. وعندما اختلف الحزب الشيوعي اليوغوسلافي بقيادة تيتو عام ١٩٤٨ مع ستالين ونشوء النزاع بينه وبين الحزب الشيوعي السوفيتي وقفت كل الأحزاب الشيوعية في العالم إلى جانب ستالين. وكانت تعقد لقاءات من وقت لآخر في موسكو أو في غيرها من البلاد «الاشتراكية» تضم ممثلي الأحزاب الشيوعية المختلفة وكانت تتخذ توجهات تحترمها باقي الأحزاب وتلتزم بها. وكان للحزب الشيوعي السوفييتي دور قيادي تحترمه باقي الأحزاب. وبعد وفاة ستالين وبعد أن ألقى خروشوف تقريره في المؤتمر العشرين والذي هاجم فيه عبادة الفرد وكشف ممارسات ستالين وانتقدها بدأت تظهر الخلافات مع الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماوتسي تونغ. وظهر أيضا بعض التمايز مع الحزب الشيوعي الإيطالي، ظهر أولا في كتابات جرامشي ثم في مواقف توليياتي سكرتير عام الحزب الشيوعي الإيطالي. وفيما بعد بدأ ينمو ما عرف باسم «الشيوعية الأوروبية» وظهرت خلافات بين الحزب الشيوعي السوفيتي والحزب

الشيوعي الياباني. وظهرت الخلافات بشكل أوضح بعد التدخل السوفيتي في أحداث المجر عام ١٩٥٦ وغزو دول حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٨. ووقفت الأحزاب الشيوعية في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وغيرها من الأحزاب الشيوعية الأوروبية ضد هذا الغزو وأدانته. وظهرت خلافات في مواقف فكرية أخرى. أما أحزاب أوروبا الشرقية باستثناء يوغوسلافيا وألبانيا فقد وقفت دائما مع الحزب الشيوعي السوفيتي وكذلك الأحزاب الشيوعية في بلدان العالم الثالث لأن الاتحاد السوفيتي كان السند الأساسي لها في نضالها ضد الامبريالية، وكذلك الحزب الشيوعي الأمريكي. وكان مجموع الشيوعيين المصريين في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات يكنون احتراما كبيرا للحزب الشيوعي السوفيتي وللأحزاب الشيوعية الأخرى في الخارج. وكانوا يحاولون إقامة علاقات معها، ولكن تمايزا حدث بين الشيوعيين: فالحركة الديمقراطية للتحرر الوطني رغم احترامها الشديد لهذه الأحزاب وخصوصا للحزب الشيوعي السوفيتي إلا أنها بالنسبة للقضايا الداخلية كانت تشعر بالمسئولية وتتخذ المواقف النابعة من اقتناعاتها ودراستها للواقع المحلي حتى ولو اختلف مع مواقف الأحزاب الأخرى خارج مصر ومثال ذلك الموقف من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وبعد النشأة الثالثة للحركة الشيوعية في مصر في السبعينيات أمكن إقامة علاقات وثيقة مع الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية ومن خلالها أقيمت علاقات مع الأحزاب الشيوعية الأخرى وخصوصا الحزب الشيوعي السوفيتي فأصبحت توجه الدعوات للشيوعيين المصريين لمؤتمرات هذه الأحزاب ووجدت علاقات تضامن وتعاون متبادل معها.

وقد لعب ميشيل كامل الذي كان يقيم في بيروت ثم استقر في باريس دورا في إقامة وتدعيم هذه العلاقات وساعده في ذلك عدد من زملائه الذين كانوا يقيمون في الخارج. وأصدر في باريس مجلة «اليسار العربي». وفي عهد السادات اشترك في تكوين جبهة معارضة في الخارج اشترك فيها الفريق الشاذلي وغيره. وأقيمت علاقات وثيقة مع المنظمات الفلسطينية ومع الحكومات العربية المعارضة لكامب ديفيد ومعاهدة الصلح مع إسرائيل. وقد لعب ميشيل وغيره من الزملاء في الخارج دورا إيجابيا في هذه الفترة.

ولكن وجودهم مدة طويلة في الخارج، وإصرارهم على هذا التواجد حتى بعد أن أصبحت عودتهم لا تمثل لهم أي خطورة، وخصوصا أن عددا من الزملاء عاد بالفعل. كل هذا زاد من عزلتهم وتباينت الخلافات في المواقف مع زملائهم داخل مصر. وكان لذلك خطورته وخصوصا أنهم كانوا يتولون العلاقات الخارجية والمفروض فيهم أن يمثلوا مواقف الحركة في داخل مصر.

كل هذا تطلب أن يتخذ عدد من التغييرات فذهبت إلى براغ لتمثيل مصر في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» بدلا من الزميل الذي كان قد مضى عليه وقت طويل هناك. ثم أصبحت مسئولا عن العمل في الخارج بدلا من الزميل ميشيل كامل الذي رفض العودة إلى مصر وأصر على البقاء في الخارج رغم قرار الزملاء بضرورة عودته.

وأدى ذلك إلى خلاف شديد.

وكان لميشيل علاقات وثيقة مع الأحزاب والمنظمات في الخارج. واحتجت لجهد كبير لتحويل هذه العلاقات إلى مسارها السليم.

ولكن إصرار ميشيل وزملائه على موقفهم وصل بهم إلى الانشقاق.

ولم أكن أريد لهم أن يصلوا إلى هذا الوضع. فعلاقتي بميشيل كانت علاقة جيدة، وقد حاولت فور وصولي إلى الخارج أن نعمل معا ونتعاون. ولكن عناد ميشيل وزملائه وإصراره على البقاء في الخارج وتكوين مركز قوة له هناك وتغليب المصالح والاعتبارات الشخصية على المصالح والاعتبارات العامة أدى بالضرورة إلى هذا الوضع المؤسف.

وقد كانت الاعتبارات الذاتية وتغليبها على الاعتبارات والمصالح العامة هي السبب الأساسي وراء كل الانقسامات والانشقاقات التي عانت منها الحركة الشيوعية المصرية طوال تاريخها.

ولم نكن نفرض على ميشيل كزميل أن يترك باريس ويعود إلى القاهرة. ولكنه لم يكن زميلا عاديا بل كان قائدا ومسئولا .وكانت توجهاته وأفكاره تختلف عن توجهات مجموع الزملاء في الداخل. مما كان يهدد بتكوين مركز قوة مستقل في الخارج.

مجلة «قضايا السلم والاشتراكية»

فور وصولي لتسلم العمل في المجلة التقيت برئيس التحرير «سكلاروف» وكان سوفيتيا. وتحدثنا عن العمل في المجلة وحذرني من مشاغبات ممثل الحزب الشيوعي الياباني.

وأصبحت عضوا في مجلس تحرير المجلة الذي كان يجتمع بشكل دوري. وفيما بين فترات انعقاده كانت تمارس العمل هيئة التحرير (البورد) وكان السوفييت يتولون المسئوليات الرئيسية وخصوصا الوظائف الإدارية التي كانت على صلة مباشرة بموسكو وبالحزب الشيوعي السوفيتي. وكان التمويل الغالب هو التمويل السوفيتي. وتساهم أحزاب أوروبا الشرقية (تشيكوسلوفاكيا ـ المجر ـ ألمانيا الشرقية ـ بولندا ـ منغوليا) بنسبة أقل. ويقدم الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي المقر وبعض الموظفين الإداريين. ويعمل في المقر عدد من المترجمين من الروسية إلى العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية وهي اللغات الرسمية في المجلة، وكانت المجلة تصدر من المقر المركزي باللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية. وكانت هناك طبعات «وطنية» باللغات المختلفة تصدر في البلاد بدعم من المجلة المركزية. وكان هناك دعم للطبعة العربية التي كانت تصدر من دار الهلال بمصر باسم «دراسات اشتراكية» والتي كان إبراهيم عبد الحليم يرأس تحريرها. ودعم للطبعة التي تصدر في بيروت باسم «الوقت» هذا فضلا عن الدعم الذي كان يقدم لطبعات أخرى في البلاد المختلفة.

**

قرر زملائي أن أسافر إلى براغ لأمثلهم في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» بدلا من الزميل الذي كان يعمل هناك وكان قد مضى عليه أكثر من عشر سنوات.

أخذت أعد العدة للسفر وكان هذا الإعداد يشمل عدة أمور: أولها أن أرتب استمرار العمل في دار الثقافة الجديدة أثناء غيابي. وكنت قد تعرفت بماجدة رفاعة أثناء معاونتها لمحمود العالم في قضايا فكرية وأعجبتني شخصيتها وفكرت في أنها

تصلح لأن تتولى إدارة الدار أثناء فترة غيابي. وفاتحت محمود العالم في هذه الفكرة فلم يكن متحمسا في البداية ولكنه ترك لها الرأي. ففاتحتها ووافقت. وأخبرت العاملين في الدار بذلك وأخذت أنقل إليها مسئوليتي.

وأثار زملائي موضوع مسئولية الدار أثناء غيابي، إذ كانوا يشعرون أن المهام التي أخذتها الدار على عاتقها وكانت تقوم بإنجازها لا تجعل مسئوليتها واستمرارها قضية شخصية بصرف النظر عن الوضع القانوني باعتبارها ملكية خاصة لي. وكنت أشعر بنفس الشعور. ولكنني كنت متأكدا أن تغيير وضعها القانوني فضلا عن أنه غير ممكن في الظروف التي كانت موجودة، فإنه لن يحقق الصالح والأهداف العامة التي كرست الدار من أجلها. ولكنني اقترحت أن يتحقق نوع من الإشراف السياسي يقوم به أحد الزملاء الذي اختاروه وأن يكون فضلا عن ذلك مسئولا عن سلسلة «المكتبة الشعبية». رفضوا ورفض الزميل ذلك. وقال البعض أنني أتمسك بملكيتي الشخصية. ورغم أن ذلك كان من حقي. إلا أن الاعتبارات الشخصية لم تكن هي التي تحركني بل الاعتبارات العامة.

وكنت قد اتفقت بالفعل مع ماجدة رفاعة وعملت لها توكيلا. وثبت أن اختياري لها كان سليما بتجربتي الشخصية وتجربة الآخرين.

وفي إطار الاجراءات للإعداد للسفر كان عمل الترتيبات اللازمة لسفر زوجتي إلى براغ.

وكان يوسف ابني قد أنهى دراسته وحصل على الماجستير في الإعلام من جامعة موسكو. وتعرف على زميلة له في الدراسة قبرصية من مدينة ليماسول، وتكونت بينهما علاقة انتهت بالزواج. وقد جرى زواجهما في ليماسول قبل أن ينهيا الدراسة. ورزقا بولد أسمياه «ناجي»، وحضرنا حفل زفافهما الذي حضره العديد من الأقارب والأصدقاء. وحضرته أيضا والدته ليلى التي كانت قد تزوجت من صنع الله إبراهيم وحضر أيضا حفل الزفاف.

وعاش يوسف وزوجته في ليماسول في منزل العائلة ثم استقلا بعد ذلك بمنزل خاص. حاول يوسف تكوين شركة في قبرص وساعدته في ذلك في البداية.

ومرت سنوات قبل أن يستطيع الاستقرار في عمله، حضر بعض الوقت هو وأسرته إلى القاهرة عندما كنت في براغ وعمل فترة قصيرة في الدار ثم نجح أخيرا في إنشاء شركة سياحية سماها «كوروس» كانت تجلب النسياح من روسيا. واستقر وضعه وعمله هناك.

سافرت إلى براغ عن طريق ليماسول لأمر على يوسف وأبحث معه أوضاعه المعيشية في بداية حياته وإمكانية مساعدته وكونا شركة مشتركة باسم «دار الثقافة الجديدة» ولكنها لم تستمر ولم تواصل عملها.

اشتريت تذكرة طائرة إلى باريس على الخطوط التشيكية وكانت تتوقف في براغ، وكنت قد حصلت على تأشيرة تشيكية من القاهرة. ولم تستطع زوجتي أن تسافر معي لأن الحصول على تأشيرة لفرنسا بالنسبة لمواطني الاتحاد السوفيتي كان يتطلب موافقة من باريس وانتظرت هذه الموافقة فترة وتعطلت في القاهرة مرة أخرى بسبب أحداث الأمن المركزي ومنع التجول ووقف الطيران من مطار القاهرة الدولي. وكانت في ذلك اليوم في زيارة لشقيقتي في الدقي واضطرت أن تقطع المسافة من الدقي إلى مدينة نصر سيرا على الأقدام. وأخيرا استطاعت السفر وكنت قد وصلت إلى براغ. وانتظرتها هناك. التقيت بالزميل الذي كان يمثلنا في براغ وأخبرته بالقرارات الخاصة بحلولي محله. فقال لي أنه سيحتاج شهرا يدبر أموره ويسافر إلى القاهرة. واتفقنا على ذلك. واتصلت بإدارة المجلة وأخبرتهم بالتغيير واتفقنا على مواعيد الاستلام.

جاءت زوجتي وذهبنا معا إلى باريس وفي مطار باريس استوقفونا حوالي ساعة ثم استدعوني للتحقيق. وعرفت أن السبب هو أن زوجتي سوفيتية. ثم سمحوا لنا بالدخول.

استضافنا الصديق يوسف حزان في فندق «ستوديا» في شارع سان جرمان بالحي اللاتيني بالقرب من عمله. ورحب بي وبزوجتي التي رآها لأول مرة. والتقيت بميشيل كامل وأخبرته بالقرارات الخاصة بالتعديلات في المجلة. لم يرحب بها. ولكنني أبديت له رغبتي في أن نتعاون.

ذهبت عدة أيام إلى صوفيا لحضور مؤتمر الحزب الشيوعي البلغاري. وتركت زوجتي عدة أيام في باريس. وكانت لا تعرف الفرنسية ولكنها فتنت بباريس. واشترت خريطة للمدينة. وكانت تخرج كل يوم في الصباح الباكر وتقطع المدينة على قدميها. زارت المتاحف وعرفت أماكن لم أكن أعرفها مثل مؤسسة «جورج بومبيدو». وكانت تسير على قدميها من الحي اللاتيني وتمر بالكونكورد والشانزلزيه حتى غابة بولونيا وتعود أدراجها في آخر اليوم إلى الفندق مشبعة بشحنة من الجمال والثقافة في هذه المدينة الرائعة.

وسافرنا من باريس إلى لندن لزيارة أخي الذي كان يقيم هناك حيث بقينا بضعة أيام ثم عدنا إلى باريس ومنها إلى براغ. وكان ذلك في شهر أبريل، أقمنا حوالي شهر في الفندق التابع للمجلة وذلك إلى أن يرتب الزميل الذي حللت مكانه أموره للسفر إلى القاهرة. سلمني عمله في المجلة. والتقينا معا برئيس التحرير.

كانت الظروف في براغ ملائمة لزوجتي لأنها كانت قريبة من موسكو وتستطيع الاتصال بوالدتها بسهولة أكبر. فضلا عن أنها لم تكن تشعر بالغربة لأنها في المجلة كانت تلتقي بالعديد من الروس الذين يعملون هناك وتصادقت معهم.

ورغم أن التشيك لم يكونوا يحبون الروس (بسبب التدخل الذي قام به حلف وارسو عام ١٩٦٨ أثناء ما عرف «ربيع براغ» الذي قاده دوبتشيك قائد الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في ذلك الوقت). فإن لغتهم قريبة من اللغة الروسية التي لم يكن من الصعب التعامل بها في المحلات التجارية.

وأمكننا أن نحضر ابنتنا أناستاسيا من موسكو إلى براغ لوجود مدرسة روسية هناك بعد أن أنهت السنة الدراسية في موسكو في يونيو. وذهبت إلى موسكو والتقيت بابنتي وسافرنا بالقطار إلى براغ وفي محطة براغ كانت زوجتي تنتظرها فعندما نزلت من القطار جرت إليها في انفعال وتعثرت ووقعت على الأرض وقامت وتعانقتا في شوق. كنا قد انتقلنا للسكن في حي يسمى بوهنيتسا. أدخلنا ابنتي المدرسة الروسية وكونت هناك صداقات مع طالبات روس وتشيك.

كانت الحياة سهلة في براغ. كانت تأتي للمنزل في الثامنة إلا الربع صباحا سيارة ميكروباس تابعة للمجلة تنقلني إلى العمل. وكانت زوجتي تساعدني عند

الضرورة في الأعمال الإدارية وكانت تساعدني في تحرير المواد التي أحتاج لكتابتها باللغة الروسية. وكنت أتناول الغداء في مقر المجلة والغداء يبدأ من الساعة الحادية عشرة ويستمر العمل حتى الرابعة مساء. ويقوم الميكروباس بتوصيلنا إلى المنزل. وهناك أقرأ الصحف خصوصا الصحف المصرية التي كانت تصلني بانتظام. وأتناول العشاء. وفي الساعة التاسعة أسمع أخبار التليفزيون الروسي التي كنا نلتقطها بسهولة من براغ ثم آوى إلى فراشي لأستيقظ مبكرا وأقوم برياضتي المعتادة في الغابة التي كانت بجوار المنزل. وأتناول إفطاري وأكون جاهزا في انتظار الميكروباس الذي يأخذني مع باقي زملاء العمل إلى المجلة.

كتبت عدة مقالات في المجلة لقيت استحسانا وكذلك المواد التي كنت أقدمها للنشر.

ومن البلاد العربية وجد مندوبون عن لبنان وسوريا والعراق والسودان والأردن والجزائر والمغرب وفلسطين (الحزب الشيوعي الفلسطيني) ومندوب فلسطيني من إسرائيل (الحزب الشيوعي الإسرائيلي). وأحيانا كان يحضر للمجلة مندوب من البحرين وكان يقيم في سوريا ولا يستطيع الذهاب إلى البحرين (وهو من جبهة التحرير البحرانية) ومندوب من السعودية (من الحزب الشيوعي السعودي) ومن البلاد الآسيوية وجد مندوبون من الهند واليابان وفيتنام والفيلبين وإيران ومن أمريكا اللاتينية وجد مندوبون من كوبا وشيلي والأرجنتين والمكسيك وجواتيمالا وبنما. ومن أفريقيا وجد مندوبون من جنوب أفريقيا والسنغال. ووجد مندوب من الولايات المتحدة الأمريكية تعدى الثمانين من عمره. ومن أوروبا وجد ممثلون للسويد وقبرص واليونان. وكان هناك في السابق ممثلون لفرنسا وإيطاليا ولكنهما انسحبا خصوصا الممثل الإيطالي. الذي قطع علاقاته بالكامل مع المجلة، أما الحزب الشيوعي الفرنسي فقد حافظ على علاقاته رغم عدم وجود مندوب. أما الصين فقد قطعت علاقاتها بعد الخلاف مع الاتحاد السوفيتي.

كانت علاقاتي جيدة مع جميع المندوبين ومع المسئولين في المجلة. وبعد فترة اخترت في هيئة التحرير.

وقد سافرت إلى المغرب ولبنان وإسبانيا والبرتغال واليمن الجنوبي وغيرها من البلاد سواء لحضور مؤتمرات أو غيرها من المناسبات.

وكنا نمضي الإجازة مع زوجتي في منتجعات البلاد الاشتراكية. ذهبنا مرة إلى البلاتون في المجر ومرة إلى ألمانيا الشرقية ومرة ثالثة إلى كوبا. وكانت أول زيارة لنا إلى كوبا.

وأحيانا كانت تأتي زيارات من مصر أو السودان أو غيرهما من البلاد العربية. التقيت هناك بخالد محيي الدين الذي دعته المجلة لزيارتها وكذلك رفعت السعيد ومحمود أمين العالم. وحضر من السودان محمد إبراهيم نقد والتيجاني الطيب وغيرهم.

دخول المستشفى

وسافرت إلى القاهرة أكثر من مرة. وفي المرة الأخيرة وكان فاروق ثابت يوصلني بسيارته إلى المطار صدمتنا سيارة مسرعة من الخلف وارتطم رأسي بمقدمة السيارة. ويبدو أنني أصبت بغيبوبة للحظة ثم شعرت بألم في بطني. وواصلت السفر إلى براغ وأنا متعب وفي اليوم الثاني ذهبت للطبيب الذي حولني للمستشفى ومررت بعدد من الفحوص، وعند خروجي من المستشفى قال الطبيب أنني أصبت بارتجاج في المخ ويجب أن أحذر القراءة الكثيرة أو الإفراط في مشاهدة التليفزيون أو الإجهاد في العمل الفكري لفترة من الوقت، ويبدو أنني لم أستطع مراعاة ذلك. فاستمر عملي وبعد حوالي شهر شعرت بصداع مستمر في رأسي وأخذت الحالة تسوء وكان يسكن في نفس المنزل في الطابق العلوي أحد الزملاء الفلسطينيين من الأردن في المجلة وهو طبيب، كشف عليّ واتصل بالمستشفى الذي أرسل سيارة إسعاف أخذتني إلى هناك. وبعد الفحوص، أخبرني الطبيب أن هناك نزيفا في المخ وأنه يجب إجراء عملية جراحية فورية.

اليوم الثاني قامت إحدى الممرضات بحلاقة شعري وقام أحد كبار أطباء المخ بإجراء العملية. بعد إجراء العملية كنت في غرفة الإنعاش وعندما أفقت من البنج

رفض السحرتي هذا القرار الذي أصدره المحكمون الذين اختارهم بنفسه.وبعد بضعة أيام حضر إلى الدار ومعه ضابط شرطة متهما إياي بأنني اغتصبت الدار التي يشاركني فيها فأخطرته بحكم المحكمين.

وفي أغسطس ١٩٦٨ قمت بتأسيس دار جديدة هي «دار الثقافة الجديدة» وهي منشأة فردية، وظلت موجودة إلى جانب «دار يوليو للنشر» التي استمر النزاع القضائي مع السحرتي بشأنها، ثم قمت بمحو سجل دار يوليو. ولكن السحرتي أدخل «دار الثقافة الجديدة» في النزاع على اعتبار أنها امتداد لدار يوليو.

رفع السحرتي دعوى ابتدائية خسرها وصدقت المحكمة على حكم المحكمين فاستأنف الحكم.

وفي عام ١٩٨٢ صدر حكم الاستئناف بإلغاء حكم المحكمين باعتبار أن مشارطة التحكيم لم تنص على الفصل من الشركة. ومازالت المنازعة القضائية مستمرة حتى الآن ويبدو أنها ستستمر مدة طويلة.

ولكن الواقع منذ ١٩٦٨ وحتى الآن أن دار الثقافة الجديدة مؤسسة فردية لها سجل تجاري مستقل وأصبحت أتحمل مسئوليتها بمفردي حتى الآن.

وأصبح العمل في مجال النشر جزءا أساسيا من نشاطي وحياتي. ولهذا فسوف يشغل مكانا هاما في الصفحات التالية من هذه المذكرات.

***

سألت الممرضة التي كانت تسهر إلى جانبي: لماذا لم تجر العملية؟ قالت أن العملية أجريت. جاءت زوجتي لزيارتي. بقيت بعض الوقت في غرفة الإنعاش وقال الطبيب أنهم اكتشفوا أن السكر مرتفع (١١) حسب المقاييس هناك. وأخذت الممرضات يحقنني بالأنسولين ومنعوا عني السكريات التي أعشقها. ثم نقلت من الإنعاش إلى غرفة مع أحد الفلسطينيين. وبدأت أشعر باحتباس في البول. وقال الطبيب أنه نتيجة تضخم في البروستاتا. وكنت أعاني من التضخم منذ فترة ولكن لم أعان من احتباس البول إلا بعد العملية. فقد وضعوا لي قسطرة للتبول قبل العملية ونزعتها الممرضة بعد العملية. ويبدو أنها نزعتها دون استشارة الطبيب. فقد سمعته بعد ذلك يتشاجر معها ويعنفها. وبعد ذلك أصبحت أتبول بصعوبة، ففي الليل كنت أذهب إلى دورة المياه كل ١٠ دقائق أو ١٥ دقيقة. وينزل قليل من البول.

في الصباح شكوت للطبيب الذي استدعى أخصائي المسالك البولية الذي قال أنه سيبذل محاولات باستعمال بعض الأدوية إن لم تنجح فسيضطر لإجراء عملية جراحية لاستئصال الجزء المتضخم من البروستاتا. وأجرى لي أشعة فوق صوتية تبين منها تضخم البروستاتا وقال لي بعدها أنه من الضروري إجراء عملية جراحية. سألته إن كان ممكنا عملها بالليزر فقال أنه لابد من قطع الجزء المتضخم. وقال أنه لا يستطيع إجراءها فورا لأنني خارج من عملية جراحية في المخ. ويجب أن ننتظر حوالي شهر أو أكثر. وأنه من الضروري تركيب القسطرة مرة أخرى. وهو الأمر الذي لم أكن أحبه.

قال لي الطبيب المعالج أن عملية المخ ناجحة ولم تترك آثارا ولكن عليّ أن أحتاط فلا أتعرض لضربات في الرأس لفترة وألا أعود للعمل قبل فترة نقاهة أمضيها في إحدى المصحات. واعتبر أن علاجي في المستشفى الخاص بجراحة المخ قد انتهى وأنهم سينقلونني إلى قسم المسالك البولية.

أتى لزيارتي بعد عملية المخ عدد من الأصدقاء والزملاء في المجلة.

نقلت إلى عنبر يضم حوالي سبعة مرضى بعد أن كان يزاملني مريض

فلسطيني واحد. وكانوا جميعا من المواطنين التشيكوسلوفاك.

بدأت الاستعداد لعملية البروستاتا وزارني طبيب التخدير وقال لي أنه بسبب قيامي حديثا بعملية جراحية في المخ فلا يوصون بإعطائي بنجا مخدرا كاملا بل سيقومون بإعطائي حقنة في الظهر لتخديري تخديرا موضعيا. ولهذا فلن أفقد وعيي أثناء العملية ولكنني لن أشعر بأي ألم أثناء الجراحة.

بعد انتهاء العملية الأولى وكنت أتلقى مكالمات تليفونية من القاهرة وقبرص وباريس ولندن للاستفسار عن صحتي سواء من إخوتي أو ابني يوسف الذي حضر إلى براغ أو من أصدقائي وزملائي. وتلقيت مكالمة من سوبوتين رئيس التحرير الجديد في المجلة والذي حل محل سكلاروف. وأحيانا كنت أتلقى مكالمات بخصوص العمل وأعمل على حلها بالتليفون.

كنت أتناول كمية كبيرة من الأدوية سواء تلك الخاصة بالمخ وتوسيع الشرايين أو المضادات الحيوية بعد العملية. ولهذا كنت أشعر بالتعب والضعف. وكانت زوجتي تزورني بشكل منتظم وأحيانا كنا ننزل للتجول في حديقة المستشفى.

بعد العملية الأولى كانت تأتي لي إحدى الممرضات لتقوم معي ببعض التمرينات الرياضية الملائمة وكان ذلك يتم يوميا حتى بعد أن قمت بعملية البروستاتا ثم توقفت بحجة أن الطبيب أمر بوقف هذه التمرينات بعد العملية. ولكنني ما أن شعرت بأنني أستطيع القيام من سريري حتى أخذت أنزل إلى الحديقة وأقوم بالتمرينات التي اعتدت القيام بها يوميا ولم أتوقف عنها أبدا.

وفى المستشفى كانوا يحرصون على نظافة المرضى. فالاستحمام يومي فكانت الممرضة تأتي لغسيلي كل يوم حتى بعد العملية مباشرة. وكان التمريض جيدا فإذا ضغطت على الجرس بجانبي تأتي الممرضة فوراً.

مكثت في المستشفى حوالي ثلاثة شهور. وعند خروجي من المستشفى أوصاني الطبيب أن أقلل من البروتين الحيواني ومن السكريات. ورغم حقن الأنسولين التي أعطيت لي بعد العملية الأولى فقد انخفض السكر في الدم، ولم أحتج إلى أي أدوية للسكر بعد ذلك. وكان يرتفع أحيانا إذا لم أراع التقليل من

السكريات ثم يعود طبيعيا إذا امتنعت أو قللت منها. وقللت من اللحوم والأسماك ولم أعد أتناولها إلا مرتين في الأسبوع. وأمارس الرياضة يوميا وأحاول أن أحيا حياة صحية، وبذلك أحافظ على قدرة لا بأس بها على العمل.

وبناء على توصية الطبيب لم أذهب إلى العمل مباشرة بل رتبت الذهاب إلى مصحة تدعى «مارياتسكي لازني» تعتمد على الأساليب الطبيعية في العلاج (الجو ـ المياه المعدنية ـ الحمامات المعدنية ـ التدليك ـ الرياضة ـ الغذاء .. إلخ).

عدت إلى العمل وكنت قد فقدت من وزني ١٠ كيلوجرامات.

بقيت في المصحة ٢٤ يوما. وكان ذلك في شهر يوليو ١٩٨٩ . وفي سبتمبر كانت إجازتي السنوية واخترنا مع زوجتي أن نمضيها في كوبا بدعوة من الحزب الشيوعي الكوبي. وكانت مختلف الأحزاب في البلاد الاشتراكية توجه دعوات إلى مندوبي المجلة لتمضية إجازاتهم في بلادها بناء على اتفاق مع المجلة.

وأثناء وجودنا في كوبا صدر حكم من محكمة أمن الدولة العليا في قضية الحزب الشيوعي المصري التي كنا قد اعتقلنا على ذمتها عام ١٩٨١ . وقد صدرت على عدد من زملائنا أحكام بالسجن وقبض عليهم بالفعل وزج بهم في السجن. وقد صدر ضدي حكم بالسجن ثلاث سنوات. وحاول زملائي الاتصال بي لإبلاغي بذلك. وعرفت وأنا في كوبا بمحاولة الاتصال بي فاتصلت بهم وطلبوا مني تأجيل عودتي إلى مصر. وقد أوقف هذا الحكم بعد ذلك بالنسبة لي وزملائي بقرار من رئيس الوزراء.

إغلاق مجلة «قضايا السلم والاشتراكية»

كنا في المجلة نتابع ما يحدث في الاتحاد السوفيتي والدعوة التي رفعها جورباتشوف حول «البيروسترويكا والجلاسنوست» والأفكار الجديدة عن التغيرات في العالم وقضايا السلام والتغيرات حول مفاهيم الصراع الطبقي، وكان غالبية المندوبين يتعاطفون مع هذه الأفكار. وأذكر أن البعض ومنهم مندوب جنوب أفريقيا

واسمه باهات الذي عرفت بعد التغيرات في جنوب أفريقيا وانتهاء الحكم العنصري أنه أصبح وزيرا. كان ينظر إلى هذه المفاهيم الجديدة بعدم ارتياح.

وأقر بأنني كنت أيضا من المتحمسين لهذه المفاهيم الجديدة وللتحولات التي يقودها جورباتشوف ولكن في النهاية كانت لي انتقادات للتحول الذي حدث في أجهزة الإعلام السوفيتية وخصوصا التليفزيون. وأحسست أن هناك تجميلا لصور الرأسمالية وجلدا للذات وانتقادات مبالغا فيها للتجربة السوفيتية. وقلت هذه الانتقادات في الاتصالات مع بعض المسئولين السوفييت.

وأذكر أنه في هذه الفترة ذهبت إلى موسكو للاشتراك في معرض الكتاب الدولي وحضرت ماجدة رفاعة من القاهرة، فوجدت تنظيم المعرض في غاية السوء. وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي ذهبت فيها ماجدة إلى موسكو وكان انطباعها سيئا للغاية. وعندما كنت أسأل المسئولين عن المعرض عن السبب في هذه الفوضى كانوا يجيبون بسخرية: «أصل عندنا بيروسترويكا».

وكانت الفوضى عامة في المطارات والجمارك. أما المحال التجارية فكانت رفوفها خالية، وكان تفسير القيادة السوفيتية أن هذا بسبب الصعوبات الأولى التي تمر بها البروسترويكا وأن هناك مقاومة من الاتجاهات المحافظة.

وبدأ تحول في توجهات المجلة للدفاع عن التوجهات الجديدة. وكانت هناك مبالغة وشطط في بعض المقالات.

وأذكر في هذه الفترة أن صدر عن قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي نقد وإدانة للتدخل في تشيكوسلوفاكيا وأفغانستان. وقام ممثلو الأحزاب العربية في المجلة بإصدار بيانات مماثلة. وطلبوا مني أن أفعل نفس الشيء فرفضت. وقلت إن تأييدنا للتدخل السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا وكذلك في أفغانستان وقبل ذلك في المجر كان نابعا من ظروفنا الداخلية وليس موقفا ذيليا للموقف السوفيتي. وفي أحد الأيام دعينا لاجتماع لمجلس التحرير لسماع تقرير من سوبوتين رئيس التحرير عن الأوضاع المالية. وقال أنها متردية وقال أن الحزب الشيوعي السوفيتي لا يستطيع مواصلة الدعم الذي يقدمه للمجلة، وطلب اختيار لجنة من ثلاثة تمثل مختلف المناطق

تناقش الموضوع مع رئيس التحرير لتقديم الحلول. واخترت نيابة عن مندوبي آسيا وأفريقيا واختير مندوب من أمريكا اللاتينية وآخرون من أوروبا. واجتمعنا مع رئيس التحرير. الذي عرض علينا الوضع المالي وأن التمويل الأساسي يأتي من الحزب الشيوعي السوفيتي وهناك بعض المساهمات من أحزاب أوروبا الشرقية. وقال أن ٩٠٪ من المصاريف تذهب لتمويل الطبعات الوطنية. فقلت أنه إذا كان علينا أن نختار بين إغلاق المجلة وإلغاء الدعم فالأفضل إلغاء الدعم، ولتواجه كل طبعة وطنية المشكلة وتحاول حلها إن استطاعت. أما انتظار الدعم والطبعات التي لن تستطيع الاستمرار بجهودها الذاتية فلتغلق أبوابها بدلا من إغلاق المجلة المركزية التي تمثل شكلاً هاماً من أشكال التضامن الأممي. واقترحت أن نخفض كل المصاريف غير الضرورية في سبيل الاحتفاظ باستمرار المجلة. وكتبت تقريرا بهذا المعني. وقمت بمناقشات عديدة مع مختلف المندوبين. وكان أغلبهم وخصوصا مندوبي العالم الثالث مقتنعين بموقفي. وعندما تحادثت مع المندوب الإسرائيلي وهو فلسطيني قال لي: لا تجهد نفسك كثيرا، فالمجلة ملكهم وهم الذين يمولونها فإذا أرادوا غلقها فسيغلقونها إن آجلا أو عاجلا.

وناقشت سوبوتين كثيرا فقال لي بيني وبينه أن هناك تغييرات كبيرة تحدث في الاتحاد السوفيتي ولا نعرف ما سيكون عليه الحال بعد مؤتمر الحزب القادم. ويبدو أنه كان لدى العاملين السوفييت وعلى رأسهم رئيس التحرير تعليمات مشددة بإغلاق المجلة وحاولوا أن يتخذوا قرارا «ديمقراطيا» من المندوبين في المجلة للحفاظ على الشكل الذي يقول بأنها مجلة «دولية». وأنا لم أكن أقبل أن أستخدم للإيحاء بهذا الشكل.

وفي حديث جانبي ضم عددا من ممثلي العالم الثالث قال مندوب إيران: «إذا كانوا يريدون إغلاق المجلة فلننشئ نحن مندوبي العالم الثالث مجلة للعالم الثالث».

وقال لي المندوب السوداني أنه سمع أن ياكوفليف ـ وكان رئيسا لقسم العلاقات الدولية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ـ أنه كان مصرا على إغلاق المجلة لدرجة أنه كان يطالب بطرد المندوبين.

في هذه الظروف قامت أحداث تشيكوسلوفاكيا بقيادة هافل والتي أدت في النهاية إلى انتخابه رئيسا للجمهورية وتنحية الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي عن الحكم. فقدم ذلك حجة لسوبوتين وغيره من العاملين السوفييت الذين يحاولون إغلاق المجلة تنفيذا للتعليمات التي لديهم. وقالوا كيف نستمر في المقر الآن خصوصا أن الفاتيكان يطالب باسترداده. وقد كان المقر في الأصل ملكا للفاتيكان وقد استولت عليه السلطات التشيكية بعد سيطرة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي على الحكم. قلت إن هذه كلها أسباب فرعية ولا تناقش القضية الأساسية وهي هل تبقى المجلة كشكل من أشكال التضامن الأممي أو لا تبقى. وإذا قررنا أنها تبقى فستبقى بأقل المصاريف الممكنة وسنجد مكانا آخر وليس من الضروري أن يكون في براغ.

ولكن القرار كان قد اتخذ. فبحثوا عن شكل آخر فعقدوا اجتماعا لمندوبي أوروبا الشرقية باعتبارها الدول الممولة وقرروا إغلاق المجلة دون أي اعتبار لمندوبي أحزاب البلاد الأخرى. واستمرت معارضتي للنهاية وكنت أبدو في نهاية الأمر متطفلا وأنني أتدخل في أمر لا يخصني.

وبدأوا يعدون الترتيبات لسفر المندوبين وقررت أن أغادر في يوليو ١٩٩٠. وعقدت لقاءات مع بعض مندوبي العالم الثالث لنحافظ على اتصالاتنا ونحاول إصدار مجلة للعالم الثالث.

***

(١٨)

العودة إلى مصر

غادرت تشيكوسلوفاكيا نهائيا إلى مصر، بعد أيام قليلة سافرت زوجتي وابنتي إلى موسكو. وكانت رغبة ابنتي أن تبقى وتدرس في موسكو ولم تكن ترغب في الدراسة في القاهرة بسبب تجربتها السابقة. ولكنها لم تسترح في الدراسة في المدرسة التي دخلتها في موسكو. فعادت هي وزوجتي إلى القاهرة ونجحنا في إلحاقها بالمدرسة الروسية في الدقي.

وصلت إلى مطار القاهرة وكانت تنتظرني شقيقتي «سعاد» وابنتها «الدكتورة عايدة سيف الدولة». وكانت عايدة قد حصلت لتوها على درجة الدكتوراه بعد رسالة ممتازة قدمتها في تخصصها. وكانت متخصصة في الطب النفسي.

وكان من الضروري تقديم ورقة بأن الحكم الصادر ضدي قد صدر قرار بإيقافه. وبذلك خرجت من المطار بدون مشاكل.

عدت إلى «دار الثقافة الجديدة» وكانت ماجدة رفاعة تدير الدار. دخلت في جو العمل. وقد صدر في غيابي عدد من المؤلفات الهامة مثل أربعة أعمال لمحمود أمين العالم «الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر» و«مفاهيم وقضايا إشكالية» وكتاب «الماركسيون المصريون والقضية العربية» في سلسلة المكتبة الشعبية. وأعيد طبع كتاب «في الثقافة المصرية» الذي اشترك في تأليفه مع الدكتور عبد العظيم أنيس. وصدر للدكتورة يمنى لطيف الخولي «الحرية الإنسانية والعلم» ولستيفن هوكنج وبترجمة الدكتور مصطفى فهمي كتاب «تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء» و«سيد قطب ـ الخطاب والأيديولوچيا» للدكتور محمد حافظ دياب. ولرودلف كارناب ترجمة الدكتور سيد نفادي

«الأسس الفلسفية للفيزياء» الذي نشرنا من ترجمته أيضاً «الابستمولوچيا التكوينية» لجان بياجيه. وأصدرت الدار للدكتور رشدي سعيد وآخرين «أزمة مياه النيل إلى أين ؟». وأصدرنا كتابين لمحمد إبراهيم نقد السكرتير العام للحزب الشيوعي السوداني وهما «السودان: الانتفاضة ـ الديمقراطية ـ التغيير» و«قضايا الديمقراطية في السودان». وصدر لي كتاب كتبته أثناء وجودي في تشيكوسلوفاكيا قائم على مشاهدة التغييرات في بلاد أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي وهو «ماذا يحدث في العالم الاشتراكي». وكتاب نيكوس بولانتزاس ترجمة عادل غنيم «السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية» وصدر للدكتورة لطيفة الزيات كتاب «من صور المرأة في القصص والروايات العربية». وقدمت عرضا عنه في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية». وصدر للدكتور فؤاد مرسي «المجمع الصناعي العسكري في إسرائيل» و«القطاع العسكري في الاقتصاد الرأسمالي».

وتم الاتفاق مع اتحاد الكتاب الفلسطينيين على أن نصدر بالتعاون معهم سلسلة من الإبداعات الأدبية لمؤلفين فلسطينيين منهم فدوى طوقان ورشاد أبو شاور وليانة بدر وفيصل حوراني وإميل حبيبي ومحمود درويش وغيرهم.

وقامت الدار بالاشتراك مع بهيج نصار بشراء أربعة أجهزة كومبيوتر «ماكنتوش» أصبحنا نستخدمها في «جمع» الكتب التي نصدرها ونبعثها مصفوفة على «كلك» إلى المطبعة، وذلك بدلا من طريقة الطباعة البدائية التي كانت تقوم بها المطابع قبل الكومبيوتر، وأصبحنا بذلك نقوم في الدار بمرحلة هامة من الطباعة وهي «الجمع».

دار العالم الثالث:

قبل أن أغادر براغ منهيا عملي في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» كنت قد أخذت عناوين بعض مندوبي بلدان العالم الثالث من أفريقيا وآسيا وأمريكا واتفقنا مبدئيا على إصدار مجلة للعالم الثالث يكون مقرها القاهرة.

وناقشت مع محمود أمين العالم وبهيج نصار وماجدة رفاعة إنشاء دار نشر جديدة ـ تضم قضايا فكرية والكومبيوتر. وكانت ملكية الكومبيوتر مناصفة بيني وبين بهيج نصار وأضفت مبلغا وأنشأنا شركة ذات مسئولية محدودة باسم دار العالم الثالث. وأودعنا في البنك التجاري الدولي ٥٠ ألف جنيه لا تسحب إلى أن تتم موافقة مصلحة الشركات على تأسيس الشركة وساهم معنا محمد فائق بمبلغ ٥٠٠ جنيه وزوجتي نادية بمبلغ ٥٠٠ جنيه وصلاح عدلي بمبلغ ٢٠٠ جنيه. وكان مستشارنا القانوني هو الأستاذ على الشلقاني وشركاؤه في مكتبه. وقد قام مكتب الشلقاني بكل الإجراءات القانونية من حيث كتابة العقد وإجراءات السجل التجاري وكل الإجراءات اللازمة أمام مصلحة الشركات إلى أن تمت الموافقة على قيام الشركة.

وكنت قد عرضت على الأستاذ على الشلقاني أن يتولى الشئون القانونية في دار الثقافة الجديدة ودار العالم الثالث، رحب بذلك وأبدى استعداده للقيام بالمهمة بدون مقابل.

وأذكر قبل قدومي للقاهرة بقليل أن التقيت مع الدكتور رفعت السعيد في الخارج، وكانت علاقتي به طيبة وكنا كثيرا ما نلتقي في سفرياته للخارج سواء شخصيا أو تليفونيا، وكنت أتباحث معه في كثير من قضايا العمل. وكان يثني على عملي في المجلة وقد دعى مرة إلى المجلة باعتباره أمينا لحزب التجمع، وحدث معه حوار مع بعض لجان المجلة وقمت بعرض لمؤلفاته عن تاريخ الحركة الشيوعية في مصر نشر في أحد أعداد المجلة.

وكانت لي لقاءات مع آخرين عند زيارتهم لبراغ أو أثناء تواجدي في لقاءات في البلاد الأخرى. وكانت هذه اللقاءات تشمل زملاء وأصدقاء مصريين أو سودانيين أو عربا.

عند وجود رفعت السعيد في الخارج جرى بيننا اتصال تليفوني وأخبرته بمشروع إنشاء مجلة «للعالم الثالث»، فرحب بالمشروع وأشار عليّ بالقيام ببعض الاتصالات لدعم المجلة.

واصلت الجهود لتأسيس دار العالم الثالث وأنهينا الإجراءات. وتكونت الشركة وكانت مساهمتي هي الأكبر (أكثر من ٥٠٪) ولم أكن أحرص على ذلك فحاولت أن أضم مساهمين آخرين. نص عقد التأسيس على مديرين هما ماجدة رفاعة وأنا.

وكان من أوائل الإصدارات كتاب للدكتور رمزي زكي حول «محنة الديون وسياسات التحرير في دول العالم الثالث» و«حوار مع ياسر عرفات» بقلم محمود أمين العالم وبهيج نصار. وكتاب لبهيج نصار بعنوان: «البلدان النامية وتجديد الفكر الاشتراكي».

وافقت مصلحة الشركات على تأسيس شركة «دار العالم الثالث للطباعة والنشر» كشركة ذات مسئولية محدودة في ١٩٩١/٧/٣ وقد جرى توقيع عقد الشركة في ١٩٩٠/١١/١ بين:

(١) محمد يوسف الجندي (٢) محمود أمين العالم (٣) مصطفى بهيج نصار (٤) ماجدة فتحي رفاعة (٥) محمد فائق (٦) صلاح عدلي عبد الحفيظ (٧) نادية محمد الجندي.

وجاء في عقد التأسيس أن غرض الشركة هو: القيام بأعمال طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمطبوعات بأنواعها والبحوث المختلفة والاتجار في الوسائل التعليمية السمعية والبصرية والأجهزة المتصلة بذلك وإصدار المطبوعات والكتب المختلفة وتوزيعها وتقديم الخدمات والاستشارات واستيراد وتصدير كل ما تقدم والقيام بأعمال الوكالة التجارية في كل ما يتصل بالنشاط المذكور طبقا للقواعد والقوانين المعمول بها في هذا الشأن.

ويجوز للشركة أن تكون لها مصلحة أو تشترك بأي وجه من الوجوه مع الشركات وغيرها التي تزاول أعمالا شبيهة بأعمالها أو التي قد تعاونها على تحقيق غرضها في مصر أو في الخارج.

كما يجوز لها أن تندمج في الهيئات السالفة أو تشتريها أو تلتحق بها.

وحدد رأس مال الشركة بمبلغ ٥٠,٠٠٠ جنيه مصري موزع إلى ٥٠٠ حصة وكانت المساهمات كما يلي:

(١) محمد يوسف الجندي ٢٥٠ حصة قيمتها ٢٥٠٠٠ جنيه وتمثل ٥٠٪ من رأس المال.
(٢) محمود أمين العالم ١٠٠ حصة قيمتها ١٠٠٠٠ جنيه بنسبة ٢٠٪ من رأس المال.
(٣) مصطفى بهيج نصار ٧٠ حصة قيمتها ٧٠٠٠ جنيه بنسبة ١٤٪ من رأس المال.
(٤) ماجدة فتحي رفاعة ٦٩ حصة قيمتها ٦٩٠٠ جنيه بنسبة ١٣,٨٪ من رأس المال.
(٥) محمد فائق ٥ حصص قيمتها ٥٠٠ جنيه بنسبة ١٪ من رأس المال.
(٦) نادية محمد الجندي ٥ حصص قيمتها ٥٠٠ جنيه بنسبة ١٪ من رأس المال.
(٧) صلاح عدلي عبد الحفيظ حصة واحدة بنسبة ٠,٢٪ من رأس المال.

وقد أودع مبلغ رأس المال بالكامل نقدا في البنك التجاري الدولي على أن يظل مجمدا في البنك ولا يتم التصرف فيه إلا بعد الانتهاء من إجراءات التأسيس وقيد الشركة بالسجل التجاري. وقد تم القيد في السجل التجاري في ١٩٩١/٨/٥ برقم ١٧١٥٧ جنوب القاهرة.

وكانت حصة محمود أمين العالم تشمل تقييما مؤقتا لقضايا فكرية. أما حصة مصطفى بهيج نصار فكانت تشمل تقييما لنصيبه في الكومبيوتر الذي أسهم في شرائه فضلا عن مبلغ آخر أضافه.

وقد عقدنا اتفاقا مع البعثة الفرنسية لنشر بعض الكتب الفرنسية المترجمة إلى العربية، اخترنا بعض الكتب من قوائم دور النشر الفرنسية على أن تقوم البعثة بدفع الحقوق للناشرين الفرنسيين وتقوم أيضا بمكافأة المترجم الذي تختاره هي وتتعاقد معه بشكل مستقل وتسهم في نصف تكاليف الطباعة على أن تحصل على ١٥٠ نسخة من الكتاب المطبوع. وقد أصدرنا بالاشتراك معهم عددا من الكتب الهامة كان عليها إقبال لا بأس به مثل كتاب: «الإسلام السياسي» لفرانسوا بورجا عن التيار الإسلامي في المغرب العربي. وقد نفد وأعيدت طباعته بمقدمة جديدة للمؤلف. وكتاب «أسئلة علم الاجتماع» لبورديه. و«الثورة تحت الحجاب» للكاتبة فاريبا عادل و«مصير العالم الثالث» (لتوماكوترو) و«تغريب العالم» لسيرج لاتوش و«سلطان غالييف» لألكسندر بيجنسن و«الأصول الزنجية للحضارة المصرية» للشيخ انتاديوب و«الدولة المستوردة» لبرتراند بادي وكذلك كتاب «انقلاب العالم» لنفس المؤلف و«إرادة العجز» لباسكال بونيفاس و«تاريخ الفكر الاقتصادي منذ كنز»

لميشيل دوستالير و«أوهام الهوية» لجان فرانسوا بايار و«العلاقات الدولية المعاصرة» ترجمة ومقدمة د. حسن نافعة و«سياسة ملء البطون» (سوسيولوچيا الدولة في أفريقيا) لجان فرانسوا بايار. و«انقلاب العالم» و«عنف السلام في غزة» ترجمة حليم طوسون.

وفي نوفمبر ١٩٩٢ أي بعد أكثر من عام أعرب الأستاذ محمود أمين العالم عن رغبته في الاستقلال بقضايا فكرية التي أسس لها فيما بعد شركة مستقلة تضمه وماجدة رفاعة وجمال الشرقاوي. وتنازل محمود العالم عن حصته في دار العالم الثالث لبهيج نصار. وبهذا فقد صدرت الأعداد الأولى من قضايا فكرية عن دار الثقافة الجديدة وصدرت أعداد تالية من دار العالم الثالث وذلك حتى كتاب «٧٠ عاما على الحركة الشيوعية المصرية»، الذي كان آخر أعداد قضايا فكرية صدرت عن دار العالم الثالث وصدرت الأعداد التالية عن دار قضايا فكرية.

كنت أفضل أن تستمر قضايا فكرية في دار العالم الثالث التي بذلنا كلنا جهدا كبيرا في إنشائها وكنا نرمي إلى التجمع وضم الجهود مع الاستقلالية. وقد حرصنا منذ البداية على أن تكون قضايا فكرية مستقلة تحت إشراف محمود أمين العالم الذي كنت أريد أن نستفيد منه في دار العالم الثالث. وهذا هو موقفي الذي ثبت عليه وهو تضافر وتوحيد الجهود في الحقل الثقافي مع الاحتفاظ بتنوعها وتعددها، وهو الأمر الذي مازلت أدعو إليه.

أصبحت من الناحية الفعلية مديرا لدارين هما دار الثقافة الجديدة ودار العالم الثالث. وكنت أرغب في أن يتولى غيري مسئولية الإدارة في دار العالم الثالث لسببين؛ الأول: أن أركز على دار الثقافة الجديدة بمشاكلها العديدة وتاريخها الطويل وأن يتفرغ آخر لدار العالم الثالث الأحدث عهدا والتي تتميز بأنها شركة ذات مسئولية محدودة وليست لها مشاكل دار الثقافة الجديدة وأن يهتم بتطويرها وبنائها بعيدا عن مشاكل دار الثقافة الجديدة وفي استقلال عنها وكان أمام ذلك إمكانيات كبيرة (من حيث عدد الشركاء واتصالاتهم وعلاقاتهم). وكان من المفروض أن تتولى ماجدة رفاعة هذه المسئولية، ولكنها لم تكن تريد ذلك خصوصا أنها كانت منشغلة بدار قضايا فكرية التي استقلت وبدأت تقوم بالإجراءات

لتأسيسها كشركة مستقلة. ولهذا بدأت في التفكير في اختيار مدير جديد. ولتأكيد استقلالية العالم الثالث كنا قد استأجرنا لها مقرا آخر في شارع حسين حجازي. وبعد أن استقلت قضايا فكرية انتقلت عمليا إلى هذا المقر وأصبحت دار العالم الثالث تستأجر حجرتين في الشقة التي تشغلها دار الثقافة الجديدة.

في هذه الظروف عرضت على أحمد شرف أن يتولى إدارة دار العالم الثالث. وكنت أعتبر بناء دار العالم الثالث وتطويرها عملا سياسيا هاما. طلب مني مهلة ليناقش هذا الموضوع مع غيره من الزملاء.

وقبل أن أعرض عليه هذا العرض كانت قد دارت بيني وبينه أحاديث عبر لي فيها عن إحباطه من أنه قد ترك عمله ولم يؤمن مستقبله وأخذ يتحدث عن آخرين وكيف أنهم يكرسون عملهم السياسي للاستفادة الشخصية.

بعد فترة قصيرة رد عليّ بالإيجاب. ووضع شرطا ألا أتدخل في إدارته، ووافقت لأنني كنت أرغب فعلا أن يتولى الإدارة كاملة وأن يتحمل جزءا من العبء الذي أتحمله. ولكنني لم أفترض ولم أتصور أن عدم التدخل والاستقلالية تعني أن تتصارع الداران بل كنت أتصور أن الاستقلالية تكون بهدف المزيد من الانطلاق مع التكامل بين الدارين.

وبعد فترة قصيرة من إدارته وجدت أنه لا يحمل الأعباء بالفعل فلا يأتي إلى الدار إلا ساعة أو ساعتين في اليوم ووجدته يختلق صراعا وتنافسا بين الدارين ودون أن يبذل أي جهد لتنمية الدار ولخدمة الأهداف التي أنشئت منها. كان كل هدفه هو الاستفادة والتخطيط لإبعادي رغم أنني المساهم الأكبر وأحوز أكثر من ٥٠٪ من رأس المال، فضلا عن أنني مدير إلى جانبه حسب العقد وإن كنت قد تركت له الإدارة وحرصت على عدم التدخل. ولتسهيل عمله سارعت بعمل توكيل له في البنك إلى أن تتم الإجراءات الخاصة بتعيينه بشكل رسمي مديرا للدار.

وظهر أن تخطيطاته لم تكن بعيدة عن عدد من الزملاء كانوا يؤيدونه لتنفيذ مخطط يهدف إلى إبعادي متوهمين أن ذلك سيؤدي إلى تحويل الدار منبرا لهم.

وكنت مقتنعا بتوسيع الشركة وكسب مساهمين جدد وزيادة رأس المال وفي هذا أمكن ضم مساهمين جدد هم فاروق أبو عيسى ٥٠٠ جنيه، «ابني» يوسف

الجندي ١٠٠٠ جنيه، شحاته هارون ٥٠٠ جنيه، وعبد اللطيف العزبي ٦٠٠ جنيه وسلوى يوسف ١١٠٠ ود. عبد العظيم أنيس ١٠٠٠ جنيه.

وعند وجودي في الكويت عام ١٩٩٤ أثناء معرض الكتاب اتفقت مع وليد الرجيب وخمسة آخرين من الكويتيين بالمساهمة في دار العالم الثالث وكان مجموع مساهماتهم ٤٠٠٠ جنيه مصري.

ورغم أنني كنت اتفقت مع أحمد شرف على أن يتولى إدارة الدار، فقد فوجئت في اجتماع الجمعية العمومية بتنازل بهيج نصار إلى أحمد شرف عن حصته واكتفى بحقه بمبلغ٥٠٠ جنيه. وفوجئت بأن هذه الحصة التي تنازل عنها لأحمد شرف هي حصة الزملاء واتفق على أن يمثلهم أحمد شرف. لم أعترض رغم أنني لم أكن أرحب بذلك. خصوصا أنه لا علاقة لي بهذه الخلفيات وأنني أتعامل مع كل مساهم بشخصه وبالمبلغ الذي يسهم به.

وسار الأمر على هذا المنوال لفترة. ونفذت وعدي لأحمد شرف بألا أتدخل في إدارته لدار العالم الثالث. ولكنني كنت رسميا أحد المديرين وفقا للعقد وخصوصا أننا شركة وأنا مسئول أيضا عن إدارة الشركة. ولكني تركت له الفرصة كاملة لينفرد بالإدارة.

كان هذا هو الاتفاق ولم أكن أعترض على أن يقوم أحمد شرف بالإدارة كاملة ويمارس صلاحياته كاملة. ولكني لاحظت أنه لا يمارس هذه الإدارة وترك الأمور كلها لأحد العاملين الأكفاء وهو زوج ابنة أخته.

ولم يكن حرص أحمد شرف إلا أن يحصل على مرتبه وهو ٥٠٠ جنيه شهريا دون أن يقوم في الحقيقة بأي عمل.

وليت الأمر اقتصر على ذلك. بل إنه استخدم سلطاته ليحمل الدار أعباء لم يكن في قدرتها أن تتحملها. وكان يتخذ هذه القرارات دون أن يستشيرني بل دون أن يخطرني بل أفاجأ بها عن طريق المصادفة.

فقد فاجأني محمود العطار بأن جاءني شاكيا أحمد شرف لأنه اتفق معه على أن يشتري للدار ماكينة تصوير زيروكس وفاكس بمبلغ ٢٢ ألف جنيه على أن يسدد له مبلغا شهريا قيمته ألف جنيه بخلاف مكافأة شهرية ثابتة. وأنه سدد له مرة

واحدة وامتنع عن السداد بعد ذلك وأنه اتفق معه على أن يدخل شريكا في الدار بهذا المبلغ، وفوجئت بهذه القرارات وعندما شكا لي محمود العطار قلت له أنني اسمع هذا لأول مرة وأنني فوجئت بذلك وأخبرته أنه لو كان أحمد شرف قد استشارني في هذا الأمر لكنت قد رفضت لعدة أسباب: (١) أن الشريك لا يتم الاتفاق معه مقدما على سداد المبلغ المشارك به بل إن الشركة تعني احتمال المكسب أو الخسارة. وبالنسبة للنشر وخصوصا بالنسبة للتوجه الذي التزمنا به فإنه لا يهدف أساسا إلى الربح، بل الغالب أنه توجه للقيام بخدمة ثقافية وتضحيات. (٢) إن شراء هذه الأجهزة وخصوصا جهاز الطباعة زيروكس والفاكس بالسعر الذي تم شراؤها به يحمل الدار أموالا كثيرة ويمكن تحقيق تلك الفائدة بتكلفة أقل كثيرا لو قرنا الاحتياج إليها.

والنتيجة أن أحمد شرف بتصرفه الفردي حمل الدار في نشأتها أعباء والتزامات دون عائد مقابل.

ولاحظت أن أحمد شرف يحاول القيام باتصالات هدفها إبعادي عن الدار. وأخذ يتحدث لي بأنني يجب أن أستريح وأنني أديت ما فيه الكفاية وأنه يجب أن يقام لي تمثال إلى جانب تمثال والدي الموجود في الدار للخدمات التي قدمتها. والحقيقة أنني لم أكن متمسكا بالدار لو كنت قد وجدت من يواصل المهمة للاستمرار في الخدمات التي تؤديها أو يطورها. خصوصا أنني كنت بعد أن تعديت السبعين من عمري أريد أن أتفرغ لكتابة خبراتي ومذكراتي. وأحسست أن اختياري لم يكن موفقا وأن هناك محاولات لإبعادي لأهداف لا علاقة لها بالأهداف العامة أو الثقافية.

وقد سبق أن قلت أن مساهمة أحمد شرف لم تكن مساهمة شخصية منه ولكن قيل أنها مساهمة من الزملاء. وقامت شكوك وقتها أن هذه المحاولات لم تكن مجرد محاولات شخصية من أحمد شرف. وكان يتصرف وقتها بهذا المفهوم. وكانت تصرفات البعض الآخر تعطي هذا الانطباع.

أما من حيث الأداء فكان شديد الضعف فإشرافه على العمل ضعيف للغاية ومحاولات التطوير غير موجودة. وكان كثير الحديث عن المشاريع والأهداف الكبيرة

دون أن يفعل شيئا، وتواجده ضعيف. ويأخذ القرارات الهامة المتعلقة بمصير الدار بمفرده دون أن يعقد مجلس الإدارة. فطالبت عدة مرات بعقد مجلس الإدارة. وأثرت ملاحظاتي. فكان يرد بكلمات طنانة. ولم نعد نعرف أي شيء عن الاتفاقات التي يعقدها وظهر أنه عقد اتفاقيات تحمل الدار التزامات لا تستطيع الوفاء بها. مثل اتفاقه مع صلاح زكي على إصدار كتاب «النظام العربي والنظام الشرق أوسطي» مع تعهده بأن يسدد قيمة هذا الكتاب في خلال مدة معينة. والنتيجة أننا بعد ذلك لم ننجح في السداد إلا بصعوبة شديدة. والعادة أننا في مثل هذه الحالات نسدد في ارتباط بالتوزيع. لأننا لا نستطيع تحمل مغامرة إصدار كتب لسنا متأكدين من توزيعها. والنتيجة أن الكتاب مازال حتى الآن في المخازن.

لكل هذه الأسباب وجدتني مضطرا إلى إلغاء التوكيل الخاص به في البنك. وقد وافق على ذلك باقي أعضاء مجلس الإدارة وطرحت على الجمعية العمومية موضوع تنحيته من الإدارة. وقد وافقتني على ذلك ماجدة رفاعة عضو مجلس الإدارة.

وبدأ صراع شديد. وقف فيه الزملاء الذين اعتبروا أن أحمد شرف يمثلهم إلى جانبه. وقاموا بهجوم شديد عليّ. ولكنني كنت مصرا على رفض أي تدخل خارجي في عمل الدار. وازددت إصرارا على إعمال الآليات الخاصة بالشركة وعلى أن تقرر الجمعية العمومية موقفها من المدير. وكنت أطالب بتنحيته.

وفوجئت وفوجئنا جميعا بأن ممثل مصلحة الشركات الذي حضر اجتماع الجمعية العمومية رفض الاعتراف بالمساهمين الجدد بمن فيهم أحمد شرف على أساس أنهم لم يودعوا ما يقابل مساهمتهم في البنك. وكنا نجهل ذلك. وقد حاولنا بعد ذلك حل هذه المشكلة. ولكننا لم ننجح. وقررت الجمعية العمومية بالأغلبية تغيير المدير وإضافة السيدة/ ماجدة رفاعة بالإضافة إليّ مديرا ثانيا للشركة.

وتم إنقاذ دار العالم الثالث من المؤامرة التي كانت تدبر لها. واحتاج الأمر لبضع سنين ليدرك الزملاء الذين وقفوا مع أحمد شرف في ذلك الوقت أن موقفي كان سليما.

***

(١٩)

الوحدة مع التعدد

من أبرز السلبيات التي مرت بها حركة اليسار في مصر والتنظيمات الشيوعية خصوصا هو الانقسامية. وللانقسامية أسباب عديدة منها أن هذه التنظيمات لم تكن لها أي علاقة بمركز أممي رغم أن هذا السبب نفسه قد أدى إلى أن يحرص التيار الثوري في هذه الحركة على تحمل مسئولية الموقف المستقل في ظروف بلاده حتى لو اختلف ذلك الموقف مع مواقف الأحزاب الكبيرة وخصوصا الحزب الشيوعي السوفيتي. فهذا التيار كان يعتبر أنه في ظروف بلاده هو الأقدر على تحديد الخط السليم. وكان تحديد هذا الخط يرتبط بالصلة بالناس ودراسة الواقع والتحرك مع الجماهير. وهذا ما لاحظناه أساسا في الموقف من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والموقف من التحولات التي تجرى في سياسة جمال عبد الناصر ورفاقه، والثقة في إمكانية إحداث التغييرات في السياسة والتأثير على التوجهات.

ومن أسباب الانقسامات أيضا الاعتبارات الذاتية التي كان يضعها البعض فوق وأهم من الاعتبارات الموضوعية.

ويرجع ذلك أيضا إلى أن الحركة الشيوعية كانت تضم في صفوفها ممثلي فئات اجتماعية عديدة من طلبة ومثقفين وأجانب وعمال وكان ذلك يؤثر على توجهاتها.

ومن أهم الأسباب أن الكثيرين كانوا يرون أن الخلاف في الرأي يؤدي إلى الانقسام رغم أن الخلاف يجب أن يؤدي إلى الحوار والجهد الفكري وإخصاب

الأفكار. وأن تعدد الأفكار في إطار وحدتها يجب أن يكون مصدر قوة لا مصدر ضعف.

ولليسار المصري تجارب كثيرة هي في جوهرها تجارب إيجابية، وكان من الممكن أن تكون لها قيمة كبيرة وأثر إيجابي لو أنه استفاد منها وأدرك أن الوحدة مع التعدد هي القاعدة الذهبية التي يجب أن يستخلصها اليسار من تجاربه الثمينة التي مر بها.

وأعتقد أن هذا هو ما يتوصل إليه اليوم غالبية قوى اليسار. وكانت تجربة التجمع الذي ضم في صفوفه الماركسيين من مختلف المنابع وبعض الناصريين والقوميين والتيار الديني المستنير هي صيغة عبقرية كان يجب الحفاظ عليها ودعمها ومقاومة أي اتجاه يحاول السيطرة على التجمع بأساليب تنظيمية متجاوزا أسلوب الحوار والاستفادة من تعدد الآراء لإخصاب الأفكار وتعميقها وتطويرها.

وكان الأولى العمل على التمسك بهذه الصيغة في مختلف المجالات الثقافية والنقابية والشبابية وغيرها. ورغم أنني أعتقد أنه في تاريخ اليسار المصري وجد مسار ثوري يجسد كل الإنجازات الثورية والكبيرة التي يتميز بها هذا اليسار إلا أن ذلك لا يعني أن كل من كانوا يمثلون التيار الثوري ظلوا كذلك حتى النهاية، ولا أن كل من كانوا يمثلون التيار الانتهازي في فترات مختلفة من تاريخهم ظلوا كذلك دائما. ويمكن أن أورد أمثلة عديدة لذلك لأشخاص كانوا يروجون في فترات من حياتهم لدعوات انعزالية وانقسامية أصبحوا فيما بعد من أبرز رموز اليسار والذين طوروا أفكارهم ولعبوا دورا هاما وإيجابيا في تاريخه (من أمثلة ذلك الدكتور فؤاد مرسي وغيره). وهناك أمثلة أخرى عكسية.

وهناك العديد من الشخصيات الثورية التي لعبت في فترات مختلفة دورا ثوريا بارزا ولكنه توقف بعد ذلك لاعتبارات مختلفة.

هذا الموقف توصلت إليه بعد تجارب سنين طويلة، وهو ما عبرت عنه بسلسلة من المقالات والحوارات منها ما نشرته في الأهالي اشتراكا في الحوار الذي دار على صفحات الأهرام والذي بدأه عزيز المصري وكان يتحدث عن انتصارات اليسار

والتوجه يسارا في أوروبا بسبب الانتصارات التي أحرزتها الأحزاب الاشتراكية في أوروبا ورد عليه رفعت السعيد بمقال بعنوان: «عن أي يسار تتحدث» لبيان أن اليسار الذي يتحدث عنه عزيز المصري ليس هو اليسار الحقيقي. وقد شارك في الحوار أيضا عبد الغفار شكر وأخذ ينتقد فيه الممارسات البيروقراطية في التجمع.

وقد اهتممت أساسا بمحاولة الدكتور رفعت السعيد في مقالته التحدث عن يسار حقيقي وغير حقيقي، ووجدت أن ذلك لا يجب أن يصدر منه وهو الأمين العام لحزب التجمع اليساري والذي وضع على عاتقه مهمة تجميع كل قوى اليسار على اختلاف اتجاهاتها سواء في ذلك اليسار الماركسي أو الناصري أو الاشتراكيين الديمقراطيين أو هذا اليسار الذي يقول عنه أنه ليس يسارا حقيقيا.

والمشكلة التي تواجه التجمع هي أنه لم ينجح في تحقيق تلك الصيغة التي كان يستهدفها عند تكوينه وهو أن يكون تجمعا لكل قوى اليسار بمختلف اتجاهاته.

وقد كتبت ردا في جريدة الأهالي نشر في عدد الأربعاء ١٠ ديسمبر ١٩٩٧ بعنوان: «عن اليسار بجميع اتجاهاته .. الوحدة مع التعدد» جاء فيه: «عن أي يسار نتحدث؟ أقول أننا نتحدث عن كل اليسار بجميع اتجاهاته.. ففي ظل الهجمة اليمينية الشرسة والتي تبلغ ذروتها بسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على مقدرات العالم وشئونه، وتنصب نفسها كشرطي يتحكم في مصير العباد. وهو الوضع الذي تحاول تأكيده بمختلف الظروف، فإن أي حديث عن يسار بعينه يقف ضد أو بمعزل عن فصائل اليسار الأخرى هو ترف ليس محله العمل السياسي الجاد، وإنما يمكن أن يصلح فقط في صالونات النقاش العقيمة.

إن ما نعنيه باليسار هو كل القوى التي تندرج تحت هذا المفهوم رغم تعددها، ورغم اختلافها واختلافاتها، مادامت تنطلق من انتمائها لمصالح الشعب الكادح، مع اختلاف اجتهاداتها وتوجهاتها. وهذا يعني أن اليسار يضم كل قوى الأمة الوطنية والديمقراطية، إنها كل القوى التي لا تسعى لتحقيق منفعة لفئة قليلة على حساب الغالبية الساحقة من الشعب. واليسار المصري له تاريخ مجيد ونضال طويل، والسلبية الأساسية في هذا التاريخ هي الانقسامات والصراعات التي كانت تشتت

(٣)

التنظيم الطليعي

أشار الميثاق إلى ضرورة خلق جهاز سياسي داخل الاتحاد الاشتراكي يكون بمثابة طليعة للاتحاد الاشتراكي ـ وقد أخذ جمال عبد الناصر في إنشاء هذا الجهاز. وحرص أن يكون جهازا سريا. بدأ العمل في ذلك في شكل فروع مختلفة. ورأى أن يعهد إلى أحمد فؤاد بضم الشيوعيين أو بعضهم إلى هذا الجهاز والذي سماه فيما بعد «التنظيم الطليعي».

وكان أحمد فؤاد عضوا في حدتو قبل قيام الثورة في يوليو ٥٢ . وكان مسئولا عن قسم الجيش. وتعرف عن طريقه على جمال عبد الناصر. وبعد قيام الثورة ترك العمل الحزبي وعمل بشكل كامل مع جمال عبد الناصر والسلطة الجديدة.

وعندما عهد إليه جمال عبد الناصر بالاتصال بالشيوعيين وضمهم أو بعضهم إلى التنظيم الطليعي كان أحمد فؤاد رئيسا لمجلس إدارة بنك مصر وقد عين أيضا رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة روز اليوسف في تنظيم جديد للصحافة.

بدأ عبد الناصر منذ عام ٦٣ أو ٦٤ في توجه جديد نحو الشيوعيين محاولا استيعابهم والاستفادة منهم في توجهاته الاشتراكية الجديدة. خصوصا أن الشيوعيين كانوا يؤيدونه وكان قسم كبير وأنا منهم (حدتو) يؤيدونه حتى وهم داخل السجن. أما القسم الباقي فأخذوا يؤيدونه أيضا فور الإفراج عنهم. كان قد أفرج عن جميع المسجونين الشيوعيين. وكانت هناك أقسام في السلطة منها المباحث العامة تعارض هذا الإفراج بل انها نظمت عملية استفزازية في سجن الواحات الخارجة أدت إلى مقتل أحد الزملاء وهو لويس إسحق وذلك قبل الإفراج عنهم بأيام قليلة.

طاقة هذا اليسار في أمور فرعية تلهيه عن القضايا الأساسية التي تواجه الوطن. وكان نشوء حزب التجمع عام ١٩٧٦ حدثا كبيرا في تاريخ اليسار وفي التاريخ السياسي فهو لم ينشأ كمجرد إضافة حزب يساري إلى مجموع الأحزاب والمنظمات اليسارية المصرية التي وجدت في الساحة السياسية. بل وجد باعتباره «تجمعا» لعدد من التيارات والفصائل اليسارية. فقيل ومازال يقال أنه يضم الناصريين والشيوعيين والقوميين والاشتراكيين الديمقراطيين والتيار الديني المستنير، وهذا معناه أنه حتى لو كان عند نشأته لم ينجح في تجميع كل هؤلاء فإن عليه أن يسعى لذلك.

ولكن الذي حدث بعد نشأة التجمع حتى الآن هو العكس تماما. ففي البداية كان الحديث عن حزب مضمونه جبهة. ثم توقف هذا الحديث، وأصبح التجمع يقدم على أنه حزب إلى جانب الأحزاب اليسارية الأخرى. ومن حيث الممارسة، انخفضت العضوية انخفاضا كبيرا، ويضيق تمثيله للتيارات اليسارية المختلفة. فخرج الناصريون الذين كانوا في البداية يكونون الغالبية، وينسحب إلى الظل غالبية الفصائل الماركسية، ولا يحدث أي توسع بالنسبة للتيارات الأخرى. ونشأت في التجمع مشكلة العضوية الورقية التي ليس لها وجود واقعي.

ويشعر الكثيرون بعقم الممارسة، بحيث إنه لم يقدم لهم أي دور. وبعد أن كان من المفروض أن يصبح التجمع حزبا مجمعا أصبح حزبا طاردا.

ولا جدال في أن هناك ظروفا موضوعية لهذا. ولكن ساعدتها ممارسات ذاتية من أهمها المفهوم الضيق لليسار الذي يتحدث عنه الدكتور رفعت السعيد في مقاله.

وإذا كنا نتحدث عن التيارات السياسية الرئيسية داخل التجمع فهذا ينقلنا إلى قضية التعددية، وهو ما يجب أن نضعه في اعتبارنا عندما نمارس السياسة والتنظيم وأسلوب العمل، في إطار الوحدة بين كل التيارات والفصائل اليسارية التي يضمها التجمع أو التي عليه أن يسعى لضمها، بحيث يحافظ على الموجود، ويسعى لجذب من هم خارج التجمع. والتعامل مع هذه التيارات والفصائل يكون بالحوار والتفاعل، لا بالسعي لسيطرة تيار أو فصيل أو مجموعة من الأفراد. وتكون مواقف

التجمع وسياساته تعبيرا عن هذا التفاعل بين كل قوى اليسار. وتعبيرا عما يقرره الجميع أو غالبيتهم مع كفالة الفرصة للجميع للدفاع عن وجهات نظرهم والحوار الجاد لا الحوار الشكلي.

وأتفق مع د. رفعت في رفضه لدعوة الأستاذ عبد الغفار شكر لحركة يسارية جديدة توحد اليسار، ولكن ليس للأسباب التي أوردها، وإنما لأن خبرة اليسار في تاريخه الطويل تؤكد أن مثل هذه الدعوات لا تؤدي إلى التوحيد وإنما إلى تعميق الانقسام، وما حاجتنا إلى الدعوة لحركة يسارية جديدة ولدينا التجمع الذي من المفروض أن يضم كل قوى اليسار. ويكون من الأجدى والأسلم العمل على التخلص من سلبياته، ودعم إيجابياته وتطويرها.

إن تجربة قيام حزب التجمع هي تجربة مهمة كان من الممكن أن تحقق الكثير. فلأول مرة منذ العشرينيات يوجد حزب يساري شرعي يضم منذ نشأته هذا التنوع من القوى والتيارات اليسارية. وهي إمكانية كان من الحكمة تطويرها ودعمها.

وبخلاف ذلك أتفق مع الأستاذ عبد الغفار في نقده للتطبيق البيروقراطي للمركزية. ويتحدث الكثيرون الآن عن إشاعة الديمقراطية داخل الحزب وتشجيع الاستقلالية والمبادرة للمنظمات المحلية. وهذا يحتاج إلى جهد كبير من القيادة وكذلك من القاعدة، والبعد عن حل المشاكل بقرارات إدارية علوية، وأعتقد أن الخطوة الأولى أن يعمل الجميع قيادة وقاعدة في المنظمات القاعدية. وأن يعطوا تواجدهم في هذه الهيئات اهتماما لا يقل عن عملهم القيادي، فهذا يساعد المنظمات القاعدية المرتبطة بالعمل الجماهيري بأفضل الخبرات وفي هذا الضمان كي لا يتحول عمل القيادات إلى قرارات فوقية منعزلة عن مشاكل الجماهير سواء الحزبية أو الشعبية.

ومن الطبيعي أن أؤيد الدعوة إلى التعددية داخل التجمع، لأنني أدعو إلى أن يشمل كل قوى اليسار وفصائله مع تنوع اتجاهاته، وأن يوقف فورا التوجه الطارد الذي ساد حتى الآن، وأدعو إلى أن يكون تجمعا حقيقيا ومظلة لكل اليسار. ولا

أدعو إلى تعددية تعبر عنها تكتلات تتنازع فيما بينها، وإنما إلى حوار بين الفصائل المتعددة في إطار اتفاق عام يجمعها في وحدة. إنني أدعو إلى الوحدة مع التعدد. وأرفض أن يقوم أي تيار بالهيمنة والسيطرة مع استبعاد التيارات الأخرى. فالتعددية تثري الحزب الواحد وتضمن حيويته وعدم جموده وتحجره. فالحوار يساعد دائما على كشف الحقيقة والتخلص من الأخطاء والسلبيات: والتعددية تتطلب الوحدة والحرص عليها والنضال من أجل تدعيمها. ولهذا يجب النضال بلا هوادة ضد أي محاولة لاستخدام الخلاف للدعوة إلى الانقسام أو تشجيعه. وحزب التجمع يجب أن يحرص ـ أكثر من أي حزب آخر ـ على تطبيق وتجسيد هذه القاعدة الذهبية ـ الوحدة مع التعدد. ويمكن أن يأخذ هذا التعدد أي أشكال مثل المنابر أو التيارات أو أي شكل آخر مادام لا يهدد وحدة التجمع.

***

(٢٠)

المناخ العام في الثمانينيات والتسعينيات

في عام ١٩٧٤ أعلنت سياسة الانفتاح الاقتصادي، وقيل وقتها أنه قد آن الأوان لإنهاء سياسة الانغلاق. وصدر قانون الاستثمارات الأجنبية عام ١٩٧٤ الذي قنن لهذه السياسة والذي أطلق الحريات لرأس المال الخاص الداخلي والأجنبي ليفعل ما يشاء وأصدرت دار الثقافة الجديدة كتاب «هذا الانفتاح الاقتصادي» للدكتور فؤاد مرسي والذي صدرت منه ثلاث طبعات يكشف فيه هذه السياسة وأخطارها وأصدرت دار المستقبل العربي كتاب «مصر من الاستقلال إلى التبعية» لعادل حسين.

ومنذ انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧ بدأت دعوات للتشكيك في القطاع العام ودعوة لتشجيع القطاعين الخاص والأجنبي ولكن هذه الدعوات لم يتح لها أن توضع في التطبيق إلا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ تحت شعار الدعوة للانفتاح الاقتصادي. تلك الدعوة التي قننت لها بعد ذلك التشريعات التي فتحت السبيل للممارسات التي انطلقت من الدعوة للاقتصاد الحر. وألغيت تدريجيا القيود على النشاط الرأسمالي الخاص المحلي والأجنبي. وألغيت القيود على الاستيراد، والذي بدأ بالسماح بالاستيراد دون تحويل عملة، والذي تطور بعد ذلك إلى إباحة استيراد أي شيء بما في ذلك السلع التي تنتج محليا والتي يؤدي دخولها إلى منافسة الإنتاج المحلي والتوسع في استيراد السلع الترفيهية التي لا تهتم بها إلا فئات قليلة من المجتمع. فبدلا من الادخار وتشجيع الاستثمارات من أجل الإنتاج، جرى تشجيع الإنفاق السفيه وتبديد العملة الأجنبية بحجة الحرية الاقتصادية ومع الإضرار

المتصاعد للعلاقة مع الاتحاد السوفيتي والتي وصلت إلى حد طرد الخبراء السوفييت وتصاعد الحملات ضد الاتحاد السوفيتي سادت الدعوة إلى تنويع مصادر السلاح، وكان هدفها الحقيقي فتح الطريق للحصول على العمولات في صفقات السلاح من الشركات الأجنبية. وفتح الطريق أمام تجار السلاح. وفي نفس الوقت فتحت أبواب الهجرة وخصوصا إلى بلاد النفط بحثا عن حلول للمشاكل المعيشية مع الارتفاع المستمر للأسعار وتزايد صعوبات المعيشة.

وتشكلت قيم جديدة، قيم البحث عن الثروة وتشجيع الحلول الفردية لمشاكل المعيشة وتزايد البطالة واستفحال مشكلة الإسكان والاتجاه للإسكان الفاخر وإهمال بناء المساكن الشعبية، وتفاقمت مشاكل الشباب في الزواج والعمل وظهرت قيم جديدة تدعو إلى الكسب بأي طريق وتكونت طبقة من الأغنياء الجدد.

وجرى هذا التحول بالتدريج، ففي البداية قالوا إنها «الاشتراكية الديمقراطية» لتمييزها عن الاشتراكيات السابقة التي تكلم عنها الإعلام في عهد عبد الناصر ناعتين لها باسم اشتراكية الفقر. إنهم يدعون أن السياسة الجديدة والتي لخصت تحت اسم «الانفتاح الاقتصادي» هي التي ستجلب الرخاء عاجلا ـ إنها لا تمنع أصحاب الأموال من أن يزدادوا غنى وتمنى الفقراء أنهم سيصبحون ملاكا. فكل فرد سيمتلك أرضا وكل فرد سيمتلك سيارة شعبية وكل العرسان سيمتلكون مسكنا. والضمان لتحقيق ذلك هو فتح الباب على مصراعيه لنشاط رأس المال الأجنبي والمحلي وفتح الطريق لإنشاء البنوك الأجنبية وإطلاق حريتها في العمل وفي تصدير ما تجمعه من مدخرات مصرية إلى الخارج. لا قيود على زيادة ثراء الأثرياء وزيادة فقر الفقراء بحيث تزداد الهوة كل يوم اتساعا بين الدخول. لا قيود على الكسب ولو كان بالنشاط الطفيلي والتحايل على القوانين بل وتعديلها لضمان استمرار ونمو الفئات الطفيلية بحيث أصبحت هي التي تحدد في النهاية سياسة الدولة وهذا كله توضع له النظريات وتؤسس له عقيدة جديدة تسمى «الاشتراكية الديمقراطية».

ثم قل بالتدريج الحديث عن الاشتراكية بحيث اختفى بعد ذلك. وأخذت

أجهزة الإعلام تهاجمها وتدافع بصراحة ودون التواء عن التطور الرأسمالي واقتصاد السوق.

وتحول بعد ذلك خصوصا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلى سياسة الخصخصة وتصفية القطاع العام وفتح الباب على مصراعيه للاستيراد وتهريب الثروات إلى الخارج. والاستدانة والقروض بفوائد باهظة لا لتنمية الإنتاج وإنما لاستيراد السلع الترفيهية.

وتشير بيانات البنك المركزي المصري إلى أن الواردات على اختلاف أنواعها قد وصلت إلى قرابة ١٧ مليار دولار أمريكي عام ١٩٩٩/٩٨، بعد أن كانت ١٠,٧ مليار دولار أمريكي في عام ١٩٩٣/٩٢، في حين أن الصادرات بلغت ٤,٤ مليار دولار أمريكي في عام ١٩٩٩/٩٨ . ووصل العجز في الميزان التجاري إلى ١٢,٥ مليار دولار أمريكي في عام ١٩٩٩/٩٨ .

وعادت مصر لدفع أعباء ديونها الخارجية بعد انتهاء فترة إعادة جدولة الديون وتشير بيانات البنك المركزي المصري إلى أن أعباء خدمة الدين العام الخارجي قد وصلت إلى ١,٥ مليار دولار في عام ١٩٩٩/٩٨ . وسوف يتزايد هذا العبء في السنوات القادمة خصوصا إذا لجأت مصر إلى زيادة الاقتراض الخارجي. ولتوسع القطاع الخاص المصري في الحصول على التسهيلات والقروض الخارجية.

وتتزايد تحويلات عوائد ودخول رؤوس الأموال الأجنبية المستثمرة داخل البلد، نتيجة لزيادة نصيب الأجانب في ثروة مصر ودخلها القومي بعد التوسع في عمليات الخصخصة وانتقال ملكية كثير من مشروعات القطاع العام المباعة إلى الأجانب. وقد زادت تلك التحويلات خاصة بعد إلغاء القيود الخاصة بتحويلات النقد الأجنبي للخارج، والتي كانت ـ حسب قانون النقد الأجنبي رقم ٩٧ لعام ١٩٧٦ ـ تمنع المستثمرين الأجانب من تحويل أرباحهم إلى الخارج إلا بعد انقضاء ستة شهور على تحقيق هذا الدخل، ويسمح للعاملين الأجانب بتحويل ٥٠٪ فقط من أجورهم ومرتباتهم. ويشير التقرير السنوي للبنك المركزي المصرى لعام ١٩٩٩/٩٨ إلى أن المدفوعات الخارجية لدخول الاستثمار الأجنبي قد بلغت ٩٢٨,٣ مليون دولار في عام ١٩٩٩/٩٨ . مرتفعا بذلك بنسبة ٦,٩٪ مقارنة بالعام الماضي.

وتشير بيانات البنك المركزي، إلى أن تدفقات الاستثمار الأجنبي في محفظة الأوراق المالية في مصر قد حققت صافي تدفق للخارج بلغ ٢٤٨ مليون دولار في عام ١٩٩٨/٩٧ وحوالي ١٧٣,٦ مليون دولار في عام ١٩٩٩/٩٨ .

وبدأ يظهر في ميزان المدفوعات المصري ثقب جديد لم يكن موجودا من قبل، ألا وهو بند الاستثمار المصري المباشر في الخارج، وطبقا لبيانات ميزان المدفوعات المصري، كان مجموع ما خرج من مصر تحت هذا البند عامي ١٩٩٨/٩٧؛ و١٩٩٩/٩٨ حوالي ١٩٢,٧ مليون دولار. ويضاف إلى ذلك أيضا الأموال التي تخرج من مصر للاستثمار في محفظة الأوراق المالية في الخارج. وقد بلغ مجموع ما خرج من مصر من أموال تحت هذا البند ٩٨,٢ مليون دولار عن العامين المذكورين. وبذلك تتحول مصر إلى بلد مصدر لرؤوس الأموال في ظل سياسة الانفتاح، في الوقت الذي تبذل فيه الحكومة جهدا واضحا لكي تجذب رؤوس الأموال الأجنبية للاستثمار في مصر.

وهناك أيضا ثقب هام بميزان المدفوعات وهو تلك الإيداعات والأصول الضخمة الموجودة بالخارج لحساب الجهاز المصرفي، وهي تمثل نوعا من تصدير رأس المال. وطبقا للبيانات التي وردت في التقرير السنوي للبنك المركزي المصري لعام ١٩٩٩/٩٨ يتضح أن الودائع بالنقد الأجنبي لدى البنوك التجارية المشتغلة بمصر قد بلغت حوالي ١١ مليار دولار أمريكي.

هناك عمليات تهريب الثروة والأموال للخارج. ومن أمثلة ذلك الاستيلاء على القروض من البنوك المحلية بالمليارات وهروب أصحابها للخارج. ويدخل في هذا النطاق أيضا إبقاء جانب من أموال الصادرات المصرية بالخارج عن طريق تقديم فواتير «مضروبة» وكذلك تهريب الأموال للخارج عن طريق تقديم فواتير غير صحيحة لتكلفة الواردات.

وأخيرا؛ نشأ في السنوات الأخيرة نمط من التصنيع المشوه القائم على تجميع مكونات السلعة، فبدلا من استيراد السلعة كاملة من الخارج أصبحنا نستوردها مفككة. ليقوم عنصر العمل المصري الرخيص (نسبيا) بتجميعها وبيعها في الداخل. والمثل الواضح على ذلك، صناعة السيارات والتليفزيونات وأجهزة الڤيديو

والثلاجات وكثير من السلع الكهربائية المعمرة، بل إن جانبا من صناعتنا التحويلية، مثل صناعة الملابس الجاهزة، أصبح يرتفع فيها حجم «المكون الأجنبي» أي السلع الوسيطة المستوردة، بعد التدهور الذي حدث في منتجاتنا الوطنية[1].

هذا الوضع كله أثر على المناخ العام الذي بدأ يسود المجتمع في السبعينيات والثمانينيات وازداد تفاقما في التسعينيات وبعد ذلك. لقد اختفت قيم ونشأت قيم جديدة.

يختفي دور الدولة شيئا فشيئا ويسود البحث عن الحلول الفردية. كل يبحث عن حل المشاكل المعيشية، ويتضاءل دور المجتمع والدولة. لقد انتشرت ظاهرة جديدة بين المصريين حتى بين الفلاحين وهي ظاهرة الهجرة وخصوصا إلى البلاد النفطية والتي ارتبطت بزيادة أسعار النفط بعد أكتوبر ١٩٧٣ . أصبح الشباب يبحث عن الهجرة لتكوين نفسه حتى يمكنه عندما يعود أن يتزوج ويؤسس منزلا. «حتى الفلاح الذي عرف بارتباطه بالأرض وأنه لا يتركها أبدا فقد عرف الهجرة بأعداد كبيرة. ومع سياسة الانفتاح الاقتصادي زادت أعداد المتعطلين بين الخريجين فلم تعد الدولة ملتزمة بتعيينهم. ومع انتشار ظاهرة الخصخصة لم تعد الشركات الجديدة التي تكونت تلتزم بقانون العمل وبعدم فصل العمال والالتزام بعدم تشغيلهم أكثر من سبع ساعات. وبلغت إيجارات المساكن وخلواتها أرقاما خيالية بحيث لا يمكن لأي شاب يبدأ حياته أن يجد مسكنا. وبالتالي أن يتزوج. ولهذا انتشرت ظاهرة النساء العوانس والزواج العرفي وانتشر البغاء حتى بين الطلبة والطالبات وأصبح البحث عن الكسب بأي طريقة شريفة أو غير شريفة أمرا شائعا. وانتشر الفساد وتجارة المخدرات وازدادت ظاهرة سكان المقابر الذين يشاركون الموتى مقابرهم. وهناك الملايين من سكان القاهرة يعيشون في المقابر.

وتغيرت القيم. وعاد تقييم الشخص بما يملكه.

وهناك المهمشون الذين يحاولون العيش بأي شيء يحصلون عليه بشكل مشروع أو غير مشروع. ويطولهم القانون ويطاردهم رجال السلطة دائما، فكثيرون

د. رمزي زكي. وجهات نظر ص ٤٤ ـ العدد ١٩ـ أغسطس ٢٠٠٠ .

منهم يسكنون الشوارع وينامون على قارعة الطريق وليست لهم مساكن ويتسولون أي شيء ويتفننون في الحصول على أي مال سواء بمسح زجاج السيارات أو بيع المناديل الورقية ويتاجرون في البضائع المهربة ويجرون في الشوارع والأزقة هربا من مطاردة الشرطة.

ونشأت طبقة جديدة من المليارديرات وأصحاب الملايين يختلفون عن طبقة الإقطاعيين وكبار الرأسماليين قبل الثورة. إنها طبقة من الأثرياء الجدد الذين كونوا ثرواتهم بكل الطرق غير المشروعة ـ تجارة المخدرات والفساد والاختلاسات والعمولات ـ يفصلون القوانين لصالحهم وعلى مقاسهم وتسندهم وتحميهم أجهزة الدولة وتغطي على جرائمهم ولا تتحرك إلا عندما تفوح رائحتها.

وبسبب الممارسات الاستفزازية لهذه الطبقة الجديدة تحدثت عنها الصحافة وأجهزة الإعلام وتناثرت القصص والروايات عنها. ومن ذلك ما نشرته جريدة العربي في ٢٩ ديسمبر ١٩٩٧ تحت العناوين التالية:

«هل هو نوع من الحقد الطبقي؟» .. نعم.

لم لا .. ونحن نشاهد يوميا ما يملأ قلوبنا بالحقد والضغينة ..ولم لا .. ونحن فقط الذين نتحمل أعباء ديون مصر المحروسة .. وروشتة الإصلاح الاقتصادي .. ونتائج ضرب السياحة ـ ولم لا .. ونحن فقط الذين نكد ليل نهار من أجل ألا يموت أبناؤنا من الجوع. والآخرون لا يموت أبناؤهم من التخمة. لم لا .. وهذا هو حال الوطن .. مصر .. التي تحولت بقدرة سفهاء الزمن إلى مصرين .. مصر العشة.. ومصر القصر .. نعم إنه الحقد .. الحقد الذي يولد التطرف».

ثم جاء في المقال:

«حكايات ألف ليلة وليلة وحكاوي ليالي السحر في قصص الخيال والأساطير هذا الذي يحدث في «المنصورية» في فرح أخد أبناء «الوجهاء الجدد» إذ شهد المدعوون من علية القوم الذين حضروا حفل الزفاف الذي أقيم في أحد القصور الباذخة هناك المغنية الأمريكية الشهيرة «جلورياجينور» وهي تغني بعد أن جاءت

بطائرة خاصة من أمريكا مع فرقتها خصيصا لإحياء ليلة الزفاف التى شهدت فيما عدا مجيء «جلوريا» أحداثا ووقائع لم ولن تراها عيون فقراء مصر .. وواصلوا الاستمتاع بمشاهدة فرقة «البوني إم» الأمريكية الشهيرة التي جاءت أيضا خصيصا لإحياء الحفل ثم عادت إلى أمريكا بطائرة خاصة بعد انتهائه .. وغنى عمرو دياب وراغب علامة .. وسعرهما في هذه الحفلات وصل إلى ٣٠ ألف جنيه كما رقصت دينا وفيفي عبده اللتان تقاضت كل منهما خمسة آلاف جنيه في النمرة..

وكتب صحفي كبير في إحدى الصحف القومية وصف فيها حفل زفاف أسطوري وخيالي آخر أقامه ملياردير مصري ودعا فيه أكثر من ألفي مدعو، وجهت إلى كل منهم بطاقة الدعوة التي صنعت في باريس وتكلف كل منها ألف جنيه. فقد تلقى كل مدعو في بداية حضوره علبة ملبس فضية وموشاة أيضا بالفضة يبلغ سعر الواحدة منها ألف جنيه أخرى. أما المفاجأة التي شهدها حفل الزفاف الذي استمر سبع ليالٍ متصلة وكل ليلة بمدعوين جدد، فقد جاءت في اليوم الأخير الذي اختار فيه صاحب الحفل «٣٠٠» من الصفوة والوجهاء، حيث استأجر لهم باخرة سياحية على النيل أمضوا فيها ليلتهم حتى الصباح وهي تروح وتغدو على ضفاف النيل مع نخبة من كبار المطربين والمطربات وتخلل كل أغنية وصلات من الرقص الشرقي، حصلت كل راقصة منهن على عشرة آلاف جنيه مقابل رقصة مدتها نصف ساعة.

الأفراح وحفلات ليالي الزفاف الأسطورية وبرغم ما فيها من بذخ ممعن في الترف السفيه، إلا أنها لا تعبر مع ذلك إلا عن جانب واحد من جوانب تلك الحياة التي أصبح يعيشها الآن بعض أصحاب الثراء المفاجئ المشروع وغير المشروع ممن يظنون أنهم بأموالهم فوق أي قانون أو التزام اجتماعي تجاه السواد الأعظم من ناس الوطن الذين يعانون شظف العيش ويعيشون في ظل أوضاع اقتصادية متردية.

بذخ سفيه تبدى في تلك الشقق والڤيلات والقصور التي اشتراها أو بناها وشيدها «المليارديرات» على نمط ما هو موجود في برج المليارديرات الذي يقع على نيل الجزيرة وهي شقق وڤيلات تتراوح أسعارها ما بين «مليون و٣٠٠ ألف دولار»

مسيرة حياتي

الجزء الثاني

محمد يوسف الجندي

الطبعة الأولى ٢٠٠١

الناشر:

دار الثقافة الجديدة

٣٢ ش صبري أبو علم. باب اللوق

ت وفاكس: ٣٩٢٢٨٨٠

e-mail: elguind@internetegyt. com



بدأ مندوبو التنظيم الطليعي الاتصال ببعض الشيوعيين فور خروجهم من المعتقل مثل حسن فؤاد ومحمود أمين العالم. فقد خرجوا من السجن الحربي إلى مكتب سامي شرف الذي عهد إليه عبد الناصر بتكوين فرع داخل التنظيم الطليعي.

وقد عهد إلى آخرين أيضا بهذه المهمة وكان منهم من اتصل بالشيوعيين مثل خالد محيي الدين ومجدي حسنين. وكانت هناك فروع أخرى ولكنها لم تتصل بالشيوعيين بل اتصلت في الغالب بشخصيات لها مواقع في السلطة أو الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب.

وبعد خروجنا من المعتقل عقدنا اجتماع لكوادر حدتو في منزل يوسف صديق. وتقرر في هذا الكونفرنس تأكيد السياسة التي قررناها ونحن في السجن وهي التعاون مع من كنا نسميهم المجموعة الاشتراكية بقيادة جمال عبد الناصر والعمل على تكوين تنظيم واحد معها على أساس الماركسية اللينينية. واتفق على عدم القيام بأي أعمال تعطي المبرر للقوى اليمينية الموجودة في السلطة لضرب خط التحالف مع جمال عبد الناصر والمجموعة الاشتراكية. وانتخبت قيادة ضيقة من أربعة هم كمال عبد الحليم وزكي مراد ومبارك عبده فضل وأنا. وأكد الاجتماع خط الحزب بخصوص العمل على بناء حزب واحد مع المجموعة الاشتراكية على أساس الماركسية اللينينية.

وبدأت اتصالات بنا من جانب أحمد فؤاد وأحمد حمروش قيل أنها تهدف إلى تحقيق دمج بين التنظيم الطليعي وحدتو وقالا أنه لن يستثنى أحد وأن الدمج سيتم على أساس الماركسية اللينينية. واستمرت الاتصالات. وأذكر أن الاتصالات قام بها زكي مراد وأحمد الرفاعي وفؤاد حبشي. وطلبوا منا حصر الأعضاء في المناطق المختلفة. وقمنا بذلك وانتظرنا أن يتم الاتفاق على ذلك. ولكنهم لم ينفذوا الاتفاق وأنكروه وبدأوا انتقاء بعض العناصر وليس جميعها. ومن القيادة الرباعية اختير زكي مراد وأنا وغيرنا من الرفاق في مختلف المجالات ولكن تركت الغالبية الساحقة.

و«٢٠ مليون دولار» وبعيدا عن شقق وڤيلات هذا البرج التي تحتوى معظمها على مهبط طائرات خاص وحمام سباحة وملعب تنس إلخ. فإن هناك من الأثرياء الجدد الذين اتجهوا إلى بناء قصور خاصة لهم في قريتي المنصورية والحرانية اللتين تقعان بالقرب من شارع الهرم. وهناك شيدوا لهم أكثر من ٢٠٠ قصر، وهي قصور يصل سعر بعضها إلى ٥٠ مليون جنيه، وهذه القصور بكل منها حمام سباحة وملعب تنس وصالة جمنازيوم وأيضا بيوت للكلاب، وهناك من القصور ما يتعدى سعره رقم الـ ٢٥ مليون جنيه بكثير. وإذا كانت طبقة الأثرياء الجدد تفضل السكنى والإقامة في المنصورية والحرانية بعيدا عن «نق وقر» الفقراء، فإنها لذات السبب فيما يبدو أصبحت تفضل الاستجمام وقضاء شهور الصيف في مارينا والتي أصبحت منذ أعوام المصيف الملاكي الخاص بمن يطلق عليهم «الصفوة» حيث دفع أحد هؤلاء الصفوة في الصيف الماضي ثلاثة ملايين جنيه من أجل شراء شاليه هناك كما دفع آخر ٣٦ مليون جنيه لتملك ڤيلاً.

يقول د. حمدي عبد العظيم عميد كلية السادات للعلوم الإدارية إن معظم الذين يمارسون هذا الاستفزاز الترفي هم في غالبيتهم قد حصلوا على الأموال التي يمارسون بها هذا الاستفزاز من مصادر دخل غير شرعية سواء من الإثراء السريع من الرشاوي والعمولات والتجارة في السلع الفاسدة أو المجرمة قانونا أو من المضاربة في البورصة أو الحصول على قروض طائلة من البنوك عن طريق دفع رشاوي لموظفي الائتمان في هذه البنوك، أي أنهم أثرياء بأموال الغير وليس بأموالهم ولم يحصلوا على دخولهم عن طريق العمل والجهد، وبذلك يصبح من الطبيعي أن يتجه إنفاقهم إلى الاستهلاك البذخي البالغ الترف والمستفز.

(من تحقيق جريدة العربي يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٩٧)

ونسمع الآن عن نواب القروض وغيرهم ممن اقترضوا الملايين من البنوك وهربوا المليارات إلى خارج مصر. ونسمع أيضا عن تواطؤ بعض المسئولين معهم ومساعدتهم.

ويدور الحديث عن أزمة السيولة وانخفاض سعر الجنيه المصري أمام الدولار.

ورغم الحديث عن تشجيع الصادرات فقد ارتفعت الواردات من ٢٧ مليار جنيه في عام ٩١ إلى ٥٤ مليار جنيه في عام ٢٠٠٠ .

هذا هو المناخ العام اليوم، مناخ تزيد فيه الفوارق بين الأغنياء والفقراء وتزداد فيه معاناة الناس وتوضع القوانين والقرارات لصالح طبقة الأغنياء الجدد ولا تراعي مصالح غالبية الناس، ويسود قانون السيطرة لمن في يده الأموال التي يحصل عليها بأي طريق.

أزمة اليسار

أثر هذا المناخ حتى بين صفوف اليسار الذي تأثر بهذه الأوضاع. فقد تأثر بهذا الجو العام الذي صاحب سياسة الانفتاح الاقتصادي وما تبعها من تطورات، وعمل البعض على تكوين مشاريعهم الخاصة وطموحهم الخاص وغلبوا الاعتبارات الذاتية على العامة، وحاولوا الصعود والاستفادة من هذا المناخ الجديد.

وأصبح همهم الأساسي هو المكاسب الذاتية وأصبح هذا هو المعيار الأساسي لتحركاتهم.

وخفتت كثير من المعايير القديمة مثل معايير التضحية ونكران الذات وتغليب المصالح العامة على المصالح الخاصة التي كانت سائدة بين جيل الأربعينيات والذي كان أساسا من الشباب. وقدمت في الجزء الأول أمثلة عديدة لذلك.

ومنذ السبعينيات وجد الكثير من الشباب حل الأزمة العامة في اللجوء إلى التيار الإسلامي. ولجأ البعض إلى الإرهاب الفردي. وقد كانت سياسة السادات في البداية تشجيع ذلك. بل وقدم لهم المساعدات والتدريب ولكنهم انقلبوا عليه بعد ذلك.

منذ حرب ١٩٦٧ توالت سلسلة من النكسات من أبرزها ردة السادات وحرب الخليج وانهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية. وقد أثر هذا كله على اليسار

سواء اليسار القديم أو الجديد، رغم أنه كانت هناك نضالات هامة من جانب اليسار منها أنه صاحب بوادر الردة إعادة بناء تنظيمات اليسار ثم المقاومة وكشف الردة في السبعينيات وتأسيس جبهة واسعة ضدها، ولكن الجو العام ورداءة الظروف أثرا أيضا على الأوضاع الذاتية لليسار. ولاشك أن ظروف النضال في الثمانينيات والتسعينيات كانت أصعب كثيرا منها قبل ذلك. ولم تعد الأهداف بنفس الوضوح الذي كانت فيه في الأربعينيات وبعدها. وفى ظل هذه الأوضاع نشأ ما أصبح يعرف بأزمة اليسار.

وكان اليسار يعاني من الانقسامية وعدم وضوح الرؤية.

فعندما عادت التنظيمات وكان عليها أن تحدد أولوياتها تصورت أن الأولوية لإدانة ما سمى بقرار «حل الحزب» وظنت أن هذه الإدانة هي الحل. ولم تحاول أن تناقش بعمق الظروف التي اتخذ فيه هذا القرار والأسباب الحقيقية له، والحقيقة أن أسلوب الإدانات بدلا من التحليل العميق وتحديد الأهداف هو الأسلوب السهل الذي يزيد التعتيم ولا يساعد على تحديد الأولويات.

ونشأ بين الشباب اليساري توجه يرفض التواصل مع اليسار القديم الذي ارتكب «جريمة» «حل الحزب»، فحرم نفسه لفترة طويلة من الاستفادة من خبرة هذا اليسار ومواصلة إنجازاته والتخلص من أخطائه. وساعد ذلك لفترة على تكريس الانقسامية.

وقد ساعد على ذلك أن قسما من اليسار القديم وحتى من أولئك الذين انتموا إلى «حدتو» وافقوا على هذا التوجه دون محاولة الدفاع عن مواصلة الاتجاهات الثورية التي كانت تهدف إلى وحدة القوى الاشتراكية والثورية والوقوف ضد مؤامرات الردة عن التوجه الوطني. ودون البحث عن كل الوسائل للارتباط بالجماهير وتوحيدها ضد هذه المؤامرات.

وتاريخ الحركة الشيوعية المصرية يزخر بالنضال والإنجازات والتأثير الكبير في الحركة السياسية والثقافية والنقابية في مصر. وخصوصا في الأربعينيات

والخمسينيات والستينيات. وقد حرصت دائما على إبراز هذا الدور في كتاباتي خصوصا في كتيب عن « ٢١ فبراير توجه جديد للحركة الوطنية المصرية» أو في كتاب «اليسار المصري والحركة الوطنية ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠». وقد سبق الرد على بعض الاتجاهات بين اليسار الجديد لرفض التواصل مع اليسار القديم والاستفادة من خبرته الثمينة إيجابياتها وسلبياتها. ولذلك أيضا حرصت على الرد على ذلك المقال الذي كتبه الدكتور/ رفعت السعيد ونشر في مجلة الطريق البيروتية في أواخر عام ١٩٩٣ وعرض أفكاره في اجتماعات التجمع وفي هذا المقال والذي كان عنوانه «هذا الجيل ظالم أم مظلوم» ورددت عليه في اجتماع حضره للجنة منطقة القاهرة ونشرت هذا الرد في مجلة الطريق وأعيد نشر هذا الرد في نشرات مكتب التثقيف المركزي بالتجمع.

وأورد هنا نص الرد لأهميته وقد نشر في عدد يناير عام ١٩٩٤ من مجلة الطريق:

عن الظالم والمظلوم
وذلك الجيل من الماركسيين

حرصت على المشاركة في مناقشة مقال د. رفعت السعيد «هذا الجيل من الماركسيين ظالم أم مظلوم؟» المنشور في العدد ٤ عام ١٩٩٣ من «الطريق» لعدة اعتبارات:

أولا: لأنني من جيل الأربعينيات. وهو جيل أفخر بالانتماء إليه. ومقتنع بأن ما قدمه هذا الجيل كفكر أو برنامج عمل أو تضحيات، يمثل وسيظل يمثل إنجازا هاما وبارزا، له تأثيره الإيجابي الضخم على حياتنا الفكرية والسياسية والثقافية والعملية، ولا يمكن اقتلاع هذا التراث من وجدان مجتمعنا أو تاريخه أو حياته.

ثانيا: إن كاتب ذلك المقال (د. رفعت السعيد) هو شخصية هامة وبارزة فهو إلى جانب كونه الأمين العام لحزب التجمع، وهو حزب اليسار في مصر، فإنه أيضا معروف كشخصية ماركسية بارزة لها دورها التاريخي المعروف في الحركة الماركسية المصرية، له كتاباته الهامة في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية. ولهذا فإن إسهامه

الفكري والسياسي له أثره وتأثيره الواسعان بين قوى اليسار وقوى الحركة الوطنية المصرية والعربية.

ثالثا: لأنني أختلف اختلافا جذريا مع ما جاء في ذلك المقال من أفكار وتوجهات. وأعتقد أن تركه بدون مناقشة أو رد يمكن أن يلحق ضررا بفكرنا ونضالنا، لما يمكن أن يتركه من أثر، ولما يمكن أن يرسيه من مفاهيم سواء في مصر أو في البلاد العربية الأخرى.

وأبدأ بمناقشة المقال: إن عنوانه لا يشرح الهدف من نشره، إلا إذا كان جذب الانتباه وأسلوبه صحافي خفيف مثل أسلوب اليوميات، رغم أن الموضوع يحتاج إلى معالجة أكثر جدية. هذا عن الشكل.

وأنتقل إلى الموضوع. يتحدث الكاتب في بداية المقال عن «الجيل الذي أرسى ما نحن فيه من محنة» ثم لم يشرح كيف ذلك. ولم يثبت هذا القول بأي وقائع مؤكدة. ويفهم من الجملة التالية أنه يقصد أن هذه المحنة ترجع إلى أنه «اقترن بالماركسية في إطار زهوها المنتصر الصاخب» ويفهم من ذلك أن السبب في محنتنا ـ في رأي الكاتب ـ أن هذا الجيل ربط النضال من أجل التحرر الوطني بالماركسية، ثم يكمل اتهامه لهذا الجيل، بأن ارتباطه بالماركسية كان بسبب زهوها المنتصر الصاخب فقط أو أساسا: معارك ستالينجراد، صمود لينينجراد، الزحف إلى برلين .. إلخ.

هذا القول أختلف معه تماما.

فقد ارتبط هذا الجيل ـ وأتحدث عن مصر ـ بقضايا التحرر الوطني والنضال ضد الاستعمار قبل ارتباطه بالماركسية. وفي مصر كان تعاون السراي وحكام ذلك الوقت مع المستعمر، الذي كانوا يرون فيه عونا لهم في الحفاظ على امتيازاتهم الاجتماعية والسياسية، هو الذي دفع هذا الجيل إلى الربط بين التحرر الوطنى والتحرر الاجتماعي والتوجه الاشتراكي. وكانت الماركسية في ذلك الوقت، هي أبرز تيار يقدم الأساس الفكري الأيديولوجي لهذا الربط. كان من الطبيعي أن تتجه

طلائع هذا الجيل ورواده إلى الماركسية. وكان من الطبيعي أن تتجه حركات التحرر الوطني الراديكالية وتنظيماتها بعد ذلك إلى الارتباط بالاشتراكية، والتحالف مع الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي خصوصا أن هذا المعسكر كان السند الأساسي لها في نضالها ضد الاستعمار والامبريالية والعدوان.

يقول الدكتور رفعت: «وصل الأمر أحيانا في الستينيات أن أصبحت الماركسية والتمركس موضة العصر» هذا صحيح، ولكن السبب في ذلك هو ما سبق الحديث عنه، لأن الماركسية كانت فعلا وجهة نظر وأيديولوچية ترد على التساؤلات في القضايا الوطنية وتربطها بالقضايا الاجتماعية. وهذا أمر إيجابي وليس سلبيا.

ورغم أن الظروف الموضوعية (ارتباط حكام البلاد المستعمرة والتابعة بالاستعمار، وارتباط الاستغلال الداخلي بالاستغلال الخارجي، كان يربط بين الاستعمار وأعوانه، وكان النضال ضد أحدهما يعني النضال ضد الآخر في الوقت نفسه) فإن قوة الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية، وتصاعد هذه القوة بعد الحرب العالمية الثانية، ثم انتصار ثورة الصين والثورات الأخرى في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، ومساندة الاتحاد السوڤيتي والبلاد الاشتراكية لحركات التحرر الوطني - كل ذلك، أدى إلى هذا الرباط القوي بين الاشتراكية والتحرر الوطني، بحيث أصبحت الدول الوطنية الجديدة تقتبس تجارب البلاد الاشتراكية (الاتحاد السوڤيتي بالذات)، الصحيح منها والخاطئ. وهذه عملية مركبة وهامة ومازالت لها آثارها حتى اليوم، لا يمكن تبسيطها بالقول بأنه وصل الأمر في الستينيات أن أصبحت الماركسية أو التمركس موضة العصر.

وإلى جانب هذا العامل الموضوعي، هناك عامل ذاتي لا يمكن أن نغفله، بل لابد من إبرازه. وهو حجم التضحيات التي قدمها الرواد الماركسيون في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات لتحقيق تلك النتائج، وهذه التضحيات، وهذا الإصرار والصمود للصعوبات والتغلب عليها، لم يساعد فقط في تحقيق تلك النتائج، بل كان يقدم مثلا لكل المناضلين من التيارات الوطنية والديمقراطية الأخرى، ومازالت هذه التضحيات الضخمة، والتي لا تشمل فقط ما قدمه هذا الجيل من شهداء، بل

والأمثلة النادرة في البطولة ونكران الذات والدأب والعمل المتواصل لتحديد وإرساء برنامج الحركة الوطنية المصرية والعربية.

يقول الدكتور رفعت السعيد: إن هذا الجيل هو الذي «أرسى أساس ما نحن فيه من محنة»، لأنه اقترن بالماركسية في إطار زهوها المنتصر الصاخب. و«عاش مرحلة الزهو بالشقيق الأكبر الذي حقق المعجزات». ثم يقول: «لكننا وقبل أن ننصب مقصلة التحاسب يتعين علينا أن نقرر عدة أمور حاكمة وحاسمة ماكان لأحد منا أن يتجاسر بتخطيها أو تجاهلها. فأولا كنا مجرد ورثة «لممارسات وتعاطي الجيل الأول .. ولعلنا رددنا لأنفسنا ولغيرنا: أنا «وجدنا آباءنا لها عابدين». إلخ.

ثم يستطرد شارحا، أن تبعية الأجيال التالية للحزب الشقيق الأكبر (وهو الحزب الشيوعي السوفيتي) الحاكم المتحكم في كل شيء، قد أرسى دعائمها جيل الأربعينيات والخمسينيات.

وأنا أتجاسر على رفض هذا الادعاء، لأنه لا يستند إلى أي واقع. فالواقع يكذبه. بل إن كتابات الدكتور رفعت السعيد عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية تكذبه. وتؤكد أنه افتراءات على الحقيقة وظلم لها.

وأقتبس هنا بعض فقرات، مما سبق أن كتبه رفعت السعيد: «فقد امتلك الشيوعيون ومنذ البداية جسارة التفكير المستقل، وجسارة الاختلاف مع موقف السوفييت في مواقف عديدة. لقد صدقوا شعار «عدم أحقية أحد بالتدخل في شئون الغير» وطبقوه. فتعرضوا، ولأكثر من مرة، لغضبة الإخوة الكبار. لعل هذا كان خيرا. ولعلهم الآن ـ بفضل هذا الغضب عليهم ـ يجدون أنفسهم في وضع أفضل من غيرهم. ولعلهم يقفون الآن بفضل هذا الغضب أكثر قبولا من شعبهم...» ـ (ماركسية المستقبل، ص ٧٨).

وهذه فقرة أخرى: «وبرغم انقطاع العلاقات مع الكومنتيرن وما تلاه من أشكال أممية، فقد ظلت الحركة الشيوعية المصرية حية وفاعلة ولعبت دورا هاما ومؤثرا في الحياة السياسية المصرية، كما حافظت في ذلك الوقت على موقف يتسم بالاحترام العميق للاتحاد السوفيتي، دون السماح لأحد بأن يتدخل في شئونها.

وفي عام ١٩٥٢، وعندما قامت ثورة يوليو، وكان الشيوعيون شركاء في تنظيم الضباط الأحرار الذي فجرها، فوجئ الجميع بالحزب الشيوعي السوفيتي، ومن ثم بكل الأحزاب الشيوعية في العالم، يدين انقلاب يوليو ويتهمه بأنه انقلاب أمريكي، ورفض الشيوعيون المصريون (أو قطاع كبير منهم على الأقل) هذه المقولة، ولكنهم تعاملوا معها ببساطة مصرية... فنحن أصحاب البلد، ونحن أصحاب القرار، ونحن أصحاب الموقف، ومن حق الآخرين أن يقولوا ما يشاءون دون أن نلتزم به» (المصدر نفسه ص٨٩).

ولا أحتاج إلى إضافة شيء على ما كتبه د. رفعت السعيد ردا على مقالته الأخيرة.

فهذا الجيل بالتحديد (جيل الأربعينيات والخمسينيات من الماركسيين) ومعه جيل الستينيات لم يخضع للشقيق الأكبر أو لما كان يسمى «بالأممية» أو «المركز» لسبب بسيط، وهو أنه لم يكن له أي علاقة بهم. فقد رفضوا إقامة أي علاقات مع الحركة الشيوعية المصرية «الثانية» التي نشأت في الأربعينيات، ورفضوا الاعتراف بها. ولا يعني ذلك أن شيوعيي الأربعينيات وما بعدها لم يكونوا راغبين في هذه الصلة، أو أن انعدام هذه الصلة كان يقلل من احترامهم الكبير لهذه «الأممية» وللشقيق الأكبر، ولكن الواقع يؤكد أن هذه الصلة لم تكن موجودة، وهو الأمر الذي دفع بشيوعيي هذا الجيل أن يعتمدوا وبشكل كامل على أنفسهم في حركتهم وفكرهم وسياستهم وتحركهم العملي. فقد تلقوا الماركسية من الكتب، واقتنعوا بالمنهج الماركسي، ولكنهم لم يجدوا في هذه الكتب إجابة على كل المشاكل والقضايا التي واجهتهم عمليا في نضالهم وعملهم. ولما كان ما يسطر في الكتب لا يتفق دائما مع ظروف الواقع الذي يعيشون فيه، فقد كانت لهم اجتهاداتهم بالنسبة لأغلب المشاكل التي واجهوها. وكانت الحلول التي قدموها من صنعهم وفكرهم. ولم يستوردوا أي حلول لمشاكل بلادهم، ولم يتلقوا أي تعليمات بشأنها. ولهذا كثيرا ما كانت مواقفهم تختلف بالنسبة لقضايا بلادهم عن مواقف «الشقيق الأكبر» أو مواقف «المركز الأممي». بل اختلفوا في ذلك عنهم.

ويمكن أن نورد هنا العديد من الأمثلة، مثل الموقف من البورجوازية الوطنية ومن حزب «الوفد» الذي كان الشيوعيون المصريون يعتبرونه قوة وطنية. وكذلك بالنسبة للتوجه المقوى الوطنية الديمقراطية وتسمية تنظيمهم الشيوعي «الحركة المصرية للتحرر الوطني» ثم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى». ونذكر في الأربعينيات أن معركة دارت حول ما سمى «بخط القوات الوطنية الديمقراطية» بل وحاول الشيوعيون أن يقيموا أشكالا للتنظيم تتفق مع ظروف نضالهم، ولا تتطابق بالضرورة مع الشكل التنظيمي التقليدي. فجربوا «التنظيم الفئوي» مثلا، ومعروف موقفهم المتميز من ثورة يوليو ١٩٥٢ . ثم كانت لهم في الستينيات صياغات فكرية مستقلة مثل «المجموعة الاشتراكية» وغير ذلك من الأمثلة العديدة.

وبالنسبة لانفرادهم بتأييد ثورة يوليو، فقد كان ذلك انطلاقا من كونهم عاشوا فيها وساهموا فيها ، ورأوا أنهم أقدر على تحديد الموقف السليم. وشاركهم في هذا الموقف الحزب الشيوعي السوداني الذي كان وثيق الصلة بهم، والذي لاقى في سبيل هذا الموقف التهديدات والهجوم من أحزاب أخرى.

ويتحدث الكاتب د. رفعت السعيد، بطريقة فكاهية عن أن هذا الجيل، «عاش مرحلة الزهو، بالشقيق الأكبر الذي حقق المعجزات». وأنه «طالب جماهير الأحزاب والتيارات الأخرى في ترفع أن تفاضل بين معسكر الشعوب والسلام ومعسكر الإمبريالية والحرب».

وبهذا يسخر من النضال الطويل والتضحيات سواء تلك التي قدمها هذا الجيل أو التي قدمها الشعب السوفيتي والحزب الشيوعي السوفيتي لتحقيق تلك الإنجازات الضخمة، والتي لم تكن ولا يمكن أن تكون هي السبب في الانهيارات الأخيرة.

وإلا فإنه بذلك يؤكد ادعاءات يلتسن وحكام روسيا الجدد بأن ثورة أكتوبر هي أس البلاء وأنها سبب الانهيارات التي حدثت، وسبب كل المصائب. والحقيقة أن ثورة أكتوبر ستظل تحولا كبيرا في تاريخ البشرية رغم الانتكاسات، كما كانت الثورة الفرنسية الكبرى تحولا كبيرا له أثره الهائل، رغم ما أعقبها من ردة وانتكاسات.

وقد كان اتجاه بعض القوى القومية في البلاد العربية وفي العالم الثالث إلى الماركسية هو نتيجة لهذا الجهد الكبير والتضحيات الكبيرة التي أدت إلى تغيير جذري في الأوضاع العالمية، بحيث أصبح الاتحاد السوفيتي والبلاد الاشتراكية هي السند الرئيسي لهذه القوى وللدول الوطنية الجديدة التي تحررت. واتجهت بعض هذه القوى إلى الماركسية. كان هذا هو السبب. وليس لأن «الماركسية أو التمركس أصبحت موضة العصر».

ويربط الكاتب بعد ذلك ربطا غير منطقي بين الحديث عن هذا الجيل والحديث عن الشقيق الأكبر. ويختلط الأمر، ولا نفهم إن كان هو تقييم لهذا الجيل أم تقييم للشقيق الأكبر (الحزب الشيوعي السوڤيتي) ويثير هنا قضية الموافقة على كل ما كان يقوله أو يفعله الشقيق الأكبر (إدانة تيتو ـ التدخل في المجر ـ التدخل في تشيكوسلوڤاكيا ـ غزو أفغانستان .. الخ).

سبق أن ذكرت في السطور السابقة أنه بالنسبة للشيوعيين المصريين، كانوا يتخذون بالنسبة لقضايا بلادهم القرارات التي يمليها عليهم اقتناعهم. ولا يخضعون في هذا الخصوص لأي تدخل من الخارج.

أما بالنسبة للقضايا الدولية، فقد كان موقفنا منها ينطلق من الموقف من القضايا الوطنية، وبالذات علاقتها بالمعركة التي تخوضها بلادنا ضد الاستعمار والامبريالية والعدوان الإسرائيلي. فكنا نحدد موقفنا على هذا الأساس. كنا نتبنى الموقف الذي يساعدنا في هذا النضال وكان الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية هما سندنا الأساسي في هذه المعركة. ولهذا لم يكن مقبولا لنا كوطنيين، في نظر شعبنا، أن نهاجم التدخل السوڤيتي في المجر سنة ١٩٥٦، في الوقت الذي كانت بلادنا فيه تتعرض للعدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي. وكانت القوى الرجعية في بلادنا وحدها تهاجم التدخل السوڤيتي في المجر وتركز عليه كما فعلت جريدة «أخبار اليوم».

ولم يكن مقبولا بالنسبة لنا كوطنيين وفي نظر شعبنا أن نهاجم تدخل حلف وارسو في تشيكوسلوڤاكيا عام ١٩٦٨، وكانت بلادنا تركز كل جهودها لإزالة آثار

وكلفت بالعمل في الوجه البحري. وتكونت لجنة للأقاليم. وأصبحنا نتسلم النشرات السرية التي يصدرها التنظيم الطليعي.

وفي عملنا في الوجه البحري كنا نصطدم بقيادات الاتحاد الاشتراكي في مختلف المحافظات الذين كانوا يقفون ضد مطالب الجماهير، وكنا نكتب إلى قيادة التنظيم بمواقفنا وآرائنا وانتقاداتنا لهذه القيادات. وكنا نشك أن بعض هذه القيادات قد تكون موجودة أيضا في التنظيم الطليعي بل وفي قيادته.

وأبدينا رأينا في تركيب التنظيم الطليعي واعتماده على فروع متعددة وطالبنا بتوحيد التنظيم على أساس جغرافي. وكنا نطالب بقبول عضوية باقي أعضاء حدتو في التنظيم الطليعي.

وأبلغنا بقرار بتوحيد التنظيم وطلب منا أن ننتظر حتى يتم الاتصال بنا. وقد تم الاتصال بالبعض بالفعل. ولكن الغالبية لم يتم الاتصال بها ومنهم زكي مراد وأنا.

***

العدوان الإسرائيلي، وكنا نعتمد في ذلك على مساندة دول حلف وارسو سياسيا واقتصاديا وعسكريا. الشيء نفسه بالنسبة للقضايا الأخرى. فرغم خطأ الغزو السوفيتي لأفغانستان، فقد تشكل وضع تجمعت فيه كل القوى الرجعية في العالم بمساندة المخابرات المركزية الأمريكية لضرب الاتحاد السوفيتي في أفغانستان. وكان الشيوعيون المصريون يعتبرون أن الاتحاد السوفيتي يساعد أفغانستان ضد التدخل الأجنبي وبطلب من الحكومة الشرعية. وكان يحضرنا في ذلك تجربة الغزو الإسرائيلي لمصر وللبلاد العربية حينما طلبنا مساعدة الاتحاد السوفيتي. وكانت المشاعر الوطنية تتطلب تدخلا أكبر من الاتحاد السوفيتي حتى لو أرسل جيوشه لمساعدتنا. وقد كان لحزب التجمع بالنسبة لقضية أفغانستان موقف متميز ومتوازن. فهو لم يؤيد الغزو ولكنه لم يدن الاتحاد السوفيتي. وقدم اقتراحات بديلة.

وهذا كله لا يعني أن الغزو السوفيتي أو التدخل في شئون الدول الأخرى أمر سليم. فإلى جانب الاعتبارات الوطنية لم تكن لدينا المعلومات الكافية أو القدرة على تحديد موقف مستقل بالنسبة لهذه القضايا الدولية. وكانت ثقتنا في الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية ـ اللذين كنا في أمس الحاجة إليهما في نضالنا الوطني ـ تجعلنا نطمئن لتقديره ونتخذ الموقف الذي يدعمه في العلاقات الدولية وفي علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية وبالغرب. وكنا نرى أن علينا أن ندعمه كما يدعمنا، وأن ذلك بالتالي دعم لنا.

ولا أزعم أن هذا الموقف كان صحيحا صحة مطلقة، ولكنني أعتقد أن هذا الموقف من جانبنا ومن جانب كل أحزاب العالم الثالث (سواء الشيوعية أو الوطنية) كان هو الموقف الممكن في ظل المعركة الدائرة مع الاستعمار والامبريالية. ولهذا لا أستسيغ بيانات بعض الأحزاب الشيوعية في العالم الثالث بإدانة مواقف التأييد السابقة التي صدرت عنها، بعد أن غير الحزب الشيوعي السوفيتي موقفه وأدان التدخل في المجر وتشيكوسلوفاكيا وغزو أفغانستان.

وأعتقد أن هذا هو السبب أيضا في أن الشيوعيين المصريين لم يصدروا بيانات مماثلة.

وقد اتخذت الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية، وبالذات تلك الأحزاب ذات الوزن الجماهيري، مواقف مختلفة إذ أدانت الغزو، والتدخل في شئون البلاد الأخرى، وانتقدت الممارسات غير الديمقراطية والقمع في الاتحاد السوفيتي وبلاد المنظومة الاشتراكية، وكانت هذه الأحزاب تواجه في بلادها مشاكل أخرى وجوا عاما مختلفا عن بلدان العالم الثالث كان له تأثير على المواقف التي اتخذتها بالنسبة لهذه القضية.

وليس غريبا أن غالبية القوى والأحزاب الوطنية في العالم الثالث، وفي بلادنا العربية بالذات تعتبر انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية خسارة كبيرة، وتنظر بحسرة إلى الأيام التي كان الاتحاد السوفيتي يقف فيها قطبا ثانيا يواجه الولايات المتحدة الأمريكية.

ثم ينتقل الكاتب بعد ذلك إلى سؤال هام وهو: ما هي الماركسية؟

وهذه القضية كانت موضوع صراع في الحركة الشيوعية المصرية بين تيارين، الأول: كان يتعامل معها كنصوص واقتباسات، وكانت مواقفه من القضايا العملية تتأرجح بين اليمين واليسار. لأنه كان يحاول إخضاع الواقع للنصوص، ولهذا كانت سياسته تتسم بأخطاء مستمرة تعزله عن الواقع وعن الجماهير، وتيار آخر كان يأخذ من الماركسية منهجها وروحها. ويعتبرها مرشدا للعمل. ولهذا لم يكن يتمسك بالنصوص إذا تعارضت مع الواقع، وكان يعتبر أن من مهمته تطوير النظرية بإثرائها المستمر بتصحيحات جديدة تعكسها خبرات النضال المتجدد. ولا يعني هذا أن كل شيء عندنا كان على ما يرام، وأنه لم تكن لدينا أخطاء وسلبيات، ولا يعني أيضا أن التطورات العاصفة التي حدثت في العالم وانهيار المنظومة الاشتراكية لم تجعلنا نعيد التفكير في كثير من المفاهيم السابقة.

وإنني أتفق مع الدكتور رفعت أنه لم يكن لدينا النظرة النقدية لكثير مما كنا نقرأه من الكتابات الماركسية. وأننا لم نكن نهتم بقراءة أعمال من يجري نقدهم في تلك الكتابات أو الهجوم عليهم ووصفهم بمختلف الصفات مثل دوهرنج وكاوتسكي وغيرهما، وبالذات بالنسبة للقضايا غير المحلية. كل ذلك كان يؤثر على

الكثير من أحكامنا، ولا يوسع آفاق تفكيرنا. ولاشك أيضا أن تلك التحولات والزلازل قد هزت الكثير من مسلماتنا السابقة ولكنني لا أتفق معه في أن ما حدث قد «أطاح بطموحاتنا السابقة وهز أركان معتقداتنا وشكك في مصداقية ما قلنا وما فعلنا وما نقول».

فماذا كانت طموحاتنا؟ التحرر الوطني والاجتماعي ـ العدالة الاجتماعية ـ الاشتراكية. فهل تمت الإطاحة بهذه الطموحات؟ لا أعتقد ـ وكذلك الأمر بالنسبة لمعتقداتنا فإن إيماننا بالشعب والانحياز للجماهير الكادحة والعمل والعدالة الاجتماعية وكل القيم النبيلة التي دافعنا عنها ـ ولا نزال ـ لم تهتز، وقد كان هذا هو مفهومنا للماركسية. ولم نشكك في مصداقية ما قلنا، لأن أغلب ما قلناه كان يعبر فعلا عن احتياجات مجتمعنا، بل إن التغيرات العميقة التي حدثت في مجتمعنا، وكان لنا دور الريادة في تحديد الأهداف والنضال من أجلها. وهناك العديد من الأمثلة: ففي الأربعينيات نجح نضالنا مع كل القوى الوطنية الأخرى في الضغط لخروج القوات البريطانية من القاهرة والإسكندرية وتمركزها في القنال. وقد أصبحت الأهداف والبرنامج الذي طرحناه برنامجا للحركة الوطنية المصرية والذي قامت على أساسه ثورة يوليو بعد ذلك. وكانت ثورة يوليو نفسها والإنجازات التي حققتها ثمرة من ثمار نضالنا. ولن نقوم هنا بحصر كل الإنجازات التي تحققت بفضل نضال هذا الجيل في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها من المجالات.

ومع ذلك فهناك أخطاء، وعلينا أن نستفيد من أخطائنا، وأن ننضج مواقفنا ونغذيها بالتجارب الجديدة، وأن نتخلص من المفاهيم والأساليب التي ثبت عقمها.

إن ما حدث يمثل انتكاسة كبيرة، وسنعاني من آثارها لمدة طويلة، ولكن ذلك لا يجب أن يدفعنا للتشكيك في كل شيء.

يقول الدكتور رفعت إن البعض أسرع بالإنكار والتنصل، وعرض «استربتيزا» رديئا تخلص فيه من كل ثياب الماضي صحيحها وخطأها. وأقول إن التشكيك في الماضي وفي الجيل القديم الذي ينشره في هذا المقال هو الذي يؤدي إلى ذلك. أما

اتجاه بعض الأحزاب إلى تعديل أسمائها أو مراجعة بعض مفاهيمها أو أولوياتها وأساليبها تكيفاً مع الظروف الجديدة واستفادة من الدروس لا يدخل في هذا الباب، وهو أمر يحتمل المناقشة.

لا جدال أن الوقت الذي نمر به حاليا ليس هو أزهى أوقات اليسار، بل هناك انحسار لقوى اليسار، ولهذا أسبابه الموضوعية والذاتية، فكيف نواجه هذا الانحسار؟ هل نقوم بتكملة هدم البيت وتاريخه والتضحيات؟ أم ندرس أسباب هذا الانحسار، الموضوعية والذاتية، لكي نتغلب عليها؟ ونصحح الأخطاء ونغير الأساليب ونتخلص من المفاهيم البالية لنتقدم بعد ذلك من جديد إلى الأمام.

هذا هو المنهج الجدلي، وهو المنهج الصحيح.

إننا مطالبون الآن بتقديم مشروع يساري جديد يواجه متطلبات الجماهير المصرية والعربية في الظروف الجديدة، وذلك في وقت يتصاعد فيه التيار الأصولي والاتجاه الليبرالي الجديد. هل نواجه هذه المهمة بهدم الماضي ونشر الروح الانهزامية، أم بالاستناد إلى تاريخنا وتراثنا نواصل فيه الإيجابي وننميه ونتخلص من السلبي، ونستفيد من الدروس ونقوم بدراسة الواقع الجديد ليكون خطابنا وتحركنا مقبولا من الجماهير التي كرسنا أنفسنا للدفاع عن مصالحها، ولكي تتحرك معنا لتحقيق هذا المشروع؟

هذا هو السؤال الهام والصعب الذي يجب أن نكرس جهودنا للإجابة عنه مستفيدين من خبرة الماضي ودروسه، دروس الانتصارات والهزائم معا.

**

وقد كان الدفاع عن تاريخنا وجيلنا هو إحدى المعارك الهامة التي دخلتها وهو حديث أكرره دائما في أحاديثي وفي الندوات المختلفة التي أشارك فيها. وقد دخلت معارك أخرى للدفاع عن هذا التاريخ سواء في مقالي بالأهالي للرد على نايف حواتمة الذي قال في مقالتين كبيرتين نشرتا في الأهالي أن الشيوعيين المصريين وافقوا على تقسيم فلسطين خضوعا لأوامر الاتحاد السوفيتي، فكان ردي أن

الشيوعيين المصريين لم يكونوا تابعين لموسكو. وفي نفس الاتجاه كان ردي في الأهالي أيضا على محمود السعدني ومحمد سيد أحمد. ومن ذلك أيضا المحاولات للربط بين الحركة الشيوعية والصهيونية والذي بدأ في صحف الأربعينيات وعاد إليه البعض الآن وهو ما سأتعرض له فيما بعد.

وقد نشر الرد على السيد/ نايف حواتمة في الأهالي بتاريخ ٢٣ يوليو ١٩٩٧ وسأورد مقتطفات منه هنا لأهميته في الرد على تشويه تاريخ الشيوعيين المصريين وبالذات بالنسبة لموقفهم من قرار التقسيم.

**

ردا على حواتمة: «الشيوعيون المصريون لم يكونوا تابعين لموسكو»

نشرت الأهالي بتاريخ ٩ يوليو ١٩٧٧عن فتح باب الحوار حول موقف الشيوعيين العرب من قرار التقسيم الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ . وقد صدرت هذه الدعوة بمناسبة عرض الجريدة للفصل الأول من كتاب سيصدر هذا الشهر بعنوان «حواتمة يتحدث».

ورغم أن لي ملاحظات كثيرة على العرض الذي قدم على لسان السيد نايف حواتمة، إلا أنني سأركز على حديثه عن موقف الشيوعيين المصريين من قرار تقسيم فلسطين.

أول الأخطاء التي وردت في حديث السيد نايف حواتمة هو اتهامه للشيوعيين المصريين بأنهم كانوا يتلقون أوامرهم من موسكو. وقد ورد هذا الاتهام حين تحدث عن تأييد قرار التقسيم وجاء مرة أخرى عند الحديث عن قرار حل الحزب الشيوعي المصري.

ويرد على هذا الاتهام بأن الشيوعيين المصريين سواء في فترة قرار تقسيم فلسطين أو عند صدور ما سماه البعض «بقرار حل الحزب الشيوعي المصري سنة ١٩٦٥»[(١)] لم يكونوا على صلة بموسكو، سواء من الناحية التنظيمية أو من

---

(١) الواقع أن عنوان القرار «كان وقف الوجود المستقل للحزب الشيوعي المصري».

الناحية الفعلية، فلم تكن لهم أية علاقة بالحزب الشيوعي السوڤيتي أو بالمركز الشيوعي الدولي الذي كان قد قطع صلته بهم منذ الثلاثينيات، ولم تعد هذه الصلة بعد النشأة الثانية للتنظيمات الشيوعية في الأربعينيات. ولهذا كان على الشيوعيين المصريين - سواء أرادوا أو لم يريدوا - أن يتخذوا قراراتهم بأنفسهم. وكانوا في العديد من القضايا يتخذون مواقف تختلف عن موقف موسكو، كما كان الحال من تأييدهم لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ومع ذلك فإنني أتعجب من أن يثير السيد نايف حواتمة الموقف من قرار التقسيم الآن وفي عام ١٩٩٧ . مع أن السيد نايف حواتمة والجبهة الديمقراطية قد وافقوا على أقل من ذلك بكثير وهو حدود ١٩٦٧ في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني منذ حوالي عشر سنوات. وهذا القرار يعترف بوجود دولتين: دولة فلسطين ودولة إسرائيل. وإذا قيل أن هذا موقف سياسي وليس موقفا فكريا، فإن الموافقة على قرار التقسيم في ١٩٤٧ كان أيضا موقفا سياسيا، وكان الشيوعيون المصريون يدعون إلى قيام دولة ديمقراطية واحدة متحررة من الاستعمار البريطاني يعيش فيها العرب واليهود جنبا إلى جنب، ولكن لم يمكن تنفيذ هذا الهدف الذي رفضه كل من اليهود والعرب.

وقد كان البديل لقبول التقسيم هو تأييد الحرب التي شنتها الحكومات العربية في ذلك الوقت، والتي كانت تمثل مؤامرة استعمارية رجعية. أفليس من المريب أن يقود الجنرال جلوب الانجليزي الجيوش العربية في الأردن، وأليس من المريب أن ترسل الحكومة الملكية المصرية جنودها في فلسطين بأسلحة فاسدة في الوقت الذي كان المستعمر البريطاني يحتل فيه الأراضي المصرية.

يرد البعض على ذلك بأنه حتى لو كنا قبلنا التقسيم فإن إسرائيل ما كانت لتقبله. ولكنها كانت ستتوسع كما فعلت بالفعل. ولكنني أقول أن قبولنا للتقسيم وقتها كان سيقوي موقفنا التفاوضي والسياسي استنادا إلى قرار هيئة الأمم المتحدة بالحدود التى قررتها. وكان سيضمن لنا قيام دولة فلسطينية على جزء من الأرض الفلسطينية. وكان سيوفر علينا وقتا طويلا اضطررنا نتيجته أن نقبل بحدود ١٩٦٧

التي ترفضها الآن إسرائيل ومعها الولايات المتحدة. والذي حدث أن الحكومات العربية، وعلى رأسها الحكومتان المصرية والأردنية رفضت أن تقوم دولة فلسطينية واستولت الحكومة المصرية على غزة والحكومة الأردنية على الضفة الغربية.

وإذا أدركنا أن الحرب وحدها لن تحسم هذا الصراع فإن العمل السياسي له دور كبير، والعمل السياسي يعتمد أساسا على كسب الرأي العام العالمي. ومنذ حرب ١٩٤٨ حققت إسرائيل مكاسب سواء في الحرب أو في العمل السياسي. فلقد وسعت حدودها أكثر مما حدده قرار هيئة الأمم المتحدة للتقسيم. وبعد عدوانها عام ١٩٦٧ توسعت إلى الحدود الحالية. وقد نجحت إسرائيل حتى ذلك الوقت في أن تقدم نفسها للعالم بأنها الضحية التي تدافع عن وجودها ضد العرب «المعتدين» الذين يريدون القضاء عليها.

وقد بدأ التحول في عهد عبد الناصر بالجمع بين الاستعداد العسكري والعمل السياسي. فإلى جانب إعادة بناء الجيش وحرب الاستنزاف وتحقيق الموقف العربي الموحد كان عبد الناصر يقوم بالعمل السياسي، فقبل القرار ٢٤٢ الصادر عن الأمم المتحدة وطالب بالعودة لحدود ١٩٦٧ . وكان ذلك استعدادا لحرب ١٩٧٣ وعبور القناة.

وفي اعتقادي أن استمرار العمل السياسي بعد ذلك في اتجاه دعم العمل العربي الموحد وكسب الرأي العام العالمي، والعمل من أجل عقد مؤتمر دولي كان في مقدوره أن يحقق مكاسب للعرب. ولكن الأمور سارت في طريق آخر، هو طريق كامب ديفيد. ويتساءل البعض: لماذا رفضتم كامب ديفيد وأنتم تنادون بالسلام؟ لأن كامب ديفيد أضعفت قضية السلام. لقد حققت سلاما إسرائيليا أمريكيا. وأدت إلى عزل مصر عن أصدقائها في العالم. ولهذا فليس غريبا بعد كامب ديفيد أن تغزو إسرائيل جنوب لبنان. وليس غريبا بعد كامب ديفيد أن يحدث التردي في الموقف الغربي وأن تتفشى النزاعات والصراعات بل والحروب بين البلاد العربية.

إن منطق كامب ديفيد هو منطق عزل مصر، هو منطق الفرقة بين البلاد العربية. هو منطق مصادقة الأعداء ومعاداة الأصدقاء، وعندما نتحرك اليوم للم

الشمل العربي، ولإقامة السوق العربية المشتركة أو لرفض هرولة بعض الدول العربية، ومقاطعة المؤتمر الاقتصادي في قطر، ولكسب الأصدقاء في العالم لتأييد مواقفنا العربية، وقرارات الأمم المتحدة المتتالية التي تساند حقوق الشعب الفلسطيني، فإننا نتحرك بمنطق يختلف عن منطق كامب ديڤيد.

إن الموقف السياسي القوي يعتمد على وحدة الصف العربي وكسب تضامن دول العالم الثالث وشعوبها وكل شعوب العالم. إن الرأي العام العالمي يتحول ضد إسرائيل ويدين عدوانها المستمر ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية، وتتكشف سياستها التوسعية والمعادية للسلام. ويؤكد ذلك قرارات الأمم المتحدة وعزلة إسرائيل المتزايدة فلا يقف معها غير الولايات المتحدة الأمريكية.

لهذه الأسباب فإنني مع احترامي للسيد نايف حواتمة أطلب منه أن يركز جهوده على تحقيق وحدة القوى الفلسطينية والعربية. وتقديم الاقتراحات الإيجابية لتحقيق ذلك. وأطلب منه إعادة النظر فيما كتبه عن مواقف الشيوعيين المصريين ومراجعتها ليدخل التعديلات اللازمة على كتابه الذي لم يصدر بعد لأن صدور كتاب لقائد إحدى الفصائل المهمة للمناضلين الفلسطينيين يجب أن يضيف ما يمكن أن ينير الطريق في النضال من أجل تحقيق سلام عادل حقيقي يقوم على انتزاع الشعب الفلسطيني لحقوقه في إقامة دولته المستقلة على وطنه وفي دعم النضال العربي ضد العدوان الإسرائيلي.

**

نشر هذا المقال في مكان بارز في جريدة الأهالي وكان عبد العال الباقوري يرأس تحريرها في ذلك الوقت. وهو أمر أذكره له وأقدره رغم اختلافاته معي في موقفه من القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي.

وبعد ذلك بشهر وفي ٢٠ أغسطس ١٩٩٧ كان عليّ أن أرد على محاولة أخرى لتشويه تاريخ الشيوعيين المصريين وذلك من جانب محمود السعدني في «أخبار اليوم» الذي كتب يقول:

«إن الشيوعيين الذين كان يقودهم يهود من فرنسا وبولندا لم يكن يعنيهم نظام الحكم في مصر. ولكن كان اهتمامهم الأكبر هو خلق فرصة لشق الجبهة الداخلية، وإفساح الطريق لصوت مصريّ من داخل مصر لتأييد حق اليهود في إقامة دولة لهم على أرض فلسطين».

وأن هذا الكلام كان يردده كثيرا ولكن بالإحساس وليس بالدليل. وأن الذي أعطاه الدليل هو محمد سيد أحمد الذي نقل عنه ـ حسب روايته ـ أنه قال: «أنا مؤمن الآن بأن الهدف من زرع الحركة الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية هو مساعدة الوكالة اليهودية في تحقيق حلمها بإنشاء دولة لليهود على أرض فلسطين».

وقد رد محمد سيد أحمد على ذلك في الأهالي (بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٩٧) وقال أن هذا التصريح المنسوب إليه ليس دقيقا. وكرر ما نشره في مجلة «القاهرة» من قبل عن أن الحركة الشيوعية المصرية مرت «بفترة يهودية» ثم بعد ذلك «بفترة قومية». وكرر هذا المفهوم بعد ذلك في كتابات أخرى. وفي «ورشة عمل» عن دور الأجانب في الحركة الشيوعية نظمتها لجنة توثيق الحركة الشيوعية المصرية، وكنت أشترك فيها إلى جانب محمد سيد أحمد وآخرين. كرر بعض الأحداث عن تجربته في الحركة الشيوعية المصرية. فقد جنده لها أحد الشيوعيين اليهود ثم انقسم مع غيره عند الانقسامات التي تفشت في حدتو عام ١٩٤٨ واستقر في منظمة م ش م اليسارية المتطرفة والتي كان يقودها سيدني سلامون وأوديت حزان. وله تجارب سيئة في هذه المنظمة التي كانت تكفر من عداها. وقد كتب عنها في جريدة الأهرام وسماها منظمة التكفير والهجرة الشيوعية. فقلت له أن هذه النشأة الأولى أثرت بلاشك على انطباعاته عن الحركة الشيوعية المصرية. وأنه ليس لدى هذه الانطباعات لأن الذي جندني للحركة الشيوعية هو شهدي عطية الشافعي وكان معي في أول خلية شيوعية الدكتورة لطيفة الزيات وكانت طالبة في كلية الآداب وتقود مع غيرها اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، وكان لها دور قيادي في مظاهرات الطلبة وقتها التي لعبت دورا هاما في الحركة الوطنية. ولم أنقسم عن تنظيم حدتو

الذي لعب دورا هاما في هذه الأحداث، ولهذا فانطباعاتي مختلفة عن انطباعاته. وفيما يلي مقتطفات من ردي في جريدة الأهالي والذي نشر بالعنوان التالي:

ردا على السعدني ومحمد سيد أحمد

الشيوعيون في مصر جزء من الحركة الوطنية المعادية للاستعمار

«انتظرت رد محمد سيد أحمد الذي أسقط (الدليل) بقوله أن هذا التصريح المنسوب إليه ليس دقيقا.

أما عن الإحساس فأعتقد أنه راجع إلى تأثر الأستاذ السعدني بالحملة التي استمرت سنين طويلة وخصوصا في عهد النظام الملكي قبل الثورة والتي امتلأت بها أجهزة الإعلام التي كانت تهدف إلى ضرب القوة الأساسية الواعية والمؤثرة من قوى الحركة الوطنية في مصر بعد الحرب العالمية الثانية، فهو يردد ما كانت تردده تلك الأجهزة لتبرير حركات الاعتقال والمطاردة ضد مناضلي الحركة الشيوعية المصرية.

وعندي (الدليل) على ذلك إذا حصرنا أسماء الشخصيات التي شملتها حملة صدقي لمكافحة الشيوعية في ١١ يوليو ١٩٤٦ وأسماء الهيئات والصحف التي أصدر قرارا بحلها ومصادرتها. وهي حملة كانت ترمي إلى إفساح الطريق لمشروع صدقي ـ بيفن ـ الذي كان يهدف إلى ربط مصر بالاستعمار البريطاني.

وسردت هذه الأسماء والهيئات والمجلات. ثم واصلت:

«ولا حاجة للحديث عن الدور الرائد لهذه الهيئات والصحف في تحديد توجهات الحركة الوطنية المصرية، توجهاتها الاجتماعية والمعادية للاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية».

وتحدثت عن عديد من الشخصيات التي كان لها دور بارز في الحركة الشيوعية المصرية ولم تتخلَّ عن أفكارها والتي أصبحت شخصيات بارزة في المجتمع المصري في مختلف المجالات الاقتصادية والثقافية والسياسية.

وعن دور بعض الضباط اليساريين في حركة الضباط الأحرار ومنهم يوسف صديق الذي كان له الدور الأكبر يوم قيام ثورة يوليو.

«ولهذا فليسمح لي الزميل والصديق محمد سيد أحمد أن أختلف معه فيما يقوله عن «الفترة اليهودية» ثم «الفترة القومية». فأنا أزعم أن الحركة الشيوعية المصرية في نشأتها الثانية في الأربعينيات هي جزء من الحركة الوطنية المصرية وإفراز لها.

وإن كثيرا من الشباب الوطني الذي تعاطف في البداية مع ألمانيا وإيطاليا باعتبارهما أعداء الإنجليز تحولوا بعد ذلك إلى الفكر الاشتراكي وإلى الحركة الشيوعية خصوصا بعد انتصارات ستالينجراد عام ١٩٤٣ . هل هذا كله يقلل منه أن الخلايا الشيوعية الأولى في مصر في الأربعينيات بدأها بعض اليهود، وأن هؤلاء بسبب ظروفهم الثقافية ووضعهم في المجتمع كانوا هم حلقة الوصل بين الفكر الماركسي والحركة الشيوعية المصرية. رغم أن هؤلاء اليهود أنفسهم كونوا «رابطة اليهود لمكافحة الصهيونية»، التي حلها النقراشي ولم يسمح لها بالنشاط في الوقت الذي كانت فيه الحكومات المصرية المتعاقبة تسمح للمنظمات الصهيونية والنشاط الصهيوني والإعلام الصهيوني بأن يفعل ما يريد. وكان النشاط الاقتصادي الأساسي في يد اليهود. وكانت لهم مكانتهم داخل المجتمع المصري ولم يمسهم أحد. وكانت الحكومات التي تفعل ذلك هي التي تملأ أجهزة إعلامها بالصياح عن الشيوعيين أعوان الصهيونية، ويردد محمود السعدني هذه الدعاية التي تأثر بها.

وهل يدين الحركة النقابية المصرية أن قادتها الأوائل كانوا من الإيطاليين واليونانيين والأرمن واليهود. وهل يدين الصحافة المصرية أن من روادها الأوائل اليهودي يعقوب صنوع.

ويؤكد د. رءوف عباس نفوذ الأجانب ودورهم في نشأة الحركة العمالية في كتابه الحركة العمالية في مصر (١٨٩٩ ـ ١٩٥٢) فيكتب عن أول إضراب في مصر وهو إضراب «لفافي السجاير» عام ١٨٩٩

«كان العمال الأجانب من لفافي السجاير هم المحركون لهذا الإضراب بحكم خميرة العمل النقابي التي حملوها معهم من بلاد علا فيها غبار المعارك بين العمال ورأس المال، وقطع فيها العمل النقابي شوطا بعيدا من ناحية التنظيم وأساليب النضال الجماعي وبحكم وجودهم كأغلبية في تلك المصانع واستنادهم إلى الحماية القنصلية والامتيازات الأجنبية» (ص٥١).

وقد ظلت هذه الامتيازات الأجنبية سائدة في مصر حتى ألغتها معاهدة مونتريه عام ١٩٣٧ . ولقد بقيت آثارها الفعلية حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ . وكان اليهود يعتبرون من الأجانب بسبب ثقافتهم الأجنبية، وكان كثير منهم متجنسا بجنسية أجنبية، أو بلا جنسية أو من أصل أجنبي. وكان اليهود يتمتعون بإمكانيات أكبر في الحصول على الثقافة الماركسية، بحكم ثقافتهم الأجنبية وسفرهم إلى الخارج فضلا عن توجههم ضد الفاشية بسبب اضطهاد الحكم النازي والفاشي لليهود.

أعتقد أن ذلك يقدم للزميل محمد سيد أحمد تفسيرا للتساؤل الذي طرحه في الأهالي في رده على محمود السعدني عن السبب في أن مؤسسي الحركة الشيوعية في بداية الأربعينيات كانوا كلهم من اليهود.

وقد تراجع هذا الوضع كله بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وخصوصا بعد تأميم قناة السويس وصدور قوانين فرض الحراسة على ممتلكات رعايا بريطانيا وفرنسا وإبعادهم عن مصر. مع العلم أن معظمهم كانوا من أبناء الطائفة اليهودية البالغ عددها ٦٠ ـ ٧٠ ألف نسمة.

وفي هذه الفترة وقبلها لم يعد في قيادة الحركة الشيوعية أحد من اليهود اتفاقا مع توجه الحركة الشيوعية منذ بدايتها. فقد طرحت الحركة المصرية للتحرر الوطني (أحد أهم التنظيمات الشيوعية في الأربعينيات) شعار «التمصير» ونفذته بعد ذلك بالفعل.

***

هذا الكتاب

يواصل المؤلف مذكراته التي انتهت في الجزء الأول حتى عام ١٩٦٤ عندما أفرج عنه بعد خمس سنوات من الاعتقال سبقتها ١٥ سنة من السجن والمنفى والاختفاء وبدأ لأول مرة بعد هذه الفترة الطويلة حياته العادية داخل المجتمع وبين الناس ويواصل الطريق الذي بدأه في ظروف مختلفة وبعد تغيرات كبيرة في بلاده وفي العالم. ويقدم رأيه وموقفه من هذه التحولات والتغيرات حتى بداية التسعينيات.

وكان عمله الأساسي في مجال النشر مسئولا عن دار الثقافة الجديدة لأكثر من ثلاثين عاما حتى الآن وعن دار العالم الثالث التى مضى عليها أكثر من عشر سنوات. عمل أيضا فى الصحافة فى وكالة أنباء الشرق الأوسط ثم في مؤسسة أخبار اليوم وينشر رأيه وموقفه في صحف أخرى. ويواصل نشاطه في صفوف اليسار.





(٤)

إنهاء الوجود المستقل لحدتو

عقد اجتماع للكادر الحزبي لم يحضره كل الرفاق الذين دخلوا التنظيم الطليعي. وكان قرار قيادة حدتو أن من يدخل التنظيم الطليعي يقطع علاقته بالتنظيم الحزبي وذلك إبداء لحسن نيتنا.

ولهذا فلم أحضر هذا الاجتماع وكذلك لم يحضره زكي مراد لأنه عقد في وقت كنا قد أصبحنا فيه أعضاء في التنظيم الطليعي.

عقد هذا الاجتماع في ١٤مارس ١٩٦٥ وضم الكادر القيادي للحزب الشيوعي المصري (حدتو) وجاء القرار الصادر عن الاجتماع إجماعيا. وبدأ بما يلي:

«إن حزبنا الشيوعي (حدتو) يعتز بنضاله المتواصل من أجل وحدة الطبقة العاملة ووحدة الشعب العامل ووحدة القوى الاشتراكية.

وفي سبتمبر ١٩٦٤ كان التقرير السياسي الذي أقره الاجتماع الواسع لكادر الحزب بالإجماع إلا صوتين يقرر أن الشعار الرئيسي لعملنا هو «لنركز الجهود لخلق حزب واحد للثورة».

وفي تحديد مفهوم هذا الحزب الواحد يقول التقرير: «إن ذلك يقتضي إيقافا كاملا لسياسة معاداة الشيوعية وتصحيحا عاجلا لمظاهرها البارزة بإلغاء العزل السياسي والاجتماعي (أي توفير العمل للجميع) وإلغاء المراقبة.

«إن حزبا واحدا للثورة في ظل إيقاف سياسة معاداة الشيوعية يهتدي بالاشتراكية العلمية ويتبع مبادئ التنظيم الثورية التي تكفل وحدة الفكر (مع حق

المناقشة) ووحدة الإرادة والعمل والتي تنبذ بكل شدة أساليب التكتل والانقسام، هو الضمان الوحيد والأكيد لبناء الاشتراكية وحماية انتصارات الثورة».

«إن تأسيس هذا الحزب عملية نضالية».

«مثل هذا الحزب لن يولد مكتملا من اليوم الأول».

«إنه يتطلب من المجموعة الاشتراكية أن تقهر بلا رحمة الاتجاهات المستترة بشعارات محاربة الشيوعية».

«إن النضال لتأسيس الحزب يتطلب منا إدانة لا تساهل فيها للانقسامية اليسارية الصبيانية التي كانت بكل خطوطها السياسية ومواقفها التنظيمية مدمرة للحزب، وإدانة الجمود العقائدي الذي يرفض الجديد في الفكر والذي هو من الدعائم التي تقوم عليها الانعزالية اليسارية».

«إن حزبنا لا يتخذ قرارا بحل نفسه .. إن حزبنا ينهي مرحلة ثورية كاملة من مراحل تنظيمه وهي مرحلة الوجود المستقل».

«إن مرحلة الحزب المستقل لا يمكن أن تنتهي إلا في إطار الحزب الواحد للثورة الذي يضم كل الاشتراكيين الثوريين ويقدر نضالهم وتاريخهم. حزب قادر لأول مرة على استيعاب كل قوى الثورة في داخله ـ حزب لا يفرط في الثروة النضالية التي يملكها كادر مدرب على قيادة الجماهير مسلح بالوعي مهيأ لنكران الذات مستعد للتضحية بالمصلحة الذاتية في سبيل المصلحة العامة، مستعد لمواصلة النضال في كل الظروف، وكلما ساءت ظروف النضال كلما شحذ ذلك من قدراته الثورية»...

هذه فقرات من التقرير السابق الذي أقره اجتماع سبتمبر.

وجاء في القرار الجديد:

«إن ما تحقق حتى الآن لا يكفي أساسا لقيام الحزب الواحد بمفهومه الثوري الذي يستبعد معاداة الشيوعية، ويضم كل التيارات الثورية، ولكن حزبنا كان يضع

دائما وحدة القوى الاشتراكية في حزب واحد للثورة فوق كل اعتبار.

إن حزبنا الذي كان في طليعة النضال الوطني والاجتماعي قبل الثورة وساهم في قيامها ووقف معها منذ اليوم الأول والذي واصل مع الثورة معاركها ضد الاستعمار والعدوان والاستغلال ومؤامرات الرجعية، مطالب اليوم بالوقوف في وجه الأخطار التي يحيط بها الاستعمار وصنيعته إسرائيل والرجعية العالمية والعربية ـ يحيطون بها وطننا وثورتنا ويريدون أن يهددوا بها وحدتها الوطنية ووحدة حزبنا كذلك.

يطالبه أن يبادر من جديد إلى اتخاذ مواقف جديدة يؤكد بها وعيه وصلابته وقدرته على تحديد الاتجاه الثوري.

إن حزبنا وهو يعلم أن وجوده ونموه كانا دائما محكومين بخط الحزب الواحد للثورة ولمصلحة الحزب الواحد للثورة.

وإن وجوده لا ينتهي إلا في هذا الحزب الواحد.

ومع أن ذلك لم يتم كما كان يريد ويتطلع وبالقدر الذي ينهي وجوده المستقل. فإنه يخطو من جانبه وبإرادة كادره المجتمع في هذا المؤتمر خطوة ثورية جديدة هي استمرار لكل مواقفه الثورية السابقة.

إنه يقف مع الجديد الذي ينمو ويساهم بكل إيجابية خلاقة وبكل تضحية ثورية لكي يستكمل هذا الجديد نموه.

إنه مع الحزب الواحد الذي يجسد فكر الثورة وأهدافها وقواها ولهذا يقرر:

(١) أن يقتصر التنظيم المستقل على المسئول السياسي الذي ينتخبه هذا الاجتماع تجسيدا لفكر حدتو عن الحزب الواحد وإرادتها التي لم تتحقق بعد وهي أن يضم هذا الحزب كل أعضائها لكي يكون واحدا.

(٢) هذا المسئول يمثل ويعبر عن تيارنا الثوري ويواصل العمل مع كل القوى الاشتراكية للدفاع عن هذا القرار وتحقيق الحزب الواحد واختيار هذا المسئول هو تعبير عن أنه من أخلص العناصر للثورة والوحدة وفكر الحزب الواحد بقيادة عبد الناصر.

(٣) ينتهي الالتزام الحزبي والعضوية بالنسبة لباقي أعضاء الحزب من وقت صدور هذا القرار.

(٤) ينتهي الحزب المستقل في شكله الجديد بقرار من المسئول بتفويض من هذا الاجتماع.

(٥) يواصل جميع الأعضاء السابقين من تنظيم حدتو الذين انتهت عضويتهم بموجب هذا القرار مع زملائهم الأعضاء السابقين الذين دخلوا التنظيم السياسي، مع كل القوى الاشتراكية المخلصة، يواصلون النضال لتحقيق الشكل السليم للحزب الواحد للثورة كما حدده التقرير السابق في اجتماع سبتمبر.

(٦) على كل الزملاء الذين تنتهي عضويتهم أن ينفذوا هذا القرار ويلتزموا به على أنه انطلاق لعملنا في خدمة الثورة وبناء الاشتراكية، فالخطوة التي نخطوها ليست لتجريد الثورة من أحد أسلحتها في النضال ضد مؤامرات الاستعمار والرجعية بتوقف هؤلاء الزملاء عن العمل السياسي، بل إنها تزود هؤلاء الذين انتهت عضويتهم بمزيد من القدرة على الحركة والانطلاق في خدمة الثورة وبناء الاشتراكية في حدود الالتزام بفكر الثورة وميثاقها والسعي للوجود في تنظيمها السياسي.

(٧) إن مجموع تيار حدتو الثوري في تاريخ بلادنا السياسي والنضالي سواء من دخل منه في التنظيم السياسي للثورة أو من لا يزال خارجها يعتز بمواقفه المتعددة والمتواصلة في تحقيق وحدة الثوريين والانصهار مع الشعب ومع الثورة ويدين كل محاولات النيل من تاريخه وأفكاره، ولكنه يعتز بالذات بتقديره للدور الثوري الواعي للرئيس جمال عبد الناصر.

(٨) إننا كنا دائما ندين الانقسام والانقسامية وأسلوب الكتل في التنظيم. وإن فكر الوحدة هو الذي يلهمنا الصواب. ولهذا ندين أي محاولات للانقسام في المستقبل. كما نتعهد بأننا سنحارب الانقسام والكتل حتى في التنظيم السياسي الواحد.

(٩) إننا نتخذ هذا القرار الإجماعي عشية انتخاب الرئيس، وإننا نحن المعزولين السياسيين نسجل احتجاجنا على استمرار العزل السياسي ونمارس حقنا الانتخابي

ونعلن انتخابنا لجمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية وقائدا للثورة وحزبها السياسي الواحد المناضل. ويعتبر قرارنا هذا أفضل ما نقدمه له في هذه المناسبة التاريخية.

ونعلن له أننا نقف معه بكل صلابة، مستعدين للتضحية بأرواحنا دائما في الحرب الدائمة ضد الاستعمار والرجعية، بل إننا نعتبر الهجوم المركز على الشيوعية والذي تشترك فيه بعض الواجهات الاشتراكية هو محاولة مفضوحة للهجوم على الثورة وعلى قائدها. وإننا نعتز بالوعي الثوري الذي يبرزه قائد الثورة في مواجهته لهذه الحرب الرجعية وفي صموده لحلف الاستعمار والرجعية، وفي إيمانه العميق بالشعب وانتصار الاشتراكية.

٦٥/٣/١٤ توقيعات

محمد كمال عبد الحليم ـ أحمد القصير ـ محمد يونس ـ قدري شعراوي ـ حسين عبد ربه ـ أحمد أحمد سليم ـ محمد عباس فهمي ـ محمد على عامر ـ طاهر البدري ـ سعد عبد اللطيف الساعي ـ حمزة البسيوني ـ مبارك عبده فضل ـ فؤاد حبشي ـ عيد صالح مبروك ـ سيد يوسف ـ لطفي القصير ـ شحاته عبد الحليم ـ فاروق على ثابت ـ سعد محمد عبد اللطيف ـ عبد العزيز بيومي ـ محمود مرسي ـ سيف الدين صادق ـ أحمد خضر ـ إبراهيم محمد عبد الحليم ـ أحمد مصطفى.

متغيبون أرسلوا موافقتهم:

خليل الآسي ـ فكري الخولي ـ محمد خليل قاسم ـ سيد عوض ـ عبد المنعم العياشي ـ يوسف مصطفى ـ عبد السلام الخشان ـ محمد صدقي.

وتطبيقا للبند الأول من القرار قرر المؤتمر بالإجماع انتخاب الزميل محمد كمال عبد الحليم مسئولا سياسيا، كما استنكر المؤتمر مقالا كتبه أحمد حمروش تحت عنوان «كلمات لا تنقصها الصراحة» بالعدد الصادر في أول مارس من مجلة روز اليوسف.

وكلف المؤتمر المسئول السياسي.

ثم أعلن المسئول المنتخب للمجتمعين:

أنه يبادر ويقرر في نفس الاجتماع مستوحيا إرادة الحزب والكادر وثقتهم التي وضعوها فيه وتفويضهم له.

«إنهاء الشكل الجديد للحزب المستقل»

مؤكدا أن هذا القرار الأول والأخير والوحيد الذي يأخذه على مسئوليته تطبيقا للبند الرابع من قرار المؤتمر - يعجل بوحدة القوى الثورية، ويتضمن التمسك والاستمرار في المواقف المبادرة والواعية التي تميزت بها حدتو طوال نضالها وآخرها تقرير مؤتمر سبتمبر وبيان مؤتمر مارس. ويتضمن في نفس الإنهاء مرحلة ثورة جديدة.

فالجديد يبدأ وهو موصول بالمواقف الثورية السابقة. والحزب الواحد للثورة الذي نناضل جميعا من أجله هو البديل الوحيد الشرعي والثوري لحزبنا حدتو.

هذا من الناحية النظرية الثورية.

وفي التطبيق والواقع الثوري فإن حزب الثورة الواحد هو الذي يقوده القائد الوطني والبطل الاشتراكي الثوري جمال عبد الناصر.

لقد حقق هذا الشكل الأخير لحزبنا المستقل هدفه في نفس الاجتماع بتوحيد حزبنا في موقف ثوري واحد تحقق بالإجماع. وإني بإنهائه أضع نفسي واحدا منكم.. واحدا من جنود الحزب الواحد للثورة.

إن جميع كوادر الحزب الشيوعي حدتو وجميع أعضائه يشتركون تاريخيا في تقدير تاريخها وكفاحها واستنكار كل محاولات النيل منها وهجوم الرجعية على الثورة باسم معاداة الشيوعية، ويلتزمون بهذا القرار الأخير.

إنهم ينهون حزبهم الشيوعي المستقل ويواصلون عقيدتهم وتاريخهم ويضاعفون نضالهم في التزام جديد أمام الشعب والثورة وقائد الثورة جمال عبد الناصر.

الملاحظ أنني وجميع من دخلوا التنظيم الطليعي لم يوقعوا على هذا القرار

ولم يحضروا هذا الاجتماع. وهذا لا يعني أنني لم أكن موافقا عليه. ولكن عضويتنا كانت قد انتهت منذ دخولنا التنظيم الطليعي. وأذكر أنني كنت أناقش في اتجاه اتخاذ مثل هذا القرار. وأعتقد أن مقال أحمد حمروش المشار إليه كان يهاجم استمرار الوجود المستقل. واقتناعي بهذا القرار لم يكن يعني أنني كنت موافقا على مقال أحمد حمروش.

تقييمي للقرار الآن:

قلت إنني كنت مع القرار ومن الداعين له. ولم أكن وحدي في ذلك، بل لقد صدر بإجماع الكادر. ووافق عليه حتى المعارضون لقراراتنا ومواقفنا السياسية السابقة، مثل قرار المجموعة الاشتراكية وما استتبعه من قرارات.

بل إن المجموعة الأخرى والتي كانت تسمي نفسها «الحزب الشيوعي المصري» وكنا نسميها «التكتل» والتي كانت تتخذ داخل السجن موقفا معارضا لجمال عبد الناصر وتصفه بمختلف الأوصاف مثل العمالة لأمريكا أو تمثيله لرأسمالية الدولة الاحتكارية وغير ذلك قد اتخذت قرارا مماثلا بعد أسبوع فقط من القرار الذي اتخذناه، دعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري إلى اجتماع موسع يضم مسئولي المناطق وسكرتارية منطقة القاهرة ومسئولي العمل الجماهيري وصدر بالإجماع إنهاء الشكل المستقل للحزب الشيوعي المصري. وتكليف كافة أعضائه بالتقدم ـ كأفراد ـ لطلب عضوية الاتحاد الاشتراكي العربي والنضال من أجل تكوين حزب اشتراكي واحد يضم كل القوى الثورية في بلادنا.

وكان هذا من القرارات النادرة التي صدرت بإجماع الكادر القيادي في المجموعتين المتنازعتين اللتين كانتا تكونان الحزب الشيوعي المصري. وكان من النادر أن يحصل قرار من القرارات على إجماع من الشيوعيين المصريين.

ولكن ثبت لنا بعد ذلك أن هذا القرار لم يكن سليما. وقد أثبت الواقع ذلك. فقد كان سلاحنا الأساسي في مفاوضاتنا مع المجموعة الناصرية من أجل الأهداف

محمد يوسف الجندي

مسيرة حياتى

الجزء الثاني

دار الثقافة الجديدة

التي ننادي بها هو التنظيم، وهو أننا كنا نمثل تيارا منظما. فكان التنازل عن هذا السلاح دون أن نحصل على شيء يذكر، خطأ سياسيا. وقد أثبت الواقع ذلك فيما بعد.

هذا من الناحية النظرية. ولكن الواقع كان يحمل في طياته الكثير من المؤثرات التي تدفعنا في هذا الاتجاه. فقد نجح عبد الناصر في توجيه ضربة شديدة للشيوعيين بمختلف اتجاهاتهم في حملته ١٩٥٩ . ثم نجح إلى حد كبير في سحب البساط من تحت أقدامهم بإجراءاته الوطنية والاجتماعية عام ٦١ وما تلاه وتبنيه الاشتراكية العلمية في الميثاق رغم محاولاته العديدة لتأكيد الفروق بينها وبين الماركسية اللينينية. ولم يعد في استطاعة الشيوعيين أن يقدموا للجماهير برنامجا متميزا عن البرنامج الذي يقدمه جمال عبد الناصر.

ومع ذلك فقد كان الشيوعيون هم الفصيلة المناضلة والمرتبطة فكريا وتاريخيا ونضاليا بالاشتراكية والتي قدمت في سبيلها تضحيات كبيرة. أما عبد الناصر فكان يتميز بأنه في السلطة وأنه أقدر على تنفيذ ما يدعو إليه رغم أنه كان محاطا وفي السلطة بعناصر لا تمت للاشتراكية بصلة، بل وبعضها كان معاديا لها.

وقد أثبتت تجربة الردة بعد موت جمال عبد الناصر أن غالبية العناصر التي كانت تحيط بعبد الناصر ويعتمد عليها كانت عناصر وصولية وليس لها صلة بالاشتراكية إن لم تكن معادية لها. وعلى رأسهم أنور السادات الذي اختاره نائبا للرئيس قبل موته بقليل.

وكان هذا يؤكد أنه كان من الضروري الاحتفاظ بالحزب الشيوعي وأن الحل أو إنهاء الوجود المستقل كما كان يسمى كان خطأ.

هذا بالإضافة إلى أن حل الحزب أدى إلى أن غالبية العناصر القديمة والتي كانت منتمية للحزب أخذت تبحث عن حياتها الخاصة وتتخلى عن العمل السياسي.

وقد أضعف حل الحزب موقف الشيوعيين تجاه مجموعة عبد الناصر، فعند

إعادة تنظيم التنظيم الطليعي، الذي أسسه عبد الناصر على أساس مناطق (كان في البداية مكونا على أساس فروع مرتبطة بأشخاص، وكان غالبية الشيوعيين ينتمون إلى فرع أحمد فؤاد) لم يتم الاتصال بغالبية الشيوعيين مثل زكي مراد ومثلي.

وقد أحس بعضنا بضرورة تدارك هذا الخلل. فبدأ عدد منا يعقد اجتماعات لإعادة دراسة الوضع وخصوصا أنه لم يدر بخلدنا أن القرار الذي اتخذناه يعني إنهاء نشاطنا والتخلي عن فكرنا وانتماءاتنا.

اشتركت في اجتماعات مع كمال عبد الحليم وزكي مراد ومبارك عبده فضل وإبراهيم عبد الحليم لتدارس الوضع والاتفاق على الخطوات التي علينا اتخاذها. وفي أحد هذه الاجتماعات قدم زكي مراد اقتراحا مكتوبا بتأسيس حزب جديد. وكان ذلك حوالي عام ١٩٦٨ . رفض كمال عبد الحليم الاقتراح ورأى أن الظروف لا تسمح بذلك.

كنا نرى مع عدد من رفاقنا أن الارتباط يجب أن يستمر وإن لم يتخذ شكل حزب. ولم نفكر أبدا أن قرار حل الحزب يعني أن نوقف نشاطنا السياسي الاشتراكي.

استبعدت من التنظيم الطليعي مع أغلب رفاقنا ولكن رفع العزل السياسي عنا ومن الطريف أن قرار رفع العزل الذي نشر بالجريدة الرسمية نص عند ذكر اسمي بأنني مدير مكتب يوليو للترجمة الشيوعي.

وأصبحت عضوا في الاتحاد الاشتراكي في عام ١٩٦٥ . تقرر تشغيل الشيوعيين الذين أفرج عنهم ودعيت مع عدد من زملائنا لمقابلة عبد القادر حاتم ووزعنا على أعمال مختلفة وعينت مع صنع الله إبراهيم للعمل في وكالة أنباء الشرق الأوسط. وكانت هذه أول مرة أعمل فيها في عمل رسمي.

عينت مع صنع الله في قسم مراقبة الأخبار. وكان آخر مرتب لي في الوكالة ٤٥ جنيها، ظللت أجمع بين عملي في الوكالة وعملي في الدار. وساعدني ذلك في تحسين وضعي المالي وتعرفت بمجتمع مختلف. ومارست العمل الصحفي

بشكل منتظم ولأول مرة أجرب الخضوع لرؤساء في العمل والتدرج الوظيفي. ودخلت انتخابات الاتحاد الاشتراكي في الوكالة ولكنني لم أنجح وكان ذلك درسا لي وهو أن الخطاب الانتخابي في مجتمع الوكالة يختلف عنه بين الرفاق الذين عملت معهم حتى الآن في العمل السري.

كانت الوكالة هي المدرسة الأولى لى في العمل الصحفي. صحيح أنني عملت في بودابست في مجلة اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي وذلك في عام ١٩٥٣، ولكنني أعتقد أن المدرسة الحقيقية كانت في أ ش أ.

وفي عام ١٩٦٩ قدمت طلبا لنقابة الصحفيين لقبولي عضوا. قبلت عضوا عاملا ولم أمر بمرحلة التمرين.

***

(٥)

اللقاء الدولي للتضامن مع الشعوب الأفريقية عام ١٩٦٦

(مبادرة مجلة الطليعة):

أصبحت مصر في عهد عبد الناصر منارة وسندا للشعوب المناضلة من أجل تحررها في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وأصبحت المكان الذي فتح أبوابه لكل المناضلين من أجل التحرر والمضطهدين من حكامهم ومن القوى الاستعمارية. وفي تلك الفترة دعت مجلة «الطليعة إلى عقد لقاء دولي لممثلي قوى التحرر في أفريقيا لدراسة مشاكلهم وتوحيد النضال ضد الاستعمار. ووجهت الدعوة أيضا لبعض الهيئات الدولية ومنها مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» لسان حال الأحزاب الشيوعية والعمالية والتي كانت تتخذ من براغ مقرا لها. ودعيت أنا أيضا مع عدد من الزملاء الشيوعيين، أذكر منهم زكي مراد الذي تحدث في هذا اللقاء. وفي هذا الاجتماع التقيت بممثلي المجلة وعرضت عليهم اقتراحا باسم دار الثقافة الجديدة بإصدار طبعة عربية من المجلة تتكفل بها الدار. وكانت هناك طبعة عربية من بيروت اسمها «الوقت» ولكننا كنا نرى أنه من المفيد صدور طبعة مصرية مقرها القاهرة. أبدوا اهتماما شديدا بالاقتراح وقالوا أنهم سيعرضونه على قيادة المجلة عندما يعودون إلى براغ. وأنهم قد يوجهون لي الدعوة لزيارة براغ لمناقشة الاقتراح مع مجلس التحرير. وبعد عودتهم بمدة وجيزة وجهت لي الدعوة لزيارة براغ.

قام إبراهيم عبد الحليم بالتعاون مع حسن فؤاد بعمل مشروع ماكيت للمجلة وذهبت إلى براغ بمشروع مفصل.

نزلت في فندق الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. وشاهدت دوبتشيك السكرتير العام السابق للحزب يتناول غداءه في الفندق. وكان ذلك قبل أحداث «ربيع براغ» التي دخلت فيها قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا وقبضت على دوبتشيك وحلت محله قيادة أخرى موالية للسوفييت.

اجتمعت مع هيئة تحرير مجلة قضايا السلم والاشتراكية وعرضت عليهم الاقتراح فأبدوا ترحيبا به. وكانوا يدركون أن مصر أكبر دولة عربية وأكثرها نفوذا في العالم العربي ورحبوا بأن تصدر منها طبعة عربية للمجلة. وقالوا أنهم سيدرسون الموضوع وسيعرضونه على مجلس التحرير في اجتماعه القادم. وقالوا أن ذلك سيتم بعد عدة أيام.

اجتمع مجلس التحرير وواجه مشكلة أنه لا يوجد حزب شيوعي في مصر في ذلك الوقت. والمجلة لا تتفق مع أفراد وكان الاتحاد الاشتراكي هو التنظيم السياسي الوحيد في مصر فقرروا أن أطلب موافقة الاتحاد الاشتراكي على هذا المشروع. ولم يكن لي من العلاقات مع الاتحاد الاشتراكي ما يسمح لي بذلك.

بعد ذلك عُين إبراهيم عبد الحليم محررا في دار الهلال واستطاع أن يقنع أحمد بهاء الدين رئيس مجلس إدارة الدار في ذلك الوقت أن تصدر المجلة عن دار الهلال وأصبحت وظيفته في الدار رئيسا لتحرير الطبعة المصرية باسم «دراسات اشتراكية». وكان من السهل على أحمد بهاء الدين أن يحصل على موافقة الاتحاد الاشتراكي.

***

(٦)

السفر إلى موسكو

وفي هذا العام التقيت بالدكتور مجدي وهبة وكان وكيلا لوزارة الثقافة للعلاقات الثقافية الخارجية. وكنت أعرفه منذ أيام الجامعة. قال لي أن المستشار الثقافي السوفيتي طلب منه ترشيح مترجم للعمل بدار التقدم في موسكو وأنه رشحني. وافقت على العرض.

قدمت طلبا للحصول على إذن عمل وجاء الرد بالرفض من أجهزة الأمن (المباحث العامة). قررت مع ذلك السفر. لم أكن قد زرت الاتحاد السوفيتي من قبل. وكانت لدي رغبة شديدة في أن أحقق ذلك. كنت أعمل في وكالة أنباء الشرق الأوسط. وكان تغيبي عن الوكالة بدون إذن معناه الفصل من العمل. ولم أكن أستطيع أن أطلب منهم أجازة بدون مرتب إذا لم أحصل على تصريح بالعمل في الخارج. وكنت أريد السفر. وفي ذلك الوقت كان من اللازم الحصول على تأشيرة خروج وكان عدم إعطائي التأشيرة ممكنا. لهذا فإنني سافرت فور حصولي على التأشيرة وتركت استقالتي من الوكالة ليقدمها زميلي وصديقي المرحوم فاروق ثابت باعتباره وكيلا عني.

وقبل سفري بأيام قليلة ولدت ابنتي نادية في ١٩ يناير ١٩٦٩ . واتفقت مع الأسرة أن تلحق بي بعد أن تستقر أموري هناك.

**

وصلت إلى موسكو في الأسبوع الأخير من يناير ١٩٦٩ . وعندما غادرت الطائرة وجدت الثلج الأبيض يغطي كل شيء. وكان البرد قارساً، استقبلني أحد المحررين الروس في دار التقدم واسمه «زفيريف». رحب بي. وصحبني إلى فندق أوكرانيا الذي تقرر أن أقيم فيه إلى أن يدبر لي سكنا مستقلا.

وفي الطريق كلمني عن ستالين ومجده وهاجم خروشوف وقال إنه قزم إلى جانب ستالين. وقال أن ستالين عملاق بجانبه.

كنت أستمع إليه. وكان أول شخص روسي أستمع إليه في موسكو ويعرض لي وجهة نظره بالنسبة للقضية التي كان لها دور كبير في العالم كله بعد أن أثار خروشوف في المؤتمر العشرين قضية عبادة الفرد والفظائع التي ارتكبها ستالين. وجدته يتكلم باحترام شديد عن ستالين. وكان ذلك الموقف مفاجأة لي. ويختلف عن المواقف الرسمية التي فجرها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفيتي. وقد لاحظت بعد ذلك أثناء وجودي في موسكو أن هذه الحملة ضد ستالين قد خفت بعد إقصاء خروشوف. بل وعجبت عندما حضرت جلسة افتتاحية في الكرملين في إحدى المناسبات الرسمية أن ضج المندوبون (أعضاء مجلس السوفييت الأعلى) بالتصفيق الحاد عندما ذكر اسم يوسف فيساريونوفتش ستالين. فاستغربت كثيرا لذلك. وكنت أتحدث بعد ذلك مع بعض الأفراد العاديين، فرغم أن المشاعر العامة كانت عدم المبالاة إلا أنني كنت إذا أثرت معهم هذه القضية فإنهم كانوا يتحدثون عن ستالين باحترام باعتباره الشخص الذي بنى الاتحاد السوفيتي.

وفي زيارة لي بعد ذلك لتبليسي عاصمة چورچيا وجدت صورة ستالين تتصدر أحد المواكب الاحتفالية في إحدى المناسبات. ولم يكن ذلك يحدث في موسكو. وقيل لي وقتها أن مشاعر أهالي چورچيا نحو ستالين لم تتغير. قد يكون ذلك مفهوما بالنسبة لهم باعتبار أن چورچيا كانت مسقط رأس ستالين.

وبعد حوالي سنة من وجودي التقيت بفتاة من ليننجراد وكانت أول من قابلته يهاجم ستالين على الفظائع التي ارتكبها ضد المثقفين. وقيل لي وقتها أن هذا هو الاتجاه الغالب في ليننجراد خصوصا بين المثقفين.

على طول الطريق من المطار إلى فندق أوكرانيا كنت أستمع لحديث زفيريف ولكنني كنت أتمعن في شوارع موسكو وأقرأ عناوين المحلات المكتوبة باللغة الروسية. لأول مرة أرى موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي «وطن الاشتراكية الأول». وقد رأيت قبل ذلك وعشت في بلد اشتراكي هي المجر وعايشت عن قرب الشعب المجري وذلك في فترة تحول هامة من تاريخها قبل أحداث أكتوبر ١٩٥٦ عندما

دخلت الدبابات السوفيتية بودابست وأخمدت ما سُمى وقتها «بالثورة المضادة».

وكانت لي انطباعاتي عن هذه التجربة «الاشتراكية» إيجابياتها وسلبياتها.

وعندما كنت في المجر كنت هاربا من حكم بالسجن خمس سنوات، ولم أكن أستطيع العودة إلى مصر. ولهذا فعندما كنت في المجر كان طموحي هو العودة إلى مصر. وهو الأمر الذي حققته سرا عام ١٩٥٦ .

ولكن كانت لي رغبة دائمة في زيارة الاتحاد السوفيتي باعتباره البلد الاشتراكي الأول فضلا عن أنني كنت أعرف اللغة الروسية. بعكس الحال عندما عشت في المجر وأنا لا أعرف اللغة المجرية.

سكنت مؤقتا في فندق أوكرانيا. واتصلت تليفونيا بجمال مجدي حسنين ابن مجدي حسنين (من الضباط الأحرار) وكان وقتها سفيرا لمصر في تشيكوسلوفاكيا. وكان جمال يقوم بدراسات عليا في الفلسفة ولم يكن يسكن في بيت الطلبة بل استأجر له والده شقة صغيرة بالقرب من محطة بيلوروسكايا. جاء جمال للقائي وعندما رآني قال على الفور أن ملابسي لا تصلح لجو موسكو فخرجنا واشترينا بالطو شتوي بالفرو و«شابكا» (قبعة من الفرو) وكوفية وحذاء ثقيلا مبطنا بالفرو. بدون هذا اللبس من الصعب الحياة في شتاء موسكو القارس والسير في شوارعها المغطاة بالثلوج والتي تصل فيها درجة الصقيع إلى أكثر من ثلاثين درجة تحت الصفر وأحيانا تصل إلى أربعين أو أكثر تحت الصفر. وإذا سرت في الشوارع لا أستطيع السير بضع دقائق إلا إذا أنزلت حواف «الشابكا» على أذني. ومع ذلك فلا أستطيع السير مدة طويلة فلابد من دخول أحد المحال أو محطات المترو للتزود بالدفء. ومع ذلك فكنت أعجب عندما كنت أرى بعض سكان موسكو يسيرون دون تغطية آذانهم.

دعاني جمال للغداء في أحد مطاعم موسكو الموجودة في حي «أربات» وهو مطعم «براجا» (أي براغ). والغداء الروسي يتكون من طبق الحساء ويسمونه الطبق الأول وهو أساسي ثم يأتي الطبق الرئيسي وهو يتكون من اللحم أو السمك مع الخضروات والأرز أو المكرونة والسلاطة التي تقدم عادة قبل الطبق الأول. ويمكن بالإضافة إلى ذلك طلب الحلو أو الشاي. ويساوي هذا كله حوالي ثلاثة روبلات

أي أقل من دولار. وقد ساعدني جمال في تبديل الدولارات التي كنت أحملها. وأعطاني مقابل الدولار الواحد ٤ أو ٥ روبلات لا أذكر. وكان سعر الدولار الرسمي أقل من روبل.

في صباح اليوم التالي ذهبت بالمترو إلى دار التقدم. وكان زفيريف قد وصف لي كيفية الذهاب إلى هناك. ركبت من محطة «كييفسكايا» القريبة من فندق «أوكرانيا» ونزلت في المحطة التالية «بارك كولتوري». وكانت أول مرة أرى فيها المترو في موسكو. كنت قد جربت مترو باريس. ومترو موسكو أكثر نظافة وفخامة. وفي إمكان الشخص أن يركب المترو إلى أي مسافة بمبلغ خمسة كوبيكات (الروبل يساوي مائة كوبيك).

كان الوصول إلى القسم العربي أمرا صعبا بدون مرشد فهو في أعلى المبنى، كان الوصول إليه يحتاج إلى صعود عديد من السلالم واللف والدوران في طرقات مختلفة للوصول إلى هناك.

وفي القسم العربي التقيت بالسكندر دافيد وفيتش سمارودسكي رئيس القسم العربي. استقبلني ورحب بي وعرفني بأعضاء التحرير من رجال ونساء رحبوا بي أيضا، وأوصاهم الكسندر دافيد وفيتش بمساعدتي. كان المترجمون يعملون في منازلهم ولا يحضرون إلى الدار إلا لمراجعة الترجمة مع المحررين الروس أو لقبض المرتب. وكان مرتبي الأساسي هو ٢٠٠ أو ٢٥٠ روبل. ولكن ذلك كان في البداية وبعد ذلك كانت المحاسبة على حسب الإنتاج. وفي العادة كنت أنتج أكثر من هذا المبلغ (حوالي الضعف وأحيانا أكثر). وكان ذلك في البداية. ولكني بعد أن انشغلت في العمل الصحفي وبعد أن أصبحت مراسلا لمؤسسة أخبار اليوم أصبح إنتاجي في دار التقدم ضعيفا، فكان تركيزي على العمل الصحفي الذي أخذ معظم وقتي.

وبعد أيام قليلة تسلمت مسكني وكان مكونا من غرفتين (أو غرفة وصالة) ومطبخ وحمام في منطقة قريبة من «برسبكت ميرا» وفي شارع صغير يسمى «بانني بيراولك». جاء معي إلى الشقة أحد العاملين الإداريين في دار التقدم وساعدني في لصق الشبابيك لكي لا يتسرب منها برد الشتاء القارس. وعند التهوية كنت أفتح

شباكا صغيرا علويا يُسمى بالروسية «فورتوتشكا» ولم تكن التدفئة كافية فكنت أشعر بالبرد في المنزل خصوصا أنني أمكث به فترات طويلة منهمكا في الترجمة. ولا أخرج إلا لشراء ما يلزمني للطعام وخلافه. فضلا عن أن معارفي كانوا قليلين. كان هناك تليفون في الشقة وكنت أنتعش عندما يدق. ومع ذلك كنت أفضل الذهاب إلى الدار لألتقي بالمحررين ولأخرج من هذه العزلة.

وبمضي الوقت أصبح لي أصدقاء ومعارف. ومن بينهم عرفت جيلي عبد الرحمن الشاعر السوداني الذي كونت معه علاقة صداقة وود، وأصبحنا نتزاور وعن طريقه تعرفت بالعديد من السودانيين والعرب المقيمين في موسكو والمارين عليها. وهناك تعرفت بمحمود درويش في زيارة له إلى موسكو وذلك قبل أن يقرر ترك إسرائيل والذهاب إلى مصر. وعنده كنت ألتقي بالعديد من الروس والروسيات.

وزرت الدكتور مراد غالب سفير مصر في موسكو فرحب بي، فقد كان صديقا للأسرة وعلى علاقة وثيقة بإخوتي هو وزوجته. فرحب بي ودعاني مرات عديدة للعشاء معهم. وساعدني بعد ذلك في الحصول على تصريح عمل وذلك أثناء زيارة قام بها شعراوي جمعة وزير الداخلية إلى موسكو. وأقنعه بالموافقة على إعطائي تصريح عمل. وكان شعراوي جمعة معترضا في البداية بحجة أنني خرجت من مصر بطريق التحايل. ولكنه وافق في النهاية.

وجاء الكسندر دافيدوفيتش لزيارتي في شقتي الجديدة، وكان يرحب بي باعتباري أول مصري يأتي للعمل في دار التقدم ويعرف اللغة الروسية. وقال إنهم ظلوا لفترة طويلة يقومون بالترجمة من اللغة الانجليزية. ولكنه أصبح لهم الآن عدد من المترجمين العراقيين واللبنانيين والسوريين. منهم الأديب العراقي غائب طعمة فرمان الذي تعرفت عليه هناك وكان قد عولج لتوه من مرض السل. وكان هناك مترجم لبناني يدعى إلياس شاهين وكان يحتكر ترجمة أعمال لينين. وكانت لهذه التراجم سمعة سيئة في مصر وفي بعض البلاد العربية. وفي أحد الاجتماعات في دار التقدم وبحضور إلياس شاهين انتقدت هذه التراجم فرد بأن بعض المحررين الروس قالوا له أن تراجمه للينين أوضح من الأصول التي كتبها لينين نفسه. وسمعت أنه يحبس نفسه في المنزل ووجه مكتبه إلى الحائط ويترجم ملازم كثيرة ويحصل منها على مبلغ كبير شهريا.

قال لي الكسندر دافيدوفيتش أنه تصلهم من مصر انتقادات كثيرة على التراجم ولكنه لا يوافق على هذه الانتقادات، وهو يعتقد أن منبعها التعصب القومي. فخالفته في ذلك. وقلت له أننا نقرأ الكثير من الأعمال اللبنانية والعراقية والسورية في بلادنا ونتذوقها. ولكن التراجم التي تتم هنا في موسكو أمرها مختلف. والحقيقة أن الأمر لا يرجع فقط إلى المترجمين ولكن إلى المحررين الروس الذين يعتبرون المرجع النهائي، وكثير من المترجمين يخضعون لهم ولا يهمهم إلا المكافأة التي يحصلون عليها. وفي التراجم التي كنت أقوم بها كنت أوافق على بعض التعديلات غير الأساسية ولكنني كنت أصر على ما أراه سليما.

وتحدث محمود درويش عن أزمته في وجوده في إسرائيل وهو عربي يحمل الجنسية الإسرائيلية. ثم يقاطعه العرب من البلاد العربية الأخرى باعتباره إسرائيلي. وقال أن هذا هو السبب الرئيسي الذي دعاه لترك إسرائيل. وأعتقد أن العرب الذين يبقون في إسرائيل وتمسكهم بالبقاء وعدم ترك بلادهم (وهو الأمر الذي لا يريده حكام إسرائيل) أعتقد أن هؤلاء العرب الإسرائيليين ـ عرب ٤٨ ـ تحملوا مشاقا كثيرة ومازالوا يتحملونها ويقفون موقفا بطوليا باصرارهم على البقاء وعدم ترك وطنهم رغم الممارسات العنصرية ضدهم.

انهمكت في عمليات الترجمة وكان أول كتاب أترجمه اسمه «أسس الاشتراكية العلمية» وترجمت الغديد من المؤلفات. ومن أهمها التي بذلت فيها جهدا كبيرا هو مؤلف انجلز «ضد دوهرنغ»، ولقد حرصت على دقة الترجمة. وكنت أترجم من اللغة الروسية ولكنني كنت أقارن النص الروسي بالنصين الإنجليزي والفرنسي. وانتهيت من ترجمة الكتاب في حوالي ستة شهور وقدمت الكتاب المترجم للمحررين الروس. قالت لي إحدى المحررات: هذه جرأة منك أن تقدم على هذا العمل. وكانت الكلاسيكيات الماركسية احتكارا لإلياس شاهين الذي كون علاقات وثيقة مع المحررين الروس. وكنت أتابع مراجعة الترجمة التي عهد بها إليّ مع أحد المحررين الروس. وبعد فترة قال لي الكسندر دافيدوفيتش أن المحرر مات وضاعت معه الترجمة. حزنت كثيرا ولكني لم أستطع أن أفعل شيئا. بعد حوالي ١٥ عاما التقيت بالكسندر دافيدوفيتش في براغ فقال لي أنهم وجدوا جزءا من ترجمتي وترجم خيري الضامن المترجم العراقي الجزء الباقي وأن الترجمة

العربية صدرت باسمينا. وقال لي أن ترجمتي جيدة. لا أعرف مدى صدق هذه الرواية.. المهم أن الكتاب الصادر عن دار التقدم صدر باسمي واسم خيري الضامن.

من التراجم التي قمت بها «المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية» تأليف «ياخوت وسبيركين». هذا فضلا عن أعمال أخرى.

وفي زيارة الكسندر دافيدوفيتش لمنزلي لاحظ عندي عددا من الكتب منها كتاب بالفرنسية من تأليف مكسيم رودنسون عن الصراع العربي الإسرائيلي. فقلت له أن هذا الكاتب له موقف جيد رغم أنه يهودي. فقال الكسندر دافيدوفيتش وما العيب في أن يكون يهوديا. وعرفت بعد ذلك أن الكسندر دافيدوفيتش نفسه يهودي. ثم عرفت أن غالبية المحررين الروس هم من اليهود.

ولم أكن أشعر بأي مشاعر ضد اليهود. ولكني في زيارة لايجور بيلاييف في صحيفة «برافدا» سألني عندما عرف أنني أعمل في دار التقدم وما أخبار «اليهود» عندكم؟ فعجبت لذلك. فأنا أعرف أن الشيوعيين لا يفرقون بين الناس على أساس دينهم أو انتمائهم القومي.

وفي زيارتي لايجور بيلاييف تطرق الحديث إلى الحركة الشيوعية في مصر. فقال أن الشيوعيين في مصر عبارة عن تنظيمات عديدة تحارب بعضها البعض ولا تأثير لها. اختلفت معه في ذلك. واختلفت معه في أنه يعطي أهمية أكبر من اللازم للاتحاد الاشتراكي. وقد عرف بيلاييف وبريماكوف بكتاباتهما التي تمجد التجربة «الاشتراكية» المصرية بقيادة جمال عبد الناصر مثل كتاب «أفراح على ضفاف النيل» .وكتاب آخر عن ثورة يوليو. وكان الكتابان يتسمان بالمبالغة في الدور «الاشتراكي» لجمال عبد الناصر والاتحاد الاشتراكي ويلغيان وجود أي قوى أخرى ذات تأثير وبالذات «الشيوعيين المصريين».

وكان بيلاييف وكذلك بريماكوف قد عملا فترة في القاهرة. وقد تأثرا كثيرا بتجربة عبد الناصر.

ورغم أنني كنت أؤيد عبد الناصر باعتباره قائدا وطنيا وذا توجه اجتماعي تقدمي، إلا أن ذلك لا يعني إلغاء دور الشيوعيين الذين كان لهم دور أساسي في التوجه الاجتماعي لحركة الضباط الأحرار ولثورة يوليو بقيادة جمال عبد الناصر.

وأنه بدون دور الشيوعيين في الحركة الوطنية لتخبط الضباط الأحرار كثيرا في توجههم الاجتماعي.

وقلت ذلك لبيلابيف واختلفت معه بالنسبة لتقييمه للحركة الشيوعية المصرية وقلت أنه رغم الانقسامات والصراعات التي أضعفت دور الشيوعيين بلا شك إلا أنه وجد دائما داخل الحركة تيار ثوري هو الذي حدد الخطوط الأساسية لدور الشيوعيين في الحركة الوطنية والسياسية المصرية وتيار انتهازي كان يمثل عقبة أمام هذا الدور.

وهذا المفهوم هو الذي قدمته في دراسة لي عن تاريخ الحركة الشيوعية في الأربعينيات، وقد قدمت هذه الدراسة لعدد كبير ينتمون للحزب والجامعة ومعهد الاستشراق فلقيت تقديرا كبيرا. واقترح عليّ سيرانيان أستاذ التاريخ في معهد الاستشراق أن أقدم الدراسة للحصول على درجة الدكتوراة. ولكنني لم أهتم بذلك. خصوصا أن الأمر كان يحتاج لإعطاء بعض الوقت والتفرغ لهذا الموضوع.

ولم أجد أن الحصول على درجة الدكتوراة يستحق ذلك. ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت في هذا التقدير، مع ملاحظة أن هذه الدرجات لها تقييم كبير في بلادنا وتساعد في حل أمور أخرى كثيرة بما في ذلك العمل السياسي.

وكانت هذه ثاني مرة أتخذ فيها هذا الموقف من (الدرجات العلمية) المرة الأولى عندما كان عليّ أن أحصل على الليسانس عام ١٩٤٧ . فقد كان تركيزي على الكفاح العملي يجعلني أعطي أهمية ضئيلة للحصول على الليسانس واجتياز الامتحان الذي لم أؤده وأحصل على ليسانس الحقوق إلا بعد ذلك في عام ١٩٦٥ . والمرة الثانية كانت في عدم اهتمامي بعرض سيرانيان.

عشت في موسكو عدة شهور في البرد القارس. وكنت أشعر بالبرد في المنزل رغم التدفئة، خصوصا أنني كنت أسكن بمفردي. وكان لابد من ارتداء ملابس ثقيلة محشوة بالفراء ولم أكن ارتدي «كالسونات» طويلة، ذلك لأنني أذكر أنني في سجن مصر كنت ارتدي «كالسونات» صوفية ثم خلعتها فشعرت بآلام شديدة في ساقي. ولم أفكر في «الكالسونات» القطنية. وكنت أظن أنه يكفي أن أتدثر بالبالطو الثقيل والشابكا .ولكنني بعد فترة شعرت بحرقان شديد في فخذي ووجدت

اللون الاحمر القاني يكسوهما وتبين أنهما احترقا من البرد الشديد، ونصحوني بضرورة ارتداء «كالسونات» طويلة.

كنت في شوق لحضور الأسرة (زوجتي ويوسف ابني ونادية التي لم أرها إلا أسبوعا بعد ولادتها). ولكنهم لم يستطيعوا الحضور إلا بعد أن انتهى يوسف من امتحاناته.

كانت لدي فكرة مثالية عن الاتحاد السوفيتي. وكنت قد عشت في المجر من قبل ورأيت الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية للنظام هناك. وكنت أتصور الاتحاد السوفيتي في مستوى أفضل من المجر. ولكن بعض الأشياء الصغيرة أثارت دهشتي.

فمثلا في الأيام الأولى أردت شراء «بشكير». فكان عليّ أن أبحث في جميع المحلات. وكان الرد لا يوجد أو لا يتواجد. وسألت بعد ذلك بعض الأصدقاء فقيل لي أن هذا يحدث كثيرا، إذ تختفي سلعة ما من السوق ثم تتواجد بعد فترة. وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك وعجبت أن يخلو هذا البلد الكبير العظيم، الدولة العظمى الثانية في العالم من بشكير. ومع ذلك لم يكن هناك بيت يخلو منه. والحقيقة أنه كان ينزل إلى الأسواق في فترات مختلفة مثل باقي السلع فيتخاطفه الناس.

ثم بدأت أصطدم بعد ذلك بالكثير من مظاهر البيروقراطية والفساد (الرشوة). وكان لدينا موظف إداري في دار التقدم إذا أعطيته الهدايا وهي في العادة زجاجات من الكحوليات فإنه يحل كل المشاكل المستعصية. وبدون ذلك يتكاسل ولا يفعل شيئا. وسمعت بعد ذلك من الطلبة الذين يدرسون هناك أن زجاجات الفودكا أو الويسكي هي الطريقة السحرية لحل كل مشاكلهم مع موظفي وزارة التربية والتعليم.

ومن المظاهر السلبية التي رأيتها، العدد الكبير من السكارى في الشوارع وفي المواصلات. وسمعت أن بعضهم ينام في الشوارع ويتجمد في كثير من الأحيان من برد الشتاء القارس.

وكنت أسمع عن المشاكل الأسرية الكثيرة التي يسببها إدمان الخمر عند الرجال، الذين يذهب بعضهم إلى العمل في الصباح وهم سكارى. وفضلا عن أن

ذلك كان يؤدي إلى فشل كثير من الزيجات فإنه كان يؤثر أيضا بالسلب على الإنتاج.

وأحيانا عندما أقف في الطوابير أمام المحال لشراء حاجياتي ألاحظ اثنين من الرجال يتفقان على شراء زجاجة فودكا مناصفة.

وأحيانا قليلة كنت أجد امرأة أو أكثر في حالة سكر. ولكنها كانت حالات نادرة بالمقارنة بالرجال.

ومن الملاحظات الطريفة التي لاحظتها، وهو الانطباع بأن النساء هن وحدهن اللاتي يعملن. ففي المحال وفي الإدارات المختلفة وفي وسائل النقل وفي تنظيف الشوارع أجد النساء يعملن ونادرا ما أجد الرجال. وكان يقال لي أن الرجال في المصانع وفي الأعمال الصعبة أما الخدمات فتقوم بها النساء في الغالب. ولكنني وجدت نساء يقمن بأعمال صعبة مثل عمليات البناء.

ومن السلبيات أيضا أنني كنت أجد بعض الأماكن الطبيعية الجميلة تكاد تخلو تقريبا من الخدمات. فلا توجد مثلا كازينوهات أو مقاهٍ على الشاطئ أو في الغابات لخدمة الزائرين. والسبب أن الدولة كانت تقوم بكل شيء ولم تكن إمكانيات الدولة ولا أولوياتها تتسع لمثل هذه المشاكل الصغيرة الهامة.

ورغم هذه السلبيات فقد كنت متأكدا أن النظام هناك أفضل من النظام عندنا وأفضل أيضا من البلاد الرأسمالية الأخرى. وكنت قد عشت في باريس وزرت لندن وغيرها من العواصم الرأسمالية. كانت الميزة الأساسية التي كان يشعر بها الإنسان في موسكو وفي البلاد الاشتراكية الأخرى هي الشعور بالأمان. فعند المرض هناك علاج مجاني وعام وجيد. وهو الأمر الذي كنت أفتقده في بلادنا حيث الطب تجارة. وقد يشكو المواطن السوفيتي العادي أنه لا يستطيع مغادرة البلاد عندما يريد ولكنه يجد العمل دائما ويضمن معاشه عندما يبلغ الستين للرجال أو الخامسة والخمسين للنساء. ويجد دائماً مأوى بسعر رمزي ولا يهدد أبدا بأن ينام في الشارع، ويستطيع أن يمضي إجازته في مكان جميل على الشاطئ أو في الجبال

بين الخضرة والغابات الجميلة بسعر رخيص. المواصلات لا تكلفه إلا أجرا زهيدا. بيوت الحضانة ورياض الأطفال منتشرة في كل مكان ويستطيع بسهولة أن يبعث بأطفاله إليها ويأخذهم آخر اليوم أو آخر الأسبوع. وهذا ما فعلناه مع نادية ابنتي. حيث كانت تمكث طوال الأسبوع مع الأطفال في بيت الحضانة ونأخذها في آخر الأسبوع. وأرسلنا يوسف في الصيف إلى مخيم للرواد خارج موسكو فعاد بانطباعات رائعة وكون صداقات وتعلم التحدث باللغة الروسية. وذهب مرة أخرى إلى مخيم ارتيك مع محمد ابن أختي. الذي حضر إليه من القاهرة بدعوة منا. ومازالت لديهما أجمل الانطباعات عن هذا المخيم.

كانت أسعار الحاجيات الأساسية رخيصة للغاية - المواصلات ٥ كوبيك. السكن بأجر رمزي. الكتب بأقل الأسعار وكذلك الأسطوانات. فكنت تستطيع شراء أسطوانة لبتهوفن أو باخ أو تشايكوفسكي أو غيرهم من كبار الموسيقيين العالميين بأرخص الأثمان. التذكرة في مسرح البولشوي حيث تقدم أرقى الباليهات العالمية سعرها في مقدور أي شخص. وكذلك الحال في غيرها من المسارح. تتحدث الصحف عندنا كثيرا عن الطوابير أمام المحال. ورغم الجانب السلبي لهذه الطوابير إلا أنها تعكس من ناحية أخرى ارتفاع القدرة الشرائية لدى الجماهير. فلم تكن السلع حكرا على من يقدر على الشراء. كان الكثير يشكو بأن بعض سلع الترف الموجودة في الغرب غير موجودة في موسكو أو غيرها من المدن السوفيتية. ولكن المواد والحاجيات الأساسية كانت موجودة دائما وبأرخص الأسعار وكان أي عامل يستطيع شراءها. وكانت مساحة السلع التي تتوافر تتزايد باستمرار بما في ذلك سلع تنافس مثيلاتها الغربية مثل أجهزة الراديو والسيارات والأدوات الكهربائية وغيرها من السلع.

لم تكن تجد في موسكو أو غيرها من الأماكن في الاتحاد السوفيتي تلك الفروق الشاسعة في مستوى المعيشة. أحس الروس وغيرهم من الجمهوريات السوفيتية السابقة بافتقاد هذا كله في السنوات الأربعة أو الخمسة التي حكم فيها يلتسن ومجموعته. وعكس ذلك نتائج الانتخابات التي أجريت في ١٦ ديسمبر حيث حقق الحزب الشيوعي لروسيا الاتحادية أفضل النتائج. ولكن نتائج هذه

الانتخابات بينت أيضا أن الروس يريدون استعادة امتيازات الوضع القديم دون سلبياته. ولهذا أيدوا الحزب الذي يرأسه زيوجانوف الذي حصل على نسبة ٢٢٪ وهو الذي قدم برنامجا يعترف بالتعددية السياسية وتعدد الأنماط الاقتصادية مع الاحتفاظ بالدور الرئيسي للقطاع العام. ولم تحصل باقي الأحزاب والتجمعات الشيوعية الأخرى على ٥٪. وهذا يدل على أن الناس تريد استعادة إيجابيات النظام السابق دون سلبياته.

وصول الأسرة:

استعدادا لوصول الأسرة قررت دار التقدم أن تقدم لي شقة من أربع حجرات كبيرة بالحساب الروسي (أو ثلاثة وصالة حسب عرفنا في مصر). ففي روسيا يعتبرون الصالة غرفة. هذا بالإضافة إلى مطبخ كبير وحمام وتواليت. وكانت تقع في منزل قديم يقع في أوائل شارع جوركي من ناحية محطة «بيلوروسكايا» ورغم اتساع الشقة والموقع فكثيرون من الروس لم يفضلوا السكنى فيها بسبب ضوضاء الشارع والتلوث الناتج عن السيارات والأتوبيسات التي تمر في الشارع.

انتقلت إلى الشقة قبل أن تصل أسرتي وبقيت بها بمفردي بعض الوقت. وقد تقرر حضور الأسرة في سبتمبر. وكنت أنتظر وصولهم بفارغ الصبر. وكنت أتصور وأرتب أن تعمل زوجتي ونستطيع بذلك أن نحصل معا على دخل لا بأس به. عندما تزوجنا كانت ليلى تعمل مدرسة لغة إنجليزية في مدرسة إعدادية بشهادة متوسطة. وبعد خروجي من الاعتقال أبدت رغبتها في الاستقالة والحصول على مستحقاتها في التأمينات والالتحاق بكلية الآداب للحصول على الليسانس. لم أعترض مادامت تلك رغبتها. درست وحصلت على ليسانس الآداب. وكانت زميلة لأختي سعاد التي أرادت أن تفعل نفس الشيء. عند حضورها إلى موسكو كنت أتوقع أنها ستعمل. ولكنها فاجأتني عند وصولها أنها لا تريد العمل وإنما تريد الإعداد للدكتوراه، ساعدتها في أن تلتحق بالدراسات العليا في الجامعة. ولكنها لم تواصل الدراسة، فرتبت لها أن تعمل في الإذاعة فعملت بعض الوقت.

وصلت الأسرة في سبتمبر. وذهبت لاستقبالهم في مطار شيريميتفا. وكنت في غاية القلق وانتابني شعور غريب. فمن شدة رغبتي في لقائهم كنت أخشى أن يحدث شيء للطائرة فلا يصلوا. وعندما وصلوا قابلتهم بفرحة شديدة. كانت نادية قد كبرت وأصبح سنها ثمانية شهور ويوسف حوالي عشرة سنوات. وكنت في غاية الشوق إليهما وإلى زوجتي. وكنت أخطط لإقامة سعيدة معهم. وكنت أخطط كما قلت في السابق أن تساعدني زوجتي وأن تكسر فترة الوحدة التي عشتها قبل وصولهم.

رتبنا ليوسف دخول المدرسة العربية الملحقة بالسفارة. أما نادية فقد رتبنا لها أن تلتحق بالحضانة لمدة خمسة أيام ونستلمها في آخر الأسبوع.

تعلم يوسف اللغة الروسية بسرعة وكذلك نادية التي كانت تعيش مع الأطفال الروس. وكانت أول كلمات تنطقها باللغة الروسية. واستطاعت ليلى بعد ذلك أن تتعلم بعض الكلمات الروسية تتفاهم بها.

كانت علاقاتنا في مصر بعد خروجي من السجن قد بدأت تتوتر، وبدا أن طباعنا وطريقة معيشتنا وطموحاتنا تختلف ولم أنجح ولم تنجح في تحقيق التوافق أو تقارب الأهداف. لم يعد يربطنا التعاون أو الترابط الأسري. ومع ذلك كان هناك رباط وثيق بيننا هو يوسف ونادية.

وكانت نادية تنمو أمام عيني. كنت أحبها حبا شديدا. كنت أتابع نموها وأعمل بالمنزل وأتابع شئونها كلها وأنتظر بفارغ صبر حضورها آخر الأسبوع من بيت الحضانة.

العمل مراسلا لأخبار اليوم

حضر صلاح چاهين لزيارة موسكو وجاء إلى منزلنا واقترح عليّ أن أراسل الأخبار وأن إحسان عبد القدوس الذي كان يرأس مؤسسة أخبار اليوم سيرحب بذلك. واقترح عليّ أن أتصل به تليفونيا. وفعلت ورحب بالفعل.

وبدأت أبعث رسائلي، وكانت أولى هذه الرسائل حديثا مع الشاعر الفلسطيني

سميح القاسم الذي يقيم بإسرائيل وكان في زيارة لموسكو وتعرفت به لأول مرة. ونشر حديثي بشكل جيد وتلقيت تقديرا من عدد من الأصدقاء والصحفيين مثل حسين فهمي وفيليب جلاب وغيرهما. واهتم سميح القاسم بالحديث وطلب أن أرسل له الجريدة.

وتكررت زيارات سميح القاسم وروى لي تفاصيل عن حياته داخل إسرائيل ورفضه لموقف محمود درويش في تركه للحياة في إسرائيل ومغادرتها.

وتحدثنا في مواضيع مختلفة وأذكر قصة رواها لي، وهي أن وفدا من الحزب الشيوعي الأمريكي كان يزور أحد المصانع في موسكو. فلاحظوا أن معدل العمل في المصنع مختلف عنه في أمريكا فتساءلوا هل هو «إضراب .. تباطؤ».

أخذ العمل الصحفي يجذبني ويأخذ أغلب وقتي وأصبحت مراسلا معتمدا من وزارة الخارجية السوفيتية وأصبحت أدعى للمؤتمرات الصحفية، وكانت تنظم للمراسلين زيارات للمناطق المختلفة في الاتحاد السوفيتي. وعن طريق وزارة الخارجية زرت أرمنيا وجورجيا ومولدافيا وبيلوروسيا وأوكرانيا واستونيا، وكنت أدعى للمناسبات الرسمية مثل الاحتفال بثورة أكتوبر وبعض المناسبات في مجلس السوفييت الأعلى وغيرها. وتعرفت بالمراسلين الآخرين وتكونت علاقات جديدة. وتوثقت علاقتي بالسفارة المصرية وبالسفير د. مراد غالب والسفراء الذين جاءوا بعده. وأصبحت أدعى للسفارة في المناسبات المختلفة.

وكان أقدم المراسلين الأجانب يدعى شابيرو وهو مراسل أسوشيتد برس، وكان طاعنا في السن. ويقال أنه كان مراسلا منذ أيام ستالين. وفي إحدى الرحلات دار حديث بيني وبينه وقال لي أنه يمكن حل مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي بتنظيم لقاء سري بين السادات وجولدا مائير لتحقيق السلام.

أصبح العمل الصحفي أكثر إثارة من عمل الترجمة الذي كنت أقوم به طول الوقت. وقمت بزيارة إلى القاهرة وقابلت إحسان عبد القدوس وقال لي أنني يجب أن أتعلم الصحافة وانتقد بعض التقارير والأخبار التي أرسلها وقال إنني سياسي

ولست صحفيا بعد. ورتب لي لقاءات مع مسئولي المجلات والصحف والأقسام التي تتبع أخبار اليوم. فقابلت موسى صبري ومحسن محمد اللذين طلبا مني أن أهتم بكل الأخبار وليس بالأخبار السياسية وحدها، وأن أهتم بأخبار المصريين في الاتحاد السوفيتي. والتقيت بأنيس منصور وكان مسئولا عن آخر ساعة وطلب مني أخبار الناس العاديين والأخبار الطبية. وقابلت سعيد سنبل وإبراهيم سعده ومحمد تبارك الذي طلب مني ألا أرسل أخبارا أكاديمية وإنما الأخبار البسيطة والمثيرة.

وكنت حتى ذلك الوقت أعمل بمكافأة. وعمل إحسان عبد القدوس على تثبيتي بمرتب وضم تأميناتي من وكالة أنباء الشرق الأوسط.

وأحسست أن إحسان يلقى مقاومة من باقي العاملين والمسئولين في المؤسسة ولم ألق ترحيبا إلا من أولئك الذين كانوا يريدون إرضاء إحسان. وكان إحسان يشعرني بذلك. وشعرت أن إحسان يحترمني ويريد مساعدتي.

كان المرتب المقرر لي هو ٦٠ جنيها ومبلغ آخر مقابل المصاريف وكان المجموع هو ٢٠٠ جنيه. وكانوا يعتمدون على أني أسكن في شقة قدمتها لي دار التقدم فكانوا لا يدفعون شيئا مقابل السكن. ولولا ذلك لما استطعت بالطبع أن أغطي مصاريفي (المعيشة أو الخاصة بالعمل) بهذا المبلغ.

أخذ العمل الصحفي يستغرق أغلب وقتي ويقل بالتدريج عملي في دار التقدم بحيث أصبح ما أحصل عليه من دار التقدم يقل بالتدريج ولم يعد من الممكن أن يغطي احتياجاتي المعيشية.

وأصبحت الأخبار والتقارير التي أرسلها تظهر في الصفحة الأولى. وكان ذلك يتم خصوصا في حالة الزيارات المهمة لجمال عبد الناصر ثم للسادات من بعده.

وقبل الاتفاق مع أخبار اليوم كنت قد اتفقت مع أحمد بهاء الدين أن أراسل المصور وكانت الموضوعات التي أبعث بها تنشر جيدا. ومنها موضوع حصلت على مادته من عالم سوفيتي متخصص في المصريات القديمة، وفيه يحاول إثبات أن قدماء المصريين استطاعوا أن يصلوا إلى الفضاء.

المحتويات

***

وفي إحدى المرات أثناء زيارة لجمال عبد الناصر لموسكو وكان الوفد المرافق له مقيما في فندق سوفيتسكايا في الطريق المُسمى «ليننجراد سكايا». وكنت أذهب إلى هناك لمعرفة الأخبار. وفي إحدى المرات كان عليّ أن أبعث برسالة إلى الجريدة. ولا أذكر الآن إن كانت للمصور أو للأخبار. وكنت أريد أن تنشر في الوقت المناسب. فأخذت إحدى السيارات التي خصصتها وزارة الخارجية للوفد واتفقت مع السائق أن يأخذني إلى المطار. وجريت إلى الباب المؤدي للطائرة ومن العجيب أنه لم يمنعني أحد وتوجهت إلى الطائرة المصرية وأعطيت المضيف مظروفا موجها إلى الجريدة. ثم خرجت كما أتيت وعدت إلى الفندق. وكانت مغامرة.

وعندما عدت وجدت بعض الموظفين المرافقين لعبد الناصر يوبخونني لأنني أخذت السيارة المخصصة لوفد رئاسة الجمهورية. ولم تقنعهم الأسباب التي ذكرتها لهم. فقد كانوا في حاجة للسيارة للمشتريات. وبعد وقت عادت السيارة بهم محملة بالبضائع.

أخذت أنوع المادة التي أرسلها وكان أغلبها ينشر في مختلف صحف ومجلات أخبار اليوم (الأخبار ـ أخبار اليوم ـ آخر ساعة). كانت هناك مواد أساسية وأخرى ثقافية وأخبار علمية وطبية وبعض الأخبار الخفيفة والطرائف. وكنت أجد متعة في نشر ما أرسله. وبدأت تتم اتصالات من القاهرة. اتصل بي مرة كمال عبد الرءوف وطلب إلى جانب الأخبار أن أكتب موضوعات ومقالات. فكتبت عن زيارة الوفد الليبي وغيرها من الموضوعات كانت تنشر بالكامل. وكان يثني عليها.

وفي إحدى المرات اتصل بي إحسان عبد القدوس وطلب مني أن أتحرى عن موضوع «الاسترخاء العسكري». وكان ذلك بعد أن بدأت العلاقات تتوتر بين مصر والاتحاد السوفيتي في عهد السادات. وكان محمد حسنين هيكل قد بدأ يكتب مقالات ينتقد فيها «الاسترخاء العسكري» الذي ورد في البيان المشترك الذي صدر عن زيارة نيكسون لموسكو وبدأت خطب السادات تتحدث عن الوفاق بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا على حساب مصر وغيرها من شعوب العالم الثالث.

وكان إحسان يريد أن يعرف وجهة نظر المسئولين السوفييت عن موضوع الاسترخاء العسكري.

فالتقيت بأحد المسئولين في البرافدا وهو ايجوربيلابيف، وطرحت عليه الأسئلة فأكد في إجاباته أن المساعدات العسكرية السوفيتية لمصر ستستمر وأن الاسترخاء العسكري المشار إليه يقصد تحقيقه فقط بعد تحقيق السلام، بعد جلاء القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها. نشر الموضوع في أبرز مكان في الصفحة الأولى من الأخبار ونقلت عنها الصحف الأجنبية في مختلف البلاد. وبدأت تتوالى عليّ الاتصالات من المراسلين الأجانب في موسكو يحاولون الحصول على تفصيلات أكبر.

وعرفت بعد ذلك أنه كان لهذا الموضوع أثر وصدى في مصر.

وقد غطيت أكثر من مرة زيارة نيكسون لموسكو وتعرفت بكثير من الصحفيين الأمريكيين الذين كانوا يرافقون الوفد الأمريكي.

وغطيت زيارة بريجنيف إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٧٣ وبعثت بخبر زيارته لفرنسا قبل زيارته لأمريكا. ونشرت الأخبار وقتها أن مراسلها في موسكو انفرد بهذا السبق الصحفي، وسبق بذلك كل الصحف ووكالات الأنباء. واتفقت مع إحسان عبد القدوس أن أسافر إلى أمريكا لتغطية الزيارة. وبعثت لي الأخبار مصاريف الزيارة.

زيارة أمريكا:

كانت أول مرة أزور فيها أمريكا. ذهبت إلى السفارة الأمريكية في موسكو للحصول على تأشيرة دخول. فحولوني إلى أحد مستشاري السفارة الذي حدد لي موعدا للحديث. قال أريد أن أسألك سؤالا أرجو أن تجيب عنه بصراحة لأننا سنعرف الحقيقة: هل أنت شيوعي؟ فقلت له: إنني اتهمت في مصر في قضايا شيوعية. فقال: هذا لا يمنع إعطاءك فيزا لأنه سيزورنا رئيس أكبر دولة شيوعية.

حصلت في النهاية على تأشيرة الدخول. وسافرت لأول مرة إلى أمريكا من موسكو. وكان عليّ أن أتوقف ليلة في لندن. وأقمت عند أخي صلاح. ولم يكن أحمد في لندن. واتصلت تليفونيا بممدوح الجندي ابن عمي في مانشستر الذي كان يقوم بدراسات علمية هناك فعرفت أنه يعالج من أزمة قلبية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصاب فيها بالأزمة القلبية. وأذكر أن أباه (عمي عبد العزيز) توفى بأزمة قلبية وهو في سن صغيرة بعد الأربعين بقليل. أما ممدوح في ذلك الوقت فكانت سنه أقل من الأربعين (٣٧ سنة). لذلك شعرت بالقلق عليه.

سافرت في اليوم التالي إلى نيويورك. بهرت بحجم المطار. ركبت طائرة من نيويورك إلى واشنطن. لم تكن لدي أي عناوين هناك. وكان الوقت في منتصف الليل. اتصلت بالسفارة فرد عليّ أحد السكرتيرين الذي قال لي أنهم لا يستطيعون تقديم أي مساعدة. ركبت أتوبيس المطار وطلبت من السائق أن ينزلني عند أي فندق. توقف عند فندق «الهيلتون». قررت أن أمضي ليلة فيه على أن أنقل في اليوم التالي إلى فندق أرخص.

استلمت مفتاح حجرتي في الفندق، وظللت لفترة طويلة أشاهد التليفزيون الذي يعمل بلا انقطاع. وكان البرنامج يدور حول نيكسون والووترجيت والانتقادات المستمرة. وكان أمرا لم أعتده أن يهاجم رئيس الدولة في التليفزيون. نمت في ساعة متأخرة. وفي الصباح نزلت إلى حمام السباحة حيث قمت برياضتي المعتادة ونزلت إلى الحمام حيث سبحت بعض الوقت ثم أخذت دشا ولبست ملابسي ونزلت لتناول الإفطار وكانت المائدة مفتوحة أختار منها ما أريده. وبعد الإفطار قمت باتصالات تليفونية. وسألت عن فندق رخيص قريب من وزارة الخارجية. وكان في شارع مزدحم أزعجني فيه صفير سيارات البوليس التي لم أعتدها من قبل. فلم تكن قد أدخلت بعد عندنا في مصر. وبعد عدة اتصالات أخرى عرفت فندقا آخر معتدل الثمن ينزل فيه الصحفيون، عرفت ذلك بعد أن كنت قد ذهبت إلى وزارة الخارجية والتقيت بغيري من الصحفيين. التقيت هناك بأديب مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط في واشنطن، وكنت أعرفه منذ أن كنت

أعمل في الوكالة. وكان قد حضر مرة في زيارة إلى موسكو التي أعجبته كثيرا.

التقيت أيضا بمراسل الأهرام الذي نسيت اسمه الآن ولكنه كان يراسلها منذ سنين طويلة وسمعت أنه على علاقة وثيقة بالمخابرات المركزية الأمريكية وكان يقيم في نيويورك ويغطي أعمال هيئة الأمم المتحدة.

كانت لدي بعض أرقام تليفونية لبعض الصحفيين الأمريكيين الذين التقيت بهم في موسكو، ومنهم صحفي من «كريستيان ساينس مونيتور». دعاني على الإفطار وتناقشنا معا في مختلف المسائل وفي آخر اللقاء أهداني الإنجيل باللغة الروسية.

في حجرتي في الفندق وجدت قصة جنسية تحكي عن لقاءات جماعية جنسية أخذت أقرأ فيها بعض الوقت. وإلى جانب هذا الكتاب وجدت الإنجيل.

كان يقام من وقت لآخر مؤتمر صحفي يتحدث فيه مندوب من وزارة الخارجية الأمريكية ومن الجانب السوفيتي يتحدث زامياتين.

بقي بريجنيف أياما قليلة في واشنطن ثم ذهب إلى كاليفورنيا مع نيكسون. ولحق به غالبية الصحفيين. ولكني لم أستطع لأن إمكانياتي المالية لم تكن تسمح لي بذلك. بقيت في واشنطن. وأعطاني ذلك الإمكانية للتجول في المدينة. لاحظت أن عدد السود كبير جدا. وكان الجو حارا فكانت الفتيات يخرجن شبه عاريات لا يسترهن غير جونلة وسوتيان لتغطية الصدر. واشتريت بعض الحاجيات البسيطة وبعض الهدايا. اشتريت لنفسي قميصين بأكمام قصيرة، القميص بدولار واحد مازلت أستعملهما حتى الآن رغم مضي أكثر من عشرين عاما على شرائهما.

كنت أتناول طعامي في مطاعم الخدمة الذاتية وعجبت أن كثيرا من الأمريكيين يتناولون اللبن كشراب مع الغداء أو العشاء.

أعجبتني واشنطن ووجدتها مدينة خفيفة الظل.

وانتقلت إلى نيويورك ووجدت سكنا رخيصا في أحد بيوت الشباب وقد

نصحني بها مراسل الأهرام. وفي الصباح ذهبت إلى مبنى الأمم المتحدة. والتقيت هناك بمراسل الأهرام وببعض العاملين الروس الذين تعرفت بهم من قبل في القاهرة أو موسكو.

وزرت مبنى التمثيل المصري في الأمم المتحدة. وكنت أحمل رسالة لأحد الدبلوماسيين هناك.

سرت قليلا في شوارع نيويورك. ولكنني فضلت واشنطن ولم تجذبني نيويورك.

في العودة أيضا سافرت عن طريق نيويورك. وعند القيام بإجراءات السفر وقفنا في طابور وفوجئت بأحدهم يضرب شابا أمامه بالشلوت. وأعتقد إن الشاب كان أجنبيا. ويبدو أنه احتك به أو ضايقه. ولم يفعل الشاب شيئا. وكان منظرا غريبا بالنسبة لي.

تأخرت الطائرة عدة ساعات عن الميعاد المحدد. فقضيت الوقت في المطار وشعرت بالملل الشديد. وفي النهاية أعلنوا عن قيام الطائرة. وعدت إلى موسكو.

وقد نشرت أخبار اليوم يوم ٦/٢٣ خبرا بعنوان «٤٨ ساعة بعد أخبار اليوم» جاء فيه: انفردت «أخبار اليوم» يوم السبت الماضي بنشر خبر زيارة بريجنيف لباريس بعد انتهاء زيارته لواشنطن. استطاع مراسل «أخبار اليوم» في موسكو أن يسبق جميع الصحف العالمية ووكالات الأنباء بهذا الخبر الذي لم يذع رسميا إلا بعد ٤٨ ساعة من نشره في «أخبار اليوم».

وقد سررت من نشر هذه الملاحظة. وكانت أخبار اليوم في يوم السبت ١٦ يونيو قد نشرت الخبر الرئيسي في صفحتها الأولى نقلا عن محمد الجندي ووكالات الأنباء بالعنوان التالي:

«لماذا قدم بريجنيف موعد زيارته لأمريكا. الزعيم السوفيتي يزور باريس بعد واشنطن. وكانت الصحيفة بعد أن أوردت الأخبار الجارية قد نقلت ما أرسلته من أن «الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف قدم موعد زيارته لواشنطن إلى يوم السبت (اليوم) بدلا من يوم الاثنين (بعد غد) حتى يتمكن من السفر يوم ٢٥ يونيو إلى باريس

لمدة يومين يجري خلالهما مباحثات مع الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو ويعود إلى موسكو يوم ٢٧ يونيو.

وهكذا كان عملي الصحفي يتطلب مني أن أتعقب الأخبار وتفاصيلها من مختلف المصادر وكنت أعرف أن أي سبق للجريدة يعتبر عملا هاما. وقد بدأت تعلم صياغة الأخبار وتعقبها من عملي في وكالة أنباء الشرق الأوسط. ثم كان عملي في أخبار اليوم هو مدرستي الثانية.

وقد ساعدني إحسان عبد القدوس كثيرا وساعدتني أيضا اللقاءات التي نظمها لي مع كبار المسئولين في المؤسسة.

التدريب الصحفي في أخبار اليوم

كانت توصيات إحسان عبد القدوس لي العمل على إرسال الأشياء الخاصة وعدم الاكتفاء بالمسائل الرسمية التي تأتي على وكالات الأنباء والمقابلات ـ الاتجاه ـ الشيء الذي يناقشونه ـ عدم التحرج من إرسال الأسرار ـ الأشياء الفنية ـ مجهود خاص عن مغنية جديدة ـ مغني بني فيللا مثلا ـ الأجور التي يأخذها الفنانون إلخ ـ الجرائم ـ عدد الجرائم التي تنشر. ومن توصيات إبراهيم سعدة الجهد لتعريف القارئ بالاتحاد السوفيتي ـ تقاليد السوفييت وعاداتهم ـ أزمة المساكن ـ العائلات التي تسكن في حجرة واحدة ـ العلاقات الاجتماعية ـ التعليم. المشاكل الإنسانية أكثر من المسائل الرسمية. بيروبيجان ـ صفحة كاملة عن بلد اليهود. مقابلة الحاخام. الرد على الاتهامات بأسلوب مقنع. أسماء الطائرات وأنواعها. أسلحة جديدة ووظيفتها. استعراض الجيش. تغطية الأبواب الثابتة. صفحة المرأة. بالنسبة للفن لا داعي لإرسال أشياء أكاديمية. موضوع عن الجنس في السينما السوفيتية. صور أفلام الإثارة. أخبار وموضوعات عن الراقصين الصغار (٧ ـ ٨ سنوات). ايفتوشنكو طريقة إلقائه ـ وهل غيرها أم لا؟ وهل وجد مضايقات بسببها؟ المصريون الذين يدرسون هناك. والمصريون المتزوجون من

روسيات. يقولون أنها امرأة مثل الآلة ولا تعرف الموضة. الكثيرون يتخيلون الروسية مثل الشوال. تغيير هذه الفكرة. الأسرة السوفيتية ـ تطلعاتها منذ أول الثورة حتى الآن. ما هي الكماليات التي تقدمها لهم الدولة. الأسرة التي تمتلك سيارة ـ الطوابير ـ وفرة السلع الاستهلاكية ـ الأجانب ولماذا لهم أماكن محجوزة في السينما والمسرح ـ الاهتمام بالأطفال ـ كيف يتعلمون ـ المدارس ـ الجرائم في الاتحاد السوفيتي ـ جريمة غريبة ـ المرتبات ـ كيف يعيشون ـ القوة الشرائية للروبـل ـ كيف تعمل المرأة ـ عدد ساعات العمل ـ زيارة نيكسون ـ متابعتها قبل أن تتم ـ أين سينزل ـ الحفلات التي سيحضرها ـ موضوعات عن السفارة وعائلات الدبلوماسيين.

والتقيت بكمال عبد الرءوف وقد ركز على المسائل الخبرية ـ أي اتفاق مالي بين مصر والاتحاد السوفيتي ـ معلومات سرية ـ اللف حول الخبر ـ معرفة أي أخبار عن وفد مصري سافر إلى الاتحاد السوفيتي قبل سفره. السوفييت الذين كانوا في مصر، فيتشرز. رد مسئول على ما تكتبه هيرالد تريبيون مثلا. صدى خطب السادات ـ من المسئولين ومن الصحف. وإرسال تحقيق كل أسبوعين.

وجرى لقاء بيني وبين موسى صبري ومحسن محمد وأحمد زين مجتمعين. وكانت وصاياهم هي: عمل حملة على كل صفحات الجريدة. مسرحية جديدة ـ تجربة جديدة في الفن ـ كتاب جديد. الكتب السياسية التي تظهر والتي تهمنا أو الكتب العسكرية. يمكن أن تظهر على صفحة كاملة. كتب تظهر تصدر كحلقات مثل مذكرات خروشوف. مذكرات سياسية. كتب عن الصهيونية على ألا تكون كتب شعارات. حق نشر مذكرات ـ يمكن شراؤها. الأدب والفن بالصور. مشكلة مثارة في مصر ـ موضوع يمكن تكملته من هنا أو من دولة ثانية. أخبار الناس ـ من يسافرون. أشياء شخصية ـ حادثة كبيرة. وصول جلود مثلا وماذا ستعمل المصانع التي يعملونها لمصر ـ الخبراء الذين سيأتون. رسالة أسبوعية. أسبوع يارغ مثلا. ما يقوله العالم عن هجرة اليهود. الاتحاد السوفيتي إلى الاشتراكية (تجربة جديدة مثل ليبرمان) ـ الأشياء الجديدة. المبعوثون المصريون. أخبارهم. تلميع أسماء مصرية تدرس في موسكو. لا يكفي الاهتمام بالوزير فقط. حجم المساعدة خلال عام ٧١ مثلا.

استفدت كثيرا من هذه اللقاءات وكنت أحاول تطبيقها وإن كان ذلك كله يتم في حدود التزامي بأفكاري وتوجهاتي وموقفي السياسي. وكنت أرفض أن ينشر على لساني شيء لم أبعث به. وقد حدث أن نشر على لساني خبر عن زيارة لبودجورني لمصر ولم يكن صحيحا. فاتصلت بإحسان عبد القدوس واحتججت على ذلك. فقال لي نحن نشرنا هذا الخبر. وعرفت بعد ذلك أنه نشر بتوجيه من السلطات.

وكانت مقالات هيكل تتحدث وقتها عن «الاسترخاء العسكري» الذي اتفق عليه نيكسون وبريجنيف على حساب القضية العربية. وكانت خطب السادات تتحدث وقتها عن الوفاق بين الدولتين بل والعناق. فكان الموضوع الذي أرسلته وبذلت فيه جهدا كبيرا يستهدف الرد على ذلك كله.

وكان له بالفعل هذا التأثير. وقد أعادت نشره جريدة «الاتحاد» لسان حال الحزب الشيوعي الإسرائيلي لنفس الغرض نقلا عن أخبار اليوم.

وكان الإعداد للانتقال من التحالف مع الاتحاد السوفيتي إلى التحالف مع أمريكا يحتاج إلى تمهيد. ولهذا كان الحديث عن «الاسترخاء العسكري» الذي ورد في البيان المشترك بعد زيارة نيكسون لموسكو وكان النص الذي أثار هذه الضجة المفتعلة هو ما يلي: «عرض كل من الجانبين موقفه من هذه المسألة (أي قضية الشرق الأوسط) وهما يؤكدان تأييدهما للتسوية السلمية في الشرق الأوسط، طبقا لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، وإذ ينوهان بأهمية التعاون البناء من جانب الأطراف المعنية مع الممثل الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة السفير يارنج، فإن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يؤكدان رغبتهما في الإسهام في إنجاح مهمته ويعلنان أيضا عن استعدادهما لأداء دورهما في تحقيق التسوية السلمية في الشرق الأوسط. وفي رأي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فإن التوصل إلى تسوية كهذه يمكن أن ينتج آفاقا لإعادة الموقف في الشرق الأوسط إلى حالته الطبيعية، وأن يسمح، بشكل خاص ببحث خطوات تالية نحو التوصل إلى تهدئة الموقف العسكري (استرخاء عسكري حسب بعض التراجم) في هذه المنطقة.

وبدأ محمد حسنين هيكل سلسلة مقالات في مقاله الأسبوعي في جريدة الأهرام حول «الاسترخاء العسكري» الذي تم الاتفاق عليه أثناء زيارة نيكسون لموسكو وأشار إليه البيان المشترك الختامي. وأن هذا تعبير عن «الوفاق» الذي تم بين الدولتين الأعظم على حساب مصالح الدول الأصغر ومنها مصر. وفسر هذا «الاسترخاء العسكري» كما سماه بأنه يعني وقف المساعدات العسكرية من الاتحاد السوفيتي لمصر في الوقت الذي تتفوق فيه إسرائيل عسكريا على مجموع الدول العربية بفضل المساعدات العسكرية الأمريكية.

وكنت أفهم أن هذا «الانفراج» في العلاقات وليس «الوفاق» كما كان يسميه هيكل هو لصالح السلام العالمي وأنه يخلق الجو الملائم للتسوية السلمية للنزاع العربي الإسرائيلي. هذا في الوقت الذي لم تتوقف فيه المساعدات السوفيتية العسكرية لمصر سواء قبل هذه الزيارة أو بعدها.

وبعد هذه «الفرشة» التي قدمها هيكل بدأ الحديث على أن المساعدات السوفيتية غير كافية، وبدأت المحاولات لإثارة النفور والعداوة في الجيش بين الخبراء السوفييت وضباط الجيش. وقد ساعدت ممارسات بعض هؤلاء الخبراء السوفييت على إثارة ذلك الجو العدائي.

ثم بدأت خطب وأحاديث السادات تتحدث عن «الوفاق» و«العناق» بين الدولتين الأعظم ثم كان حديثه عن «الوقفة مع الصديق» وطرد الخبراء والمستشارين السوفييت.

في هذه الظروف كنت أحاول في المقالات والتحقيقات التي أبعث بها أن أقاوم هذا التوجه. ولهذا كانت المادة التي أرسلتها حول رد المسئولين السوفييت على موضوع «الاسترخاء العسكري»، ثم كان الموضوع الكبير الذي بعثت به والذي نشر في أخبار اليوم «لا اتفاق من وراء ظهر العرب في محادثات موسكو» ثم العناوين التالية: أخبار اليوم تسأل. ١ـ هل هناك اتفاقات سرية لم ترد في البيان المشترك؟ ٢ـ هل يوقف الاتحاد السوفيتي مساعداته لمصر ٣ـ وهل هناك اتفاق أمريكي سوفيتي على حساب العرب. (وموسكو تجيب لا).

وكانت رسائلي كلها تحاول أن تقول الحقيقة وتحافظ على الصداقة المصرية السوفيتية في فترة كان يتم فيها تحول مخطط للتحالف مع أمريكا ضد الاتحاد السوفيتي وإلى التطورات التي تلت ذلك.

ومع هذا التحول أجد الاهتمام يقل بنشر ما أرسله من مواد لأنه لم يعد يتفق مع السياسة الجديدة.

وساعد على ذلك نقل إحسان عبد القدوس إلى رئاسة الأهرام. وقرار إداري بوقف التسهيلات التليفونية والتلغرافية بحيث أصبح المبلغ الذي يصلني من أخبار اليوم لا يكفي لمعيشتي بالإضافة إلى مصاريف الاتصالات التليفونية والتلغرافية. فضلا عن أنني قررت الإعداد للعودة إلى مصر.

العمل في هلسنكي (مجلس السلام العالمي)

في زيارة لخالد محيي الدين إلى موسكو عرض علي أن أعمل في سكرتارية مجلس السلام العالمي خلفا لرفعت السعيد الذي تقرر أن ينتقل إلى مصر للحاجة إليه هناك. وافقت على هذا العرض، فهلسنكي ليست بعيدة عن موسكو، فضلا عن أن العمل في سكرتارية مجلس السلام العالمي اجتذبني، واجتذبني أيضا التغيير والحياة بعض الوقت في هلسنكي. وبدأت أعد نفسي للسفر إلى هلسنكي. وكانت التراجم التي أقدمها لدار التقدم متوقفة تقريبا بعد انشغالي بالعمل الصحفي. ولم تعد مراسلاتي لأخبار اليوم مزدحمة كما كانت، فقد انعكس عليها تراجع العلاقات المصرية السوفيتية ولم تكن الجريدة تحتاج كثيرا لمواد من موسكو كما كان الوضع السابق.

وفي الزيارة التالية لخالد محيي الدين لموسكو أحضر لي رسالة من زملائنا يطلبون مني عدم الذهاب إلى هلسنكي لأنهم اتفقوا على أن يذهب بهيج نصار إلى هناك. وكنت قد رتبت نفسي وهيأت أموري للانتقال إلى هلسنكي. فقلت ذلك لخالد محيي الدين وطلبت إليه أن أذهب لمدة ثلاثة شهور ثم يأتي بهيج نصار بعد

ذلك. وافق. وسافرت بالفعل إلى هلسنكي. وأقمت في المنزل الذي كان يسكن فيه رفعت السعيد. وتعرفت بروميش شندرا الأمين العام للمجلس وباقي السكرتيرين والعاملين في المجلس. وفي اليوم الأول دعاني روميش مع سكرتيرته على الغداء.

وكان عملي هناك يتطلب أن أكون عضوا في مجلس السلام المصري. وقد تم اختياري بالفعل. ووصلني خطاب بهذا المعنى من خالد محيي الدين.

كان السوفييت هم الممولون الأساسيون لمجلس السلام السوفيتي. ولهذا فإن السكرتير السوفيتي كانت له سلطات كبيرة. ولهذا كان يصطدم كثيرا مع السكرتير العام للمجلس وهو روميش شندرا الذي كان يردد دائما في مناقشات المجلس بأنه لا علاقة له بالمسائل المالية، ويقتصر في المناقشات على الجوانب السياسية. وكان أحد الموظفين الإداريين الفلسطينيين في المجلس يتحدث مازحا عن السوفييت ويسميهم «الأسياد». وكان هذا التعبير الساخر يعبر أيضا عن نفور وتمرد وعدم رضا عن الوضع المتميز للسوفييت في المنظمات الدولية غير الحكومية، وفي العلاقة مع الأحزاب الشيوعية الأخرى. وكان السكرتير الفرنسي يختلف في الغالب مع التوجه السائد والذي كان هو التوجه السوفيتي. وكان السكرتيرون من العالم الثالث يلتقون في الغالب مع التوجه السوفيتي ويختلفون كثيرا مع التوجه الفرنسي أو توجه الأحزاب الغربية عموما وخصوصا بالنسبة للقضية الفلسطينية.

كان العمل روتينيا. وكنت أذهب للمكتب في الصباح في وسط البلد وأمضي الوقت في العمل حتى الخامسة بعد الظهر. وكنت أمضي الوقت بعد العمل في المنزل أو أذهب إلى مكان قريب أمارس الساونا والسباحة. وأحيانا أذهب إلى السينما أو أتجول في المدينة. وعلى خلاف الوضع في موسكو كانت المحال مليئة بالبضائع من كل الأنواع. وفي عودتي إلى المنزل كنت أشتري كل ما كنت أريده من أنواع الطعام الذي لم أكن أجده في موسكو. وأذكر في زيارة لعبد الملك خليل أن طلب مني أن نذهب إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام الجنسية التي كانت تمتلئ بها دور السينما، وهي من الأفلام التي لم تكن تتوافر لنا رؤيتها سواء في الاتحاد السوفيتي أو مصر. وفي أثناء مشاهدة الفيلم تحدث معي ساخرا للمقارنة

بين الحياة في فنلندا والحياة في الاتحاد السوفيتي وكان يرى أن الحياة في فنلندا أفضل بكثير. فمستوى المعيشة أفضل والتقدم أفضل.

وكانت الحياة في هلسنكي سهلة ومريحة. وكل شيء متوافرا. ولكنها كانت تفتقر إلى «نكهة» و«حياة» أتمتع بها في موسكو والحياة بين الروس. ففي موسكو تشعر بالناس وبنبض الحياة وبالمشاعر الإنسانية التي كانت هلسنكي تفتقر إليها. وفي هلسنكي كنت أحس أنني معزول عن العالم، وهو الأمر الذي لم أشعر به أبدا في موسكو، ففيها كنت على ارتباط بالحياة السياسية والثقافية وكنت أحس فيها أنني قريب من مصر، ولم تنقطع عني أخبارهم. ولم يكن ذلك يرجع فقط إلى معرفتي باللغة ولكن إلى أن المجتمع في موسكو كان أكثر ثراء من جميع النواحي.

وفي مرة وحيدة في أثناء عملي في هلسنكي عقد مؤتمر دولي وجاء وفد من مصر اشترك فيه أحمد بهاء الدين وتحسين بشير. وبخلاف ذلك لم أكن ألقى مصريين أو عربا خلاف من كانوا يعملون معي في المجلس.

ومع ذلك فمن الناحية المادية كان وضعي أفضل كثيرا مما كنت فيه في موسكو بحيث إنني في مدة عملي التي لم تكن تزيد على ثلاثة شهور استطعت إدخار مبلغ استطعت منه شراء سيارة مستعملة عند عودتي إلى موسكو، وذلك حين وجدت في البريد عرضا من أحد الدبلوماسيين الآسيويين يعرض فيه بيع سيارة بمبلغ كنت قد استطعت ادخاره في تلك الفترة. وكانت سيارة فولكس «حمراء». ولم أكن في حاجة إلى سيارة في موسكو. ولكن زوجتي كانت تلح عليّ دائما بأن أشتري سيارة. ولم أكن قد تعلمت قيادة السيارات. فاتفقت مع سائق روسي يعمل عند أحد الدبلوماسيين في السفارة المصرية لتعليمي القيادة. وعند سفري إلى القاهرة كان هو الذي قاد السيارة إلى مرسيليا وقام بإجراءات شحنها إلى الإسكندرية.

حرب أكتوبر ١٩٧٣

بعد أن قضيت ثلاثة شهور في موسكو وصل تلكس من رفعت السعيد يخطر

المجلس بانتهاء عملي وحلول بهيج نصار مكاني. وقد أخبرني شاندرا بهذا التغيير وكان يحدثني وهو متضايق. وكان الاتفاق في الأصل ثلاثة شهور فقط. ولكني كنت أفضل أن أقوم بتبليغ سكرتارية المجلس بذلك.

جاء بهيج وسلمته العمل وعدت إلى موسكو.

وطلبت من المسئولين في دار التقدم أن أنتقل لسكن صغير بدلا من الشقة الكبيرة في شارع جوركي بعد عودة أسرتي إلى القاهرة. فأعطوني حجرة واحدة ومطبخا في حي يدعى «فودني ستاديون» بقيت فيه إلى حين عودتي إلى القاهرة.

وبعد عودتي إلى موسكو عقد مؤتمر كبير بدعوة من حركة السلام وحضره وفد كبير من مصر كان فيه الدكتور محمود القاضي عضو مجلس الشعب وحسين فهمي وعدد آخر. وفي أثناء المؤتمر وصلتنا أخبار عبور القناة والمعارك في سيناء وانتصارات القوات المصرية ثم جاءت أخبار الثغرة والمعارك في السويس والجسر الجوي الأمريكي لمساعدة القوات الإسرائيلية وأذيع نداء السادات يدعو فيه الاتحاد السوفيتي للتدخل، وبدأ المسئولون في المؤتمر وممثلون عن الحكومة السوفيتية يسألون الوفد المصري عن رأيه في التدخل السوفيتي فأبدينا موافقتنا على التدخل. وبدأت القوات السوفيتية في التحرك إلى مصر وظهر خطر المواجهة الأمريكية السوفيتية. وفي هذا الوقت صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. وبدأت سياسة الخطوة خطوة بين كيسنجر والسادات ومفاوضات الكيلو ١٠١ وهو الأمر الذي لم يسترح له السوفييت وأبدوا انتقادهم لذلك. وكان الخبراء السوفييت يرون أنه كان من الضروري التقدم حتى الممرات.

وكان الاستعداد لحرب أكتوبر قد بدأ منذ هزيمة ٦٧ . ووضعت خطة عبور القناة في عهد جمال عبد الناصر ونفذت في عهد السادات في أكتوبر ١٩٧٣ .

وكان لمظاهرات الطلبة والضغط الشعبي دور كبير في قيام حرب أكتوبر. وبعد تحقيق العبور والتدخل الأمريكي والجسر الجوي الذي أرسلوه مبررا لإعلان السادات أنه لا قدرة لنا على محاربة أمريكا ثم بدأ في تغيير التوجه بالاتفاق مع كيسنجر.

وقد سبق حرب أكتوبر افتعال أزمة مع الخبراء والمستشارين السوفييت وطردهم. وتم التحول كليا بعد الحرب واتفاقات الكيلو ١٠١ وسياسة الخطوة خطوة والتي تطورت بعد ذلك إلى زيارة القدس واتفاقية كامب ديڤيد والانتقال تماما إلى معسكر الولايات المتحدة الأمريكية والعداء للاتحاد السوفيتي.

الزواج الثاني

سبق أن تحدثت عن الظروف غير العادية التي تم فيها زواجي الأول. الحياة السرية، وانقطاعي الطويل عن الحياة الإنسانية والعلاقات البشرية العادية بسبب ظروف السجن والهرب والهجرة والعودة السرية التي استمرت ما يقرب من عشر سنوات. وتحدثت أيضا عن ظروف زوجتي الأولى التي كانت تريد الهرب من قسوة أبيها والاستقلال عنه. وتحدثت عن الطريقة التي تزوجت بها وإخفاء شخصيتي الحقيقية ووضعي عن أبيها وأسرتها وكان ذلك بتوصية من ليلى زوجتي الأولى. وعندما عرف وضعي واسمي رحب بالزواج. رغم أنه تم في البداية بشكل تآمري.

وبعد زواجنا لم نعش بشكل طبيعي، فقد كنت أحيا حياة شبه سرية بسبب الحكم الصادر ضدي بخمس سنوات. واستمر هذا الوضع لمدة سنة كاملة ثم أصبحت حياة اختفاء كامل بعد حملة يناير ١٩٥٩ فاتفقنا من أجل الأمان أن تترك المنزل وتعيش في منزل والدها ولا نلتقي إلا مرة في الأسبوع بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة. ثم اعتقلت في ١٢ مايو ١٩٥٩ . وبقيت في المعتقل خمس سنوات. كانت في هذه الفترة تعمل مدرسة في مدرسة إعدادية. وكانت تكتب لي عن الظروف المعيشية والاقتصادية الصعبة. وكونت صداقات مع بعض زوجات المعتقلين مثل زوجة عبد الستار الطويلة وتصادق يوسف مع ابنه الذي كان في مثل سنه ومع خطيبة محمد عمارة الذي كان محكوما عليه بالسجن وكان معي في الواحات فكانت تأتي معها لزيارته وتعرف أخباري ولم يكن لي باعتباري معتقلا حق الزيارة بخلاف محمد عمارة الذي كان مسجونا وكنت أعرف من محمد عمارة أخبارها وأخبار يوسف. وكان لها أصدقاء مثل صلاح چاهين وسيد مكاوي

وسيد حجاب وغيرهم.

ورغم الظروف غير العادية التي تزوجنا فيها وعشناها معا فقد أحسست في المعتقل بأن لي زوجة وأسرة أفتقدها وأحبها وأريد الخروج من السجن لبناء حياة أسرية طبيعية لم أتمتع بها بعد. وكانت تراودني الأحلام والآمال بقيام هذه الأسرة.

وبعد الإفراج عني بدأت لأول مرة بعد أكثر من خمسة عشر عاما أحاول الحياة بشكل طبيعي باسمي الحقيقي وعلاقات علنية بالمجتمع والناس. وبدأت أرتب حياتي الجديدة.

وبدأت على الفور في العمل وشرعت في إنشاء «مكتب يوليو للترجمة والنشر والتوزيع» وبعدها بعدة شهور عملت محررا في وكالة أنباء الشرق الأوسط وفقا للتوزيع الذي قررته السلطات لتشغيل الخارجين من المعتقلات. ونجحت في اجتياز الأربعة مواد المتبقية للحصول على شهادة ليسانس الحقوق عام ١٩٦٥ .

وبعد أن انتظمت في العمل طلبت من أخي أحمد أن يتوقف عن المعونة التى كان يقدمها لكي أبني حياتي بشكل مستقل.

كنت متشوقا لحياة أسرية هادئة يسودها التعاون، وأن أشترك مع زوجتي في بناء هذه الأسرة من جميع النواحي. وصدمت بأن ما أملت فيه لم يتحقق.

هذا لا يعني أنني أخلو من السلبيات وأنه لا مسئولية عليّ في فشلنا للحفاظ على هذه الأسرة خصوصا بعد أن رُزقنا في يناير ١٩٦٩ بابنة جميلة ووديعة سميناها «نادية». ولكننا لم نستطع رغم المحاولات الإبقاء على استمرار تلك الأسرة مع ما يترتب على ذلك من آثار سلبية على الأبناء.

بعد مولد نادية بأسبوع سافرت إلى موسكو وانتظرت حتى سبتمبر لمجئ الأسرة. وكنت أنتظر وصولها وتوقعت في موسكو أن نعيش حياة فيها نوع من التعاون والاستقرار ونعالج السلبيات التي كنت أعانيها في مصر.

وكان عملي بالترجمة في المنزل. أرسلنا نادية إلى دار الحضانة وكنا نستلمها

في نهاية الأسبوع. وتراكمت عليّ أعباء العمل وأعباء الأسرة لأنني كنت الوحيد الذي أعرف اللغة الروسية.

وتعرفنا بعدد من المبعوثين وبعدد من الروسيات. تميزت من بينهن فتاة أنهت الجامعة وأصبحت مهندسة كيماوية. وكانت فتاة شديدة الحيوية والنشاط. كانت شديدة الحب للأطفال وتعلقت بها «نادية ابنتي» التي كانت في البداية لا تتكلم إلا الروسية التي تعلمتها في دار الحضانة. وزرنا أسرتها وتعرفنا على أبيها وأمها وأخيها وعرفنا معها المسارح والباليه الروسي وعلمتنا التزحلق على الجليد وأصبحنا نحب الشتاء الروسي. وموسكو جميلة في الشتاء رغم أن درجة الحرارة تصل إلى ٣٠ تحت الصفر وأقل من ذلك وأحيانا تصل إلى ٤٠ تحت الصفر.

وأصبحنا أصدقاء لهذه الفتاة ولأسرتها نزورها وتزورنا وكانت تسكن في حي يُدعي اسماعيلوفا تحيطه الغابات. وكانت تقطن في الدور الخامس في شقة من ثلاث حجرات ومطبخ وحمام أو حجرتان وصالة حسب العرف المصري. وتقول أنها في طفولتها كانت تسكن في شقة أخرى مع عدد من الأسر الأخرى. وكانت مدينة موسكو مغلقة على سكانها. ولا يسجل بها قاطنون جدد إلا من يتزوجون من أهلها أو يعملون بها. وكان سكان موسكو حوالي ١٠ ملايين نسمة وحجمها أكبر من القاهرة. ولولا هذه القيود المفروضة على المسجلين بموسكو لضاقت بسكانها. وكانت هناك عملية بناء مستمرة في موسكو وضواحيها ولكل أسرة تاريخ معين وشروط معينة لتنتقل إلى شقة مستقلة فى ارتباط ببناء مساكن جديدة. وبهذه الطريقة قضوا على أزمة السكن. فلا أحد بلا سكن. ولا أحد ينام على الأرصفة كما نجد في البلاد الأخرى حتى أكثرها تقدما مثل لندن وباريس ونيويورك وغيرهما.

كان كل أفراد أسرة «نادية» أو «ناديجدا» يعملون. الأب والأم يعملان في المصانع والأخ يعمل سائقا ونادية تعمل في إحدى المؤسسات. وكانت الوحيدة في الأسرة التي حصلت على شهادة جامعية. والروس يطلقون على من تسمى «ناديجدا» اسم «نادية» وينطقونه بشكل مختلف بعض الشيء عنا، فيطيلون نطق

المقطع الأول «نا» ويخطفون المقطع الثاني. وبفضل هذه الفتاة تعرفنا جيدا على موسكو وحياتها الثقافية (المسارح ـ الباليهات ـ المتاحف إلخ) وتعرفنا على جمالها الطبيعي (غاباتها ـ أنهارها ـ بحيراتها إلخ).

وكانت الأسرة رغم بساطتها ومحدودية دخلها شديدة الكرم. إذا ذهبنا لزيارتها أفرغوا الثلاجة وقدموا كل ما عندهم. ويكونون سعداء بوجودنا. ويأكلون ويشربون معنا وهم يلقون كلمات التحية والترحيب والتمنيات الطيبة على عادة الروس.

توثقت العلاقات بيني وبين نادية، وطلبت مني أن أساعدها في تعلم اللغة الفرنسية وكانت تأتي إلينا أسبوعيا في مواعيد منتظمة. أما علاقتي بليلى فأخذت تزداد فتورا. ووصلنا إلى وضع توقفت فيه علاقاتنا. وسافرت إلى مصر وتركت لي نادية وكانت في الرابعة من عمرها ويوسف كان في الثالثة عشرة من عمره.

وأثناء وجود ليلى في القاهرة مرضت ابنتي نادية بالأنفلونزا وارتفعت حرارتها إلى الأربعين. فاستعنت بالصديقة الروسية نادية فلم تتركها وقدمت لها كل أنواع العلاج الشعبي الذي يتقنه الروس واستمرت ثلاثة أيام إلى أن شفيت تماما.

كل هذه العوامل جعلتني أفترق عن زوجتي الأولى ليلى وأرتبط بنادية الروسية. واتخذت الخطوات للارتباط بها بالزواج وهو الأمر الذي لاقيت في سبيله صعوبات كبيرة سواء من البيروقراطية السوفيتية أو أجهزة الأمن المصرية. فالإدارة السوفيتية كانت تتطلب للموافقة على الزواج موافقة دولة الزوج أي المباحث العامة التي كانت ترفض الموافقة وتوصلت في وزارة الخارجية إلى معرفة التأشيرة التي برروا بها رفضهم «أن المصريين الذين كانوا متزوجين من مصريات وكان لهم منهن أولاد لا يسمح لهم بالزواج من بنات الكتلة الشرقية خاصة حفاظا على روابط الأسرة!» ولكن كل هذه العراقيل سواء من البيروقراطية السوفيتية أو تعنت أجهزة المباحث لم تمنعنا من الزواج الفعلي ولم تستطع هذه العراقيل غير المفهومة وغير الإنسانية أن تقف في طريقه. وأثمر هذا الزواج ولادة الابنة «أناستاسيا» في ٤ فبراير ١٩٧٤

واحتاج التغلب على العقبات البيروقراطية والبوليسية إلى حوالي تسع سنوات حتى أمكن لزوجتي نادية وابنتي أناستاسيا أن تحصلا على تأشيرة للحضور إلى مصر.

وزاد من صعوبة هذه العلاقة أنني اعتقلت عام ٧٧ ثم ٧٩ ثم ٨١ ومنعت من السفر ولم يسمح لي بالسفر إلا عام ١٩٨٢ حين لجأت إلى مساعدة اللجنة المركزية للحزب لمساعدتي في التغلب على العقبات البيروقراطية التي كانت تشترط ضرورة موافقة دولة الزوج. أما بالنسبة للاعتراضات الأمنية في مصر. فقد لجأت إلى زوج أختي الدكتور عصمت سيف الدولة المحامي الذي كان يتولى شئوني القانونية فطلب اللقاء مع وزير الداخلية في ذلك الوقت (أبو باشا) واستطاع إقناعه بجمع شمل الأسرة. وبهذا حصلت أسرتي على تأشيرة الدخول إلى مصر.

وقبل زواجي كانت أسما حليم تزورني في «دار الثقافة الجديدة» لأننا كنا ننشر لها إحدى رواياتها. ودار الحديث معها عن حياتي الشخصية بعد فشل زواجي الأول. وقالت إنني محتاج إلى إنسانة تساعدني في حياتي.

وقد وجدت هذه الإنسانة بزواجي الثاني. فنحن نلتقي تماما في فهمنا للحياة وتحديد أهدافنا منها. نحن لا نبحث عن المادة والغنى. ورغم أنها لا تشتغل بالسياسة ولا تهتم بها إلا أنها يمكن أن تعيش وتتكيف في أي ظروف. وهي تحب الناس وتحب مساعدتهم حسب قدراتها في غير إسراف. وهي حريصة على بيتها وتعمل على جعله مكانا مريحا جميلا. مدبرة وتستطيع توفير الحياة الكريمة بأي مبلغ مهما كان قليلا. وتتفهم الظروف المادية الصعبة التي نعيشها وتقدر وتتفهم التزاماتي العامة التي تأخذ الجزء الأكبر من دخلنا الضئيل أصلا.

وهي مع ذلك ليست مستكينة بل تجد حلولا لكثير من المشاكل الحياتية. وهي تحب العمل، وتعمل طول اليوم. إذا طلبتها لعمل معين خارج المنزل قامت به على أحسن وجه. وقد جربتها في أثناء المعارض فكان إنتاجها يساوي عددا من العاملين مجتمعين من حيث السرعة والإتقان.

ليس لها متطلبات خاصة إلا أن يكون بيتها وزوجها وابنتها في أحسن حال.

وهي تعمل في البيت مادمت لا أطلبها للعمل في الخارج. ومع ذلك فيومها كله عمل مستمر وتحل المشاكل المعيشية بأقل التكاليف. وقد أكبرت فيها موقفها من أمها التي تعدت الثمانين. فرغم أنها تعيش بعيدة عنها في موسكو. فهي تفكر فيها وتعمل على مساعدتها وتشعر بالتزامها تجاهها، وتعمل على حل مشاكلها وهي بعيدة عنها. حاولت مرات إقناعها لكي تعيش معنا فكانت الأم ترفض لأنها تريد أن تموت في وطنها.

كل هذا وغيره من الصفات الحميدة قوى من روابطنا وحبنا كل يوم أكثر من اليوم الذي سبقه.

***

(٧)

العودة إلى الوطن

كان ذلك في عام ١٩٧٤ وكان الأولاد يوسف ونادية قد سبقاني في السفر إلى القاهرة. ودخل يوسف المدرسة الثانوية في مصر الجديدة. أما نادية فقد كانت في الرابعة من عمرها وكانت تتكلم أساسا اللغة الروسية ولكنها نسيت بعد ذلك هذه اللغة بعد أن دخلت المدرسة وتصادقت مع الأطفال المصريين وانتظمت بعد ذلك في مدرسة الليسيه الفرنسية بباب اللوق.

قبل سفري إلى موسكو كنت قد وكلت كلا من الصديقين مبارك عبده فضل وفاروق ثابت بممارسة أعمال الدار. وبعد عودتي بدأت أمارس مسئوليتي في الدار من جديد. وتعاون معنا إبراهيم عبد الحليم لفترة في قضايا النشر وصدرت عن الدار بعض أعماله وصدرت بعض الأعمال بالتعاون مع السوفييت والمجر. ونجح إبراهيم عبد الحليم في اجتذاب تعاون بعض كبار الفنانين والكتاب مثل حسن فؤاد الذي أصبح مستشارا فنيا للدار. وكذلك صلاح حافظ الذي اشترك في إصدار كتابات مجرية.

وكان أمل إبراهيم عبد الحليم أن يعيد إنشاء دار الفكر من جديد. وقام بعدة محاولات في هذا السبيل. ولكن قامت أمامه عقبات وعمل بعد ذلك في دار الهلال وأشرف هناك على إصدار «دراسات اشتراكية» بالاتفاق بين دار الهلال ومجلة «قضايا السلم والاشتراكية» التي كانت تصدر من براغ عن الأحزاب الشيوعية والعمالية.

وعمل معنا صنع الله إبراهيم لفترة. وقد دعوته للعمل بعد أن أنهى دراسته في

(١)

الخروج من السجن

خرجت إلى الشارع واستوقفت سيارة «تاكسي» من أمام السجن الحربي في مصر الجديدة وطلبت منه التوجه إلى شارع إسماعيل أباظة المتفرع من شارع قصر العيني. صعدت إلى شقتنا في المنزل رقم ١٢ أ بالدور الخامس، ضغطت جرس الباب. فتح يوسف ولم يكن قد بلغ الخامسة بعد. وعرفني وأخذته بين أحضاني، كانت زوجتي ليلى ترقد في سريرها تعاني من «حصوة» في الكلية. فوجئت بدخولي ورحبت بي.

كنت مشتاقا بعد هذه الغيبة الطويلة. والحقيقة أننا لم نعش معا إلا سنة تقريبا. فقد تزوجنا في ٨ يناير ٥٨ . وكانت الحملة ضد الشيوعيين واتفقنا أن تعيش في منزل والدها. ولم نكن نلتقي إلا في فترات متباعدة وبعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة.

كنت مشتاقا أن أحيا حياة طبيعية، في أسرة، مع زوجتي وابني، وهو الأمر الذي افتقدته كثيرا. فحتى بعد زواجنا والفترة القصيرة التي عشناها معا، كان عليّ أن أعيش متخفيا وباسم آخر.

والتقيت بإخوتي لأول مرة منذ فترة طويلة بشكل علني. وقد عانوا ـ وخصوصا أختي سعاد ـ فترة السجن والإضراب عن الطعام والهرب والتعذيب وفرحوا أخيرا بخروجي. وأبدى الجميع استعدادهم لمساعدتي. وكان أخي أحمد يساعد زوجتي أثناء اعتقالي. ولكنها كانت تشكو لي دائما في خطاباتها إليّ في السجن من أن المساعدة لا تكفيها. وقد تضايق إخوتي أن بعض النقود التي كانت تأخذها من أخي أحمد لترسلها لي كأمانات في السجن كانت لا ترسلها لي

موسكو وعاد إلى مصر فقدم مشروعا بإصدار «روايات الثقافة الجديدة» وأشرف على إصدارها. وصدر منها بالفعل عدة أعمال منها «العدو» لكاتب أمريكي اسمه «چيمس ستيوارت» وترجمة صنع الله إبراهيم، وصدر «رسول من قرية تميرة» تأليف محمود دياب و«صدمة طائر غريب» لكمال القلش و«الخماسين» لغالب هلسا و«في الصيف السابع والستين» لإبراهيم عبد المجيد و«يحدث في مصر الآن» ليوسف القعيد و«التاجر والنقاش» لمحمد البساطي وغيرهم.

وصدرت في هذه الفترة الطبعة الأولى من رواية جمال الغيطاني «وقائع حارة الزعفراني»، وقال لنا وقتها أنه يهمه أن تصدر روايته عن دار الثقافة الجديدة وأنه متنازل عن حقوقه.

وبالإضافة إلى سلسلة روايات الثقافة الجديدة تولى صنع الله الإشراف على النشر فاقترح عددا من الكتب منها «قصة السوفييت مع مصر» الذي تولاه فيليب جلاب وقام بعدد من الأحاديث مع كبار السياسيين الذين تعاملوا مع السوفييت والذي أثبتوا بشهادتهم كذب الدعاية التي كانت قد استفحلت في هذه الفترة والتي كانت بأمر من السادات تحاول تلطيخ سمعة السوفييت والتعاون معهم.

وقد وصل الاستياء من صدور هذا الكتاب أنه في أثناء سفري في هذه الفترة إلى بيروت فتشت في المطار تفتيشا دقيقا للبحث عن هذا الكتاب.

وقد نجحت الدار في عقد اتفاقيات مع بعض المؤسسات في موسكو لتوسيع نشاطنا في التعاون. فعقد اتفاق مع مؤسسة فنشتورجازدات التي كانت الوسيط بين دور النشر السوفيتية والدور الأجنبية. وعن طريقها أصدرنا عدة مؤلفات بالتعاون مع دار التقدم ودار مير ودار نوفستي. وعقد أيضا اتفاق مع مؤسسة مجدونارودنايا كنيجا لتوزيع الكتب السوفيتية واتفاق مع مؤسسة كولتورا المجرية لتوزيع الكتب والاسطوانات الكلاسيكية المصنعة في المجر. ولأول مرة تشترك مؤسسة كولتورا المجرية في معرض القاهرة الدولي للكتاب في جناح دار الثقافة الجديدة بالمعرض. ومما يذكر أن دار الثقافة الجديدة تشترك في معرض القاهرة الدولي للكتاب منذ المعرض الأول الذي أقيم عام ١٩٦٩ . وهي مازالت تشترك بجناح مستقل لها حتى اليوم.

وأقامت الدار علاقات مع النقابات العمالية وقامت معها ببعض الإصدارات وتوزيع الكتب. ولكن من سلبيات هذه الفترة أنه لم تصدر كتب خاصة بالدار مستقلة وهو الأمر الذي كنا نحرص عليه باستمرار. هذا فضلا عن الامتناع عن سداد التأمينات الذي أدى إلى تراكم مبالغ كبيرة اضطررنا لسدادها بعد ذلك بفوائدها.

بعد عودتي ترك مبارك الدار لانشغاله بالعمل السياسي واستمر فاروق ثابت معنا مسئولا عن الشئون القانونية.

وكانت تعمل معنا في التنفيذ راوية عبد العظيم وفاطمة الديساوي وقد ساعدهما كثيرا حسن فؤاد وإبراهيم عبد الحليم وعمل معنا في المكتب والتوزيع المخرج مراد منير والفنانة عبلة كامل وعدد كبير من الشبان والفتيات عملوا في دار الثقافة الجديدة في مراحل حياتهم الأولى.

دار الثقافة الجديدة:

تشغل هذه الدار مرحلة هامة من حياتي وقد أسستها عام ١٩٦٨ بمساعدة معنوية من عدد من الأصدقاء والرفاق.

وتتميز دار الثقافة الجديدة وعمليات النشر التي سبقتها ومهدت لها بما يلي:

أولا ـ أنها استمرت أكثر من ٣٥ سنة.

ثانيا ـ أنها صمدت في وجه صعوبات هائلة أولها الصعوبات المالية ثم المضايقات الأمنية. مثل تهديد المكتبات التي كانت تقوم بتوزيع كتبنا وكان ذلك يحدث بالذات أثناء حكم السادات.

ثالثا ـ الاعتقالات المتكررة لي كل سنتين ابتداء من عام ١٩٧٧ ثم في عام ١٩٧٩وعام ١٩٨١ . وفي كل مرة كان يجري فيها اعتقالي لم تكتف أجهزة الأمن بتفتيش منزلي بل كانت تقوم بتفتيش الدار والاستيلاء على الآلات الكاتبة

سواء العربية أو الإنجليزية أو الروسية وآلات الطباعة التي كنا نستخدمها في عملنا بالدار وذلك فضلا عن أي عدد من الكتب والأوراق التي يريدون الاستيلاء عليها. وفي عام ١٩٨١ بقيت في السجن ٩ أشهر وبعد اغتيال السادات في أكتوبر ١٩٨١ حولت معتقلا وأودعت مع زملائي في سجن «أبو زعبل». وكان هذا كله يؤثر على عمل الدار.

ومع ذلك وفي ظل هذه الظروف الصعبة صمدت الدار لأكثر من ثلاثين عاما. وأصدرنا عددا من المؤلفات والتراجم التي تميزنا بها وأصبحت تحدد توجه الدار ورسالتها.

وأصدرت الدار ما يربو على ٥٠٠ إصدار ومن أهم الإصدارات التي تميزنا بها:

(١) ثلاث طبعات من «المعجم الفلسفي» للدكتور مراد وهبة نفدت بالكامل.

(٢) ثلاث طبعات في السبعينيات من كتاب «هذا الانفتاح الاقتصادي» للدكتور فؤاد مرسي والذي كشف هذه السياسة التي بدأ تطبيقها في السبعينيات وكانت تعني التخلي عن سياسة التنمية المستقلة وفتح الباب على مصراعيه لنهب ثروات البلاد. وهي السياسة التي مازلنا نعاني منها ومن تطوراتها التي اتخذت الآن اسم «الاصلاح الاقتصادى». وقد نفدت طبعتان من هذا الكتاب كل طبعة ٥٠٠٠ نسخة.

(٣) ومن أول أعمال صنع الله إبراهيم التي مازالت تلقى رواجا حتى الآن رواية «تلك الرائحة» مع مقدمة ليوسف إدريس. وحدثت مشاكل مع الرقابة بالنسبة لهذه الطبعة الأولى. وقد صدرت من هذه الرواية عدة طبعات أخرى في دور نشر أخرى في مصر والبلاد العربية وصدرت ترجمة لها باللغة الفرنسية.

(٤) صدر لصنع الله إبراهيم أيضا عن دار الثقافة الجديدة الطبعة الثانية من «نجمة أغسطس» التي أعيد طبعها في بيروت وكذلك «التجربة الأنثوية».

(٥) وأصدرنا لنعمان عاشور الطبعة الأولى من مسرحية «وباحلم يا مصر».

(٦) وأصدرنا لنجيب سرور الطبعة الأولى من مسرحيته الشعرية «منين أجيب ناس». وأصدرنا له أيضا «هكذا قال جحا».

(٧) وأصدرنا لأحمد فؤاد نجم الطبعة الأولى من ديوانه «عيون الكلام».

(٨) وأصدرنا لفؤاد حداد أعمال هي «الشاطر حسن» و«الحمل الفلسطيني» و«الشرط نور».

(٩) أصدرنا لغالب هلسا الطبعة الأولى من «الخماسين» و«وديع والقديسة ميلاده وآخرون».

(١٠) أصدرنا لصلاح حافظ «يا مكاتب الحكومة» لنقد البيروقراطية الحكومية.

(١١) صدر للدكتور عاصم الدسوقي كتاب «كبار ملاك الأراضي الزراعية، ودورهم في المجتمع المصري».

(١٢) صدر لعلي سالم الطبعة الأولى من مسرحية «عملية نوح».

(١٣) صدر «الديمقراطية والناصرية» لطارق البشري.

(١٤) «جرماتي» لنبيل سليمان. الطبعة الأولى.

(١٥) كشك الموسيقى «لمجيد طوبيا».

(١٦) وأصدرنا لرفعت السعيد «اليسار المصري والقضية الفلسطينية». وكذلك «تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر». و«تاريخ المنظمات اليسارية في مصر». وأغلب مؤلفاته عن «تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر» في مختلف مراحلها.

(١٧) أصدرنا في قضايا الزراعة والفلاحين عددا من المؤلفات مثل كتابين لفتحي عبد الفتاح باسم «القرية المصرية» و«القرية المعاصرة».

أصدرنا للدكتور علي بركات «تطور الملكية الزراعية وأثره على الحركة السياسية». وغيرها من الأعمال.

و«توزيع الفقر في القرية المصرية» و«الصراع الطبقي في القرية المصرية» لعبد الباسط عبد المعطي. وغيرها من المؤلفات.

(١٨) وأصدرنا لمحمود أمين العالم «الوعي والوعي الزائف» و«مفاهيم وقضايا إشكالية» و«الماركسيون المصريون والقضية العربية» وأعدنا نشر كتابه مع الدكتور عبد العظيم أنيس «في الثقافة المصرية».

(١٩) أصدرنا عن الصهيونية وقضايا السلام في الشرق الأوسط عددا من المؤلفات والتراجم الهامة مثل: كتاب الدكتورة عواطف عبد الرحمن عن «الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤» وترجمنا وأصدرنا كتاب الكاتب الأمريكي هايمن لومر «الصهيونية ودورها في السياسة العالمية». و«بيجن وقضايا العنف والسلام» لمحمد مصطفى بكري. و«الفاشية في ظل النجمة السداسية» ليفجيني يفسييف و«أطول الحروب ـ الغزو الإسرائيلي للبنان» جاكونيوتيرمان ترجمة مجدي نصيف و«الصهيونية على لسان قادتها» ليونيل واوياتي و«يهودي في القاهرة» لشحاتة هارون. «والسوفييت والصهيونية» ترجمة سعد رحمي ومحمد الجندي و«العلم الأحمر هل كان يرفرف هناك» (جويل بنين) ـ و«فجر الزمن القادم» (عبد الله الطوخي) ـ و«ثلاث مسرحيات عن الانتفاضة» (توفيق المبيض) ـ «وطني بلون الشفق» (مروان محمد برزق) ـ «مشروع بيريز خليل» (فؤاد مرسي) ـ و«المجمع الصناعي العسكري في إسرائيل» (د. فؤاد مرسي) ـ و«القطاع العسكري في الاقتصاد الرأسمالي» (د.فؤاد مرسي) ـ و«النظام العربي والنظام الشرق أوسطي» ـ و«تحولات المجتمع في الرواية الفلسطينية» (رئيفة شيلاق) ـ و«من أجل سلام عادل في الشرق الأوسط (هنري كوريل) ـ و«الطريق إلى چنيف ومخططات الصهيونية» ـ (مصطفى كمال) ـ «اليسار المصري والقضية الفلسطينية» (د. رفعت السعيد) ـ «شبهات حول الثورة الفلسطينية» (عبد القادر يس) ـ «نظرية الأمن الإسرائيلي» (صلاح زكي) و«الثورة الفلسطينية/ التاريخ/ الواقع/ المستقبل» (صلاح زكي) ـ «يوميات تحت القصف» (سمير عبد الباقي) ـ و«فلسطين في مواجهة الصهيونية والامبريالية» و«كمال ناصر صوتان وجرح واحد» لرضا الطويل.

(٢٠) سلسلة الأدب الفلسطيني وتشمل ١٧ كتابا لمؤلفين مثل محمود

درويش وأميل حبيبي وفدوى طوقان وفيصل حوراني ورشاد أبو شاور وغيرهم.

(٢١) وأصدرنا عدة سلاسل مثل كراسات الثقافة الجديدة وأشعار الثقافة الجديدة والمكتبة الشعبية وإسلاميات وقضية للحوار.

(٢٢) أصدرنا مجلة غير دورية باسم «الثقافة الجديدة» صدر منها عددان، الأول خرج إلى النور ووزع أما العدد الثاني فقد منعته المباحث العامة في المطبعة بحجة أنه مجلة يجب أن تحصل على ترخيص.

وكان صمود الدار واستمرارها هذه السنوات الطويلة وفي هذه الظروف عملية في غاية الصعوبة احتاجت لتضحيات وجهد كبير. وساعدنا في البداية الاتفاقيات مع المؤسسات السوفيتية مثل نوفوستي ومجكنيجا وفنشتورجازدات.التي أصدرنا معها عددا كبيرا من الكتب كنا نختارها بأنفسنا ونصدرها مختارين الموضوعات التي تهمنا وبالشكل والعناوين التي تلائمنا. وكان الاتفاق قبل ذلك مع دار التحرير التي كان همها الوحيد أن تربح من هذه الإصدارات فكانت تصدرها بعناوين لا تساعد على توزيعها وبأسعار تعطي الانطباع بأنها منشورات للدعاية. وقد تثقف كثير من الشباب على هذه المطبوعات التي كانت تعالج قضايا اقتصادية وفلسفية وتاريخية وسياسية هامة وترجمنا وأصدرنا بعض مؤلفات ماركس وانجلز ولينين وغيرها من المؤلفات التي تعالج قضايا الاشتراكية والتحرر الوطني والسلام.

وأقامت الدار علاقات واسعة سواء في داخل مصر أو خارجها. فأقمنا علاقات مع السودان وسوريا ولبنان والعراق والأردن والكويت والشارقة وتونس والجزائر وفرنسا والاتحاد السوفيتي وغيرها من البلاد. وأصبح اسم الدار محترما في كل هذه البلاد. وأصبحنا نشتهر فيها بأننا نلتزم بالثقافة الجادة ولا ننحدر إلى الإسفاف والابتذال ومتطلبات السوق التي تلجأ إليها دور النشر الأخرى جريا وراء الربح.

لم أكن أحصل على أي أرباح من دار الثقافة الجديدة. ففي أثناء وجود السحرتي كان كل منا يحصل على مرتب ٣٠ جنيها، وبعد انفـرادي بالإدارة ١٩٦٨ كنت أكتفي بمرتب الوكالة. وفي يناير ١٩٦٩ سافرت إلى موسكو وفترة

وجودي هناك لم أحصل على أي ربح من الدار فكان العائد إن وجد يوجه لمرتبات الموظفين ولإعادة الإنتاج. وعندما عدت استمر هذا الوضع حتى الآن. وكانت أي مبالغ تصلني من أي مصدر آخر - (أخبار اليوم أو بيع منزل ورثته عن والدي بزفتى أو خلافه) لم أكن أحصل منها إلا على الضروري لحياة متواضعة، وخلاف ذلك كنت أضعه في الدار بحيث بلغت المبالغ التي أقرضتها للدار حتى الآن حوالي ٢٠٠ ألف جنيه مصري.

وفي بعض الفترات حدث بعض الانتعاش بفضل الاتفاقيات مع المؤسسات السوفيتية أو مع اتحاد الكتاب الفلسطينيين فإن العائد من هذا كنا نوجهه إلى المزيد من الإصدارات التي كنا نخطط لها. وبعد انتهاء الاتحاد السوفيتي وانتهاء الاتفاق مع اتحاد الكتاب الفلسطينيين مرت علينا أزمات مالية شديدة بحيث كانت تدور بخاطري فكرة تصفية الدار. ولكنني في كل مرة كنت أستبعد هذه الفكرة وأصر على استمرار الرسالة التي بدأناها.

لماذا لم تحقق الدار أرباحا؟

من الصعب على دور النشر اليسارية أن تحقق أرباحا خصوصا مع فترات الحصار والملاحقة التي مرت بها دار الثقافة الجديدة إلى جانب أنني لم أتفرغ لها بشكل كامل ولم يكن هدفي الأساسي المتاجرة والربح. ففي الفترة الأولى كنت أجمع بينها وبين العمل في الوكالة وذلك إلى جانب العمل السياسي الذي كنت أوليه الاهتمام الأكبر.

وقد مر بهذه التجربة عدد من الدور اليسارية مثل «دار القاهرة» التي أسسها كمال رفعت ولطفي واكد ودار شهدي التي أسستها حنان شهدي ابنة شهدي عطية والتي أدارها رؤوف مسعد والتي اضطرت بعد فترة قصيرة إلى إغلاق أبوابها وتصفية عملها.

وأعتقد أن استمرار دار الثقافة الجديدة لأكثر من ثلاثين عاما رغم الظروف الصعبة هو إنجاز لم يتم إلا مقابل تضحيات كبيرة.

***

(٨)

عودة المنظمات الشيوعية

كنا صادقين عندما قبلنا العمل داخل التنظيم الطليعي الذي أسسه جمال عبد الناصر داخل الاتحاد الاشتراكي، والذي أشار إليه في الميثاق باسم الجهاز السياسي، وكان كثيرون ممن اختيروا في التنظيم ـ وأنا منهم ـ معزولين سياسيا ولم يكونوا قد قبلوا بعد أعضاء في الاتحاد الاشتراكي، وكان التنظيم الطليعي في بداية تكوينه يضم مجموعات بقيادة أشخاص مقربين لجمال عبد الناصر. وقد ارتبط أغلب أعضاء حدتو الذين قبلوا بمجموعة أحمد فؤاد. وارتبط البعض الآخر بمجموعة خالد محيي الدين مثل رفعت السعيد وارتبط البعض الآخر بمجموعة مجدي حسنين مثل أحمد الرفاعي. وارتبط محمود العالم وحسن فؤاد بمجموعة سامي شرف.

وعندما قررنا الانضمام إلى التنظيم الطليعي لم يكن في نيتنا أبدا التخلي عن مبادئنا وأفكارنا، ففي داخل التنظيم كنا ندافع عن آرائنا ومواقفنا وكنا نناضل ضد العناصر التي كنا نعتقد أنها تعمل ضد مصالح الكادحين الذين كنا نعبر عن مصالحهم. وكنت أعمل في الأقاليم ودخلنا في معركة ضد أمين محافظة الغربية في الاتحاد الاشتراكي والذي نعتقد أنه كان أيضا عضوا في التنظيم الطليعي. وكنا نستفيد من خبرتنا السابقة في العمل في الأقاليم، وكنا نجوب المدن والقرى وندافع عن مواقفنا والتي كانت تتفق مع المواقف التي كان يعلنها جمال عبد الناصر في خطبه وفي الميثاق وغيره من المطبوعات. وكنا نعتبر أن هناك قوى في السلطة تعادي الاشتراكية وتعادي الشيوعيين علينا أن نكشفها ونقف ضدها. ولكن هذه القوى كانت أقوى منا داخل السلطة وتنظيماتها ومنها التنظيم الطليعي. وقد حافظ

جمال عبد الناصر على علاقاته بهذه القوى وشغلت مواقع هامة رغم أننا لم نكن نشغل أي مواقع بل كما سبق أن ذكرت كنا معزولين عن الاتحاد الاشتراكي. وبعد ذلك شغل بعض زملائنا بعض المواقع مثل محمود أمين العالم الذي أصبح رئيسا لدار النشر الحكومية الأساسية والتي أصبحت تسمى بعد ذلك الهيئة المصرية العامة للكتاب ثم أصبح بعد ذلك رئيسا لمؤسسة أخبار اليوم. وكانت بعض العناصر من المجموعة الأخرى التي كانت تقف ضد عبد الناصر أثناء وجودها في السجن مثل إسماعيل صبري وفؤاد مرسي والتي ارتبطت بمحمد حسنين هيكل شغلت أيضا مواقع هامة. وعندما صدر قرار بإعادة الشيوعيين المفرج عنهم إلى العمل وتشغيل من لا عمل لهم. عمل بعض الشيوعيين في الصحف المختلفة. وكان لطفي الخولي قريباً من حسنين هيكل فكلف بتأسيس مجلة «الطليعة» في إطار مؤسسة الأهرام وجمع فيها عددا من الشيوعيين المصريين، وقد اختار أغلب العناصر من المجموعة الأخرى ولم يعمل معه من مجموعتنا إلا رفعت السعيد. وقد حاول سامي شرف أن يعمل إبراهيم عبد الحليم في الأهرام، وحدد له موعدا مع محمد حسنين هيكل الذي لم يقبل عمله هناك. وكذلك الأمر بالنسبة لي فقد حاول ذلك جمال العطيفي الذي كان يحاول مساعدتي وبذل في ذلك جهدا ولكنه فشل ولم يقبل هيكل عملي في الأهرام رغم علاقة الصداقة الوثيقة التي كانت تربط بينه وبين أخي أحمد.

وأذكر أنني التقيت بلطفي الخولي بناء على اقتراح من عصمت سيف الدولة لكي أعمل في الطليعة ولكنه أفهمني أن مثل ذلك القرار لابد أن يوافق عليه هيكل الذي قد يقبل التعاون مع عناصر كانت له علاقة بها وبأسرها مثل محمد سيد أحمد ونبيل الهلالي. ولكنه لن يقبلني.

وقد عينت بعد ذلك في وكالة أنباء الشرق الأوسط بعد لقاءات تمت بين مندوبينا وأحد العاملين المسئولين عند زكريا محيي الدين والتقينا بعد ذلك مع عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء في ذلك الوقت وبعد ذلك استلمت عملي في أ.ش.أ. وقد سبق أن تحدثت عن ذلك.

تحدثت من قبل عن الاجتماعات التي كنا نعقدها بحضور كمال عبد الحليم وزكي مراد ومبارك عبده فضل وإبراهيم عبد الحليم للتباحث فيما يمكن أن نفعله في الأوضاع الجديدة. ولم يكن يخطر ببالنا أن نتخلى عن أفكارنا ومبادئنا أو أن نتوقف عن العمل السياسي. وفي أحد الاجتماعات قدم زكي مراد اقتراحا بإعادة تكوين الحزب. اعترض عليه كمال أما أنا فلم أحسم أمري.

ويبدو أن زكي ومبارك بدآ بعد ذلك مع غيرهما في إعادة التنظيم وبشكل شديد السرية وكان ذلك في عام ١٩٦٧ . وظهرت في نفس الوقت حلقات أخرى قام بها ميشيل كامل وغيره والتي تبلورت بعد ذلك فيما كان يسمى الشروق. ثم كانت هناك محاولات أخرى من جانب آخرين.

وتكونت هذه الحلقات في جو نما فيه عدم الثقة بين الشباب والكبار واتهامات بحل الحزب والخيانة. واحتاج الأمر إلى وقت طويل لتعود الثقة بين الشباب والقدامى.

وقد كان ذلك أمرا هاما لأن الشباب كانوا في حاجة إلى خبرة القدامى ليستفيدوا من الإيجابيات ويطوروها ويتركوا السلبيات ويستخلصوا منها الدروس. أما أسلوب رفض القديم فيضطر الشباب لبدء المسيرة من البداية وتكرار نفس الأخطاء.

وقد راجت لفترة طويلة ومازالت مستمرة حتى الآن الاتهامات للقدامى بأنهم حلوا الحزب واعتبروا ذلك خيانة. وكان موقفي دائما ورأيي أن الموقف الذي اتخذه التنظيمان الرئيسيان والذي شمل كل الشيوعيين في ذلك الوقت والذي سميناه وقف التنظيم المستقل لم يكن يهدف إلى وقف النشاط أو الاستسلام رغم أن البعض وصل إلى ذلك. ورغم كل سلبيات هذا القرار. إلا أننا كنا نعتقد أنه القرار الضروري في تلك الفترة لتحقيق وحدة القوى الاشتراكية ولمساندة جمال عبد الناصر في معركته ضد الرجعية والاستعمار وفي دفعه إلى الأمام في الطريق إلى الاشتراكية.

أما أسلوب الإدانات والذي اتبعه البعض وسجل بعد ذلك في وثيقة الوحدة التي تمت بين التنظيمات الثلاثة فكان موقفا سلبيا ويعبر عن الكسل في العمل الفكري الجاد لتحليل ما تم والاستفادة من هذا التحليل للانطلاق إلى الأمام.

لحاجتها إليها في المعيشة قد أزعجني كثيرا الشعور بحاجتها للمال، ولكنني كنت أجد حرجاً في طلب المساعدة من أخي.

.. ها قد خرجت أخيرا وعليّ أن أدبر حياتي. وكنت أمتلك ١٣ فدانا من الأرض الزراعية في منطقة أبو الصير في السنبلاوين. بعت منها ثلاثة أفدنة إلى أختي عايدة بعد بلوغي سن الرشد بقليل وأعطيت ثمنها إلى الحزب. وحاولت بيع الباقي فلم أنجح إلى أن قبض عليّ عام ١٩٤٩ . وكان إيراد هذه الأفدنة لا يكفي وحده للانفاق على حياتي اليومية. وكنت قد تركت أموري المالية لأخي أحمد طوال فترة سجني وهربي. وقد حدد لي مبلغا شهريا ٣٠ جنيها إلى أن أدبر أموري. وقد توقفت عن أخذ هذا المبلغ منه بعد أن أسست «مكتب يوليو للترجمة والنشر والتوزيع» وبدأ يدر عائدا كنت أحصل منه على هذه الجنيهات الثلاثين شهريا.

***

في عام ١٩٧١ اتخذت الخطوات الأولى في التوحيد السياسي بين أهم الحلقات الشيوعية الثلاثة ورفضت بعض الحلقات الأخرى هذه الوحدة. وتشكلت القيادة المركزية الموحدة بعدد متساو من الحلقات الثلاثة، دون اعتبار لحجم عضوية كل حلقة.

وصدرت جريدة «الانتصار» التي اعتبرت لسان حال هذا الكيان الجديد واستمرت بعد تأسيس الحزب. وقد اختير هذا الاسم نسبة إلى الجريدة التي كانت تصدر في بور سعيد رمزا للمقاومة هناك أيام الغزو الثلاثي واحتلال بور سعيد.

في أول يناير ١٩٧٥ أضرب عمال حلوان. وفي صباح ٣ يناير تمت حملة اعتقالات واسعة ضد الشيوعيين الذين اتهموا بالتخريب والتحريض على الإضراب وقامت حملة تضامن مع المعتقلين وارتفعت أصوات قوى عربية للتضامن مع المحتجزين.

وفي أول مايو ١٩٧٥ أعلن تأسيس «الحزب الشيوعي المصري». وأخطرت الأحزاب الشقيقة بذلك. وأصبحت جريدة «الانتصار» لسان حال الحزب الجديد.

ولأول مرة منذ حزب العشرينيات تكونت علاقات أممية مع الأحزاب الشيوعية العربية ثم مع غيرها من الأحزاب الشيوعية في الخارج.

وإلى جانب الحزب الشيوعي المصري وجدت حلقات شيوعية أخرى من أهمها الحلقة التي تطورت فيما بعد إلى «حزب العمال الشيوعي المصري». وكانت كلها من الشباب الجديد الذي كان يرفض أي علاقات مع القدامى. وليست عندي معلومات تفصيلية عن بداية وتطور هذا الحزب. وكان هناك تنظيم يسمى «٨ يناير» وهذا التنظيم يرمز إلى تاريخ إعلان الحزب الشيوعي المصري بعد وحدة الحزب الشيوعي المتحد وحزب العمال والفلاحين في ٨ يناير ١٩٥٨ .

ولكن الحزب الشيوعي المصري هو الذي لعب الدور الأساسي في إعادة التكوين الشيوعي وضم عناصر من القدامى وغالبية من الشباب خصوصا من بعض قيادات منظمة الشباب التي كانت تعمل في إطار الاتحاد الاشتراكي.

وقد سافرت إلى موسكو في يناير ١٩٦٩ بعد أن كانت المحاولات الأولى لإعادة التنظيم قد بدأت ولكنني لم أشارك فيها، فقد كانت تتم بحذر شديد.

وقبل أن أذهب إلى موسكو أو في إحدى زياراتي للقاهرة دعيت إلى لقاء دافعت فيه عن التمسك بالعمل داخل الاتحاد الاشتراكي، وتحدثت ضد إعادة الأحزاب. وكنت متأثرا في ذلك الوقت بالممارسة التي كانت تتم في كثير من البلدان التي تحررت.

وقد التقيت مع ميشيل كامل في إحدى زياراته لموسكو فحدثني عن محاولات جديدة لإعادة التنظيم تضم عددا من العناصر المقبولة والمحترمة من الجميع. وقد كان ميشيل يعمل لفترة مديرا لتحرير مجلة الطليعة. واستطاع في هذا المكان أن يقيم علاقات داخلية وخارجية ثم سافر في أوائل السبعينيات إلى بيروت ثم إلى باريس واستقر هناك.

دور الحزب الشيوعي المصري وحركته:

كان للحزب الشيوعي المصري بعد نشأته دور فعال سواء داخل مصر أو خارجها وبالذات في إطار توجهه لخلق جبهة واسعة وتحالفات مع كل القوى والتيارات السياسية التي وقفت ضد الردة والانقلاب على التوجه الوطني لجمال عبد الناصر.

ورغم إعلان أنور السادات بعد توليه أنه سيسير على خطى عبد الناصر وأخذ لفترة يكرر نفس التوجهات والشعارات بل وبشكل أكثر تطرفا مثل المشاركة في الاحتفال بمولد لينين ومثل عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي، ولكنه بعد ذلك أسفر عن توجهه الحقيقي وقد تمثل ذلك في أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ ثم في مساندته الفعلية للنميري في أحداث السودان وإعدام عبد الخالق محجوب والشفيع وغيرهما من الشيوعيين والوطنيين. وكانت العلامة البارزة في هذا التحول هي في صدور القانون الذي أرسى سياسة ما كان يسمى بالانفتاح الاقتصادي وفي

طرد الخبراء السوفييت والحملة ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية والتحول نحو أمريكا وعقد صفقة كامب ديفيد وما تبعها من إجراءات.

وقد وقف الحزب الشيوعي المصري مع غيره من القوى الوطنية ضد هذه السياسة.

وقد شارك الحزب في انتخابات مجلس الشعب في ١٩٧٦ وحقق نجاحات رغم الحرب الشديدة التي شنت ضده.

وأيد قيام حزب التجمع عام ١٩٧٦ الذي تكون في البداية كمنبر لليسار داخل الاتحاد الاشتراكي ثم تحول إلى حزب بعد حل الاتحاد الاشتراكي وضم مختلف فصائل اليسار من شيوعيين وناصريين وقوميين واشتراكيين والتيار الإسلامي المستنير وكانت تجربة هامة سأتحدث عنها فيما بعد.

وشارك الحزب مشاركة نشيطة في انتخابات النقابات العمالية والنقابات المهنية (محامون ـ صحفيون) وأحرز نجاحات في تلك النقابات.

وتكونت علاقات جبهوية بين الحزب الشيوعي المصري وأحزاب وقوى وأفراد. وأخذ نطاق هذه الجبهة الفعلية يتسع مع استمرار سلطة السادات في تصعيد خط الردة والتخلي عن الخط الوطني والسير في طريق التبعية للاستعمار الأمريكي والتعبير عن مصالح العناصر الطفيلية المستفيدة من سياسة الانفتاح الاقتصادي التي فتحت الباب على مصراعيه أمام سرقة ونهب ثروات البلاد أمام رأس مال الأجنبي وأعوانه من الأغنياء الجدد الذين لم يردعهم أي رادع في البحث عن الثروة بأي طريق مضحين بمصالح الوطن والشعب. وقد رحبت العناصر والقوى المنتفعة سواء من أضيرت مصالحهم بإجراءات ثورة يوليو أو من المنتفعين الجدد بهذا الطريق الجديد. ونظمت حملة في أجهزة الأعلام ضد جمال عبد الناصر وضد الاشتراكية.

ومن الملاحظ أنه في عهد عبد الناصر في الستينيات وفي بداية عهد السادات

كان التغني بالاشتراكية هو الموضة فأصبح الكثيرون يزعمون أنهم اشتراكيون حتى نفر من أعتى الرجعيين. وهذه هي شيمة الوصوليين وقد ظهر انعكاس ذلك عندما تحولت المنابر إلى أحزاب وسمح بتكوين الأحزاب وأصبح حزب السلطة يُسمى حزب مصر الاشتراكي ـ ومنبر اليمين يسمى حزب الأحرار الاشتراكيين ـ وتكون حزب العمل الاشتراكي. أما منبر اليسار فلم يحتج إلى أن يقرن كلمة الاشتراكية باسمه فأصبح اسمه هو حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي. ونص الدستور القائم حتى الآن بأن النظام في مصر نظام اشتراكي. وشيئا فشيئا أخذ التخلي عن الاشتراكي يتم لا فعلا فقط بل وقولا أيضا. ولم يبق من ذلك إلا المدعي الاشتراكي الذي لا علاقة له بالاشتراكية.

ومما له دلالته أيضا عندما أنشئ الحزب الوطني الديمقراطي (حزب السلطة) انتقل إليه كل أعضاء حزب مصر الاشتراكي (تقريبا).

وكان الحزبان الوحيدان اللذان وقفا ضد الردة واستمرا يدافعان عن الاشتراكية كهدف والدفاع عن منجزات جمال عبد الناصر وتطويرها هما الحزب الشيوعي المصري وحزب التجمع.

وناضل هذان الحزبان ضد التحول للتبعية لأمريكا والخضوع للمخططات الأمريكية. فوقفا وحدهما في البداية ضد اتفاقية كامب ديڤيد ومعاهدة الصلح مع إسرائيل ثم انضم إليهما بعد ذلك حزب العمل والأحرار والإخوان المسلمون وغيرها من القوى.

وفي بداية السبعينيات دعم أنور السادات الإخوان المسلمين والجماعات الدينية ليحارب بها اليسار الذي كان له تحرك ملحوظ في الجامعة حيث تكونت اللجان الوطنية. وقامت الإضرابات والمظاهرات والاعتصامات ضد الموقف المتخاذل من السادات لبدء معركة تحرير سيناء. فغذى الاخوان المسلمين بالمال والسلاح لمحاربة اليسار. ثم تحولت هذه الجماعات نفسها ضد السادات بعد ذلك.

موقعي من هذه الأحداث:

سبق أن ذكرت أنني لم أشارك عام ١٩٦٧ في المحاولات الأولى لإعادة بناء التنظيم الشيوعي بعد اللقاءات التي سبق الحديث عنها وقدم فيها زكي مراد تقريرا عن إعادة بناء الحزب. وبعد ذلك استمرت الاتصالات بطريقة تتسم بالحذر الشديد. أما أنا فكنت أعمل في دار يوليو ثم دار الثقافة الجديدة. وكنت ممن رفع العزل السياسي عنهم مثل باقي زملائنا. وأصبحت عضوا في الاتحاد الاشتراكي في وكالة أنباء الشرق الأوسط ورشحت نفسي لانتخابات الاتحاد الاشتراكي في الوكالة وساندني البعض ولكني لم أوفق. وأصدرنا من الدار عددا من المطبوعات السياسية لتحديد موقفنا السياسي مثل «٢١ أكتوبر ثورة الشعب السوداني» تأييدا لثورة السودان وقد صدر الكتاب بتوقيع مجموعة يتصدرها أحمد فؤاد وأحمد حمروش وزكي مراد ومحمد خليل وقاسم وأنا. ثم أصدرنا كتابا بعنوان «الشعب والقائد» لمساندة جمال عبد الناصر في الاستفتاء على رئاسته وأيدناه في هذا الاستفتاء. وأصدر ت مع زكي مراد كتابا باسم «المسألة التشيكوسلوفاكية ـ وجهة نظر عربية» وذلك في عام ١٩٦٨ في فترة ما يسمى بربيع براغ ـ وقد أيدنا تدخل الاتحاد السوفيتي مع دول حلف وارسو.

في أوائل السبعينيات عرفت بالوحدة بين الحلقات الثلاثة. وقالوا لي أن ميشيل كامل هو مسئول العمل في الخارج وكان قد استقر في باريس. لم أرحب بذلك. ولكنني كونت مجموعة في موسكو من بعض المبعوثين، وكانت لي علاقة بأحد المبعوثين في لندن كنت ألتقي معه عند زياراتي للندن. وكنت أذهب إلى هناك من وقت لآخر للقاء أخي أحمد الذي كان يقيم هناك. وكان المبعوثون الذين كنت ألتقي بهم في موسكو يقومون بدور بارز في اتحاد الطلبة، وعندما عادوا إلى مصر أصبح كثير منهم شخصيات بارزة في المجال العلمى وفي الجامعات وتلقى آراؤهم ومقالاتهم في الصحف المختلفة تقديرا واحتراما. وكنت على علاقة وثيقة بالسفارة المصرية وبالسفراء المتعاقبين بدءا بالدكتور مراد غالب إلى حافظ إسماعيل. وكانوا جميعا مؤمنين بضرورة تدعيم العلاقات المصرية السوفيتية حتى في الفترة التي تدهورت فيها تلك العلاقات. وكان منزلي في شارع جوركي محطا للوفود المختلفة

(مثل حركة السلام والتضامن الآسيوي الأفريقي وغيرهما). وقد سمح لي وضعي كمراسل لمؤسسة أخبار اليوم في إقامة علاقات واسعة سواء بالمنظمات السوفيتية أو السفارة أو الوفود المختلفة التي كانت تصل من مصر في مختلف المجالات. وكنت على علاقة وثيقة بالمركز الثقافي المصري ورئيسه الدكتور أسامة الخولي وبعده الدكتور صبحي عبد الحكيم. وكانت لي علاقة مع عدد من الصحفيين والكتاب السوفييت مثل يفجيني بريماكوف وإيجور بيلابيف وغيرهما وبمعهد الاستشراق ومعهد أفريقيا. وكانت كتاباتي لأخبار اليوم تعكس دائما مواقفي وتوجهاتي. حتى في وقت تدهور العلاقات المصرية السوفيتية أثناء حكم السادات.

كانت صلتي بالحزب في هذا الوقت لا تتم إلا عندما يزور أحد المسئولين في القيادة لموسكو فأعرف منه الأخبار. وعندما عدت إلى القاهرة اتصلت بزملائنا. ولاحظت وجود عدد من المثقفين والصحفيين المرموقين يعملون معنا. ولكن علاقتهم بنا انقطعت بعد ذلك لعدم الحرص على الحفاظ على هذه العلاقات.

وفي لقاء مع زكي مراد قلت له أن الحزب يجب أن يولي دار الثقافة الجديدة ومسئوليتي فيها دورا أكبر، وباعتبار مسئوليتي عن هذه الدار كنت أتوقع أن أكون في اللجنة المركزية والمكتب السياسي. فقال لي أنه سعيد لسماع ذلك.

كان زكي مراد يقوم بدور هام في القيادة وفي النشاط الحزبي ولهذا كان مقتله في حادث سيارة في طريق مصر الإسكندرية في ديسمبر ١٩٧٩ خسارة فادحة.

وأثيرت شكوك حول تدبير هذا الحادث.

الجبهة الوطنية الديمقراطية:

كان خط الجبهة الوطنية الديمقراطية من أبرز خطوط الحزب الشيوعي المصري في ذلك الوقت، وكان العمل الجبهوي دائما وفي تاريخ الحركة الشيوعية المصرية وعلى مدى تاريخها من أهم مميزات التيار الثوري فيها. وتميز دائما بالعمل للوحدة بين مختلف التنظيمات والحلقات الشيوعية، ومن أجل وحدة كل قوى اليسار، ووحدة كل القوى الوطنية والديمقراطية.

ولكي تتحقق هذه الجبهة كان من الضروري وجود خط واضح تلتقي حوله هذه القوى الوطنية والديمقراطية. ومن أهم القضايا التي كانت تتطلب التحالفات والعمل المشترك الموقف من الاستعمار والامبريالية، وكان هذا الموقف قد تحدد على نطاق الحركة الوطنية المصرية في نضالها في البداية ضد الاستعمار البريطاني حتى تحررت الأراضي المصرية بشكل كامل. وسارت مصر في عهد عبد الناصر على خط وطني يقوم على رفض حلول الاستعمار الأمريكي محل الاستعمار البريطاني والعمل على تحقيق الاستقلال الاقتصادي بتمصير الشركات البريطانية والفرنسية ثم قرارات التأميم عام ١٩٦١ التي بدونها لم يكن ممكنا مواصلة الخط الوطني ورفض الضغوط الأمريكية للانضواء في إطار المخططات الإمبريالية الأمريكية لتحقيق انضواء المنطقة العربية والشرق الأوسط تحت العباءة الأمريكية والاستعمارية وتوجيهها ضد الاتحاد السوفيتي. وكسرت مصر احتكار السلاح والمؤامرات الأمريكية لمنع بناء السد العالي وتصنيع مصر. وكان النضال ضد العدوان الإسرائيلي واستخدام إسرائيل كقاعدة للاستعمار في الشرق الأوسط لتنفيذ مخططاته يشغل الشعوب العربية عن تحقيق تنميتها وإهدار مواردها.

كان نضال الحزب الشيوعي المصري ضد خط الردة الذي سار عليه أنور السادات والذي ربط سياسة مصر بالمخططات الأمريكية. والتي كانت تهدف إلى عزل مصر عن باقي الشعوب العربية وعن حركات التحرر الوطني في العالم. سميت اتفاقية كامب ديڤيد ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل مبادرات سلام. وذلك في الوقت الذي كان يجري فيه الإعداد لمؤتمر دولي يعقد في چنيف يشترك فيه الاتحاد السوفيتي إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية والذي كان من المفروض أن يتم فيه التفاوض مع إسرائيل تحت رقابة دولية تمارس الضغط على إسرائيل.

أما كامب ديڤيد فقد أدت إلى عزل مصر عن شقيقاتها العربيات. وأصبحت المشاركة الدولية الوحيدة هي مشاركة أمريكا ربيبة إسرائيل وحاميتها.

وقد أدت كامب ديڤيد إلى إضعاف الموقف العربي فتبعها ضرب المفاعل النووي العراقي ثم العدوان على لبنان واحتلال جنوب لبنان وغزو العراق للكويت

التي أدت للتواجد الأمريكي المكثف في الخليج، وزيادة الانقسام بين العرب ثم انهيار الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي، وزيادة التشدد الإسرائيلي، وبدء المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية تحت المظلة الأمريكية وفي إطار المصالح الأمريكية.

وكان الحزب الشيوعي المصري واضحا في وقوفه ضد هذا المخطط. ولهذا فإنه عندما عارض كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية لم يكن ينطلق من موقف معادٍ للسلام فنضال الشيوعيين المصريين من أجل السلام وتاريخ هذا النضال معروف، وكانت القوى الرجعية تستخدم هذا النضال لتشويه الشيوعيين واتهامهم بالصهيونية. لأنهم كانوا يناضلون من أجل السلام العادل لا السلام الأمريكي الذي يتم في إطار الأهداف والمخططات الأمريكية ويخدم مصالحها.

ويعبر عن ذلك خطاب زكي مراد في التجمع بعد توقيع المعاهدة الذي قال فيه أنه قد تحددت الخنادق. ودعا كل القوى الوطنية إلى الوحدة ضد مخطط الخيانة.

واتخذ حزب التجمع موقفه ضد كامب ديفيد وتبعه بعد ذلك حزب العمل وسارت بعده كل أحزاب المعارضة في هذا الطريق والتقت جميعها ضد المخطط الأمريكي الساداتي وسارت على نفس الدرب نقابات وطنية وبعض اللجان النقابية والعمالية.

وكان السادات يعلن وقتها أنه يحارب الشيوعية داخليا وعالميا، وأعلن بلا خجل أنه يقف مع أمريكا.

ونذكر وقتها حديثه عن المخططات الشيوعية مثل افتعال قضية «التفاحة» وحديثه عن أن الشيوعيين هم الذين أحرقوا الأوبرا. وعن الإضرابات العمالية التي دبرها ١١ شيوعيا .. إلخ.

ولإدراك السادات أن الشيوعيين هم المبادرون في الوقوف ضد مخطط الردة. فكانت حملات الاعتقالات التي بدأت عام ١٩٧٥ بعد إضراب عمال حلوان ثم اعتقالات ١٩٧٧ بعد الانتفاضة الشعبية في ١٨، ١٩ يناير من هذا العام ثم حملة

اعتقالات ١٩٧٩ بعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل. ثم تصديه لبشائر الجبهة الوطنية الديمقراطية التي تمثلت في إجماع كل القوى والأحزاب السياسية ضد كامب ديڤيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية، فبدأ في يوليو بالحملة ضد الشيوعية التى تبعها في سبتمبر ١٩٨١ باعتقال رموز الحركة الوطنية في حملته الشهيرة التي كانت إيذانا بنهايته. وقد جمعت هذه الحملة مختلف قوى المعارضة من شيوعيين إلى إخوان مسلمين. ومن الشخصيات التي جمعتها هذه الاعتقالات محمد حسنين هيكل وفؤاد سراج الدين وعصمت سيف الدولة وغيرهم.

ومع نشر قانون العيب تشكلت جبهة معارضة شعبية واسعة لهذا القانون، شملت أحزاب المعارضة، واتسعت لتشمل قوى أخرى منظمة وغير منظمة مثل قضاة النقض ومجلس الدولة ونادي القضاة ومجلس إدارة النيابة الإدارية وهيئات التدريس بكليات حقوق الجامعات المصرية ونوادي هيئات التدريس بالجامعة ومؤتمر علماء المساجد بالإسكندرية، ثم شمل العمل الجبهوي بعد ذلك عددا كبيرا من الشخصيات المصرية البارزة (رؤساء وزراء سابقين وأعضاء مجلس الشعب سابقين وحاليين ومحامين وصحفيين وكتاب ورجال سياسة) أحدث موقف هذه الشخصيات دويا هائلا داخل مصر وخارجها.

وفي الأسبوع الأخير من مارس ١٩٨٠ بعد مرور عام على توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية وكرد فعل إيجابي لكل النضالات والأعمال والأشكال الجبهوية في داخل البلاد تشكلت الجبهة الوطنية في الخارج. وضمت الحزب الشيوعي المصري والتيارين الناصري والديني وبعض المستقلين أبرزهم الفريق سعد الدين الشاذلي.

***

(٩)

١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧

الهبة الشعبية في ١٨ و١٩ يناير هي رد فعل لنتائج وثمار سياسة الردة التي عبر عنها أوضح تعبير القانون الصادر في ١٩٧٤ والذي يفتح الباب على مصراعيه أمام القوى في الداخل والخارج للكسب والتربح ولو على حساب الغالبية الكادحة من الشعب المصري. ومن بين نتائج هذه السياسة تنفيذ توصيات صندوق النقد الدولي التي أدت إلى رفع أسعار الحاجيات الأساسية ومن بينها الخبز ورفع الدعم المقرر لصالح الاحتياجات الأساسية للجماهير العاملة.

في هذا اليوم انطلقت المظاهرات في كل المدن في وقت واحد تردد نفس الشعارات وترفع نفس المطالب ـ ويفرض حظر التجول وتنزل القوات المسلحة إلى الشارع ويسقط خلال يومين طبقا لبيانات الحكومة ـ ٧٩ قتيلا و٢١٤ جريحا.

كيف بدأت الأحداث؟ يقول تقرير اللواء أحمد رشدي مدير أمن القاهرة والمرفوع للسيد المستشار إبراهيم القليوبي (النائب العام) بتاريخ أول فبراير ١٩٧٧ .

«بدأت أحداث الشغب بمدينة القاهرة صباح يوم الثلاثاء ١٨ يناير ١٩٧٧ في حوالي الساعة ٨,٣٠ صباحا، بخروج عمال شركة مصر/ حلوان للغزل والنسيج بتحريض العاملين بالشركة، في مظاهرات أخذت تطوف بمنطقة حلوان مرددة هتافات عدائية ضد سياسة الحكومة وقرارات رفع الأسعار والقيادة السياسية. ونجح المتظاهرون في إخراج بعض عمال المصانع الأخرى الكائنة بالمنطقة..»

وتضيف جريدة الأهرام الحكومية «وتصدت لهم قوات الأمن المركزي عند طرة حيث أوقفتها وتوقفت وسائل المواصلات بين حلوان والقاهرة، بسبب قطع الحجارة الضخمة التي تناثرت على الطريق».

(٢)

مكتب يوليو

فى الواحات كان قد جرى حديث بيني وبين رفيقنا زكي مراد حول العمل بعد الإفراج. واقترح عليّ أن أنشئ مكتبا للترجمة والنشر مثل ذلك المكتب الذي كان قد أنشأه الشهيد شهدي عطية قبل اعتقاله. وقد أعجبتني الفكرة. وبدأت بعد خروجي أُعد لهذا المشروع.

كان أول خاطر فكرت فيه هو ترجمة الأعمال الأساسية في الماركسية اللينينية (أعمال ماركس وإنجلز ولينين) إلى اللغة العربية. فقد كانت التراجم قليلة. فضلا عن أن المترجم منها عن طريق دار التقدم ترجمته سيئة للغاية. وقد احتكر أحد اللبنانيين هذه التراجم وبرع مع المراجعين الروس في إخراج هذه الكتب السيئة الترجمة.

ولكن قبل كل شيء يجب إنشاء كيان قانوني أتحرك مس خلاله. فمثلا لابد من عمل سجل تجاري.

قمت باستخراج هذا السجل لمنشأة أسميتها «مكتب يوليو للترجمة والنشر والتوزيع»، واسم «يوليو» كان اقتراح الاسم من الصديق كمال القلش. وذلك لربط اسم المنشأة بثورة يوليو. وكان رأس مالها ١٠٠ جنيه وأعطيت عنوان المقر بحجرة مكتبي في المنزل الذي كنت أقطن فيه (١٢ أ شارع إسماعيل أباظة). وجاء مندوبان من الغرفة التجارية وعاينا المكان. واستخرجت سجلا تجاريا.

كنت أتحرك في البداية مع الصديق فؤاد عبد الحليم. قمت بترجمة أحد المؤلفات لشارل بتلهايم باسم «الاقتصاد السوفيتي» وسلمت الترجمة إلى أحمد

ويواصل مدير أمن القاهرة وصفه للأحداث في تقريره للنائب العام فيقول:

«تم عزل منطقة حلوان عن باقي أنحاء المدينة ولكن أمكن لبعض المتظاهرين التسلل إلى وسط المدينة. وفي حوالي الساعة ١,٣٠ بدأت مظاهرة من كلية الهندسة جامعة عين شمس قوامها حوالي ٣٠٠ طالب من الدارسين بتلك الجامعة وأخذت مسارها من شارع الجيش متجهة إلى مجلس الشعب. وانضم إليهم عدد من العمال الذين تمكنوا من التسلل من منطقة حلوان. وبلغ عدد المتظاهرين أمام مجلس الشعب في الساعة ٤,٣٠ مساء، حوالي ٢٠٠ يرددون الهتافات العدائية».

ويضيف الأهرام «حاولت قوات الأمن المركزي تفريقهم فرفضوا، فاستخدمت القنابل المسيلة للدموع، إلا أن المتظاهرين عادوا للتجمع في ميدان التحرير ومنه إلى شارع سليمان حيث أحدثوا تلفيات بواجهات بعض المحال التجارية.

واتجهت مظاهرة أخرى إلى ميدان العتبة. وجرت محاولة إشعال النار في مبنى قسم الشرطة بالموسكي، وقسم السيدة زينب والدرب الأحمر، ومحاولة اقتحام مديرية أمن القاهرة بباب الخلق. وقذف قسم الساحل بشبرا بالحجارة وأطلقت النار».

وتقول روز اليوسف «في مجلس الشعب كان الدكتور علي السيد وكيل المجلس موجودا عندما وصلت مظاهرة ضخمة من الطلبة. طلب مقابلة وفد منها ومناقشته. اختار الطلبة عشرين ممثلا لهم. سمح بدخولهم وبينما هم في الداخل حدث اشتباك بين المتظاهرين وقوات الأمن المركزي..

وفي ميداني عرابي وطلعت حرب رفع المتظاهرون علم مصر. وناقشوا رجال الأمن المركزي حول الأسعار، لكسبهم إلى صف المظاهرة.

وفيما يلي أمثلة من هتافات المتظاهرين المعادية للحكومة:

ـ مش كفاية لبسنا الخيش
جايين ياخدوا رغيف العيش

ـ يا حكومة الوسط وهز الوسط
كيلو اللحمة بقى بالقسط

ـ يا حرامية الانفتاح
الشعب جعان .. مش مرتاح

ـ يشربوا ويسكي وياكلو فراخ
والشعب من الجوع أهو داخ
ـ الصهيوني فوق ترابي
والمباحث على بابي
ـ يا أمريكا لمي فلوسك
بكره الشعب العربي يدوسك
ـ احنا الطلبة مع العمال
ضد تحالف رأس المال
ـ احنا الشعب مع العمال
ضد حكومة الاستغلال
ـ عبد الناصر ياما قال
خلوا بالكو من العمال
ـ بالطول بالعرض
حنجيب ممدوح الأرض
ـ سيد مرعي .. ده يبقى مين
يبقى حرامي الفلاحين
ـ لم كلابك يا ممدوح
دم اخواننا .. مش حيروح
ـ يا أهالينا .. يا أهالينا
آدي مطالبنا .. وآدي أمانينا
أول مطلب يا شباب
حق تعدد الأحزاب
تاني مطلب يا جماهير
حق النشر والتعبير
تالت مطلب يا أحرار
ربط الأجر بالأسعار
ـ يا حاكمنا من عابدين

باسم الحق وباسم الدين
فين الحق وفين الدين؟
- هو بيلبس آخر موضة
واحنا بنسكن عشرة في أوضة
- يا حاكمنا بالمباحث
كل الشعب بظلمك حاسس
- قولوا للنايم في عابدين
العمال بيباتو جعانين

ظلت المظاهرات حتى مساء ١٨ يناير سلمية. ولكن فجأة وفي حوالي السابعة مساء وبعد الصدام المتكرر مع قوات الأمن المركزي، اتجهت الحوادث في بعض المواقع إلى العنف والتخريب.

وفي الإسكندرية وطبقا لبيان النائب العام وبيان وزارة الداخلية، اجتاحت مدينة الإسكندرية من حوالي التاسعة صباح يوم ١٨ يناير مظاهرات بدأت بعمال شركة الترسانة البحرية وانضم إليها عمال الشركات المجاورة وأخذوا يطوفون بشوارع المدينة ثم توجهوا إلى منطقة الكليات الجامعية، حيث انضم إليهم عدد من الطلبة.

وفي صباح ١٩ يناير وبعد قرار حظر التجول أكدت وزارة الداخلية أن الأمور عادت لطبيعتها وأنها وضعت يدها على القوى المحركة لهذه الأحداث .. «وتأكد لأجهزة الأمن أن العناصر الشيوعية التي تعمل في إطار شيوعي منظم، وبعض العناصر من الذين يسمون أنفسهم بالناصريين تصر على تصعيد الموقف وإحداث حالة من الفوضى لتنفيذ مخططها».

وامتدت المظاهرات والأحداث إلى المنصورة وقنا والمنيا وأسوان والسويس وأغلب مدن الجمهورية.

ولم تتوقف المظاهرات ومعارك الشوارع وعمليات التخريب إلا بعد إعلان الحكومة إلغاء قرارات رفع الأسعار. وإعلان حظر التجول ابتداء من الساعة الرابعة. ونزول وحدات من المشاه الميكانيكية وقوات الصاعقة والشرطة العسكرية إلى

الشوارع، واشتباكها في عدد من المواقع مع المظاهرات التي استمرت إلى ساعة متأخرة من الليل.

ويروى أن السادات كان في ذلك الوقت في أسوان وكان في حالة فزع شديد وبدأت تدور في ذهنه مشاريع للهرب من مصر.

موقعي في أحداث ١٨ و١٩ يناير:

كنت في مكتبي بدار الثقافة الجديدة عندما بدأت المظاهرات وزارنا في الدار الدكتور عصمت سيف الدولة زوج أختي وكان في غاية النشوة بسبب هذه المظاهرات وبسبب تطوراتها. وقد بدأت يوم ١٨ يناير وفي ١٩ يناير حدثت تطورات وبدأت عمليات تخريب وأقيمت متاريس في الشوارع. وفي المساء كنت أقود سيارتي «الفولكس» الحمراء، وكان معي بعض الأصدقاء أذكر منهم عادل حسين قمت بتوصيله إلى منزله وكان بالطريق عدد من الصبية يرشقون السيارات بالطوب وعندما رأوا سيارتي رشقوها أيضا.

ومنذ انفصالي عن زوجتي تركت لها الشقة التي كنا نقطن بها في شارع إسماعيل أباظة، وذلك في عام ١٩٧٥ وسكنت بعض الوقت في الدار ثم انتقلت إلى المنيرة ومصر الجديدة ثم عرض علي عصمت سيف الدولة أن أنتقل إلى شقة كان يستأجرها في منيل الروضة ولم يكن يستخدمها. وسكن معي ابني يوسف.

اتهمت السلطات الشيوعيين بأنهم وراء الأحداث. وبدأت اعتقالات بين الشيوعيين والناصريين وفي يوم ٢١ يناير مساء كنت في دار الثقافة الجديدة وكان معي في المكتب عبده جبير الذي كان يعمل وقتها في الدار، وجاء اثنان من رجال المباحث العامة يطلبانني وسألا عبده جبير عن اسمه وطلبا بطاقته فسلمها لهما فمزقها الضابط بفظاظة وقال له أنها بطاقة بالية لا تصلح. وفتشا الدار وأخذا بعض الكتب وآلات الطباعة، وسألاني عن سكني فأفصحت لهما عنه. فطلبا مني أن أقودهما إليه فذهبنا إلى شقة المنيل التي فتشاها ولم يجدا شيئا. وأثناء التفتيش

جاء يوسف ابني وكان يسكن معي. ثم طلبا مني أن أذهب معهما وسلمت إلى سجن الاستئناف. وجدت هناك عددا من المعتقلين ومن مختلف التنظيمات. وكان منهم حسين عبد الرازق وسمير عبد الباقي وكمال خليل وحليم طوسون وغيرهم. ومن الناصريين كان هناك محمد السلماوي وغيره وسكنت في زنزانة مع حسين عبد الرازق وهاني الحسيني.

وكانت المباحث العامة قد قدمت مذكرة إلى النيابة طالبت فيها بالقبض على ١٣٠ شخصا متهمين بالانضمام للحزب الشيوعي المصري و١١ شخصا تتهمهم بالانضمام إلى حزب ٨ يناير و١٢٠ شخصا متهمين بالانضمام إلى حزب العمال الشيوعي المصري و٦١ شخصا متهمين بالانضمام للتيار الثوري.

وأصدر رئيس نيابة أمن الدولة الإذن بالقبض عليهم جميعا. كان من بينهم من المحامين أحمد نبيل الهلالي وزكي مراد وسيد العشري ومحمود توفيق وفاروق ثابت ومن الصحفيين رشدي أبو الحسن ورفعت السعيد ومحمد رجائي الميرغني وميشيل كامل وإبراهيم عبد الحليم وزهدي العدوى وعبد القادر شهيب ومحمود أمين العالم وعبد المنعم القصاص وأنا وأستاذ جامعي هو الدكتور عبد المنعم تليمة والشعراء أحمد فؤاد نجم وزين العابدين فؤاد وحمدي عيد ومحمود الشاذلي ومن القيادات العمالية محمد على عامر وجودة سعيد الديب ونصيف أيوب وحسين أبو الخير وصابر زايد وإبراهيم سلامة وعطية السيد عياد وعدد من القيادات الفلاحية والمهنية. ووقعت مفاجأة غريبة أثناء تنفيذ المباحث لأوامر القبض التي استصدرتها نيابة أمن الدولة تبين أنه من بين المطلوب القبض عليهم في هذه القوائم «المرحوم الدكتور محمود القويسني» الذي توفى قبل الأحداث بأسبوع بينما مباحث أمن الدولة تهاجم منزله في الفجر وتطلب من زوجته الحزينة إيقاظ زوجها حيث إنه مطلوب القبض عليه.

وضمت القائمة أيضا ظريف عبد الله المحامي وهو يعمل في باريس منذ ٩ سنوات في الأمم المتحدة، وأحمد رفاعي ويعمل باليمن منذ ٣ سنوات.

اتهمت مباحث أمن الدولة والنيابة الشيوعيين والناصريين وبعض أعضاء حزب

التجمع بأنهم وراء أحداث ١٨ و١٩ يناير واعتقلت الأسماء التي قدمتها للنيابة ووزعتهم على السجون والمعتقلات بتهمة أثبتت المحاكمة بعد ذلك فسادها وأن المسئول عن الانتفاضة الشعبية التي قامت في ١٨ و١٩ يناير هو النظام الذي رفع أسعار المواد المعيشية الأساسية رغم وسائل الإعلام التي كانت تردد أن لا رفع للأسعار ومراعاة احتياجات الطبقات الشعبية. وقد اعتقل الجميع أو غالبيتهم الساحقة من بيوتهم ومقار عملهم بعد انتهاء الأحداث وبعد فرض منع التجول. وكان ذلك هو نهج السلطة الساداتية في رد فعلها على النتائج التي سببتها السياسة التي سمتها «الانفتاح الاقتصادي». وكان انفتاحا للسرقة ونهب ثروات البلاد وترك الحبل على الغارب للاغتناء غير المقيد على حساب معاناة الجماهير الشعبية. فإذا تحركت أي فئة شعبية للاحتجاج على ذلك اتهم الشيوعيون.

صحيح أن الشيوعيين وقفوا ضد سياسة الردة وضد الممارسات المختلفة التي كان يسير عليها السادات ضد مصالح الجماهير الشعبية، وكانوا يبينون أنها ضد مصالح الشعب والوطن. وقد كان لمواقفهم وتوضيحاتهم أثر في قيام الهبة الشعبية التي قامت. ولكن السبب الأساسي لهذه الهبة هو السياسة المعادية للشعب ومصالحه التي طبقها السادات.

وأنا لم أشترك في المظاهرات التي قامت في ١٨ و١٩ يناير ومع ذلك فقد اعتقلت من بين من اعتقلوا. وكان هذا هو الوضع مع الغالبية الساحقة من المعتقلين.

التقينا في سجن الاستئناف مع المعتقلين ونظمنا أنفسنا واقترحت أن يكون حسين عبد الرازق مسئولا باعتباره عضوا قياديا في التجمع.

ونظمنا حلقات دراسية وطلبوا مني أن ألقي محاضرات عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية. وقمت بإلقاء هذه المحاضرات على حلقات وكان الشباب يلقون أسئلة للاستفسار. وسألوني عن حل الحزب. فقلت لهم أننا لم نسمه حلا ولم نكن ننوي وقف النشاط ولم نوقفه. وقد سميناه إنهاء الوجود التنظيمي المستقل وأننا كنا نهدف إلى الوحدة مع عبد الناصر في تنظيم واحد يقوده. وقلت لهم أن الظروف

وقتها جعلت تنظيمنا «حدتو» والجميع تقريبا في التنظيمات الأخرى يقبلون هذا القرار.

كنت أردد أن نجاح الاستمرار الآن يعتمد على القدامى والجدد، وأن على الجدد أن يستفيدوا من خبرة القدامى، يستفيدوا من إيجابياتهم ويطوروها ويتركوا سلبياتهم، وأنه بدون ذلك فإنهم سيكررون نفس الأخطاء.

سررت أن عرضي لتاريخ الحركة الشيوعية أثار الاهتمام والكثير من الأسئلة.

كنت أواصل في السجن التمارين الرياضية التي أمارسها كل يوم واجتذبت معي بعض الوقت حسين عبد الرازق. وكان حسين عبد الرازق خارج الزنزانة يقضي أغلب الوقت مع محمد سلماوي. وفي الزنزانة كنا نتبادل الأحاديث في مختلف الموضوعات وطلبا مني أن أحكي لهم ذكرياتي. وقرأ لنا حسين رسالة وصلته من زوجته فريدة النقاش وكانت مكتوبة بلغة أدبية رفيعة وقال لي أنه كتب لها أن فكرته عني قد تغيرت في الاتجاه الإيجابي. وحدثنا عن أفكاره بالنسبة لإعادة تنظيم التجمع وطموحه لأن يكون رئيسا لتحرير الأهالي.

طلبت مرة وأنا في سجن الاستئناف إلى نيابة الأموال العامة بناء على دعوى من أخبار اليوم بأنني كنت أتلقى مرتبي لفترة بعد تركي مكان العمل في موسكو. وكانت أخبار اليوم قد أصدرت قرارا بفصلي لترك مكان عملي ورفضت اللجنة الثلاثية القرار وحصلت على قرار بصرف مرتبي المتجمع ولكن قرار اللجنة الثلاثية لم يكن في استطاعته إيقاف قرار الفصل.

١ أمام نيابة الأموال العامة حقق معي أحد وكلاء النيابة الذين كانوا يعملون في نيابة أمن الدولة وكان متعاطفا معي ووجد أن دعوى أخبار اليوم لا تقوم على أسانيد جادة فقرر حفظ التحقيق.

أمضيت في السجن شهرين ولم يدرج اسمي في قرار الاتهام وأفرجت عني النيابة وكان ذلك في مارس ١٩٧٧

جاء في تقرير المباحث المقدم للنيابة أنني عضو في اللجنة المركزية. ولم يكن ذلك صحيحا.

النشاط العملي:

كان نشاطي العملي يتركز أساسا في دار الثقافة الجديدة التي كنت أديرها منذ عودتي من موسكو. وكنت أمضي وقت العمل كله في الدار أو أسافر إلى المعارض الخارجية المختلفة أو للاتصالات بدور النشر والهيئات الخارجية الثقافية في الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية. وكان تعاوننا الأساسي مع المنظمات الثقافية السوفيتية وهي نوفوستي ومجكنيجا وفنشتورجازدات ودار التقدم ورادوجا المتخصصة في الكتب الأدبية ومير المتخصصة في الكتب العلمية.

وفي سبتمبر ١٩٧٧ اشتركت في معرض موسكو الدولي للكتاب ولم يكن البيع مسموحا به في المعرض ولكنه كان يهدف إلى إقامة اتصالات وعلاقات بالمؤسسات السوفيتية وغيرها. وقد اتصلت بقيادة دار نوفوستي للنشر التي كانت تنشر كتبها عن طريق دار التحرير وكانت الطباعة والأغلفة والعناوين تجعل القارئ يعتبرها كتبا للدعاية، رغم أنه كان بينها الكثير من الكتب الجيدة. وقد اقترحت عليهم أن أعقد معهم اتفاقا للترجمة والنشر ويكون لنا حق اختيار الكتب وتغيير العناوين بما يتفق مع ذوق القارئ المصري وأن تصدر باسم دار الثقافة الجديدة. على أن يحاسبونا على التوزيع وتكون لنا نسبة من التوزيع. وافقوا على ذلك ووقعنا عقدا وبدأنا العمل فصدر بمقتضى هذا الاتفاق عدد كبير من المؤلفات الجيدة باللغة العربية في مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والفلسفية والاجتماعية والأدبية والعلمية.

ومن أمثلة ذلك في الاقتصاد:

- الاقتصاد السياسي أسئلة وأجوبة تأليف ليونتيف والذي قام بترجمته الدكتور محمد رشاد الحملاوي وراجعه د. محمد رضا العدل.

ـ الاقتصاد السياسي ومشكلات القارة الأفريقية تأليف يوري بوبوف. وترجمة سعد رحمي.

ـ الاقتصاد السياسي ـ تأليف أبالكين.

ـ معونة أم استعمار جديد. ترجمة صنع الله إبراهيم

ـ النظام الاقتصادي العالمي الجديد. المؤيدون والمعارضون. ترجمة د. شهرت العالم

وصدر من الكتب الفلسفية:

ـ أسس الفلسفة الماركسية ـ أفاناسيف. ترجمة محمد مستجير مصطفى.

ـ الفلسفة الماركسية اللينينية ـ شبتولين.

ـ فلسفة التمرد ـ ادوارد باتالوف. ترجمة سامي الرزاز.

ـ تطور الاشتراكية من الخيال إلى العلم.

ـ علم النفس والاجتماع والتاريخ.

ـ الله. الانسان. الحرية.

ومن الكتب السياسية:

ـ الاستعمار الأمريكي في أفريقيا. ترجمة أحمد فؤاد بلبع.

ـ أسس المعارف السياسية. ترجمة حمدي عبد الجواد

ـ حول الأمم الغنية والفقيرة. ترجمة أحمد القصير

ـ بترول الخليج والقضية العربية ـ الكسي فاسيلييف. ترجمة محمد عطية فوزي.

ـ سقوط الامبراطورية الروسية. ترجمة أسما حليم.

ـ عن الجبهة ضد الفاشية ـ ديمتروف. ترجمة فؤاد عبد الحليم

ـ الفاشية في ظل النجمة السداسية. يفجيني يفسييف.

ـ المشكلات العرقية في أفريقيا الاستوائية ـ لي دوان.

ـ الثورة الفيتنامية. القضايا الجوهرية والمشاكل الرئيسية ـ لي دوان.

ـ السوفييت والصهيونية. ترجمة سعد رحمي ومحمد الجندي.

ـ الأمن الدولي وحقوق الإنسان.

واختارت الدار بالاتفاق مع مؤسسة العلوم الاجتماعية مقالات من مجلة العلوم الاجتماعية وأصدرت منها خمسة كتب.

ومن الأعمال الأخرى:

ـ مارتن لوثر كينج.

ـ سلفادور الليندي.

ـ ناصر ـ تأليف أجارتشييف.

ـ محاضر المجلس العام للأممية الأولى (١٨٦٦ ـ ١٨٦٨).

ـ مصر ونضالها من أجل الاستقلال ـ تأليف سيرانيان.

وقمنا بترجمة عدد من أعمال ماركس وانجلز ولينين مثل:

حرب الفلاحين في ألمانيا وحال الطبقة العاملة في انجلترا ـ وانجلز حياته وأعماله ـ والدولة في الماركسية وغيرها.

وفي النقد الأدبي:

ـ الثورة والفن في القرن العشرين.

ـ السينما والأيديولوچيا وشباك التذاكر. ترجمة أسامة الغزولي.

ـ تولستوي ـ لينين ـ ترجمة أسعد حليم.

ـ مشكلات علم الجمال قضايا وآفاق.

ـ على مشارف القرن الواحد والعشرين ـ الثورة التكنولوچية والأدب. ترجمة فخري لبيب

ـ الإنسان والثقافة.

ومن الأعمال الأدبية:

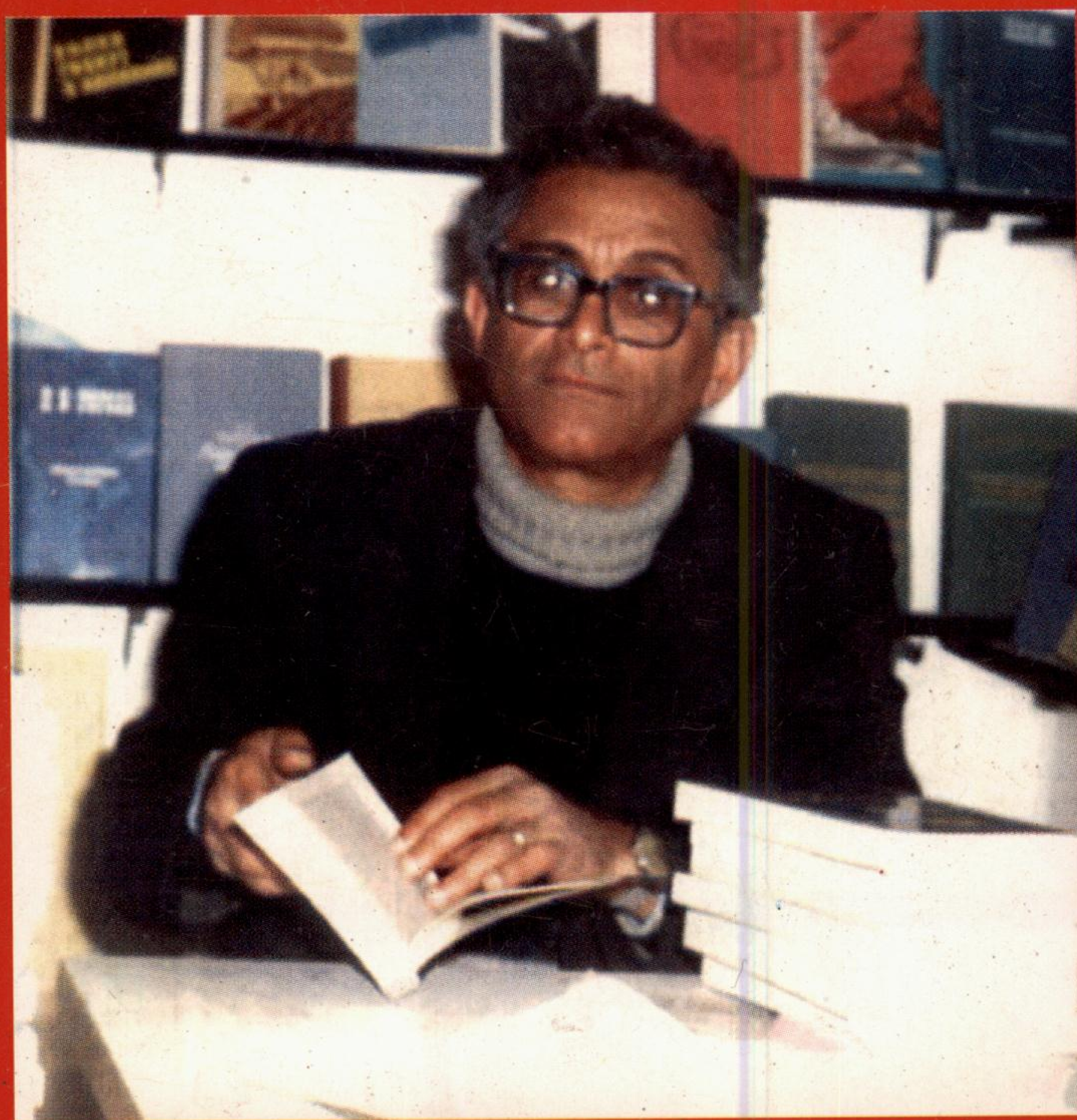
ـ مولد إنسان. مكسيم جوركي.

ـ قصص مختارة. جنكيز أيتماتوف.

محمد يوسف الجندى

مسيرة حياتى

الجزء الثالث



- الإشتراكية هي المستقبل
- كيف يمكن التصدي للهيمنة الأمريكية
- التصدى للتشهير باليسار المصري
- حول الأزمة التي يعيشها حزبنا خاصة واليسار عامة
- نحو تضامن شعوب العالم في النضال ضد الحرب والإرهاب
- العولمة ومستقبل الصراع العربي الإسرائيلي
- اللقاءات الدولية ضد العولمة الرأسمالية
- حملة ضد تهريب الأموال والعقول

[الناشر]
دار العالم الثالث

وفي هذه الظروف قررت اللجنة المركزية أن أتولى مسئولية الخارج بدلا من ميشيل كامل، الأمر الذي أثاره وأدى في النهاية إلى انقسامه هو وغيره وكونوا تنظيماً مستقلاً.

واستطعت أن أقيم علاقات جيدة في الخارج مع الأحزاب والهيئات المختلفة العربية وغير العربية. وحرصت في نفس الوقت على ربط زملائنا في الخارج بنضالنا في الداخل.

عدت إلى القاهرة في منتصف عام ١٩٩٠، بعد وقف العمل في مجلة "قضايا السلم والاشتراكية" التي كنت أعمل فيها.

وبعد عودتي لاحظت خللا كبيرا في العمل القيادي كنت أواجهه في عملي. فرغم أن السكرتارية المركزية لم تعد هي السكرتارية السابقة التي تشكلت لاعتبارات الوحدة بين ثلاث فصائل، لأن الفصائل فعليا لم تعد موجودة، فإن السكرتارية استمرت هي القيادة الفعلية، لكن الوضع أصبح أسوأ لأن غالبية السكرتارية لم تكن متفرغة، فلم يعد لديها الوقت لتمارس هذه القيادة، فوضعت على عاتقها مهمة مستحيلة.

قد تبدو هذه القضية هي مجرد قضية تنظيمية، أو أسلوب عمل ولكنها في الحقيقة تحولت إلى قضية سياسية هامة. وقد كتبت ضد هذا الوضع بمناسبة إصدار مشروع الخط التنظيمي، وفيما يلي مقتطفات مما كتبته ونشرته في مجلة الحياة الحزبية التي كانت تصدر عن الحزب بشكل غير علني. وكان ذلك في منتصف التسعينات.

* اعتراض على مشروع الخط التنظيمي

اكتفى مشروع الخط التنظيمي بترديد عبارات عامة مكتبية، واكتفى بنصائح ومواعظ "علوية" دون أن يضع يده على المشكلة الأساسية.

وقد اعتدنا على مدى سنوات أن نشير إلى هذه المشكلة ونعترف بوجودها دون أن نحلل أسبابها. ونقدم العلاج لها. وقد سار مشروع " الخط التنظيمي " على هذا النهج، فأشار إلى هذه المشكلة وسماها "ضعف الأداء المركزي". وأغرقها بين أربع مشاكل أخرى، واكتفى بذلك، ولم يرجع إليها بعد ذلك، ولم يتحدث عن أسبابها، ولم يقدم العلاج المطلوب.

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي روج البعض لأن الاشتراكية انتهت. وأن المستقبل هو للرأسمالية. ووجدت هذه المقولة رواجا أيضاً في مصر والعالم العربي، وصدقها البعض. خصوصاً وأنهم كانوا يربطون بين الاتحاد السوفييتي ونجاحاته وقوته وبين الاشتراكية. وكانوا يرون أن الاتحاد السوفييتي قد حقق الكثير من الإنجازات في مختلف المجالات. وكان الاتحاد السوفييتي وغيره من البلاد الاشتراكية يساندون شعوب العالم الثالث في نضالها ضد الاستعمار ومن أجل التنمية. وكان لذلك تأثيره على شعوب ودول تلك البلدان. وأصبح الكثير منها يعلن تبنيه للتوجه الاشتراكي، ويعزز علاقاته مع الدول الاشتراكية. وفي مصر كان للدعوة للاشتراكية صدى كبير، وتوج ذلك في عهد عبد الناصر بإعلان التوجه الاشتراكي. وسمى التنظيم السياسي الوحيد بالاتحاد الاشتراكي. وظل الحال كذلك حتى بعد وفاة جمال عبد الناصر وتولي أنور السادات للسلطة. وبعد حل الاتحاد الاشتراكي أقرنت غالبية الأحزاب أسماءها بالاشتراكية، وسمى حزب السلطة بحزب مصر الاشتراكي، وكذلك الأحزاب الأخرى حتى حزب اليمين أصبح اسمه حزب الأحرار الاشتراكيين. ونص الدستور على أن مصر بلد اشتراكي، ومع الردة التي بدأها السادات أخذ الحديث عن الاشتراكية يتقلص في ارتباط ببدء سياسة الانفتاح الاقتصادي التي أعلنت سنة ١٩٧٤، وفتح الباب واسعاً للتحول الرأسمالي الطفيلي والتبعية للولايات المتحدة الأمريكية. وتخلص حزب السلطة (الذي كان يُسمى حزب مصر الاشتراكي) من كلمة الاشتراكية واتخذ اسماً جديدا هو الحزب الوطني الديمقراطي. وأصبح كل من يتحدث عن الاشتراكية أو يدعو إليها يقال عنه أنه متجمد فكريا. وتأكد هذا الاتجاه

في عهد مبارك خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي والأنظمة الاشتراكية في أوروبا وحل محلها الحديث عن الخصخصة والاقتصاد الحر. ولم يهتم هؤلاء الداعين إلى الرأسمالية بتمسك الصين بالنظام الاشتراكي والتحول الاشتراكي ودعم هذا التحول. ولم يؤثر على تفكيرهم أن بعض الدول الأخرى في آسيا وأمريكا اللاتينية تمسكت بالاشتراكية والدعوة إليها، كما استمر تواجد الأحزاب الشيوعية والاشتراكية في كل دول العالم. وتنامت الحركة بين شعوب العالم ضد العولمة الرأسمالية.

وعندما يتحدث هؤلاء المروجون للرأسمالية عن التقدم الكبير الذي تحرزه جمهورية الصين الشعبية يزعمون ان ذلك يرجع إلى تحول الصين إلى الرأسمالية، ويرجعون التحولات الاشتراكية في الصين ليس إلى أن الصينيين يبنون نظاما اشتراكيا ذا خصائص صينية، أو أنه بلد واحد ذو نظامان (إشارة إلى هونج كونج وماكاو، والدعوة إلى توحيد تايوان مع الصين الأم. وتشجيع قادة الصين للاستثمارات الخاصة، وخصوصاً الاستثمارات التي تأتي من رأسماليي تايوان ومن الصينيين المقيمين في الخارج، وإلى الاستثمارات الأجنبية، وحتى الاستثمارات من الشركات المتعددة الجنسية، مادام ذلك يساهم في تحقيق التنمية في الصين). ويرى قادة الصين وخصوصا دنج تشاوبينج ومن جاء بعده أن الصين بلد متخلف وأنه من بلاد العالم الثالث، ولكنه يسير في الطريق الاشتراكي، ولن يتم ذلك في سنة أو سنتين بل قد تحتاج إلى حوالي مائة عام.

إن كثيرا من الاقتصاديين في الغرب وفي الولايات المتحدة الأمريكية يعتبرون أن التقدم الذي يحدث في الصين كبير وسريع، بل يتحدث البعض بأنها منافس خطير للولايات المتحدة الأمريكية، أقوى دولة اقتصاديا وعسكريا. وتتنبأ بعض المنظمات العالمية أن الصين مع معدلات نموها الحالي تتحول لأن تصبح أكبر اقتصاد في العالم .

انتصرت ثورة الصين الاشتراكية في أول أكتوبر ١٩٤٩. وفي أول أكتوبر ٢٠٠٤ احتفلت الصين بالعيد الخامس والخمسين لثورتها.

والصين أكبر بلاد العالم من حيث عدد سكانها الذي يزيد على المليار (حوالي مليار و٣٠٠ مليون). وهي الثالثة من حيث المساحة بعد روسيا وكندا.

ونظام الصين الحالي يجمع بين الرأسمالية والاشتراكية، ولكن قيادتها هي الحزب الشيوعي الصيني الذي يهدف إلى بناء الاشتراكية. وهي بذلك تختلف عن الاتحاد السوفييتي الذي أعلن قادته منذ ستالين أنه قد أنجز بناء الاشتراكية. بل أن خروشوف أعلن أن بلاده ستحقق قريباً بناء الشيوعية.

ومنذ عهد خروشوف الذي اشتهر بالتقرير الذي قدمه للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي الذي انتقد فيه ستالين وعبادة الفرد في عهده، وقفت الصين موقفا مختلفا. وساءت العلاقات بين البلدين وكان ذلك أحد الأسباب.

وينتقد دنج هسياوبينج أيضاً في أيامه الأخيرة عبادة الفرد في عهد ماوتسي تونج. كما هاجم الثورة الثقافية التي انطلقت في آخر عهده. إلا أنه يعتبر أن الانجازات التي حققها ماوتسي تونج أكبر كثيراً من أخطائه. ويؤكد أن الصين تهتدي بأفكار ماوتسي تونج إلى جانب الماركسية اللينينية. وأكد أن المبادئ الأربعة التي تهتدي بها الصين هي :

(١) التوجه إلى الاشتراكية (٢)التمسك بالماركسية اللينينية (٣)التمسك بقيادة الحزب الشيوعي الصيني (٤) الاهتداء بأفكار ماوتسي تونج.

وينتقد القادة الصينيون إهدار دور ستالين الذي قام بدور كبير وحقق إنجازات كبيرة في تقدم الاتحاد السوفييتي في ظروف صراع شديد مع القوى التي وقفت في طريق هذا التقدم، وخصوصا في الحرب ضد العدوان النازي والانتصار الذي تحقق ضد الفاشية. وأن له أخطاء ومنها عبادة الفرد، وهي أخطاء يجب النضال ضدها ومع ذلك فلا يجب إلغاء دوره الإيجابي أو التقليل منه.

في ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٤ عقدت الدورة السادسة عشرة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني برئاسة هوجين تاو الذي حل محل زيمين الرئيس السابق. وأعلنت اللجنة المركزية عن توجهها لبناء مجتمع اشتراكي متناسق في الصين، بتعبئة كل العوامل الإيجابية بأوسع وأكمل وجه، وبتشكيل مجتمع يمارس فيه الناس جميعاً قدراتهم المختلفة، ويعيشون في تناسق بالشكل اللازم لتدعيم القاعدة الاجتماعية وتحقيق المهمة التاريخية له في الحكم.

وتدعو اللجنة المركزية إلى الاستجابة إلى متطلبات التغييرات الاجتماعية العميقة في الصين وتضع موضوع بناء مجتمع متناسق في مركز هام بتشجيع الحيوية الاجتماعية، وتحقيق العدالة الاجتماعية وتعزيز مفهوم القانون ومفهوم التكامل ومراعاة الاستقرار الاجتماعي والوحدة. وتدعو إلى الإرساء الشامل لمبادئ احترام العمل والمعرفة والمواهب وإرساء الحيوية التجديدية للمجتمع بأسره .

وتتعهد بالاعتماد على الطبقة العاملة بصدق وإخلاص، وتطلق الدور الكامل للطبقة العاملة بما في ذلك المثقفين والفلاحين باعتبارهم القوى الأساسية لدفع النمو الاقتصادي والاجتماعي إلى الأمام. وتدعو أيضاً إلى تشجيع ومساندة أبناء الطبقات الاجتماعية الأخرى للمساهمة بنشاط في النمو الاقتصادي والاجتماعي. وهي تدعو إلى تنسيق المصالح والعلاقات بين مختلف الدوائر، وأن تعالج بشكل سليم التناقضات الداخلية بين فئات الشعب. وهي تتعهد بمراعاة مصالح الغالية الساحقة للشعب الصيني.

وتقول الوثيقة أن الإصلاح والتنمية في الصين قد وصلا إلى مرحلة حرجة نشأت فيها أوضاع ومشاكل جديدة، وتواصل القوى المعادية محاولاتها الاستراتيجية لتغريب البلد وتقسيمها.

وتتكون هذه الوثيقة من ٣٦صفحة، ونورد بعض الفقرات الهامة منها:

« قررت اللجنة المركزية أنها تحتاج إلى تعزيز قدراتها في الحكم وأن تواجه التحديات، وأن تعزز أوضاع الحزب الاستراتيجية في قضية الاشتراكية، مستندة على النجاح الذي تحقق في الصين واستقرار ورخاء البلاد ».

أجيز دستور الحزب الشيوعي الصيني في ١٤ نوفمبر ٢٠٠٢بعد إدخال بعض التعديلات عليه في المؤتمر الوطني السادس عشر للحزب الشيوعي الصيني. وجاء فيه:

« بعد ولوج القرن الجديد دلفت بلادنا إلى مرحلة تطوير جديدة لبناء مجتمع الحياة الرغيدة يستفيد منها المواطنون البالغ عددهم أكثر من مليار نسمة. عندما نحتفل بالذكرى المئوية لتأسيس الحزب الشيوعي الصيني سيصل معدل نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي إلى مستوى الدول المتوسطة المتقدمة. وسيتحقق التحديث من حيث الأساس عند الذكرى المئوية

لقيام الصين الجديدة. البناء الاقتصادي هو محور كل أعمالنا، والتمسك بالمبادئ الأربعة والإصلاح والانفتاح والاعتماد على النفس والنضال الشاق في إنشاء المشروعات التأسيسية.

إنها الحكمة الجماعية للحزب الشيوعي الصيني، وعلى هدى أفكار ماوتس تونج قاد الحزب الشيوعي الصيني الشعب بمختلف قومياته في النضال الثوري الطويل الأمد ضد الإمبريالية والإقطاع والرأسمالية البيروقراطية وفي انتصار الثورة الديمقراطية الجديدة وتأسيس جمهورية الصين الشعبية التي تمارس فيها دكتاتورية الشعب الديمقراطية. وبعد قيام الصين الجديدة قاد الحزب الشعب في التحول الاشتراكي بسلاسة وإنجاز انتقال الديمقراطية الجديدة إلى الاشتراكية، وإقامة النظام الاشتراكي الأساسي، وتطوير الاشتراكية في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية.

ومنذ انعقاد الدورة الكاملة الثالثة للجنة المركزية الحادية عشرة للحزب الشيوعي الصيني لخص الشيوعيون الصينيون بقيادة دنج شياوبينج التجارب الإيجابية بعد قيام الصين الجديدة، وعلى هذا الأساس دعوا إلى تحرير العقول والبحث عن الحقيقية من الوقائع، وتحويل مركز ثقل أعمال الحزب كلها صوب البناء الاقتصادي، وتنفيذ سياسة الإصلاح والانفتاح على العالم الخارجي. وفتحوا مرحلة جديدة لتطوير الاشتراكية ذات الخصائص الصينية. إن نظرية دنج شياوبينج هي نتاج الاندماج بين المبادئ الأساسية للماركسية اللينينية والممارسة الصينية المعاصرة وخصائص العصر. وهي تراث وتطوير أفكار ماوتسي تونج في ظل الظروف التاريخية الجديدة. إن بلادنا مازالت وستظل تبقى لفترة زمنية طويلة في المرحلة الأولية من الاشتراكية متخلفة اقتصاديا وثقافيا. وسوف تستمر هذه المرحلة مائة سنة أو أكثر من أجل بناء الاشتراكية في بلادنا. يجب سلك طريق الاشتراكية ذات الخصائص الصينية انطلاقا من ظروف بلادنا الخاصة.

إن التناقضات الرئيسية في مجتمعنا في المرحلة الحالية هي التناقضات بين الحاجات المادية والثقافية المتزايدة للشعب والإنتاج الاجتماعي المتخلف. وسيبقى الصراع الطبقي قائماً على نطاق معين ولفترة زمنية طويلة من جراء العوامل الداخلية والتأثيرات الدولية، وقد تزداد حدته في ظروف ما. إلا أنه ليس تناقضاً أساسيا .

إن المهمات الأساسية لبلادنا في البناء الاشتراكي هي زيادة تحرير القوى المنتجة وتطويرها. والتحقيق التدريجي للتحديث الاشتراكي .. ومن أجل ذلك يجب إصلاح ما لا يناسب تطور القوى المنتجة فيما يتعلق بعلاقات الإنتاج والبناء الفوقي. يجب التمسك بالنظام الاقتصادي الأساسي وإكماله. التمسك باقتصاد الملكية الحكومية مع مراعاة التنمية المشتركة لاقتصاد متعدد الملكيات والتمسك بنظام توزيع الدخل واستكماله على أساس مبدأ « لكل حسب عمله » مع مراعاة أساليب توزيع الدخل المختلف. وتشجيع بعض المناطق والأشخاص على تحقيق الثراء قبل الآخرين، والقضاء على الفقر تدريجيا للوصول إلى الرخاء المشترك. يجب الوفاء تدريجيا بحاجات الشعب المادية والثقافية المتزايدة على أساس من تطوير الإنتاج ووفرة الثروات الاجتماعية.

إن التنمية هي أول واجب لحزبنا في ممارسة السلطة والنهوض بالبلاد. ويجب اغتنام الفرصة للتعجيل بالتنمية وتنفيذ استراتيجية النهوض بالوطن اعتمادا على العلوم والتعليم واستراتيجية التنمية المستدامة، والإبراز التام لدور العلوم والتكنولوجيا، باعتبارها القوى المنتجة الأولى، والاعتماد على التقدم العلمي والتكنولوجي لرفع نوعية العاملين، وأداء العمل بصورة تتميز بالفعالية العالية والجودة الممتازة والسرعة الفائقة لدفع تنمية البناء الاقتصادي إلى مستوى جديد.

يجب مقاومة الليبرالية البورجوازية في عملية بناء التحديث الاشتراكي. ويجب التمسك بالإصلاح، والانفتاح هو طريقنا لتقوية البلاد. يجب إصلاح النظام الاقتصادي الذي يقيد تطور القوى المنتجة إصلاحاً جذرياً. والتمسك ببناء «اقتصاد السوق الاشتراكي» وإكماله، وللتكيف مع ذلك يجب إدخال إصلاحات على الهيكل السياسي ومجالات أخرى، والاستفادة من كافة الأساليب والطرق المتقدمة في مجالات التشغيل والإدارة في الدول الغربية المتقدمة.

وعلينا أن نتحلى بالجرأة على الاكتشاف والإقدام على الإبداع، وشق طرق جديدة في الممارسة خلال عملية الإصلاح والانفتاح. يقود الحزب الشيوعي الصين الشعب في تطوير السياسة الديمقراطية الاشتراكية وبناء الحضارة السياسية الاشتراكية، وتوسيع الديمقراطية الاشتراكية، والتمسك بنظام مجالس نواب الشعب، ونظام التعاون بين الأحزاب المتعددة

والمشاورات السياسية تحت قيادة الحزب الشيوعي. وهو يعمل على فتح الباب على مصراعيه أمام الشعب ليتسنى له التعبير عن آرائه.

يجب تثقيف أعضاء الحزب بالمثل الشيوعية العليا السامية، ومقاومة التأثيرات الأيديولوجية والرأسمالية والإقطاعية الفاسدة، مع دعم الجبهة الوطنية المتحدة الأوسع المتكونة من كافة الكادحين الاشتراكيين وكل الوطنيين الذين يؤيدون الاشتراكية ويؤيدون إعادة توطيد الوطن الأم. والعمل باطراد على تعزيز التضامن بين أبناء الشعب الصيني بما فيهم المواطنين في منطقتي هونج كونج وماكاو والمواطنين في تايوان والمغتربين الصينيين فيما وراء البحار على أساس «دولة واحدة ونظامان » .

ويدعو الحزب الشيوعي الصيني إلى تطوير العلاقات مع الخارج بنشاط، ويعمل على خلق بنية دولية مناسبة للإصلاح والانفتاح وبناء التحديثات في بلادنا .

وبناء على انتهاج سياسة خارجية سلمية ومستقلة في الشئون الدولية، وتحمي استقلال وسيادة بلادنا، وتعارض الهيمنة وسياسة القوة، وتصون السلام العالمي، وتدفع التقدم البشري، وتطور علاقاتنا مع سائر دول العالم على أساس المبادئ المتمثلة في الاحترام المتبادل لسيادة وسلامة الأراضي، وعدم الاعتداء، وعدم التدخل في الشئون الداخلية والمساواة والمنفعة المتبادلة والتعايش السلمي، فإن الحزب يطور باستمرار حسن الجوار والمودة بين بلادنا والدول المحيطة بها. ويعزز التضامن والتعاون مع الدول النامية ويطور علاقاته مع الأحزاب الشيوعية وأحزاب أخرى في سائر الدول الأخرى على أساس الاستقلال، وأخذ زمام المبادرة والمساواة التامة والاحترام المتبادل وعدم التدخل في شئون الآخرين الداخلية.

ويقوي الحزب أساسه الطبقي، وأساسه الجماهيري، ويعزز قدرته الكفاحية لكي يسير حزبنا في مقدمة العصر دائماً وإلى الأبد. وهو يعمل على ربط النظرية بالواقع، والبحث عن الحقيقة من الوقائع وفحص الحقيقة وتطويرها من خلال الممارسات. ويثري ويطور الماركسية من خلال الممارسة. ويحرص على مقاومة الفساد بلا كلل ."

في أول يناير ٢٠٠٥ نشرت الأهرام في افتتاحيتها الداخلية تعليقا بعنوان «الصين أداء اقتصادي غير مسبوق»، أشارت فيه إلى التطورات

والبيانات الأخيرة التي صدرت عن الجهات المسئولة في الصين والتي توضح أن البلاد في طريقها إلى تسجيل عدد من العلامات البارزة في تاريخ تطورها الاقتصادي منذ ذكر الرئيس الصيني هوجينتاو أن بلاده سوف تسجل هذا العام معدلا للنمو الاقتصادي يزيد عن ٩%. وهو ما يعني أن الصين مازالت تتربع منفردة على قائمة أعلى البلاد نموا كما أن الصين سوف يرتفع حجم تجارتها هذا العام إلى أكثر من تريليون دولار لأول مرة. فقد سجلت الصادرات نمو ٤٥٧,٧ في الأشهر العشر الأولى، مع تحقيق فائض في الميزان التجاري يبلغ نحو ١١ مليار دولار. وبمقارنة هذا بحال الصين في عام ١٩٨٠ نجد أن وصف التطور الحادث بأنه معجزة يكون أقل وصف ممكن. فقد كانت الصادرات في عام ١٩٨٠ لا تتعدى ٢٠ مليار دولار كان أكثر من ٨٠% منها من المواد الخام، وهو ما يعني أن الصادرات قد زادت بنحو ٢٧ مثلا خلال ٢٤ عاما. والأكثر أهمية أن أكثر من ٩٠% من الصادرات هي الآن من السلع المصنعة.

وتشير مصادر في المنظمات الدولية إلى أن الصين سوف تكف عن تلقي المعونة بل وسوف تتحول إلى دولة مانحة للمعونات. وعلى سبيل المثال فإن الصين باتت لا تحتاج إلى معونات من قبل البرنامج العالمي للغذاء حسب تصريحات مدير البرنامج بعد لقائه برئيس الوزراء الصيني.

وتشير البيانات أيضاً إلى أن نحو ٣٠٠مليون صيني قد تم انتشالهم من دائرة الفقر خلال ربع القرن الماضي، أي منذ بداية العمل بخطة التحديث والانفتاح الصينية، وهي أيضاً أرقام غير مسبوقة عالميا. وإذا مضت الصين في طريق نموها الاقتصادي بنفس المعدلات الحالية أو حتى بأقل منها، فإن الصين ربما تتحول لأن تصبح أكبر اقتصاد في عالمنا بحلول عام ٢٠٥٠ كما يتوقع ذلك بعض الخبراء الاقتصاديين.

***

الاشتراكية هي المستقبل «٢»

التقارب بين الصين والهند وروسيا ودلالته

تحدثنا سابقا عن أن الاشتراكية هي مستقبل التطور في العالم، وأشرنا إلى التطور السريع الذي تتميز به جمهورية الصين الشعبية، والتوقعات بالنسبة لهذا التطور الذي يشار إليه في مختلف الصحف العالمية وأن التقدم السريع الذي تحققه الصين من المتوقع أن يصل بعد سنوات قليلة إلى معدلات غير مسبوقة.

في النصف الأول من شهر إبريل الماضي من هذا العام زار رئيس الصين الهند زيارة رسمية امتدت لأربع أيام واختتمت ببيان مشترك وقعه مع رئيس وزراء الهند يفتح الباب لتعاون متزايد بين الدولتين. وترجع أهمية الحدث أنه يحل التعاون محل خصومة بلغت حد الحرب في الستينيات. ويرجع ثانيا أهمية التعاون بين هذين البلدين إلى أنهما تضمان ٢,٥ مليار ساكن أي ٤٠% من إجمالي سكان الكرة الأرضية، وإذا تحقق ما تريدان من إقامة منطقة تجارة حرة فإنها ستكون أكبر سوق في العالم «حوالي تسعة أضعاف السوق الأمريكية» ورغم عدم استئصال الفقر حتى الآن في هذين البلدين فإن معدلات النمو السنوية في كلا البلدين عالية ومطردة ما بين ٩,٥% في الصين و٨,٧% في الهند. وهذا النمو الاقتصادي مصحوب بتقدم علمي وتكنولوجي سريع يعتمد أساسا على الجهد المحلي ويطور وفقا لاحتياجات التنمية في كل من البلدين.. ونتائجه الرائعة مسلم بها عالميا فالميزان التجاري بين الصين والولايات المتحدة سجل في ٢٠٠٤ فائضا لصالح الصين يبلغ ١٦٢ مليار دولار، وبين مكونات الصادرات الصينية إلى الولايات المتحدة تظهر الألكترونيات، وقد اشترت شركة صينية مؤخرا من شركة IBM قسمها المخصص لإنتاج الحاسب الشخصي الذي كان قبل عشرين عاما مفخرة لها. ومن المعروف أن شركات الصناعة الإلكترونية الأمريكية تتعاقد مع شركات في بلاد أخرى لإنتاج مكونات منتجاتها النهائية وتتوجه في هذا الصدد إلى الهند. وأخيرا لا يخلو من الفائدة لبلدنا الذي تلهث

خلل الأداء المركزي :

ما يسميه مشروع الخط التنظيمي " ضعفا " أعتبره " خللا " خطيرا هو السبب في كل المشاكل التنظيمية الأخرى. فإذا فسد الرأس فسد الجسم. والسبب في هذا الخلل الخطير هو أن الهيئات المركزية (اللجنة المركزية والمكتب السياسي) لا تقوم بدورها لا لأنها لا ترغب في ذلك، ولكن لأن السكرتارية المركزية تضع نفسها فوق الحزب، وانتزعت في حقيقة الأمر السلطة في الحزب من كل الهيئات الأخرى التي تنص عليها اللائحة. وحولت اللجنة المركزية والمكتب السياسي والمكاتب المركزية إلى هيئات شكلية، وتعجز السكرتارية المركزية بطبيعة الحال، أن تمارس كل هذه السلطات، وأن تنجز تلك المهام التي احتكرتها، والتي من المفروض – والتي من المفروض طبقا للائحة، وطبقا للمبادئ التنظيمية الديمقراطية أن تقوم بها الهيئات الأخرى. هذا المرض نعاني منه منذ سنوات، وقد ازداد تفاقماً في الفترة الأخيرة، بسبب التركيب الحالي للسكرتارية المركزية.

نتحدث كثيراً عن المركزية الديمقراطية، والقيادة الجماعية والعمل الجماعي، وهذه مبادئ عامة في أي تنظيم ديمقراطي. لقد اعتدنا أن نردد هذه المبادئ قولاً دون أن نعمل بها. واحتكار السكرتارية المركزية للسلطة في الحزب وإلغاء الدور الفعلي للجنة المركزية والمكتب السياسي يتعارض تماماً مع هذه المبادئ.

نحن مع المركزية الديمقراطية، ولكننا ضد المركزية التي تلغي الديمقراطية وتتحول إلى مركزية بيروقراطية. وهذا هو المرض الذي عانت منه الأحزاب الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية وغيرها من الأحزاب بدرجة أو بأخرى. وهو سبب رئيسي للانهيارات التي لحقت بتلك الأحزاب وبالأنظمة التي كانت تحتكر السلطة فيها.

ونتيجة لاحتكار السكرتارية المركزية للسلطة وتحويل اللجنة المركزية والمكتب السياسي لهيئتين شكليتين نلحظ الظواهر المرضية التالية :

(١) تتحول القرارات الحزبية إلى أوامر إدارية فوقية لا تعبر، في حقيقة الأمر، عن موقف الحزب، الذي لا يمكن التوصل إليه إلا نتيجة حوار وجهد جماعي فكري وسياسي مشترك.

حكوماته وراء شيء من الاستثمار الأجنبي أن نعلم أن حجم الاستثمار المباشر في الصين والهند معا وصل إلى ١٠١,٨ مليار دولار، في حين أن إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في مجموع الدول الصناعية المتقدمة كان ١٠٢,٥ مليار. والمؤسف أن الناس في بلادنا يبدو أنهم سلموا بمقولة «نهاية التاريخ» التي سبق لبعض مثقفينا نقدها لظهورها في أمريكا، والغالبية منا تبدأ تفكيرها من الإشارة إلى الولايات المتحدة على أنها القطب الأوحد الذي لا فرار من سيطرته على العالم، وتتفاوت المواقف في ظل التسليم بديمومة هذا الوضع بين الاستسلام لما تريده أمريكا إلى استحسان كل ما هو أمريكي، مرورا بضرورة رفض كراهية أمريكا والعمل على حصول مصر على أحسن وضع ممكن في نظام عالمي تتربع على رأسه واشنطن، كأن تلك هي نهاية التاريخ، ومن ثم لا داعي لمتابعة ما يجري في قارات أخرى محكوم عليها بالفشل، ولو قرأ بعض مثقفينا بعض ما يكتبه أمريكيون وأوروبيون على أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرنا آسيويا لحاولوا فهم حركة البشر التي تصنع التاريخ[1].

وفي ١٠ و١١ مايو ٢٠٠٥ عقدت القمة العربية-اللاتينية للمرة الأولى في البرازيل بدعوة من الرئيس البرازيلي لولا داسيلفا وهو رئيس حزب العمال البرازيلي والذي خاض انتخابات رئاسة الجمهورية ثلاث مرات ونجح أخيرا ورشحته الأحزاب الشعبية التي تشمل الحزب الشيوعي البرازيلي وأصبح بذلك أول رئيس يساري لأكبر دولة في أمريكا اللاتينية وهي البرازيل (١٧٥ مليون نسمة) فصارت البرازيل بذلك البلد الثالث في أمريكا اللاتينية الذي ينتخب رئيسا يساريا. وذلك بعد كوبا وفنزويلا. وأضيف إليها أخيراً أروجواي بعد الانتخابات الأخيرة.

ويعقد كل عام في بورتو الليجرو في البرازيل أكبر تجمع ضد العولمة الرأسمالية.

وقد دعا رئيس البرازيل في مايو ٢٠٠٥ إلى اجتماع قمة بين الدول العربية ودول أمريكا اللاتينية. وحضر الاجتماع عدد من الرؤساء العرب و٢٣ وزير خارجية و١١ من أمريكا اللاتينية ويتضمن مشروع البيان

(١) إسماعيل صبري عبد الله ، عموده في الأهالي بعنوان: الصين والهند في ٢٠ أبريل ٢٠٠٥.

الختامي للقمة المطالبة بإخلاء منطقة الشرق الأوسط من الأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل.

وقد علق الدكتور إسماعيل صبري عبد الله على هذا الحدث الهام في جريدة الأهالي بقوله: أنه من بين ٢٣ رئيس دولة عربية تم دعوتهم في لقاء القمة العربي-الأمريكي الجنوبي في برازيليا شارك منهم ثلاثة فقط. وهكذا يبدو موقف الحكام العرب حريصا على تدني مستوى تمثيلهم في هذا الحدث الأول من نوعه. لابد من البحث عن سبب آخر لعزوف حكامنا عن مصافحة اليد الممدودة لهم عبر المحيط الأطلسي.

لقد كان قادة باندونج ومؤسسو حركة عدم الانحياز ينطلقون بشدة لتعاون متزايد بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التي تشكل ما يُسمى «العالم الثالث» وهو مجموع الدول التي عانت من الاستعمار الأوروبي وما قتل من سكانها وما نهب من أرضها وما فرض على شعوبها من استغلال بشع طال أجله في بعض المجالات لأكثر من ثلاثة قـــرون. وبعد شعار «تصفية الاستعمار» الذي أطلقه مؤتمر باندونج جاءت الخطوة الثانية في مؤتمر عدم الانحياز (بلغراد ١٩٦٢) والدعوة إلى الارتقاء بالعلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب إلى مستوى التجارة بدلا من المساعدات. وانعقد في القاهرة في يوليو ١٩٦٣ لقاء من دول الأمم المتحدة انتهى بإعلان القاهرة الذي حدد هذا المسعى ومتطلباته وفي مقدمتها مؤتمر تنظمه الأمم المتحدة عن «التجارة والتنمية». ولم يتوصل المؤتمرون إلى تراض تام حول ما يجب أن يحدث. فالتقى ممثلو دول العالم الثالث المشاركة وأصدروا بيانا بمطالب بلادهم عرف باسم «مجموعة السبع والسبعين». وظل هذا الاسم مستخدما حتى الآن رغم تضاعف عدد دول المجموعة.

وفي الستينيات من القرن الماضي نشطت قيادات عدم الانحياز في السعي لجذب دول أمريكا الجنوبية فيما سُمي «مشروع القارات الثلاث». ولاشك كان لانتصار الثورة الكوبية دور في هذا التوجه.

وكانت العقبة الرئيسية في تحقيق تلك الأمنية هي النخبة الحاكمة في دول أمريكا الجنوبية المكونة من نسل مهاجرين من أوروبا الغربية يعتبرون أنفسهم من «العنصر الأبيض الممتاز» وخير البشر دينا ودنيا ويأنفون من الاختلاط بالسود والسمر والصفر من أهل أفريقيا وآسيا. وفي السنوات

الأخيرة تغيرت الأوضاع بعد عقود من الفشل الليبرالي وأخرى من الدكتاتورات العسكرية وبعد أن جربوا كل ما تحاول بعض الدول العربية أن تصنعه جاهلة أو متجاهلة نتاج التجارب على الشاطئ الآخر من الأطلسي. وما حدث كان وصول السلطة السياسية إلى الطبقات الوسطي بل والشعبية التي تجري في عروقها دماء من أفريقيا وآسيا والتي كانت ومازالت تعاني من درجات متفاوتة وأشكال متنوعة من الفقر، ورئيس البرازيل الذي دعا لقمة برازيليا عامل نقابي اشتهر بقيادته للحركات العمالية.

لماذا إذن غاب الحكام العرب ؟ معروف أن الولايات المتحدة تضيق ذرعاً بحكومة البرازيل ومعارضة رئيسها لكثير مما تصنعه (حرب العراق مثلا) وتتبنى قضية الشعب الفلسطيني. كما أن كل أجهزة مخابراتها وما انفقته من مليارات لم تضعف شافيز «رئيس فنزويلا» بل دعمته، فحين طالبت المعارضة بإجراء استفتاء حول اقالته قبل الرجل وجرى الاستفتاء بحضور مراقبين دوليين، كانت النتيجة تمسك ٦٢% من الناخبين به.

هل ضغطت أمريكا على حكامنا حتى يضعف اشتراكهم في مؤتمر البرازيل ؟.

دعم العلاقات بين روسيا والصين :

عند زيارة فلاديمير بوتين إلى بكين في عام ٢٠٠٤ وقع الرئيس الصيني جين جياوبي بيانا مشتركا أعلنت فيه الحكومة الروسية: عن تحديد مسار خط أنابيب البترول من سيبيريا عبر اليابان والذي يصل إلى الصين.

في عام ١٩٩٤ طرحت روسيا مبادرة بشأن التعاون في بناء خط أنابيب لنقل البترول إلى داخل الصين. وقد حقق هذا الاتفاق للصين تأمين امدادات نفط مستقرة، ومن مصدر قريب. كما حقق لها ضمان أمن الطاقة وتنويع مصادر النفط. أما روسيا التي تصدر ٢٣٠ مليون طن سنويا.. فمن المؤكد أنها بحاجة إلى الصين لكونها سوقا كبيرا وجارا لها. ولكن انطلاقا من مصلحة الدولة الطويلة المدى، قد ترى روسيا أن إنشاء خط يصل إلى مدينة ناكهودكا على شواطئ المحيط الهادي، رغم ضخامة حجم التكاليف، يعود عليها بربح أوفر مما إذا وصل إلى مدينة داتشينج الصينية، كما أنه لن يكون قاصرا على مشتر واحد بل أكثر من مشتر، وتحديدا الصين، اليابان،

كوريا الجنوبية وأمريكا، وهذا يعني أن تحتل روسيا موقعا أفضل في سوق النفط العالمية.

أكدت روسيا أن السياسة الروسية تضع الحفاظ على الأمن القومي ومصلحة الاقتصاد الروسي على قمة الأولويات ولهذا تحرص على هيكل التبادل التجاري والاقتصادي مع الصين واستقدام العمالة الصينية، والتعاون العسكري والتقني. ومع ذلك، فإن روسيا، وهي تحدد مسار أنابيب تابشت-نادكهود كما أخذت بعين الاعتبار مصلحة شريكها الصيني. فقبل البدء بإنشاء الخط تعهدت روسيا بنقل البترول للصين عبر السكك الحديدية. حيث تم نقل ٦,٤ ملايين طن العام الماضي. وسيتم نقل ٨,٥ ملايين طن العام الحالي، و١٥ مليون طن العام القادم.

والحق أن التنافس بين أمريكا وروسيا في المنطقة يمثل امتدادا للانقلابات التي شهدها كل من الاتحاد السوفيتي السابق وأوروبا الشرقية. ترى أمريكا أن الاتحاد السوفييتي السابق لم ينته كاملا. وأن روسيا لا تزال تمثل تكتلا عملاقا يؤثر تأثيرا كبيرا على المنطقة في حين تطمح أمريكا في تحويل هذه الدول وعلى وجه الخصوص الدول الواقعة في غربي المنطقة إلى "أوروبا الجديدة". ومن ثم إدراجها في دائرة نفوذ وهيمنة الغرب.

نحو عالم متعدد الأقطاب :

يواصل الكثيرون تكرار مقولة أن العالم يسوده الآن ويقرر مصيره قطب واحد وقوة وحيدة هي الولايات المتحدة، ويبدو أن هذه المقولة يسلم بها حكامنا اليوم. ويغفلون التغيرات الكبيرة التي تحدث في العالم. ويغفلون ما يكتب عن التحولات المذهلة التي تحدث في الصين. وليس في الصين وحدها بل في العالم كله. في ٢يونيو من هذا العام حدث اجتماع ثلاثي بين وزراء خارجية كل من الصين وروسيا والهند في مدينة فلاديفستك الروسية، ودعا وزراء الخارجية إلى إقامة علاقات دولية ديمقراطية في وجه هيمنة القطب الواحد الأمريكي. وتطرق وزراء الخارجية الثلاث إلى مسألة الاقتصاد العالمي للطاقة مطالبين بالاعتراف بروسيا كأحد أكبر منتجي الطاقة العالمية، بينما الهند والصين من أكبر المستهلكين (الهند تستهلك بليون دولار لإنتاج ونقل الطاقة في ساخلين).

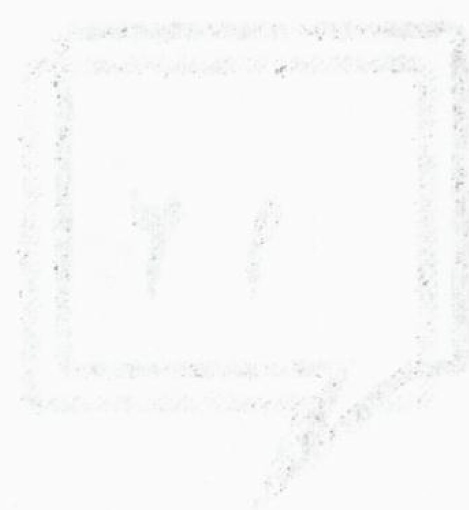
نتذكر هنا تعبير هنري كسنجر عن انتقال مركز نقل الشئون الدولية من الأطلنطي إلى الهادي. إذا أضفنا إلى هذه التغيرات ما يحدث في أمريكا اللاتينية نلحظ التحولات التي تحدث في أمريكا الجنوبية ونلحظ أن منظمة الدول الأمريكية رفضت في منتصف يونيو الماضي أي تنظيم يولي القيادة إلى الولايات المتحدة.

فما سبق يؤكد أن العالم يتغير وأن استمرار السيطرة للولايات المتحدة واستمرارها كالقوة العظمى في العالم هو أمر يتغير وتنتقل القوة والمستقبل في العالم لدول أخرى مثل الصين والهند وروسيا ويؤكد ذلك حجم سكانها ومساحاتها وتطورها الاقتصادي والنظام الاقتصادي الذي يسود فيها والتغيرات التي تحدث بها وهي الأمور التي يجب أن تعطيها الأهمية في دراسة تطورات السياسة العالمية والتطورات المستقبلية.

***



من أجل التغيير والإصلاح



٢١

تطالب القوى الوطنية والديمقراطية في مصر منذ عدة سنوات بإصلاح الأوضاع السائدة في مصر منذ عهد الردة والذي بدأ منذ انقلاب السادات وازداد انحدارا في عهد حسني مبارك الذي استمر ٢٥ سنة متوالية وحتى الآن.

وقد تصاعدت حركة المعارضة للوضع الحالي واشتركت في هذه الحملة التي تطالب بالإصلاح والتغيير كل القوى الوطنية الديمقراطية، فالجميع يشعر بتدهور الوضع وانتشار الفساد والاستبداد والفقر والبطالة.

في عهد السادات وحسني مبارك احتكر الحزب الوطني السلطة. وجاء في البرنامج الانتخابي لحزب التجمع الذي صدر منذ أيام أن الحزب الوطني يخضع للسياسات المفروضة من المؤسسات المالية الدولية (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) والإدارة الأمريكية وهيئة المعونة الأمريكية والشريحة الطفيلية التابعة من الرأسمالية المصرية. وتقوم هذه السياسة على انسحاب الدولة من الاستثمار والرهان على القطاع الخاص وحده والرأسمالية المحلية الضعيفة والاستثمارات الخارجية المتواضعة والخصخصة وبيع القطاع العام وخاصة شركاته الرابحة وتخليها عن دورها في توفير الخدمات الأساسية والتحول إلى اقتصاد السوق الرأسمالية.

وكانت المحصلة النهائية لهذه السياسات هي تراجع التنمية من ٦,٣% في عام ١٩٨٣/٨٢ إلى ٢,٤% في عام ٢٠٠٤/٢٠٠٣، وارتفاع الدين الخارجي لمصر من أقل من (٥) مليار دولار عام ١٩٧٥ إلى (٣٠,٢) مليارات في مارس ٢٠٠٥. وزاد الدين الداخلي من ١١ مليار في يونيو ١٩٨١ إلى ٤٧١ مليار جنيه في مارس ٢٠٠٥، ليصل الدين الداخلي

والخارجي إلى (٦٤٦,٥) مليار جنيه ليصبح كل مصري ومصرية مدينا بمبلغ (٩١٧٠) جنيها. وارتفع العجز في الموازنة العامة إلى أكثر من ٥٤ مليار جنيه في العام الماضي والعجز في الميزان التجاري إلى ٣٠ مليار جنيه. ويعيش تحت خط الفقر ٤٣% من المصريين، ويعيش أكثر من ١٠ ملايين مواطن محرومين من ضرورات الحياة في ١٠٧٣ منطقة عشوائية.

أدى هذا التدهور الاقتصادي والاجتماعي إلى ثبات أجور خمسة ملايين و٦٧٠ ألف موظف مصري وانخفاض قيمتها الحقيقية نتيجة لارتفاع نسبة التضخم إلى ٢٥% وزيادة الأسعار. ووصل عدد العاطلين عن العمل إلى ٦ ملايين عاطل من خريجي الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة والباحثين عن العمل بصفة عامة. وشهدت خدمات الصحة والسكن والتعليم تدهوراً مستمراً، وتكاد مجانية التعليم المنصوص عليها في الدستور أن تنتهي تماماً.

ونتيجة لإصرار الحزب الحاكم على احتكار الأغلبية الكاسحة في مجلسي الشعب والشورى والمجالس المحلية والاتحاد العام لنقابات عمال مصر والنقابات العمالية عامة، وشل حركة النقابات المهنية ومؤسسات المجتمع المدني وحصار الأحزاب السياسية في المقار والصحف، إستمرت الأوضاع الاستبدادية غير الديمقراطية. فالدستور يمنح سلطات مطلقة لرئيس الجمهورية، والطوارئ معلنة بصفة دائمة منذ ٢٤ عاما، والاعتقالات طالت عشرات الآلاف، وتحول التعذيب إلى سياسة رسمية للحكم في المعتقلات والسجون وأقسام الشرطة، وتواصل تزوير الانتخابات والاستفتاءات العامة، ومصادرة الحق في التظاهر والإضراب والاعتصام، والسيطرة على أجهزة الإعلام والصحافة والقوانين، وإصدار قوانين جديدة تضاف إلى سلسلة القوانين الموروثة التي تنتهك الحريات العامة وحقوق الإنسان.

وإذا كانت معاناة المصريين قد تضاعفت خلال السنوات الخمس الأخيرة نتيجة لهذه السياسات فإن المدخل الوحيد للحد من هذه المعاناة وحل مشاكل الشعب هو أن يكون الحكم للشعب ابتداء من تشكيل مجلس الشعب في دورته الجديدة وزيادة تواجد قوى المعارضة داخله ليتمكن من التصدي لسياسات الحكم المعادية لمصالح الفقراء والمهمشين والمتعطلين ومعظم فئات الشعب.

وللنضال ضد هذه الأوضاع وتغييرها تكونت جبهة وطنية من حزب التجمع والحزب الناصري وحزب الوفد وغيرها من المنظمات اليسارية مثل كفاية والحملة الشعبية من أجل التغيير التي تتكون من الحزب الشيوعي المصري وحزب الشعب الاشتراكي وغيرها من التنظيمات.

ومنذ أواخر التسعينيات تكونت منظمات مدنية خارج الأحزاب الشرعية. فقد تكون تنظيم شعبي منها اللجنة الشعبية للتضامن مع الانتفاضة الفلسطينية وذلك مع قيام الانتفاضة الفلسطينية الثانية عند زيارة شارون للمسجد الأقصى. وقد تكونت هذه اللجنة من حوالي ٢٠٠ شخص من مختلف الشخصيات والاتجاهات. وقامت اللجنة بجمع تبرعات ومواد غذائية وأدوية وقامت بعدة قوافل إلى رفح وقدمت المساعدات للفلسطينيين. وكان لهذه المساعدات قيمة مادية ومعنوية كبيرة لأنها تمثل التضامن الشعبي المصري للانتفاضة الفلسطينية ولنضال الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال. ونظمت العديد من المظاهرات للتضامن في المدن والجامعات في القاهرة ومختلف المدن المصرية.

واستمرت هذه الحركة وعملت على ربط نضالها ضد العدوان الإسرائيلي المستمر والقمة الحاكمة في الولايات المتحدة التي تساند هذا العدوان وتحميه. واشترك مندوبون من الوطنيين المصريين مع المناضلين في العالم ضد العنصرية واجتمعوا في دربن بجنوب أفريقيا.

وشيئا فشيئا ربطت الحركة ضد العدوان الصهيوني بالحركة العالمية ضد العولمة الأمريكية في مختلف بلاد العالم في أوروبا وأمريكا اللاتينية وغيرها، فوجدنا شعارات المناضلين والمظاهرات في أوروبا وأمريكا وغيرها تبرز فيها الشعارات والحركة ضد العدوان الصهيوني.

وقبل العدوان الأمريكي على العراق قامت حركة واسعة في مختلف أنحاء العالم ضد الحرب وضد هذا العدوان.

وعند قيام العدوان قامت المظاهرات الكبيرة في وسط القاهرة ضد أمريكا وإسرائيل واشتبكت مع قوات الأمن الذي استخدم العنف وقبض على العديدين. ونجحت هذه المظاهرات في التأثير على الجماهير العادية غير المسيسة فشاركت في المظاهرات. وتكونت نتيجة ذلك حركة ٢٠ مارس التي استمرت في الدعوة للاحتفال بهذا اليوم.

(٢) ألغى الحوار والجدل داخل الحزب، وتحول إلى حوار شكلي، بل يتحول في الواقع إلى آراء متجاورة ليس بينها صراع للوصول إلى الحقيقة، والأسلوب الشائع لمحاربة الأفكار هي نشر التوصيفات المختلفة والتشهير والإشاعات بدلا من مناقشة الأفكار.

(٣) لا يوجد توزيع حقيقي للمسئوليات، بحيث يكون للمسئول والهيئات والمكتبات المختلفة سلطة التصرف في إطار الخط العام المقرر ديمقراطيا، ويحاسبون على أساس نتيجة العمل.

(٤) تأخذ السكرتارية المركزية على عاتقها التدخل في كل الأمور، وتقبض بيدها على كل شيء، وتضع على عاتقها مهام وتفاصيل كثيرة فوق طاقتها، وخارج اختصاصاتها، والمفروض أن تقوم بها الهيئات والمكاتب الأخرى.

وبذلك تغرق في تفاصيل تافهة وتهمل القضايا الكبرى الأساسية التي يجب علينا أن نقوم بها ونتابعها. والنتيجة هو ما نلحظه من فقد الاتصال بأعضاء وكوادر ومناطق كاملة وتركها تتساقط. وإهمال متابعة أعمال المناطق وضمان التفاعل بين المناطق والأجهزة المركزية، والتقصير في تنفيذ مسائل بديهية مثل جمع الاشتراكات أو متابعة تنفيذ القرارات.

(٥) حالة اغتراب يعيش فيها غالبية أعضاء الحزب، وعلى رأسهم أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي، وقد يستريح البعض لذلك الاهتمام بأمور أخرى أو لعدم الرغبة في العمل. ولكن غالبية الرفاق الذين يريدون ممارسة دورهم لا يستطيعون ذلك. وتوضع أمامهم مختلف العراقيل.

(٦) التصرف وكأن السكرتارية المركزية تمتلك الحقيقة وحدها، وأنها مصدر كل الحقائق. فلا حاجة عندها للتشاور والحوار للتوصل إلى اتخاذ القرار والموقف. والنتيجة ألا يتخذ الحزب موقفا بالنسبة لكثير من القضايا الهامة. ويضطر الأعضاء إلى اتخاذ المواقف كل حسب اجتهاده، أو يستخلصها من المطبوعات اليسارية العلنية.

(٧) تحول الحزب إلى جزر منفصلة كل منها يعمل بشكل مستقل. وهو الأمر الذي ينمي الشللية في إطار وحدة شكلية.

وشيئا فشيئا بدأت هذه الحركة تربط بين المطالب الوطنية ضد العدوان الأمريكي والإسرائيلي والمطالب الشعبية الاجتماعية الأخرى مثل اشتعال الأسعار والفساد والبطالة وسياسة الخصخصة والاعتقالات وقانون الطوارئ والتعذيب في أقسام الشرطة ومقرات المباحث.

وهذا مثل من النداء الذي وزع على الجماهير من الحركات التي انبثقت من اللجان الشعبية والمنظمات وقد صدر في عام ٢٠٠٤.

نداء

حركة ٢٠ مارس من أجل التغيير

إلى جماهير الشعب المصري

إلى كل من شاركوا في مظاهرات ٢٠ و٢١ مارس ٢٠٠٣.. إلى كل مواطن يكتوي بنار الأسعار ويطحنه الفساد والاستغلال .. إلى كل شاب وفتاة يقف في طابور البطالة لا يجد عملا بسبب الخصخصة وسياسة النظام .. إلى كل أم يغيب عنها ابنها خلف أسوار السجون ومعتقلات الطوارئ .. إل كل من تعرضوا للتعذيب في أقسام الشرطة ومقرات المباحث .. إلى كل صاحب رأي وعقيدة يعاني من الاضطهاد بسبب آراءه ومعتقداته .. إلى كل من يرغبون في إسقاط علمي إسرائيل وأمريكا عن سماء القاهرة، ويسعون إلى دعم الشعبين الفلسطيني والعراقي .. إلى كل من يطمح إلى التغير والتمتع بحريته وانتزاعها بيديه .. إلى كل المناضلين السياسيين الذين يسعون للارتباط بالجماهير لا بالسلطة .. إلى كل الفقراء والمضطهدين في مصر ..

في ذكرى تحرير الجماهير المصرية لميدان التحرير يوم ٢٠ مارس ٢٠٠٣

تدعوكم حركة ٢٠ مارس من أجل التغيير إلى

تجمع شعبي يوم السبت الموافق ٢٠ مارس في الساعة الواحدة ظهرا بميدان التحرير

ليكن ٢٠ مارس القادم يوما للاحتجاج الشعبي ضد الاستغلال والاستبداد على أرض مصر وضد الاحتلال الأميركي الصهيوني على أرض العراق وفلسطين.

معا إلى ميدان التحرير يوم ٢٠ مارس الساعة الواحدة ظهرا

وقامت في هذه الفترة العديد من المنظمات المدنية اليسارية غير الرسمية وقامت حركة للحوار بين صفوف اليسار (ملتقى اليسار) وتشمل إلى جانب حزب التجمع الحزب الشيوعي المصري وحزب الشعب الاشتراكي والاشتراكيون الثوريون وكفاية وغيرها من التنظيمات وأصدر بعضها بيانات مشتركة كتعبير عن الرغبة في العمل المشترك. وتكونت محاولات لتوحيد اليسار واتسعت هذه الحركة لتضم قوى أخرى إلى جانب اليسار التي نجحت في الاتفاق على أهمية تغيير سلطة الحزب الحاكم والنضال من أجل الديمقراطية. وتكونت جبهة وطنية تشمل حزب التجمع والحزب الناصري وحزب الوفد والمنظمات اليسارية بمختلف اتجاهاتها. وقامت الحملة الشعبية من أجل التغيير (الحرية الآن) بحملة واسعة سواء من خلال هذه الهيئات أو الصحافة المعارضة والمستقلة ضد التمديد لرئيس الجمهورية ومقاومة الاتجاه إلى التوريث وصدر بيان في ٩ سبتمبر ٢٠٠٤ بعنوان :

" لا للتجديد .. لا للتوريث ..

نعم لانتخاب رئيس الجمهورية من بين أكثر من مرشح.

والبيان جمع حتى ٢٠٠٤/١٠/٢٣، ٦٨٩ توقيعا منها ٢٦ لهيئات مختلفة الطابع، و٦٦٣ توقيعا لأفراد القوى والأحزاب السياسية :

.... (القوى والأحزاب السياسية) ....

(١) الاشتراكيين الثوريين (٢) جماعة الإخوان المسلمين

(٣) حركة ٢٠ مارس من أجل التغيير (٤) حزب الشعب الاشتراكي

(٥) الحزب الشيوعي المصري (٦) حزب العمل

(٧) حزب الغد (تحت التأسيس) (٨) حزب حركة الكرامة (تحت التأسيس)

(٩) مركز العدالة للدراسات السياسية والاجتماعية (١٠)المركز المصري الاجتماعي الديموقراطي

.... (منظمات المجتمع المدني واللجان الشعبية) ....

(١) البرنامج العربي لنشطاء حقوق الإنسان (٢) الجمعية المصرية لدعم حق العمل

(٣) الجمعية المصرية لمناهضة التعذيب

(٤) الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان والتنمية البشرية

(٥) جمعية تضامن المرأة العربية

(٦) جمعية راية التنوير للإعلام وتنمية الثقافة والحوار

(٧) الشبكة العربية لمعلومات حقوق انسان (٨) اللجنة التنسيقية للدفاع عن الحقوق والحريات

(٩) لجنة الدفاع عن حقوق المواطن بشمال سيناء

(١٠) مؤسسة أولاد الأرض (١١) المرصد الإعلامي الإسلامي، لندن

(١٢) مركز الأرض لحقوق الإنسان (١٣) مركز الفجر لحقوق الإنسان

(١٤) المركز المصري للحق في السكن (١٥) مركز تنمية الحوار الديمقراطي

(١٦) مركز هشام مبارك للقانون

التوقيعات الشخصية ....

<u>ويطالب البيان بما يلي:</u>

١ــ تعديل الدستور بما يسمح بانتخاب رئيس الجمهورية من بين أكثر من مرشح. على ألا تتجاوز فترة رئاسته دورتين، وتقليص صلاحيات رئيس الجمهورية بما يضمن الفصل الحقيقي بين السلطات.

٢ــ إلغاء حالة الطوارئ وكافة القوانين المقيدة للحريات والإفراج عن جميع المعتقلين والمسجونين في قضايا الرأي.

٣ــ تعديل مباشرة الحقوق السياسية بما يكفل الإشراف القضائي الكامل على كافة مراحل الانتخابات.

وقد نادى بنفس هذه المطالب مع تفصيلها كثير من الشخصيات والهيئات وعدد من الصحف المعارضة والمستقلة وعديد من الهيئات التي تكونت ومازالت تتكون مثل الأدباء والفنانين من أجل التغيير والصحفيون من أجل التغيير وغيرها من الهيئات التي تتكون كل يوم وتتزايد.

كان لاتساع هذه الحركة ونموها تأثير كبير، فاضطر رئيس الجمهورية أن يقرر تعديل المادة ٧٦ من الدستور وإلغاء الاستفتاء على رئيس

الجمهورية وأن يكون اختياره بالانتخاب بين أكثر من مرشح. ولكنه لم يقرر شيئا بالنسبة لباقي مواد الدستور التي تتعارض مع الديمقراطية مثل المادة ٧٧ التي لا تضع حدا لاستمرار رئيس الجمهورية لأي مدة، ولم يشر إلى المواد الأخرى التي تجعل فعلا كل السلطات خاضعة له، ونص التعديل على أن يتخذ مجلس الشعب والشورى الإجراءات اللازمة والطريقة التي يتم بها التعديل، والذي حدث أن مجلسي الشعب والشورى وضعا شروطا تعجيزية تؤمن استمرار مبارك أو الشخص الذي يحدده الحزب الحاكم، والمتوقع بعد الرئيس أن يتولى ابنه جمال مبارك، فيتحول الأمر في واقع الأمر إلى احتكار الأسرة للسلطة وتتحول مصر بالفعل إلى دولة ملكية.

اعترضت أحزاب المعارضة التي لها وجود حقيقي على هذه القيود التي أدخلت على تعديل المادة ٧٦. ومن الشروط التعجيزية ألا يسمح للمستقلين بترشيح أنفسهم لرئاسة الجمهورية إلا بتزكية عدد من النواب أو أعضاء مجلس الشعب والمجالس المحلية لا يمكن أن يتحقق لأي حزب بسبب سيطرة الحزب الحاكم على هذه النسبة عن طريق الانتخابات الماضية والتي تمت بالتزوير الفاضح.

فكان قرار حزب التجمع والحزب الناصري وعدد آخر من الأحزاب والتنظيمات هو مقاطعة الانتخابات الرئاسية. أما حزب الوفد فقد قرر دخول رئيسه نعمان جمعه الانتخابات بقرار الأغلبية. ورغم ذلك لم يشترك في الانتخابات إلا ٢٣% من الناخبين البالغ عددهم ١٠ ملايين من مجموع ٧٨ مليون. وللتضليل والخديعة أعلن أن مبارك حصل على أكثر من ٨٠% من الأصوات أو ما يمثل ٨٠% من هذه النسبة الضئيلة التي اشتركت في الانتخابات. وبالاضافة لذلك فقد استخدمت في هذه الانتخابات أساليب بعيدة عن المساواة والشفافية فضلا عن الملايين التي صرفت لكفالة نجاح مبارك. وتقدم ممثلو الأحزاب الصورية التي لا وجود لها في الواقع كمنافسين لمبارك.

ونتيجة لذلك رفعت منظمات المجتمع المدني دعوى ضد الحزب الوطني وحكومته لسياسة الاستبداد والفساد واحتكار السلطة والثروة.

*

الانتخابات النيابية
عام ٢٠٠٥

تكرر في الانتخابات النيابية نفس الأسلوب ونفس التجاوزات التي اتبعت في الانتخابات الرئاسية بصورة أوضح. وظهر جلياً أن أجهزة الإعلام والدعاية الانتخابية يسيطر عليها الحزب الوطني منذ فترة طويلة قبل الانتخابات فقد استخدمها مع كل أجهزة الدولة لخدمة مرشحيه ولم يكفيه ذلك بل استخدمت أساليب التزوير المباشرة لهذا الهدف.

وقد ظهر ذلك بوضوح في انتخابات المرحلة الأولى وفي دوائر الوزراء والشخصيات التي يحرص الحزب الوطني على وصولها إلى مجلس الشعب، مثلما حدث في دائرة آمال عثمان الذي أعلن فوزها بعد أن أذيع نبأ فوز المرشح المنافس فقامت مظاهرة كبيرة في ميدان الدقي احتجاجا على ذلك. وحدث نفس الشيء في دائرة مصطفى الفقي وعدد من الدوائر التي أعلنت فوز الوزراء التي تحرص الدولة على أن يدخلوا مجلس الشعب.

وكانت السمات المميزة للانتخابات في الجولة الثالثة هي التدخل الأمني المكثف ومنع الكثير من الناخبين من دخول اللجان الانتخابية بل وإغلاق بعض اللجان (خصوصا في الدائرة المرشح فيها حمدين صباحي)، وكذلك الاشتباك مع الناخبين وإصابة حوالي سبعين ناخبا ومقتل العديد منهم واستخدام الأسلحة النارية وأساليب القمع الأخرى.

وشاهدنا منذ المرحلة الأولى عدم سلامة كشوف الناخبين التي كانت وزارة الداخلية مختصة بوضعها. فلم يجد كثير من الناخبين أسماءهم في هذه الكشوف. أنا نفسي عانيت من ذلك بحيث لم أستطيع ممارسة حقوقي الانتخابية في دائرة قصر النيل. واستمرت ممارسة تسجيل أسماء الموتى. ولم يكن إشراف القضاء كاملا بل استكمل باشراك النيابة والنيابة الإدارية. وكان الفساد الأكبر الرشاوي بمبالغ كبيرة وصلت إلى الملايين، وهي الأمور التي تحدثت عنها أيضاً الصحف القومية. وتزايد ذلك في الدورة الثانية التي اقترن فيها استخدام الرشاوي بالعنف والبلطجة. وشارك في ذلك الإخوان المسلمون الذين استخدموا شعارات دينية رغم تحريم ذلك، وأصبح الشعار السائد «الإسلام هو الحل». ولكن لم يتعرض لهم الأمن أو أية جهة إدارية. ورغم إعلان أنهم جماعة محظورة فقد تركت لهم حرية استخدام هذه الشعارات وكذلك ترك الكثيرون من أنصار الجماعة يستخدمون الرشاوى والعنف.

ورغم أن الإخوان المسلين اشتركوا مع باقي فصائل المعارضة في الجبهة الوطنية فقد حرصوا على استعمال شعاراتهم الخاصة وبالذات شعار «الإسلام هو الحل» وحرصوا على عدم التنسيق مع أحزاب المعارضة الذين كانوا يشاركون معهم في الاجتماعات التمهيدية ووصل بهم الحد إلى الخروج على تعاون أحزاب وتنظيمات الجبهة الوطنية إلى درجة أن بعض أعضائهم رشح نفسه ضد مرشحي أحزاب المعارضة الأخرى كما حدث في دائرة كفر شكر ضد خالد محي الدين وغيرهم من ممثلي المعارضة مما يثير الشكوك على مدى التعاون بينهم وبين الحكومة والحزب الوطني.

ترددت أخبار منذ فترة عن محاولة الإدارة الأمريكية إقامة علاقات مع الإخوان المسلمين، وهم يستغلون في ذلك أن الإخوان المسلمين لا يرفضون ذلك خصوصا وأن لهم تجارب قديمة في التعاون معهم في أفغانستان ضد الغزو السوفييتي. وقد رددت تصريحات كثيرة من المسئولين الأمريكيين بأنه يجب التسليم بالتوجه الإسلامي السائد عند الشعوب الإسلامية خصوصا وأن هذا التوجه يسود عند الأجهزة المسيطرة على الإعلام الرسمي في الإذاعة والتليفزيون وغيرهما من أجهزة الإعلام كما يظهر في توجهات الأزهر

ومجمع الشئون الإسلامية المشهورة بأحكام التكفير والعمل ضد أي دعوات متحررة مثل أحكام التكفير ضد نصر حامد أبو زيد وغيرهم.

ويستخدم الإخوان المسلمون ذلك ويستخدمون المساجد والمؤسسات الدينية والشعور الطاغي بأننا شعب مسلم ويستخدمون شعار «الإسلام هو الحل» للزعم بأن مفهومهم عن الإسلام هو الطريق للخلاص من الفساد والظلم اللذين تعاني منهما الجماهير.

ومما يساعد على زيادة نفوذ الإخوان المسلمون، إلى جانب الإعلام الذي يُخدم عليهم، أنهم ومنذ فترة طويلة نجحوا في تقديم الخدمات للجماهير وخصوصا في المجالات الصحية وغيرها. يستخدمون في ذلك الأموال الهائلة التي تصلهم من المؤسسات الإسلامية المنتشرة في البلاد العربية مثل السعودية.

أثناء هذه الانتخابات حرص الأمن على عدم التدخل للتصدي للعنف والتجاوزات من جانب مرشحي الحزب الوطني ومرشحي الإخوان المسلمين. وقد وصلت هذه التجاوزات إلى حد الاعتداء على بعض القضاء لدرجة مطالبتهم في شكواهم ضد أجهزة الأمن إلى تدخل القوات المسلحة. وكان موقف القضاء صريحا في نقد وكشف النواقص في العمليات الانتخابية. وقد شارك في هذا الكشف بعض الصحف القومية وبعض الإذاعات مثل الإذاعة البريطانية وبعض الأجهزة القضائية. ورغم الإعلانات التي حرصت على بثها أجهزة الإعلام التابعة للحكومة للإشادة بهذه الانتخابات سواء قبل بدءها أو أثناءها، كشف الفساد والتزوير الذي شاب هذه العملية الانتخابية، هذا الفساد الذي تجاوز درجة التزوير الذي ساد في كل الانتخابات السابقة.

ورغم التأكيد على أن جماعة الإخوان المسلمين «محظورة» فقد استمرت أجهزة الدولة والحزب الوطني في التعاون معها .. إنني أعترض على حظر أي جماعة سياسية بل ويجب الاعتراف بحقها بأن يكون لها حزبها الخاص بما في ذلك جماعة الإخوان المسلمين، إلا أن هذه الجماعة تؤكد أنها ليست جماعة أو حزب سياسي، بل جماعة دينية وتستخدم واقع أننا أمة إسلامية وأن غالبية الشعب ينتمي إلى الدين الإسلامي، فيصورون أنفسهم بأنهم وحدهم المدافعين عن الإسلام ويدعون إلى التعصب الديني ويستخدمون شعار «الإسلام هو الحل» كأن الدعوة الإسلامية التي يدعون إليها هي الكفيلة بالتخلص من الفساد والظلم والنهب الذي يسود الوضع الحالي.

ومن الملاحظ أنه بالإضافة إلى كل التجاوزات السابق ذكرها في الانتخابات البرلمانية وقبلها الانتخابات الرئاسية، مقاطعة الغالبية للانتخابات. فإن كانت المشاركة في الانتخابات الرئاسية لم تتعد ٢٣% وتراوحت المشاركة في الانتخابات النيابية حول هذه النسبة، مما يعكس عدم ثقة الغالبية في جدية هذه الانتخابات بسبب تزويرها أو عدم صحة الكشوف الانتخابية وكان ذلك هو الأمر في الانتخابات السابقة وقد تأكد ذلك في الانتخابات الحالية عام ٢٠٠٥.

ومن الدروس التي تستخلص من هذه التجربة، أن على اليسار والقوى الوطنية والديمقراطية الاستفادة من خبرة الإخوان المسلمين في كسب الجماهير. لن نستطيع مجاراتهم في صرف الأموال أو في أساليب العنف والبلطجة ولكن يجب التوسع في تقديم الخدمات للجماهير ومنها الخدمات الصحية ومحو الأمية والتضحيات المالية، والعمل في مجال التعليم أو الأنشطة الرياضية والحرص على الوحدة والتجمع والوجود دائماً بين الجماهير ولدينا أمثلة جيدة في هذا المجال مثل دائرة محمد عبد العزيز شعبان وغيرها.

ويدور النقاش حول إلغاء الانتخابات أو حل مجلس الشعب الذي ستسفر عنه نتيجة الانتخابات.

وإذا ترك هذا المجلس، الذي تحرص حكومة الحزب الوطني على أن يكفل أغلبية أكثر من ثلثين لممثلي الحزب الوطني الذي تتكفل به الحكومة، فسيؤدي ذلك إلى امرار كل التشريعات التي تأمل في إمرارها بالرغم من وجود الإخوان المسلمين بالأعداد الكبيرة التي حصلوا عليها. فقد بينت التجربة في مجلس النواب السابق على أن معارضتهم ستكون هزيلة فسيركزوا على القضايا التافهة التي لا تمس المصالح الحقيقية للجماهير الشعبية.

***



نحو تضامن شعوب العالم

في النضال ضد الحرب والإرهاب

(٨) سيطرة الأساليب الإدارية والبيروقراطية في القيادة، والنزوع إلى الوحدة الشكلية، والاستبداد في اتخاذ القرارات والكتمان والكهنوتية، والموقف الشكلي في المسائل السياسية.

(٩) سيطرة السرية والكتمان حتى بالنسبة لأعضاء القيادة (اللجنة المركزية والمكتب السياسي)، مع تفشي الأسرار وتسربها لمن لا يجب أن يعرفها، وذلك عن طريق الشللية وعدم المواجهة ونشر الإشاعات والتشهير بالكادر. فلا يعرف المكتب السياسي مثلا أي شيء عن حجم العضوية ويعتبر ذلك من الأسرار.

(١٠) إلغاء دور المكتب السياسي واللجنة المركزية فلا يجتمعان إلا في مواعيد متباعدة ويتحولان إلى هيئات شكلية مهمتها إقرار ما تريده السكرتارية المركزية.

وقد قدمت الاقتراحات التالية كعلاج لهذا الوضع:

(١) الحرص على اجتماعات دورية للجنة المركزية مرة كل ستة أشهر على الأقل يتم إعداد جيد لها، وأن يسبقها حوار حول القضايا المطروحة في جدول الأعمال.

(٢) الحرص على اجتماعات المكتب السياسي مرة كل إسبوعين على الأقل. ولا ينهى الاجتماع قبل الانتهاء من جدول الأعمال. والذي يحدث في الممارسة أن تحدد ساعات محدودة لاجتماع المكتب السياسي نظر الانشغال بعض أعضاءه غير المتفرغين وتحال باقي نقاط الجدول إلى السكرتارية المركزية. وتصر السكرتارية المركزية أن تكون رئاسة جلسات المكتب السياسي أو اللجنة المركزية بيد أحد أعضاء السكرتارية وبذلك يمكن التحكم في اجتماع المكتب. وقد رفض الاقتراح الذي قدمته بأن يتناوب أعضاء المكتب السياسي رئاسة جلساته تطبيقا للديمقراطية.

وتتخطى السكرتارية المركزية مهام اللجنة المركزية والمكتب السياسي مخالفة بذلك اللائحة التي تنص في مادتها ٢٠ على ما يلي: «تتولى سكرتارية اللجنة المركزية تنفيذ المهام اليومية للحزب طبقا لقرارات اللجنة المركزية والمكتب السياسي. وتراقب تنفيذ القرارات وتقدم التقارير الدورية عن نشاطها إلى المكتب السياسي».

قبل ١١ سبتمبر كانت العولمة الرأسمالية التي تقودها أمريكا تحاول فرض سيطرتها على شعوب العالم عن طريق احتكار الثروة أساسا. بعد ١١ سبتمبر أصبح الطابع العسكري يغلب على هذه العولمة.

ظهر ذلك بوضوح عندما بدأت الحرب ضد أفغانستان. وكانت الإدارة الأمريكية تحاول تعبئة غالبية الدول والشعوب تحت قيادتها في هذه الحرب تحت ستار الحملة ضد الإرهاب مستفيدة من استنكار غالبية الشعوب والدول للعمليات الإرهابية التي مورست في نيويورك وواشنطن والتي أصابت الآلاف من المدنيين الأبرياء.

ونجحت القيادة الأمريكية التي يمثلها بوش في كسب تأييد كبير من الشعب الأمريكي لمخططاته العسكرية. ووجد تفهما بين غالبية الرأي العام في أوروبا والغرب. وحاول كسب الدول العربية فتحدث عن إقامة دولة فلسطينية مما سبب شجارا بينه وبين شارون. ولكن بعد تحقيقه الانتصار السريع في أفغانستان ضد طالبان، أسفر بوش عن أهدافه الحقيقية وأعلن عن مساندته الكاملة للعدوان الإسرائيلي المستمر ضد الشعب الفلسطيني واعتبار هذا العدوان دفاعا شرعيا عن النفس، وان انتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال والعدوان المستمر إرهاب.

وقال ان الحملة ضد أفغانستان ليست هي نهاية المطاف فيما سماه بالحملة ضد الإرهاب. بل أخذ يردد أسماء دول أخرى هي العراق وإيران وكوريا الشمالية ولمح إلى دول أخرى لم يسمها. وأخذ يهاجم الرئيس الفلسطيني عرفات ويحمله مسئولية ما يسميه الإرهاب (وهو ما نعتبره نضالا

مشروعا للشعب الفلسطيني من أجل تحرره ومن أجل مطالبته بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة في إقامة دولة فلسطينية مستقلة وتفكيك المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية وحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم). هذا النضال الذي يتزايد عدد الإسرائيليين الذين يتفهمونه، والذي يعبر عنه أعداد متزايدة من ضباط الاحتياط والجنود الإسرائيليين الذين يرفضون الاستمرار في العدوان ضد الشعب الفلسطيني، ويعبر عنه الآلاف الذين تظاهروا أخيرا في تل أبيب مطالبين بإنهاء الاحتلال ووقف العدوان.

حاول شارون أن يستفيد من أحداث ١١ سبتمبر ليصور نفسه أنه يقوم بنفس الحملة ضد الإرهاب في اعتداءاته على الشعب الفلسطيني وحصار الرئيس عرفات ومنعه من ترك رام الله وسمي عرفات بن لادن الشرق الأوسط. لم تتحرك أمريكا التي عهد إليها أن تكون الراعية، وأخذ بوش يهاجم عرفات ولا يفعل شيئا لفك هذا الحصار ويرفض لقاءه ويتهمه بالمسئولية عن العنف والإرهاب. ولم يتحرك تجاه العدوان المستمر وتدمير المنازل الفلسطينية وقتل المدنيين واغتيال عدد متزايد من الشخصيات الفلسطينية.

وهذا كله يثير الغضب لدى الشعوب العربية. وفي ظل الحرب غير المتكافئة التي يشنها شارون ضد الفلسطينيين بأسلحة ومساندة أمريكية يجد بعض الفلسطينيين أن العمليات الانتحارية هي الطريق الوحيد لمقاومة العدوان الإسرائيلي. وهذه العمليات في حقيقة الأمر تعبر عن اليأس من تحقيق أي نتيجة بل وتعبر عن اليأس من الحياة نفسها. ويحاصر الرئيس عرفات ويمنع من الخروج من رام الله ولا تحرك الإدارة الأمريكية ساكنا بل تبارك ذلك وتلقي المسئولية على عرفات المحاصر.

وذلك رغم إعلان عرفات وقف إطلاق النار واعتقال بعض المسئولين عن العمليات الانتحارية في إسرائيل وعلى رأسهم قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي انتخب بعد اغتيال الإسرائيليين لأبو على مصطفى الزعيم السابق.

وقد نجحت السلطة الفلسطينية واستجابت كل الفصائل الفلسطينية لوقف إطلاق النار لمدة ٢١ يوما ولكن القوات الإسرائيلية واصلت عدوانها وقصفها وغزوها للأراضي الفلسطينية وقتل المدنيين بحيث اضطر الكثير من

الفلسطينيين إلى الرد. وآخر هذه العمليات قامت بها فتاة فلسطينية في العشرينيات من عمرها لم تكن تنخرط في أي منظمة سياسية وكانت تعمل ممرضة تواجه كل يوم العمليات البشعة وعلاج الجرحى الأطفال التي لا ترحمهم الدبابات والمروحيات والطائرات الإسرائيلية، اضطرت عندما فاض بها الكيل أن تفجر نفسها بين الإسرائيليين مخلفة قتيل إسرائيلي والمئات من الجرحى.

والحقيقة أن المسئول الحقيقي عن هذه العمليات التي تعبر عن اليأس هو شارون وسياسته التي لا تريد السلام.

هذه الممارسات الإسرائيلية تقوي الشعور بين الفلسطينيين وبين العرب عموما بأن الطريق الوحيد لمقاومة العدوان واستمرار الاحتلال هو العمليات الانتحارية. فالقوتان غير متساويتين. فالفلسطينيون لا يملكون الطائرات أو الدبابات أو مختلف أنواع الأسلحة التي تملكها إسرائيل وتزودهم بها الولايات المتحدة الأمريكية. ويجد الفلسطينيون أنفسهم في مواجهة قوة غاشمة مستمرة في العدوان ويدفعهم يأسهم إلى تفجير أنفسهم وسط الإسرائيليين. وكلما تصاعد العدوان والسياسة الشارونية يتزايد بين الفلسطينيين والعرب عدد من يؤيدون هذه العمليات. وتنجح الجماعات الأصولية المتطرفة في استغلال هذا الجو الذي يخلقه شارون وسياسته. وإذا رجعنا إلى التاريخ نجد ان إسرائيل هي التي ساعدت على خلق حماس منذ فترة وقبل قيام السلطة الفلسطينية وشجعتها للوقوف ضد عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وهذا يعني أن هناك تعاون موضوعي بين شارون في سياسته وبين الجماعات الإصولية المتطرفة التي تطالب إسرائيل وأمريكا بضربها وفك بنيتها التحتية.

ونحن نقول وكذلك كان يقول عرفات أن الحل ليس هو العمليات الانتحارية اليائسة، ولا هو تفجير النفس وسط المدنيين، بل الطريق هو ربط النضال الفلسطيني من أجل حريته بنضال شعوب العالم كله ضد استخدام القوة العسكرية لفرض السيطرة على شعوب العالم الذي تناضل من أجل حريتها وضد الفقر والاستغلال.

ان شعبنا يقف ضد الارهاب ويدين العمليات الإرهابية التي مورست ضد المدنيين في ١١ سبتمبر في نيويورك وواشنطن، ولكنه يرفض أيضا

الإرهاب الذي تمارسه الآلة العسكرية الأمريكية ضد الشعب في أفغانستان والعراق وتهدد بممارسته ضد شعوب أخرى. وتمارسه العسكرية الإسرائيلية بقيادة شارون ضد الشعب الفلسطيني الذي يناضل من أجل حريته وحقوقه التي قررتها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن.

لقد كان التجمع الذي حدث في دربن بجنوب أفريقيا والذي أكدت فيه الغالبية العظمى من المنظمات غير الحكومية في أوروبا وأمريكا تأييدها لحقوق الشعب الفلسطيني وأدانت الممارسات الإسرائيلية العنصرية. كان هذا التجمع تحولا هاما ربطت فيه هيئات عديدة وكذلك ممثلو الشعب الفلسطيني والشعوب العربية بين النضال ضد العولمة الرأسمالية ونضال الشعب الفلسطيني من أجل حريته.

حدث ذلك قبل عدة أيام من ١١ سبتمبر. وفي ١٠ سبتمبر قامت في القاهرة مظاهرة كبيرة في ميدان التحرير تندد بالفيتو الأمريكي في مجلس الأمن حماية للعدوان الإسرائيلي. وقدم ممثلو اللجنة الشعبية المصرية لمساندة الانتفاضة مذكرة احتجاج إلى السفارة الأمريكية.

وكان من الممكن مواصلة هذا التحرك في اتجاه مزيد من الارتباط بين نضال الشعب الفلسطيني من أجل حريته ونضال شعوب العالم ضد العولمة الرأسمالية.

بعد أن شنت أمريكا وحلفائها الهجوم على أفغانستان قامت المظاهرات في مختلف بلاد العالم خصوصا في المدن الأوروبية والأمريكية تهتف " لا للحرب ولا للإرهاب ".

ان الكفاح ضد الإرهاب لا يكون بتجييش الجيوش لإرهاب الشعوب وقذفها بالقنابل وقتل المدنيين واستخدام الأسلحة الفتاكة للإبادة التي تشمل الأبرياء. ان قتل الأطفال ليس كفاحا ضد الإرهاب بل هو الإرهاب في أبشع صوره. إن هدم البيوت وتشريد السكان الآمنين وتجريف الأراضي واغتيال الفلسطينيين ليس كفاحا ضد الإرهاب بل هو أقذر أنواع الإرهاب الذي تحرمه القوانين الدولية ومبادئ حقوق الإنسان.

ان النضال ضد العولمة الرأسمالية التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة بوش وإدارته بمساندة شارون وجماعته اليمينية، يتطلب

تضامن الشعوب وتعاونها لايقاف هذه الجريمة النكراء. وفي استطاعة هذا النضال ان يؤتي ثماره. ويبعث الأمل في نفوس المناضلين بين الشعب الفلسطيني وغيره في أن التصدي للعدوان الإسرائيلي المستمر لا يكون بالعمليات الإنتحارية التي تعبر عن اليأس وإنما في ضم جهودهم مع مختلف شعوب العالم التي تناضل ضد العولمة الرأسمالية، ضد الحرب وضد الإرهاب.

إن القرارات الأخيرة للاتحاد الأوروبي الذي انعقد في اسبانيا والمبادرة الفرنسية لتسوية النزاع العربي الإسرائيلية ومعارضة الانحياز الأمريكي للعدوان الإسرائيلي هو خطوة هامة في الطريق الصحيح. وكذلك رد الفعل المعارض على الخطاب الذي ألقاه بوش عن حالة الاتحاد والتي حمل تهديدا لدول أخرى مثل العراق وأيران وكوريا الشمالية وبلاد أخرى لم يحددها هو خطوة يجب أن تعقبها خطوات.

وإن الاعتراضات على الزيادة الجديدة للميزانية العسكرية الأمريكية والذي لاقى معارضات في العالم وفي أمريكا وتصويت الكونجرس الأمريكي ضدها يؤكد أن نضال الشعوب ضد عسكرة العولمة يمكن أن يؤتي ثمارا. ولكن هذا يتطلب المزيد من العمل ومزيد من دعم التضامن بين الشعوب ونضالها من أجل السلام والعدالة.

وقد أدى استمرار المجازر البشعة في الأراضي الفلسطينية والعدوان المستمر على هذه الأراضي إلى صحوة داخل الشعب الإسرائيلي وتحرك قوى السلام هناك ومظاهرات تطالب بوقف الاحتلال وانسحاب القوات الإسرائيلية. وإن العصيان الذي أعلنه حوالي ٢٠٠ ضابط وجندي إسرائيلي ورفضهم المساهمة في هذه المجاذر هي خطوة هامة نرجو أن تتسع ويعقبها خطوات أخرى للتضامن بين الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني من أجل السلام ومن أجل حق الفلسطينيين في الحرية وإقامة دولتهم المستقلة وتفكيك المستوطنات وحق اللاجئين في العودة.

تقول الإدارة الأمريكية أن بن لادن وتنظيم القاعدة هو الذي خطط وقاد العمليات الإرهابية يوم ١١ سبتمبر في نيويورك وواشنطن. بررت بذلك حملتها العسكرية ضد أفغانستان والعراق والحملات الأخرى التي تمهد لها في بلاد أخرى وإقامة القواعد العسكرية في آسيا الوسطى. لو صح ذلك لكان

بن لادن وأعوانه قدموا خدمة لا تقدر بثمن للإدارة الأمريكية وجيوشها لتنفيذ مخططاتها التي لم تكن تجرؤ عليها قبل ١١ سبتمبر. ويثير هذا الانطباع بأن بن لادن يواصل مهمته السابقة كعميل للمخابرات المركزية الأمريكية عندما كانت تدربه وتدرب أنصاره ممن يسمون " بالأفغانيين العرب " وتقدم لهم السلاح لمواصلة حربهم ضد الوجود السوفييتي في أفغانستان في الثمانينيات.

لكي يواصل شارون سياسته العدوانية ضد الفلسطينيين ولمنع أي اتفاقيات مع الفلسطينيين لاحلال السلام ولوقف اتفاقيات السلام السابقة دعا إلى تكوين حكومة وحدة وطنية في إسرائيل ونجح في البداية أن يحصل على تأييد كبير من الإسرائيليين. أليس من الطبيعي أن يعمل عرفات على تحقيق الوحدة الوطنية بين الفصائل الفلسطينية (رغم الخلافات بينها) ليكون أقدر على مقاومة العدوان الإسرائيلي. ألا يدعونا ذلك إلى فهم حرص السلطة الفلسطينية بقيادة عرفات على عدم إنجاح مخطط شارون ووراءه الإدارة الأمريكية ضد الانتفاضة لإشعال الصراع والاقتتال بين الفلسطينيين. ومع ذلك تطالب إسرائيل وأمريكا عرفات بالقبض على الجماعات المتطرفة وبالذات أنصار حماس والجهاد الإسلامي وغيرهم من الفصائل وفك بنيتها التحتية، بحجة أنهم الذين كانوا يقومون أساسا بالعمليات الانتحارية بين المدنيين في إسرائيل تلك العمليات التي كان يدينها عرفات والسلطة الوطنية الفلسطينية. وعندما استجابت هذه الفصائل حرصا على الوحدة الوطنية وأوقفت هذه العمليات، لم يعجب هذا شارون. فرغم أوامر عرفات بوقف إطلا النار استمر العدوان الإسرائيلي والتوغل في الأراضي الفلسطينية ومواصلة عملية هدم المنازل وقتل المدنيين واغتيال الشخصيات الفلسطينية مما اضطر الفلسطينيين إلى الرد والمقاومة.

إن الشعب الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية تقوم بنضال مشروع أقره ميثاق الأمم المتحدة وتقره كل الشرائع في مقاومة الاحتلال. وهو ما تسميه الإدارة الأمريكية وشارون بأنه إرهاب. رغم أن الإرهاب الحقيقي هو ما تمارسه أمريكا وإسرائيل.

إن خبرة العملية العسكرية التي قادتها أمريكا فـــي أفغانســتان والتـــي نجحت من خلالها في تحطيم مقاومة طالبان دون أن تخســـر غيـــر عـــدد لا يذكر من جنودها، إن هذه العملية تغري أمريكا بالتعاون السافر مع إســـرائيل بمواصلة هذه التجربة في أماكن أخرى من العالم مثل العراق لتطويع شعوب العالم لمخططات العولمة الرأسمالية بقيـادة أمريكـا ولمواصــلة العمليــات العسكرية ضد الشعوب التي لا تخضع لهيمنتها. إن التضامن بين كل شعوب العالم يجب أن يكون ضد هذه العولمة الرأسمالية وضـد شـكلها العســكري العدواني الجديد. إن النضال ضد الحرب وضد الإرهاب وهما وجهان لعملــة واحدة يحتاج لجهد كبير وإلى التضامن بين قوى عديدة تحارب ضـــد الفقــر والبطالة من أجل إلغاء ديون العالم الثالث ومن أجل حرية بلادها واستقلالها.

***

أهداف ندعو للنضال من أجلها:

(١) التحرك في كل العالم ضد الحرب وضد الإرهاب.

(٢) رفض وصف نضال الشعوب من أجل الحرية وضد الاحتلال بالارهاب. النضال من أجل الحرية هو نضال مشروع. أما العدوان على الشعوب الذي تمارسه أمريكا وإسرائيل وقتل المدنيين فهو أشد أنواع الإرهاب.

(٣) الدعوة إلى رفض الخدمة العسكرية في الحروب العدوانية.

(٤) العمل على القضاء على السلاح النووي وأسلحة الدمار الشامل.

(٥) العودة للمبادئ والأسس التي أرساها المجتمع الدولي بعد الحرب العالمية الثانية: الحفاظ على السلام ـ ضد العنصرية ـ حق الأمم في تقرير مصيرها ـ رفض العدوان وإدانته ـ الدفاع عن حقوق الإنسان ـ المساواة بين الشعوب والأجناس والأديان والوقوف ضد الاضطهاد بسبب الجنس أو الدين أو العقيدة ـ تعاون كل شعوب العالم ضد الفقر والتعاون من أجل التنمية.

(٦) تخفيض السلاح تمهيدا لنزعه إلا للدفاع عن القيم والأهداف السابق الحديث عنها.

(٧) استفادة كل شعوب العالم دون تفرقة من التقدم العلمي والتكنيكي.

(٨) عولمة من أجل رخاء الشعوب وتقدمها. والنضال ضد العولمة الرأسمالية التي تزيد القلة الثرية ثراء وتزيد افقار الغالبية الساحقة من شعوب العالم.

***



اللقاءات الدولية

ضد العولمة الرأسمالية

ويجب أن تعمل السكرتارية على ضمان تحقيق علاقة مستمرة بين أعضاء المكتب السياسي وأعضاء اللجنة المركزية والكادر الأساسي في الحزب وتحقيق أقصى استفادة من عمل المكاتب المركزية (المساعدة للجنة المركزية) وضمان إجراء الحوار في هذه الهيئات القيادية عند التحولات السياسية الهامة واستخدام كل الإمكانيات المتاحة لتحقيق ذلك.

هذا هو ما كتبته وقتها وما حاولت الكفاح من أجل تحقيقه، حتى يمكن الاستفادة من آراء وخبرة الجميع وخصوصا أعضاء القيادة. ولكن كل المحاولات كانت بلا جدوى. فكان هناك إصرار على استحواذ السكرتارية المركزية على كل السلطات وكل المعلومات.

وبهذه الطريقة لا تبحث أي قضية مهما كانت أهميتها بطريقة جادة، ولا يدور حولها حوار حقيقي بل تحل المسائل بطريقة «التشهيلات».

* الكفاح من أجل علنية الحزب

بهذه الطريقة كانت تناقش سياسة الحزب وأسلوب العمل.

وبهذه الطريقة جرت مناقشة قضية هامة عرضتها على المكتب السياسي. وهي قضية «علنية الحزب». وعن ذلك أنني كنت أعتقد أننا يجب أن نتجه للعمل العلني ونتوسع فيه وألا نتمسك بالسرية في مسائل لا تحتاج إلى السرية، وفي الحقيقة أنها كانت سرية بالنسبة لنا فقط، لمن لا ضرورة ولا حاجة للسرية بالنسبة لهم.

وكان هذا التوجه الذي كنت أدعو إليه يتفق مع تقاليدنا الثورية. وكنت أعتقد أن وجودنا نفسه يمكن بل ويجب أن يكون علنيا. وكتبت العديد من التقارير في هذا الاتجاه وناقشت هذا الموضوع أكثر من مرة. ولكن كان هناك تسليم بالوضع القائم. وفيما يلي بعض ما كتبته في هذا الشأن.

من توجهاتنا الهامة الاتجاه لفرض العلنية. وقد تحقق بالفعل الكثير من الخطوات منها :

(١) دخول الانتخابات بمرشحين شيوعيين.

(٢) تواجدنا في التجمعات الجبهوية المختلفة.

اللقاء الدولي في باريس ١٣ ـ ١٦ مايو ١٩٩٨

دعا منظمو اللقاء الدولي الذي انعقد بباريس في مايو ١٩٩٨ جميع الراغبين في الجمع بين المدخل النقدي للتجربة التاريخية ومناقشة آفاق البدائل الممكنة في إطار النضال من أجل الخلاص الإنساني.

وقد وجه لي مكتب الإعداد لهذا اللقاء دعوة خاصة لهذا الاجتماع وطلبوا مني أن أكون من المتبنين له من مصر أنا والأستاذ محمود العالم. وقد قمت بتقديم مداخلة أضيفت لأوراق اللقاء.

وجاء في الدعوة :

« رغم مرور ١٥٠ عاماً على نشر البيان الشيوعي، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين، تتجدد مرة أخرى وبحدة أكثر مسألة البديل التاريخي للرأسمالية في إطار النضال من أجل تحرير البشرية.

ويظن دعاة العولمة في ظل سيادة وهيمنة الرأسمالية أنهم قد حققوا الهدف؛ إلا أنه في كل مكان جرت وتجرى تعبئة وحشد قوى عديدة متنوعة في أنشطتها وأفكارها تتصدى للعولمة الرأسمالية وتمهد الطريق لمنظورات جديدة للتحرير والخلاص. وتتخلق الآن روابط جديدة بين أفكار وأنشطة المقاومة تلك بصورة متنوعة – تختلف من بلد لآخر– وفي إطار احترام تعددية الالتزامات والرؤى التاريخية وتصورات المستقبل.

ومن هنا كان هدف المؤتمر المزمع عقده والنشرة التي بين يدي القارئ هو مناقشة الخبرة والتحديات في سياق لم يتحقق من قبل، من أجل تحقيق البحث النقدي وبعث الطموح. إننا نسعى لجمع شتات الأفكار

والمعلومات حول النشاط الذي نعدله، وكافة ما نشر وينشر حول هذا الموضوع في جميع قارات كوكبنا، والمساهمة في نشر هذه المعلومات للمساهمة في تعظيم ديناميات تبادل الأفكار والتصدي لفتح آفاق وممكنات جديدة. وتلك هي علامة عصرنا.

وبالفعل أصبح لدينا صلات ومعلومات عن أصداء وعدد من المبادرات في جميع القارات تتكامل مع نشاطنا.

وهذه النشرة هي ملك لجميع مؤيدي عقد هذا اللقاء الدولي، وكذا جميع الراغبين في التعاون – بهذ الشكل أو ذاك- مع المشروع والمساهمة فيه.

تلك هي دعوة لنصوغ معاً رؤية وعملاً كبيرين مملوءين بالأمل.

خاصة وأن أصل وجوهر البيان الشيوعي كان الربط بين المعرفة النقدية والرؤية المستقبلية.

وبعد مرور ١٥٠ عاماً على صدور البيان لابد من انتهاز هذه المناسبة التاريخية من أجل دفع العمل وتبادل الرأي والربط الخلاق بين النشاط البحثي والحركات الاجتماعية والسياسية، مع إعطاء الاحترام الواجب لمساهمات وأهداف المشتركين المختلفين.

إن مختلف الداعين لهذا اللقاء الدولي يعبرون عن أملهم في تحقيق الأهداف الآتية :-

١ـ المساهمة في البحث النقدي للفكرة الثورية والاشتراكية والشيوعية؛

٢ـ الموازنة بين الفكرة وما تحقق من إنجازات ومساهمات ومآسي وإخفاقات ؛

٣ـ إلقاء النظر على مستقبل المشروع الخلاصي الشيوعي لتحرير الإنسان، آخذين في الاعتبار التحديات التي واجهها هذا المشروع خلال القرن العشرين.»

اشتركت في هذا اللقاء الدولي الذي دعيت إليه واشترك أيضاً من مصر الأستاذ محمود أمين العالم وكان هناك مندوبون من مختلف دول العالم: من أفريقيا مندوبون من الجزائر وبنين والكونغو والمغرب والنيجر

والسنغال، ومن أمريكا اللاتينية مندوبون من الأرجنتين والبرازيل وكولومبيا وكوبا والمكسيك والدومنيكان وبورتوريكو وأروجواي، ومن أمريكا الشمالية مندوبون من كندا والولايات المتحدة، ومن آسيا مندوبون من الصين والهند وسريلانكا، ومن الشرق الأوسط مندوبون من مصر والعراق وإسرائيل وفلسطين ولبنان وسوريا وتركيا، ومن أوروبا مندوبون من ألمانيا وبلجيكا وبلغاريا والدنمرك وأسبانيا وفنلندا واليونان وهولندا وبولندا والبرتغال ورومانيا وبريطانيا وروسيا وسلوفينيا والسويد وسويسرا ويوغوسلافيا ونيوزيلندا. وتكونت لجان لهذا الهدف في عدد كبير من البلدان.

وألقى الوفد الإسرائيلي كلمة في المؤتمر هاجمت حكومة إسرائيل والعدوان على الأراضي العربية وأيدت نضال الفلسطينين من أجل تحررهم. وطلب الوفد الإسرائيلي اللقاء مع الوفود العربية فرفضت المندوبة اللبنانية. أما أنا فقد وافقت والتقيت بهم.

وقد قمنا في مصر في ٥ أكتوبر ١٩٩٧ بعقد لقاء حضره عدد من المقتنعين بأهمية اللقاء. واجتمعنا في مقر حزب التجمع للاتفاق على الاحتفال بهذا الحدث ونظمنا عددا من الندوات وقمت بالإشراف على تنظيمها وأوكل إليّ إصدار طبعة عربية جديدة من البيان الشيوعي عن طريق "دار الثقافة الجديدة"، فاتفقنا على إصدار ترجمة عفيفي الأخضر باعتبارها الأفضل.

ونفذنا فعلا عددا من الندوات (١٥ ندوة) عقدت في مقر التجمع بدأت بندوة الماركسية والفكر المصري الحديث للدكتور أنور مغيث. وندوة أخرى عن الماركسية والدين تكلم فيها محمود أمين العالم وعاطف أحمد وبعض الكتاب العرب وندوة عن الماركسية والصهيونية تحدث فيها محمود أمين العالم ود. أنور مغيث. والمفهوم الطبقي وأطروحة نهاية العمل «د. مجدي عبد الحافظ وعلى نجيب». والتخطيط واقتصاد السوق «د. إبراهيم العيسوي». وقد صدرت بعض الندوات في الكتيبات الصادرة عن "دار الثقافة الجديدة" تحت سلسلة قضايا للحوار وغيرها.

ندوات أخرى ضد العولمة الرأسمالية

واشتركت بعد ذلك في عدة لقاءات دولية في مصر وغيرها من البلاد. واشترك معي من مصر آخرين. وكنت أحاول في هذه اللقاءات عرض قضية الصراع العربي الإسرائيلي وكشف العدوان والعنصرية للجانب الصهيوني الذي يتضح في ممارسات الحكومة الإسرائيلية والدور الأمريكي المساند لها. وكان اتجاه مداخلاتي والآخرين الذين اشتركوا معي من مصر هو ربط التضامن مع نضال الشعب الفلسطيني والتأكيد على أنه جزء من النضال ضد العولمة الرأسمالية.

وكنت قد حافظت على الكثير من الصلات الدولية التي كانت موجودة وقت عملي في مجلة السلم والاشتراكية وذلك لتأكيد هذه الصلات رغم انهيار الاتحاد السوفيتي واستمرار الصلات مع قوى اليسار في العالم التي اتسعت وضمت قوى أخرى غير الشيوعيين ترفض العولمة الرأسمالية.

وتكونت في مصر لجنة ضد العولمة الرأسمالية اشتركت فيها وقدمت فيها ورقة ضد تهريب الأموال والعقول منشورة في هذا الكتاب.

الاشتراك في المؤتمر ٧٣ للحزب الشيوعي الأوكراني

ألقيت كلمة في هذا المؤتمر أكدت فيها شكرنا للمساعدات التي قدمها لنا الاتحاد السوفيتي في بناء السد العالي والصناعات الأخرى التي ساعدنا في بنائها والمساعدات الحربية الكبيرة في الدفاع ضد العدوان الإسرائيلي وقلت أننا في مصر نشكر أوكرانيا ولا نفرق بين الروس والأوكرانيين الذين كانوا يكونون جزءا من الاتحاد السوفيتي.

وتحدثت عن التهديد الذي يمثله قادة الولايات المتحدة الأمريكية الذين يساندون العدوان الإسرائيلي، والضغط الذي يمارسوه علينا لاتباع سياسة تتفق مع مصالحهم وكيف يهددون العديد من دول العالم لأنهم يتصرفون باعتبارهم القوة العظمى الوحيدة، وإن شعب بلادنا مثل شعوب العالم الثالث كله كانوا يعتبرون الاتحاد السوفيتي سنداً لهم في التصدي لهذه القوى العظمى

الوحيدة التي تهددهم، وهذه السياسة التي يسمونها سياسة العولمة التي لا تهدف إلا إلى نهب أموال هذه الشعوب، ولهذا يتمنى شعب مصر أن تواصل أوكرانيا مثل روسيا دورها القديم. لقد قال بوش بعد ١١ سبتمبر أن من ليس معنا فهو ضدنا، فيهدد تلك الدول بالعقوبات الاقتصادية ويسمى الدول الأوربية التي لا تقف معهم بأنها أوروبا القديمة التي تختلف عن أوروبا الجديدة التي تخضع لضغوطهم لتنفيذ مصالحهم. لقد اعتدت أمريكا على العراق بالرغم من معارضة غالبية أعضاء مجلس الأمن ورفض غالبية شعوب العالم لهذه الحرب العدوانية.

اجتماع الناشرين في السنغال

واشتركت في اجتماع عقد في داكار بالسنغال بناء على دعوة من الناشرين والمتضامنين. وضم هذا اللقاء ناشرين من مختلف بلاد العالم وأصدر في نهاية الاجتماع البيان التالي الذي وقع عليه ٦٠ ناشراً من ٣٥ بلداً من مختلف بلاد العالم.

....

بيـــان
الناشرين المستقلين والمتضامنين

تمس العولمة الاقتصادية والمالية كل النشاط البشري وتعمق كل يوم وبشكل متزايد الفجوة بين من هم أكثر غنى ومن هم أكثر فقراً. وقطاع النشر لا ينجو من هذا المنطق السائد، رغم أن مسئوليته أساسية في نشر الأفكار والتحليلات والاقتراحات التي تسمح له بمواجهة التحديات الكبيرة في عصرنا.

ويخضع الناشرون المستقلون اليوم لضغط اقتصادي كبير في إطار التركيز المالي في قطاعهم الذي يسوده بشكل متزايد جماعات احتكارية

تنهب الأسواق المحلية. وهذا الضغط يضر بقدرتهم لنشر الأفكار والقيم والمقترحات وطرحها للنقاش. وفي كثير من البلدان تقيد حريتهم في التعبير والإبداع والتوزيع.

ونحن ناشرون مستقلون (٦٠ ناشراً) من ٣٥ بلداً من مختلف أنحاء العالم، اجتمعوا في داكار من ١ إلى ٤ ديسمبر ٢٠٠٣، ونؤكد بقوة أن الكتاب هو مال عام وليس مجرد سلعة، ومن الضروري إيجاد تنظيم آخر بخلاف انفراد السوق بذلك.

نحن نلتزم بأن نتقاسم ونتشارك في معارفنا وقدراتنا المهنية وسلوكنا لخدمة التضامن والعدل الاجتماعي والسلام ورفض التعصب. ونؤكد الدور الجوهري للكتاب لإثراء ملكة الخيال في العمليات التعليمية وفي التنمية الاجتماعية وفي بناء المواطنة.

ونأمل، نحن الناشرين المستقلين الملتزمين والمتضامنين، أن نتحد في عملنا على أساس أخلاقي مشترك ونحقق التنوع الثقافي. ونؤكد إرادتنا في الدفاع عن النشر المستقل وننفذه، ضد روح المركزة ونعمل على نشر روح الارتباط والتعاون. نريد أن نعمل بشكل مستقل على دمقرطة وصول الكتاب، وحرية تداول الآراء والمطبوعات.

ونلتزم جميعاً بعقد اتفاقيات تجارة تضامنية بيننا، وتطوير عمليات النشر المشترك والترجمة والتوزيع المشترك بين ناشري الجنوب، بين ناشري الشمال، وبين ناشري الشمال والجنوب.

نريد تدعيم الإبداع والإنتاج المحلي، وإيجاد توازن أفضل وحوار أفضل بين الثقافات المختلفة. ونؤمن بضرورة " التنوع الثقافي ".

ونلتزم بالتعرف بشكل جماعي، ومع غيرنا من محترفي الكتابة، بالاعتماد على التفاوض الدولي من أجل التنوع الثقافي ومن أجل تنمية السياسات العامة للكتاب والقراءة.

ونؤكد بشدة تضامننا الكامل مع الناشرين الذين يعملون في البلاد التي تقيد فيها حرية التعبير.

وإدراكاً منا لمسئوليتنا ننوي القيام بدور نشيط لخلـــق مجتمـــع مـــدني عالمي، من أجل عولمة أخرى إنسانية وتضامنية.

داكار، ٤ ديسمبر ٢٠٠٣

ومازلت حتى الآن أتولى مسئولية «دار العالم الثالـــث» ؛ و«دار الثقافـــة الجديدة» التي توقفت عن النشاط والنشر مؤقتا.

♦

الفهرس

■

(٣) إبراز عدد من الشخصيات تتحدث باسمنا.
(٤) اعتراف جميع أحزاب المعارضة بوجودنا وبحقنا في الوجود العلني.
(٥) الاعتراف في الكتابات الصحفية وغيرها بوجود القوى المحجوبة عن الشرعية (ونحن منها) وتأثيرها ودورها في المجتمع.

ويثور تساؤل مشروع عند كثير من رفاقتنا وأصدقائنا. لماذا لا نأخذ هذه الخطوة الهامة ؟

ان تقليدا هاما لحركتنا الثورية أن تستفيد من كل الإمكانيات الشرعية لتوسيع علاقاتنا الجماهيرية، وأن نطرق باستمرار وإصرار باب الشرعية. وليس من تقاليدنا الثورية أن نفرض على أنفسنا السرية، ولكنها كانت تفرض علينا. وقد ناقشت قضية حق الوجود الشرعي للشيوعيين في مقال نشر في «آفاق اشتراكية» في مارس ٢٠٠٤ وفي الفصل الخامس من هذا الكتاب.

ما هي الاعتراضات التي تثار ضد الاتجاه نحو العلنية والشرعية ؟

أولاً – أن الظروف الحالية لا تسمح، وأن طلبنا سيرفض[١].

الرد على ذلك أنه لم تتوفر لنا من قبل ظروف ملائمة أفضل من الظروف الحالية، بدليل أننا نتحرك بالفعل بشكل علني ولدينا أشخاص يتقدمون بصفتهم ليس فقط كشيوعيين وإنما كممثلين للحزب. وأن تقاعسنا عن استخدام الإجراءات القانونية يفسر أحيانا بأننا نفضل العمل في الظلام. أما أن طلبنا سيرفض فلسنا أول حزب يرفض طلبه، وذلك يمنع إثارة الموضوع أمام القضاء، ولا يمنع من تحركنا كأحزاب تحت التأسيس.

ثانياً – أن قانون الأحزاب يمنع تكوين الأحزاب على أساس طبقي.

ولكن حزبنا لن يكون حزبا لطبقة واحدة. صحيح أنه يعبر عن مصالح الطبقة العاملة، إلا أنه لا يعبر عنها وحدها بل عن مصالح كل الكادحين وعن مصالح الشعب بأسره. وهذه قضية نضالية تستحق أن نخوض المعركة من أجلها لتبديد الأباطيل التي تروج عنا وبيان الحقيقية للناس.

(١) كتب هذا في منتصف التسعينات. وأعتقد أن الوضع اليوم أكثر ملاءمة.

محمد يوسف الجندي

مسيرة حياتي

(ج ٣)

*

يواصل المؤلف في الجزء الثالث من كتاب «مسيرة حياتي» طريقه في إطار اقتناعاته ويقدم آراءه في القضايا التي واجهها في التنظيم الذي ارتبط به واختلافه مع الطريق الذي سار فيه في التسعينيات وكان يرى ضرورة التحول إلى العمل العلني والشرعي وعدم التمسك بالسرية التي فرضت عليه مع العمل لتوحيد الجهود والاستفادة من كل الإمكانيات ومن كل الفرص المتاحة للعمل العلني والشرعي والاستفادة من الفرص التي تتفتح لضم الجهود وتوحيدها لتحقيق وحدة كل قوى اليسار وكل القوى الوطنية والديمقراطية المناضلة من أجل الدفاع عن مصالح غالبية الشعب من عمال وفلاحين ومثقفين وغيرهم من الكادحين ضد مصالح الأقلية المترفة والتي تستغل الغالبية، ويضحون بمصالحها خدمة لمصالحهم الأنانية .. ويتحدث عن السعي من جانب الاستعمار والصهونية والرجعية لخدمة مصالحهم بالدعوة للعولمة الرأسمالية لنهب الغالبية من البشر وكيفية النضال ضد هذه القوى، والدعوة لعولمة بديلة تتفق مع مصالح الشعوب.

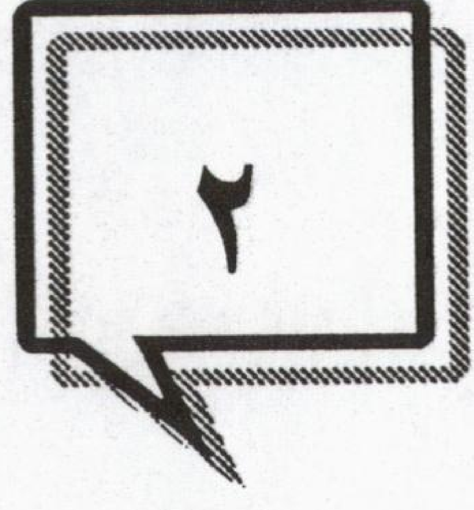
*



دار العالم الثالث

٣٢ ش صبري أبو علم باب اللوق / القاهرة
جمهورية مصر العربية
ت وفاكس ٣٩٢٢٨٨٠
Email: Elguindimohamed@hotmail.com

20



حول الأزمة التي يعشها
حزبنا خاصة واليسار عامة

لن أبدأ في الحديث انطلاقا من مبادئ عامة ونظريات مجردة بل من الوضع الواقعي الذي يعيشه حزبنا ويعيشه اليسار المصري عموما. ورغم الأزمة العامة التي يعاني منها اليسار سواء في مصر أو في العالم، رغم الظروف الموضوعية غير المواتية، فإنني أزعم أن هناك أوضاعا تتشكل حالياً سواء محليا أو عربيا أو على النطاق العالمي تضع على حزبنا خاصة وعلى اليسار المصري عامة مهمات لا يمكن أن يقوم بها غيره.

إن الهجمة العامة للردة اليمينية في بلادنا منذ السبعينيات، والتي بدأت بأغطية وشعارات ملتوية في البداية، والتي لم تتخل تماما إلا مؤخرا عن الشعارات التقدمية التي رفعت في الفترة الناصرية، ولم تبدأ إلا مؤخرا في نزع كل أقنعتها «الشعبية» وأخذت تسفر الآن عن وجهها الحقيقي في سفور كامل. وهي تتخلى الآن علنا عن كل أرديتها «الاشتراكية» السابقة، وتعلن بلا مواربة عن الحرية الكاملة للرأسمال المحلي والأجنبي وفتح الطريق لانطلاقه، دون أن تعبأ بأنه يطأ في طريقه كل مكتسبات العاملين، ودون أن تلتفت أدنى التفاتة لمصالح الغالبية الكادحة من الشعب المصري.

وقد ساعدها على هذا السفور الأزمة العامة التي يعاني منها اليسار في العالم، هذه الأزمة التي بلغت ذروتها بانهيار الأنظمة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، وتفكك الاتحاد السوفييتي وزواله من على خريطة العالم. فأصبح الناطقون باسم الردة اليمينية يعلنون صراحة أنهم اختاروا التطور الرأسمالي ونبذوا الاشتراكية بعد أن ثبت فشلها على حد زعمهم. ونحن نعلم جيدا أنهم لم يختاروا الاشتراكية أبدا، ولم يعملوا أبدا إلا لصالح القلة المترفة، وأن انتماءاتهم وميولهم وتبعيتهم هي للرأسمال الأجنبي.

ويتزامل مع نزع الأقنعة تزايد افتضاح المصالح الحقيقية التي يمثلها قادة الردة اليمينية، وتكتشف الجماهير بوضوح متزايد المسئولين عن تدهور أحوالها والهجمة الشرسة على أوضاعها المعيشية ومصالحها في مختلف المجالات.

واليسار وحده هو الذي يدافع عن مصالح الكادحين ويتصدى لهجمة اليمين الشرسة.

ولكن اليسار ينقصه الوضوح وتحديد الأهداف، وينقصه وحدة الحركة بين فصائله المختلفة ومع كل القوى الوطنية والديمقراطية والمستنيرة.

إن علينا مهمة أن نتصدى لذلك فالبديل هو سيطرة القوى الأصولية الظلامية التي تقدم نفسها كبديل للأوضاع الحالية تحت شعار أن الإسلام هو الحل.

ولكن الردة اليمينية في مصر والعالم اليوم، بدأت تثير نقيضها. فقد أخذت الجماهير تدرك زيف الأحلام التي رددت عن الحريات الاقتصادية واقتصاد السوق والرخاء المرتبط بالنمو الرأسمالي. وهذا الوعي يبشر بصعود جديد لقوى اليسار وبرامجها.

وهذا يؤكد أهمية إدراك ذلك والاستعداد له بوضوح أهدافنا وتنظيم صفوفنا.

هل نحن في حالة تسمح بالتصدي لهذا الأمر والقيام بواجبنا ؟

إن إحساسا عاما يسود بأننا لسنا في مستوى المهام الملقاه على عاتقنا.

ونقطة البدء في إصلاح أوضاع حزبنا تبدأ من الرأس. إن الخلل في أوضاعنا القيادية هو الخلل الرئيسي. وينحصر إساسا في السكرتارية باعتبارها القيادية اليومية والقيادة السياسية التي تتركز في يدها كل الخيوط والسلطات. وهو وضع فريد عندنا. إذ أن السكرتارية في العادة وفي الأحزاب الأخرى تقوم بالأعمال اليومية لتنفيذ قرارات اللجنة المركزية والمكتب السياسي بين فترات انعقادهما. ولكن السكرتارية عندنا وبالتوصيف الذي تأكد في مشروع اللائحة الأخيرة هي القيادة الحقيقية للحزب.

ما هو الخلل الأساسي في السكرتارية التي تقوم عمليا بمهام القيادة:

(١) **عدم تفرغها.** فالمهام الضخمة التي توضع على عاتق السكرتارية تتطلب التفرغ الكامل. وتحتاج إلى أجهزة مساعدة كي تستطيع أن تلاحق المهام التي يتطلبها قيادة حزب مثل حزبنا مفروض فيه أن يتصدى للمسئوليات الضخمة التي تقع على عاتقه. فالنصف الفاعل من أعضاء السكرتارية والذي يمتلك بين يديه أغلب الخيوط والإمكانيات يتركز جهده الأساسي في الخارج ويقدم للجماهير كممثل لهيئات أخرى. ويتحمل هناك المسئوليات الأولى.

(٢) احتكار هذه السكرتارية غير المتفرغة وبأوضاعها السابق شرحها للسلطة ولكل الخيوط في الحزب وإجهاضها لأي مبادرات للمناطق والمكاتب.

(٣) تحويل القيادة الرسمية في الحزب (اللجنة المركزية والمكتب السياسي) إلى هيئات شكلية لا فاعلية لها، وقد ساعد على هذا الوضع موقف الغالبية السلبي. ويرجع السبب الأساسي لهذه السلبية أن غالبية أعضاء هاتين الهيئتين يتركز جهدها الأساسي أيضاً في هيئات أخرى.

ويتلخص هذا الوضع في مركزية شديدة في يد هيئة عاجزة عن ممارسة هذه المركزية مع الافتقار إلى الديمقراطية، وإجهاض مختلف المبادرات المحلية.

وينتج عن ذلك أن يتحول الأداء الحزبي إلى أداء بيروقراطي وتتحول المركزية الديمقراطية إلى مركزية بيروقراطية. وهذا رغم الإمكانيات والطاقات والتضحيات والاستعداد للعمل الموجود عند غالبية أعضاء الحزب وأصدقائه.

هذا هو وضعنا في الوقت الذي فيه مجالات يسارية تتمتع بإمكانيات أكبر من إمكانياتنا، وتتمتع بميزة لا نتمتع بها وهي العلنية. وبعض هذه المجالات يلعب بعض أعضاء حزبنا الدور الأساسي فيها. ويؤثر تشتيت جهودهم على أدائهم سواء في حزبنا أو في هذه المجالات. وقد انعكس ذلك أيضاً على تضاؤل نفوذها وانحسار جماهيريتها.

كيف نعالج هذا .

هناك بدائل مطروحة:

(١) أن نخرج من هذه الهيئات الأخرى ونركز جهودنا داخل الحزب.

(٢) أن يخرج غالبية القياديين من الهيئات الأخرى ويكون الباقون حزبا «مستقلا».

(٣) أن نعالج الوضع انطلاقا من الأوضاع الواقعية القائمة.

البديل الأول: يعني انهيار هذه الهيئات الأخرى الذي يقوم فيه بعض زملائنا القياديين بالدور الأساسي أو تحولها إلى شيء آخر قد لا يكون له أي علاقة باليسار.

البديل الثاني: وهو ما نحاول تجربته في الوقت الحاضر بناء على قرار اتخذ ولكنه لا ينفذ رغم كل المحاولات لتنفيذه. وينفذ شيء آخر، هو تدعيم وجود زملائنا في الخارج وتحويله فعليا إلى واجهة لنا.

البديل الثالث: هو الانطلاق من الوضع القائم بالفعل والذي فشلنا في تغييره لاعتبارات ليس هدف هذا التقرير الخوض فيها. ولكنها اعتبارات واقعية عملية أوصلتنا لحالة أصبحنا نتحدث عن خطط ونتخذ قرارات وننفذ شيئا آخر، وتعالج الآن هذه العلاقة بأسلوب عملي براجماتي. فلا مانع من عقد الاجتماعات وكتابة التقارير واتخاذ القرارات طالما أن الواقع الذي ينفذ ويطبق هو شيء آخر تماما، تحكمه اعتبارات أخرى تماما، هي الاعتبارات العملية. وهذه الاعتبارات العملية لا تحكمها الاعتبارات الخاصة بنا، وإنما الخاصة بالمنظمات الأخرى.

والدليل على ذلك هو التغييرات الأخيرة التي تمت في هذه المنظمات والتي تجعلها تبدو وكأنها تتحول إلى واجهة لنا، رغم أننا نرفض ذلك نظريا وسياسيا. ونبدو الآن وكأن هناك قوة خفيفة تجرفنا إلى طريق لا نستطيع الرجوع عنه، ولا نملك تعديله.

ألا ندرك أن هذا الطريق يحول هذه المنظمات الخارجية فعليا إلى قوة طاردة، لا قوة جاذبة، ونبدو وكأننا المسئولين عن هذا التحول.

وهل نحن مستعدون لتحمل مسئولية هذا التحول أمام مجموع اليسار وأمام مجموع الحركة الوطنية والديمقراطية في مصر ؟

وألا يؤدي هذا كله إلى تقليص دور عملنا الخارجي، وإخراجه عن دوره الذي تصورناه له عند نشأته، وتصورناه كوعاء يجمع مختلف قوى اليسار وتياراته المختلفة. وهل نحن في حاجة إلى تضييق قاعدته ليصبح

على مقاسنا وحدنا؟ وهل هذا يتفق مع تقاليدنا الثورية نحو التوسع والتحالف والوحدة والعمل الجبهوي؟ ألا ندرك أن هذا قد يؤدي إلى بعض المكاسب الوقتية السريعة الزوال، والتضحية بأهداف أكبر وأبعد أثرا في نضالنا السياسي ؟

لهذه الأسباب كلها فإنني أدعو إلى رفض هذا الطريق الذي ننزلق إليه، لا نرفضه فقط نظريا وسياسيا، وإنما يجب أن نرفضه في ممارستنا العملية.

ولكن كيف الطريق إلى ذلك ؟

انني أميل أن يتقدم الجميع (مع استثناءات قليلة إذا اقتضى الأمر) ككتلة واحدة تتعاون مع قوى وكتل أخرى إلى العمل العلني. أما عن الشكل فعلينا أن نجهد أنفسنا بالتفكير والبحث عن سبل إيجاده. قد يكون ذلك في شكل منبر أو غير ذلك. ولكن نقطة البدء هو إقرار التوجه السياسي.

وفي جميع الحالات فأنا مقتنع بأنه يجب أن يكون لنا شكل من أشكال التواجد داخل التنظيمات الخارجية ومن خلالها. وهذا أمر يفرضه علينا:

(١) واجباتنا تجاه العمل الخارجي من أجل دعمه وتطويره ككيان لعبنا دورا أساسيا في إنشائه وفي استمراره وتواجده بحيث أصبح يمثل واقعا هاما داخل المجتمع المصري وخارجه.

(٢) ضرورة الاستفادة من الإمكانيات الواسعة التي يتمتع بها عملنا العلني لدعم وجودنا وتأكيده وتطويره.

ومن الخطأ أن نساعد على خلق وضع يصبح فيه وجودنا ونشاطنا وتطورنا متعارضا مع وجود هذا العمل ونشاطه وتطوره. وأن نصل إلى الوضع الحالي الذي يصبح فيه المزيد من الجهد لأي من المكانين هو على حساب الجهد في المكان الآخر، وأن يكون زيادة نشاطنا داخل المنظمات العلنية ومن أجل تطويرها ودعمها هو على حساب تطوير نشاطنا الخاص.

يجب أن نجد الشكل الذي يصبح فيه المزيد من النشاط في المنظمات العلنية وتطويره ودعمه في نفس الوقت نشاطا من أجل الحزب وتطويره ودعمه.

هل يعني هذا أنني أدعو إلى إنهاء وجودنا كما يصور البعض ؟ غير صحيح. بل إنه الطريق إلى تأكيد وجودنا والحفاظ عليه، في ظل الظروف

الحالية، وحمايته من التحلل والانهيار. أما تكريس الوضع الحالي بحجة الحفاظ على استقلالنا فهو تضليل للأسباب التالية:

(١) تكريس الوضع الحالي يعني جعلنا في تنافس مع عملنا في المنظمات العلنية ونحن في الوضع الأضعف، لأننا نحرم أنفسنا وبإرادتنا من كل الإمكانيات القانونية والعلنية التي يمكن الاستفادة منها. ونحن نساعد على تكريس هذا الوضع الأضعف ونزيده ضعفا بتقديم الطاقة الأكبر والجهد الأكبر من كادرنا الأساسي في المنظمات العلنية.

(٢) نصبح في حقيقة الأمر في وضع تابع للمنظمات الخارجية، وهو ما يحدث حاليا بسبب وجود العدد الأكبر من كادرنا هناك.

(٣) ان الاستمرار في التوجه لتقليص وجودنا في المنظمات الخارجية رغم فشل المحاولات التي تمت حتى الآن يخلق جوا من التنافر بين الكادر الذي يعمل في المنظمات الخارجية والكادر الموجود خارجه، مما يهدد وحدة الحزب.

هل نقدم طلبا لتأسيس حزب علني ؟

أعتقد أنه يجب أن ندرس جديا هذا الموضوع. وهذا لا يتعارض مع الجهد الذي نبذله للتواجد في إطار المنظمات الخارجية. وذلك إذا اقتنعنا بأن المنظمات الخارجية هي في مضمونها جبهة قوى متعددة، وأنها يمكن أن تستوعب لا التعددية السياسية وحدها بل والتعددية التنظيمية أيضا. أما الاعتراضات الشكلية على ذلك الخاصة بالنظام الداخلي أو قانون الأحزاب فإنها يمكن تذليلها وبحث الأشكال والحلول الملائمة التي يمكن أن نجدها دائما بعد أن نبحث الموضوع من الناحية السياسية. فإذا حسم من ناحية التوجه السياسي فالحلول القانونية والتفصيلية تخضع لاجتهاد الفنيين والقانونيين.

وهناك رأي يرفض العلنية ويدعو إلى الحفاظ على الوضع السري. والحقيقة أننا إذا أخذنا بهذا الرأي فإننا نضحك على أنفسنا. فهل نحن حقا تنظيم سري ؟ الواقع أننا سريون فقط على أنفسنا، أو على الأصح أننا نتصنع السرية، موهمين أنفسنا أن الثورية مرادفة للسرية، وأن التوجه للعلنية يعني حل الحزب. والحقيقة أن العلنية لا تعني ألا يكون لنا أسرار. فكل الأحزاب العلنية لها أسرارها ولكن ذلك لا يلغي أنها أحزاب علنية وتعمل في إطار القانون. أما نحن فنؤكد أننا حزب سري بينما أسرارنا مباحة.

إن الإصرار على السرية خلق عندنا أوضاعاً مشوهة، وزاد من عزلتنا عن الجماهير، تلك العزلة التي نصنعها بأيدينا. فأصبحنا عندما نتحاور، نتحاور بين أنفسنا. ونتكلم لغة لا يفهمها باقي الناس. ونبذل جهدا أكبر لنحاور أنفسنا أكبر من الجهد الذي نبذله لاقناع الجماهير خارج الحزب. وهذا أمر يمكن حدوثه حتى في الأحزاب العلنية. ولكن استمرار السرية يزيد من هذا الوضع.

ومع ذلك فقد أصبحنا منذ فترة نتحدث فعليا بشكل علني ونخاطب الناس والقوى السياسية الأخرى بصفتنا، وأصبح الآخرون يخاطبوننا بهذه الصفة. وكل شيء نستطيع أن نقوله وننشره علنا. لماذا لا نعرض ذلك كأمر واقع. وفي سبيل ذلك لا نقف أمام بعض العقبات الشكلية. ولماذا لا نستفيد من كل الإمكانيات القانونية ؟

والخطوة الأولى للتواجد بشكل علني هو تحديد برنامج يميزنا ويحدد موقفنا المتميز عن مختلف القضايا الذي نريد أن نكسب الجماهير وثقتها به.

وبعد ذلك يأتي اختيار العناصر التي نتقدم بها. وتثور هنا قضية من هم في المنظمات الخارجية. وستثور لذلك بالضرورة قضية علاقتنا بهذه المنظمات. ولكن قبل ذلك يجب إقرار التوجه، وبعد ذلك تأتي دراسة كل هذه التفاصيل ولن نعدم إيجاد الحلول لها.

ولا أزعم أن ذلك يمكن أن يتم في يوم وليلة، ولكن المهم أن نبدأ التحرك في هذا الاتجاه، لأنه إذا تركنا الأمور تسير كما هي حاليا لازدادت الأزمة استفحالا ولازداد تخلفنا عن مسار الأحداث.

ولهذا فإنني اقترح إقرار التوجه نحو العلنية، وتكوين لجنة تقوم بدراسة هذا الموضوع من كل جوانبه، بما في ذلك الجوانب القانونية والفنية، وتدرس التقارير والأفكار المختلفة بالنسبة لهذا الأمر وتقدم تقريرا سواء باقتراح واحد أو بعدة اقتراحات مدروسة.

هل يتناقض ذلك مع ما قلته في بداية حديثي بأن الخلل الأساسي هو الخلل في القيادة؟ أعتقد أنه لا يتناقض – لأنه لا يمكن علاج هذا الخلل بأوضاعنا الحالية، وفي ظل المحافظة على وحدتنا، إلا في إطار هذا التوجه الذي يشمل شقين :

(١) العلنية. (٢) علاقة طبيعية وسليمة مع المنظمات الخارجية تراعي الظروف الواقعية الحالية، ولا تضحي بالإنجازات التي تمت.

بدون ذلك لن يمكن علاج مشكلة القيادة، وأي محاولات في اتجاه تكريس الوضع الحالي سوف تؤدي إلى المزيد من الانهيارات والتحلل، والمزيد من الشلل وعدم الفعالية.

وفي الختام. أؤكد، أن الظروف الموضوعية تفتح الطريق لدور جديد ريادي لليسار المصري يكون لحزبنا الدور الأساسي فيه. ولن نستطيع القيام بهذا الدور دون أن نضع أيدينا على التناقضات التي نعيشها، ونحدد التوجه السليم لحلها. وبدون ذلك وبتكريس الأوضاع الحالية فإننا نؤدي إلى تحللنا وإلغاء فاعليتنا، وبذلك نترك المجال في الساحة للقوى الأصولية الظلامية التي تنذر بانتكاسة شديدة لبلادنا. **انتهى التقرير.**

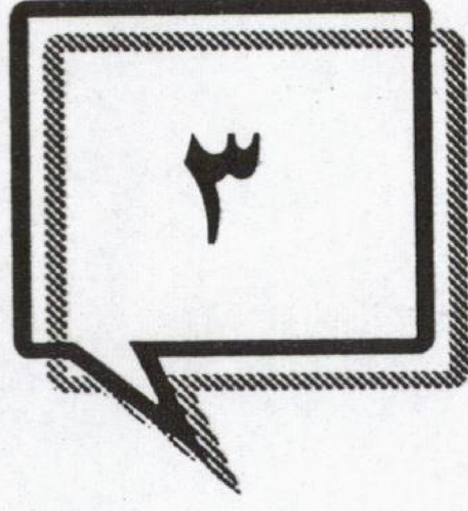
وبعض من قرأوه وافقوا عليه وعبروا لي عن هذه الموافقة، ولكنهم لم يدافعوا عنه ولم يحسموا موقفهم. واستمرت السلبية واستمر نفس الأسلوب وترك الأمور تسير بنفس الطريقة السابقة، ولم يحدث أي تحرك لتغيير الأوضاع.

وفشلت في النهاية بعد محاولات عديدة أن أكون مفيدا وأن يكون لي تأثير، وأن أدافع عن وجهات نظري وأن أقوم بأي تغيير. لم أفلح في ظل الوضع الذي كان سائدا. وأحسست بالعقم وبأن الشكل والأسلوب المسيطر لا يجعلني أنجح في تحقيق أي تغيير، وأنني أضيع وقتي وأبدد طاقتي، فضلا أنني لم أكن أريد أن أكون في وضع أتحمل فيه أو أشارك في تحمل مسئولية هذا التردي دون أن يكون لي يد فيه.

وقد كتبت هذا التقرير ووزع على أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي ودارت حوله مناقشات وتحول الأمر عند البعض إلى اتهامات غير موضوعية كحل الحزب والتصفية وكل ذلك في منتصف التسعينيات.

والآن مع وجود عدد من التنظيمات اليسارية التي لم تأخذ شكل أحزاب ولم تعترف بها لجنة الأحزاب فإنني اقترح على قيادة التجمع وعلى هذه التنظيمات نفسها أن تجد شكلا من أشكال التواجد داخل التجمع وأن يجد كل من التجمع وهذه التنظيمات شكلا وآلية لتحقيق ذلك. وعلى أن لا تمنعها هذه العلاقة من الاستقلالية وحرية الحركة.

***



الاستقالة من كل المراكز القيادية

كتبت هذه الرسالة لكي أرسلها إلى اللجنة المركزية وهذا نصها:

" بمناسبة مضي خمسون عاما على ارتباطي بالحركة الشيوعية قررت أن أكتب إليكم هذه الرسالة لأشرككم معي في بعض الأفكار والآراء والقرارات:

ـ ان هذا الانتماء الذي بدأ وأنا في السنين الأولى من شبابي، واستمر لنصف قرن يكون جزءا لا يتجزأ من حياتي، بل هو حياتي كلها، وهو أمر لصيق بي لا يمكن أن اتخلص منه إلا إذا تخلصت من حياتي. وهو مكون أساسي من مكونات شخصيتي، إذا تخليت عنه فإنني أفقد شخصيتي.

ـ ورغم رداءة الأيام التي نعيشها اليوم، ورغم الانتكاسات التي مرت بها الحركة الشيوعية في الفترة الأخيرة، فإنني سأظل أفخر بهذا الانتماء، وبهذا التاريخ، وما قمت به في هذه الحياة من أجل انتمائي وأفكاري.

ـ وإذا كان هناك ما نفخر به في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية لما غرسته هذه الحركة في التاريخ المصري وفي الحركة الوطنية والسياسية والثقافية والعمالية وفي النضال من أجل الإنسان الكادح ومن أجل القيم الإنسانية النبيلة، فإنني أعتبر شخصيا أن لي إسهامي المتواضع في هذا.

ـ وانني أفخر أنه طوال هذا التاريخ كنت أكيف طموحاتي الشخصية لتتفق مع أهداف الحركة العامة وتخضع لها. وأشعر أنه لم تكن لي طموحات شخصية خارج هذه الحركة العامة، وأفخر بأنني لم أشارك في أي انقسام أو تكتل مؤمنا دائما بضرورة الحفاظ على الوحدة والدفاع عنها.

ـ وقد شغلت أغلب هذه الفترة مواقع قيادية، وأقر باشتراكي في المسئولية عن توجهات الحركة في الأربعينيات والستينيات، وإلى حد ما في

محمد يوسف الجندي

مسيرة حياتي

* الجزء الثالث *

ـــ الناشر ـــ



دار العالم الثالث

السبعينيات والثمانينيات. إلا أنني لا أعتبر نفسي مسئولا عن توجهات الحركة في التسعينيات. انني أختلف مع هذه التوجهات، ومع أسلوب العمل القيادي السائد، والذي لا يبدو أن هناك إتجاها لتغييره في الأمد القريب.

وقد عبرت عن وجهة نظري سواء في الاجتماعات القيادية أو في مقالاتي التي نشرت وعرضت على هذه الاجتماعات. وقد سبق أن كتبت بعض المقالات عبرت فيها عن وجهة نظري بخصوص الأوضاع القيادية والحزبية من أجل خلق وضع يسمح بالحوار الفعلي (لا الشكلي) ولكي تقوم الهيئات القيادية (اللجنة المركزية والمكتب السياسي) بدورها القيادي. وحاولت أكثر من مرة تطوير هذه الأفكار محاولا الالتقاء مع آراء أخرى تخدم نفس التوجه. وكان آخرها في تقريري الذي قدمته إلى اللجنة المركزية في منتصف السبعينيات المعنون/ "حول أزمة اليسار عامة وحزبنا بوجه خاص". ولمدة تصل إلى أكثر من عامين حاولت جاهدا أن أدافع عن هذه الأفكار التي يزداد كل يوم اقتناعي بسلامتها. وحاولت مرات عديدة إيجاد وسيلة للحوار الجاد داخل القيادة (ولا أقصد اجتماعات الهيئات القيادية وحدها، والمتعجلة دائما). وفشلي في ذلك يرجع إلى سيادة ممارسات قيادية تعوق هذا الحوار. وهي نفس أساليب العمل القيادي التي عارضتها وبينت أسباب معارضتي لها، وقدمت الاقتراحات. ونشر ذلك في مقالي المعنون "أعترض على الخط التنظيمي" الذي نشر في النشرة الحزبية المسماه "الحياة الحزبية". وهذا كله يجعلني في خلاف مستمر مع القيادة الفعلية في الحزب (وهي السكرتارية) مع استمرار موقفها السلبي أو العاجز من القيادة الرسمية (اللجنة المركزية والمكتب السياسي).

وان استمراري في هذا الوضع وتصعيده يهدد بأن أدخل في معركة مع القيادة والصدام معها. وهو الأمر الذي لا أريده ولا أقبله، وأعتقد أنه لن يفيد، بل قد يضر.

ولهذا فضلت الانسحاب من المواقع القيادية، مع الاستمرار في العمل في مجالات أخرى لخدمة نفس القضية. وانني أملك الإمكانيات لأن أمارس دورا أكثر فعالية للاستمرار في خدمة قضيتنا التي كرست وسأستمر في تكريس حياتي من أجلها، وأعتقد أن وضعي في المجال الثقافي يسمح لي

خارج القيادة، بإعطاء جهد أكبر، وللقيام بدور أكثر فعالية، إذا تخلصت من أعباء التواجد في الهيئات القيادية. وان لدي من الطاقة والخبرة والقدرة التي أستطيع تكريسها لذلك.

ـ هناك عامل آخر أضيفه إلى الاعتبارات السابقة لتزكية قراري هذا، وهو أنه بعد مضي نصف قرن على ارتباطي بالحركة الشيوعية وشغلي أوضاعا قيادية فيها لمدة طويلة، فإنه من المفيد ترك المجال لعناصر أخرى أكثر شبابا، وذات مستقبل أرحب لتتحمل مسئوليات قيادية. ولا يعني ذلك وقد تعديت السادسة والستين أنني أصبحت عاجزا من الناحية الصحية، أو غير قادر على تقديم نفس الجهد ونفس الطاقة، والعمل على زيادة هذا الجهد وهذه الطاقة مدعمة بخبرة السنين. ولكنني للأسباب السابق ذكرها، قررت أنه من الأفضل استخدام هذه الطاقة في المجالات الأخرى التي لا يكون من بينها الاستمرار في قيادة الحزب.

لهذه الأسباب فإنني أقدم استقالتي من اللجنة المركزية والمكتب السياسي ومن كل المسئوليات القيادية، مع الاستمرار في تقديم كل طاقتي من مواقع غير قيادية.

وانني إذ اتخذ هذا القرار فإن ذلك لا يقلل من حبي وإعزازي وتقديري لرفاق كثيرين عملت معهم، بل قد يكون من أسباب هذا القرار هو حرصي على علاقاتي مع هؤلاء الرفاق.

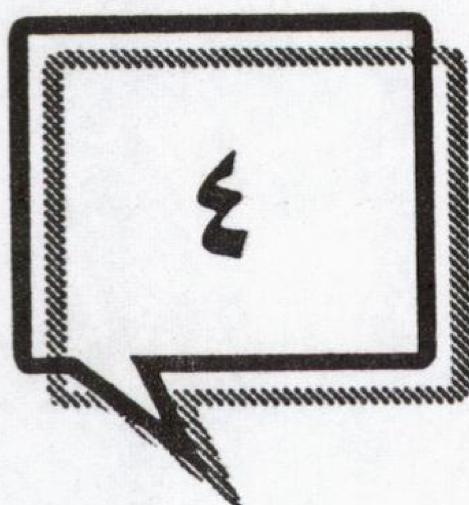
وقد ناقشت هذه الرسالة مع عدد من الرفاق حاولوا اثنائي عنها ولكن قبل أن أقدمها رسميا دعيت إلى انعقاد المؤتمر الثالث[1] ودافعت أثنائه عن وجهة نظري كاملة، ولم أرشح نفسي للقيادة.

واكتشفت بعد ذلك أن عددا آخر من القياديين لم يرشحوا أنفسهم للقيادة. وهذا يعكس أيضا أنهم يئسوا من العمل في القيادة، وفضلوا العمل في مجالات أخرى[2].

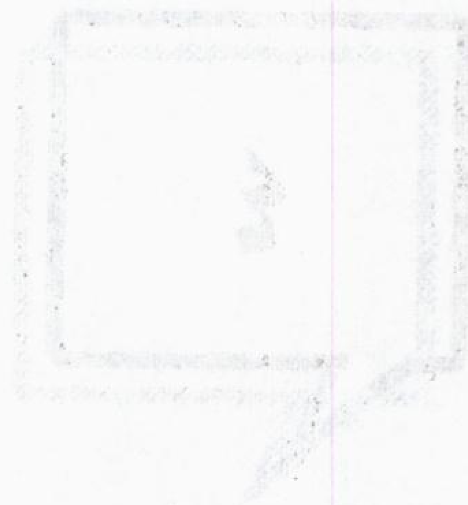
ولم يؤد انسحابي من القيادة إلى تقليل نشاطي، بل على العكس زاد هذا النشاط وأصبح أكثر فعالية سواء من خلال النشر أو العمل داخل التجمع.

---

(١) وهو المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي المصري الذي عقد بشكل سري في عام ١٩٩٢ أو ١٩٩٣.
(٢) أكتفوا بالعمل داخل التجمع.



العمـل فـي التجمـع



بعد تقديم استقالتي من كل المراكز القيادية رغم الاحتفاظ بعضويتي في الحزب لم يحرص المسئولون في الحزب على الاتصال بي وأصبحت عمليا منعزلا عن العمل الحزبي فركزت عملي في الدار (النشر) "دار الثقافة الجديدة" وفي التجمع.

وعملت في منطقة شرق القاهرة وتوليت هناك مسئولية التثقيف فقمت بتنظيم عدد من الندوات. وكان يجرى وقتها الإعداد للمؤتمر الرابع للتجمع فعملت على أن تجرى هذه الندوات في إطار المناقشات التي تجرى للإعداد للمؤتمر. وكانت بالفعل تدور عن القضايا التي كان من المفروض أن تناقـش في ارتباط للإعداد للمؤتمر. لاقت هذه الندوات إقبالا جيدا ودارت في إطارها مناقشات حول القضايا الحساسة التي تشغل بال أعضاء التجمع وأصدقائه

وإلى جانب ذلك حرصت على التواجد والنشاط في لجنة التجمع بمدينة نصر ومشاركتهم في نشاطاتهم المختلفة.

وكانت اللجنة ومسئولها يحرصان على القيام بنشاط متنوع. وأعضاؤها كلهم تقريبا من الشباب، فإلى جانب الندوات والاجتماعات كانوا يقومون بالعديد من الأنشطة الاجتماعية التي تناسب الشباب مثل الرحلات وغيرها. ولم يكونوا يلجأون للقيادة المركزية سواء ماليا أو غير ذلك. بل كانوا يعتمدون على أنفسهم ويوسعون نشاطهم في الأعمال التي يرون أنها تجذب لهم الجماهير في مدينة نصر. ومن هنا كان نجاحهم. وقد رحبوا بـي معهـم وتعاونت معهم وتعاونوا معي. وأقمنا العديد من الندوات الثقافية المفيدة وكثيرا ما كنت أشترك معهم في أنشطتهم الاجتماعية. وكنت سعيدا بذلك.

وحرصت على أن أنقل للهيئات القيادية (أمانة القاهرة ومؤتمر الحزب الرابع) عرضا لمدينة نصر ونجاحات في العمل بين الشباب. واكتساب ثقة أهالي مدينة نصر.

الإعداد للمؤتمر الرابع لحزب التجمع:

في إطار الإعداد للمؤتمر دعيت إلى اجتماع في أمانة القاهرة لدراسة أسباب تغيب عدد كبير عن حضور الاجتماعات. وطلب مني في الورقة التي وصلتني إبداء الرأي في هذا الموضوع. وعقد الاجتماع فاستأثرت المنصة بالحديث ولم تترك للحاضرين إلا وقتا ضئيلا لإبداء رأيهم في المسألة المطروحة. وطلبت الكلمة وقلت أن الأعضاء الذين يتغيبون على حق لأنهم يضيعون وقتهم في الإستماع إلى آراء المنصة دون محاولة حقيقية لسماع رأي المدعوين في هذه المشكلة.

فالأعضاء غير متفرغين ولكي يحضروا الاجتماع يجب أن يشعروا بأنه يضيف شيئا لبحث القضايا العملية والبحث عن حلول لها.

وعقد المؤتمر وجرى انتخاب الهيئات القيادية وانتخبت عضوا في اللجنة المركزية وفي أمانة القاهرة. ورشحت نفسي للمكتب السياسي، ووزعت ورقة باسم رئيس الحزب والأمين العام ترشح أسماء معينة يرون أن مصلحة الحزب في انتخابها. ولم تضمني القائمة. وقال لي محمد السيد إنه ناقش الأمين العام عن سبب عدم ضمي للقائمة فقال أن الاعتراض هو أني شيوعي. فلو كانت هذه الرواية صحيحة فانني لم اقتنع بها ورشحت نفسي وعرفت من مراقبي الأقسام أنني حصلت على أصوات تكفل نجاحي وأعلن الأمين العام النتيجة ولم يأت بها اسمي وخرج على الفور من القاعة. واتصلت به فعرفت أنه سافر فكتبت رسالة إلى خالد محي الدين باعتباره رئيسا للحزب وطعنت في النتيجة وطالبت بإعادة الفرز بحضوري وسلمت الرسالة لحسين عبد الرازق الأمين المساعد. وبعد ذلك قال لي حسين أنه سلمها للأمين العام الذي لم يرد. وفي حديث لي بعد ذلك مع عبد الغفار شكر فسر لي الموضوع بأن وضع اسم الشخص التالي بدلا مني كان مهم لوحدة الحزب. لو كان هذا السبب حقيقي فكنت أتوقع أن أناقش في هذه الاعتبارات

أما تزييف النتيجة وهو الأمر الذي نأخذه على الأجهزة الحكومية فهو أمر لا يمكن قبوله.

أحجمت عن تصعيد المشكلة أكثر من ذلك وقررت تركيز العمل في أمانة القاهرة ورشحت نفسي لأمانة التثقيف بها فلاقيت العديد من العقبات والتأجيلات. ولكن أمام مطالبة الغالبية قررت القيادة الموافقة على ذلك.

وعلى الرغم من العراقيل سواء قبل ممارسة المسئولية أو بعد ذلك فقد نجحت في تنظيم عدد كبير من الندوات حول العديد من القضايا الملحة لقيت تقديرا من الجميع وقمت عن طريق « دار الثقافة الجديدة » بإصدار كتيبات تحتوي على كثير من هذه الندوات بعنوان " قضية للحوار " ومازالت تصدر حتى الآن.

وكنا قد أعتدنا منذ مدة طويلة أن نعرض كتبنا للتوزيع في مقر التجمع أثناء الندوات أو الاجتماعات الجماهيرية. وهذا التفكير الطبيعي بالنسبة لنوع كتبنا اليساري، وفي أحد المرات ذهب مندوبونا لعرض مطبوعاتنا في التجمع وفوجئوا بأن العاملين في التجمع يمنعون السماح بعرض كتبنا وأن لديهم تعليمات بهذا المعنى. والحجة التي أثيرت حسب ما نقل إلينا بأنها كتب شيوعية. ورغم أن هذا غير صحيح فإلى جانب الكتب الماركسية فنحن نصدر ونوزع كتبا تعالج قضايا كثيرة في المجالات السياسية والاجتماعية والأدبية ومختلف المواضيع الثقافية. وقد نشر عندنا الكثيرون من قادة التجمع مثل خالد محيي الدين ورفعت السعيد وفؤاد مرسي وإبراهيم العيسوي وكثيرون غيرهم.

حتى لا يتحول التجمع إلى حزب طارد :

سبق في الجزء الثاني الحديث عن حزب التجمع وتقديري بأنه حدث هام وأن فكرة تكوين تجمع يساري هي فكرة عبقرية وأنها تحتاج إلى جهد كبير لكي تتحقق، ولكي يصبح تجمعا بالفعل. وفي البداية كان يقال أن التجمع حزب شكلا ولكنه جبهة مضمونا. وأنه يجب أن يكون مظلة لكل اليسار بمختلف توجهاته وآرائه، ولكن هذه الفكرة كانت تحتاج إلى جهد كبير لتتحول إلى واقع.

اليسار عميق الجذور بين الشعب المصري. وللقوى اليسارية دور كبير في تاريخ الحركة الوطنية والاجتماعية والثقافية في مصر. وقد أستخدمت أسلحة كثيرة لمحاربة اليسار. من هذه الأسلحة الأكاذيب والاتهام بالعمالة والإلحاد. وهناك فترات كان لليسار فيها أثر كبير على الحركة الشعبية. وأهداف اليسار التي ترتبط مع مصالح الأغلبية الساحقة من الشعب تستطيع أن تكسب إلى صفوفها الآلاف والملايين. والتجمع يمكن أن يضم هذه الملايين، إذا استطاع أن يضم كل قوى اليسار باختلاف توجهاته. سواء كان ذلك الناصريين أو الجناح اليساري بين التوجهات الإسلامية أو الماركسيين مع تنوعاتهم المختلفة. وإذا كان عبد الناصر استطاع بتوجهاته الوطنية والاجتماعية أن يصل إلى قلوب الجماهير ليس في مصر وحدها بل في جميع الشعوب العربية فهل استطاع التجمع أن يحقق ذلك ؟ على العكس. خرج منه الناصريون وكونوا حزبا مستقلا. وانضمت قوى يسارية من مختلف الاتجاهات إلى حزب العمل. ونشأت تيارات ماركسية ويسارية عديدة من الشباب التي لفظها التجمع رغم أنه كان يستطيع أن يجمعها ويثري بوجودها في صفوفه.

وقد نجحت الحركة العالمية ضد العولمة الرأسمالية في جذب قوى إسلامية في خارج مصر، ويعكس ذلك الحركة التجديدية الموجودة داخل التيار الإسلامي. ويساعد على ذلك الحملة التي تشنها الإدارة الأمريكية والقوى الرجعية المتعاونة معها في العالم.

وإذا كان انهيار الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية في أوروبا قد أثر تأثيرا سلبيا على توجهات بعض الماركسيين المصريين القدامى وتحولهم إلى يسار باهت فإن المجتمع لم ينقطع عن إفراز قوى يسار جديدة تهتدي بالفكر الماركسي وتصب في تيار القوى اليسارية بمختلف اتجاهاتها وقد ساعد على ذلك اتساع الحركة المناهضة للعولمة الرأسمالية في العالم والتي أصبحت تشمل قوى تزداد اتساعا وتجمع مع الماركسين قوى يسارية أخرى مثل الخضر والحركات النسائية والحركات المدافعة عن السلام وغيرها.

ويواجه اليسار قوى الفساد والسرقات والنصب والاختلاس والتزوير والقهر وعملاء الاستعمار والمستفيدين من نشاطه على حساب مصالح الشعب والتنمية الوطنية. ويواجه أيضا القوى الظلامية التي تتستر بستار الدين.

لم ينجح حزب التجمع في تعبئة كل قوى اليسار تحت مظلته، وعندما نقول كل قوى اليسار فنقصد بها كل القوى الوطنية والديمقراطية الحقة في البلاد. واتبع اسلوبا في العمل يؤدي إلى تحجيم اليسار وانقسامه. ولم ينجح بالذات في جذب قوى الشباب الجديد من اليسار، وكان من الضروري أن ينفتح عليها ويعمل على تعبئتها وتوحيدها مع تعدد توجهاتها واهتماماتها.

اتساع قوى اليسار وتعددها :

عندما ظهر حزب التجمع كان تصوري وتصور غيري أنه سينجح في تجميع قوى اليسار وتوحيدها وأن يكون هو القوة التي تستفيد من التاريخ والدور البارز الذي لعبه في تاريخ الحركة الوطنية المصرية وأن يكون امتدادا لهذا التاريخ وتطويره مستفيدا من الدور الكبير الذي لعبه منذ نشأته في العشرينيات مواصلا هذا الدور بتطوير نجاحاته وتأثيره، ومتخلصا من أخطائه ومستفيدا من خبرته.

وكان من أبرز الصعوبات التي واجهها اليسار الانقسامية التي عانى منها، وظروف الاضطهاد والقهر الذي اضطره إلى العمل السري.

وقد كان قيام التجمع بشكل علني وقانوني فرصة للتغلب على هذين العاملين السلبيين وفرصة لانطلاقه في ظروف أكثر ملاءمة مما يسمح له بانطلاق أكبر. خصوصا وأن التجمع جمع الشيوعيين الذين عانوا في الماضي من الانقسام، وذلك إلى جانب قوى يسارية أخرى مثل بعض الناصريين والقوميين والاشتراكيين والتيار الديني المستنير.

وقد ظهر إلى جانب التجمع قوى جديدة انضم إليها بعض أعضاء التجمع إلى جانب قوى يسارية ووطنية أخرى كان لها فاعلية تتزايد في المجتمع مثل الحركة الشعبية للتضامن مع الشعبين الفلسطيني والعراقي التي قامت بكثير من التحركات والمظاهرات من أهمها حركة ٢٠ مارس التي استطاعت أن تجذب إليها الجماهير غير المسيسة. والحركة المعارضة للعولمة الرأسمالية وغيرها من الحركات والتنظيمات. وقد بدأت في الفترة الأخيرة حركة تعمل على ائتلاف ووحدة قوى اليسار. وقد شاركت في كل هذه الحركات ونشاطاتها.

الطبعة الأولى

(٢٠٠٦)

الناشر:

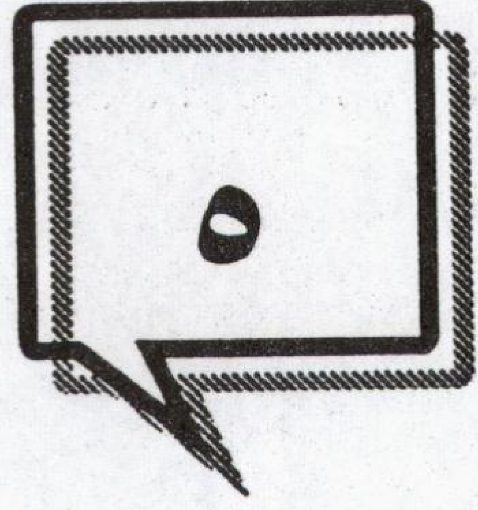
دار العالم الثالث

٣٢ صبري أبو علم/ باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس : ٣٩٢٢٨٨٠

Email: elguindimohamed@hotmail.com

(رقم الإيداع): ٢٠٠٦/١٧٥٩ (الترقيم الدولي) I.S.B.N : 977-5222-72-9



حق الوجود الشرعي للشيوعيين

الشيوعية موجودة في مصر كفكر وحركة. وهي موجودة أيضاً في مختلف بلاد العالم. وقد مرت بمراحل صعود وجذر كان من أبرزها سقوط الاتحاد السوفييتي ولكنها موجودة قبل نشوء الاتحاد السوفييتي. وفي كل بلاد العالم تقريباً توجد أحزاب شيوعية تعمل علناً ويعترف بها القانون، ولها تأثيرها ودورها في الحياة السياسية. وحتى الدول التي تحرم النشاط الشيوعي يوجد بها هذا النشاط، ولكنه يعمل بشكل سري. وحتى السعودية يوجد بها حزب شيوعي سري.

وفي مصر تم منع النشاط والتنظيم الشيوعي بقانون صدر بعد حملة ١١ يوليو ١٩٤٦ «التي سميت بالحملة ضد الشيوعية» التي قام بها إسماعيل صدقي باشا لتمرير محاولاته لعقد صفقته مع إنجلترا (مفاوضات صدقي بيفن) التي كانت تحاول ربط مصر بالمصالح الاستعمارية البريطانية، الأمر الذي عارضته الجموع الشعبية من طلبة وعمال ومختلف الأحزاب. ومع ذلك ورغم الاعتقالات لم ينجح في تمرير الاتفاق. وتفنن المشرعون في وضع القوانين التي تحرم الشيوعية مضمنين قانون العقوبات مادتي ٩٨أ و٩٨ب، المستوحاة من القانون الفاشي في عصر موسوليني. وتحايلوا ليطبقوها على النشاط الشيوعي زاعمين أن هذا النشاط يفترض ركن القوة. وقد رفضت غالبية المحاكم بما فيها محكمة النقض هذا التفسير، وكانت تفرج عن المتهمين الذين كانت تقدمهم النيابة تحت بند هاتين المادتين.

وكان في مصر حزب شيوعي علني نشأ عام ١٩٢٢، ولكنه أثناء الاضرابات العمالية التي قامت في الإسكندرية اصطدم بحكومة الوفد عام ١٩٢٤ وتم حله، وقبض على قادته، وظلت أجهزة الأمن تمنع قيام أي حزب

شيوعي حتى الآن ووصلت العقوبات لمن يحكم عليه بالقيام بنشاط شيوعي إلى السجن لمدة تصل إلى ١٥ سنة. وأمضى الشيوعيون المصريون عشرات السنين في السجون والمعتقلات.

وحاول أنور السادات في عهده أن يبدو ديمقراطياً وعصرياً عندما ألغى الاتحاد الاشتراكي وسمح بتكوين ثلاثة منابر (يمين ووسط ويسار). وسمح بتكوين الأحزاب وكون اليسار حزب التجمع. وفي حديث للسادات إلى أجهزة الإعلام الغربية تحدث عن حزب التجمع مسمياً إياه الحزب الشيوعي. وهذا غير حقيقي فمازال الحزب الشيوعي ممنوعاً، ويقدم أعضاؤه للمحاكمة وتصدر ضدهم الأحكام الشديدة. ولكنه حاول بهذا القول أن يتظاهر بأننا دولة ديمقراطية بدليل أن لدينا حزباً شيوعياً.

وعندما أفرج جمال عبد الناصر عن الشيوعيين عام ١٩٦٤ والذين كان قد اعتقلهم منذ أول يناير ١٩٥٩، واتجه للتعاون مع بعضهم وضم البعض منهم إلى التنظيم الطليعي وأجهزة الإعلام والصحافة، وتحدث عن وحدة كل القـــوى الاشتراكيـــة، وتعاون مع الاتحـــاد السوفييتـــي والبلاد الاشتراكية في المجالات المختلفة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، فإنه ومع ذلك رفض أن يكون للشيوعيين تنظيمهم، والحقيقة أنه كان يرفض وجود أي تنظيم آخر بخلاف التنظيم الذي أنشأه وكان يسمى الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت.

ويعترف الجميع الآن بوجود شيوعيين في المجتمع المصري، ويمنع الدستور والقانون إدانة الفكر. فحرية العقيدة مطلقة كما ينص الدستور. ومع ذلك فحتى الآن لم يسمح بوجود حزب شيوعي.

ومازالت وزارة الداخلية في مصر تضم قسماً يُسمى قسم مكافحة الشيوعية يتبع مباحث أمن الدولة. هذا في الوقت الذي توجد فيه أحزاب شيوعية شرعية في غالبية البلاد العربية (سوريا ـ لبنان ـ الأردن ـ فلسطين ـ تونس ـ المغرب ـ السودان ـ العراق ـ اليمن). أما في بلاد الخليج فمازالت الأحزاب كلها محرمة. فهل يعقل أن يكون لمصر وهي أكبر دولة عربية، ودولة رائدة في الوطن العربي، موقف متخلف عن باقي البلاد العربية.

يقال أن في مصر حزباً لليسار، وصحيح أن الحزب يضم شيوعيين سابقين، ولكنه ليس حزباً شيوعياً، وهو يعتبر تجمعاً لقوى يسارية مختلفة (مثل الناصريين والقوميين واليسار الديني المستنير وغيرهم إلى جانب الماركسيين).

في الفترة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ اعتقل المئات من الشيوعيين، وكان بينهم شخصيات بارزة تولى بعضهم الوزارة فيما بعد مثل الدكتور فؤاد مرسي وهو لم يغير فكره حتى آخر حياته والدكتور إسماعيل صبري عبد الله الذي مازال يعلن أنه ماركسي. ويستضيف التليفزيون المصري الكثيرين من الذين ضمتهم المعتقلات في هذه الفترة باعتبارهم شيوعيين مثل محمد سيد أحمد الكاتب والصحفي ومحمود أمين العالم المفكر المعروف والكثيرون غيرهما ولم يعلن أي منهم تخليه عن الفكر الماركسي ويؤكده في مختلف المناسبات.

ونشأ بعد هؤلاء جيل من الشباب ينتمي إلى الفكر الماركسي ويعمد بعضهم إلى تكوين منظمات تنتمي لهذا الفكر مع اختلاف التسميات. بل ومازال هناك تنظيم باسم الحزب الشيوعي المصري لم يحصل على شرعيته، ويشترك ممثلوه في الاجتماعات المختلفة مع ممثلي الأحزاب العلنية. فلماذا يعتبر الشيوعيون محجوبين عن الشرعية رغم أنهم في بلد يردد قادته أنه بلد ديمقراطي.

والحركة الشيوعية في مصر جزء أساسي من الحركة الوطنية المصرية والشيوعيون لهم دور بارز في الأربعينيات ولعبوا دوراً لا ينكر في تحديد التوجه الوطني والاجتماعي الذي تبنته الحركة الوطنية المصرية بعد الحرب العالمية الثانية. وكان هو التوجه الذي قامت عليه ثورة يوليو ١٩٥٢. ومما له دلالته أن أول تنظيم سياسي أعلن تأييده لحركة الضباط الأحرار في ٢٣يوليو ١٩٥٢ هو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) «أكبر تنظيم شيوعي في ذلك الوقت» وكان يعمل بشكل سري. وكان هذا أمراً طبيعياً فقد كانت مطبوعات الضباط الأحرار قبل الثورة تطبع لدى «حدتو».

وإذا كان قد حدث خلاف بعد ذلك بين الشيوعيين وقيادة ثورة يوليو في عامي ١٩٥٣ و١٩٥٤ ثم في يناير ١٩٥٩ حتى منتصف الستينيات، فقد تغير

بعد ذلك موقف قيادة الثورة من الشيوعيين المصريين وإن لم يصحح ذلك الموقف بشكل كامل. وظل هذا الموقف حتى وفاة جمال عبد الناصر. ووقف الشيوعيون بعد ذلك ضد الارتداد عن أهداف ثورة يوليو الوطنية والاجتماعية.

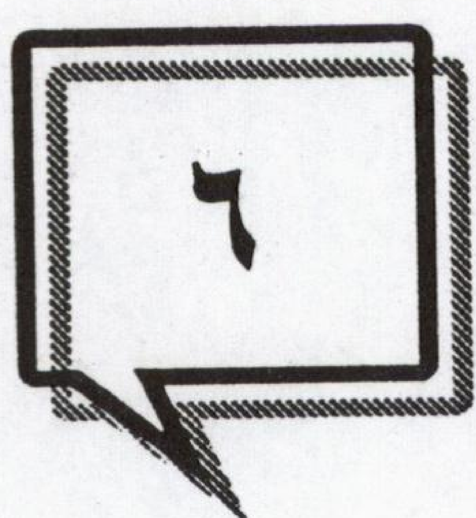
وللشيوعيين المصريين دور بارز في الحركة الثقافية المصرية. وكثير من الأسماء برزت في مجال الرواية والشعر والكاريكاتير والسينما والمسرح. بحيث لا يمكن التعرض لتاريخ الحركة الثقافية المصرية منذ مدة طويلة دون الحديث عن دور الشيوعيين في الحركة الثقافية. ولا يمكن أن نقبل استمرار السلطة في التعامل مع الشيوعيين المصريين من ناحية أمنية. فأمن المجتمع وتقدمه لا يمكن أن يتحقق دون الاستفادة من هذه القوى رغم الاختلاف.

يجب الكف عن السماح فقط بالنشاط السياسي للقوى التي تدور في إطار المفاهيم التي تحددها السلطة وأجهزة أمنها.

والوجود الشرعي للشيوعيين هو قضية ديمقراطية هامة يجب الكفاح لانتزاعها، ويجب أن تناضل الجماهير من أجل تحقيقها إذا كنا نريد حقاً أن يحدث تطور ديمقراطي حقيقي.

***

مقال نشر في «آ فاق اشتراكية» العدد الثاني مارس ٢٠٠٤.



وفاة أخي أحمد

في الأيام الأولى من شهر يناير ١٩٩٤ كنت في مكتبي، اتصل بي زوج أختي عصمت سيف الدولة، وطلب مني أن أذهب إليهم في المنزل. وكان صوته غير عادي تشوبه نبرة حزن. فأحسست أن هناك شيئا غير عادي، وأحسست أن الأمر يتعلق بأخي أحمد، وتأكدت من وفاته بوصولي إلى المنزل. وكانت شقيقتي سعاد تبكي.

أحس أخي بالتعب في منزله بلندن ونقل إلى المستشفى وهناك توفى.

وكان أخي مريضا بالقلب .. وقد أجرى له الأطباء نقل الشرايين مرتين. توفى وقد أشرف على السبعين من العمر. فقد ولد في ١٣ يناير ١٩٢٤. وكان يكبرني بعامين كاملين.

ولم يكن أحمد في أيام الطفولة ومقتبل الشباب مجرد أخ بل كان صديقا وكان أحد أفراد المجموعة التي عشت وترعرت معها واشتركنا معا في اللهو والثقافة والعمل السياسي والتي كانت تضم جمال العطيفي وفتحي غانم وعز العرب أمين. ولم يبق غيري من هذه المجموعة. وكان جمال العطيفي أول من عاجلته المنية ثم عز العرب أمين ثم أخي وأخيرا فتحي غانم. ولكن صداقة الطفولة والشباب لم تستمر. فقد تفرقت بنا السبل. ومع ذلك فقد حافظنا دائما على درجة من الود والاحترام. وقد سبق أن تحدثت عن الموقف الجيد لجمال العطيفي عند اعتقالي وتقديمي للمحاكمة. ثم بعد الإفراج عني ومحاولته مساعدتي. وكذلك موقف التعاطف من فتحي غانم عندما التقيت به صدفة في طنطا وأنا أعمل بشكل سري في الأقاليم. وكذلك لقائي مع عز العرب في الخرطوم.

مدخل

في نهاية الجزء الثاني من مسيرة حياتي أشرت إلى أنني سأواصل الحديث عن الصراع الفكري حول عديد من القضايا المثارة.

وهذا هو ما سأتعرض له في هذا الجزء. وقد بدأت الكتابة منذ فترة طالت. وتعرضت لأجزاء يثور النقاش والخلاف حولها مع البعض من زملائي.

ودار حديثي في الجزء الأول عن نشأتي وأصولي وأسرتي وعن أبي والدور الذي لعبه في قيام جمهورية زفتى في ثورة ١٩١٩ والطريق الذي سرت فيه والدور الذي لعبته في الحركة الوطنية في مصر وما لاقيته في هذا الطريق من صعوبات وفترات من السجن والمنفى.

وفي الجزء الثاني تعرضت للفترة ما بعد ١٩٦٤ حتى التسعينيات.

وفي الجزء الثالث أتحدث عن استمراري في الطريق الذي سرت فيه في الظروف الجديدة مواصلا نفس الخط الذي بدأته منذ نشأتي وشبابي مع التعرض لخبرة السنين والتجارب الجديدة وآرائي وتوجهاتي في هذه الفترة. كما يضم هذا الجزء عددا من المقالات التي كتبتها لمناقشة وتحليل الأوضاع الراهنة. وأنني وأنا على مشارف الثمانين من عمري أعمق أفكاري وأستفيد من خبراتي السابقة وبتوجهاتي في الأساس التي بدأتها في شبابي.

***

أما بالنسبة لأخي أحمد فرغم تفرق السبل واختلاف المواقف فقد كانت علاقاتنا دائما تقوم على الحب والاحترام. وكان يحاول مساعدتي في الظروف الصعبة.

واعتدت دائما عندما كنت أسافر إلى باريس للاشتراك في معرض الكتاب في معهد العالم العربي أو أي سبب آخر أن أزور أخي في لندن وأقيم معه بضعة أيام. وعندما كنت في موسكو كان يزورها أحيانا إذ كانت له علاقات تجارية مع الاتحاد السوفييتي منذ الخمسينيات. صحيح أنها قلت بعد ذلك عندما انتقل إلى لندن. ولكنه كان يحب زيارة موسكو ويستريح للإقامة عند زيارته لها في فندق "ناسيونال" القريب من الميدان الأحمر. وكانت له صداقات في القسم التجاري السوفييتي، وكان يحاول باستمرار أن يستأنف ويوسع علاقاته هناك.

وفي السنوات الأخيرة قبل وفاته، وخصوصا عند زيارتي له في لندن كانت تدور بيننا مناقشات كثيرة، وكانت بعض الآراء التي يبديها تنم عن ذكاء وخبرة اكتسبها من عمله في التجارة.

واشترك في أيامه الأخيرة في تأسيس جماعة " النداء الجديد " مع سعيد النجار وغيره، وتعرف بأسامة الغزالي حرب الذي كانت تدور بينهما أحاديث كثيرة، كانا يلتقيا فيها فكريا. وكانت مقالات أسامة في الفترة الأخيرة تعبر عن التوجه الليبرالي.

وكان منزل أحمد في لندن الذي أقام به منذ الستينيات ملتقى لكثير من زوار المدينة من المصريين والعرب.

وكان من أصدقائه الذي تعرف بهم في القاهرة إحسان عبد القدوس وتزوج من آمال طليمات أخته وأنجب منها ثلاثة أطفال (فاطمة وزين ويوسف). وكتب في مجلة روز اليوسف في بداية الخمسينيات سلسلة مقالات عن الصين الشعبية التي زارها وساعدت هذه المقالات على إقامة علاقات تجارية مع الصين الشعبية ثم الاعتراف بها وإقامة علاقات جيدة معها.

وفي منزل أحمد في لندن تصادقت آمال طليمات زوجة أحمد مع جيهان السادات وهي صداقة مستمرة حتى الآن. وكذلك وتعرف على أنور السادات الذي أراد من أحمد أن يساعده في التعرف على تجار السلاح

الإنجليز والفرنسيين. وقد قام بذلك ولكن ما أن تمت هذه العلاقة حتى حذرهم من التعامل مع أحمد، وأقام هذه العلاقة من خلال مكتب أحد المصريين المقيمين في لندن.

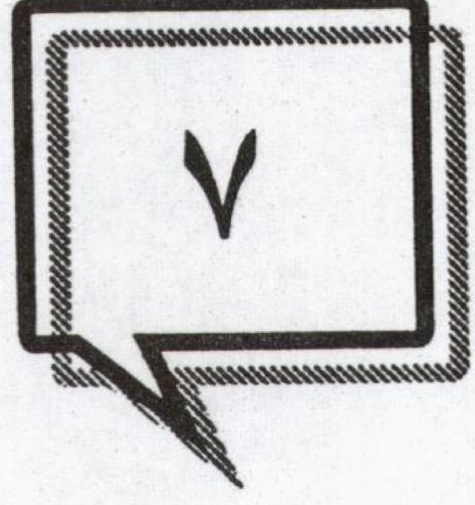
وكون أحمد علاقات كثيرة في لندن وانتخب بعد ذلك رئيسا للجالية المصرية هناك.

وكان السبب في سفر أحمد إلى لندن هو الحراسة التي فرضت عليه بعد إجراءات يوليو ١٩٦١. وحاول هناك أن يواصل عمله التجاري وواجه صعوبات في البداية ولكنه نجح بعد ذلك، وأنشأ هناك مكتبا أقام من خلاله علاقات عمل كثيرة وأخذت أموره تستقر، وكون ثروة لا بأس بها. وعندما رفعت عنه الحراسة في عهد السادات عاد إلى مصر، ولكن بقى عمله واستقراره في لندن. ورشح نفسه مرتين لانتخابات مجلس الشعب عن دائرة زفتى. حصل على أصوات جيدة ولكنه لم يوفق. رشح نفسه في المرة الأولى عن حزب الوفد الذي كان قد انضم إليه. وأما في المرة الثانية فقد رشح نفسه عن الحزب الوطني بناء على نصيحة صوفي أبو طالب ولكنه لم ينجح. فالمرشح المنافس كان أقرب وأكثر علاقة بالحزب الوطني والجهاز الإداري.

رشحت نفسي بعد ذلك عن زفتى على قائمة التجمع في انتخابات عام ١٩٨٦. لم يكن أحمد في البداية مستريحا لذلك ثم تقبل ذلك واقتنع بأنه من حقي النزول في الانتخابات طالما أنه لن يرشح نفسه. ولكني لم أنجح وكان التزوير واضحا رغم أني حصلت على أكثر من ١٠٠٠ صوت وكان واضحا أن التدخل الإداري كان أعنف ضد قائمة التجمع.

وقد حرص أحمد على توثيق علاقاته مع زفتى وبنى منزلا بدلا من المنزل الذي هدمناه وبعنا أنقاضه. وقال لي أن هذا المنزل هو رمز لاستمرار الأسرة في زفتى، وقال لي إنه يريدني أن أتردد عليه عندما أجد الوقت لذلك وأن تكون لي حجرة هناك. وقد حاولت ذلك بعد وفاته ولكن زوجته الثانية التي تزوجها بعد انفصاله عن آمال طليمات أهملته وتضايقت من حديثي مع ابن أحمد منها حول ضرورة الاهتمام بهذا المنزل، وأثار ذلك قطيعة بيني وبينها. وأغلقت المنزل ولم يتحقق الهدف الذي بنى من أجله.

ولكن مجلس مدينة زفتى ذكر لأحمد مساعداته المالية لزفتى وسمى الميدان المجاور للمنزل باسمه بعد وفاته.



حملة ضد تهريب الأموال والعقول

"عودة ابنتي نادية وزوجها عادل
من دراستهما في أمريكا "

حصلت ابنتي نادية وزوجها عادل على منحة للدراسة العليا من أمريكا. وكلاهما تخرج من كلية العلوم بجامعة عين شمس. ابنتي تخصصت في البيولوجيا الجزئية، أما عادل فقد تخصص في الفيزياء النظرية. تعرفا أثناء دراستهما في كلية العلوم وتزوجا في ٢٤ أغسطس عام ١٩٩٣، عين عادل معيدا في كلية العلوم، ونادية في معهد السرطان. ثم حصلا في القاهرة على درجة الماجستير. سافر عادل إلى أمريكا ثم انضمت إليه نادية بعد عام ودرسا في جامعة كنتاكي بلكسنجتون.

ولدت ابنتي نادية في ١٩ يناير ١٩٦٩ في القاهرة من زوجتي الأولى ليلى. وكنت وقتها قد سافرت إلى موسكو في يناير ١٩٦٩- أما باقي العائلة (زوجتي السابقة ويوسف ونادية) فقد انضموا لي في سبتمبر ١٩٦٩. أمضيت الفترة من يناير حتى سبتمبر بمفردي. وكنت أنتظر وصولهم بفارغ الصبر. وقد سبق أن تحدثت عن ذلك. وكانت نادية عند وصولها تبلغ من العمر ثمانية شهور. ومع وصول الأسرة دبرت لي دار التقدم شقة أوسع (ثلاث حجرات واسعة وصالة) في بداية شارع جوركي.

بعد وصولهم بقليل دبرنا لنادية دخول دار حضانة قريبة من المنزل، وكانت تقيم بها طوال الأسبوع وتحضر إلى المنزل في نهاية يوم الجمعة. وتبقى معنا حتى بداية الأسبوع يوم الأثنين.

استفادت نادية من دار الحضانة فائدة كبيرة. وساعدتها إقامتها هناك مع باقي الأطفال. وتعلمت هناك أولى كلماتها باللغة الروسية. ولكنها نسيتها تماما بعد عودتها إلى القاهرة. وكانت مربياتها يحبونها جدا. وعندما بلغت

سن روضة الأطفال ونقلت إلى روضة أطفال أخرى بكت مربيتها حزنا على فراقها.

أمضت نادية طفولتها الأولى في موسكو. وعادت إلى القاهرة وهي في الخامسة من عمرها. وكانت تتكلم الروسية وقليل من العربية. وكانت موسكو في ذلك الوقت شديدة النظافة. وعندما وصلت إلى القاهرة لاحظت على الفور امتلاء الشوارع بالقمامة فكان من أول اسئلتها "ألا يوجد هنا صناديق قمامة".

وكان سفرها إلى القاهرة مغامرة، فقد أرسلناها بمفردها على الطائرة بعد الاتفاق مع إحدى مضيفات الطائرة التي رحبت بالاهتمام بها. سافرت ولم تخف وقابلتها ليلى في مطار القاهرة.

بدأت دراستها في مدرسة الليسيه الفرنسية واستمرت بها حتى الثانوية العامة. وكانت متقدمة في الدراسة. وانجذبت للدراسة العلمية. ودخلت كلية العلوم.

تزوجت نادية من عادل زميلها في كلية العلوم ثم رافقته في منحة دراسية في تخصصه في إيطاليا. وسافر بعد ذلك إلى أمريكا في ١٥ أغسطس ١٩٩٦ وسافرت نادية في ١٨ أغسطس ١٩٩٧ وحصل كلاهما على الدكتوراه في عامين متتالين وعادا إلى القاهرة في ٣ أكتوبر ٢٠٠٣ بعد أن عملا في مجال تخصصهما بعض الوقت في أمريكا. وكانت وزوجها متفوقان في الدراسة وكتبا عدداً من الأبحاث في المجلات العلمية وكانت هناك محاولات لاستبقائها هناك فرفضت.

وقد زرتهما في لكسنجتون أثناء دراستهما هناك. وأقمت معهما في شقتهما بضعة أيام. ودارت بيننا أحاديث عن الوضع في مصر التي تغيبا عنها مدة طويلة وعن الوضع في الولايات المتحدة وخصوصا أوضاع المبعوثين سواء من مصر أو من بلاد العالم الثالث. وقد فوجئت أن البحث العلمي في أمريكا يعتمد اعتمادا كبيرا على مبعوثي العالم الثالث وغيرها من البلاد، وتستفيد منهم السلطات الأمريكية استفادة كبيرة وبعض مبعوثي العالم الثالث يستفيدون فائدة كبيرة من دراستهم وبالذات الهنود والصينيون ويفيدون بلادهم بالرغم من أنهم يخضعون لضغوط كبيرة لاستبقائهم في الولايات المتحدة الأمريكية. وعدد كبير من المبعوثين العرب والجنسيات الأخرى

يخضعون لهذه الضغوط والإغراءات المادية مع إمكانية الاستمرار في مواصلة بحوثهم العلمية التي لا يجدون الإمكانيات لمواصلتها في بلادهم. وذلك مما يؤدي محليا إلى هروب العقول التي تحتاجها مصر حاجة كبيرة لتحقيق التنمية في بلادها. أثرت هذا الموضوع وفكرت أن جزءا هاما من تهريب الثروة إلى أمريكا وغيرها هو هجرة العقول وكتبت هذا المقال ووزعته على أعضاء اللجنة لمكافحة العولمة الذي كنت عضو فيها /

[حملة ضد تهريب الأموال والعقول]

صدر منذ عدة شهور تقرير عن أكاديمية البحث العلمي في مصر جاء فيه أن ٤٥٠ ألف من حملة المؤهلات العلمية العليا هاجروا من مصر خلال نصف القرن الماضي واستقروا في دول الغرب وبالمعايير العالمية للبروز والتفوق هناك ٩٤ في الهندسة و٢٦ في الفيزياء النووية و٤٨ في الكيمياء و٢٥ في علوم الفلك والفضاء و٢٨ في البيولوجيا و٧٢ في استخدامات الليزر و٩٣ في الالكترونيات الدقيقة وعشرات آخرون في الطب والهندسة الوراثية والجيولوجيا وغيرها. ومازالت عملية استنزاف هذه العقول مستمرة وستستمر لأن هناك في الغرب وخصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية إغراءات كبيرة وأموال كثيرة تصرف لاستبقاء هذه العقول والاستيلاء عليها لانهم يمثلون ثروة لا تقدر بثمن.

تقدر الأموال المصرية والعربية المهاجرة والمهربة بما يزيد عن تريليون دولار أمريكي. والعقول المسروقة تقدر بما يزيد عن ذلك. وهي ثروة بشرية ضخمة يستولي عليها الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بالذات. هل يمكن أن نطلب من أصحاب هذه العقول أن يعودوا إلى أوطانهم ويساهموا في تنميتها. وهل نستطيع أن نخلق هنا الظروف التي تسمح باستثمار هذه العقول والاستفادة من هذه الثروة الضخمة؟

كثيرا ما نسمع من المسئولين أنهم يسعون إلـى جلـب الاسـتثمارات الأجنبية. ولا تستجيب هذه الاستثمارات لهذه النداءات إلا في أضيق الحدود.

والحقيقة أن الثروة المادية والبشرية تصدر إلى الخارج وتستثمر هناك استثمارا يدر الملايين والمليارات للغرب وللولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأولى.

ويمكن لهؤلاء المسئولين الذين يطلقون هذه الدعوات أن يساعدوا على خلق الظروف المحلية كي نحتفظ بهذه الثروات المادية والبشرية المهربة ونخلق الظروف والامكانيات لذلك.

ندعو للقيام بحملة واسعة لخلق الظروف المحلية لعودة هذه الكفاءات. فإننا نظلم هذه الكفاءات إذا طالبناها بالعودة وحرمانهم من الإمكانيات التي يتمتعون بها في الخارج لتطوير مهاراتهم وكفاءاتهم العلمية. فضلا عن الميزات المادية التي يعمل الغرب على اغرائهم بها ليستمروا في خدمة مصالحه وتقدمه العلمي والتكنولوجي. لا يمكن اتهام هذه الكفاءات المهاجرة بالتخلي عن أوطانهم وخدمة الغرب لأنهم إذا عادوا فلن يخدموا أحدا ويحرمون من الإمكانية التي تقدمها الهيئات المختصة في الخارج لضمان تقدمهم العلمي.

في بعض الدول الآسيوية تم استقطاب هذه النوعية البارزة من العقول لتعمل في ظروف مادية ونفسية ومهنية مكافئة للمستويات العالمية. فظهرت مؤسسات علمية بالمستويات العالمية. ويوجد في إسرائيل معهد وايزمان.

ان العولمة الرأسمالية تمارس عولمتها لصالح عدد من الشركات المتعدية الجنسية ويستخدم لذلك الأموال التي تجتذبها من العالم وقسم كبير من هذه الأموال يأتي من البلاد العربية سواء من الحكومات أو الأغنياء العرب الذين يستثمرون أموالهم في الغرب وخصوصا في بنوك الولايات المتحدة الأمريكية ويعتبر مروجو العولمة الرأسمالية أن هذه العملية طبيعية وتنتج عن طبيعة الأمور لأن العالم اليوم أصبح قرية واحدة ولكن الحقيقة ان هذه القرية تصبح ملكا لفئة ضئيلة من المليارات ولا يمكن بأن يشاركهم في ملكيتها أحد خارجها.

تتحدث الصحف هذه الأيام عن التعاقد مع شركات أجنبية لجمع القمامة واستخدامها وتصرف في ذلك أموالا باهظة بحجة ان الشركات الأجنبية هي التي تملك التكنولوجيا لتحقيق ذلك.

هل فكرنا قليلا في استخدام تلك الأموال التي تعطي للشركات الأجنبية والاستفادة من علمائنا وتخصيص هذه الأموال وغيرها لإيجاد التكنولوجية اللازمة المحلية لجمع القمامة. نفس الشيء يمكن أن نقوله بالنسبة لمجالات أخرى كثيرة. كل شيء نستورد له خبراء أجانب تصرف عليهم الملايين ولا نفكر في صرف هذه الملايين على بحوث علمائنا واخصائيينا الذين صرفنا عليهم مبالغ باهظة ليدرسوا في الغرب ونجد ان هذا الغرب يستحوذ عليهم ويجعلهم مفيدين ومتفوقين في أبحاثهم العلمية. ولا نجد أي غضاضة لتركهم في الخارج ونكتفي بالحديث عن تقدمهم وإبداعاتهم.

يقول د. رمزي زكي في إحدى مقالاته الهامة اننا أصبحنا نصدر رأس المال إلى الخارج، إلى أمريكا وغيرها، في الوقت الذي ندعو فيه إلى الاستثمارات الأجنبية في مصر. فبعض رجال الأعمال في مصر بل والحكومة تستثمر أموالها في الخارج. إلى جانب عمليات تهريب المليارات المستمرة من البنوك التي كشف عنها في السنوات الأخيرة. ولا تتخذ أي إجراءات لمحاصرتها ومنعها. لماذا لا نخلق الظروف لتحويل هذه الاستثمارات إلى مصر بدلا أن نستمر في الدعوة لقدوم الاستثمارات الأجنبية التي لا تأتي. يجب تحريم عملية تهريب الأموال مهما اتخذ شكل هذا التهريب سواء أكان بطريق شرعي أو غير شرعي. ان تهريب علمائنا إلى الخارج ليس المسئول عنه هؤلاء العلماء الذين لا نخلق الظروف هنا ليواصلوا بحوثهم العلمية ويفيدوا التنمية. وإنما تسأل عنه السياسة الحكومية ومعاهد البحث العلمي وأصحاب الأعمال الذين يجب أن يحققوا الظروف عندنا التي تخدم ذلك.

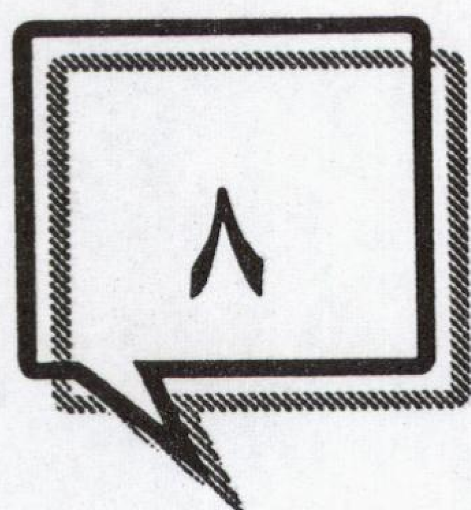
كخطوة في الحملة من أجل تحقيق هذا التوجه تفكر "دار العالم الثالث" في إصدار مجلة علمية تناقش فيه هذه القضايا كلها وأبحاث العلماء المصريين في مختلف المجالات. تلك الأبحاث التي تتسابق كبرى المجلات العلمية في العالم على نشرها. ويسبق ذلك ويتزامن معه جهد كبير واتصالات بمختلف الهيئات الرسمية وغير الرسمية وكذلك بالمبعوثين الموجودين في الخارج أو الذين عادوا إلى مصر والتعاون معهم وحشدهم في هذه الحملة.

وأطرح هذه الحملة على المجموعة المصرية لمناهضة العولمة باعتبارها قضية وحملة تستحق أن نقوم بها لأن تحقيق التنمية هو الضمان والسبيل لكي ننجح في الحملات الأخرى. ويتبع ذلك اقتراحات تفصيلية للتحرك من أجل هذه الحملة.

الكفاح ضد العولمة الرأسمالية في مصر وغيرها من بلدان العالم الثالث مرتبط بالكفاح الوطني ضد كل أشكال التبعية التي تمارسها الحكومات. وهذا لا يلغي الحملات الأخرى مثل الحملة ضد البطالة وخلافه لكن الحملات السابق الحديث عنها هي الضمان لكسب كل قوى الأمة الوطنية والساعية للتنمية ورفض التبعية.

***

مقال قدمته في إحدى اجتماعات المجموعة المصرية لمناهضة العولمة.



التصدي للتشهير باليسار المصري

اعتادت القوى الرجعية منذ الأربعينيات أن تتهم اليسار بالصهيونية في محاولة لتشويهه وعزله عن الجماهير. وقد تصاعدت هذه المحاولات منذ حرب فلسطين ومعارضة اليسار لهذه الحرب وكشف المحاولة لاستخدام هذه الحرب لحرف النضال ضد الاستعمار والاحتلال البريطاني في وقت تصاعد فيه النضال الوطني. وقد حاولوا تصوير هذه الحرب بأنها لتحرير فلسطين في الوقت الذي كانوا في واقع الأمر يساعدون الصهاينة على منع قيام الدولة الفلسطينية. وقد أوضحت ذلك بالوقائع في الكتيب اذي أصدرته عن دار الثقافة الجديدة في سلسلة قضايا للحوار بعنوان «سقطة»[١].

وقد قام إبراهيم بدراوي وأحمد شرف بمحاولة مشابهة في المرات الأخيرة وذلك في صيف عام ١٩٩٩ عندما استوليا على أموال أتمنهما عليها الحزب الشيوعي المصري الذي انفصلا عنه وكانا في قيادته. وكان الأول أمين التنظيم المركزي في السكرتارية المركزية والمتحدث الرسمي باسم الحزب. وكان هو صاحب «الخط التنظيمي» الذي قمت بنشر ردي عليه في الجزء الأول من هذا الكتاب. وأذكر أنني كنت معترضا على توليه المسئولية التنظيمية وكتبت تقريرا بهذا المعنى للسكرتارية المركزية وقتها ولكنها لم تأخذ برأيي. وكان ذلك في أوائل التسعينيات. أما الثاني وهو أحمد شرف وكنت مخدوعا فيه حتى عرضت عليه تولي مسئولية "دار العالم الثالث" كما شرحت في الجزء الثاني من هذا الكتاب ولكنه انكشف عمليا كما ذكرت من قبل. ومما يؤسف له أن قيادة الحزب وقفت ضد الإجراء الذي تبناه مجلس

(١) أنظر كتيب «سقطة» الصادر عن "دار الثقافة الجديدة " ١٩٩٩م.

إدارة "دار العالم الثالث" بتنحيته عن هذه المسئولية بناء على اقتراح مني. وهم اليوم يعترفون بخطئهم في الوقوف معه بعد أن انكشف لديهم واتخذوا قرارا بفصله هو وإبراهيم بدراوي.

أصدر الأثنان بعد اختلاسهما لأموال الحزب بيانا يتهمون فيه عددا من قيادة الحزب وأنا منهم (رغم أنني كنت استقلت منذ مدة من قيادة الحزب) بالاتهام القديم وهو العمالة للصهيونية.

وقد نشر أحمد شرف بالاتفاق مع عبد الحليم قنديل الذي كان رئيسا لتحرير جريدة العربي سلسلة من المقالات في جريدة العربي هاجم فيها بعض العناصر اليسارية البارزة في التجمع والحزب الشيوعي المصري واتهمهما بالصهيونية، وكان يعتبر أي سلام بين الفلسطينين وإسرائيل دعوة صهيونية. ذلك جهل شديد لأن سياسة وممارسات إسرائيل وقيادتها ووراءهم القيادة الأمريكية تقف بالفعل ضد السلام مع الفلسطينيين وتعوق أي محاولة لقيام الدولة الفلسطينية وتعوق بالفعل أي محاولة لقيام الدولة الفلسطينية.

وأنا أفرق دائما بين الصهيونية والصهاينة وبين اليهود. وهناك كثير من اليهود في البلاد بما في ذلك في إسرائيل نفسها يقفون ضد الصهيونية ويناضلون ضدها ويساندون الشعب العربي الفلسطيني في نضالهم ومن أجل بناء دولتهم المستقلة ولا يعتبرون إسرائيل دولة لليهود وحدهم.

وإن الذين يوحدون بين الصهيونية واليهود يدعون إلى دعوة يرفضها باقي اليهود غير الصهاينة وباقي الناس في الغرب غيره. وهم في الواقع يخدمون الصهيونية وأهدافها. وهذا هو موقفي الذي أعلنته دائما ودافعت عنه باستمرار وهو ما ضمنته في المقال الذي نشرته في العدد الثالث من آفاق اشتراكية والذي أعدت نشره في هذا الكتاب.

وكان هذا الموقف الذي دافعت عنه في الندوات المختلفة وهذا هو السبب الذي دعاني لترجمة ونشر كتاب « على الحدود » في مطبوعات "دار العالم الثالث" للكاتب الإسرائيل اليهودي الذي يقف معنا في الأهداف[1].

وقام إبراهيم بدراوي بنشر تشهير مماثل في جريدة الأهرام العربي. وشمل هذا التشهير شخصيات من رموز اليسار مثل خالد محيي الدين ومحمود أمين العالم ورفعت السعيد وحسين عبد الرازق وفريدة النقاش.

---

(١) للكتاب الإسرائيلي فارشافسكي الذي وقف ويقف ضد الصهيونية دفاعا عن الحقوق العربية. وقد نشر الكتاب عام ٢٠٠٥.

وهذه هي رسالتي إلى إبراهيم نافع باعتبار أن المجلة التي نشرت هذا الحديث تتبع مؤسسة الأهرام، وقد كتبت ردا إلى إبراهيم نافع باعتباره المسئول عن الصحف والمجلات التي تصدر عن مؤسسة الأهرام، فنشرت الأهرام العربي إشارة إلى هذا الرد باختصار شديد. وفيما يلي رسالتي إلى إبراهيم نافع وكان ذلك في ١٩٩٩/٨/١٨.

السيد الأستاذ إبراهيم نافع

رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأهرام

ونقيب الصحفيين

تحية طيبة وبعد ...

ألا يثير الشك والريبة لديكم أنه في هذا الوقت بالذات الذي يجب فيه أن تكثف كل القوى الوطنية في مصر والعالم العربي جهودها لمساندة الشعب الفلسطيني والسلطة الوطنية الفلسطينية في تحقيق أهدافها بإقامة الدولة الفلسطينية كاملة السيادة وعاصمتها القدس وفي انسحاب القوات الإسرائيلية من كل الأراضي المحتلة وفي تصفية المستوطنات وعودة اللاجئين. وفي الوقت الذي تزداد فيه إسرائيل عزلة وانكشافا في العالم كقوة تكرس العدوان والاحتلال وترفض قرارات الأمم المتحدة والحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني، تظهر في هذا الوقت بالذات محاولة للتشهير بعدد هام من رموز اليسار المصري، والمعروفين بنضالهم الوطني ودورهم الهام سواء مصريا أو عربيا بادعاء أنهم يكونون شبكة صهيونية.

لأنهم:

(١) يدعون إلى السلام العادل بين العرب وإسرائيل.

(٢) ولأنهم يدعون إلى التفرقة بين اليهود والصهاينة مع العلم بأن القادة الصهاينة يحاولون بكل الطرق طمس هذا الفارق، مدعين أن إسرائيل هي وطن كل يهود العالم وتدعوهم للتجمع في هذا الوطن المزعوم للهرب من التمييز والاضطهاد الذي يلاقونه في البلاد الأخرى.

(٣) ولأنهم يساندون السلطة الوطنية الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات في مواجهتها مع إسرائيل والمجموعة الصهيونية الحاكمة ومن يقفون وراءهم. ويدعون لوحدة كل الفصائل الفلسطينية في هذا الاتجاه مع تعدد توجهاتها.

(٤) وانهم يسعون لكسب الرأي العام العالمي بما في ذلك الرأي العام الإسرائيلي للقضية الفلسطينية ولقضية السلام العادل.

وقد بدأت هذه الحملة المشبوهة ضد اليسار المصري، وهو فصيل هام من فصائل الحركة الوطنية، وضد جهودهم ونضالهم لحل القضية الفلسطينية. وقد بدأت بمقالين في جريدة الجيل في فبراير الماضي بعنوان «فضيحة اليسار المصري والصهاينة» ثم تبعتها حملة مركزة في صفحة الرأي التي يشرف عليها عبد الحليم قنديل في صحيفة العربي لسان حال الحزب الناصري وانتقلت أخيرا إليكم وإلى مقر داركم من خلال مجلة «الأهرام العربي» في حوار أجراه خالد صلاح مع إبراهيم بدراوي وذلك تحت عنوان مثير «الاختراق الصهيوني للشيوعيين في مصر» ونشر مع الحوار صور لبعض رموز اليسار مثل خالد محيي الدين ومحمود أمين العالم ورفعت السعيد وإلى جانبهم صورة شيمون بيريز مع العناوين التالية: «د. رفعت السعيد على اتصال بإسرائيل قبل أن يفكر السادات في زيارة القدس» و«حسين عبد الرازق وفريد النقاش صديقا الصهاينة الجدد» و«خالد محيي الدين أنشأ المركز الذي تحول إلى وكر للاتصال بالصهاينة» و«هنري كورييل اليهودي وراء كارثة الاختراق الصهيوني لليسار المصري»».

وتحدثت المجلة عن ما يُسمى بالبيان القنبلة للحزب الشيوعي المصري «حزبنا يطهر نفسه من الخونة» ونشرته ولم تنشر تكذيب الحزب نفسه لصدور هذا البيان منه. وكتب خالد صلاح في مقدمة الحوار أن «التفاصيل معقدة والمتهم نخبة من رموز اليسار والعمل الوطني في مصر الذين آثروا أن يحاصروا البيان بالصمت منعا لتفاقم الكارثة». ويبدو أن كاتب الحوار لم يقرأ ردي في جريدة العربي بتاريخ ١٩٩٩/٧/١٢ والذي وضع له محرر العربي عناوين من عنده لا تعبر عما ورد في الرد وكذلك ردي على الحملة في بدايتها وذلك في كتيب «سقطة – رداً على التشهير باليسار المصري» الصادر عن "دار الثقافة الجديدة" وكذلك رد الدكتور رفعت السعيد الذي ظهر في جريدة الأهالي بتاريخ ١١ أغسطس في الحوار الذي أجرته معه أمينة النقاش. وأخيرا في كتاب لبهيج نصار باسم «الناصريون الجدد وسياسة التكفير والهجرة»، الصادر عن "دار العالم الثالث". ويتضمن الحوار الذي نشر في مجلة "الأهرام العربي" تشهيرا وقذفا في حقي وحق عدد آخر من الأسماء مثل بهيج نصار وصلاح عدلي فضلا عن الأسماء السابق ذكرها وهي مسائل يحكم فيها القضاء.

ولكن ما أردت أن أثير انتباهكم إليه: ألا يثير ريبتكم أن تثار هذه الضجة في هذا الوقت بالتحديد ؟ وهل تقبلون أن تستخدم المجلة التي تصدر عن المؤسسة التي ترأسونها للقيام بهذا الدور خصوصا وأن سبعة من الأسماء المشهر بها هم من الزملاء الصحفيين.

أعتقد أنكم ستبذلون جهدكم لتصحيح ذلك فلا تشارك مؤسستكم الرصينة في هذه المحاولة وأعتقد أن من إحدى الخطوات التي نرجو أن تتخذوها أن تأمروا بنشر هذه الرسالة. وهذا الأمر لا يكفله فقط حق الرد وإنما أعتقد أنه يتفق مع الدور الهام الذي تقوم به مؤسستكم الغراء.

تحريرا في ١٩٩٩/٨/١٨ **محمد يوسف الجندي**

حق الرد يجب احترامه

وقد كتبت ردا على ما نشرته العربي وجاء فيه ما يلي:

من المعترف به في التعامل مع الصحف كفالة حق الرد دون حذف أو تغيير أو تحوير. وآسف أن أقول أن جريدة " العربي " لم تراعي ذلك في نشرها ردي على ما تنشره صفحة الرأي بالجريدة من تشهير ببعض رموز اليسار وأنا منهم.

أولا ــ أنها نشرت عنوان لردي غير العنوان الذي وضعته والذي يلخص هدفي من الرد وأعتبر العنوان الذي وضعته الجريدة تشويها لمضمون ردي. فقد وضعوا عنوانا له « دفاعا عن هنري كورييل » وأنا لم أقصد في ردي الدفاع عن هنري كورييل فلم يكن ذلك هو هدف الرد. فضلا عن أن هنري كورييل ليس في حاجة إلى دفاع مني. وعندما أريد الدفاع عنه سأكتب شيئاً آخر.

ثانياً ــ أن الهدف من المقال لم يكن الرد على أحمد شرف وحده وإنما الرد على كل التشهير الذي تمتلئ به صفحة الرأي منذ فترة سواء بقلم أحمد شرف أو غيره.

ثالثاً ــ أن العنوان الذي وضعته لمقالي « لماذا لم نرد ؟ » هو رد على تساؤل الأستاذ عبد الحليم قنديل وبينت أن هدفي الأساسي الحفاظ على الوحدة مع حق الاختلاف والحوار.

رابعاً ــ طلبت من الأستاذ عبد الله إمام المسئول عن الجريدة ألا يقوم بأي تعديل أو حذف. فرد عليّ بأن هذا « حقك »، وللأسف لم يراعي الأستاذ عبد الحليم قنديل هذا الحق بوضع عناوين تختلف عن مضمون المقال والهدف منه مع بعض الحذف.

خامساً ــ مع كل ما حدث فإنني مازلت عند رأيي في أهمية الحوار حول القضايا الهامة التي أثرتها حول القضية الفلسطينية والحفاظ على وحدة اليسار رغم الاختلافات. وأعتقد أن الحرص على هذا الهدف أهم من محاولات الإثار الصحفية.

وقد كتبت ردي ردا على تساؤل الأستاذ عبد الحليم في عدد سابق تحت عنوان « لماذا لم يردوا ؟ » على ما تفرزه الصحيفة التي يشرف عليها في

جريدة العربي من تشهير وتلويث لشرف عدد من أشرف الوطنيين والمناضلين الذي يفخر تاريخنا الوطني بنضالهم الماضي والحاضر. وكان دافعنا الأول لعدم الرد هو الحرص على العلاقة مع الحزب الناصري الذي نعتبره قوة أساسية من قوى اليسار التي تضم التجمع والشيوعيين بالإضافة إلى قوى أخرى. ونحن مشغولون بقضية نعتقد أنها أولىَ أن يفرغ طاقاته «الثورية» من إجلها، وهي توحيد قوى اليسار على اختلاف اتجاهاتها ضد العدو الرابض والذي يحقق انتصارات كل يوم ويرقص فرحا لهذه الصفحات من جريدة « العربي »، وبالتحديد صحيفة الرأي والتي تكتب فيها بعض الأقلام مهمتها مكرسة لتقسيم اليسار الوطني والتشهير به. وهذا العدو هو الاستعمار والصهيونية وكل قوى اليمين الرجعي.

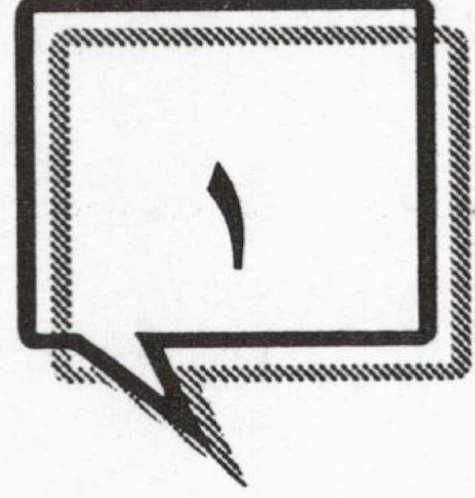
ومن الطبيعي أن تحدث اختلافات في وجهات النظر بين قوى اليسار المختلفة، ولكن هذا الاختلاف يعالج بالحوار لا بالتشهير واختلاق الأكاذيب.

وهناك بعض الأكاذيب غير المستندة إلى أي أدلة أو قرائن ولكن إطلاقها يكون له أثره في خلق جو من التشويش والإشاعات والشكوك التي تشغل قوى اليسار عن المعارك الحقيقية .. ولكن الأكاذيب التي وجهت لي على صفحة « العربي » من السهل علىّ أن أثبت كذبها ولدي الأدلة على ذلك. مثل ما جاء في مقال للمدعو أحمد شرف الذي فتحت له العربي صفحاتها في سلسلة من المقالات ضد رموز اليسار جاء فيها أن محمد يوسف الجندي استولى على " دار الثقافة الجديدة " قسرا واغتصابا من الملكية الشيوعية. ويؤكد كذب هذا الادعاء أن "دار الثقافة الجديدة " قامت عام ١٩٦٨ كما هو واضح من سجلها التجاري وأن الأحزاب الشيوعية في مصر كانت قد حلت نفسها عام ١٩٦٥ ولم تقم أي تنظيمات شيوعية إلا في عام ١٩٧٠.

من أكاذيبه التي لا تهدف إلا إلى التشهير، الروايات العديدة المجهولة المصدر منها أن أحد المجندين حديثا لمجموعة روما نقل عن يوسف حزان قوله أن عبد الناصر كان يخشى من عودة كوريبل لمصر نظرا للأبعاد الكاريزمية في شخصيته والتي كان من الممكن أن تهدد عبد الناصر في قيادة مصر. وفي مقابل ذلك أورد ما ذكره الدكتور ثروت عكاشة في كتابه «مذكرات في السياسة والثقافة» الصادر عن دار الهلال والتي صدرت طبعته الأولى في يناير ١٩٨٨. جاء في صفحة ٣٤٥ من الكتاب:

« وكنت قد تعرفت إلى هنري كوريل مع مطلع عام ١٩٥٨ بمدينة جنيف، وقدم لي عددا من الشيوعيين المصريين المقيمين بأوروبا، كانت فاتحة تعاون صادق في خدمة المصلحة الوطنية. وقد اتفقت معهم على الاضطلاع بترجمة كتاب «الهدنة المشتعلة» إلى الفرنسية لقاء أجر رمزي لما اشتمل عليه من معلومات تثير القارئ عن ما كان لإسرائيل من أعمال عدوانية، وقاموا بنشره وتوزيعه وإهدائه إلى بعض الشخصيات الفرنسية ذات التأثير مثل جان بول سارتر وبيير كوت وإمانويل داستييه وغيرهم. كما نشروا مقتطفات منه في المجلات الفرنسية، وقد طلب مني هؤلاء الأصدقاء نقل مبلغ ما يقابل ٤ مليون جنية مصر بالفرنكات السويسرية لحساب جبهة التحرير الجزائرية من سويسرا إلى روما وتسليمها إلى السفير التونسي بروما لينقلها بمعرفته إلى تونس. وكان هذا المبلغ هو حصيلة المساهمات التي يدفعها الجزائريون بفرنسا شهريا تدعيما للنضال الوطني بواقع ١٦٠٠ فرنكا شهريا عن كل جزائري، وقد بادرت بالاستجابة لمطلبهم وعهدت إلى الملحق الجوي بالقيام بهذه العملية بمجرد تحديد موعد التسليم في مقر وفدنا الدائم في الأمم المتحدة بجنيف. وأشهد أنه طوال تلك السنين كان كوريل مثالا للتعاون الأمين سواء من حيث المعلومات السياسية المفيدة التي زودني بها، أو من حيث الاتصالات الجادة التي كان يحاول بها أن يخدم قضية تطبيع العلاقات بين مصر وفرنسا. وأعترف لوجه الحق، أنه قام بمد جبهة التحرير بالجزائر بمساعدات فعالة وكان تأييده للمجاهدين الجزائريين بغير حدود في الوقت الذي كانت تطاردهم فيه جميع أجهزة الدولة الفرنسية، كما كنت ألمس ولاءه الشديد لمصر في أكثر المواقف حرجا. وتحملني تجربتي معه طوال أعوام عشرة على تقدير سلوكه وحنكته السياسية وعلى العرفان بخدماته الصادقة لمصر. ولم أخف عن الرئيس عبد الناصر جهوده ومساعداته حتى أني رجوته فيما بعد أن يرد إليه جنسيته المصرية لقاء خدماته، وأيدت مطلبي بتسجيل كل ما أداه في مذكرة مرافقة في ٢٢ أبريل ١٩٦١، وهو ما حفزه إلى الموافقة على مسعاي، غير أن الأيام مرت دون أن تلقى هذه الموافقة هوى الأجهزة المختصة».

أعتقد أن رواية الدكتور ثروت عكاشة أكثر احتراما وأكثر مدعاة للثقة من تلك الحواديت المجهولة المصدر التي يحدثنا عنها المدعو أحمد شرف !



أزمة القيادة في الحزب الشيوعي المصري

ويمكنني الاستطراد في تفنيد كل الأكاذيب والتشهير الذي ورد في هذه السلسلة من المقالات ولكنني سأرتفع عن هذه الصغائر وأدخل إلى الموضوع الأهم: لمصلحة من تثار هذه الحملة التي تهدف إلى تقسيم القوى المفروض أن توحد في النضال، من أجل قضيتنا الوطنية والقضية الفلسطينية في وقت تمر فيه الآن بمرحلة هامة من تاريخها، وتتعزل فيها إسرائيل والقوى الصهيونية والعدوانية وتبدأ التناقضات التي كانت إسرائيل تحاول تصديرها إلينا – إلى داخل إسرائيل نفسها (من أمثلة ذلك: اغتيال رابين – ووجود قوى عديدة داخل إسرائيل تدين الاحتلال الإسرائيل وتطالب بتصفية المستوطنات وعودة الأراضي المحتلة إلى أصحابها الخ). وأنا لا ألقي الكلام جزافا بل أستطيع أن أقدم وقائع كثيرة قوية مؤيدة بالوثائق والمستندات.

لقد كانت معاداة اليهود والحملة ضدهم والدعوة لاستئصالهم هو سلاح تستخدمه الصهيونية دائما لدعم قضيتها والدعوة لتجميع اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين على حساب طرد الفلسطينيين أصحاب الأرض.

من أمجاد اليسار أنه كان دائما ضد أي دعوة عنصرية ضد أي دين من الأديان، وكان دائماً يفرق بين اليهودية والصهيونية. ولكن إسرائيل والصهيونية تقدم اليهود والصهيونية ككيان واحد وتعتبر كل يهودي في العالم مواطنا إسرائيليا وتعتبر نفسها ممثلة لليهود في العالم. وفي الانتخابات الأخيرة في إسرائيل تقدم عزمي بشارة العربي الإسرائيلي بترشيح نفسه رئيساً للوزارء، كموقف ضد هذا المفهوم وقد حصل على عدد لا بأس من الأصوات، وحصل المرشحون العرب على ١٠ مقاعد في الكنيست ويتزايد عدد الإسرائيليين الذين يطالبون بالاعتراف بدولة فلسطين وبانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ وبتفكيك المستوطنات وبأن تكون القدس الشرقية عاصمة لدولة فلسطين وبحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى بلادهم ويدعون الاتحاد الأوروبي إلى مقاطعة السلع الواردة من المستوطنات الإسرائيلية ووقف التجارة معها ويقومون بإعادة بناء منازل الفلسطينيين التي تهدمها القوات الإسرائيلية. وهذا كله ليس من مصادر مجهولة وإنما بالوثائق والمستندات وينشر في الصحف والإذاعة والتليفزيون. فهل نركز هجومنا على من يؤيدونا داخل إسرائيل أم نركزها في النضال لتحقيق أهدافنا من أجل بناء الدولة الفلسطينية والانسحاب من الأراضي

العربية وتصفية المستوطنات اليهودية وعودة اللاجئين ومساندة قوى السلام داخل إسرائيل ضد سيطرة القوى الصهيونية والعنصرية داخل إسرائيل.

وكان عبد الناصر بعد حرب ١٩٦٧ يوافق على أي مبادرة للسلام. فقد وافق وقبل قراري مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨ الخاص بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة، وعارضه الفلسطينيون باعتبار أن هذا القرار يعترف بوجود إسرائيل. ثم أقرت منظمة التحرير الفلسطينية في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني بموافقتها على قراري مجلس الأمن ٢٤٢، و٣٣٨ وتأييدها قيام الدولة الفلسطينية على أي شبر يتحرر من الأراضي الفلسطينية المحتلة. وهذا هو ما كان يعمل عرفات وأنصاره على تحقيقه، وهو يطالب إسرائيل بتنفيذ اتفاقياتها في مدريد وأوسلو وواي ريفر.

وهذه الاتفاقيات ليست اتفاقيات جيدة ولكنها أفضل ما يمكن تحقيقه في إطار توازن القوى الحالي. ولكننا لم نقبلها كأمر نهائي. ولكن موقف عرفات والسلطة الوطنية الفلسطينية هو تحقيق الانسحاب من أكبر مساحة من الأرض المحتلة يمكن تحقيقه مع المطالبة والنضال من أجل الانسحاب الكامل الذي يتحقق تدريجيا بالعمل السياسي لعزل إسرائيل والنضال بكل الوسائل.

وفي المعركة الحالية تكون مساندة السلطة الوطنية الفلسطينية هو الواجب الأساسي لكل القوى الوطنية في مصر والعالم العربي. ومساندتها لا تعني عدم وجود ملاحظات أو انتقادات ولكنه هو الموقف الضروري للوقوف ضد إسرائيل والصهيونية.

وعلينا أن نطالب بوحدة الفصائل الفلسطينية على اختلاف مواقفها واتجاهاتها التي يجب أن تساند السلطة الوطنية الفلسطينية في معركتها ضد إسرائيل ومن خلفها أمريكا.

هذه كلها قضايا قابلة للحوار. أقترح أن تتوقف فورا حملة التشهير المشبوهة بقرار من الحزب الناصري وأن تجرى بدلا منها ندوات الحوار حول القضية الفلسطينية وما يجب عمله في مواجهة المؤامرات الإمبريالية والصهيونية للسيطرة على بلادنا وعلى العالم العربي.

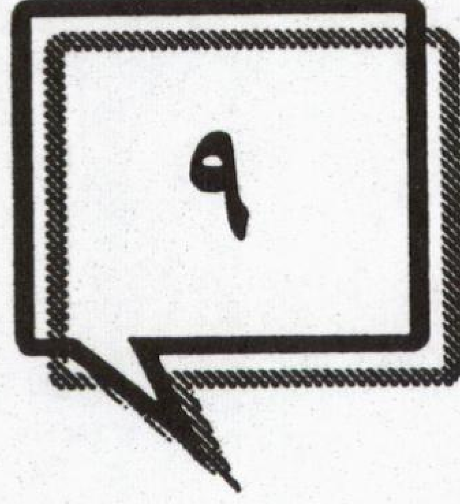
أما حملة التشهير والقذف والأكاذيب التي يعاقب عليها القانون، فإن ما يمنعني حتى الآن من اللجوء إلى القضاء هو حرصي على الحزب الناصري وجريدته الذي مازلت حتى الآن اعتقد وآمل أن حل الخلافات معها لا يكون

بهذا الطريق ولكن بالحوار المستمر بين قوى اليسار الوطني في مصر لمواجهة الخطر الصهيوني.

إن سلسلة التشهير والأكاذيب التي تواصل صفحة الرأي بجريدة العربي نشرها وكذلك أهمية القضية الفلسطينية لا يمكن تغطيتها والرد عليها في هذه المقالة القصيرة.. ولكنها تحتاج لعدة مقالات أرجو أن تسمح لي صفحات الجريدة لفتح مناقشة وحوار بها بعيدا عن التشهير والتجريح.

***

وقد نشر هذا الرد بعد حذف أغلبه واختلاق عنوان له لا ينم عن محتواه وهو «الدفاع عن هنري كورييل». وتوقفت حملة التشهير بعد ذلك.



كيف يمكن التصدي للهيمنة الأمريكية (٭)

٭ نشرت في «قضايا فكرية» العدد الحادي والعشرون/ يناير ٢٠٠٥.

بعد الحرب على العراق يثور تساؤل ملح: كيف يمكن التصدي للهجمة الأمريكية والتي ترمي إلى ضمان الهيمنة لمجموعة المحافظين اليمينيين الجدد المسيطرين الآن على إدارة السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية. وهم لا يهيمنون فقط على التوجه الأمريكي بل يحاولون فرض هذه الهيمنة على العالم كله وإخضاع الدول والشعوب كبيرها وصغيرها لمخططاتهم. ويسميها البعض الآن بأنها العولمة. والبعض الآخر يقول أنها العولمة الرأسمالية مشيرين إلى أنها تعني أن العالم الآن قد أصبح قرية واحدة مترابطة تجعل القضايا الوطنية والمصالح الوطنية في الأهمية الثانوية مقابل ما يُسمى بالعولمة.

وهي في الحقيقة ليست عولمة بل هي مخطط للسيطرة على الثروات في العالم لصالح عدد محدود من الشركات الموجودة أساساً في أمريكا على حساب مصالح الغالبية الساحقة من شعوب العالم وحياتها ورخائها وتقدمها والحفاظ على البيئة والسلام العالمي. هذه المجموعة التي تدعي العولمة هي عصابة مستغلة تحاول تحقيق مكاسب رهيبة ولو كان ذلك على حساب أقصى الاستغلال والإضرار بالبيئة وحقوق الإنسان والتعدي على مصالح الشعوب وخصوصاً شعوب العالم الثالث والمبادئ والقواعد الدولية التي تقررت في هيئة الأمم المتحدة بل ووجود هذه الهيئة نفسها. ولتحقيق هذه المكاسب وحمايتها وضمان استمرار النهب يلجأون إلى كل الأساليب بما في ذلك الحرب والدمار. ويحاولون إيهام الناس إن ما يتم هو العولمة.

والشعوب تؤيد كل تقدم علمي ومن مصالحها الاستفادة من كل الاكتشافات العلمية والتكنولوجية ويريدون أن تتعاون كل شعوب العالم من

أجل ذلك. والعولمة هو توجه سعت إليه القوى التقدمية في العالم. وقد بادر ماركس وإنجلز إلى وحدة كل عمال العالم وجاء في نهاية البيان الشيوعي: «يا عمال العالم اتحدوا». وكانا يران أن مصالح العمال في العالم كله واحدة وتتعارض مع مصالح المستغلين.

أما العولمة التي يدعو إليها المستغلون الذين تقودهم الآن المجموعة اليمينية في أمريكا فهي عولمة سلب ونهب لثروات الشعوب من جميع أنحاء العالم لصالح فئة ضئيلة.

وعندما بدأت هذه المجموعة بالحرب ضد العراق كونت ما سمى بالتحالف الذي هو في حقيقة الأمر تحالف القوى الرجعية المستغلة في أمريكا وفي غيرها من البلاد التي تريد أن تشارك المجموعة المحافظة في العالم في استغلال الشعوب وقهرها.

ويدخل في هذه التحالف المجموعة الليكودية في إسرائيل التي يرأسها آرييل شارون. والمعروف أن سياسة شارون لا علاقة لها بالعولمة فهو يصر على الحفاظ على الطابع اليهودي لدولة إسرائيل ويرفض عودة اللاجئين العرب ويعتبر تسليم الفلسطينيين بذلك شرطا لقبوله قيام دولة فلسطينية. فأي عولمة هذه ؟ إنها العنصرية التي تتعارض تماماً مع العولمة.

وتسيطر هذه المجموعة اليمينية الجديدة على أجهزة الإعلام الأساسية (الصحافة ووكالات الإعلام والتليفزيون) في الولايات المتحدة ولها نفوذ كبير في مختلف البلاد الغربية، ولها دور طاغي في تشكيل الرأي العام الأمريكي ولها نفوذ كبير في العالم الغربي وفي العالم كله. وهي تسيطر على المؤسسات والشركات الضخمة التي تستخدم أموالها لشراء الغالبية الساحقة من أعضاء الكونجرس ومجلس النواب الأمريكيين. سواء من الجمهوريين أو الديموقراطيين. ونحن نذكر مثلاً مدى التحول الذي مرت به هيلاري كلينتون لكي تصبح عضوة في الكونجرس. فبعد تصريحاتها المؤيدة للفلسطينيين تحولت تحت الضغط إلى الوقوف بشكل كامل مع إسرائيل حرصاً على كسب تأييد اللوبي الصهيوني سواء من اليهود أو الأصوليين المسيحيين المرتبطين بهم. وبعد ١١ سبتمبر أعلن جورج بوش الحرب ضد ما سماه بالإرهاب وقال أن من ليس معنا فهو ضدنا. ولم يتردد منفذو هذا المخطط في تخطي الأمم المتحدة واتخاذ قرارات لا توافق عليها، وتهديد الحلفاء الغربيين مثل

فرنسا وألمانياوغيرها من الدول التي رفضت الموافقة على الحرب ضد العراق وحدث انقسام في مجلس الأمن وفي التحالف الغربي رغم الضغوط الشديدة والتهديدات.

ومازلنا نعيش ممارسات تنفيذ هذا المخطط الذي يهدف كما رأينا إلى الهيمنة الأمريكية على العالم أو على الأصح هيمنة هذه المجموعة المحافظة اليمينية على مقدرات العالم.

وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي ظهرت الكتابات والأفكار التي تشير إلى أن هناك عدوا جديدا هو الإسلام والعالم العربي. وشهدنا الممارسات الأمنية العنصرية ضد العناصر العربية والإسلامية حتى من بين الحاصلين على الجنسية الأمريكية.

هذا المخطط يجرى تنفيذه، ويبدأ بضرب أضعف الحلقات كما حدث بالنسبة لأفغانستان ثم العراق والتهديد الحالي لسوريا، وهو لن يتوقف إلىأن يحقق كل أهدافه والسيطرة الكاملة على العالم. ولن ينجو من ذلك من يعرفون بحلفاء الولايات المتحدة مثل العربية السعودية ومصر إلا بالخضوع الكامل.

كيف نواجه هذا المخطط ؟ ونتصدى له ؟

يستخدم أصحاب هذا المخطط كل الوسائل بدءًا من التهديد والرشوة (أو ما يُسمى بالمساعدات) والضغط الإعلامي والمؤامرات المخابراتية وصولاً إلى العنف والحرب.

والولايات المتحدة الآن هي الأقوى في العالم اقتصادياً وعسكرياً وهي تستخدم ذلك لمحاولة فرض سيطرتها ومخططاتها. وتحرص لتنفيذ هذه المخططات على أن تتواجد قواعدها في مختلف أنحاء العالم. وفي المنطقة العربية توجد لها القواعد في الكويت والسعودية وعمان وقطر ومختلف بلاد الخليج والأردن وقد انطلق العدوان على العراق من دول عربية في الخليج (الكويت وقطر أساسا).

في السبعينيات عندما بدأ أنور السادات في ممارسة سياسته الانقلابية ضد التوجه الوطني السابق، أوقف الحرب عام ١٩٧٣ بحجة أننا لا نستطيع محاربة أمريكا أو مواجهتها. وتحولت السياسة المصرية في اتجاه التحالف مع أمريكا. ومازالت هذه السياسة هي المطبقة. فرغم وقوف أمريكا بشكل كامل مع إسرائيل وضد الشعوب العربية فمازالت السياسة الرسمية تعتبر العلاقة معها هي علاقة استراتيجية.

وهذه السياسة لا تتفق مع التوجهات الشعبية سواء في مصر أو في مختلف البلاد العربية. وقد وصل الوضع الآن إلى الكراهية المستمرة والمتزايدة للسياسة الأمريكية التي لا يفرق الشعور الشعبي بينها وبين إسرائيل. كما ظهر ذلك في الشعارات التي رفعت في المظاهرات التي سبقت ولازمت العدوان على العراق مثل شعار أمريكا وإسرائيل عدو واحد. والذي سيطر على مختلف اللافتات وسيطر على الكثير من هتافات المتظاهرين.

هذه التوجهات الشعبية التي طغت على مواقف النقابات والهيئات وجمعيات المجتمع المدني والمظاهرات المختلفة في مصر وسوريا والعراق وبلاد المغرب والسودان والأردن والبحرين وبعض التحركات في بلاد الخليج لها برنامج وطابع مختلف عن توجهات الحكومات العربية على اختلاف هذه المواقف التي بدأت من إعطاء القواعد للقوات الأمريكية كي تنطلق منها للعدوان على العراق أو تقديم مختلف التسهيلات للعدوان أو استخدام الأجهزة الأمنية لمحاصرة التحركات الشعبية وإرهابها.

ومع ذلك فإن هذه الحركة الشعبية واستمراريتها وتصاعدها يؤثر بشكل أو بآخر وبدرجات مختلفة على توجهات الحكومات العربية ومواقفها. ولذلك فإن الاعتماد الأساسي في التصدي للهجمة الأمريكية يجب أن يكون على أساس هذه الحركة وعلى تدعيمها وتصاعدها.

ولا يصح القول بأن الرهان على الحركة الشعبية العربية وحدها يقلل من إمكانياتها في ربط نضالها بالحركة العالمية الشعبية التي نشأت منذ فترة في جميع أنحاء العالم والتي بدأت في سياتل بأمريكا وامتدت إلى مختلف بلاد أوروبا وأمريكا اللاتينية والبلاد الآسيوية وفي جميع أنحاء العالم ضد ما سمى بالعولمة الرأسمالية أو الهيمنة الأمريكية والتي تصاعدت بعد الحرب على العراق بالنضال ضد الحرب ومن أجل السلام.

إن هذه الحركة عالمية وتتصاعد لتشمل باستمرار قوى جديدة متصاعدة من أجل عولمة بديلة عن تلك التي يطرحها الإمبرياليون والمستغلون وتجمع قوى عديدة جديدة ومتزايدة ومتعددة الدوافع ولكنها تلتقي في رفض عالم النهب والحروب والدمار من أجل عالم جديد يسوده الرخاء والعدل والمساواة والسلام لجميع أبناء البشر.

إن برنامج الحركة الشعبية وسياستها يختلف عن برنامج وسياسة ودبلوماسية الحكومات وإن كان يؤثر ويضغط عليها. ويؤثر عليها بقدر قوة وتصاعد واستمرار هذه الحركة.

كيف نواجه هذه الهجمة الاستعمارية العدوانية الجديدة ؟

هذه المواجهة يجب أن تكون جوهر نضال قوى اليسار وكل القوى التي تعارض هذه الهجمة التي تتخذ بشكل مستمر طابعاً عسكرياً عدوانياً. وتضم الملايين الكثيرة التي ترفض الحرب وتعارضها وكذلك من يرفض هيمنة الولايات المتحدة على مصائر العالم.

ويتكون رأي عام في العالم يعارض الحرب ويعارض هيمنة أمريكا والرأي العام العالمي له أثر كبير وقوة في التأثير على سياسة الدول حتى ولو وقفت ضده بعض الدول لبعض الوقت. قال توماس جيفرسون أحد آباء الديموقراطية الأمريكية يوماً «أنه لا توجد دولة يمكنها أن تسير أمورها دون احترام معقول للرأي العام».

وداخل أمريكا نفسها توجد نسبة مقبولة (حوالي ٣٠% من السكان) تعارض هذه السياسة وستتزايد هذه النسبة سواء في أمريكا أو إسرائيل في ارتباط بانكشاف هذه السياسة وتزايد الصعوبات الاقتصادية. أما في باقي بلاد العالم فالغالبية الساحقة يعارضون السياسة الأمريكية العدوانية. حتى في البلاد التي أيدت حكوماتها الحرب.

هذه الحركة ضد الحرب وضد العولمة الرأسمالية يجب دعمها وتطويرها وتوسيعها.

ويصبح اليوم هذا الربط الوثيق بين التحركات الشعبية المصرية والعربية والتحركات الشعبية العالمية أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى. وهي نوع جديد من الأممية أو العولمة البديلة التي تتكون في الظرف الحالي وهي تختلف عن الأممية السابقة التي كانت تنادي بها الأحزاب الشيوعية وكانت ترتبط بمركز قيادي هو الاتحاد السوفييتي. فالأممية التي ندعو لها اليوم ليس لها مركز قيادي وهي تشمل مراكز متعددة في مختلف أنحاء العالم. وهي لا تضم الشيوعيون وحدهم بل كل القوى على اختلاف توجهاتها ويربطها معارضة العولمة الرأسمالية أو الهيمنة الأمريكية. وتضم أيضاً قوى اليسار المختلفة غير الشيوعية والتروتسكيين وحماة البيئة والذين يعانون من البطالة وشعوب العالم الثالث التي تعاني من الاستغلال والديون وفوائدها والتجارة غير المتكافئة وتدخلات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وجماهير النساء التي تناضل ضد التمييز، والشعوب التي تعاني من التفرقة العنصرية وكل القوى التي ترفض الهيمنة الأمريكية وتلك التي ترفض الحرب وتريد السلام.

هذه القوى موجودة في كل بلاد العالم بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية. ومما له دلالة أن أول تحرك ضد العولمة الرأسمالية بدأ في سياتل الأمريكية.

وهناك أهمية كبيرة للتحرك الشعبي الأمريكي ضد توجهات وسياسة هذه المموعة المحافظة الجديدة.

وكذلك لا يجب أن نغفل أهمية تحرك اليهود والمنظمات اليهودية وكذلك قوى السلام داخل إسرائيل الموجودة رغم ضعفها هذه الأيام حيث نجح الصعود اليميني في الولايات المتحدة وفي إسرائيل وفي العالم في تحجيمها مؤقتاً. فعدد من شاركوا في إسرائيل في المظاهرات التي قامت ضد العدوان على العراق لم يتعد ٢٥٠٠. وقد ساعد على هذا التحجيم أيضاً أخطاء من الجانب العربي وبالذات ممارسات بعض التنظيمات المتطرفة مثل العمليات الانتحارية بين المدنيين.

يجب الحرص على أن تضم هذه الحركة العالمية جميع الشعوب من مختلف الدول في جميع أنحاء العالم وأن تشمل المنظمات والجمعيات الغير حكومية التي تتزايد أهميتها باستمرار وكذلك النقابات العمالية وغير العمالية وجميع قوى المجتمع المدني التي يتزايد دورها في العالم ولها وزنها

وتعترف بها هيئة الأمم المتحدة. وتضغط هذه الحركات وتؤثر على توجهات بعض الحكومات التي وقفت في الماضي مع العدوان الأمريكي كما حدث في كوسوفو وأفغانستان. ولكنها بدأت تتمايز أثناء الإعداد للحرب ضد العراق. مثل حكومات فرنسا وألمانيا والصين وبلجيكا وغالبية دول العالم الثالث، بحيث أن الإدارة الأمريكية لم تنجح في مجلس الأمن أن تحصل على تأييد الأغلبية واضطرت إلى القيام بعمل منفرد بالاشتراك مع الحكومتين الإنجليزية والأسبانية متخطية هيئة الأمم المتحدة.

مكافحة أساليب الضغط الأمريكية :

استخدم المحافظون الجدد في أمريكا مختلف الأساليب التي تبدأ من الضغط والإغراء والرشوة وتزييف الإعلام وتصل إلى التدخل العسكري.

وهذه الأساليب تستخدم بكثافة مع البلاد العربية ومنها مصر. ولدى الشعب المصري تاريخ طويل من النضال ضد الاستعمار البريطاني ثم ضد المحاولات التي قادتها الولايات المتحدة الأمريكية لربط مصر بالأحلاف العسكرية. وتاريخ النضال المصري منذ الثورة العرابية ثم ثورة ١٩١٩ والتحركات الشعبية في الثلاثينيات والأربعينيات ثم تتويج ذلك بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر إنما يمثل صفحات مشرفة في تاريخ مصر كان لها تأثيرها على غيرها من الشعوب العربية. ثم كانت الردة التي قادها أنور السادات لربط مصر بالمعسكر الاستعماري بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. ومازلنا نعيش هذه الردة حتى الآن.

وقد تصاعدت المقاومة لهذه الردة في عهد السادات والتي واجهها باعتقالات سبتمبر ١٩٨١ وانتهت باغتياله. وبعد ذلك واصل الحكم نفس السياسة مع بعض التعديلات مثل إعادة العلاقات مع الدول العربية ومحاولة تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتي ومع غيره من الدول وإن استمرت السياسة الاقتصادية التي بدأها السادات في عام ١٩٧٤ وهي سياسة الانفتاح الاقتصادي التي تصاعدت إلى ما يسمى بالإصلاح الاقتصادي والخصخصة. وظل الحرص على استمرار العلاقات المتميزة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تسمى علاقات استراتيجية. وقد ساعد على الاستمرار في هذه

السياسة انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية وما صاحبها من تأثير وتغيرات في العالم.

وكان للانتفاضة الفلسطينية الثانية واستمرارها والقمع والمذابح الإسرائيلية والانحياز الأمريكي الكامل للموقف الإسرائيلي أثره على الشعوب العربية وبالذات على الحركة الشعبية في مصر، التي تمثلت في تحركات اللجنة الشعبية لمساندة الشعب الفلسطيني ثم حركة التضامن مع الشعب العراقي التي صاحبت الإعداد للعدوان عليه ثم غزو العراق واحتلالها، والتي تمثلت في المظاهرات الكبيرة في القاهرة ومختلف المدن التي شملت كل طوائف الشعب والتي اضطرت أمانة الحزب الوطني أن تخضع لمشاعر الجماهير المعادية للعدوان الأمريكي الإسرائيلي وأن تنظم مظاهرات تشرف عليها. وقد بدأت قوى المعارضة وبالذات حزب التجمع والناصري واللجان الشعبية في ميدان التحرير وميدان السيدة زينب وأمام السفارة القطرية في المهندسين وغيرها من التجمعات في الجامعة والمدن المختلفة وفي النقابات المهنية مثل الصحفيين والمحامين. وكانت هذه التجمعات والمظاهرات في البداية تحاط بقوات أمن كبيرة إلى أن بدأت القوات الأمريكية والإنجليزية الحرب وغزو العراق فقامت في يومين متتاليين مظاهرات كبيرة في ميدان التحرير والأزهر وشارك فيها كثير من الجماهير التي كانت تبدو في بادئ الأمر غير مبالية وهو الأمر الذي دفع أجهزة الأمن إلى التدخل الوحشي ومنع المظاهرات وصدر بيان وزارة الداخلية الذي يمنع المظاهرات دون اذن مسبق إلا تحت سيطرة الأمن الشديدة. ومنعت مظاهرة السيدة عائشة التي سمحت بها محكمة القضاء الإداري ولكن الأمن منعها خلافا لحكم القضاء واعتقل كثير من منظميها والمشاركين فيها. وهو الأمر الذي يقسم الوحدة الوطنية ويعمل على إفشال الجهود لتكوين جبهة وطنية ضد الحرب والعدوان.

عندما بدأ غزو العراق استمرت مقاومة وصمود بطولي من الجيش والشعب العراقي لمدة ثلاثة أسابيع. وكان من المتوقع أن يستمر هذا الصمود مدة أطول. لو كانت القيادة العراقية ـ قيادة صدام حسين ـ قيادة وطنية حقة. ولكن التسليم على أبواب بغداد والاتفاقيات التي تمت بين القيادة والمخابرات الأمريكية وبين قيادة صدام تثير شكوكا كثيرة. إن نظام صدام

حسين ارتكب في حق شعبه الجرائم والمجازر وعرف بتعاونه مع الولايات المتحدة الأمريكية في البداية وحصوله منها على الأسلحة الكيماوية والجرثومية التي استخدمها في إيران وضد الأكراد وقام بعدوانه على الكويت سنة ١٩٩٠ وقدم المبرر للقوات الأمريكية بالتعاون مع حكام الكويت لإقامة قاعدة عسكرية أمريكية في الكويت وفي مختلف بلاد الخليج.

كل ذلك يؤكد أن صدام حسين بسياسته المتطرفة والعدوانية لا يمكن أن يمثل مصالح الشعب العراقي. لقد أدى غزو الكويت إلى تقسيم الجماهير العربية في وقت كان يجرى فيه الاستعداد لعقد قمة عربية.

إن تحركات الجماهير العراقية الآن ضد الاحتلال الأمريكي الإنجليزي وضد صدام في نفس الوقت هي التي تمثل المصالح الحقيقية للشعب العراقي. ولا يشمل هؤلاء عملاء أمريكا مثل أحمد جلبي وغيره..

إذا كان لمصر موقعها وأهميتها وتأثيرها في مقاومة هذه الهيمنة الأمريكية فإن على اليسار المصري دور المبادرة. ولكي يقوم بهذا الدور يتطلب ذلك أن يكون لديه الوضوح الكافي والموقف السليم لتحديد التوجه الصحيح اللازم.

إن سبب الاخفاقات اليسارية في الماضي هو تحوله إلى حلقة أو حلقات. وكان نجاحه مرتبطا دائماً بربط نفسه بالحركة الجماهيرية وعدم انعزاله عنها. وهو مواجه اليوم بهذه الهجمة اليمينية العالمية والتي يجب التصدي لها وحشد كل القوى في مصر والعالم العربي والارتباط بكل القوى في العالم التي تواجه هذه الهجمة.

إن السياسات المعلنة للحكومة المصرية والجامعة العربية كانت ضد الحرب وضد الهجوم على العراق وذلك رغم كل مآخذنا على هذا الموقف ومدى فاعليته. وهذا الموقف يتأثر بتوجه الرأي العام والشعور الشعبي ضد أمريكا وإسرائيل.

ولذا فإن كل تحرك من أي حزب أو جهة ضد السياسة الأمريكية والإسرائيلية لا يمكن أن ننعزل عنه وإن كان علينا أن نحدد موقفنا الرافض لكل السياسات الداعمة لأمريكا أو إسرائيل. فنحن نرفض تقديم أي تسهيلات (المرور من قناة السويس وخلافه) وندعو لمقاطعة البضائع الأمريكية

والإسرائيلية ونكشف تسرب التوجه الأمريكي إلى إعلامنا، ونكشف حقيقة العولمة الأمريكية. ونقوم بحملة ضد تهريب الأموال والعقول العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونعتبر الحملات الأمنية المكثفة ضد التحركات الشعبية لمواجهة الهجمة الأمريكية الإسرائيلية خدمة لها. ونرفض السياسات الاقتصادية التي تصب في خدمة الشركات المتعدية الجنسيات ونطالب بتنمية حقيقية تدعم اقتصادنا الوطني ونؤيد ونساند السوق العربية المشتركة ودعم التضامن العربي وتفعيل الاتفاقيات العربية مثل اتفاقية الدفاع المشترك ونرفض الخضوع للضغط الأمريكي المتعدد الأشكال بما في ذلك الضغط الاقتصادي لقبول الخطة الأمريكية لإنشاء شرق أوسط جديد يخدم المصالح اليمينية الأمريكية الإسرائيلية. ونحن في تحديد هذه المواقف ندعو إلى الوحدة الوطنية والوحدة العربية والوحدة مع كل القوى الشعبية في العالم التي تناضل ضد العولمة الرأسمالية. ولا يجب أن نعزل أنفسنا عن أي تواجد جماهيري يتحرك ضد العدوان الأمريكي الإسرائيلي.

ويرتبط بذلك بعض القضايا التي تحتاج إلى تحديد وتوضيح.

ما هو الموقف من التيار الإسلامي ؟

الشعب المصري وبقية الشعوب العربية هي شعوب غالبيتها مسلمة وتتأثر بالأفكار الإسلامية المعتبرة كجزء أساسي من ثقافتها الوطنية. ومن أسباب رفضها للتوجه الأمريكي الحديث اعتقادها بإن هذا التوجه موجه ضد الإسلام. وقد ساعد على هذا الفهم الإجراءات التمييزية التي تساندها الإدارة الأمريكية ضد المسلمين بما فيهم الأمريكيون ذوي الأصول الإسلامية والكتابات الأمريكية وغيرها التي تنظر لذلك والتي تقول بأنه بعد انتهاء الحرب الباردة فإن الصراع الآن موجه ضد الإسلام.

وقد ساعدهم في إقناع جماهيرهم بصحة هذا التوجه الحملة التي وجهت ضد تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن واعتبارهم مسئولين عن أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١. والمعروف أن أسامة بن لادن وأعوانه كانوا يتعاونون بشكل وثيق مع المخابرات المركزية الأمريكية ويتلقون منها المساعدات في حربهم ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. ويقال عنهم الآن

أنهم تحولوا ضد أمريكا بسبب رفضهم لتواجد القوات الأمريكية في السعودية. وسواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح، وسواء أكانوا هم المسئولين عن أحداث ١١ سبتمبر أم لا فإن هذه القصة تستخدم مبرراً لإقناع الشعب الأمريكي وشعوب العالم بالحملة التي تقودها أمريكا ضد ما تسميه بالإرهاب. وهذه المجموعة سواء وجدت أو لم توجد فإنها تخدم في واقع الأمر المخططات الأمريكية أجل خدمة. وإن النداءات التي أذيعت بعد ذلك من قناة الجزيرة والمنسوبة إلى بن لادن والتي تدعو إلى الحرب ضد الصليبيين واليهود تقدم أجل خدمة للدعاية الأمريكية التي تقول أنها تحارب الإرهاب والتي تبرر به الإرهاب الأكبر الذي تقوم به وتخطط له ضد شعوب العالم.

أما بالنسبة للعمليات التفجيرية التي أعلن عنها أخيراً في العربية السعودية والمغرب فهي أيضاً تصب في خدمة هذه الأهداف الإمبريالية. ولهذا فإنني أعتبر أن كل التوجهات التي تتدثر بلباس الإسلام والتي تدعو إلى تقسيم الحركة ضد المستعمر إلى مسلمين وصليبيين ويهود إنما تخدم في حقيقة الأمر المخططات الاستعمارية.

ولكننا نلحظ منذ فترة توجها نقدياً وتجديديا داخل الإخوان المسلمين ينتقد هذه التوجهات ويرفضها ويحاول الارتباط بالحركة العالمية ضد العولمة الرأسمالية. وانطلاقاً من التوجه نحو الوحدة الوطنية من المفيد تشجيع هذا التوجه والتعاون معه. مع استمرارنا في كشف ونقد الاتجاهات المريبة السابق الإشارة إليها.

إن وحدة اليسار لها دور هام في تحقيق هذه المهام. والوحدة لا تعني التطابق أو عدم وجود تعدد أو تنوع بل تفترض هذا التنوع. وإذا كنا ندعو للوحدة الوطنية حول الأهداف المشتركة، فأساسها وجوهرها تحقيق الوحدة بين قوى اليسار. وقد تحققت وحدة العمل وتمارس في التجمعات الأخيرة لمساندة الشعب الفلسطيني والشعب العراقي والتحركات من أجل الحريات وإلغاء قانون الطوارئ. وهذه بداية جيدة ولها إيجابيات كثيرة. وتهدف إلى تحقيق هذه الوحدة في المجالات المختلفة مثل المجال الثقافي حيث توجد جزر ثقافية يسارية متعددة ويمكن أن يكون التعاون بينها مفيداً لها كلها.

وبالنسبة لحزب التجمع كان المفروض في النشأة أن يكون مظلة كل اليسار وقد نجح في تحقيق العمل داخل حزب واحد شمل كل الحلقات اليسارية التي كانت تتصارع في الماضي. وهذا انجاز هام. ولكن الاتجاهات الحلقية القديمة مازالت تظهر أحياناً.

وقيل في بداية نشأة حزب التجمع أنه جبهة في المضمون وحزب في الشكل. ولكنه لم ينجح في تحقيق ذلك. وشيئاً فشيئاً أخذت تتأكد صفته كحزب إلى جانب باقي الأحزاب اليسارية.

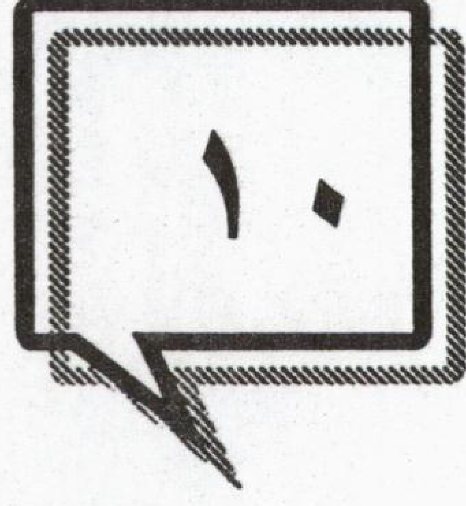
وتثور الآن قضية كيف يصبح التجمع مظلة لكل اليسار ويساعد في تحقيق الوحدة بين قوى اليسار مع تعددها.

هناك نقد كبير من توجهات التجمع خصوصاً وأن التجمع يخرج عن طبيعته كتجمع ويتحول إلى حزب يساري مثل باقي الأحزاب والحركات اليسارية.

ويواجه البعض هذا الواقع بالدعوة إلى حركة موحدة تجمع بين كل القوى اليسارية مع تعددها أي أن تقوم هذه الحركة بالمهمة التي كان من المفروض أن يقوم بها التجمع لو كان قد استمر في المحافظة على مضمونه كتجمع.

ورأيي أن الحل السليم هو تحويل التجمع إلى طبيعته الأصلية كجبهة فلديه الإمكانيات الأكبر للقيام بهذا الدور. وهذا يقتضي الصراع من أجل ذلك داخل التجمع ومن خارجه.

***



العولمة

ومستقبل الصراع العربي الإسرائيلي (*)

(*) نشرت في العدد الثالث من «آفاق اشتراكية» سبتمبر ٢٠٠٤ ص١٩٢.

أثار الحل أو (التهديد) الذي طرحه أحمد قريع رئيس الحكومة الفلسطينية بإقامة دولة واحدة من قوميتين فلسطينية وإسرائيلية إذا لم ينجح في التوصل إلى دولتين إسرائيلية وفلسطينية تعليقات كثيرة. فحل الدولتين الذي قررته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ والذي قابلته الدول العربية بإعلان الحرب على إسرائيل -دون أن تكون مستعدة لهذه الحرب، أو تهدف فعلاً إلى الدفاع عن فلسطين، وقابلته إسرائيل بالاستجابة للحرب وكانت أكثر استعداداً من مجموع الدول العربية الأمر الذي أدى إلى انتصارها وتوسعها. فلم تكتف إسرائيل بالمساحة التي قررتها الأمم المتحدة، بل توسعت بعد الحرب ولم تقم الدولة الفلسطينية حتى الآن ولم يقم العرب بالمساعدة على قيامها وفق قرار الأمم المتحدة بل استولت شرق الأردن في عهد الملك عبد الله على الضفة الغربية وأصبحت جزءًا من الأردن. ووضعت مصر يدها على غزة. ومن الجدير بالذكر أن الجيوش العربية كانت تحت قيادة إنجليزية (الجنرال جلوب).

فالحرب لم تقم للدفاع عن فلسطين، بل جرى اجتماع سري بين الملك عبد الله والوكالة اليهودية اتفقا فيه بعمل كل ما يمكن لعدم قيام فلسطين. واستمرت الدول العربية تعلن رفضها لقيام إسرائيل ولكنها لم تفعل شيئاً لقيام الدولة الفلسطينية. أما إسرائيل فقد كانت تعلن أنها توافق على قرار التقسيم ولكنها لم تنفذه واشتركت في العدوان الثلاثي مع بريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٦ ثم قامت بعدوانها عام ١٩٦٧ وتوسعت نتيجة له فاحتلت سيناء والجولان والضفة الغربية. ولم يدع أحد إلى قيام دولة فلسطين وفقاً لقرار

من بين التنظيمات الشيوعية التي أعيد تأسيسها في أوائل السبعينيات أو قبل ذلك، والتي سبق الحديث عنها، كان الحزب الشيوعي المصري هو الأكثر أهمية. وتكون نتيجة وحدة ثلاث فصائل. وتكونت سكرتارية سياسية من مسئولي الفصائل الثلاثة. وكان زكي مراد هو أحد هؤلاء، وكان له دور أساسي وإيجابي في مواصلة التقاليد الثورية. ومثل مصرعه خسارة كبيرة.

وكان لميشيل كامل دور هام، ولكنه رتب حياته ليعيش في الخارج، في بيروت أولاً، ثم انتقل إلى باريس واستقر فيها ودبر شئونه المعيشية والأسرية لكي يبقى هناك. وسمح له وجوده في الخارج وموقعه في قيادة الحزب الشيوعي المصري أن يقيم علاقات دولية مع الأحزاب الشيوعية العربية والمنظمات الفلسطينية وغيرها من الهيئات التقدمية وكذلك مع الأحزاب الشيوعية في مختلف البلاد. وكان يحضر الاجتماعات الدولية ممثلا للحزب الشيوعي المصري. وقام بنشاط واسع مع ممثلي الأحزاب والقيادات المصرية التي وقفت ضد السادات وخط الردة الذي سار عليه. وشارك في ذلك العمل عدد من المثقفين الذين لجأوا للأقامة في الخارج تفاديا لملاحقة السلطات الأمنية في عهد السادات. وقام معهم بنشاط واسع، ومن ذلك إصداره لمجلة "اليسار العربي" ... ولكن توجهه السياسي الذي كان يظهر في اليسار العربي كان كثيراً ما يختلف عن توجه القيادة الحزبية في مصر. وأصبح يمثل في الخارج مركز قوة مستقل. وخلق بذلك مشكلة ازدواج الخطاب الحزبي في الوقت الذي كان فيه ميشيل يحتكر العلاقات الحزبية الخارجية. ولهذا اتخذت اللجنة المركزية قرارا بضرورة عودة القياديين المقيمين في الخارج. وحدث توتر في العلاقة بين المركز ولجنة الخارج بقيادة ميشيل كامل الذي رفض العودة.

الأمم المتحدة، رغم أن عبد الناصر في مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ دعا لأول مرة إلى تنفيذ قرار الأمم المتحدة الذي يقضي بقيام دولتين أحدهما إسرائيل التي قامت بالفعل وإلى قيام دولة فلسطين. وبعد حرب ١٩٦٧ وافق على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ و٣٣٨ الذي تقضي بجلاء القوات الإسرائيلية عن الأراضي المحتلة. وقد دعا أحمد بهاء الدين لأول مرة في كتاباته في السبعينيات إلى قيام دولة فلسطينية على الضفة الغربية وغزة. وقررت منظمة التحرير الفلسطينية في اجتماعها بالجزائر لأول مرة الموافقة على قراري ٢٤٢، ٣٣٨ بما يعني الاعتراف بقيام دولتين إسرائيل وفلسطين ونص القرار على إقامة الدولة الفلسطينية على أي شبر يتحرر من الأراضي الفلسطينية. وفي هذا الإطار وقع الاتفاق الذي سمح بإقامة حكم ذاتي للفلسطينيين في غزة وأريحا أولاً على أن يتم التفاوض بعد ذلك حول باقي الضفة الغربية.

وانتقلت منظمة التحرير الفلسطينية من تونس التي كانت قد استقرت فيها بعد العدوان على لبنان إلى الأراضي الفلسطينية وتكونت السلطة الفلسطينية المستقلة بدءًا في غزة وأريحا واتفق على استمرار التفاوض لانتقال السلطة تدريجياً لباقي أراضي الضفة الغربية. وقد عقد هذا الاتفاق بعد الانتفاضة الفلسطينية الأولى وبعد مؤتمر مدريد. ولكن إسرائيل استمرت تماطل لعدم تحريك الأمور.

نشر في جريدة " مونتريال جازيت " التي تصدر في كندا رسالة بعث بها مورلون لانج بعنوان " لم يكن هناك وجود لفلسطين " جاء فيها أن غالبية المؤرخين اليوم يعترفون بأن قبول إسرائيل للتقسيم في عام ١٩٤٧ كان مجرد حركة تكتيكية للوصول إلى هدفها وهو غزو كل فلسطين. ففي عام ١٩٣٧ أعلن دافيد بن جوريون الذي أصبح فيما بعد أول رئيس وزراء لإسرائيل: "إن قبول التقسيم لا يلزمنا بترك شرق الأردن Trans Jordon. سنقبل اليوم دولة بحدود معينة، ولكن حدود التطلعات الصهيونية هو قضية تخص الشعب اليهودي. ولا يقيدها أي عامل خارجي":

وفي ١٩٤٨، بعد قيام إسرائيل أكد مناحم بيجن الزعيم الإرهابي الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء إسرائيل " أن تقسيم الوطن غير شرعي. ولا يقيد الشعب اليهودي، فاريتس إسرائيل (إسرائيل التوراة) سترد إلى شعب إسرائيل".

وعلى عكس مزاعم إسرائيل، لم يكن العرب دائماً معادين لوجود اليهود بينهم. والحقيقة أنه لقرون عديدة، مع استثناءات قليلة نادرة، كان اليهود الهاربين من معاداة السامية الأوروبية يجدون ملجأ لهم في البلاد العربية. وزرعت بذور الكراهية في عام ١٩٠٠ عندما حارب الفلسطينيون إلى جانب بريطانيا لتحرير فلسطين من الحكم العثماني ثم تبينوا أن هدف الصهاينة ليس التعايش وإنما السيطرة والتوسع الإقليمي. وقد أكد التاريخ تخوفاتهم.

وفي عام ١٩٤٧ عندما رفضت الحكومات العربية العميلة للاستعمار البريطاني قرار التقسيم الصادر عن هيئة الأمم المتحدة ودخلت الحرب كانوا يهدفون في حقيقة الأمر إلى إلهاء الشعب المصري وغيره من الشعوب العربية عن النضال من أجل التحرر من الاستعمار وتوجهوا بجيوشهم بقيادة الجنرال جلوب الإنجليزي مستغلين المشاعر الشعبية الغاضبة من أجل فلسطين وأشعلوا حرباً ضد اليهود لصرف أنظار شعوبهم عن هدف التحرير من الاستعمار البريطاني. في هذا الوقت انفرد الشيوعيون المصريون برفض الحرب وأكدوا أن المعركة الحقيقية هي لتحرير بلادهم من الاستعمار البريطاني، وقبلوا قرار التقسيم كي لا يتورط الشعب المصري في حرب لأهداف غير حقيقية.

واتهم الشيوعيون وقتها بالخيانة وأودعوا المعتقلات ووجهت لهم مختلف التهم. وقد كانوا هم في الحقيقة الحريصون على مصالح بلادهم لتجنيها حربا لا تخدم إلا مصالح المستعمر. ثم كشف بعد ذلك عن فضيحة الأسلحة الفاسدة التي كانت تنفجر في الجنود والضباط وكشف عن تآمر القادة العرب مع المستعمرين.

وتأسست إسرائيل وكان المفروض أن تقتصر على الحدود التي حددها قرار هيئة الأمم المتحدة، ولكن إسرائيل كان لها منذ البداية أهدافها في التوسع والعمل على السيطرة على كل فلسطين، أما الدول العربية فلم تفعل شيئاً لإقامة دولة فلسطين بخلاف الصياح والدعوة الديماجوجية لتحرير فلسطين.

وأعلنت "الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا" في بيان مشترك حمايتها لإسرائيل وكان هذا البيان يعني حماية توسعاتها، ولم تفعل شيئاً ضد هذا التوسع.

وحالياً يصرح بوش وشارون علناً بأنهما يوافقان علي قيام دولة فلسطين إلى جانب دولة إسرائيل ويحدد شارون لدولة فلسطين جزءًا من الضفة الغربية وينشئ جداراً عازلاً يقتطع جزءًا كبيراً من الضفة الغربية، ويفعل كل ذلك بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية ، ويماطل في قبول التفاوض وتسانده أمريكا وترفض التعامل مع رئيس السلطة الفلسطينية المنتخب[١]. وفي المفاوضات مع أحمد قريع يقدم شارون طلبات مستحيلة مثل المطالبة بتصفية المنظمات التي يعتبرها إرهابية مثل حماس والجهاد في الوقت التي تؤدي الاستفزازات المستمرة والعدوان المستمر على الشعب الفلسطيني ومواصلة الاغتيالات وتدمير المساكن والسطو الخ إلى تأجيج الصراع واستمراره ومواصلة العمليات الإسرائيلية العدوانية والإرهابية والمساندة الأمريكية الكاملة لها. الآن لا يمكن قيام دولة فلسطينية بقرار دولي ليس فقط لأن إسرائيل ترفض تنفيذ ذلك بل أساساً لأن الولايات المتحدة تساندها بالفعل لمنع تحقيق ذلك.

انهم يعلنون أنهم يريدون دولتين ويمنعون بكل السبل تحقيق ذلك: بالقوة العسكرية وبالفيتو الأمريكي.

ما هـــو الحل ؟

هذه هي القضية التي طرحها أحمد قريع رئيس الحكومة الفلسطينية. لقد أصبح تحقيق قيام دولتين أمراً مستحيلاً بفعل الحكومة الإسرائيلية وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وينكشف كل يوم الهدف الحقيقي لحكومة إسرائيل ألا وهو الإبقاء على دولة واحدة وحيدة هي إسرائيل وامتدادها وتوسعها إلى باقي الأراضي الفلسطينية والسعي الفعلي رغم الكلام والوعود إلى تحقيق "اريتس فلسطين" (إسرائيل التوراة) ومنع قيام دولة فلسطين. هذه هي سياسة شارون الحقيقة.

---

(١) الرئيس الراحل ياسر عرفات.

وماذا يفعلون بالفلسطينيين:

هناك من ينادون بالترانسفير (أي نقل الفلسطينيين إلى خارج إسرائيل). وقد بدأ ذلك بالفعل من مدة. ويوجد بالفعل خارج الأراضي الفلسطينية من ٤ إلى ٥ مليون. وترفض إسرائيل عودتهم. بل وهناك من يهدد الباقين بالطرد. والحفاظ على الطابع اليهودي للدولة الإسرائيلية. وهو الأمر الذي يؤكده شارون وغيره من الزعماء اليهود من حزب الليكود بل وحزب العمل. ويؤكد ذلك بوش أيضا. وبذلك يقفون من العرب موقفاً عنصرياً، فهم لا يعاملونهم معاملة متساوية مع اليهود ومن ينتقد هذا الوضع يعتبرونه معادياً للسامية.

هذا في الوقت الذي يدعون فيه إلى العولمة تحت قيادة حكام الولايات المتحدة الأمريكية، والدعوة لأي عولمة بديلة تعترف بالتساوي بين الأجناس ومساواتها يعتبرونها معادياً للسامية.

ويمارسون الآن " تحت واجهة العولمة الأمريكية " سياسة الأبارتهايد ويعيدون تجربة جنوب أفريقيا وهي سياسة عنصرية تتعارض كلية مع العولمة التي تتفق مع مصالح الشعوب، التي تؤيدها شعوب العالم، التي لا تفرق بين شعب وآخر، العولمة التي تستفيد منها كل الشعوب، العولمة التي لا تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا، العولمة البديلة التي تهدف إلى استفادة الجميع لما ينجزه العلم والتكنولوجيا من تقدم، عولمة لا تفرق بين شعب وآخر.

إننا نرفض الصراع بين الشعوب، والعداء بين الأجناس، ونرفض الحرب. ونرفض الصراع والعداء بين الأديان. ولذلك فنحن نرفض الدعوة للعداء لليهود، كما ندين الدعوة لنشر الكراهية ضد المسلمين أو المسيحيين أو أي دين من الأديان. فعداءنا للصهيونية ورفضنا لها ليس عداء لليهود أو رفضا لهم. بل ندعو إلى الصداقة والسلام بين كل الشعوب وكل الأديان.

إن من يشعلون الحرب ضد الشعوب لا يشعلونها لصالح أي شعب من الشعوب بل ضد مصالح كل الشعوب. فمن يدعون للحرب ويهدفون إلى ازدياد الأغنياء غنى والفقراء فقرا ويدعون إلى القتل والدمار إنما يفعلون ذلك لكي يزدادوا غنى وثراء على حساب الشعوب.

يجمع الناس على أن الصراع في الشرق الأوسط بين إسرائيل والفلسطينيين هي النقطة الأكثر سخونة في العالم خصوصاً بعد أن تدخلت الولايات المتحدة في هذا الصراع مساندة لإسرائيل وللحركة الصهيونية. ورغم أن غالبية شعوب العالم تقف ضد هذا العدوان وتجد أن الخطر على السلام في العالم يأتي من القيادة الصهيونية في إسرائيل التي تساندها عصابة المحافظين الجدد (أو المسيحيين المتعصبين) الذين يسيطرون حالياً على السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد عدوان إسرائيل في ١٩٦٧احتلت إسرائيل مجمل أراضي الضفة الغربية إلى جانب سيناء والجولان السورية. ومازالت حتى الآن تحتل الضفة الغربية. وتطالب السلطة الفلسطينية ومجمل الدول العربية بالسلام مع إسرائيل مقابل انسحابها من الأراضي العربية التي تحتلها. وفيما كانت تطالب فيما مضى قبل حرب ٦٧ بانسحاب إسرائيل من كل الأراضي الفلسطينية منكرة وجود إسرائيل على اعتبار أن إسرائيل هي عبارة عن فلسطين المحتلة. انحصرت مطالبتها الآن بالانسحاب من الضفة الغربية ومن أراضي فلسطين القديمة وقيام دولة فلسطين. وتزعم الإدارة الأمريكية الآن ويجاريها شارون في ذلك بأنهم يعترفون بضرورة قيام دولة فلسطين ولكن تزعم أن تحقيق ذلك لا يتحقق إلا بمقتضى التفاوض بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل. وأصبحت السلطة الفلسطينية وباقي الدول العربية لا تطالب بتحرير مجمل الأراضي الفلسطينية كما كانوا يطالبون من قبل، ولكنهم يريدون إقامة دولة فلسطين على الأراضي المحررة من الضفة الغربية وغزة، وتنازلوا عن كل المطالبات السابقة بتحرير مجمل أراضي فلسطين. بل وإنهم يحرمون حتى من إعلان دولة فلسطين على الأجزاء التي تتحرر من الضفة الغربية. وتنذر إسرائيل ووراءها أمريكا بالتحذيرات إن تم ذلك وليس هذا موقف إدارة بوش وحدها، بل أكد ذلك كلينتون من قبل وهدد القيادة الفلسطينية بأن أي إعلان منفرد للدولة الفلسطينية لن يعترف به، وتهدد إسرائيل بأن أي مواقف منفردة لن تعترف بها، وتهدد باحتلال مجمل الضفة الغربية. والواقع أن إسرائيل الآن لا تعترف بالسيادة الكاملة للسلطة الفلسطينية حتى دون أن يتم هذا الإعلان. والقوات الإسرائيلية منذ الانتفاضة الثانية مستمرة في عدوانها، وغزوها لأراضي الضفة الغربية وغزة وتمارس فيها الاعتقالات والاغتيالات وهدم المنازل وجرى حصار الرئيس عرفات،

الرئيس المنتخب للفلسطينيين وتحديد إقامته في رام الله. وتواصل اعتداءاتها على مختلف المدن الفلسطينية وبدأت في بناء جدار عازل يقتطع جزءًا من الأراضي الفلسطينية بحجة حماية إسرائيل من الإرهابيين.

وتستند إسرائيل في هذا العدوان و استمراره وتوسعه على القوة العسكرية، وانفرادها بامتلاك الأسلحة النووية والقوة العسكرية والتهديد العسكري الأمريكي وتتحول باقي الدول الموجودة في مجلس الأمن بلا فاعلية فلا يمثلون أي شرعية دولية في مقابل الفيتو الأمريكي الذي يستخدم للحماية المستمرة للعدوان الإسرائيلي المستمر والمتصاعد.

وينظر اليمين المسيطر حالياً على إسرائيل والذي يتعاون معه بشكل كامل المحافظون الجدد الأمريكيون والأصوليين في الجنوب الذين ينتمون إلى طوائف البروتستانتيين والإنجيليين والتعميديين، وهذا اليمين الديني يؤمن أن الرب منح أرض فلسطين كلها لليهود.

هناك قضايا مبدئية :

الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين لا يمكن أن يحل بالحرب. ولا يمكن حله باعتبار أنه صراع بين اليهود والشعب الفلسطيني ومجموع الشعوب العربية وإذا كنا ننادي بالعولمة فذلك يفرض أنه من حق جميع الشعوب وجميع الأديان أن تعيش جنباً إلى جنب وتتعايش معاً. فلا تعارض في المصالح بين أي شعب وآخر وبين أي دين وآخر. فالجميع لهم حق العيش والبقاء على هذه الأرض والانتفاع بشكل متساو بخيراتها.

العنصرية ليست في صالح البشرية وكذلك معاداة أي جنس من الأجناس أو الدعوة لسيادة أي جنس على غيره من الأجناس. ويرفض العالم أيضاً معاداة السامية. ولكن ليس معنى ذلك أن يعلن اليهود تفوقهم على باقي الأجناس. ونحن ندين المذابح التي ارتكبت في أوروبا ضد اليهود التي قام بها النازيون أو غيرهم.

وأرض فلسطين لا تخص جماعة قومية أو دينية واحدة بل هي تخص كل من يعيشون وولدوا وأقاموا فيها. أما القول بأن إسرائيل هي دولة يهودية وتخص اليهود وحدهم فهو دعوة عنصرية وتتخذ مبرراً للتطهير العرقي.

وعلى أساس هذا المفهوم قام الصهاينة بعمليات الإبادة ضد الفلسطينيين وطردهم من بلادهم ومنعهم من العودة إليها.

وكذلك نرفض القول بأن فلسطين هي بلد العرب وحدهم ويجب طرد اليهود منها. ولن يتحقق السلام في ظل هذه الدعوات.

وإذا نظرنا إلى الوضع الحالي والممارسات التي يمارسها الصهاينة الذين يحكمون إسرائيل، فإنهم يقفون موقفاً عنصرياً يكفل استمرار الصراع والحروب المستمرة ولن يستفيد من ذلك لا اليهود ولا العرب الذين يقيمون في هذه الأرض.

ومع التوسع الإسرائيلي طالب الفلسطينيون لمدة طويلة بدولة علمانية واحدة يعيش فيها اليهود والعرب معاً ويتعاونون معاً على قدم المساواة. واليوم يطالب الفلسطينيون بدولة لهم وبحق العودة والوجود في الأراضي التي عاشوا فيها.

إن الدعوة الآن إلى عولمة تطرد الفلسطينيين وتمنعهم عملياً من حق الوجود في أرضهم ومنع عودة من أجبروا على ترك بلادهم والاستيلاء على أراضيهم ورفض أي حلول تسمح بوجود الشعبين على هذه الأرض والتمسك بتأكيد يهودية دولة إسرائيل متجاهلين وجود العرب ومحاولة تقليصهم ورفض عودتهم إلى بلادهم هو موقف عنصري ونضال الفلسطينيين ضد هذا الوضع هو نضال ضد الأبارتهايد ويعيد من جديد تجربة جنوب أفريقيا.

إن العولمة الحقيقية هي التي تضمن للشعوب المختلفة الحق في التواجد على أراضيها لا تفرقة بين شعب وآخر وبين دين وآخر. وإن مساندة الإدارة الأمريكية لحكام إسرائيل في هذه السياسة العنصرية يجعل الحديث عن العولمة هو حديث عن هيمنة عنصرية استعمارية معادية لمصالح الشعوب. والشعوب تسعى إلى عولمة بديلة تتفق مع تطورها وترابطها وأخائها وتقدمها.

إن الحديث عن دولة واحدة تضم العرب واليهود هو الحل النهائي الذي يتفق مع مصالح الشعوب ومع العولمة الحقيقية.

وهذا لا يعني أن يرفض العرب كحلول مؤقتة إمكانية إقامة دوليتين فلسطينية وإسرائيلية كخطوة مرحلية تتفق مع اقتناع غالبية شعوب العالم حاليا.

وفي اللقاء الأخير الذي تم في إبريل الماضي بين بوش وشارون أعلن بوش موقفاً جديداً للإدارة الأمريكية ساند فيه الدعوة إلى الاحتفاظ بعدد من المستوطنات في الضفة الغربية وعدم عودة اللاجئين الفلسطينيين وأكد مرة أخرى على الطابع اليهودي لدولة إسرائيل. وهو نفس الموقف الذي تتخذه إسرائيل ضاربة عرض الحائط بالشرعية الدولية وبقرار التقسيم الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة والذي على أساسه قامت دولة إسرائيل والذي كان يقضي أيضاً بقيام دولة فلسطين.

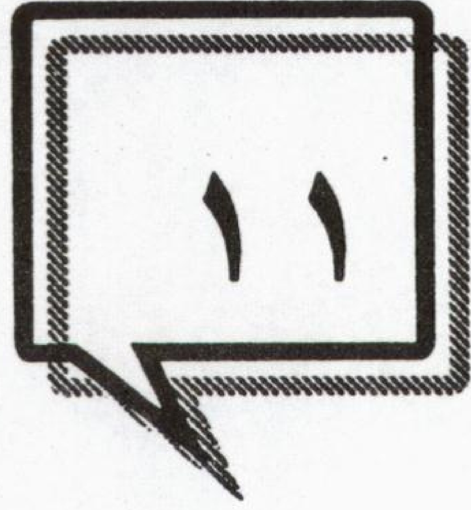
وتسن بذلك قيادة بوش ومعه شارون قاعدة جديدة تضرب عرض الحائط بما يقرره المجتمع الدولي عن طريق هيئة الأمم المتحدة، وتضع مبدأ جديدا يعطي للولايات المتحدة الحق في فرض كل ما تراه متفقاً مع المجموعة المسيطرة ويتفق مع مصالحها الاستغلالية.

ان موافقة غالبية المجتمع الدولي على قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ وموافقة الشيوعيين المصريين والعرب على هذا القرار لم يكن يعني أنهم يعتبرونه أفضل الحلول أو أنه الحل الأمثل. ولكنه كان يعني أنه الحل الممكن والسلمي للنزاع القائم.

وإذا كان هذا الحل أو كل الاقتراحات والعروض التي قدمت بعدها وأكدتها هيئة الأمم المتحدة لم تؤدي إلى حل سلمي ولا يبدو أنها ستؤدي إلى ذلك بسبب تعنت إسرائيل ومساندة الإدارة الأمريكية فلا حاجة للعرب أن يقدموا تنازلات بل عليهم أن يتمسكوا بالحل العادل الذي يكفل أن يعيش العرب واليهود في بلد واحد ويسود بينهم سلام. وهم يحتاجون إلى جهد طويل والعمل في المجالات المحلية والدولية وكسب الرأي العام العالمي للدفاع عن هذا الحل.

فالحلول التي يقدمها بوش وشارون لا يمكن أن تكون أساساً للتفاوض، لأنها حلول تقوم على العنصرية والأبارتهايد والتسليم بشرعية الاحتلال والضم، وهو أمر لا يمكن مبدئياً أن تقبله الشعوب العربية أو أي شعوب في العالم ولا يتفق مع مصالح السلام والتعاون والمساواة بين الشعوب.

***



الاشتراكية هي المستقبل «١» (•)

بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين
لقيام جمهورية الصين الشعبية

• نشرت في «آفاق اشتراكية» العدد الرابع (مايو ٢٠٠٥) ص١٥٦.